

OSTOUR سأطور

مجلة أبحاث تاريخية علمية محكمة
A Bi-annual Peer-reviewed Journal for Historical Studies

العدد 23 - تموز / يوليو 2025
Issue 23 - July 2025

p-ISSN 2410-0870 | e-ISSN 2789-3251

OSTOUR سياطور

Academic Advisory Committee الهيئة الاستشارية

Ahmed Abu shouk	أحمد أبو شوك
Burhan koroğlu	برهان كوراوغلي
Jamaa Baida	جامع بيضا
Jocelyne Dakhli	جوسلين داخلية
Halima Ferhat	حليمة فرحات
Hayat Al Hajji	حياء الحجي
Halet Eren	خالد إرين
Khalid Ziadeh	خالد زياده
Hayrettin Yucsoy	خير الدين يوجه سوي
Sayyar Al-Jamil	سبار الجميل
Seyyed Hossein Nasr	سيد حسين نصر
Abdel-raouf Sinno	عبد الرؤوف سنو
Abdulmajid Kaddouri	عبد المجيد القدوري
Fethi Iissir	فتحي ليسير
Muhammed Arnaut	محمد الأرنؤوط
Mohamed Almoubaker	محمد المبرك
Mohammed Harb Farzat	محمد حرب فرزان
Muhammad Adnan Al-Bakhit	محمد عدنان البخيت
Moza Aljaber	موزة الجابر
Nacereddine Saidouni	ناصر الدين سعيدوني
Houari Touati	هوارى تواتي
Wajih Kawtharani	وجيه كوثراني

Copy-Editing

Abdelwaheb Souissi	عبد الوهاب سويسبي
Amel Fayeck	أمال فياش
Nabil Hussein	نبيل حسين

Design and Production

Ahmad Helmy	أحمد حلمي
Souhail Jelladi	سهيل جلاوي
Moustafa Abuelmass	مصطفى أبوالماس

تصميم وإخراج

أحمد حلمي
سهيل جلاوي
مصطفى أبوالماس

Editor-in-chief

Abderrahim Benhadda

رئيس التحرير

عبد الرحيم بنحاد

Managing Editor

Ayat Hamdan

مدير التحرير

آيات حمدان

Editorial Secretary

Omar Almagharebi
Dalya Younis

سكرتيرة التحرير

عمر المغريبي
داليا يونس

Editorial board

Amal Ghazal
Cengiz Tamar
Lahcen Hafidi Alaoui
Hayet Amamou
Dina Rizk Khoury
Adel Manna
Abdelahad Sebti
Abdelhamid Henia
Abdulrahman Alebrahim
Abdullatif Al Humaidan
Amr Osman
Fatima Al Zahraa Guechi
Mohammad Jamal Barout
Mohamed Houbaida
Mustafa Aquil
Nasser Soliman
Naglaa Mekkawi
Nahar Nori
Hind Abushaar

هيئة التحرير

أمل غزال
جنكيز تومار
حسن حافظي علوي
حياء عمادو
دينا رزق خوري
عادل مناع
عبد الاحد السبتي
عبد الحميد هنية
عبد الرحمن الإبراهيم
عبد اللطيف الحميدان
عمرو عثمان
فاطمة الزهراء قشي
محمد جمال ياروت
محمد حبيدة
مصطفى عقيل
ناصر سليمان
نجلاء مكاوي
نهار نوري
هند أبو الشعر

جميع المراسلات باسم رئيس التحرير على العناوين التالية:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، شارع الطرفة، منطقة 70، وادي البنات، الطعائن، قطر

هاتف: 40356888 - 00974 | فاكس: 44831651 - 00974

أو على البريد الإلكتروني للمجلة: ostour@dohainstitute.edu.qa

OSTOUR سأطور

دورية نصف سنوية علمية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية
A Bi-annual Peer-reviewed Journal for Historical Studies

العدد 23 - تموز / يوليو 2025
Issue 23 - July 2025

لا تعبر آراء الكُتّاب بالضرورة عن اتّجاهات يتبنّاها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



جميع الحقوق محفوظة لمعهد الدوحة للدراسات العليا
والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات





Contents المحتويات



Articles

- Odile Moreau
From Imposed Peace to Peace Subject to Renegotiation
- Mahmoud Haddad
The Significance of Lausanne for Arabs and Turks
- Elizabeth F. Thompson
The Exclusion of Arabs at Lausanne:
A Decisive Historical Turn
- Mohammed Jamal Barout
Alongside the Lausanne Negotiations: The Belated
Arab-Turkish Reconciliation Agreement
- Wajih Kawtharani
Separating Sultanate from Caliphate: The Historical
Context and Consequences of "The Caliphate and the
Authority of the People" for Arab-Islamic Thought
- Azmi Özcan
The End of the Ottoman Caliphate and Muslims of the
Subcontinent

دراسات

- 5
أوديل مورو
من هدنة مودروس إلى مؤتمر لوزان: من السلام
المفروض إلى السلام الخاضع لإعادة التفاوض
- 22
محمود حدّاد
معاني لوزان عند العرب والأتراك
- 43
إليزابيث ف. تومسون
إقصاء العرب في لوزان: منعطف تاريخي حاسم
- 64
محمد جمال باروت
على هامش مفاوضات لوزان: اتفاقية صلح عربي
حجازي - تركي بعد فوات الأوان
- 81
وجيه كوثراني
وثيقة تفريق السلطنة عن الخلافة "الخلافة وسلطة
الامة": سياقها التاريخي وتداعياتها في الفكر العربي
الإسلامي
- 98
عزمي أوزجان
نهاية الخلافة العثمانية ومسلمو شبه القارة

Translations

- François Dosse
Translated by: Anas Riri
History and Psychoanalysis: The Genealogy of a
Relationship

ترجمات

- 115
فرانسوا دوس
ترجمة: أنس ريري
التاريخ والتحليل النفسي: جينالوجية علاقة





Book Reviews 141 مراجعات كتب

- Sayyar Jamil 143 سيار جميل
Atatürk. Eine Biographie By Klaus Kreiser
أأتاتورك: سيرة حياته، لكلاوس كرايزر
- Mothana Almasri 151 مثنى المصري
Wadi Musa and Petra in the Nineteenth and Twentieth Centuries
وادي موسى والبترا في القرنين التاسع عشر والعشرين
- Youness Ghab 161 يونس غاب
"He Used to Love the Truth": Confessions of a Historian who Witnessed France's Defeat against Nazi Forces
"كان يعشق الحقيقة": اعترافات مؤرخ شاهد على هزيمة فرنسا أمام القوات النازية

Classics: Seminal Works 169 كلاسيكيات: أعمال مؤسّسة

- Hamilton Gibb 171 هاملتون جب
Translated by: Taher Kanaan
The Achievement of Saladin
ترجمة: طاهر كنعان
إنجازات صلاح الدين الأيوبي
- Ahmed Mohamed Sheir 181 أحمد محمد شعير
Hamilton Gibb and His Works on Islam and the Crusades: Between the Mirror of Orientalism and History
هاملتون جب وأعماله عن الإسلام والحروب الصليبية بين مرآة الاستشراق والتاريخ

Primary Sources 201 وثائق ونصوص

- Mouayed Mnari 203 مؤيد مناري
Ottoman Documents on the House of Hussein Pasha of Tunis in Istanbul
وثائق عثمانية حول دار حسين باشا تونس في مدينة إستانبول

Ostour Symposium 223 ندوة أسطور

- Souad Abou El-Rousse Slim 225 سعاد أبو الروس سليم
Importance of the Serial and Quantitative Methodology in History and its Application in the History of Lebanon
أهمية منهجية التاريخ التسلسلي والكمي في كتابة تاريخ لبنان
- Khaled Ziadeh 238 خالد زيادة
The Historiography of Lebanese Cities
التاريخ للمدن اللبنانية
- Simon Abdelmassih 253 سيمون عبد المسيح
Local History in Mount Lebanon in the First Half of the Twentieth Century
التاريخ المحلي في جبل لبنان في النصف الأول من القرن العشرين



دراسات Articles



من هدنة مودروس إلى مؤتمر لوزان من السلام المفروض إلى السلام الخاضع لإعادة التفاوض From Imposed Peace to Peace Subject to Renegotiation

تتناول هذه الدراسة نظام احتلال الإمبراطورية العثمانية الذي بدأ تنفيذه مباشرة بعد الهدنة، والأهداف التي حركت القوى المتحالفة، وذلك لفهم دوافع هذه المرحلة الانتقالية التي أعادت تشكيل المشهد في الشرق الأوسط. وتركز محاور الدراسة على مشاريع ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهي: مؤتمر سان ريمو ومعاهدة سيفر ومؤتمر الحلفاء في باريس تمهيداً لمؤتمر لندن ومؤتمر لندن للحلفاء والبعثات الدبلوماسية المُرسلة إلى الأناضول وهدنة مودانيا والتحضير لمؤتمر السلام في الشرق. وتخلص إلى أن معاهدة لوزان أدت إلى تعزيز نظام جديد في الشرق الأوسط، لكنها أيضاً دقت ناقوس نهاية القواعد التي تحكم العلاقات الدولية والتي أرسنها معاهدة فيينا لعام 1815، بعد الحروب النابليونية.

كلمات مفتاحية: معاهدة سيفر، مؤتمر لوزان، الاحتلال العثماني، حرب الاستقلال التركية، المسألة الشرقية.

This study focuses on the occupation of the Ottoman Empire directly after the truce and the goals that motivated the Allied Powers, seeking to understand this transitional period that reshaped the landscape of the Middle East. The study's sections discuss projects after the First World War such as the San Remo Conference; the Treaty of Sèvres; the Allied conference in Paris in preparation for the conference in London; the diplomatic delegations to Anatolia (1921); and the Armistice of Mudanya and preparations for the peace conference in the East. The study concludes that the Treaty of Lausanne consolidated a new order in the Middle East but also sounded the death knell of the norms of international relations set forth by the Conference of Vienna (1815) following the Napoleonic Wars.

Keywords: Treaty of Sèvres, Lausanne Conference, Ottoman Occupation, Turkish War of Independence, Eastern Question.

* أستاذة التاريخ في جامعة مونبلييه بول فاليري في فرنسا، حاصلة على الدكتوراه في التاريخ من جامعة باريس الرابعة (سوربون).
Professor of History at Paul Valéry University, Montpellier, France. She holds a PhD. in History from Paris-Sorbonne University (Paris IV).

moreau.richard.mena@gmail.com

قام بترجمة هذه الدراسة جان جبّور، باحث ومترجم سوري.
This Study was Translated by Jean Jabbour, University Professor, Researcher, and Translator.

jabbour.jean@yahoo.com

مقدمة

عندما عبرت أساطيل الحلفاء مضيق الدردنيل، لم يكد صوت الأسلحة قد هدأ بعد في نهاية الحرب العالمية الأولى، في هذه الأثناء لم تكن قد مرت ثلاثة أعوام على فشل حملة الدردنيل عام 1915، التي وضعتهم في موقف حرج. كانت أساطيل الحلفاء تتجه مسرعة نحو إسطنبول لتنفيذ هدف غير معروف، إضافة إلى أن هدنة مودروس (1918) فرضتها بريطانيا العظمى على الإمبراطورية العثمانية على نحو شبه أحادي؛ إذ جرى تجاوزها باحتلال عاصمة الإمبراطورية بالأمر الواقع. كان كل هذا يدل على معاهدة سيفر (1920)، وكانت بمنزلة الضربة القاضية؛ ما وضع الإمبراطورية العثمانية تحت هيمنة شبه استعمارية.

وبعد أقل من أربع سنوات على نهاية الحرب العالمية الأولى، عُقد مؤتمر دولي لم يكن متوقعًا آنذاك، جمع حول طاولة واحدة قوى الحلفاء السابقة وممثلي مجلس الأمة الكبير لتركيا، عقب حرب استقلال ناجحة.

ما مشاريع الحلفاء لإنهاء الحرب في الشرق الأوسط، وخاصة فيما يتعلق بإسطنبول والأناضول في تلك الأثناء؟ نستعرض المفاوضات الدبلوماسية بين الحلفاء، وخصوصًا التباين في المواقف بين فرنسا والمملكة المتحدة. تتيح لنا هذه المقاربة توضيح كيف جرى تبني هذا المشروع الفريد لوضع المنطقة تحت الوصاية. وهكذا، سبرز كيف أدت فرنسا دورها الخاص تجاه المملكة المتحدة، وكيف تقربت من الوطنيين الأتراك في أنقرة، وكيف دعمتهم، بما في ذلك خلال مؤتمر لوزان.

تناول عدد قليل من الأبحاث نظام احتلال الإمبراطورية العثمانية الذي بدأ تنفيذه مباشرة بعد الهدنة، والأهداف التي حركت قوى الحلفاء. ويبدو لنا أن هذا الأمر بالغ الأهمية لفهم دوافع هذه المرحلة الانتقالية التي أعادت تشكيل المشهد في الشرق الأوسط. سننظر إلى هذا الأمر من منظور الانتقال من سلام مفروض بعد هدنة مودروس، إلى سلام يُعاد التفاوض بشأنه بعد هدنة مودانيا، التي فتحت الباب لإعادة التفاوض حول معاهدة سيفر.

كان الهدف المحدد لمؤتمر السلام المقرر انعقاده في لوزان تعزيز السلام والاستقرار في الشرق. وكان يُنظر إليه باعتباره "سلامًا شاملًا". وكانت المصطلحات المستخدمة آنذاك هي "مؤتمر الشرق" أو "المؤتمر حول شؤون الشرق". في الواقع، جرى تصور المؤتمر الذي سيعقد في لوزان بوصفه تمهيدًا للحل النهائي لمسألة الشرق، وكان من المقرر أن يعيد رسم الحدود، ويسعى لإنشاء نظام جديد في الشرق الأوسط. وتبين هنا ثقل المسألة الشرقية، التي كانت محورية في العلاقات الدولية منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وكانت أيضًا واحدة من أكثر المسائل الشائكة على مدى قرن ونصف⁽¹⁾. هذه المسألة التي بدت معقدة جدًا، إن لم تكن غير قابلة للحل، فإنها أثرت تأثيرًا كبيرًا في مسار العلاقات الدولية خلال قرن ونصف. وكما في لعبة المحاكاة، فإن نظير المسألة الشرقية بالنسبة إلى العواصم الغربية، من منظور الإمبراطورية العثمانية والشرق، هو "المسألة الغربية".

كانت المسألة الشرقية بمنزلة الإطار الذي أسفر عن الانتقال المضني من الإمبراطورية إلى دول قومية متعددة، منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر وحتى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وتتمثل أحد أبعاد المسألة الشرقية في المنافسة والتفاعلات أو المواجهات التي نشأت بين القوى الأوروبية حولها. فقد ازداد عدد الأطراف الفاعلة في هذه التفاعلات تدريجيًا، بدءًا من فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا، ثم انضمت إليها آخر دولتين برزتا على الساحة الدولية، وهما إيطاليا وألمانيا. وقد أدى نمو المصالح الاستراتيجية والاقتصادية للقوى الكبرى في الإمبراطورية العثمانية إلى تطور التنافس بينها؛ ما أسفر عن علاقات مزاحمة قوية.

1 Moreau Odile, *L'Empire ottoman au XIXième siècle* (Paris: Armand Colin, 2020).

في هذا الصدد، كانت هناك معاهدتان ذواتا أهمية خاصة لمستقبل الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر؛ أولاهما، معاهدة باريس (1856)، التي وُقعت في نهاية حرب القرم، حيث حاربت فرنسا وبريطانيا العظمى إلى جانب الإمبراطورية العثمانية ضد روسيا التي أعلنت الحرب عليها. بعد هذه الحرب، انضمت الإمبراطورية العثمانية إلى "الوفاق الأوروبي" بوصفها دولة منتصرة. أما الحرب التالية ضد روسيا (1877-1878)، فقد خاضتها الإمبراطورية العثمانية. وكانت نتيجة هذه الحرب الجديدة كارثية بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية، وانتهت بمعاهدة برلين، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وكانت إحدى الخطوات نحو حل المسألة الشرقية، أو على الأقل تحقيق استقرارها، لتجنب صراع كبير في الأراضي الأوروبية. وقد نتج من المعاهدة خسارة كبيرة للأراضي في البلقان وعلى الحدود الشرقية للإمبراطورية العثمانية. ولم ترَضِ الحدود التي رُسمت في البلقان السكان المحليين، ومن ثم فشلت المعاهدة في وضع حدٍّ للتوترات.

بعد غزو إيطاليا لطرابلس الغرب في خريف 1911، اندلعت حروب البلقان بعد ذلك بعام، وانتهت في صيف عام 1913. هكذا، بدأت دورة الحروب التي استمرت عقدًا من الزمن وقضت على الإمبراطورية العثمانية. أطلق المعاصرون على هذه الأحداث اسم حرب السنوات العشر، حيث تلتها الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، ثم حرب الاستقلال التركية (1919-1923). وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، فُرضت هذنة مودروس على الإمبراطورية العثمانية على نحو أحادي من بريطانيا العظمى. ومثل الدول الأخرى المتأثرة بمعاهدات السلام التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، كان الوقت الفاصل بين الهدنة وتوقيع معاهدة السلام طويلًا، فقد وُقعت معاهدة سيفر التي اعتُبرت "معاهدة غير عادلة"؛ أي بعد مرور أكثر من عام ونصف على توقيع الهدنة.

من أجل تسليط الضوء على مسار طويل استمر خمس سنوات وصولًا إلى توقيع معاهدة لوزان، سنعرض أولاً المشاريع التي جرى رسمها بعد الحرب العالمية الأولى، ثم نرى كيف خضعت الإمبراطورية العثمانية وعاصمتها لنظام احتلال عسكري جديد. فمُنذ توقيع معاهدة سيفر خضعت للتشكيك. لذا، نستعرض المفاوضات الدبلوماسية المتعلقة بآليات طلبات مراجعة معاهدة سيفر، وخاصة خلال المؤتمرات التي جمعت الحلفاء. ونظرًا إلى عجز الدبلوماسية عن إسكات صوت السلاح، سنرى كيف سمحت حرب الاستقلال المتوّجة بالظفر بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك لاحقًا) (1881-1938)، من خلال توقيع هدنة مودانيا، بفتح المجال لمراجعة معاهدة سيفر والدعوة إلى مؤتمر السلام الجديد في الشرق، الذي سيعقد في لوزان.

أولاً: مشاريع ما بعد الحرب العالمية الأولى

في أثناء وضع خطط تقسيم أراضي الإمبراطورية العثمانية بين "دول الوفاق" خلال الحرب العالمية الأولى، وُعد الروس بمنحهم إسطنبول، لكن بعد ثورة تشرين الأول/أكتوبر 1917 وخروج روسيا من المشهد، اضطرت هذه الأخيرة إلى الانسحاب من الحرب. كانت هذه أول هدنة توقع في بريست-ليتوفسك Brest - Litovsk في 3 آذار/ مارس 1918 بين روسيا السابقة، و"دول المركز" (الحلفاء)، والإمبراطورية العثمانية.

كان اللورد جورج كيرزون (1859-1925) وزيرًا للخارجية في عام 1919. وقد أنشأ "لجنة الشؤون الشرقية"، وهي لجنة وزارية مشتركة أسسها داخل وزارة الحرب، في نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918. كانت مهمة لجنة الشؤون الشرقية تقضي بإعداد الاستراتيجية البريطانية لما بعد الحرب خلال مؤتمرات السلام وتحديد الأهداف البريطانية في الشرق. ومع ذلك، بعد أن عملت على إعداد الموقف البريطاني في مؤتمر السلام في باريس، طلب حلّها في 7 كانون الثاني/ يناير 1919، ثم استُبدل بها في العامين التاليين مؤتمر بين-وزاري خاص بالشؤون الشرق أوسطية Interdepartmental Conference on Middle Eastern Affairs.

كانت وجهة نظر اللورد كيرزون تتمحور حول أن المصالح البريطانية في الشرق الأوسط لا يمكن ضمانها إلا من خلال "تدمير تركيا بوصفها قوة توسعية ومركزًا للمشاعر الإسلامية الجامعة". ومن ثم، كان طرد "الأتراك" أو العثمانيين من إسطنبول جزءًا من هذه السياسة⁽²⁾. شارك لويد جورج أيضًا في هذه المقاربة الحاسمة، إلا أن هذه التطلعات لم تكن متوافقة مع "مكتب الهند"، الذي كان مسؤولًا عن الإشراف على الهند منذ عام 1858 عندما كانت مستعمرة بريطانية، ولا مع "مكتب الحرب"⁽³⁾. وكان هذا هو الحال بالنسبة إلى إدوين مونتاغو Edwin Montagu (1879-1924)، وزير الدولة لشؤون الهند، والسير هنري هيوز ويلسون Sir Henry Hughes Wilson (1864-1922). من هنا، في عام 1920، حث السير ويلسون الحكومة على إقامة علاقات صداقة مع مصطفى كمال ومع حكومة أنقرة و تركيا الوطنية. في الواقع، تطوّر موقف الحكومة البريطانية بوتيرة أبطأ بكثير من تلك التي حكمت موقفي فرنسا وإيطاليا تجاه الحركة الوطنية في الأناضول. وهكذا، استغرق الأمر وقتًا أطول لإدراك أن هناك سلطة قوية كانت تتشكل في أنقرة خلال مرحلة الخروج المُضنية من آثار الحرب العالمية الأولى⁽⁴⁾.

رفض الرئيس الأميركي وودرو ويلسون Woodrow Wilson (1856-1924) الانتداب الأميركي على إسطنبول والمضائق. ونتيجة لذلك، بدأ موقف بريطانيا يتغير، وبدأ الهدف المتمثل في إبعاد العثمانيين عن إسطنبول يُسحب من التداول. هنا، بدأت تظهر بدائل تتوافق مع المصالح البريطانية، مثل دعم بقاء السلطان على رأس الإمبراطورية العثمانية، مع فرض شروط السلام عليه⁽⁵⁾. ولم يُكتب لمشروع يشكّل نوعًا من "الانتداب" على إسطنبول، تشارك فيه قوى الحلفاء، أن يُبصر النور، لذلك كان من المقرر وضع هيكل خاص. وستؤدي هذه التجربة الجديدة إلى ولادة شكل جديد من الاحتلال العسكري المصمم خصيصًا لهذا الوضع. هكذا، بدأ يتشكّل تدريجيًا، وبحكم الأمر الواقع، احتلال غير رسمي، مع وضع غامض جدًا؛ ما أثار السخط بين السكان المحليين في الإمبراطورية العثمانية. في البداية، بدأ الاحتلال غير الرسمي للعاصمة (لأنه لم يكن منصوبًا عليه في هدنة مودروس) مع وصول أولى قوات الحلفاء، التي سرعان ما تزايدت أعدادها. ثم، في مرحلة لاحقة، في 8 شباط / فبراير 1919، نزل الجنرال الفرنسي لويس فرانشيه ديسبيرى Louis Franchet d'Espèrey (1856-1942)، الذي كان القائد الأعلى لجيوش الحلفاء في سالونيك Thessaloniki، بطريقة استعراضية وانتصارية في إسطنبول، مع كل مظاهر العظمة العائدة للأباطرة الرومان⁽⁶⁾. استمر الوضع غير المحدد وغير الرسمي لهذا الاحتلال حتى 16 آذار / مارس 1920، عندما اكتسب، بمبادرة من البريطانيين، طابعًا رسميًا⁽⁷⁾.

ردًا على احتلال عاصمة الإمبراطورية العثمانية وكذلك الجزء الأكبر من أراضيها، برزت حركة تحرر وطنية تهدف إلى طرد القوى الأوروبية المحتلة من الأراضي العثمانية. لكن هذا الشكل من الاحتلال ذهب إلى ما هو أبعد من الاحتلال العسكري؛ إذ جمع ما بين الحكم العسكري والحكم المدني. علاوة على ذلك، كانت المصطلحات الجديدة المستخدمة هي نفسها التي استخدمت للولايات الجديدة والتي جرى الترويج لها من خلال معاهدة سان ريمو (1920)، حيث جرى تعيين مفوضين ساميين بمسؤوليات سياسية وتشريعية وعسكرية لإدارة هذه الولايات. وبالطريقة ذاتها، وُضعت مدينة إسطنبول تحت إشراف مفوضين ساميين من الحلفاء. ويبدو أنه قد جرى التفكير في مشروع انتداب على إسطنبول والأناضول تحت إشراف الولايات المتحدة الأميركية. إلا أنه، بعد رفض هذا الاقتراح، فُرض "نوع من الانتداب" تمارسه عدة قوى على نحو مشترك على العاصمة العثمانية، دون أن يُفصح عن ذلك علانية، مع وجود "حكومة عليا" من الحلفاء.

2 Sevta Demirci, *Strategies and Struggles: British Rhetoric and a Turkish Response* (Istanbul: ISIS Press, 2010), p. 20.

3 كان "مكتب الحرب" يعاني التوترات، لا سيما بين العسكريين والمدنيين العاملين فيه.

4 Demirci, p. 21

5 Ibid., p. 21, note 5.

6 Ertan Eğribel & Devrim Vardar, "Doğu sorunu ve işgal dönemi İstanbul'u," in: Nur Bilge Criss (eds.), *100. Yılında İstanbul'un İşgal Günleri*, 4th ed. (Istanbul: İstanbul Kültür ve Sanat Ürünleri Ticaret A.Ş., 2022), p. 203.

7 Abdurrahman Bozkurt, "İstanbul'da İşgal yönetimi," in: Criss et al. (eds.), pp. 103-153.

بهذا، جرت تجربة شكل جديد من أشكال الاحتلال العسكري مع إنشاء لجان عليا يتولى رئاستها موظفون مدنيون وعسكريون كبار، يقومون أيضًا بأدوار دبلوماسية، وقد عُرفوا بكبار رؤساء اللجان. في عام 1919، شهد هذا الاحتلال العسكري من الحلفاء مشاركة العديد من الدول: بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، واليونان، والولايات المتحدة، واليابان، إلا أن مهمات المفوضين السامين الأميركيين واليابانيين كانت مختلفة عن تلك التي كانت لدى باقي الحلفاء، حيث اقتصرتهم مهمتهم على المراقبة⁽⁸⁾. كانت المهمة الموكلة إلى كبار رؤساء اللجان هي ضمان تطبيق بنود هدنة مودروس. ومع ذلك، عمومًا، كانت فترات الهدنة قصيرة الأجل قبل أن تؤدي إلى توقيع معاهدة سلام. ولكن في هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، طال أمد الهدنة مع ما ترتب على ذلك من عواقب عديدة⁽⁹⁾. كانت معاهدة سيفر هي آخر المعاهدات التي وقعت في صيف 1920؛ أي بعد أكثر من عام ونصف من توقيع معاهدة الهدنة. وهكذا، علّقت الهدنة حالة الحرب، ولكنها لم تضع حدًا لها، مع تطور في موازين القوى خلال ثمانية عشر شهرًا. هذا التنظيم في أعلى الهرم الذي رعاه الحلفاء، والذي قُدم في البداية على أنه مؤقت حتى توقيع معاهدة السلام، لم يستمر بعد التوقيع عليه فحسب، وإنما أيضًا أصبحت اللجان دائمة. وفي الوقت نفسه، وُضعت العاصمة العثمانية تحت سيطرة عسكرية صارمة من آلاف الجنود الأجانب، مع احتلال العديد من البنى التحتية.

خلال عام 1919، تنامت قوة الحركة الوطنية التركية. فعُقدت عدة مؤتمرات محلية خلال صيف 1919، ثم انعقد مؤتمر وطني في مدينة سيواس في الفترة 4-11 أيلول / سبتمبر 1919، دعا إلى انتخاب برلمان وطني حقيقي ومواجهة القوات الأجنبية المحتلة. نتيجة لذلك، تصاعدت التوترات خلال عام 1919، وحتى الانتخابات البرلمانية التي جرت في كانون الأول / ديسمبر 1919، التي فازت بها الحركة الوطنية. وفي 28 كانون الثاني / يناير 1920، اعتمد البرلمان العثماني الميثاق المُلّي الذي يدعو إلى عدم تقسيم الأراضي العثمانية التي لم تكن محتلة عند توقيع هدنة مودروس. كما أدرجت "المقاطعات الثلاث" الشرقية، قارص وأردهان وباطومي، في الميثاق المُلّي. وكان إلغاء الامتيازات وحرية الحركة في المضائق أيضًا من الشروط غير القابلة للتفاوض⁽¹⁰⁾.

ردًا على ذلك، جرى الاحتلال الرسمي لإسطنبول بتوجيه من البريطانيين لضمان تطبيق الامتيازات اعتبارًا من 16 آذار / مارس 1920؛ ذلك أنه لم يكن من الممكن قانونيًا إصدار قانون الأحكام العرفية من دون أن يكون هناك احتلال رسمي⁽¹¹⁾. ومع قانون الأحكام العرفية، لم يعد هناك فصل بين السلطات الأمنية والقضائية، التي أصبحت الآن بيد الضباط الحلفاء الذين يحتلون العاصمة العثمانية. وهدفت هذه الإجراءات إلى إسكات أي شكل من أشكال التحريض والمعارضة، لكن سرعان ما أصيب البريطانيون بخيبة أمل عندما فتح مجلس الأمة الكبير في أنقرة، بقيادة مصطفى كمال، أبوابه في 23 نيسان / أبريل 1920. في الوقت نفسه، خلال مؤتمر لندن الذي عُقد في آذار / مارس 1920، ثم مؤتمر سان ريمو (1920)، أعربت بريطانيا بوضوح عن رغبتها في فرض عقوبات على الإمبراطورية العثمانية المهزومة إلى جانب ألمانيا. أعقب ذلك فترة مضطربة بسبب هذه الازدواجية في التمثيل بين حكومتَي إسطنبول وأنقرة. وفي 18 نيسان / أبريل 1920، أنشأت الحكومة العثمانية في إسطنبول جيشًا جديدًا، هو جيش الخلافة، لمواجهة القوات الوطنية التركية في أنقرة. تلا ذلك حرب أهلية استمرت ثلاثة أشهر. وأمام هجمات القوات الوطنية التركية، هُزم جيش الخلافة بسرعة واختفى في نهاية حزيران / يونيو 1920.

8 Nur Bilge Criss, "Occupation during and after the War (Ottoman Empire)," in: Ute Daniel et al. (eds.), 1914-1918 Online, *International Encyclopedia of the First World War* (Berlin: Freie Universität Berlin, 2015).

9 Georges-Henri Soutou, "1918: la fin de la Première Guerre mondiale?" *Revue Historique des Armées*, vol. 251 (2008), pp. 4-17.

10 Odile Moreau, "Difficile sortie de guerre: De l'empire ottoman à l'émergence de la jeune république de Turquie (1918-1924)," *Relations Internationales*, vol. 171 (Été - Automne 2017), pp. 43-56.

11 Daniel-Joseph MacArthur-Seal, "Resurrecting Legal Extraterritoriality in Occupied Istanbul, 1918-1923," *Middle Eastern Studies*, vol. 54, no. 5 (2018).

من ناحية أخرى، منذ بداية عام 1920، حقق الهجوم الذي شنته القوات الوطنية التركية ضد القوات الفرنسية المحتلة نتائج ملموسة. ففي 11 شباط / فبراير، أخلت القوات الفرنسية مدينة مرعش، ثم في 11 نيسان / أبريل، أخلت مدينة أورفا. وقد أُجريت مفاوضات لوقف إطلاق النار بقيادة روبرت دو كاكس دو سانت أيمور Robert de Caix de Saint - Aymour (1869-1970)، الذي كان مساعدًا للجنرال هنري غورو Henri Gouraud (1867-1946)، مع مصطفى كمال، أسفرت عن وقف إطلاق نار لمدة عشرين يومًا. ثم بدأت مفاوضات أوسع بين حكومتَي فرنسا وأنقرة في الأشهر التالية، بهدف سحب القوات الفرنسية ومنح تعويضات من فرنسا لصالح الحكومة المستقبلية في أنقرة. وقعت هذه الأحداث قبل أن يبدأ مؤتمر سان ريمو. وبعد ذلك، أدت هذه المفاوضات إلى توقيع اتفاقية هدنة في كيليكيا بين فرنسا وحكومة أنقرة في 23 أيار / مايو 1920. وهكذا، تنازلت فرنسا عن كيليكيا لتعيد تركيز اهتمامها على سوريا⁽¹²⁾. ومع ذلك، في 8 حزيران / يونيو 1920، أدى إنزال القوات الفرنسية في زنگولداق Zonguldak وإيرغلي Ereğli في الشمال، في منطقة البحر الأسود، إلى إعادة النظر في الهدنة ورفض الحكومة في أنقرة تمديدتها.

ثانيًا: مؤتمر سان ريمو

ضمّ مؤتمر سان ريمو، الذي كان مخصصًا لبحث مصير الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية، وفودًا من فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا واليونان وبلجيكا واليابان. في هذا السياق، لم يُدعَ أي ممثل عربي للمؤتمر. كانت معاهدة سان ريمو امتدادًا للاتفاقات السرية التي جرى التوصل إليها بين دول الوفاق خلال الحرب العالمية الأولى. وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال تعديل اتفاقية سايكس - بيكو، التي جرى التفاوض عليها بين مارك سايكس Mark Sykes عن بريطانيا العظمى وفرنسا جورج-بيكو François Georges - Picot عن فرنسا في نيسان / أبريل 1916⁽¹³⁾، وتضمّنت أحكام إعلان بلفور. أنشأت هذه المعاهدة شكلاً جديدًا من أشكال الإدارة غير المباشرة للأراضي، وهو الانتداب، فمُنحت فرنسا وبريطانيا العظمى وضع القوى المنتدبة. وفي نهاية المطاف، حصلت فرنسا على انتداب على سوريا، بينما حصلت بريطانيا على انتداب مزدوج على بلاد ما بين النهرين وفلسطين. كما جرى اعتماد اتفاقية نفطية فرنسية - بريطانية بشأن نفط الشرق الأوسط بموجب معاهدة سان ريمو⁽¹⁴⁾.

وسوف تستند معاهدة سيفر لاحقًا إلى معاهدة سان ريمو في وضع اللمسات الأخيرة على الأحكام المتعلقة بمصير الإمبراطورية العثمانية. وقبل وقت قصير من افتتاح مؤتمر سيفر، في آب / أغسطس 1920، الذي كان من المفترض أن يبتّ بالمصير الذي تعده دول الوفاق للإمبراطورية العثمانية، وقعت هزيمة جيش الملك فيصل الأول (1883-1933) أمام القوات الفرنسية في خان ميسلون، بالقرب من دمشق؛ ما أدى إلى احتلال فرنسا لسوريا⁽¹⁵⁾. في هذا السياق المتوتر، كان من المقرر أن يُفتتح مؤتمر سيفر.

ثالثًا: معاهدة سيفر

على الرغم من التطورات الملحوظة التي شهدت صعود حكومة أنقرة وتنامي قوة القوات الوطنية التركية، فقد ظلت قوى الحلفاء تعتبر حكومة إسطنبول الممثل الرسمي الوحيد للإمبراطورية العثمانية الذي يمكن التعامل معه. وعلى الرغم من أن فرنسا وإيطاليا قد

12 Nadine Picaudou, *La décennie qui ébranla le Moyen-Orient: Paris 1914-1923* (Paris: Flammarion, 2017 [1992]), p. 138.

13 خصّصت اتفاقية سايكس - بيكو السرية "منطقة زرقاء" للنفوذ الفرنسي في قيليقيّة على الساحل السوري وعلى الموصل وكذلك في شمال الجليل. بينما خصّصت لبريطانيا "منطقة حمراء" في بلاد الرافدين ومنطقتي البصرة وبغداد، إضافة إلى موانئ عكا وحيفا. أما وسط فلسطين والأماكن المقدسة فُوُضعت تحت إدارة دولية.

14 Nadine, p. 156.

15 Ibid., p. 140.

بدأنا بالفعل بمحادثات وأبرمتا اتفاقيات مع حكومة أنقرة، فإن بريطانيا بقيت متشبثة بمواقفها ودافعت عن موقف شرعي تجاه حكومة إسطنبول. وهكذا، قبل انعقاد مؤتمر سيفر، كانت لدول الوفاق وجهات نظر متباينة ومختلفة على نحو ملحوظ حول كيفية التعامل مع مصير الإمبراطورية العثمانية. من هنا، بدأ مؤتمر سيفر حاسماً لما كان يُؤمل أن تكون عليه تسوية المسألة الشرقية. عُقد المؤتمر في مصنع الخزف في سيفر، الذي أعطى اسمه للمعاهدة المسماة "معاهدة الخزف"، علماً أن الاسم قد يشير أيضاً إلى هشاشة المعاهدة. كانت الاهتمامات الرئيسة لحكومة إسطنبول تتمثل في الحفاظ على الإمبراطورية وما تبقى منها، وكذلك الحفاظ على مقرّ عاصمة الإمبراطورية في إسطنبول.

أدى توقيع محمد فريد باشا بمعاهدة سيفر إلى سقوط حكومته في خريف 1920. نتيجة لذلك، جرى تعيين حكومة جديدة برئاسة أحمد توفيق باشا، التي كانت أكثر استجابة لمطالب حكومة أنقرة. عقب هذه المعاهدة، أصبحت الوضعية المفروضة على الإمبراطورية العثمانية أسوأ من تلك التي كانت عليها في عشية الحرب العالمية الأولى. ففي حين أتى دخولها الحرب العالمية الأولى بمنزلة إشارة واضحة إلى رغبتها في استعادة استقلالها، وهو ما تجلّى خصوصاً في إلغاء الامتيازات على نحو أحادي في أيلول/ سبتمبر 1914⁽¹⁶⁾، كانت الحصيلة أن معظم أراضيها وقعت تحت احتلال أجنبي، واحتُلت جميع أراضيها الأوروبية الواقعة في منطقة تراقيا، وأصبحت عاصمتها أيضاً موطئاً لاحتلال أجنبي، وأُعيد العمل بالامتيازات، في حين أن الإمبراطورية العثمانية تحررت منها على نحو أحادي في أيلول/ سبتمبر 1914، وجرى سريان مفعولها في 1 تشرين الأول/ أكتوبر 1914. علاوة على ذلك، أصبحت المالية العثمانية تحت إشراف لجان الرقابة، ومُنحت امتيازات اقتصادية لكل من فرنسا وإيطاليا. أما بالنسبة إلى المضائق، فقد جرى تحييدها.

منح استبعاد حكومة أنقرة عن مؤتمر سيفر الفرصة للتّصلّ على نحو كامل من هذه المعاهدة، التي لم تشارك فيها بأي شكل من الأشكال. وهكذا، انتفضت حكومة أنقرة ضد حكومة إسطنبول، التي فقدت من صديقتها في نظرها بسبب توقيعها على معاهدة اعتبرت مشينة. وبناءً عليه، قوبلت معاهدة سيفر بالرفض القاطع من حكومة أنقرة، التي جعلت من هذا الرفض قضيتها الأساسية. وكانت الأوضاع تتطور، مع مرور الأشهر، لصالح حكومة أنقرة.

في الواقع، حُشدت القوات الوطنية على ثلاث جبهات في مواجهة قوات الاحتلالين الفرنسي واليوناني، وكذلك ضد قوات جمهورية أرمينيا الجديدة. وفي خريف 1920، أعلن مجلس الأمة الكبير في أنقرة الحرب على جمهورية أرمينيا في 24 أيلول/ سبتمبر 1920، ثم بدأت الأعمال العدائية بعد أربعة أيام. تقدّمت القوات الوطنية بسرعة كبيرة، واستولت على ساريكاميش Sarikamish وقارص في 30 أيلول/ سبتمبر 1920، ثم على غومري، ثاني أكبر مدينة في أرمينيا، في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1920. وجرى توقيع اتفاقية هدنة في ذلك اليوم. ونتيجة لهذه الهزيمة، صُمّت جمهورية أرمينيا إلى الاتحاد السوفياتي في 2 كانون الأول/ ديسمبر 1920. وهكذا، منذ بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 1920، لم يتبقّ سوى جبهتين؛ واحدة ضد القوات الفرنسية المحتلة في كيليكيا، والأخرى ضد القوات اليونانية المحتلة في منطقة بحر إيجة. وفي بداية عام 1921، حققت القوات الوطنية تقدماً على القوات اليونانية في الجبهة الغربية في 11 كانون الثاني/ يناير 1921. بعد ذلك، بدأت دورة من المؤتمرات بين الحلفاء، دُعي إليها ممثلون من الإمبراطورية العثمانية، من حكومة إسطنبول، وكذلك من الحكومة الجديدة في أنقرة.

16 Odile Moreau, *La Turquie dans la Grande Guerre. De l'Empire ottoman à la république de Turquie, 1914-1923* (Paris: Sotecal/ Belin, collection Les nations dans la Grande Guerre, 2016), p. 56.

رابعاً: مؤتمر الحلفاء في باريس

عُقدت عدة مؤتمرات بين الحلفاء في بداية عام 1921؛ فقد عقد مؤتمر في باريس في الفترة 24-29 كانون الثاني/ يناير 1921، وضمّ ممثلين عن الحلفاء، ورئيس الوزراء الجديد ووزير الخارجية الفرنسي أرسيتيد بريان (1862-1932)، ورئيس وزراء بريطانيا ديفيد لويد جورج (1916-1922)، والكونت كارلو سفورزا (1872-1952). ومن بين المواضيع التي نوقشت، شهدت مسألة تطبيق معاهدة سيفر بروز آراء تدعو إلى مراجعتها. وقد عبّر بريان عن هذا التوجّه ناقلاً وجهة نظر الرأي العام الفرنسي الذي يؤيد مراجعة هذه المعاهدة. في الواقع، لم يكن الرأي العام الفرنسي يفهم مغزى مشاركة القوات الفرنسية التي تعرضت لانتكاسات كبيرة في كيليكيا، وحاولت الحكومة الفرنسية تهيئة الظروف لسحب قواتها، وكان الكونت سفورزا، ممثل إيطاليا، الذي سبق له أن تبادل الآراء مع شخصيات تركية في روما، يشارك أيضاً الرأي نفسه. ويجب الإشارة إلى أن ميزان القوى قد تغيّر على نحو كبير منذ توقيع هدنة مودروس.

بدأت حرب الاستقلال التي شنها مصطفى كمال ثراكم الانتصارات العسكرية والدبلوماسية؛ ما ترك أثره في فرنسا وإيطاليا. وعلى الساحة الدولية، حصلت حكومة أنقرة على أول اعتراف دولي لها من خلال توقيع اتفاق مع البلاشفة في صيف 1920، أسفر عن توقيع معاهدة صداقة وأخوة في 16 آذار/ مارس 1921. وقد أرسلت حكومة أنقرة أول بعثة بقيادة بكر سامي بك قندح في صيف 1920، تلتها بعثة أخرى بقيادة يوسف كمال في كانون الأول/ ديسمبر 1920. وهكذا، ازدادت حكومة أنقرة قوة ولم يكن في الإمكان تجاهلها تماماً. كما كانت اتصالاتها مع السوفيات مصدر قلق للحلفاء. فضلاً عن ذلك، كانت الساحة الداخلية اليونانية قد تغيرت مع عودة الملك قسطنطين (1868-1923)؛ ما ترك عدداً من الشكوك.

نتيجة لذلك، خلال جلسة 25 كانون الثاني/ يناير 1921، تقرر تنظيم مؤتمر حول شؤون الشرق بعد شهر في لندن، وجرى الإعلان عن الدعوة لهذا المؤتمر الجديد في 21 شباط/ فبراير 1921. وجرت دعوة قوى الحلفاء والحكومتين العثمانية واليونانية للمشاركة فيه. لكن كانت خصوصية هذه الدعوة الموجهة إلى السلطات العثمانية تكمن في أنها، وإن كانت موجهة إلى حكومة إسطنبول، فإنها وضعت شرطاً صريحاً بأن يكون مصطفى كمال أو ممثلون عنه أعضاء في الوفد العثماني. وعلى الرغم من أنها موجهة إلى الحكومة العثمانية في إسطنبول أيضاً، فإنها كانت في الواقع دعوة مزدوجة لكلا الحكومتين في إسطنبول وأنقرة. فقد أصبح التحدث مع حكومة أنقرة وبناء علاقات معها أمراً ملجأً.

خامساً: مؤتمر الحلفاء في لندن

انعقد مؤتمر الحلفاء في لندن في الفترة 21 شباط/ فبراير-12 آذار/ مارس 1921، بهدف حل عدة مشاكل، من بينها مسألة تطبيق معاهدتي فرساي (28 حزيران/ يونيو 1919) وسيفر. ودفع هذا المؤتمر باتجاه ابتكار مزدوج من خلال توسيع دائرته. فللمرة الأولى، وبخروج عن قواعد المؤتمرات التي تلت الحرب العالمية الأولى، جرت دعوة العثمانيين إلى جانب الحلفاء؛ لأن ميزان القوى قد تغيّر على نحو ملحوظ. أما الابتكار الثاني فتمثّل بدعوة وفد عثماني مزدوج، يضم ممثلين عن إسطنبول، وأيضاً عن أنقرة. من هذا المنطلق، يمكن اعتبار أن مؤتمر لندن شكل نقطة تحول في اللعبة الدبلوماسية خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك، لم يكن تنظيم مثل هذا المؤتمر وتنفيذه خالياً من التوترات المتعددة التي وجب حلها وتجاوزها. بادئ ذي بدء، قدمت حكومة أنقرة نفسها على أنها الحكومة الشرعية الوحيدة المخولة تمثيل الإمبراطورية العثمانية في هذا المؤتمر. وعلى الرغم من اختلاف وجهات

النظر، اتفق الحلفاء على رفض هذا الطلب الذي كان سيعني استبعاد حكومة إسطنبول. وكان موقفهم هو اعتبار أن مسؤولية تشكيل الوفد العثماني، ومن ضمنه ممثلون عن حكومة أنقرة، تقع على عاتق حكومة إسطنبول.

شكّل الوفد العثماني إلى مؤتمر لندن، الذي كان من المتوقع أن يكون موحدًا، رمزًا للانقسام. ففي الواقع، سافر وفد إسطنبول وأنقرة عبر مسارين منفصلين باستخدام طريقتين مختلفتين. وغادر وفد حكومة إسطنبول، برئاسة الصدر الأعظم أحمد توفيق باشا، هذه المدينة في 12 شباط/ فبراير متجهًا إلى لندن، بينما غادر وفد أنقرة الأناضول متوجهًا من ميناء أنطاليا، الذي يقع ضمن منطقة النفوذ الإيطالي، إلى ميناء برينديزي Brindisi الإيطالي، حيث جرى نقله برعاية الإيطاليين. ثم توقف في إيطاليا وزار روما في 17 شباط/ فبراير 1921. ومن روما، قدم بكر سامي بك قندح عددًا من المطالب إلى إيطاليا وفرنسا. وكان يرغب في أن يتلقى وفد أنقرة دعوة رسمية، وإلا فلن يتوجه إلى لندن. لكن الحلفاء لم يستجيبوا لهذا الطلب وطلبوا من حكومتي إسطنبول وأنقرة إدارة جانب يعتبرونه داخليًا، ولا يرغبون في أن يتدخلوا في شأنه. في الوقت نفسه، أكدوا لوفد أنقرة على الأهمية المعوّلة على وجوده في مؤتمر لندن. وهكذا، حُلّت هذه التوترات وغادر وفد أنقرة روما في مساء 19 شباط/ فبراير 1921 متوجهًا إلى لندن عبر باريس. علاوة على ذلك، وفي تجاهل لطلبات الحلفاء فيما يتعلق بالإجراءات البروتوكولية، قدم كل وفد نفسه على نحو منفصل، فكان الصدر الأعظم أحمد توفيق باشا على رأس وفد إسطنبول، بينما كان بكر سامي بك قندح على رأس وفد أنقرة.

بدأ المؤتمر أعماله كما كان مقرّرًا في 21 شباط/ فبراير 1921. وبما أن الوفد العثماني كان يُعتبر واحدًا وموحدًا، تقرّر استقبال ممثلي حكومتي إسطنبول وأنقرة في الفندق نفسه؛ فندق سافوي. وقد جرى الاستماع إلى كلا الوفدين خلال أعمال المؤتمر، فتحدثا حول بنود معاهدة سيفر التي طالبا بمراجعتها. قاد بكر سامي بك قندح (1865-1933) المناقشات⁽¹⁷⁾، بموافقة الصدر الأعظم أحمد توفيق باشا. كان وفد أنقرة هو الوحيد القادر على التحدث باسم مجلس الأمة الكبير في أنقرة ومناقشة إنهاء الحرب فيما يتعلق بالاشتباكات بين القوات اليونانية والقوات الوطنية في أنقرة.

خلال مؤتمر لندن، أجرى الوفد الفرنسي نقاشًا مع ممثلية أنقرة بشأن انسحاب القوات الفرنسية من كيليكيا. وفي 11 آذار/ مارس 1921، وقّع بريان اتفاقية لترسيم الحدود بين سوريا الواقعة تحت الانتداب الفرنسي والإمبراطورية العثمانية، وتضمنت الاتفاقية بنودًا توفّر امتيازات اقتصادية لفرنسا في المنطقة. كذلك وقعت إيطاليا مشروع اتفاق تعاون بين حكومة أنقرة وإيطاليا بشأن منطقة النفوذ الخاصة بها.

في اليوم التالي لمؤتمر لندن الذي دعا وفدًا عثمانيًا إلى المناقشة ضم أعضاء من حكومتي إسطنبول وأنقرة، لم يكن هناك من مجال لالتقاط الأنفاس، فلم تحصل هذه الاتفاقيات على الموافقة الضرورية من مجلس الأمة الكبير في أنقرة، معتبرًا أنها تتعارض مع الميثاق المُلّي. أدى هذا الرفض أيضًا إلى سقوط بكر سامي بك قندح في أيار/ مايو 1921. وفي مثل هذا اليوم، وبعد مرور عام واحد على فرض الاحتلال الرسمي على إسطنبول، وقّعت حكومة أنقرة في موسكو معاهدة سلام وصداقة مع روسيا السوفياتية في 16 آذار/ مارس 1921.

17 Kayali Hasan, "The Struggle for Independence," in: Resat Kasaba (ed.), *The Cambridge History of Turkey*, vol. IV: *Turkey in the Modern World* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), p. 135.

سادساً: بعثات دبلوماسية مُرسلة إلى الأناضول

لم تنقطع المفاوضات، بل سلكت طريقها عبر قنوات أخرى. اختارت فرنسا إرسال بعثات إلى الأناضول؛ كانت الأولى غير رسمية، تلتها بعثة ثانية ذات طابع رسمي. جرى اختيار هنري فرانكلان-بويون Henry Franklin-Bouillon (1870-1937)⁽¹⁸⁾ لقيادة هذه البعثات. في البداية، سافر إلى الأناضول من 24 أيار / مايو إلى 1 آب / أغسطس 1921، وزار أنقرة للقاء مصطفى كمال وعصمت باشا. وبعد العودة إلى باريس وتقديم تقرير عن مهمته إلى بريان، أرسل فرانكلان-بويون، هذه المرة بصفة موفد رسمي إلى أنقرة من 15 أيلول / سبتمبر إلى 20 تشرين الأول / أكتوبر 1921. كان الهدف من هذه المهمة التي كلفه بها بريان هو في المقام الأول إيجاد حل للصراع في كيليكيا، حيث كانت هناك مواجهات بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية في أنقرة، ثم التوصل إلى ترسيم الحدود بين الإمبراطورية العثمانية وسوريا الخاضعة للانتداب الفرنسي. وهكذا، تفاوض على شروط اتفاقية فرانكلان-بويون التي أدت إلى توقيع معاهدة أنقرة في 20 تشرين الأول / أكتوبر 1921. أعادت هذه الاتفاقية العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية التي انقطعت مع بداية الحرب العالمية الأولى، في تموز / يوليو 1914، بهدف استعادة العلاقات الثنائية الودية. إضافة إلى ذلك، وضعت هذه الاتفاقية حدًا للمواجهات العسكرية بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية التركية في كيليكيا. وقد شكّل ذلك بالنسبة إلى حكومة أنقرة أول اعتراف دولي بها من قوة من دول الوفاق. وهكذا، كانت فرنسا أيضًا تراجع تطبيق معاهدة سيفر، بحيث تنازلت رسميًا عن منطقة النفوذ التي مُنحت لها، مقابل الحصول على تعويضات اقتصادية. وجرى التصديق على معاهدة أنقرة من عصبة الأمم في عام 1926.

خلال مؤتمر الحلفاء الذي عُقد في باريس من 22 إلى 26 آذار / مارس 1922، جرت دعوة ممثلين عن الحكومتين العثمانيين في إسطنبول وأنقرة، كما حدث في مؤتمر لندن عام 1921. إلا أنّ تبدّل ميزان القوى أدّى إلى ازدياد الاهتمام بحكومة أنقرة. كان الهدف من هذا المؤتمر هو التوصل إلى هدنة بين القوات الوطنية في أنقرة والقوات اليونانية. وهكذا، جرى تقديم مقترح للهدنة للموافقة عليه من حكومة أنقرة، وحكومة إسطنبول، والحكومة اليونانية. ألحّت فرنسا لدى بريطانيا العظمى على أهمية التوصل إلى اتفاق مع حكومة أنقرة لإنهاء النزاع، ولتجنب اقترابها أكثر من روسيا السوفياتية⁽¹⁹⁾. ومع ذلك، بالنسبة إلى بريطانيا، كانت حكومة إسطنبول لا تزال هي المحاور المفضل، ولم تكن تفكر في هذه المرحلة في الاعتراف بحكومة أنقرة. لم يتمكن المؤتمر الجديد في لندن من حل النزاع عبر الطرائق الدبلوماسية. وتلت ذلك اجتماعات أخرى بين الحلفاء في باريس، من دون تحقيق نجاح أكبر. وفي 18-19 حزيران / يونيو 1922، قُدم اقتراح للوساطة بين اليونان وحكومة أنقرة، ثم عُقد المؤتمر الثالث في باريس من 8 إلى 13 آب / أغسطس 1922.

نتيجة لذلك، جرى حل النزاع بقوة السلاح. بدأت الحملة العسكرية الأخيرة في آب / أغسطس 1922. وفي 9 أيلول / سبتمبر، دخلت القوات الوطنية التركية مدينة إزمير، منهية بذلك الاحتلال اليوناني للمدينة. وانتهت معركة صقاريا Sakarya (23 آب / أغسطس - 13 أيلول / سبتمبر 1922)، بانتصار القوات الوطنية التركية. وفتح هذا الانتصار العسكري الباب لإعادة التفاوض على معاهدة سيفر، فيما يتعلّق بالأحكام الخاصة بالإمبراطورية العثمانية.

18 اختير فرانكلان-بويون لمعرفته بالدولة العثمانية. كان نائبًا راديكاليًا وصحافيًا سابقًا، وكان مراسلًا حربيًا خلال الحرب اليونانية - العثمانية عام 1897.

19 Service Historique de la Défense (S.H.D.), 7 N 3217, rapports en date du 20 Avril 1922 et du 11 Mai 1922 (Paris: 1922)

سابعًا: هذنة مودانيا والتحضير لمؤتمر السلام في الشرق

بعد الانتصار في معركة صقاريا، بدأت أعمال مؤتمر السلام في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1922، وجرى توقيع معاهدة هذنة مودانيا على مرحلتين؛ ففي المرحلة الأولى، وقّعها كل من مجلس الأمة الكبير في أنقرة، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، وإيطاليا في 11 تشرين الأول/أكتوبر. وفي المرحلة الثانية، وقعت اليونان في 14 من الشهر نفسه. ودخلت هذه الهدنة حيز التنفيذ في 15 تشرين الأول/أكتوبر، منهية حرب الاستقلال التي تكلّت بالنصر، ولم تشكّك في صلاحية معاهدة أنقرة. وبدأت التحضيرات لتنظيم المؤتمر المستقبلي بعد ثلاثة أيام من دخول الهدنة حيز التنفيذ.

في البداية، كان من المقرر أن يُفتتح مؤتمر السلام المستقبلي في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1922. وكان من المخطط أن يعقد على مرحلتين متتاليتين، وكانت ستخصص الاجتماعات الأولى للترتيبات المالية والعسكرية والاقتصادية للمعاهدة المستقبلية. وكانت الدول المدعوة تشمل فرنسا، وبريطانيا العظمى، وإيطاليا، واليابان، ورومانيا، ويوغوسلافيا، وتركيا، واليونان. ثم كان الاجتماع الثاني سيخصص لمسألة حرية الملاحة في المضائق، وكان من المقرر أن يُعقد تحت رعاية عصبة الأمم⁽²⁰⁾، وسيشارك فيه ممثلون عن الاتحاد السوفياتي، وجورجيا، وأوكرانيا⁽²¹⁾. إلا أن مجموعة من العوامل غير المعروفة حالت دون تسريع تنظيم هذا المؤتمر الكبير. ونظرًا إلى التجربة المعقدة في المفاوضات خلال هذنة مودانيا، لم يكن من المناسب تنظيم هذا المؤتمر على بُعد أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر عن باريس أو لندن. وكان من الضروري التوصل إلى اتفاق بشأن مكان انعقاد هذا المؤتمر. وفي النهاية، لم يتم الاحتفاظ بفكرة تنظيمه على مرحلتين متتاليتين.

أثارت مسألة مكان انعقاد المؤتمر العديد من النقاشات، فقد اقترح مجلس الأمة الكبير في أنقرة في البداية أن يُعقد في مدينة إزمير. ونظرًا إلى أن المفاوضات كانت شاقة للتوصل إلى اتفاق قبل توقيع الهدنة، اعتبر الحلفاء أنه سيكون من الصعب جدًا تنظيم مؤتمر سلام في مكان بعيد؛ لذلك اختاروا مدينة أوروبية لاستضافة المؤتمر المستقبلي. وكانت إيطاليا، خلال المداولات التمهيدية بين الحلفاء لهذنة مودانيا، عرضت أن تكون الجهة الداعية لتنظيم هذا المؤتمر في مدينة البندقية. واقترحت إيطاليا مدينة تاورمينا Taormina القديمة في صقلية. كان موقف الحكومة البريطانية مرًا في هذا الصدد، حيث كانت تكرر باستمرار أنها لن تعارض اختيار مكان انعقاد المؤتمر المستقبلي للسلام. وفي حال وجود اعتراض على إقامة المؤتمر في البندقية، فإنها كانت مستعدة لاقتراح مدينة لوزان في سويسرا.

وبما أن اقتراح إزمير لم يلقَ قبولًا، جرى اقتراح مدينة أسكودار بعد ذلك. ولكن لو كان على المؤتمر أن يُعقد في أوروبا، فإن حكومة أنقرة تفضل أن يتم ذلك في باريس، نظرًا إلى العلاقات التي أقامتها مع الحكومة الفرنسية⁽²²⁾. وقد نقل مصطفى كمال هذا الطلب شخصيًا إلى فرانكلان-بويون ليجري تبليغه إلى الجهات العليا المعنية⁽²³⁾.

20 "L'accord est rétabli entre Paris, Londres and Moudania, Une transaction satisfaisante pour Alliés et les Turcs," *Journal Le Matin*, 8/10/1922.

21 Ali Naci Karacan, *Lozan: Hazirlayan Hulusi Turgut*, 9^{ème} éd. (Istanbul: Türkiye Is Bankasi Kültür Yayinlari, 2021), p. 32.

22 Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), 51 CPOM/284, télégramme n°1629 signé, 1922.

23 Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), 51 CPOM/284, n°164, télégramme adressé par Mustafa Kemal Pacha à Franklin-Bouillon, en date du 28 Octobre 1922, transmis par le général Pellé d'Istanbul;

برقية موجّهة من مصطفى كمال باشا إلى فرانكلان-بويون في 28 تشرين الأول/أكتوبر 1922، أرسلها الجنرال بيليه من إسطنبول، نصت على ما يأتي: "أمر عاجل جدًا. إلى السيد فرانكلان-بويون. بما أنه لم يتم القبول بمدينة إزمير، يجب اختيار باريس. وسيتأسس وفدنا أحد أكثر المقرّبين من رفاقنا المشتركين. تحياتي واحترامي. التوقيع: صديقكم مصطفى كمال باشا."

توصل اللورد كيرزون وريمون بوانكاريه Raymond Poincaré (1860-1934) إلى اتفاق حول مدينة لوزان⁽²⁴⁾. وفي 27 تشرين الأول/ أكتوبر 1922، دعت بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا إلى عقد مؤتمر لوزان. كان هدف الحلفاء التوصل إلى مراجعة معاهدة سيفر وإنهاء النزاع اليوناني - العثماني.

مرة أخرى، طُرحت مسألة دعوة حكومتَي إسطنبول وأنقرة، واتفقت القوى الثلاث الداعية إلى المؤتمر، وهي فرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا، على مدينة لوزان حيث كان من المقرر أن يبدأ مؤتمر السلام في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922. وقد دعت في الوقت نفسه ممثلين عن مجلس الأمة الكبير في أنقرة، وكذلك ممثلين عن الحكومة العثمانية في إسطنبول ليكونوا جنباً إلى جنب⁽²⁵⁾. وهكذا، واصلت هذه الدول ممارسة ازدواجية التمثيل بين حكومة أنقرة وحكومة إسطنبول في المؤتمرات التي عقدها الحلفاء منذ شباط/ فبراير 1921. ومع ذلك، حدث استثناء لهذا الأمر عندما وقّع معاهدة الهدنة في مودانيا عصمت باشا منفرداً، والذي كان يمثل مجلس الأمة الكبير في أنقرة. وكان موقف السلطان مؤيِّداً لإرسال وفد واحد يجمع بين مندوبين عن حكومة إسطنبول وممثلين عن حكومة أنقرة⁽²⁶⁾.

ومع ذلك، جرى حل هذه التوترات التي أثارها الحلفاء من خلال تصويت مجلس الأمة الكبير في أنقرة، الذي أقرّ إلغاء السلطنة في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1922؛ ما أنهى، بحُكم القانون، ازدواجية تمثيل الإمبراطورية العثمانية. ومنذ ذلك الحين، أصبح مجلس الأمة الكبير هو الجهة الشرعية الوحيدة التي تمثل الإمبراطورية العثمانية. هكذا، فصل هذا التصويت بين المهمات السلطانية، التي جرى إلغاؤها، ومهمات الخلافة، التي جرى الإبقاء عليها. وأدى هذا القرار إلى نفي السلطان وحيد الدين في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922⁽²⁷⁾، الذي وجد نفسه مخلوعاً، ثم انتخاب مجلس الأمة الكبير خليفةً جديداً، هو عبد المجيد الثاني.

ردّ مصطفى كمال بالرفض القاطع على اقتراح توفيق باشا، الصدر الأعظم الأخير للإمبراطورية العثمانية، بالمشاركة في مؤتمر لوزان، معلناً أن حكومة مجلس الأمة الكبير لأنقرة هي الوحيدة التي تتمتع بشرعية المشاركة في مؤتمر السلام. من ناحية أخرى، لم يمثل فرانكلان-بويون فرنسا في مؤتمر لوزان. وعلى الرغم من أن بوانكاريه قد دعا، فإنه اعتذر عن تلبية تلك الدعوة بسبب حملة صحفية معادية جداً له في الصحافة البريطانية.

من الذي شارك في مؤتمر لوزان؟ دعت بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا، بالتنسيق مع اليابان، اليونان ورومانيا والدولة الصربية-الكرواتية-السلافونية وتركيا والولايات المتحدة، وجرّت دعوة روسيا وبلغاريا لمناقشة مسألة المضائق. أما بلجيكا والبرتغال، فقد دُعيا للمشاركة في بعض الجلسات. وبما أن الولايات المتحدة لم تشارك في الحرب في الشرق، فقد أعلنت قرارها بعدم المشاركة أيضاً في مؤتمر السلام هذا، إلا أنها أبلغت أنها سترسل مراقبين إليه⁽²⁸⁾.

24 Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), 51 CPOM/284, visite de Monsieur le ministre de Suède à Monsieur de Peretti, en date du 24 Octobre 1922.

25 Karacan, p. 31.

26 Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), 51 CPOM/284, Istanbul, télégramme n°1613, signé général Pellé, en date du 26 Octobre 1922. Transmission du télégramme n°363, envoyé par le général Louis Mougin (1873-1955) d'Ankara, en date du 25 Octobre 1922.

27 سلك محمد السادس طريق المنفى في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922 على متن سفينة حربية بريطانية كانت متجهة بداية إلى مالطا.

28 "لم تكن الولايات المتحدة في حالة حرب مع تركيا ولا طرفاً في هدنة 1918، ولم ترغب في المشاركة في مفاوضات السلام النهائية أو تحمّل المسؤولية عن التعديلات السياسية والإقليمية التي قد يتم اللجوء إليها"، راجع:

Archives du ministère des Affaires étrangères (MAE), 51 CPOM/284, aide-mémoire de l'ambassade des États-Unis à Paris, en date du 30 Octobre 1922.

في النهاية، جرى افتتاح المؤتمر في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922، وبدأ مؤتمر طويل امتد إلى ثمانية أشهر، وتوقف بين 4 شباط/ فبراير و23 نيسان/ أبريل 1923؛ وهو تاريخ استئناف الأعمال التي أسفرت عن توقيع معاهدة لوزان.

خاتمة

تندرج المشاريع المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية والشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ضمن استمرارية الاتفاقات السرية التي جرى التفاوض عليها بين دول الوفاق خلال النزاع. كانت مشاريع تقسيم الأراضي في الشرق الأوسط بين فرنسا وبريطانيا تتعلق بالولايات العربية من الإمبراطورية العثمانية، لكنها لم تشمل العاصمة والأناضول. ويبدو أنه جرى النظر في مشروع انتداب على العاصمة العثمانية وأراضي الأناضول لصالح الولايات المتحدة. لكن الرئيس ويلسون، وبسبب عدم انخراط الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط، رفض الاقتراح الذي ينص على أن تصبح الولايات المتحدة سلطة منتدبة على إسطنبول والأناضول.

نتيجة لذلك، وبحكم الأمر الواقع، جرى احتلال العاصمة بطريقة اتخذت شكلاً من أشكال الانتداب الجماعي لقوى الوفاق، التي لم تفصح عن ذلك علانية، والتي أنشأت عدداً من اللجان وعيّنت عدداً من المفوضين السامين. تطور هذا الاحتلال الفعلي إلى نظام أكثر تشدداً مع الاحتلال الرسمي، في 16 آذار/ مارس 1920؛ ما جعل من الممكن فرض الأحكام العرفية. إلا أن هذا المشروع الذي وضعه البريطانيون، والذي كان يهدف إلى منع أي محاولة لقيام معارضة، لم يأتِ بالنتيجة المرجوة، بل على العكس من ذلك؛ فقد تسببت الوحشية التي نُفذ بها إلى إغلاق البرلمان العثماني وإنشاء مجلس الأمة الكبير في أنقرة، حيث شكلت حكومة أنقرة الجديدة وتمركزت القوات الوطنية بقيادة مصطفى كمال باشا.

أثارت معاهدة سان ريمو، التي أرست عمليات الانتداب على المقاطعات العربية في الإمبراطورية العثمانية، ثم معاهدة سيفر، موجة من الاستياء عززت من شرعية الحركة الوطنية في أنقرة. أعقب ذلك تنظيم مؤتمرات بين الحلفاء في باريس ولندن، ولا سيما بهدف مراجعة تطبيق معاهدة سيفر. وخلال المؤتمر الذي عقده الحلفاء في لندن في بداية عام 1921، جرت دعوة وفدين عثمانيين والاستماع إليهما؛ أحدهما من حكومة إسطنبول والآخر من حكومة أنقرة. وتبع ذلك سلسلة من الاجتماعات الدبلوماسية بين الحلفاء.

إلا أن هذه المفاوضات الدبلوماسية لم تمكن من إنهاء الحرب الدائرة بين القوات اليونانية والقوات الوطنية التركية. وقد حُسمت نتيجة الحرب على نحو مؤلم في ساحة المعركة في صقاريا، التي شهدت انتصار حرب الاستقلال بقيادة مصطفى كمال باشا. وبعد هذنة مودانيا، بدأت التحضيرات لمؤتمر السلام المستقبلي في الشرق، إلا أن إصرار الحلفاء على دعوة الحكومتين في إسطنبول وأنقرة مرة أخرى أدى إلى تصويت مجلس الأمة الكبير في أنقرة على إلغاء السلطنة، في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922. ونتيجة لذلك، جرت دعوة وفد وحيد عن الإمبراطورية العثمانية، وهو الممثل للمجلس، إلى مؤتمر السلام المستقبلي.

بعد مناقشات حول مكان انعقاد هذا المؤتمر، بدأت أعماله في مدينة لوزان، في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922، وتواصلت لمدة ثمانية أشهر طويلة. وخلال هذا المؤتمر، وللمرة الأولى، تمكنت قوة كانت مهزومة في نهاية الحرب من إعادة فتح المفاوضات المتعلقة بمعاهدة السلام السابقة التي فُرضت عليها، للتفاوض بصورة ندية حول شروط معاهدة سلام جديدة. ومن المؤكد أن معاهدة لوزان أدت إلى تعزيز نظام جديد في الشرق الأوسط، لكنها أيضاً دقت ناقوس نهاية القواعد التي تحكم العلاقات الدولية والتي أرستها معاهدة فيينا لعام 1815، بعد الحروب النابليونية. وبهذا، كان مؤتمر لوزان ومعاهدة لوزان يؤذنان بنظام دولي جديد.

المراجع

العربية

باروت، محمد جمال. *العلاقات العربية - التركية (1918-1923): السيرة والتاريخ والمصائر*. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023.

الأجنبية

- Bey, Galip Kemali [Söylemezoglu]. *L'assassinat d'un peuple*. Rome: Ricardo Garroni, 1921.
- Bozkurt, Abdurrahman. *İtilaf Devletlerinin İstanbul'da İşgal Yönetimi*. Ankara: Atatürk Arastırma Merkezi, 2014.
- Claire, Le Bras. "Policing and Security in Occupied Istanbul." *Yıllık, Annual of Istanbul Studies*. vol. 4 (2022).
- Conférence de Lausanne*. Tome I. 21 Novembre 1922- 1^{er} Février 1923. Ministère des Affaires étrangères. Paris: Imprimerie Nationale, 1923.
- Conférence de Lausanne*. Tome II. 1^{er} Février 1923-4 Février 1923, Ministère des Affaires étrangères. Paris: Imprimerie Nationale, 1923.
- Criss, Nur Bilge (ed.). *100. Yılında İstanbul'un İşgal Günleri*. 4th ed. Istanbul: İstanbul Kültür ve Sanat Ürünleri Ticaret A.S., 2022.
- Criss, Nur Bilge. *Istanbul under Allied Occupation 1918-1923*. Leiden: Brill, 1999.
- Daniel, Ute et al. (eds.). 1914-1918 *Online, International Encyclopedia of the First World War*. Berlin: Freie Universität Berlin, 2015.
- Demirci, Sevtap. "Turco-British Diplomatic Manoeuvres on the Mosul Question in the Lausanne Conference, 1922-1923." *British Journal of Middle Eastern Studies*. vol. 37, no. 1 (April 2010).
- _____. *Strategies and Struggles: British Rhetoric and a Turkish Response*. Istanbul: ISIS Press, 2010.
- Documents diplomatiques français*, 1922, 1^{er} Juillet - 31 Décembre 1922, vol. 2. Peter Lang (ed.). Paris, 2008.
- Documents on British Foreign Policy, 1919-1939*. First Series. vol. XVIII. London, 1947.
- Genell, Aimee M. "Empire by Law: Ottoman Sovereignty and the British Occupation of Egypt, 1882-1923". PhD. Dissertation. Columbia University, New York. 2013.
- İnönü, İsmet. *İsmet İnönühâtıralar*. Ankara: Sabahattin Selek, 1987.
- Kasaba, Resat (ed.). *The Cambridge History of Turkey*, vol. IV: *Turkey in the Modern World*. Cambridge: Cambridge University Press, 2008.
- Kuneralp, Selim (ed.). *Procès-verbaux des réunions tenues par les Hauts-Commissaires Alliés durant l'occupation de Constantinople*. 3 vols. Istanbul: Isis Press, 2017-2018.
- Le Bras Claire, "Dualité gouvernementale et reconnaissance internationale. Les délégations turques à la Conférence interalliée de Londres en 1921." *Relations Internationales*. "Le système international face aux guerres civiles au XX^{ème} siècle." vol. 1, no. 75 (Automne 2018).

- MacArthur-Seal, Daniel-Joseph. "Resurrecting Legal Extraterritoriality in Occupied Istanbul, 1918-1923." *Middle Eastern Studies*. vol. 54, no. 5 (2018).
- _____. *Britain's Levantine Empire, 1914-1923*. Oxford: Oxford University Press, 2021.
- Ministère des Affaires étrangères du développement international, Robert Franck, Gerd Krumreich (dir.), Jean-Michel Guieu, Vincent Laniol, Alexandre Sumpf (collab.). *Documents diplomatiques français (DDF), Armistices et paix 1918-1920*, tome I. Bruxelles: P.I.E. Peter Lang, 2014.
- Moreau, Odile. *La Turquie dans la Grande Guerre. De l'Empire ottoman à la république de Turquie, 1914-1923*. Collection Les nations dans la Grande Guerre. Paris: Soteca/ Belin, 2016.
- _____. "Difficile sortie de guerre: De l'empire ottoman à l'émergence de la jeune république de Turquie (1918-1924)." *Relations Internationales*. vol. 171 (Été - Automne 2017).
- _____. *L'Empire ottoman au XIXième siècle*. Paris: Armand Colin, 2020.
- Naci, Karacan Ali. *Lozan*. Hazirlayan Hulûsi Turgut. 9^{ème} ed. Istanbul. Türkiye İş Bankası Kültür Yayınları, 2021.
- Picaudou, Nadine. *La décennie qui ébranla le Moyen-Orient: Paris 1914-1923*. Paris: Flammarion, 2017 [1992].
- Orbay, Rauf. *Cehennem Değirmeni. Siyasi Hatıralarım*. Istanbul: Boyut Kitap Yurdu, 2023.
- Paul, Cambon. *Correspondance 1870-1924, Tome Troisième (1912-1924). Les guerres balkaniques. La Grande Guerre. L'organisation de la paix*. Paris: Grasset, 1946.
- Roderic H., Davidson. "Middle East Nationalism: Lausanne Thirty Years After." *Middle East Journal*. vol. 7, no. 3 (Summer 1953).
- Schumann, Christoph (ed.). *Liberal Thought in the Eastern Mediterranean: Late Nineteenth Century until the 1960s*. Leiden: Brill, 2008.
- Soutou, Georges-Henri. "1918: la fin de la Première Guerre mondiale?" *Revue Historique des Armées*. vol. 251 (2008).
- Sunata, İ. Hakkı. *İstanbul'da İşgal Yılları*. 9th ed. Istanbul: Türkiye İş Bankası Kültür Yayınları, 2022.
- The Treaties of Peace 1919-1923*, vol. 2. New-York: Carnegie Endowment for International Peace, 1924.
- Vincent, Laniol. "Faire la paix sans l'ennemi? L'exemple de la Conférence de la Paix de 1919." *Bulletin de l'Institut Pierre Renouvin*. vol. 2, no. 42 (2015).
- Yıldıztaş, Mümin. *Yaralı Payitaht. İstanbul'un İşgali*. 2nd ed. Istanbul: Yeditepe Yayınevi, 2019.

معاني لوزان عند العرب والأتراك

The Significance of Lausanne for Arabs and Turks

تعالج هذه الدراسة مسارات قضية مؤتمر لوزان وآثارها على نحو مقارن بين العرب والأتراك، وتفنّد حجج الأدبيات القائلة بعدم نضج العرب سياسيًا وعسكريًا مقارنة بالأتراك، وتربط تعثّر العرب في لوزان بعوامل عدة كالأدوار الحاسمة للدول الكبرى، مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا، في أحداث تلك الفترة. وتتناول الدراسة عاملين تاريخيين مهمين، وهما العلاقة بين روسيا وتركيا وتحولها من العداء إلى الصداقة، والعلاقة بين العرب والأتراك وتحولها من العداء إلى التعاون خصوصًا بعد انكشاف اتفاقية سايكس - بيكو وتأييد بريطانيا لفكرة الوطن القومي لليهود. وتختتم الدراسة بتبيان دور علاقة العداء بين الدولة العثمانية ودول الحلفاء، وتطور علاقة تركيا الجديدة بتلك الدول العظمى، في إنهاء الحرب لصالح تركيا.

كلمات مفتاحية: لوزان، العرب، الأتراك، التحالفات الدولية، الانتدابات.

This study addresses the implications of the Lausanne Conference through a comparison between Arabs and Turks. It refutes arguments in the literature that the Arabs were not as politically or militarily mature as the Turks during Lausanne and attributes the failure of the Arabs at Lausanne to structural factors such as the central roles of the Great Powers (e.g. Russia, Britain, France) in the period's events, which ended the First World War in Turkey's favour. The study examines two important historical factors at this juncture: how Turkish-Russian relations transformed from hostility to close friendship, and how Arab-Turkish relations turned from animosity to cooperation, especially after the Sykes-Picot Agreement was announced and Britain backed the idea of a national home for the Jews. The study concludes that hostility between the Ottoman Empire and the Allied Powers on the one hand, and the new Turkish Republic's relations with the Great Powers on the other, helped end the war in the Middle East in Turkey's favour.

Keywords: Lausanne, Arabs, Turks, International Alliances, Mandates.

* أستاذ التاريخ العربي الحديث في جامعة البلمند في لبنان، درّس في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

Professor of Modern Arab History at the University of Balamand in Lebanon, he Taught at Columbia University in the United States.

mahmoud.haddad@balamand.edu.lb

مقدمة

تنتقد المؤرخة الأميركية تومسون في بحث لها عن "إقصاء العرب عن معاهدة لوزان"، المؤرخ ألبرت حوراني في كتابه، **تاريخ الشعوب العربية**؛ لأنه رأى أن العرب كانوا غير ناضجين سياسيًا وتقصهم خبرة الأتراك وقائدهم مصطفى كمال باشا، ولم يذكر معاهدة لوزان إلا باعتبارها مقدمة لنشوء الجمهورية التركية⁽¹⁾.

بغض النظر عما إذا كان هذا النقد مبالغًا فيه أم لا، فإن حوراني لم يتوقف سوى عند العوامل الذاتية أو السياسية الداخلية التي ساعدت الأتراك على نيل استقلالهم، وأدت إلى نتيجة معاكسة على الجانب العربي وتحدث قليلًا عن الأدوار الحاسمة للدول الكبرى، مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا في أحداث تلك الفترة⁽²⁾. أما الانطباع الذي يعطيه حوراني، والذي يوحي بأن العرب خاضوا معركتهم ضد الاحتلال العسكري لبريطانيا وفرنسا سياسيًا فحسب، بينما خاض الأتراك معركتهم عسكريًا وسياسيًا، فهو انطباع خاطئ، وقع فيه بعض العرب أيضًا.

عندما أجرت صحيفة **ذي تايمز** *The Times* اللندنية مقابلة مع موسى كاظم الحسيني (1853-1934)، إحدى الشخصيات العربية الفلسطينية البارزة وقتها، في كانون الأول/ ديسمبر 1922، قال: "هناك شعور قوي أن على العرب الاتحاد كما فعل الأتراك إذا كانوا يريدون الحصول على شيء ما من القوى الكبرى. إن الدرس الذي تعلموه من الأتراك أن هؤلاء كسبوا معركتهم بواسطة السيف"⁽³⁾. ونرى، على عكس هذا الرأي، أن العرب لم يقصروا في المجالين السياسي والعسكري تمامًا مثل الأتراك الذين استخدموا "السيف والقلم"، أو الحرب والمفاوضات، إلا أن الأوضاع الجغرافية والإقليمية والدولية لم تكن واحدة في الحالتين، ومن ثم، كانت النتائج مختلفة؛ إذ انتصر الأتراك الذين وقّعوا معاهدة لوزان، وهُزم العرب الذين لم يأت ذكرهم فيها، بل نُقذَ فيهم حكم اتفاقية سايكس - بيكو Sykes - Picot Agreement (1916)، وتعديلاتها في سان ريمو (1920)؛ ما وضعهم في "قفص" الانتداب ومناطق النفوذ الأوروبية مع بعض التعديلات البسيطة في الحدود.

ويعرف المؤرخون عمومًا أنه من الصعب الإحاطة بكل العوامل التي تؤثر في إخراج حدثٍ ما إلى السطح. وعلى كل مؤرخ اختيار العامل أو العوامل ذات الأولوية التي يعتقد أنها ساهمت أكثر من غيرها في الوصول بأحداث واقعة معينة إلى نتائجها النهائية وترك العوامل التي يعتبرها هامشية بالنسبة إلى موضوع البحث المحدد جانبًا. فالانتقائية، إذا كانت معتدلة، ضرورية وتفرض نفسها لتفسير بُعد أو أبعاد محددة من واقعة أو فكرة ما.

في تقدير هذا الدارس لموضوع معاهدة لوزان والأسباب التي أدت إليها، تضافرت عوامل عديدة داخلية وخارجية، مباشرة وغير مباشرة، بسيطة ومعقدة ومركبة، للوصول إلى هذه المعاهدة بين تركيا ودول الحلفاء، خاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، التي أنهت عمليًا الحرب العالمية الأولى في الشرق نسبيًا لمصلحة تركيا، إحدى دول الوسط المعادية للحلفاء، بينما كان النصر على الجبهات الأخرى إلى جانب دول الحلفاء ومخططاتهم. لماذا حصل ذلك؟ وكيف؟

توافر، في رأينا، عاملان تاريخيان مهمان وبارزان لم يأخذا حقهما الكامل حتى الآن في التأريخ لتلك المرحلة هما: أولًا، التحالف بين الحركة الوطنية التركية مع روسيا بعد الثورة البلشفية. وثانيًا، التحالف بين الحركة الوطنية التركية والحركة الوطنية العربية في سورية بعد انكشاف اتفاقية سايكس - بيكو السرية، وإعلان وعد بلفور (2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917) حول تأييد بريطانيا للتطلعات الصهيونية اليهودية بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

1 Elizabeth F. Thompson, "Arab Exclusion at Lausanne: A Critical History Juncture," in: Jonathan Colin & Ozan Ozavci (eds.) *They All Made Peace - What Is Peace: The 1923 Treaty of Lausanne and the New Imperial Order*, (Chicago: Gingko Library, 2023), p. 181.

2 Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (London: Faber & Faber, 2013), pp. 315-319.

3 Thompson, p. 182.

بالنسبة إلى العامل الأول، على الرغم من أن الدولة العثمانية أعلنت الحرب على دول الحلفاء في 31 تشرين الأول / أكتوبر 1914، فإن روسيا القيصرية التي كانت إحدى دول الحلفاء (المؤلفة منها ومن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) وأحد أطراف اتفاقية سايكس - بيكو السرية التي ينسب كثيرون أنها كانت تشمل الأراضي والمضائق البحرية والجزر التركية وأراضي المشرق العربي، بسبب حجمها وحجم جيشها، كانت تُعتبر العدو البري الأساسي للإمبراطورية أو السلطنة العثمانية. وكان الاتفاق بين دول الحلفاء يقضي، في حال النصر، بمنح روسيا العاصمة العثمانية إسطنبول والممرات أو المضائق البحرية على البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة لتحقيق حلمها بالوصول إلى المياه الدافئة. مع ذلك، نشير إلى أنه في الفترة الأولى من الحرب اندلعت معركة إسطنبول والمضائق أو معركة غاليبولي، أو جناح قلعة، من 19 شباط / فبراير 1915 حتى 9 كانون الثاني / يناير 1916، واعتمدت دول الحلفاء فيها على القوات البحرية البريطانية والفرنسية. إلا أن موسكو كانت مصرّة، حتى في أثناء تلك المعركة الكبرى التي لم تساهم فيها، على حصتها في اتفاقية سايكس - بيكو التي شملت إسطنبول والمضائق، كما ذكرنا. فعندما هاجمت السفن الحربية البريطانية والفرنسية المضائق، هدد وزير الخارجية الروسية سيرجي سازونوف Sergey Sazonov بالانسحاب من الحرب؛ لأنها كانت ستضيق على موسكو، صاحبة أكبر قوة برية تنوف على خمسة ملايين جندي في التحالف، حصتها التي نصّت عليها الاتفاقية، وتجعلها في يد القوتين المهاجمتين، بريطانيا وفرنسا؛ ما أجبر الأدميرال الأول، أو وزير البحرية البريطاني ونستون تشرشل Churchill Winston (1911-1915)، وقتها، على توقيع اتفاق ثنائي مع روسيا؛ لتأكيد وعد إعطائها إسطنبول والمضائق بعد الحرب⁽⁴⁾.

نشرت موسكو، بعد الثورة البلشفية، نصوص اتفاقية سايكس - بيكو السرية، ونشرت الصحافة البريطانية أنباء عن المداولات التي جرت بين لندن وموسكو وباريس في هذا الشأن. وكان ما نشرته صحيفة **ذي مانشستر غارديان** مباشرة بعد الثورة في 26 تشرين الثاني / نوفمبر 1917 نقلاً عن صحيفة **البرافدا** الروسية⁽⁵⁾ دون تعليق على أن الجانب القيصري الروسي تقدم ببعض المطالب من حلفائه. ونشر ليون تروتسكي Leon Trotsky (1874-1940)، مفوض الشؤون الخارجية، سلسلة من البرقيات والوثائق السرية، يعود تاريخها إلى عام 1915، وإلى زمن الائتلافات الوزارية الروسية. وفي تلك الوثائق المتعلقة بالقسطنطينية والمضائق، يستعرض سازونوف مطالبات روسيا بالقسطنطينية، والساحل الغربي لمضيق البوسفور، وبحر مرمرة والدردنيل، وتراقيا الجنوبية حتى خط إينوس - ميديا، وساحل آسيا وجزر بحر مرمرة وإمبروس وتينيدوس. أما الحلفاء الآخرون فطرحوا سلسلة من المطالب التي وافقت عليها الحكومة الروسية. ووفقاً لهذه المطالب، كان من المقرر أن تصبح القسطنطينية ميناءً حرّاً للبضائع التي لا تذهب إلى روسيا ولا تأتي منها. وطالبت دول الحلفاء أيضاً بالاعتراف بـ "حقوقها في تركيا الآسيوية"، والحفاظ على الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية تحت سيادة أو سلطة إسلامية. وكانت روسيا مستعدة لقبول كل هذه الطلبات، إلا أنها أعربت عن الرغبة في فصل الخلافة عن تركيا.

ولا شك في أن هذا الطلب الأخير كان مهماً بحيث يدفع المؤرخ إلى محاولة الكشف عن مواقف الدول المتحالفة الأخرى من الموضوع، إلا أن غياب الوثائق والمعلومات يسمح لنا بترجيح أن هذه الدول لم تمنع في الموافقة على هذه الرغبة. فبريطانيا كانت تلمح بنقل الخلافة إلى العرب. أما فرنسا وإيطاليا فكانتا، في رأينا، سترحبان بالخطوة، لأنّ الأولى كانت تستعمر الجزائر والثانية تستعمر طرابلس الغرب - بنغازي؛ إذ إنّ فصل شعبيهما المسلمين عن صلاتهما، ولو الروحية فحسب، بإسطنبول أو أي مركز ديني أو دنيوي مستقل عنهما سيصّب في مصلحتهما الأكدية. على كل حال، كانت الجمهورية التركية هي التي ألغت الخلافة في عام 1924.

وبالعودة إلى وقائع الحرب العالمية الأولى، فإننا نرصد أنّ ما زاد في تعقيد المجابهات في تلك المرحلة أنّ إيطاليا تصرفتم بمفردها وقررت احتلال مدينة إزمير، دة الإمبراطورية العثمانية على شاطئ المتوسط، وأرسلت إليها قوات حربية.

4 إيلبير أورتالي، **الغازي مصطفى كمال أتاتورك**، ترجمة مجد الدين صالح (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2019)، ص 119-121.

5 "Russia and Secret Treaties: Terms Published," *The Manchester Guardian*, 26/11/1917.

انزعجت الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا من الخطوة الإيطالية في احتلال إزمير التي كانت ستمنح لليونان⁽⁶⁾، التي طمحت إلى احتلال جزء من بر الأناضول الغربي، معتبرة المنطقة جزءاً منها، بدليل أنه كان يعيش فيها نحو مليون ونصف مليون يوناني، باعتبارهم رعايا عثمانيين. وفي 5 نيسان/ أبريل 1919، كلفت الحكومة العثمانية الجنرال مصطفى كمال باشا بقيادة الجيش التاسع المؤلف من فرقتين لصد الهجوم الإيطالي المرتقب. أما فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة فشجعت، ردّاً على سياسة إيطاليا، اليونان على غزو إزمير في 15 أيار/ مايو لقطع الطريق على القوات الإيطالية التي نزلت على سواحل المدينة. وبعد أيام قليلة نزل مصطفى كمال في سامسون على البحر الأسود، ثم انفصل عن حكومة السلطان في إسطنبول التي تعاونت مع الحلفاء، وبدأ حرب الاستقلال ضد اليونان من هناك، وأصبح بعد ذلك قائد القوات الوطنية غير التابعة لإسطنبول⁽⁷⁾.

أولاً: روسيا: من عدوّ تركيا الأكبر إلى الصديق الأقرب

مهد انتصار الثورة البلشفية الطريق لانسحاب روسيا من الحرب وفقاً لمعاهدة بريست-ليتوفسك Brest - Litovsk في 3 آذار/ مارس 1918⁽⁸⁾؛ ما خفّف الضغط العسكري الروسي على الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية العثمانية التي كانت تمتد عشرات، بل مئات الأميال، بسبب الحدود الطويلة المشتركة بين البلدين؛ الأمر الذي حرر قسمًا مهمًا من القوات العثمانية للقتال على الجبهات الأخرى. وبهذا، انتقلت موسكو من خانة العدو الأكبر والأقرب جغرافياً، والأهم استراتيجياً لتركيا، إلى خانة الصديق والحليف، ووفرت شرطاً مهماً من شروط انتصار القوات الوطنية بقيادة مصطفى كمال في حرب الاستقلال ضد دول الحلفاء، في الفترة 1919-1923. بتعبير آخر، تحوّلت موسكو بين ليلةٍ وضحاها من عدو تركيا الأكبر إلى حليفها الرئيس؛ إذ كان عدوّهما مشتركاً وواحدًا، وهو تلك القوى الدولية في الغرب التي قسّمت تركيا مناطق احتلال ونفوذ بينها، وحاولت إفشال الثورة البلشفية بدعم أعدائها الذين عُرفوا بـ "الروس البيض" في روسيا؛ بسبب أيديولوجيتها الاشتراكية. وفي العام الذي أعلن فيه النظام الروسي الجديد انسحابه من الحرب؛ أي عام 1917، أعاد الأراضي التي احتلتها روسيا في تلك الحرب، إضافة إلى أراضٍ استولت عليها في حروب سابقة⁽⁹⁾. ولم يمض وقت طويل حتى عُقد تحالف بين الحركة الوطنية التركية بقيادة مصطفى كمال والنظام البلشفي الجديد في موسكو، واعترف البلاشفة بالخط الذي رسمه مجلس الأمة الكبير في أنقرة عام 1920 لحدود تركيا. أما الأتراك فقد تخلّوا "عن بلاد الكرج [جورجيا الحالية] التي أصبحت بولشفيكية ومرتفاً بطومي مع المدينة وتنازلوا عما لهم من الامتيازات في هذه البلاد. وقبل الفريقان فتح المضائق لسفن جميع الأمم وترتيب قوانين يرتبها مؤتمر مؤلف من مندوبي الدول الساحلية وتنفذه جميع الدول، وبمقابل ذلك تعلن حكومة روسية السوفيت [كذا] أن حكومة تركية مؤدية كل ما عليها من الديون ومعفاة وبريئة من كل الذمم والتعهدات لحكومة القيصر السابقة"⁽¹⁰⁾. أضاف إلى ذلك أن تنازل الأتراك عن مرتفاً بطومي كان "بمقابل تعهد البولشفيك سرّاً لهم بتقديم وسائل نقدية ووسائل حربية للدفاع والحق أنه في تلك الآونة أخذت سفن البولشفيك تمخر عباب البحر الأسود حاملة إلى الشواطئ التركية الصناديق مملوءة ذهباً وأسلحة وعتاداً"⁽¹¹⁾.

6 J.C. Hurewitz, "Political Clauses of the Treaty of Sèvres 10 August 1920," in: J.C. Hurewitz, *The Middle East and North Africa: A Documentary Record*, vol. 2 (New Haven: Yale University Press, 1977) p. 221.

7 "نصّ الاتفاق على حلول القوات الفرنسية مكان القوات البريطانية في غربي خط اتفاقية سايكس - بيكو في الساحل السوري وكيليكيا، بدءاً من 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919". وجاء في نص الاتفاق أنه مطابق "للترتيبات المتخذة في كانون الأول/ ديسمبر 1918 بين المسيو كليمنصو والمستر لويد جورج". ينظر: محمد جمال باروت، **العلاقات العربية - التركية (1918-1923): السيرة والتاريخ والمصائر** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023)، ص 116.

8 J.C. Hurewitz, "Legal and Political (Brest-Litovsk) Treaty: Russia and the Ottoman Empire, 3 March 1918," in: Hurewitz, pp. 113-115.

9 Halidé Edib, *Turkey Faces West: A Turkish View of Recent Changes and their Origin* (New Haven: Yale University Press, 1930), p. 144.

10 أديب التقي البغدادي، "مصطفى كمال باشا في الأناضول-3: التأثير البولشفيك- أنقرة وموسكو [كذا]"، **مجلة العرفان**، مج 9، ج 3 (كانون الأول/ ديسمبر 1923)، ص 224.

11 المرجع نفسه، ص 225.

لم يكن هذا التحالف كأيّ تحالف بين بلدين جارين؛ لأن أهمية روسيا بالنسبة إلى تركيا كانت مزدوجة؛ فهي قوة إقليمية كبيرة على الحدود، وقوة دولية ذات شأن توازن الدول الرئيسة في غرب أوروبا. وقد بدأ التعاون بين الطرفين عام 1920 قبل الخطوة الرسمية القاضية بتوقيع معاهدة صداقة بينهما في 16 آذار/ مارس 1921⁽¹²⁾. وكذلك تعاون البلدان على إنهاء الدولة الأرمنية المستقلة، التي أعلنت بموجب معاهدة سيفر. وفي خريف 1920 شتًا هجوماً على أرمينيا واقتسماها؛ لأنها منعت مرور المساعدات من روسيا إلى القوات الوطنية في تركيا⁽¹³⁾.

أعدت العاصمة الروسية (لم يعلن رسميًا عن قيام الاتحاد السوفياتي إلا في كانون الأول/ ديسمبر 1922) المساعدات المالية والعسكرية على الحركة الوطنية التركية، التي اتخذت من أنقرة عاصمة لها، بينما كان نظام السلطان - الخليفة في إسطنبول تحت رحمة قوات دول الحلفاء الأجنبية، وخاصة البريطانية. فعلى سبيل المثال، عندما كان مصطفى كمال يستعرض جيشه في بعض المرات كان يصطحب معه "سفير الجمهورية الروسية الرفيق أرالوف وملحقه العسكري، عسكروف". وفي إحدى خطبه بعد الانتصار في معركة "أين أونى" الثانية ومعركة صقاريا قدم لجنوده التهاني وزاد عليها تهاني الحاضرين: الرفيقين أرالوف وأبيولوف، ممثلي الأمتين الروسية والأذرية - وسائر من معهما⁽¹⁴⁾.

ثانيًا: العرب والأتراك: تعاون بعد عداء

بالترامن تقريبًا مع الوقائع السابقة، كانت الحركتان الوطنيتان العربية والتركية تشعران بضرورة التعاون لصدّ الأخطار الخارجية، والاعتراف بهوية كل منهما القومية والسياسية المستقلة، وذلك بعد المواجهات الحربية بين دول الحلفاء من جهة والحركة الوطنية التركية من جهة أخرى. أما على الجانب العربي، فقد انكشف أمر اتفاقية سايكس - بيكو، وأدرك العرب أن بريطانيا غير جادة في تنفيذ التعهدات التي التزمت بها في مراسلات الحسين - مكماهون المعروفة وغيرها، بحيث تقوم دولة عربية واحدة مستقلة في آسيا العربية برئاسة الشريف الحسين بن علي (1853-1931). وبناء على هذا بدأ بعض الوطنيين العرب في بحث إمكانية التوصل إلى تفاهم تركي - عربي لمصلحة الطرفين، على الرغم من العداء الذي ساد بينهما في أثناء الحرب العالمية الأولى، وتصادم القوميتين العربية والتركية، وإعدام أحمد جمال باشا (السفاح) (1872-1922)، قائد الجيش العثماني في سوريا، نخبة شباب العرب في بيروت ودمشق عام 1916. وقد نشر محمد جمال باروت كتابًا قيمًا وكتيف التوثيق بعنوان **العلاقات العربية - التركية (1918-1923): السيرة والتاريخ والمصائر**⁽¹⁵⁾، عالج فيه تفاصيل العلاقات العربية - التركية في تقلباتها بين التحالف والتمايز، ثم القطيعة في بداية العقد الثاني من القرن العشرين.

لم يتحقق التعاون العربي - التركي بعد الحرب الأولى بسرعة على مستوى القيادات السياسية العليا؛ وذلك لسببين: الأول، أن الأمير فيصل بن الحسين الذي قيض له أن يمسك بقيادة الحركة القومية العربية في سورية كان واقفًا تحت ضغط بريطاني شديد للتوصل إلى اتفاق مع الفرنسيين، حلفائهم في الحرب والطامعين في تركيز نفوذهم في سورية ولبنان. أما السبب الثاني فيتعلق بالعراق؛ إذ إن الأمير فيصل لم ير مصلحة في محاربة بريطانيا، القوة الدولية الأقوى في المنطقة وقتها، والتي اعتبر أنها يمكن أن تؤدي دورًا مهمًا في لجم جماح فرنسا في سورية. وقد كان فيصل حساسًا، وعن حق في رأينا، لمسألة موازين القوى الوطنية والإقليمية والدولية.

12 J.C. Hurewitz, "Treaty of Friendship: Turkey and Russia: 16 March 1921," in: Hurewitz, pp. 250-253.

13 William L. Cleveland & Martin Bunton, *A History of the Modern Middle East*, 6th ed. (New York: Routledge, 2018), p. 168; M.E. Yapp, *The Making of the Modern Near East 1792-1923* (London: Longman Group, 1987), p. 315.

14 كاتب عظيم [كذا]، **النهضة القومية [التركية]**، عني بنشره وطبعه حسين حسنين (القاهرة: المطبعة المصرية، [د.ت.])، ص 47-48.

15 باروت.

مع ذلك، فإنه كان بين صفوف الوطنيين السوريين من يميل إلى إنشاء تحالف تركي - عربي جديد قد يتمكن من قلب الموازين. واللافت أن السوفيات اعتمدوا لغة إسلامية في دعايتهم لتعبئة شعوب الشرق إلى جانبهم، فأصدروا "نداء إلى العمال المسلمين في روسيا والشرق" في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1917⁽¹⁶⁾. وكان الكماليون يبتون في تركيا وسورية دعاية اعتمدت لغة دينية إسلامية لتعبئة المقاومة في البلدين. والواقع أن الكثير من الأمم، في الشرق أو الغرب، تكون في مرحلة "صراع وجودي" مع أمة أخرى تستخدم الرابط الديني لتعبئة شعبها ضد الأجنبي؛ لأن الهوية الدينية قد توحد، بينما تميز الهويات الإثنية والسياسية بين أجزاء الدولة الواحدة. ولما كانت الدولة العثمانية تضم أقليات إسلامية كثيرة، كالترك والأكراد والشركس، فإن الخيط الإسلامي (وكذلك خيط الخلافة) كان يربطها معاً باعتباره خط الدفاع الأخير⁽¹⁷⁾. ونشير هنا إلى ما جاء في أحد منشورات مصطفى كمال الموجهة إلى الشعب السوري، في نهاية عام 1919؛ إذ يقول: "إخوتي المحترمين: أتحدث إليكم بصوت متضرع يخرج من قلب مفعم بالحزن بسبب الظلم والتعذيب والخيانة التي يمارسها العدو وبسبب الانشقاق الحاصل بين أبناء الدين الواحد، الأمر الذي أحدثه وأذكاه دعاة السوء والشر. دعونا نضع نهاية لسوء الفهم [بيننا]، ودعونا نمد أيدينا لنصنع السلام معاً ونوجه سلاحنا نحو الخونة الذين يريدون تدمير الإسلام، وإلا فإن أي توبة لن تجدي نفعاً فيما بعد. لا نتخذوا بالوعود الكاذبة، فأمامكم الاتفاقات السرية 'سايكس - بيكو' بين أعداء الدين [...] استيقظوا ولا تعودوا إلى النوم ثانية. إننا لا ننوي الاستيلاء على بلاد المسلمين⁽¹⁸⁾، ولكننا نرغب في إنقاذها من أولئك الذين يعتقدون أن في إمكانهم هضمها بسهولة، وهؤلاء هم أعداء الإسلام [...] وحيث إننا حررنا قونية فإن خطوط اتصال الحلفاء في الشرق قد قطعت. إن مجاهدينا سيكونون قريباً جداً في ضيافة إخوانهم العرب وسيستطيعون معاً، من خلال اتحادهم، هزيمة أعدائهم وتدميرهم. ليعش طويلاً إخواننا في الدين ولتكن الهزيمة مصير العدو"⁽¹⁹⁾.

ويقول المؤرخ زين نور الدين زين إن الأمر لم يقتصر على سورية، بل إن فكرة التحالف مع الأتراك شملت العراق، وكانت محل دراسة جدية من الوطنيين العراقيين⁽²⁰⁾، وإن ثورة 1920 العراقية (التي استخدم الطيران البريطاني ضدها الغازات السامة بأوامر من تشرشل) سببت قلقاً شديداً للحكومة البريطانية. يقول هذا المؤرخ: "علينا أن نشير إلى أن الضباط العراقيين الذين كانوا في السابق يعملون في الجيش التركي والذين انضموا بعد ذلك إلى الثورة العربية فأصبحوا في دمشق من المستشارين الذين كان فيصل يثق بهم ويعتمد آراءهم، لم يكتفوا بتشجيع الثورة، بل هم الذين كانوا قد خططوا لها وترعّموا قيادتها. وعلى الرغم من أنه لا يمكن اتهام فيصل بأنه اشترك مباشرة في الأحداث التي هزت العراق، فإن مسؤوليته عن قيام الثورة غير المباشرة أمر لا يمكن إنكاره. فهو لم يستطع أن يقف في وجه الضغط الذي كان كبار قواده من العراقيين يمارسونه عليه خشية أن يفقد ثقتهم به أو التخلي عنه والكف عن مناصرته. ثم كانت هناك جماعة تشير على فيصل بأن يتفق مع مصطفى كمال باشا كي يحارب العرب إلى جانب الأتراك مرة أخرى، وهكذا يحول الشعبان التركي والعربي دون تثبيت أقدام الفرنسيين في أي بقعة من بقاع الشرق الأوسط"⁽²¹⁾.

16 J.C. Hurewitz, "Soviet Appeal to Muslim Workers in Russia and the East: 3 December 1917," in: Hurewitz, pp. 108-110.

17 كلاوس كرايزر، **أتاتورك: سيرة حياته**، ترجمة سميرة قوزال (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023)، ص 219-220.

18 يقصد هنا - في رأينا - الجزيرة العربية.

19 "A Letter to the Syrians," *Enclosure*, no. 191. From Colonel Meinershagen to Earl Curzon. Cairo, December 2, 1919. Public Record Office/ National [British] Archives [Kew Gardens, England]. FO 406/41.

ظل مصطفى كمال يمارس سياسته الإسلامية في تركيا نفسها في أثناء حرب الاستقلال، ففي 28 كانون الثاني/ يناير 1920 خاطب المجلس الوطني المنعقد في أنقرة قائلاً: "إن من يشكلون مجلسكم العالي ليسوا أتراكاً، وليسوا فقط شركسة وليسوا فقط أكراداً وليسوا فقط لازاً. إنهم من جميع العناصر الإسلامية المركبة". ينظر: محمد نور الدين، **حجاب وحراب: الكمالية وأزمات الهوية في تركيا** (بيروت: رياض الريس للنشر، 2001)، ص 100.

20 Zeine N. Zeine, *The Struggle for Arab Independence*, 2nd ed. (New York: Caravan Books, 1977), p. 136;

صدر هذا الكتاب بطبعة عربية تختلف قليلاً عن الطبعة الإنكليزية بعنوان: زين نور الدين زين، **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان** (بيروت: دار النهار للنشر، 1977).

21 زين، ص 155-156.

وعلى الرغم من رفض فيصل هذه الفكرة في البداية، فإنه وافق عليها في تموز/ يوليو 1920، بعد فوات الأوان⁽²²⁾. وكان الضباط العراقيون جادّين في هذا المسعى. فلا عجب، إذًا، من تصريح تشرشل الذي كان يحتل منصب وزير المستعمرات البريطاني، عندما خطب في مجلس العموم في 22 آذار/ مارس 1920، مشيرًا إلى سبب تخوّفه من الأوضاع في العراق: "إن العرب الذين انزعجوا من احتلال سورية يميلون اليوم للمرة الأولى، وبطرائق مختلفة، إلى توحيد قواهم مع الوطنيين الأتراك، أي توحيد قوتين كانت سياستنا قد ترسخت بفضل فصلهما عن بعضهما" ⁽²³⁾.

أما بالنسبة إلى الحركة الوطنية السورية فإنها تحركت عندما كان الأمير فيصل، الذي أعلن ملكًا على سورية في 7 آذار/ مارس 1920، يحضر مؤتمر الصلح الدولي. وعندما وصلت هذه الحركة إلى اقتناع بعدم نجاح الملك فيصل في الحصول على استقلال سورية راحت تقنع أخاه، الأمير زيد، الذي لم يرح دمشق، بضرورة الاتصال بالأتراك لمعرفة موقفهم من الأمانى القومية العربية⁽²⁴⁾. وهكذا، غادر سعيد حيدر دمشق، أحد مؤسسي جمعية العربية الفتاة التي تكوّنت قبل الحرب، وبديع بكداش، وكان ضابطاً رفيع الرتبة من أصل سوري، إلى تركيا للاجتماع بمصطفى كمال. ويقول حيدر إنه سافر ورفيقه إلى إسطنبول، وعندما وصلا إلى العاصمة التركية أخذًا سرًا إلى اجتماع للتعرف إلى أعضاء لجنة تمثّل مصطفى كمال الذي كان في ذلك الحين في مدينة سامسون. وبعد مفاوضات طويلة وُضعت صيغة اتفاق يتألف من أربعة بنود رُفِعَ إلى الحكومة السورية للموافقة عليه. وليس هناك دليل واضح على موافقة الحكومة السورية، أما البنود التي بُحثت فهي ما يأتي:

✧ "أولاً: يجري بعض التعديل في حدود سورية الشمالية لا سيما في منطقة الموصل [كانت ضمن المنطقة الفرنسية قبل أن تصر بريطانيا على إلحاقها بالعراق الواقع ضمن منطقة نفوذها واندابها]".

✧ "ثانيًا: تنظيم جبهة مشتركة ضد الدول الغربية من معان إلى البحر الأسود".

✧ "ثالثًا: توضع القوات التركية والعربية تحت قيادة موحدة".

✧ "رابعًا: في حال إسفار الجهود المشتركة المبذولة عن نصر ضد الغرب، فإن العرب والأتراك يعيشون جنبًا إلى جنب ضمن دولة مستقلة، ولكن علاقتهم تكون على ما كانت عليه العلاقات بين النمسا والمجر قبل الحرب عندما كانتا داخل الإمبراطورية النمساوية - المجرية. وتنظم هذه العلاقات اتفاقية مدتها خمسون سنة".

كانت هذه هي الخطوط العريضة التي على أساسها كان الأتراك والعرب سيتعاونون للدفاع عن مصالحهم المشتركة ضد الغرب⁽²⁵⁾. ويؤكد هذا أن أحد أهم الأسباب التي دفعت الوطنيين السوريين إلى التعاون مع الشريف الحسين والمشاركة في الثورة العربية الكبرى، كان هدف الاستقلال خوفًا من احتمال قيام الدول الأوروبية، خاصة فرنسا، بتحويل سوريا إلى مستعمرة فرنسية على نموذج الاستعمار الفرنسي للجزائر⁽²⁶⁾. غير أن الأحداث كانت أسرع مما تصور الجانبان، والأغلب أن هذا الاتفاق لم يُوقَّع ولم يُعمل به.

22 المرجع نفسه، ص 156.

23 Zeine, p. 136.

فُضِّلنا هنا ترجمة النص الأصلي لتصريح تشرشل الوارد في كتاب زين بالإنكليزية.

24 زين، ص 156.

25 المرجع نفسه، ص 253.

26 حول هذه النقطة، ينظر القسم الأخير من هذه الدراسة:

Mahmoud Haddad, "The Rise of Arab Nationalism Reconsidered," *International Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 26, no. 2 (May 1994), pp. 213-217.

وقد عثر المؤرخ السوري الراحل عبد الكريم رافق على اتفاق، أو بالأحرى مشروع اتفاق، مكتوب في حلب في 16 حزيران/ يونيو 1919 أعاد نشره باروت⁽²⁷⁾، بعنوان: "بنود اتفاق فيصل - مصطفى كمال وأطرافه". وينص الاتفاق على تأسيس اتحاد تركي - عربي إسلامي ضد الحلفاء. وتألّف، وفق نصّه الفرنسي المترجم لمصلحة الاستخبارات الفرنسية، من تسع مواد مقسمة إلى ديباجة ميثاقية وثلاث مواد سياسية تعاهدية، وأربع مواد عملية تنفيذية. وكان طرفا مشروع الاتفاق الحكومتين العثمانية والعربية في الحجاز، وقد وافق عليها الشريف الحسين، وكانت لغته دينية تهاجم "الموقف العدواني للقوى الأجنبية تجاه الدين الإسلامي"⁽²⁸⁾.

الديباجة الميثاقية: ذكرت المادة الأولى أن الطرفين المتعاقدين، الأمة التركية والأمة العربية، يشهدان بكل أسف انقسام العالم الإسلامي، وأن واجبهما رأب الصدع، وتأكيد التعاون بين الأمتين اللتين تربطهما المصالح المادية والروحية والدينية، وأن على الأمتين التعاضد والدفاع بقواتهما الموحدة عن الدين والوطن. وجاء في المادة الثانية أن في هذه اللحظة التي يتهدد فيها استقلال العرب ووحدّة الأتراك وحريتهم، بسبب رغبة الدول الأجنبية في أن تقتسم فيما بينها العراق وفلسطين وسوريا وما جاورها، إضافة إلى جزء من آسيا الصغرى، فقد عزمنا، غداة انعقاد مؤتمر الصلح وإصداره قراراً بشأننا، على إعلان الجهاد المقدس للدفاع عن الدين والوطن. ولبلوغ هذا الهدف، فإن الطرفين المتعاقدين يتفقان على ما وصفناه بالبنود السياسية.

البنود السياسية: تتألّف من ثلاث مواد، وهي كما يلي، وفق ما وردت في نص الاتفاق: "لا يمكن للطرفين المتعاقدين قبول تقسيم الإمبراطورية التركية والبلاد العربية (Arabie) أو احتلالها من قبل القوى الأجنبية" (المادة الثالثة)، وتعترف الحكومة العثمانية رسمياً بتشكيل حكومة عربية تنضم إليها الحجاز وميدان (ربما مديان التي تعني باللغة السامية شرق الأردن أو المدينة المنورة الحجازية) والعراق وفلسطين ودمشق وبيروت وحلب، شريطة أن ترتبط البلاد العربية بالإمبراطورية العثمانية. وتقبل الحكومة العثمانية وتصدّق على سلطة الشريف الحسين على هذه البلاد باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل حول شكل الحكومة والقضايا الأخرى التي ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقات أخرى (المادة الرابعة). وفي المناطق التي يحتلها جيش الشريف الحسين، سيذكر اسم السلطان من منابر الجوامع، وسيعترف بخلافة السلطان من جديد، ويُعلن ذلك (المادة الخامسة).

البنود العملية: تتألّف من أربع مواد عملية، ينص أولها على البدء في الجهاد المقدس "بتوجيه صاحب السمو الشريف بياناً إلى البلاد العربية، شارحاً لها الموقف العدواني للقوى الأجنبية تجاه الدين الإسلامي، وعقد الشريف الحسين مع جميع شيوخ وزعماء القبائل العربية اتفاقيات ومعاهدات وتنظيمه جيوشاً وطنية مماثلة للتنظيمات الوطنية في الأناضول بشكل تكون فيه هذه القوى عند إعطاء الإشارة جاهزة تماماً للمساهمة مباشرة في الجهاد المقدس (المادة السادسة). وجاء البند السابع أكثر عملية أو برسم التطبيق السريع؛ إذ نصّ على أن يتعهد الشريف بمساعدة القوى الوطنية في الأناضول، بجمع قواته المتوافرة وغير المشتغلة بمهام أخرى. ويتعهد الطرفان المتعاقدان بالتعاون المتبادل مادياً ومعنوياً، في الهجوم كما في الدفاع، حتى تحقيق هدفهما (المادة السابعة)، ويُعلم الشريف بمضمون هذا الاتفاق ليس فقط عرب الحجاز وزعماء القبائل، ولكن أيضاً الإمام يحيى محمد حميد الدين والسيد إدريس السنوسي⁽²⁹⁾ والمسلمين في بنغازي ومراكش وتونس والجزائر والهند وبيدل جهوده ليُجعل هؤلاء يساهمون في الانتفاضة العامة. ويتعهد الشريف أن يتخذ في الحال جميع الإجراءات التي لا بد منها لتحقيق هذا الهدف. وجاء في المادة التاسعة والأخيرة أن هذا الاتفاق كتب على نسختين وقّعتهما [...] في حلب في 16 حزيران/ يونيو 1919 بواسطة أسعد بك متصرف الكرك وبلي ذلك اسم مصطفى كمال من اليسار ثم اسم الشريف فيصل".

27 باروت، ص 89-91.

28 المرجع نفسه، ص 90-91.

29 محمد إدريس السنوسي (1890-1983) حفيد محمد بن علي السنوسي الذي أنشأ الطريقة الصوفية السنوسية، وزعيم العائلة السنوسية السياسي والديني منذ القرن التاسع عشر. اضطر إلى اللجوء إلى إسطنبول بعد احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب - بنغازي عام 1911. وكان يُنظر إليه على أنه زعيم ديني مقيم في العاصمة العثمانية.

يقول باروت: "تقاطع دياجاة الاتفاق وبنودها السياسية - العملية إلى حد بعيد، لكن في شروط انعقاد مؤتمر الصلح ووضوح مجريات اللعبة الكبرى لاقتسام الدولة العثمانية، وتطبيق اتفاق سايكس - بيكو على سوريا والعراق والقسم الغربي من الأناضول، مع الأسس التي قام عليها مشروع اتفاق العرب والأتراك، ولا سيما في مبدأ رتق الصدع بين [الطرفين] تجاه المخاطر التي تهددهم معاً، وتنظيم العلاقة بينهما على أساس منح الحكومة العثمانية الولايات العربية استقلالاً ذاتياً في إطار الدولة العثمانية، تمثل الخلافة عروته، وقتال كل جيش تحت إمرة قيادته" (30).

إلا أن التقديرات العامة عند أكثر من مؤرخ أن مشروع الاتفاق وُضع لكنه لم يوقع أيضاً (31). نذكر كذلك أن اتصالاً كان بين الحركة الوطنية السورية وموسكو في عام 1920، وكان شكيب أرسلان أحد المشاركين فيها وبالتنسيق مع الملك فيصل (32). أما التوصل إلى لقاء زعيم الاتحاد السوفياتي فلاديمير لينين Vladimir Lenin (1917-1924)، فكان من نصيب إحسان الجابري الذي كان سكرتيراً للملك فيصل في السنة نفسها. ويذكر الجابري "ذهبت إلى إيطاليا. تركت الملك فيصل واتصلنا بالشيوعيين وكان لي شرف مقابلة لينين وتشيشيرين. والحقيقة أن لينين شخصية مدهشة تفيض ذكاء. قال لي سنسير مع الأمم المغلوبة على أمرها بقدر إمكاننا" (33).

ولعل ما كتبه الشيخ محمد رشيد رضا المعروف بخطه الديني السلفي في هذا الشأن يوضح المدى الذي ذهبت إليه النخبة العربية بما فيها النخبة الدينية في محاولتها التحالف مع البلاشفة على الصعيد الدولي. وقد نشر رشيد رضا عام 1919 مقالاً في مجلته المنار الصادرة في القاهرة محاولاً التقرب من موسكو، مع تحفظ بسيط، تحت عنوان "الاشتراكية والبشفية والدين": "تحارب إنكلترة وأحلافها البشفية بالقول والفعل والمال والدين، وقد كلفت الشيخ محمد بخيت مفتي مصر فأفتى في جواب سؤال بأن البشفية محرمة في الإسلام وفي كل دين لأنها عبارة عن الإباحة المطلقة للدماء والأموال والأعراض وجعلها عين المزدكية والزردشتية التي ظهرت في أمة الفرس، فرد عليه كثير من الكتاب الأزهريين وغير الأزهريين من الجهة التاريخية والدينية وغير الدينية [...] وقد كثر سؤال الناس إيانا عن رأينا في البشفية ما حقيقتها وهل هي ضرر محض كما تقول السياسة والفتوى أم هل هي خير عام أو خير خاص بقوم وشر على آخرين، فأقول: إن الذي فهمناه من مجموع ما اطلعنا عليه في البشفية أنها هي عين الاشتراكية المقصود منها إزالة سلطان أرباب الأموال الطامعين وأعوانهم من الحكام الناصرين لهم الذين وضعوا قوانينهم المادية على قواعد هضم حقوق العمال في بلادهم واستعمار بلاد المستضعفين من غيرهم، وأن معناها الحرفي 'الأكثرية' فالمراد منها أن يكون الحكم الحقيقي في كل شعب للأكثرية من أهله وهم العمال في الصناعة والزراعة وغيرها، وذلك بعد إسقاط سلطة أرباب الثراء والكبراء المشايخين لهم، وقد فعلوا ذلك في روسية بعد إسقاط دولة القيصرية الطاغية الظالمة التي لم يمنع مدعي الحكومات الديمقراطية من الفرنسيين والإنكليز ظلمها وطغيانها من محالفتها والاتفاق معها على اقتسام بلاد العثمانيين والفرس [...] ونحن نجزم بأن أعمالهم وأنظمتهم لا يعقل أن تكون موافقة لأحكام الإسلام ولا للمسلمين المذعنين لدينهم أن يتبعوهم فيها، ولكن ليس خاصاً بهم، بل جميع القوانين الوضعية المتبعة في أوربة [أوروبا] وكذا في الشرق كمصر والدولة العثمانية فيها ما يخالف الشرع الإسلامي، والمسلمون يتمنون نجاح الاشتراكيين نجاحاً يزول به استعباد الشعوب - وكلهم العمال - وإن كانوا ينكرون عليهم كما ينكرون على غيرهم كل ما يخالف الشرع، على أنهم غير مطالبين عندنا بفروع الشريعة ما داموا غير مسلمين" (34).

30 المرجع نفسه.

31 المرجع نفسه، ص 103؛ ذكر باروت أن رافق نشر اتفاق فيصل - مصطفى كمال في دراسته "نماذج من المقاومة الوطنية في الريف السوري 1918-1922" في كتابه: عبد الكريم رافق، محطات في تاريخ بلاد الشام الحديث (البلند: منشورات جامعة البلمند، 2006)، ص 131-173؛ والصحيح أنها نشرت في دراسته، "من تاريخ سورية الحديث: العلاقات السورية - التركية 1918-1926"، في كتاب: عبد الكريم رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث (دمشق: مكتبة نوبل، 2002)، ص 301-303؛ بشأن توقيع الاتفاق بوساطة أسعد بك متصرف الكرك، ينظر: باروت، ص 90، هامش 9.

32 Zeine, p. 134.

33 عبد لله حنا، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان 1820-1920، القسم الأول (بيروت: دار الفارابي، 1977)، ص 194.

34 مجلة المنار، مج 21، ج 5 (1919)، ص 252-256.

أما بعد نحو سنتين، عام 1921، فإنّ رشيد رضا كتب مشدداً على الجانب السياسي: "من آيات الله وحججه أيضاً أن سخر الدولة الروسية الجديدة لمظاهرة الترك وشد أزهرهم بعد أن كانت هذه الدولة على عهد القياصرة هي الخطر الأكبر على السلطنة العثمانية" (35). إلا أن محاولة إقامة تعاون عربي مع روسيا البلشفية، القوة الدولية الموازية لفرنسا وبريطانيا آنذاك، على غرار التعاون التركي - البلشفي كانت أمراً بعيد المنال، بسبب المسافة الجغرافية بين الجانبين.

بالعودة إلى مناقشة التعاون بين الحركة الوطنية السورية مع الحركة الوطنية التركية، فإننا نكتشف ما قد عدّه تناقضاً غريباً في التطورات الميدانية. فمن ناحية، سعى مصطفى كمال إلى فصل إيطاليا وفرنسا عن باقي حلفائهما ودفعهما إلى الجلاء عن الأراضي التركية في كيليكيا بالنسبة إلى فرنسا على الجبهة الجنوبية المحاذية للشمال السوري مقابل أن تطلق يد فرنسا في سورية، على ما يمكن تقديره في ضوء التطورات فيما بعد. أما بالنسبة إلى إيطاليا فقد وافق مصطفى كمال على إعطائها بعض الامتيازات الاقتصادية التي تتضمن استغلال مناجم الفحم في هيركليا (والتي كانت مذكورة في المادة 7 من معاهدة سيفر الثلاثية بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) (36)، وتمكّنت القوات التركية من هزيمة القوات الإيطالية التي احتلت منطقة أضاليا في الجنوب الغربي من الأناضول، فبدأت هذه القوات في الانسحاب في تموز/ يوليو 1921.

من ناحية أخرى، استمر القائد التركي في التعاون مع الحركة الوطنية السورية بعض الوقت، آملاً أن يؤدي ذلك، على ما يبدو، إلى زيادة الضغط على القوات الفرنسية لإخراجها من الصراع والتفرغ لمحاربة القوات اليونانية التي كانت تحتل منطقة غرب الأناضول انطلاقاً من مدينة إزمير، والتي كانت تتسم بوجود حاضنة سكانية مؤلفة من أكثر من مليون ونصف المليون يوناني تدعمها في تلك المنطقة. على كل حال، ظل هذا التعاون نشيطاً حتى عام 1923 وبداية عام 1924؛ أي حتى اتفاق فرانكلان-بويون في أنقرة (37)، الذي أعطت بموجبه فرنسا الشرعية للحكومة التركية الوطنية ووافقت عليه الحكومة الفرنسية بسرعة قياسية، وبالتحديد بعد ثمانية أيام فقط، ودخل حيز التنفيذ في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1921، ونص على انسحاب فرنسا من مناطق كلس وعنتاب وكيليكيا وروم قلعة ومرعش وأورفة، وبلغت مساحة الأراضي التي تنازلت عنها نحو 18 ألف كيلومتر مربع من الأراضي السورية بالنسبة إلى الحدود التي وضعت لسورية بموجب معاهدة سيفر (1920) (38). ورأى إدمون رباط أن هذه الاتفاقية باستثناء اسمها كانت معاهدة سلام (39).

على الرغم من أن بعض السوريين اعتبروا أن الاتفاق المذكور ستكون له نتائج سلبية على سورية، وكانوا يعتبرون أن معظم المناطق التي تنازلت عنها فرنسا لتركيا كانت تتبع ولاية حلب، فإنّ عدة أحداث تشير إلى أن التعاون العربي - التركي لم يتوقف مباشرة بعد توقيع ذلك الاتفاق؛ إذ إن يوسف الحكيم، مثلاً، يذكر أن مظاهرة قامت في اللاذقية يوم عيد الأضحى عام 1922 للاحتجاج على فصل فرنسا مقاطعة بلاد العلويين عن سورية. وقد حملت المظاهرة صورة الزعيم التركي مصطفى كمال مجللةً بالعلم العثماني. ويذكر الحكيم أن مصطفى كمال كان يحارب لإخراج فرنسا من كيليكيا ويمد العصابات الوطنية السورية الثائرة بالسلاح والعتاد (40). لكنّ تاريخ

35 مجلة المنار، مج 22، ج 10 (1921)، ص 742؛ مذكور أيضاً في: رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص 316.

36 J.C. Hurewitz, "Tripartite (Sèvres) Agreement on Anatolia: The British Empire, France, and Italy 10 August 1920," in: Hurewitz, p. 227.

37 J.C. Hurewitz, "Agreement (Ankara) for the Promotion of Peace: France and the Provisional (Nationalist) Government of Turkey: 20 October 1921," in: Hurewitz, pp. 262-265.

38 مجيد خدوري، قضية الإسكندرون (دمشق: مطبوعات المكتبة الكبرى للتأليف والنشر، 1953)، ص 7؛ قارن ب: أحمد عدنان العيطة، أزمة الإسكندرون وعصبة الأمم (دمشق: دار الأهالي، 2000)، ص 16-17.

39 Mango, p. 349;

إدمون رباط، التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ترجمة حسن قبيسي، ج 1 (بيروت: الجامعة اللبنانية، 2002)، ص 484.

40 يوسف الحكيم، سورية والانتداب الفرنسي (بيروت: دار النهار، 1983)، ص 79.

هذا التعبير الشعبي عن استمرار التعاون العربي - التركي حتى عام 1922 يبدو متأخرًا؛ لأن الحركات الشعبية السورية المسلحة⁽⁴¹⁾ ربطت نشاطاتها مع الثورة الهنانية (نسبة لزعيمها إبراهيم هنانو 1869-1935) في منطقة حلب والشمال وثورتي الرقة إلى الشرق والساحل إلى الغرب رافعة الراية العربية - التركية المزدوجة، التي نُقِشَ عليها الآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: 10)، قبل الاتفاقية التركية - الفرنسية، وتزامن إخمادها مع قطع الكماليين دعمها بالذخيرة حين أعلن الاتفاق. فكان دافعه الاستراتيجي - السياسي التركي هو التفرغ لمواجهة اليونان وفصلها عن أي قوة أخرى وعزلها⁽⁴²⁾. أمّا الدافع الفرنسي لتوقيع الاتفاق فكان إنهاء الثورات السورية في الشمال وفسخ تحالف الكماليين معها؛ إذ "لم يعد الفرنسيون [...] مستعدين لا عسكريًا ولا ماليًا للقتال في وقت واحد ضد الكماليين وضد الثوار السوريين، فاختاروا التوصل إلى اتفاق سلام مع الكماليين"⁽⁴³⁾. وهذا ما جعل فرنسا تحشد قواها ضد ثورتَي الشمال والساحل في سورية⁽⁴⁴⁾، وترجح المواجهة العسكرية في النهاية. كان التخلي التركي عن التحالف مع الحركة الوطنية السورية المقاتلة واضحًا في الاتفاقية التركية - الفرنسية المذكورة سابقًا، والتي جاء في مادتها الثالثة: "خلال مدة أقصاها شهران من تاريخ توقيع هذا الاتفاق، تتسحب القوات التركية إلى الشمال وتتسحب القوات الفرنسية إلى الجنوب من الخط المحدد في المادة الثامنة؛ أي إنه جرى "فصل للقوات" أو إنشاء فاصل بري يجعل الاتصال بين الأتراك والسوريين صعبًا. وقد تألفت جمعية باسم "الجمعية الإسلامية" في عدة مراكز في أوروبا وآسيا، وربما كان مركزها أنقرة، وكانت تعمل بصورة وثيقة مع الكماليين، بدليل أن أحد أعضائها البارزين في دمشق تلقى رسالة منهم في أوائل كانون الأول/ ديسمبر 1921، تشير إلى تفهم الكماليين لانزعاج السوريين⁽⁴⁵⁾ من توقيع الاتفاقية بينهم وبين الفرنسيين. وتدعي كذبًا أن الحقيقة هي أن الاتفاقية تعطي الأتراك السيادة على سورية (في الواقع تعطيهم فقط امتيازات في لواء الإسكندرون)، وأن دور فرنسا باعتبارها دولة متدبة يقتصر على الأمور المالية والإدارية. ويلاحظ أن نشاط الجمعية الإسلامية وتأكيدها على جمع المسلمين ومعاداة الأوروبيين أخرج موقف الكماليين إثر عقدهم الاتفاقية مع فرنسا؛ ما اقتضى إرسالهم هذه الرسالة لإشاعة الاطمئنان ولإبداء استعدادهم للتوجه إلى سورية في وقت لاحق، بعد أن ينهوا صراعهم مع اليونانيين الذين يمثلون خطرًا وجوديًا عليهم⁽⁴⁶⁾. إلا أننا سنرى أنه لم يجرِ الإيفاء بهذا الوعد. وقد نجحت بعض محاولات التهوين من أمر الاتفاقية التركية - الفرنسية في نهاية عامي 1921 و1922. "وكانت بعض الطبقات المحافظة والدنيا تؤيدها علنًا [...] وأثار هذا التأييد خشية الطبقات العليا من إقطاعيين وبورجوازيين ومثقفين وطنيين الذين عارضوا النفوذ التركي. كما أن الجمع بين الدعاية الكمالية والدعاية البولشفية من قبل البعض أثار غائلة بعض المحافظين، وكذلك حفيظة بريطانية خشية تسرب ذلك إلى فلسطين والعراق"⁽⁴⁷⁾.

ويبدو أن العرب عامة والسوريين خاصة لم يكونوا متنبهين للمادة السابعة في الاتفاقية التركية - الفرنسية، أو على علم بالملاحظات التي قدّمها الجانب التركي لفرنسا؛ حيث أسست المادة السابعة للخلاف التركي - السوري المستقبلي حول منطقة الإسكندرون، ونصّت على ما يلي: "ينشأ نظام إداري خاص للواء الإسكندرون. يجب أن يتمتع السكان الأتراك في هذه المنطقة بكل المرافق اللازمة لتنميتهم الثقافية وأن تحظى اللغة التركية باعتراف رسمي".

41 للاطلاع على بعض تفاصيل هذه الثورات ومراحلها في البداية والريف ثم المدن ينظر: رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ الشام الحديث، ص 311.

42 بروت، ص 695-697، 720-721.

43 المرجع نفسه، ص 720.

44 المرجع نفسه، ص 721.

45 في الأصل "الدمشقيين". إلا أننا وجدنا أن تعبير "السوريين" منطقي أكثر؛ لأن الاشتباكات الأساسية المسلحة وقعت بعيدًا عن دمشق في الشمال والشرق والساحل الغربي.

46 رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، ص 318-320.

47 المرجع نفسه، ص 324.

أما أهم الملاحظات التي أدلى بها الوزير التركي المفوض يوسف كمال لممثل فرنسا، والتي كانت ضمن اتفاقية السلام بين البلدين وعلم بها السفير الفرنسي المفوض هنري فرانكلان-بويون (Henry Franklin - Bouillon) (1870-1937)، فكانت كما يلي:

1. إبداء تحفظات صريحة فيما يتعلق بتسوية المسائل المتعلقة بمشاركة سورية في الدين العثماني، وفيما يتعلق بالامتلاكات المملوكة للدولة (الأميرية) والتاج (السلطانية) والأوقاف، وفيما يتعلق بجميع النقاط الأخرى الناشئة عن التغيير في الوضع القانوني لذلك القطر (سورية)، فإن هناك مسائل يتعين تسويتها عند إبرام معاهدة السلام الشاملة.

2. فيما يتعلق بمنطقتي الإسكندرون وأنطاكية، أوضح يوسف كمال بك أنه من الضروري منح السكان الحق في اعتماد علم خاص يحتوي على العلم التركي. ووافق المندوب الفرنسي على أنه من المرغوب فيه منح هذا الحق لسكان هذه المناطق ووعد بالاتصال بحكومته لهذا الغرض.

3. فيما يتعلق بالعفو الشامل المذكور في المادة الخامسة، والذي يجب أن يمنحه الطرفان المتعاقدان، يعلن المفوض الفرنسي أنه سيوصي حكومته باتخاذ الخطوات اللازمة للسماح لسكان منطقتي الإسكندرون وأنطاكية بالاستفادة من العفو المذكور.

4. يقدم المفوض التركي الطلب التالي الذي يوافق المفوض الفرنسي على دعمه عندما تنتظر فيه حكومته.

5. يتمتع المواطنون الأتراك في ميناء الإسكندرون والامتلاكات التركية والعلم التركي بالحرية الكاملة في استخدام الميناء. وفي هذا الصدد وفي جميع النواحي الأخرى، يجب معاملتهم على قدم المساواة الكاملة مع سكان البلاد وممتلكاتها ونقلها.

6. ينبغي تأجير منطقة خاصة لتركيا في هذا الميناء (الإسكندرون) لاستخدامها في العبور المباشر [ترانزيت] للبضائع القادمة من تلك (تركيا) أو المرسلة إليها. وينبغي تقديم كل التسهيلات لتركيا لربط هذه المنطقة بخط سكة الحديد الذي يربط الإسكندرون بالأراضي التركية، وكذلك فيما يتعلق بتشغيل المنطقة المذكورة وتأجيرها وتشغيلها.

7. لا يجوز فرض أي رسوم أو ضرائب بخلاف رسوم الحمولة والرصيف والإرشاد والمناورة والحجر الصحي التي يتم فرضها أيضاً على السكان والامتلاكات وعلم الدولة وعلى المواطنين الأتراك أو الممتلكات التركية أو العلم التركي عندما تكون البضائع القادمة من تركيا أو المرسلة إليها تمر بهذا المرفأ بصورة عبور (ترانزيت).

يثبت الواقع العملي أن الاتفاقية الفرنسية - التركية لم تكن، على الأقل في البداية، مجرد اتفاقية سلام، بل شبه تحالف؛ إذ "قامت فرنسا بتزويد قوات مصطفى كمال بالعتاد الحربي بما في ذلك الطائرات لاستخدامها ضد القوات اليونانية غربي الأناضول وبشحن العتاد من بيروت وطرابلس-الشام إما مباشرة إلى ميناء مرسين أو إلى ميناء الإسكندرون ومنه إلى كيليكية"⁽⁴⁸⁾. وقد أدت هذه العوامل إلى انتقال أنقرة من الدفاع إلى الهجوم، حيث استطاع مصطفى كمال، بعد كَرْ وفرّ، هزيمة اليونان في معركة صقاريا وإعادة تحرير إزمير في 9 أيلول / سبتمبر 1922.

ومع أن الكماليين وعدوا الحركة الوطنية السورية بالتوجه إلى التركيز على مساعدتها بعد الانتصار على القوات اليونانية⁽⁴⁹⁾، فإن السياسة التركية التي أشاحت بوجهها عن العرب عامة وعن سورية خاصة لم تتغير بعد الانتصار على اليونان والحصول على الاستقلال إثر توقيع معاهدة لوزان؛ فالخط السياسي والثقافي والديني الذي اتبعته أنقرة بعد ذلك كان معاكساً للخط الذي تبنته في أثناء حرب الاستقلال؛ إذ إن سياسة "التغريب" أو "الغربة" الجديدة كانت تقتضي الابتعاد عن الشرق والعرب والإسلام ومحاولة الاندماج في أوروبا والتطلع في اتجاه الغرب.

48 المرجع نفسه، ص 322.

49 باروت، ص 720-721.

أما قبل ذلك فلا شك في أنَّ حركة المقاومة السورية في شمال البلاد وشرقها وغربها الساحلي، مثلها مثل حركة المقاومة التركية في جنوب البلاد، أزعجت فرنسا وكبدتها خسائر عسكرية جعلتها تفكر بالطريقة التي تبنتها بعد ذلك لتخفيف الضغط على قوّاتها. ويعني هذا أنَّ الوطنيين العرب، خاصة السوريين، كان لهم دور قتالي عسكري ولم يحصرُوا نشاطهم في الأدوار السياسية والمفاوضات، كما ألمح حوراني الذي ذكرنا تقييمه في بداية الدراسة.

وينبئنا المؤرخ التركي إيلبير أورتايلى إلى أنَّ ترابط الأحداث يجب أن يكون له نصيب فيما آلت إليه الأوضاع ضمن الصورة الإقليمية العامة التي تتجاوز سورية والعراق. ففي آذار/ مارس، أدت ثورة 1919 الشعبية المصرية إلى سحب آلاف الجنود الإنكليز الذين نُقلوا إلى سوريا. وأجبرت هذه الحادثة الإنكليز على التخلي بعد سبعة أشهر عن مخططهم السابق للاستيلاء على كامل سوريا، بعد أن تركوا قسمًا منها لفرنسا بحسب الاتفاق الموقع بين رئيس وزراء بريطانيا ديفيد لويد جورج David Lloyd George (1916-1922)، ورئيس وزراء فرنسا جورج كليمنصو Georges Clemenceau (1917-1920). وبدأ المسلمون الذين كانوا يفضلون بريطانيا نسبيًا على فرنسا حتى ذلك الوقت يحتجون على نحو عفوي على سياستها تحت عنوان حماية الخلافة. ونتيجة الحوادث التي جدّت في مصر والعراق والهند ولأسباب أخرى أجبرت الإمبريالية البريطانية، بعد استعمالها للقوة المفرطة، على تضيق مساحة سيطرتها في الشرق الأوسط والشرق الأدنى، حتى أخلّى الإنكليز في نهاية عام 1919، فجأة وعلى نحو كامل تقريبًا، جنوب القفقاس ومحيط بحر قزوين، مع أنهم اضطروا إلى استخدام جهد عسكري وسياسي كبير مدة عام ونصف العام قبل ذلك لاحتلال تلك المنطقة⁽⁵⁰⁾.

بعد هذا العرض السريع لأحداث الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى مباشرة، نطرح السؤال: ما معاني صراع الإيرادات بين الفرقاء المتحاربين ونتائجها؟

تشير النظرة الاستراتيجية السياسية والعسكرية الواسعة إلى أنَّ الفرق بين ما حققته تركيا وما لم يحققه العرب، يعود، في جزئه الأساسي، في تقديرنا، إلى أنَّ التحالفات التي رسمتها تركيا مع روسيا وعرب سورية صمدت؛ لأنَّ مصالح هذه الأطراف كانت متوافقة، وكانت خير معين للحركة الوطنية التركية. أما إذا انتقلنا إلى الجانب العربي، فإنَّ حلفاءه لم يكونوا على الدرجة نفسها من الصداقة، فلم يلتزموا بمساعدته كما وعدوا في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، بل اتفقوا أو وافقوا على تقسيمه والسيطرة عليه تبعًا لمصالحهم التي تعارضت مع المصالح العربية. وكان بعض ممثلي الأجهزة البريطانية في القاهرة (الذين كانوا صلة الوصل مع الشريف الحسين في أثناء إعلان الحرب وبعده) يعتبرون أنَّ إنشاء مملكة عربية تضم الأماكن الإسلامية المقدسة تحت رعاية بريطانيا هو ما يجب منحه للعرب، فتشرشل كان يعتقد أنَّ منح أبناء الشريف الحسين سيادة سورية على المناطق العربية، التي ستستقل عن الدولة العثمانية، خطوة كافية للوفاء بوعد بريطانيا لهم⁽⁵¹⁾.

أما على الجانب الآخر، خلال ثلاث سنوات، استطاعت الحركة الوطنية التركية، التي جمعت الكثير من الاتجاهات السياسية والاجتماعية تحت مظلتها، إلحاق هزيمة ساحقة بالقوات اليونانية التي أتت لمساعدة المخططات البريطانية، طامعة في جزء مما تصوره الكثيرون "جثة تركيا المحتضرة"، ووصلت إلى مسافة غير بعيدة عن أفقر، عاصمة الحركة الوطنية التركية ومقر المجلس المَلّي (الوطني) الكبير وسط الأناضول.

وتوالى انتصارات القوات التركية بفعل تعبئة إمكانات الجيش النظامي وقوات الشعب غير النظامية، وبفعل التحالف مع موسكو ومع الحركة الوطنية السورية، فأخرجت القوات الإيطالية ثم الفرنسية من المعركة ثم توصلت إلى تفاهات واتفاقات سياسية واقتصادية

50 أورتايلى، ص 144-145.

51 Brad C. Fought, *Cairo 1921: Ten Days That Made the Middle East* (New Haven: Yale University Press, 2022), p. 16.

معهما أمكنها بواسطتها تحييد هاتين القوتين الأوروبيتين. ثم جاء دور اليونان التي أدت هزيمتها إلى الموافقة على تبادل السكان مع تركيا، فجرى تهجير مليون ونصف المليون يوناني من منطقة إزمير إلى اليونان وإعادة نحو نصف مليون تركي كانوا يعيشون تحت سيادة اليونان إلى تركيا بعد اتفاق تركي - يوناني، وموافقة الدول التي وقّعت معاهدة لوزان⁽⁵²⁾. ومن باب الأمانة التاريخية، علينا أن نلفت النظر إلى أن فكرة تبادل السكان لم تكن تركية، بل فكرة السياسي اليوناني فنزيلوس (Venizelos) (1864-1936)، الذي شغل منصب رئاسة الوزراء عندما نزلت القوات اليونانية في الأناضول، ودعا إلى تنفيذ هذه الفكرة منذ عام 1913⁽⁵³⁾.

أما بريطانيا التي قرأ قاداتها الأوضاع المستجدة بين القيادة الوطنية التركية ممثلة بمصطفى كمال وموسكو وباريس وروما وأثينا، فإنها تراجعت عام 1923 عن مخططاتها السابقة وتوصلت، بعد مؤتمر دام سبعة أشهر، إلى اتفاق سياسي بمقتضى معاهدة لوزان أعطى تركيا استقلالها (فيما عدا منطقة شمال العراق التي كان هناك خلاف عربي - تركي - كردي على هويتها) فأثقف على البحث في مصيرها بواسطة لجنة تابعة لعصبة الأمم، على الرغم من أن مصطفى كمال أعطى تعليمات مشددة لوفد تركيا برئاسة عصمت باشا الذي تفاوض في نهاية عام 1923 مع الحلفاء في لوزان، بشأن عدم التخلي عن الموصل وكركوك والسليمانية⁽⁵⁴⁾. وظلت بعض مناطق سورية الشمالية بما فيها الإسكندرون معلقة⁽⁵⁵⁾.

إلا أنه لم يجرِ الوصول إلى نتيجة نهائية بالنسبة إلى شمال العراق إلا في 16 كانون الأول/ ديسمبر 1925 حين صدر قرار مجلس عصبة الأمم بإلحاق المناطق المختلف عليها بالعراق شرط إعطاء الأكراد ضمانات محلية في ولاية الموصل⁽⁵⁶⁾. ويعتبر بعض المؤرخين الأتراك أن لوزان لم يكن نصراً كاملاً؛ لأن حدود الجمهورية التركية، كما حددها مجلس الأمة الكبير عام 1920، لم يجرِ احترامها تماماً. فقد "تمّت في لوزان المصادقة على الحدود التي رسمتها الحراب"، بل يمكن توصيف لوزان بأنها "تسوية" أملت الظروف السياسية والعسكرية⁽⁵⁷⁾. ولم تكن المفاوضات في لوزان سهلة وسريعة؛ فقد امتدت ثمانية أشهر؛ من تشرين الثاني/ نوفمبر 1922 إلى تموز/ يوليو 1923، مع فترة توقف تجاوزت الشهرين⁽⁵⁸⁾.

ولو أردنا معرفة ما استطاعت تركيا تحقيقه عام 1923 لوجب مقارنة معاهدة لوزان التي قبلتها سلطات أنقرة بمعاهدة سيفر التي وقّعتها سلطات إسطنبول في ظل أسنة الرماح البريطانية عام 1920⁽⁵⁹⁾. وكان أهم ما جاء في المعاهدة:

1. اعتبرت الممرات المائية التركية خاضعة لسيادة تركيا واليونان على حد سواء، لكنها وضعت هذه الممرات تحت إشراف لجنة دولية تابعة لعصبة الأمم وبعد موافقة الحكومتين التركية واليونانية.

52 أورتاي، ص 259-261.

53 Arnold J. Toynbee & Kenneth P. Kirkwood, *Turkey* (New York: Charles Scribner's Sons, 1927), p. 147.

54 كرايزر، ص 247.

55 بعد مرور قرن كامل على اتفاق لوزان لا يزال بعض المسؤولين الأتراك يتحدث عن المناطق الشمالية في سورية والعراق على أنها تتبع تركيا على أساس الميثاق المّلي الذي أعلنه المجلس المّلي الكبير عام 1920. فقد صرح رجب طيب أردوغان، في غمرة الأحداث التي كانت تعصف بسورية والعراق وبالتحديد عام 2016، قائلاً: "إذا درسنا الميثاق المّلي وإذا فهمنا الميثاق المّلي فإننا نفهم جيّداً مسؤوليتنا في سورية والعراق، وإذا كنّا نقول علينا مسؤولية في الموصل، فمن أجل ذلك علينا أن نكون على الطاولة [أي طاولة المفاوضات] وفي الميدان [العسكري...]. لم نستطع أن نحمي ميثاقنا المّلي. إذا تأملنا جيّداً في التطورات في سورية والعراق أقول نحن يتحتم علينا أن نكون من جديد أصحاب الميثاق المّلي". وفي عام 2018 قال أردوغان: "لا تنسوا أن شمال سورية وشمال العراق كانا ضمن حدود الميثاق المّلي، ولن نسمح بقيام كيان إرهابي هناك".

56 Toynbee & Kirkwood, pp. 114-115, 263, 274-284.

57 أورتاي، ص 211.

58 كرايزر، ص 245-246.

59 J.C. Hurewitz, "Tripartite (Saint-Jean de Maurienne) Agreement for the Partition of the Ottoman Empire: Britain, France, and Italy, 19 April-26 September 1917," in: Hurewitz, pp. 94-96.

2. أعيدَ العمل بنظام الامتيازات الأجنبية الذي ألغته الدولة العثمانية عند دخولها الحرب العالمية في أيلول / سبتمبر 1914.
 3. أعيدَ العمل بنظام امتيازات الملل والأقليات.
 4. تنقل تركيا حقوق سيادتها على مدينة إزمير في الأناضول إلى الحكومة اليونانية.
 5. توافق إسطنبول على أن تقدم لجنة مؤلفة من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا على صوغ نظام لإعطاء حكم ذاتي للمناطق الكردية الواقعة شرق نهر الفرات جنوب الحدود الجنوبية لأرمينيا، وإلى الشمال من حدود تركيا مع سوريا والعراق.
 6. تعترف تركيا، وفقاً لما قرره الدول الحليفة، بأرمينيا دولة مستقلة.
- مقارنةً بمعاهدة سيفر، فإنَّ معاهدة لوزان عكست ميزان القوى الجديد وانقلابه بعد ثلاث سنوات، وكان أهم ما جاء فيها:
1. الموافقة على أن تكون السيادة على الممرات المائية التركية للجنة دولية تحت الرئاسة الدائمة لتركيا؛ أي استعادة تركيا سيادتها الكاملة على هذه الممرات ضمن الموائيق والأعراف الدولية.
 2. الموافقة على الإلغاء الكامل لنظام الامتيازات الأجنبية (تطلب هذا القرار الذي أعلن من طرف واحد؛ أي الطرف العثماني في أيلول / سبتمبر 1914، مفاوضات شاقة، حيث أعيد العمل به في معاهدة سيفر، ثم كان السبب الأساسي في فشل مفاوضات مؤتمر لوزان الأول عام 1922، إلى أن تراجعت لندن وقبلت الإلغاء عام 1923).
 3. الموافقة على المساواة بين المسلمين وغير المسلمين على صعيد الدولة وإلغاء نظام الملل والأقليات.
 4. تمارس الدولة التركية سيادتها الكاملة على منطقة الأناضول (أي إنَّ الحلفاء أسقطوا أو ألغوا بنود معاهدة سيفر المتعلقة بنقل السيادة التركية على مدينة إزمير إلى اليونان وإقامة دولة أرمنية في الأناضول وكذلك توفير منطقة حكم ذاتي للأكراد هناك).
- نستنتج مما سبق ما يلي:
- أ. الدول الصغيرة والمتوسطة الحجم في حاجة إلى التحالف، علناً أو سراً، مع قوة كبرى إذا كانت ستدخل في مواجهة سياسية و/أو عسكرية متكافئة مع قوة كبرى أخرى ومع قوى إقليمية جارة تردها بإمكانيات إضافية لا تملكها. ولعلَّه من المناسب التأكيد هنا، ومن وجهة نظرنا، أنَّ العرب السوريين وعرب الحجاز أوفوا بوعودهم تجاه الجانب الإقليمي المتمثل بالحركة الوطنية التركية وتجاه الجانب الدولي المتمثل ببريطانيا، إلا أنَّ القوتين المذكورتين انقلبتا عليهما عندما اقتضت مصالحهما ذلك، وعندما زالت ضرورة استمرار التحالف بين هذه الأطراف.
 - ب. أخلفت بريطانيا وعودها للعرب قبل الحرب العالمية الأولى، وأخلفت الحركة الوطنية التركية وعد التحالف الذي عقده مع الحركة العربية والحركة الوطنية السورية، عندما لاح لها أنَّ فرنسا ستقبل باستقلالها على حساب جارتها إلى الجنوب. المهم هنا أنَّ العرب كانوا الطرف المحلي الضعيف تجاه الطرف الإقليمي الكبير المتمثل بتركيا، والطرف الدولي الأكبر المتمثل ببريطانيا وفرنسا.
 - ج. التزمت روسيا بتعهداتها لتركيا بسبب وجود عدوٍّ مشترك كان يخطط لسلبهما استقلالهما، وكان استمرار تحالفهما سرَّ نجاحهما ضد ما كان يُخطَّط لهما؛ ما أدى إلى قلب ميزان القوى لمصلحتهما.
 - د. تعدَّ الرابطة الدينية مهمة في تعبئة الجمهور، خاصة عند الشعوب المضطهدة، والعلاقة بينها وبين الرابطة القومية، أقلَّه على المستوى الهوياتي، غير تصادمية بالضرورة، بل تبادلية ترفد إحداها الأخرى، وبالتحديد عندما يكون العدو معادياً للوطن

وللدين معاً. وقد شهدنا استخدام مصطفى كمال الرابطة الإسلامية في أثناء حرب الاستقلال، ثم انقلابه على هذه الرابطة بعد أقل من عام واحد من نيل الاستقلال عام 1923، لكنّ العودة التدريجية إلى التعبير عن الهوية الدينية في تركيا في المجال العام بعد وفاته تؤكد وصفه وتعريفه بأنه كان بطلاً قومياً تركياً وغازياً إسلامياً في آن معاً، وتؤكد أيضاً ضرورة أن يكون للشعب خيط اتصال بماضيه ليستطيع النظر إلى نفسه بثقة تاريخية عميقة. وربما تكون تركيا قد تخلصت من مسؤولية إسلامية عامة، ولو رمزية، بإلغاء الخلافة إلا أنها قطعت في الوقت ذاته صلاتها بالمناطق الإسلامية الأخرى المنتشرة في العالم؛ فأدى ذلك إلى تراجع مكانتها في الإقليم والعالم. صحيح أنّ الخلافة كانت، ومنذ ما قبل العصر الحديث، خلافة صورية وأنّ الخليفة لم يعد له دور فاعل لا دينياً ولا دنيوياً؛ إذ إنّ السلطة السياسية والعسكرية كانت بيد السلطان مع بقاء شيء من السلطة الدينية بيد شيخ الإسلام الحنفي في إسطنبول، إلا أنّ تقويم الفهم الخاطئ لموقع الخليفة الرمزي أو المعنوي لا يكون، بالضرورة، بإلغاء المؤسسة بكاملها. أليس في إمكاننا أن نسأل: ما السلطات التي يتمتع بها ملك بريطانيا - وهو الذي يملك ولا يحكم - لتكون بلاده ملكية؟ أليست رمزية منصب "الملك" هي التي تعطيه شرعية ترؤس الكنيسة الأنغليكانية وتسبغ عليه اللقب الرسمي الذي يصفه بأنه "حامي الإيمان" (Protector of the Faith)؟ ألم يستخدم جوزيف ستالين (1878-1953) الشيوعي الرابطة القومية والرابطة الدينية لتعبئة شعبه في فترة الحرب العالمية الثانية؟

ركّزت بعض الجماعات الهندية المسلمة على علاقاتها بالخليفة العثماني لتقوية موقعها تجاه الحكم البريطاني في الهند. أما "حركة الخلافة" التي أطلقها مسلمو الهند (1919-1924) فكان المقصود بها معارضة السياسة البريطانية ضد الدولة العثمانية والسعي إلى تقسيمها بعد الحرب والإبقاء على الخلافة العثمانية سلطةً روحية، ومركزاً رمزياً للمسلمين في كل أصقاع العالم. **د.** إنّ مسألة الإبقاء على خيط تعاون سياسي وغير سياسي وحتى ثقافي بين دول العالم غير الغربي عموماً الذي سُمّي "العالم الثالث" لاحقاً مسألة غير مقبولة في عواصم الدول الكبرى؛ لأنّ هذه العواصم ترسم سياساتها طبقاً لمبدأ "فرّق تسد". ولا يختلف موقف روسيا اليوم بعد أن مرّت بالحقبة البلشفية وحقبة رأسمالية الدولة في علاقاتها مع الأقليات القومية والدينية التي تقع ضمن نطاقها الجغرافي عن الدول الكبرى الأخرى، بل نعتقد بناءً على تاريخ القرن العشرين أنّ هناك استمرارية في موقفها مع موقف روسيا القيصرية الذي كانت قد نشرته صحيفة **ذي مانشستر غارديان** عام 1917. ولعلّه من المفيد أن نذكر أنّ موسكو السوفياتية طلبت أن يكون لها دور في إدارة مضيق البوسفور عام 1945 بعد الحرب العالمية الثانية⁽⁶⁰⁾.

ومع أنّ أحد شروط الميثاق الملّي (الوطني) التركي عام 1920 ينص في مادته الرابعة على أنه "يجب حماية أمن مدينة القسطنطينية، مقر الخلافة الإسلامية، وعاصمة السلطنة، ومقر الحكومة العثمانية، وبحر مرمرة من كل خطر"⁽⁶¹⁾، فإنّ معاهدتي سيفر ولوزان المختلفتين جذرياً تتفقان، بصورة غير مباشرة، على إلغاء الرابط الروحي المتمثل بالخلافة - ولو أنها أصبحت خلافة رمزية إلى حد بعيد - في العالم الإسلامي، وكان المتمسكون بها يفعلون ذلك للحفاظ عملياً على تلك الرمزية، في تقديرنا.

تنص المادة 139 من معاهدة سيفر على أن "تتخلى تركيا رسمياً عن جميع حقوق السيادة أو الولاية القضائية من أي نوع على المسلمين الخاضعين لسيادة أو حماية أي دولة أخرى. ولا يجوز لأي سلطة تركية أن تمارس أي سلطة مباشرة أو غير مباشرة في أي إقليم منفصل عن تركيا أو تعترف تركيا بوضعه الحالي بموجب هذا الاتفاق"⁽⁶²⁾.

61 J.C. Hurewitz, "The Turkish National Pact: 28 January 1920," in: Hurewitz, p. 210.

62 "Tripartite (Sèvres) Agreement on Anatolia," in: Hurewitz, pp. 139, 225.

وبعد ثلاث سنوات، أكدت معاهدة لوزان المعاكسة عام 1923 المعنى ذاته، فجاء في المادة 27: "لا سلطة أو ولاية قضائية تمارس في المسائل السياسية أو التشريعية أو الإدارية، لأي سبب من الأسباب، خارج الأراضي التركية من جانب الحكومة أو السلطات التركية، على مواطني الإقليم الخاضع لسيادة أو حماية الدول الأخرى التي وقّعت هذه المعاهدة، أو على مواطني المناطق التي أصبحت تحت سيادة أو حماية أي من الدول الأخرى الموقعة أو مواطني المناطق التي انفصلت عن تركيا"⁽⁶³⁾.

بناءً عليه، ألا يمكننا التساؤل عما إذا كان إلغاء الخلافة قد مهّد له، مواربةً، في معاهدتي سيفر في 10 آب/ أغسطس 1920 ولوزان؟ ولعل وجود مركز أو مرجع روحي للإسلام باعتباره عالمياً لم يعد ضرورياً؛ لأن النظام الدولي الجديد بعد الحرب العالمية الأولى وسّع تطبيق مبدأ "الدولة-الأمة" الأوروبي إلى خارج أوروبا، وجعل الدولة صاحبة السيادة الحصرية ضمن حدودها مع أن الدول الكبرى أوجدت جماعات وتحالفات قريبة منها تسمح لها بالإبقاء على علاقات سياسية وثقافية وحتى دينية مع مستعمراتها ومناطق نفوذها السابقة. ولعل المسلمين وجدوا أنهم، بأغليتهم، أصبحوا تحت سلطة الاستعمار، فأرادوا أن يكون لهم "بابا" مثل "بابا روما" لدى كاثوليك العالم، لكن ذاك الباب كان موصداً فلم يكن مسموحاً تفعيل أي مبدأ لحمة بين بعضهم. لهذا نشأ لديهم شعور لم يغيب حتى اليوم، وليس موجوداً عموماً عند غيرهم، وهو أن الغرب، القوي والمتوسع استعمارياً، مهووس بالخوف منهم بسبب قربهم الجغرافي وتفوقهم عليه في مرحلة تاريخية سابقة، وهو يهددهم ليس في أوطانهم فحسب، بل في عقيدتهم الدينية أيضاً؛ فبعض جماعاتهم تعلن ذلك صراحة وتتنفن في إهانة شعائهم ورموزهم. وهم لهذا يرفعون الشعار الديني إلى جانب الشعار الوطني بين وقت وآخر، بينما تعتبر شعوب الغرب أن لا خطر على أديانها وطوائفها؛ إذ قرر المجلس الملي (الوطني) الكبير عام 1924 استبدال هذا النص في الدستور: "إن المجلس الوطني التركي الكبير هو الممثل الشرعي الوحيد للأمة وهو الذي يمارس السيادة باسم الأمة"⁽⁶⁴⁾، بنص المادة الرابعة من ميثاقه عام 1920 الذي تحدّث عن وضع إسطنبول مقرّاً للخلافة.

وبعض التركيز على هذا الموضوع يتبين لنا أن النقاش حوله كان له اتجاهات متعددة وفي بعض الأوقات متناقضة؛ فعلى الرغم من أن الخليفة العثماني وجيشه كانا يقفان ضد مصطفى كمال وإلى جانب بريطانيا، فإنه كان يميز بين شخص الخليفة الحاكم ومنصب الخلافة الذي اعتبر أنه لا يجوز المساس به⁽⁶⁵⁾. أما وزير العدل في الحكومة الوطنية في أنقرة، محمد أمين سيد أفندي (1873-1925) فقد كتب كتاباً بعنوان **الخلافة والسيادة الوطنية**، عام 1923، أعطى فيه الطابع السياسي الأولوية للخلافة في التاريخ الإسلامي، و"ذهب إلى القول إن الخلافة في أساسها ليست سوى حكومة ولا علاقة لها بالاعتقاد الديني"⁽⁶⁶⁾. وقبل ذلك، في عام 1919، نادى شكري سراج أوغلو (1887-1953)، رئيس الجمعية التركية في لوزان لسبعة أشهر في أثناء الحرب العالمية الأولى وتولى مناصب وزارية حتى وفاة مصطفى كمال، بقطع الصلة بالدين: "على الحكومة أن تقطع صلتها بالدين وبمنصب شيخ الإسلام لأن هذه المؤسسة لا تختلف عن 'مؤسسة البطريك' [البطريرك]. فلن تكون 'الأتركة' خاضعة للدين، بل يجب أن يوظف الدين في خدمة 'الأتركة'"⁽⁶⁷⁾.

أما أنصار الخلافة في المجلس الملي فاجتمعوا حول ممثل بلدة أفيون الذي ألف كُتيباً أكد فيه أن الخليفة، على عكس بابا الكاثوليك، يتمتع بسلطتين واحدة روحية وأخرى دنيوية⁽⁶⁸⁾.

63 " (Lausanne) Treaty of Peace," in: Hurewitz, p. 329.

64 Toynbee & Kirkwood, p. 302.

65 كرايزر، ص 299.

66 المرجع نفسه، ص 306.

67 المرجع نفسه، ص 248.

68 المرجع نفسه، ص 303.

والواقع أنَّ النقطة الرئيسة في هذا النقاش كانت قائمة منذ القرن التاسع عشر، وتدور حول إذا ما كانت الخلافة سلطة روحية أم سلطة سياسية، وإذا ما كانت النظرية تتوافق مع التطبيق الفعلي أم لا. وكان المثقفون الأتراك البارزون ينتمون إلى تيار فكري يُسمى "العثمانيون الجدد". ومن أهم شخصياتهم الفكرية نامق كمال الذي رأى أنه يعيش في نظام سياسي يسود فيه القانون ويكاد يكون علمانيًا. وقد ذكر أنَّ هناك توافقًا بين القانون السلطاني والشرعية الإسلامية، بل يمكن القول إن هناك فصلًا بين الدولة والدين في الممارسة العملية في الإمبراطورية العثمانية، وكان شيخ الإسلام بوصفه عالم الدين الأكبر عمليًا تحت إمرة السلطان⁽⁶⁹⁾.

رأى بعض أعضاء المجلس ضرورة الحفاظ على منصب الخلافة مع أنهم كانوا موافقين على عزل الخليفة القائم عبد المجيد الذي كان ألوبة في يد بريطانيا. ويُقَل عن آخرين رغبة المسلمين خارج تركيا في تولية مصطفى كمال منصب الخلافة⁽⁷⁰⁾؛ لأنهم شعروا بأنه حصل على شرط "الشوكة" أو "القوة العسكرية والسياسية" التي حازها بعد انتصاره على اليونان في حرب الاستقلال، وهي من شروط الخلافة التي وضعها الفقهاء في العصر الوسيط. لكن مصطفى كمال تجاوز هنا النظرية التي عمل بها منذ القرن الثامن عشر، التي تقول بخلافة روحية؛ إذ سمحت دول أجنبية، وأولها روسيا القيصرية، للحاكم المسلم بصفته خليفة كل المسلمين في الأرض بالسلطة الروحية فحسب، خاصة في حقبة سادها التبشير والاستعمار⁽⁷¹⁾. وهو رأى أنَّ الخلافة ذات طبيعة سياسية فحسب، وتجاوز حقيقة أنَّ الخلافة الروحية كانت مطبقة في الأماكن التي سكنها مسلمون وحكمها غير المسلمين، مثل مناطق في روسيا والنمسا-المجر والقرم وقبرص وليبيا، فقال في آذار/ مارس 1924 في المجلس الملي: "أنتم تعلمون أنَّ معنى الخليفة لا يختلف عن رئيس الجمهورية، فكيف لي أن أقبل اقتراح ملل وشعوب لها حكامها وملوكها؟ وإذا قبلت، فهل سيرضى حكام هذه الشعوب بالأمر؟"⁽⁷²⁾.

ونستطيع القول إنَّ الغازي كان يلغي نهجًا من التعايش بين الغالب والمغلوب يحفظ ماء وجه الأخير، وإنَّ الدول الأوروبية التي استعمرت مناطق إسلامية لم تأسف لهذا الموقف الذي اتخذته أنقرة.

أما البند الذي أقرَّ عام 1924 وألغى الإسلام دينًا رسميًا للدولة التركية، مع تعويض "القسم بالله" بـ "القسم بالشرف" في أداء اليمين الدستوري عام 1928، فلم يكن سوى محاولة أخرى لإضعاف الوجود الديني في البلاد، إلا أنَّ مصطفى كمال عارض في العام نفسه، بناءً على نصيحة، مشروعًا تقدَّم به بعض أساتذة الدين في جامعة إسطنبول، يرى ضرورة تحويل المساجد إلى نوع من الكنائس الحديثة يدخلها الزائرون بأحذيتهم وتُعزف فيها الموسيقى. واقترحوا أن يقدم مختصون في فلسفة الأديان خدماتهم إلى أئمة الدين⁽⁷³⁾.

أما المحصلة النهائية لكل هذه التطورات فكانت إلغاء "أسلمة تركيا" و"تتريك الإسلام"، واتباع نهج غير مفهوم لدى النخبة التي تبحث عن هوية ضائعة ضمن محيطها الإقليمي والديني الذي انعزلت عنه إراديًا، وكذلك عند العامة، خاصة في الريف، التي ظلَّت على ولائها السابقة. ولعلنا نشهد اليوم محاولات أولية لتغيير هذا المسار.

69 برجيت شيلبر، مسلمون حداثيون: الأفغاني ونامق كمال وبايازيتوف يردون على رينان (بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية؛ دار الفارابي، 2024)، ص 155-156.

70 كرايزر، ص 307.

71 المرجع نفسه، ص 308.

72 المرجع نفسه، ص 307-308.

73 المرجع نفسه، ص 306.

نظرة مسلم بيروتى إلى إلغاء الخلافة

عبر الكاتب البيروتى محمد جميل بيهم عن مشاعر المسلم المتعلم الذي لم ير ضرورة لإلغاء الخلافة معلناً ذلك في مقال بعنوان: "تركية [كذا] وأطوارها" في مجلة **العرفان** البيروتية (نيسان / أبريل 1924):

تركية وأطوارها

"كان الكماليون قبل انتصارهم يستميلون الأمة بالمظاهر الدينية: فأتوا بالسيد السنوسي ومنعوا الخمر والفجور، ولكنهم ما بلغوا ساحل الأمان إلا وكشفوا النقاب عن مبادئهم فإذا هم من غواة التمدن الحديث يمهّدون كل عقبة في سبيله ولا فرق لديهم إن كانت من الدين أو التقاليد.

صلى وصام لأمر كان يطلبه حتى قضاه فما صلى ولا صاماً"

"وقد دفعتهم المصلحة الذاتية إلى مباشرة أعمالهم بالتعرض للخلافة والخط من شأنها حتى آل الأمر إلى القضاء عليها وألغوا وزارة الأوقاف والأديان. وما يريد رئيس الجمهورية [مصطفى كمال] بذلك إصلاحاً حقيقياً، وإنما القصد توطيد عرشه في إبعاد أبناء السلاطين وأنصارهم المحافظين.

وفضلاً عن الخلافة فقد فكروا بترجمة القرآن استغناءً عن العربية واستبدال أحرفه باللاتينية وعولوا على تحوير المجلة، وعلى تبديل نظام العائلة، وهم في ذلك يستسهلون كل صعب، ويحسبون أنهم تقرّبوا من أوروبا".

"فحبذا الإصلاح. ولكن إذا جرى تطور روح الشعب أما وأن الإصلاحات الكلية لا تكون مفيدة إلا إذا كان بالإمكان تبديل روح الأمة تبديلاً فجائياً. وهذا مستحيل فلذلك أرى تركية تُستهدف في هذه المرة إلى خطر أشد منه في كل مرة عمدت إلى الإصلاح. فلقد كان تجددتها ينقلب عليها وبالأكل حين لأنها ما كانت تريد به إلا الحصول على عطف أوروبا دفْعاً لأذاها"⁽⁷⁴⁾.

المراجع

العربية

- أورتايلى، إيلبير. **الغازي مصطفى كمال أتاتورك**. ترجمة مجد الدين صالح. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2019.
- باروت، محمد جمال. **العلاقات العربية - التركية (1918-1923): السيورة والتاريخ والمصائر**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023.
- البغدادي، أديب التقي. "مصطفى كمال باشا في الأناضول-3: التأثير البولشفيكي - أنقرة وموسكو [كذا]". **مجلة العرفان**. مج 9، ج 3 (كانون الأول/ ديسمبر 1923).
- بيهم، محمد جميل. "تركية وأطوارها". **مجلة العرفان**. مج 9، ج 7 (نيسان/ أبريل 1924).
- الحكيم، يوسف. **سورية والانتداب الفرنسي**. بيروت: دار النهار، 1983.
- حنا، عبد الله. **القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان 1820-1920**. بيروت: دار الفارابي، 1977.
- رافق، عبد الكريم. **دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث**. دمشق: مكتبة نوبل، 2002.
- _____. **محطات في تاريخ بلاد الشام الحديث**. البلمند: منشورات جامعة البلمند، 2006.
- زين، زين نور الدين. **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان**. بيروت: دار النهار للنشر، 1977.
- شيلبر، برجيت. **مسلمون حداثيون: الأفغاني ونامق كمال وبايازيتوف يردون على رينان**. بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، دار الفارابي، 2024.
- كرايزر، كلاوس. **أتاتورك: سيرة حياته**. ترجمة سميرة قوزال. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023.
- _____. **مجلة المنار**. مج 21، ج 5 (1919).
- _____. **مج 22، ج 10 (1921)**.
- نور الدين، محمد. **حجاب وحراب: الكمالية وأزمات الهوية في تركيا**. بيروت: رياض الريس للنشر، 2001.

الأجنبية

- Cleveland, William L. & Martin Bunton. *A History of the Modern Middle East*. 6th ed. New York: Routledge, 2018.
- Colin, Jonathan & Ozan Ozavci (eds.). *They All Made Peace - What Is Peace: The 1923 Treaty of Lausanne and the New Imperial Order*. Chicago: Gingko Library, 2023.
- Edib, Halidé. *Turkey Faces West: A Turkish View of Recent Changes and their Origin*. New Haven: Yale University Press, 1930.
- Faught, Brad C. *Cairo 1921: Ten Days That Made the Middle East*. New Haven: Yale University Press, 2022.

- Haddad, Mahmoud. "The Rise of Arab Nationalism Reconsidered." *International Journal of Middle Eastern Studies*. vol. 26, no. 2 (May 1994).
- Hourani, Albert. *A History of the Arab Peoples*. London: Faber & Faber, 2013.
- Hurewitz, J.C. *The Middle East and North Africa: A Documentary Record*. vol. 2. New Haven: Yale University Press, 1977.
- Toynbee, Arnold J. & Kenneth P. Kirkwood. *Turkey*. New York: Charles Scribner's Sons, 1927.
- Yapp, M.E. *The Making of the Modern Near East 1792-1923*. London: Longman Group, 1987.
- Zeine, Zeine N. *The Struggle for Arab Independence*. 2nd ed. New York: Caravan Books, 1977.

إقصاء العرب في لوزان: منعطف تاريخي حاسم

The Exclusion of Arabs at Lausanne: A Decisive Historical Turn

تركّز هذه الدراسة على قضية إقصاء العرب عن المفاوضات في لوزان حتى لا يكون لهم دورٌ فيها، وتقدّم قراءة مختلفة تستند إلى أنّ فهم لحظة ما بعد الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط أمرٌ لا يمكن قسّره على الحدود والاستقلال الوطني. وتركّز في ذلك على الحراك السياسي في سوريا، وعلى الإقصاء في مؤتمر باريس للسلام (1919-1920)، والتحديات السياسية والقانونية لنظام الانتداب (1920-1922)، ولا سيما بالنسبة إلى المشرق العربي. وتناقش الدراسة تغييب قضية العرب في لوزان بالرغم من حضورهم فيه، وتهتمّ كذلك بمسألة النزوع إلى قراءة لوزان بوصفها منعطفًا حاسمًا في التاريخ السياسي للعالم العربي، وتدعو إلى النظر إلى الحركات العربية بعد الحرب العالمية الأولى في سياق حركات أخرى مناهضة للنظام خلال عشرينيات القرن العشرين في أوروبا وجنوب آسيا، وهي حركات رفضت النظام العالمي الليبرالي والنظام الاستعماري الجديدين، وقد كانت لحظة لوزان بمنزلة "إجهاض" لطموحها السياسي في سوريا والعالم العربي.

كلمات مفتاحية: معاهدة لوزان، الانتداب، سوريا الكبرى، حق تقرير المصير، الاستعمار.

This study discusses the exclusion of Arabs at Lausanne and offers a different reading of the fact that understanding the post-First World War moment in the Middle East cannot be confined to borders and national independence. It investigates the political movement in Syria by attending to exclusion at the Paris Peace Conference (1919-1920); political and legal challenges to the mandate system in the Arab East (1920-1922); Arab "present absentees" [al-ghā'ibūn al-hādirūn] at Lausanne (i.e. the question of the Arabs was obscured despite their presence); and decolonizing the historical narrative by reading Lausanne as a decisive turning point in the political history of the Arab World. The study concludes by calling for an assessment of Arab movements after the First World War in the context of other anti-establishment movements in the 1920s in Europe and South Asia, which rejected the new liberal international order and neocolonialism and whose political aspirations in Syria and the Arab World would be dashed by Lausanne.

Keywords: Lausanne, Mandate, Greater Syria, Self-determination, Colonialism.

* أستاذة كرسي محمد س. فارسي للسلام الإسلامي في الجامعة الأميركية (واشنطن).

Mohammad S. Farsi Chair of Islamic Peace, American University, Washington DC.

eft@american.edu

قام بترجمة هذه الدراسة ثائر ديب، باحث ومترجم سوري.

This study was Translated by Thaeer Deeb, Syrian Writer and Translator.

thalde62@gmail.com

في 24 تموز/ يوليو 1920، غزا جيش الشرق الفرنسي المملكة العربية السورية لتأكيد مطالبة فرنسا بأن تحكمها بقوة الأمم الواقع بموجب انتداب منحها إياه مبدئيًا مؤتمر باريس للسلام. وبعد عامين تحديدًا، في 24 تموز/ يوليو 1922، صوّت مجلس عصبة الأمم للتصديق على الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان، والانتداب البريطاني في فلسطين. ووقّع الحلفاء معاهدة لوزان مع تركيا، في استكمال لعمل مؤتمر السلام الذي بدأ في عام 1919. وفي غضون أسابيع، صارت الانتدابات على سوريا ولبنان وفلسطين ضمن القانون الدولي رسميًا، واكتسبت في النهاية "قوة القانون".

يوحي تناظر التاريخين؛ تاريخ احتلال فرنسا لسوريا وتاريخ انتدابها عليها، بنوع من السيرة الخطية، بل إن الكتب المدرسية عن تاريخ الشرق الأوسط لا تتناول التفاصيل السياسية في السنوات التي أعقبت مؤتمر سان ريمو، عندما فرض زعماء دول الحلفاء، بغياب تمثيل عربي، الانتدابين في الأراضي الناطقة بالعربية من شرق البحر الأبيض المتوسط. وفي حين ركّز المؤرخون على الثورات المسلحة ضد الانتدابات في العراق (1920)، وسوريا (1925)، وفلسطين (1936)، نجد أنهم تجاهلوا الاحتجاجات الدبلوماسية والقانونية العربية ضد الانتدابات التي فرضت في انتهاك لميثاق عصبة الأمم. وأهمّل باحثو مؤتمر لوزان، أيضًا، الجهود العربية التي بُذلت للانضمام إلى مفاوضات المعاهدة.

حقًا، "يكن الشيطان في التفاصيل"؛ فلم تكن لوزان ذروة سيروية بدأت بسقوط الإمبراطورية العثمانية في تشرين الأول/ أكتوبر 1918 والاحتلال الأوروبي لسوريا الكبرى (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) فحسب، ولم يكن الانتداب الفرنسي في سوريا أيضًا "ذروة التوسع الإمبراطوري الفرنسي" منذ عام 1914، كما وصفه أحد الكلاسيكيين في التاريخ الاستعماري⁽¹⁾. وقد اعتمد مؤرخو فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، على نحو يكاد يكون حصرًا، على الأرشفات الأوروبية، وبذلك أحمّدوا أصوات العرب في عملية السلام. وجذرو هذا الإخماد ضاربةً في أعماق التاريخ الإمبراطوري الأوروبي.

تنظر المصادر العربية إلى لوزان على نحو مختلف كليًا، فتكشف أنّه كان منعطفًا حاسمًا في التاريخ السياسي للمنطقة. ويعرّف علماء الاجتماع المنعطف الحاسم بأنه لحظة تُطلق "مسارات تغيير سياسي يتبع حوادثه الإبداعية الكبرى ظهور مؤسسات دائمة"⁽²⁾. وقد مثلت لوزان الهزيمة المفاجئة والنهائية لجهود العرب العثمانيين في احتلال مكاينهم في نظام عالمي ليبرالي. وأفضى إقصاؤهم وهزيمتهم في لوزان إلى تغيير جوهري في مسار السياسة العربية طوال عقود من الزمان بعد ذلك. ويفرض تقدير أهمية لوزان، بوصفها منعطفًا حاسمًا، إعادة تفكير في السياسة العربية في بقية القرن العشرين. وتركّز هذه الدراسة، أساسًا، على العرب في سوريا الكبرى، مع بعض الإشارة إلى سياسيين آخرين ناطقين بالعربية من أراضٍ عثمانية سابقًا، بما في ذلك العراق الذي أنشئ حديثًا، ومنطقة الحجاز في شبه الجزيرة العربية ومصر.

ما كان على المحكّ في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى (1919-1923) هو مطالبة السياسيين الناطقين بالعربية بحقوقهم وحياتهم التي لطالما تمسكوا بها بوصفهم مواطنين في الإمبراطورية العثمانية. وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، أخذ قسم طاعٍ من

1 Christopher M. Andrew & A.S. Kanya-Forstner, *The Climax of French Imperial Expansion, 1914-1924* (California: Stanford University Press, 1981).

2 Margaret MacMillan, *Paris 1919: Six Months that Changed the World* (Toronto: Random House Trade Paperbacks, 2002); David Fromkin, *A Peace to end All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Holt Paperbacks, 1989/2001); Erez Manela, *The Wilsonian Moment: Self-Determination and the International Origins of Anticolonial Nationalism* (Oxford: Oxford University Press, 2009); David Collier & Gerardo L. Munck, "Building Blocks and Methodological Challenges: A Framework for Studying Critical Junctures," *Qualitative and Multi-Method Research*, vol. 15, no. 1 (Spring 2017), p. 2.

2 Margaret MacMillan, *Paris 1919: Six Months that Changed the World* (Toronto: Random House Trade Paperbacks, 2002); David Fromkin, *A Peace to end All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Holt Paperbacks, 1989/2001); Erez Manela, *The Wilsonian Moment: Self-Determination and the International Origins of Anticolonial Nationalism* (Oxford: Oxford University Press, 2009); David Collier & Gerardo L. Munck, "Building Blocks and Methodological Challenges: A Framework for Studying Critical Junctures," *Qualitative and Multi-Method Research*, vol. 15, no. 1 (Spring 2017), p. 2.

النخبة السياسية العربية يدعم الجهود الهادفة إلى إنشاء ملكية دستورية. ولم يكن الدستوريون يعترضون ترسيخ حقوق متساوية في إطار حكومة تمثيلية في الداخل فحسب، بل كانوا يريدون أيضاً ضمان مكان للإمبراطورية في الأسرة الأوروبية؛ الأمم الأوروبية المتحضرة (كما يطلق عليها). وبذلك تُحمى الحقوق السيادية لهذه البلدان من الاستعمار بموجب القانون الدولي. وفي خضم النكسات التي تسبب فيها الرجعيون العثمانيون والقوى الأجنبية، حقق الليبراليون العثمانيون أهدافهم خلال فترتين وجزيتين في اللحظات الدستورية (1877-1878) و(1908-1912). وفي كلتا الفترتين، انتخب العرب ممثلين للبرلمان في إسطنبول. لكن شريحة كبيرة من النخبة السياسية العربية السورية قررت، في ظل الحكم العسكري الوحشي لتركيا الفتاة في الحرب العالمية الأولى، أن تتراجع عن دعمها للعثمانيين. ونظرت إلى الثورة العربية الكبرى، بالتحالف مع قوى الوفاق، على أنها طريق أنسب إلى الاستقلال والحكم العادل. وبعد الحرب، صاغ السياسيون في دمشق دستوراً للمملكة العربية السورية كان أكثر ديمقراطية من النسخة العثمانية. وكما فعلوا قبل عام 1914، توقعوا قيام نظام دستوري حديث لضمان سيادتهم في النظام العالمي الجديد الذي بشر به الرئيس وودرو ويلسون.

قدحت عملية السلام في الفترة 1919-1923 أولاً الزخم السياسي في اتجاه الديمقراطية الشعبية في سوريا الكبرى، ثم شجّعته وأخمدته في النهاية. كان الحلفاء، في ذلك الحين، قد أحلّوا محلّ النظام الدستوري في دمشق إدارات مختارة بعناية وغير منتخبة مصممة على الطراز الاستعماري ومقراتها في بيروت ودمشق والقدس وعمان. وكان الزعماء السياسيون في عام 1920 في السجن أو المنفى. وقوّض الفشل في لوزان مزيداً من زعامة الليبراليين الذين حشدوا العرب السوريين حول مشروعهم القانوني الدبلوماسي وعارضوا اللجوء إلى المقاومة المسلحة. وقد أساء الحلفاء إلى النظام العالمي بعد الحرب باستخدامهم سلطة عصبة الأمم الجديدة لفرض انتدابات حولت العرب السوريين من مواطنين أصحاب حقوق إلى رعايا مستعمرين. ونظر الليبراليون العرب إلى لوزان على أنها فرصة أخيرة لاستعادة الدستورية الليبرالية والمطالبة بحقوقهم بموجب القانون الدولي، وكان تأثير هزيمتهم في السياسة العربية ثورياً وطويل الأمد⁽³⁾.

لا يمكن، إذًا، وصف عملية السلام التي انتهت في لوزان بأنها كانت، كما اقترح إيريز مانيلا في كتابه **اللحظة الولسونية**، مصدر إلهام للشعوب غير الأوروبية في السعي للحصول على حقوقها السيادية لاحقاً بعد ربع قرن من الحرب العالمية الثانية⁽⁴⁾. شوه الاعتماد على الوثائق الأوروبية تاريخ فترة ما بين الحربين؛ إذ يغفل النقاش حول "أزمة الليبرالية" الطرائق التي سعى من خلالها السياسيون العرب، في واقع الأمر، لإحياء السياسات الديمقراطية في أواخر العصر العثماني، في حقبة ما قبل الحرب ونشرها⁽⁵⁾. وتقدّم هذه الدراسة المتعلقة بارتكاس العرب حيال مؤتمر لوزان تصحيحاً لهذا الخلل عبّر إيجاد أصول الحركات المناهضة لليبرالية والمقاتلة في عملية السلام التي أعقبت سقوط الإمبراطورية العثمانية⁽⁶⁾.

3 Elizabeth F. Thompson, *How the West Stole Democracy from the Arabs: The Syrian Congress of 1920 and the Destruction of Its Historic Islamic-Liberal Alliance* (New York: Atlantic Monthly Press, 2021);

لأنّ العديد من العرب السوريين سعوا لأن يكون مفاهم في مصر، ولأنّ العديد من المصريين عانوا، أيضاً، الإقصاء وقمع الديمقراطية الشعبية في عام 1919، فإن هذه الدراسة تتناول مصر في قسمها الختامي.

4 Manela, pp. xi-xii, 12-13, 60-62.

5 Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (London: Oxford University Press, 1962).

6 Elizabeth F. Thompson, *Justice Interrupted: The Struggle for Constitutional Government in the Middle East* (Massachusetts: Harvard University Press, 2013);

وعلى العكس من ذلك، تجاهل جيمس غلفين النهضة الليبرالية في سوريا، ينظر:

James L. Gelvin, *Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire*, 1998; Michael Provence, in: *The Last Ottoman Generation and the Making of the Modern Middle East* (Cambridge: Cambridge University Press, 2017);

يصف مايكل بروفينس الرد على الانتدابات من حيث الثورة العسكرية في المقام الأول في كتابه: *The Last Ottoman Generation and the Making of the Modern Middle East*, 2017.

باختصار، توضح هذه الدراسة أن فهم لحظة ما بعد الحرب في الشرق الأوسط أمر لا يمكن قسره على الحدود والاستقلال الوطني؛ إذ كان النضال الذي خاضه السياسيون العرب السوريون لإحياء الدستورية الليبرالية وتوسيع قاعدتها الشعبية بعد هدنة عام 1918 حاسماً، وهو جهد تكامل مع جهودهم للحصول على السيادة في النظام العالمي الويلسوني. وكان فشل العرب السوريين التام في تأمين حقوقهم عام 1923 منعطفاً حاسماً، وقد لقيت حركة الديمقراطية الشعبية بعده حثفها. ففي أعقاب لوزان، نشأت الحركات المناهضة للنظام، والمناهضة لأوروبا في الشرق الأوسط ردًا على الرفض العنيف من جانب المجلس الأعلى لمؤتمر السلام للتطبيق الشامل للمبادئ الليبرالية في النظام العالمي الجديد. واقترح، في الختام، أنه من الأفضل النظر إلى الحركات العربية بعد الحرب مع الحركات الأخرى المناهضة للنظام في عشرينيات القرن العشرين في أوروبا وجنوب آسيا، تلك الحركات التي رفضت النظام العالمي الليبرالي الجديد والاستعماري الجديد. ويجب أن يصبح هذا المنعطف الحاسم نقطة انطلاق جديدة لفهم جذور العداء للغرب وضعف الحركات الديمقراطية في السياسة العربية خلال القرن الماضي.

أولاً: الإقصاء في مؤتمر باريس للسلام: 1919-1920

منذ غزو نابليون لمصر في عام 1798، قاوم السياسيون العثمانيون، بمن فيهم العرب، العدوان الإمبراطوري الأوروبي. وأيد العرب السوريون دخول العثمانيين الحرب العالمية الأولى ضد دول الوفاق باعتباره صراعاً ضد الاستعمار. لكن في السنة الثانية من الحرب، فقد بعض القادة العرب الثقة بقدرة الحكومة العثمانية على الدفاع عن سيادتهم. وقرر السوريون، بالتشاور مع الشريف حسين من مكة، أنه يمكن ضمان السيادة العربية على نحو أفضل من خلال إبرام صفقة حرب مع دول الوفاق. وفي عام 1915، بدأ حسين مراسلات مع المفوض السامي البريطاني في مصر، المقدم السير هنري مكماهون Sir Henry McMahon (1862-1949). وبناءً على تفهم أن بريطانيا وعدت بدولة عربية مستقلة بما في ذلك سوريا الكبرى، أطلق حسين الثورة العربية الكبرى بالتحالف مع قوى الوفاق. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1918، احتل الجيش العربي الشمالي دمشق، وأعلن قائده الأمير فيصل، نجل الشريف حسين، قيام دولة عربية دستورية في الأراضي السورية الواقعة شمال مملكة والده في الحجاز في شبه الجزيرة العربية. وفي الوقت نفسه، انضم العديد من كبار جنرالات فيصل إلى حركة تهدف إلى إقامة دولة مستقلة في العراق، في اتحاد مع سوريا والجزيرة العربية. وفي هذه الأثناء، شكّل قادة مصريون حزب الوفد للمطالبة باستقلالهم في وجه الخطط البريطانية لإطالة أمد وصايتها في زمن الحرب (ظلت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية حتى بعد الاحتلال البريطاني في عام 1882).

في دمشق، كانت الخطوة الأولى من خطوات عرقلة مطالبة العرب العثمانيين بالسيادة؛ إذ أبلغ الجنرال البريطاني إدmond أليبي Edmund Allenby (1861-1936) فيصل أن بريطانيا لن تسحب قواتها من سورية الكبرى حتى نهاية مؤتمر السلام. لكن العرب الذين اعترفت بهم بريطانيا رسمياً بوصفهم رفاقاً في القتال، مُنحوا مقعداً في مؤتمر السلام. واختار حسين فيصل لتمثيله في باريس. وكانت المحاولة الثانية لاستبعاد العرب في ميناء مرسيليا؛ فقد سعى المسؤولون الفرنسيون لعرقلة دخول فيصل إلى فرنسا، خوفاً من أن يطالب بسوريا، وتدخلت بريطانيا. وفي شباط/فبراير 1919، قدم فيصل للمؤتمر مرافعة رسمية، أكد فيها مطالبة العرب بدولة ذات سيادة، استناداً إلى دعم جهود الحلفاء الحربية، والوعود البريطانية الصريحة، ومبدأ ويلسون في تقرير الأمم مصيرها. ورأى فيصل أن العرب، باعتبارهم مواطنين سابقين في الإمبراطورية العثمانية، على القدر ذاته من التطور السياسي الذي كان عليه المواطنون السابقون للإمبراطورية النمساوية المجرية الذين نالوا الاعتراف بدولهم القومية في باريس.

غير أنَّ الأربعة الكبار في مؤتمر السلام (رؤساء وزراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ورئيس الولايات المتحدة) وافقوا بدلاً من ذلك على فرض فترة من الاستقلال المؤقت، تحت غطاء انتداب عصبة الأمم. ونتيجةً لهذا، صُنِّفَت المادة (22) من ميثاق عصبة الأمم سورية الكبرى والعراق ضمن "المستعمرات والأقاليم التي لم تعد، نتيجة للحرب الأخيرة، خاضعة لسيادة الدول التي كانت تحكمها سابقاً، والتي تقطنها شعوب لا تستطيع النهوض وحدها في ظروف العالم الحديث الشديدة". فمثل هذه الشعوب غير الناضجة، التي تشمل رعايا الإمبراطورية الألمانية المستعمرين في أفريقيا وآسيا، من شأنها أن توضع تحت الانتداب. وضمنت المادة للعرب أن يكون انتدابهم محدوداً ومؤقتاً وأن يكون برضاهم: "إن بعض الأقوام التي كانت من قبل تنتمي إلى الإمبراطورية التركية قد وصلت إلى درجة من التقدم يمكن معها الاعتراف مؤقتاً بوجودها بوصفها أمماً مستقلة رهناً بتقديم المشورة الإدارية والمساعدة من قبل دولة منتدبة حتى يحين الوقت الذي تصبح فيه قادرة على النهوض وحدها. ويجب أن يكون لرغبات هذه الأقوام اعتبار رئيس في اختيار الدولة المنتدبة"⁽⁷⁾.

كان مساعداً فيصل في باريس، رستم حيدر وعوني عبد الهادي (1889-1970)، قد درساً القانون في باريس قبل الحرب، وكانا متشككين في الضمانة الغامضة للاستقلال المؤقت بموجب المادة (22)، لكن الطمأنة الأميركية دفعتهما إلى توقيع معاهدة فرساي (1919) في إثر مؤتمر باريس للسلام، على مفض، بوصفهما ممثلي شريف مكة⁽⁸⁾. ومع تطور الأحداث، رفض الشريف حسين في النهاية التصديق على معاهدة فرساي.

في هذه الأثناء، سارع فيصل، الذي عاد إلى دمشق، إلى استيفاء الشروط اللازمة للحصول على الاستقلال الكامل. وأقنع الرئيس الأمريكي ويلسون بإرسال لجنة تحقيق لاستطلاع آراء العرب حول سلطة الانتداب المفضلة لديهم. وأُجريت انتخابات لتشكيل مؤتمر سوري من أجل إعداد بيان مشترك لمبعوثي ويلسون. وفي نظر النواب المنتخبين، لم يكن المؤتمر السوري مجرد هيئة مؤقتة، بل كان تعبيراً عن الممارسة السياسية ما بعد العثمانية. وفي 3 تموز/ يوليو 1919، قدّم النواب اقتراحهم المتمثل في "استقلال سياسي كامل"، و"ملكية دستورية ديمقراطية مدنية"، إلى لجنة التحقيق التي شكلها ويلسون، بقيادة هنري كينغ Henry King (1858-1934) وتشارلز كرين⁽⁹⁾. وجالت اللجنة في أنحاء سوريا الكبرى، بما في ذلك فلسطين ولبنان. وتجلّى الدعم الشعبي لمقترح المؤتمر في أكثر من ألف مقابلة أجرتها لجنة كينغ-كرين في سوريا الكبرى. ورفضت الأغلبية الساحقة الانتدابين البريطاني والفرنسي، ورفضت كذلك الأهداف البريطانية في تقسيم فلسطين لإقامة وطن يهودي منفصل.

سرعان ما دُفِن تقرير كينغ-كرين في باريس. واختفت القيود الأميركية المفروضة على الإمبريالية الأوروبية في ذلك الخريف، عندما أصيب ويلسون بسكتة دماغية، واختار مجلس الشيوخ الأمريكي الانسحاب من عصبة الأمم ومعاهدة فرساي. وشرع زعماء مؤتمر باريس للسلام الباقون في فرض الانتدابات بالقوة، وليس وفقاً لرغبات الأقوام، كما نصّت المادة (22). وأصرّت فرنسا على الانتداب على الجزء الشمالي من سوريا الكبرى، في حين واصلت بريطانيا دعم إقامة وطن يهودي في انتدابها على الجزء الجنوبي.

7 "The Covenant of the League of Nations," *The Avalon Project: Documents in Law, History and Diplomacy*, Yale Law School, Article 22, accessed on 9/12/2024, at: <https://acr.ps/1L9zQGg>

8 *United States Treaties and Other International Agreements*, Library of Congress, accessed on 8/12/2024, at: <https://acr.ps/1L9zQAN>

9 ماري المظ شهستان، **المؤتمر السوري العام 1919-1920** (بيروت: دار أمواج، 2000)، ص 62؛ وعُثِرَ على الترجمة الإنكليزية في المجموعة الرقمية للجنة كينغ-كرين في كلية أوبرلين، ينظر:

"Petition from the Syrian Conference in Damascus, 3 July 1919," King Crane Commission Digital Collection, Oberline College Archives, p. 1, accessed on 8/12/2024, at: <https://acr.ps/1L9zQNF>

وحين سحب البريطانيون قواتهم من دمشق مراعاةً للاحتلال العسكري الفرنسي، اندلعت المظاهرات الشعبية في الشوارع. وسافر الأمير فيصل إلى أوروبا في محاولة عبثية لوقف خطط الاحتلال الفرنسي.

في آذار/ مارس 1920، صوت المؤتمر لإعلان الاستقلال من جانب واحد. وأقام نظامًا ملكيًا دستوريًا وانتُخب فيصل ملكًا. وأوضح الإعلان أنَّ دافع العرب السوريين كان الانضمام إلى الحلفاء في أسرة الأمم، وليس رفض النظام العالمي الليبرالي، كما أوضح أن العرب السوريين رأوا في مملكتهم تحقيقًا لتطلعات ديمقراطية أحبطتها الحرب: "إن الأمة العربية ذات المجد القديم والمدنية الزاهرة لم تقم جميعاتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي، ولم ترق دم شهدائها الأحرار ولم تثر على حكومة الأتراك، إلا طلبًا للاستقلال التام [...] أسوة بالشعوب الأخرى التي لا تزيد عليها مدنية ورقياً. وقد اشتركت في الحرب العامة مع الحلفاء استنادًا إلى [...] ما جهر به الرئيس ويلسون من المبادئ السامية القائلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبدأ المساواة في الحقوق، وإنكار سياسة الفتح والاستعمار [...]". هذا وإننا باسم الأمة السورية العربية التي أنابتنا عنها نحتفظ بصدقة الحلفاء الكرام محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل احترام⁽¹⁰⁾.

لكنَّ حلفاءهم البريطانيين والفرنسيين رفضوا الاعتراف بالنظام المستقل. واجتمعوا في الشهر التالي في سان ريمو لتوزيع الانتدابات على النحو المخطط له. وتركوا مندوبي الشريف حسين ينتظرون خارج غرفة الاجتماعات ورفضوا دخولهم.

في سان ريمو، أُخرج العرب على نحو قاطع من مؤتمر السلام ومن أسرة الأمم المتحضرة. وأرسلت فرنسا جيشها الاستعماري لاحتلال دمشق، في تموز/ يوليو 1920، من دون أن تحتج عصبة الأمم التي كان ظلٌ يتعين عليها التصديق على معاهدة سان ريمو. وصادر الفرنسيون كل الوثائق المتعلقة بالمملكة العربية السورية ودمروها، بما في ذلك سجلات المؤتمر وأي نسخ من الدستور تمكنوا من العثور عليها. كانوا يهدفون إلى محو أي أثر للديمقراطية السورية، وأي أثر لقدرة السوريين على الحكم الذاتي.

بقيت نسخة واحدة على الأقل من الدستور السوري لعام 1920 في حقيبة وزير فرّ إلى شرق الأردن ونشرها لاحقًا⁽¹¹⁾. ويقيم هذا النص، الذي جرى التصديق عليه كاملاً قبل أسبوعين من الغزو الفرنسي، نظامًا أكثر ديمقراطية من النظام الذي يقيمه الدستور العثماني لعام 1909. فقد منح السلطة التشريعية سلطة أكبر من تلك التي منحها للملك. وفي ضوء التنوع السكاني في سوريا، استُبعد الإسلام دينًا للدولة ومصدرًا للتشريع. حدث هذا في ظل مؤتمر كان رئيسه، رشيد رضا (1865-1935)، رجل الدين المسلم البارز. أصرَّ رشيد رضا والمؤتمر (الذي ضم أكثر من اثني عشر ممثلًا من الساحل اللبناني) على المساواة والتعايش، وذلك في مواجهة ادعاءات الفرنسيين حماية المسيحيين من الطغيان الإسلامي بإنشاء جب مسيحي منفصل في لبنان: "كانت هذه الحكومة العربية الطفلة أقرب إلى العدل، والحرية، والمساواة، والإصلاح، وأبعد عن التعصب والمحابة والإفساد الأدبي والاقتصادي من حكومتَي الدولتين اللتين ابتدعتا لنا بدعة الانتداب [...] كان اليهودي الصهيوني يُحايى في فلسطين، فيقدّم على المسلم والمسيحي بغير حقٍّ، وكان الكاثوليكي يحايى في الساحل [لبناني] كذلك، ولم يكن المسلم يحايى في حكومة الشام، ولا شكا مسيحي ولا يهودي من الحكومة"⁽¹²⁾.

10 أعيد طبعه في: يوسف السيوفي، ذكرى استقلال سوريا: 17 جمادى الثانية 1338 الموافق 8 آذار (مارس) سنة 1920 (القاهرة: مطبعة طه إبراهيم ويوسف برلادي، 1920).

11 حسن الحكيم، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية (بيروت: دار صادر، 1974)، ص 194-213. ينظر الترجمة الإنكليزية في: Thompson, *How the West Stole Democracy from the Arabs*, pp. 353-370.

12 محمد رشيد رضا، "الرحلة السورية الثانية (10)", المنار، مج 23 (أيار/ مايو 1922)، ص 390-391.

ثانيًا: التحديات السياسية والقانونية لنظام الانتداب: 1920-1922

عبر السياسيون المنفيون الذين تفرقوا في أنحاء المشرق العربي، بعد تموز/ يوليو 1920، عن خيبة أملهم الشديدة في النظام العالمي الليبرالي الذي كان يجري بناؤه في باريس، لكنهم لم يرفضوه، إلى ذلك الحين، من حيث المبدأ. ودافعوا عن استراتيجيتهم المتمثلة في "اللعب وفقًا لقواعد باريس" بدلًا من القيام بثورة مسلحة ضد الاحتلال الأوروبي، كما فعل الأتراك والعراقيون.

وعلى الرغم من هزيمتهم في دمشق، ظل هؤلاء السياسيون والمحامون المدنيون يعتقدون (كما اعتقد أبائهم وأجدادهم) أن الليبرالية هي الأساس لحقوق الأمم الشاملة. وأنه لا يزال من الممكن إثبات خطأ الحلفاء بالرجوع إلى المؤسسة التي تصورها ويلسون للفصل في القانون الدولي. ولذلك شكّل رشيد رضا ومجموعة من المنفيين السوريين في القاهرة المؤتمر السوري - الفلسطيني. وضم هذا المؤتمر ميشيل لطف الله (1881-1960)، وهو أمير مسيحي من لبنان، وعبد الرحمن الشهبندر، وهو علماني من دمشق. وانضم إليهم بعد ذلك شكيب أرسلان، وهو أمير درزي من لبنان مقيم في جنيف، مقر عصبة الأمم.

في آب/ أغسطس 1921، سافر أعضاء المؤتمر السوري - الفلسطيني إلى جنيف قبل افتتاح جمعية عصبة الأمم. وقام رشيد رضا بهذه الرحلة اعتقادًا منه أن الليبراليين في أوروبا سوف يؤيدون مبادئ ويلسون. وكتب في مجلته **المنار** التي كانت تحظى بانتشار واسع: "أود لو تعلم الشعوب العربية أن الانتداب [...] لم يصر أمرًا مقصيًا وأن عصبة الأمم لن تكون ألوبة بيد المستعمرين" (13).

التقى رشيد رضا بالمؤتمر السوري - الفلسطيني القائم على إدارة لجنة الانتدابات الدائمة الذي أبدى تعاطفًا، إضافة إلى عدّة أعضاء من جمعية عصبة الأمم، وطالبوا بإلغاء الانتدابين الفرنسي والبريطاني في سورية الكبرى على أساس أن فرضهما بالقوة ضد إرادة الشعب انتهاكًا للمادة (22). وقد رأى المؤتمر السوري - الفلسطيني أن المملكة العربية السورية أثبتت نضجها السياسي وقدرتها على الحكم الذاتي.

كانت مواجهة جنيف محورية في تغيير الأهداف والاستراتيجية السياسية العربية، فقد اكتشف المؤتمر السوري - الفلسطيني أن مجلس عصبة الأمم، الذي كانت لجنة الانتدابات الدائمة ترفع إليه تقاريرها، مؤلف من مسؤولين استعماريين. وكان أول أمين عام للعصبة، إريك دراموند Eric Drummond (1876-1951)، مقرّبًا من بلفور، المعروف برسائلته التي وعد فيها بإنشاء وطن يهودي في فلسطين. ورفض أعضاء كل من المجلس ولجنة الانتدابات الدائمة الاجتماع بالمؤتمر السوري - الفلسطيني. وبعد تقديم تقرير مكتوب إلى مدير لجنة الانتدابات الدائمة، غادر الأعضاء جنيف في أواخر أيلول/ سبتمبر.

حين علم رشيد رضا أن مجلس عصبة الأمم حدّد موعد اجتماع للتصويت والتصديق على الانتداب، نشر نوعًا من البلاغ الأخير، فكتب في **المنار**: "إن هذه الجمعية التي اقترح الرئيس ويلسون تأليفها من جميع أمم الحضارة لخير جميع البشر لا يليق بشرفها [...] أن تكون آلة لدولتين استعماريّتين [...] إذا كان البلقان هو مسعر نيران الفتن والحرب في الغرب، فإن سوريا وفلسطين وسائر بلاد العرب ستكون تشعل مسعر نيران الفتن والحرب في الغرب والشرق جميعًا" (14).

لكن تحذيره لم يلقَ آذانًا صاغية. وفي تموز/ يوليو 1922، ترأّس بلفور اجتماعًا لمجلس عصبة الأمم صدّق على الانتدابين البريطاني والفرنسي في رفض قاطع لطلب المؤتمر السوري - الفلسطيني. وقد مُنِع شكيب أرسلان الذي سافر إلى لندن ليشهد التصويت من دخول القاعة، ومُنِع المندوبون العرب من ذلك في سان ريمو. بيد أن الأمر، بالنسبة إلى المؤتمر السوري - الفلسطيني، لم ينتهِ

13 محمد رشيد رضا، "الحقائق الجلية في المسألة العربية"، **المنار**، مج 22 (حزيران/ يونيو 1921)، ص 478-479.

14 محمد رشيد رضا، "الرحلة الأوروبية (5)"، **المنار**، مج 23 (تموز/ يوليو 1922)، ص 559-560.

في تموز/ يوليو 1922؛ إذ تصورا وجود ثغرة في القانون الدولي قد تخدم قضيتهم؛ فقد زعم نص موثيق الانتداب أن الإمبراطورية العثمانية تخلّت في معاهدة سيفر عن حقوقها في سوريا ولبنان وفلسطين. لكن هذه المعاهدة لم يُصدّق عليها قط. واحتجت الحكومة الوطنية التركية في أنقرة، دعماً للعرب، بأن الانتدابات ينبغي ألا تُسند وتُحدّد قبل توقيع معاهدة سلام. وفي أيلول/ سبتمبر 1922، حقق الجيش التركي نصراً حاسماً في غرب الأناضول ضد الجيش اليوناني المدعوم من الحلفاء؛ ما مكّن الأتراك من المطالبة بمراجعة المعاهدة. وتطلّع العرب إلى الزعيم الوطني التركي مصطفى كمال طلباً للدعم.

أثارت الصحافة العالمية تساؤلات حول شرعية الانتداب؛ ففي حزيران/ يونيو 1922، نقلت الصفحات الأولى في الصحف البريطانية أن مجلس اللوردات رفض الانتداب على فلسطين بأغلبية 60 صوتاً مقابل 29، على الرغم من طلب شخصي من جانب بلفور، على أساس أنه ينتهك وعوداً رسمية وإرادة الأغلبية في فلسطين⁽¹⁵⁾. وتمكّن تشرشل من تجاوز هذا الرفض في مجلس العموم، لكن الشكوك بقيت لدى عامة الناس البريطانيين. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1922، وصفت افتتاحية في صحيفة **ذي تايمز** مؤتمر لوزان القادم للسلام بأنه كشف حساب السياسة البريطانية في المنطقة: لقد حفز كفاح [مصطفى] كمال باشا وانتصاراته حركة في أرجاء الشرق لا بد من أن نعتبرها ثورة وشيكة ضد الغرب. ومما له دلالة أن الإعجاب بإنجازات كمال كان واسع الانتشار بين الشعوب العربية التي رحبت بمساعدتنا في التخلص من الحكم التركي، في حين خمد التعاطف الذي سبق أن شعروا به تجاهنا بسبب سياستنا المشوشة وغير المفهومة⁽¹⁶⁾.

دار جدال جديد أيضاً حول الانتداب الفرنسي على سوريا؛ ففي نيسان/ أبريل 1922، تقدّم سوريون بعريضة إلى كرين، أحد زعماء لجنة التحقيق التي شكلها ويلسون في عام 1919، يطالبون فيها بنشر تقرير كينغ-كرين الذي ظل فترة طويلة طيّ الكتمان. وأرسل الشهبندر، من زنزانته في السجن، رسالة إلى ويلسون، قال له فيها إن تعهّداته المعروفة أصبحت مصدر إلهام لجميع الشعوب في الشرق، لكن المؤسف أن معظم ما جرى تحاشيه حدث مثلما يسقط حجر من مكان عالٍ على رؤوس هذه الشعوب⁽¹⁷⁾.

بعد تقارير في **ذي نيويورك تايمز** وغيرها من الصحف، حصل كرين على إذن ويلسون بنشر تقرير كينغ-كرين في صيف عام 1922، على الرغم من جهود إدارة وارن هاردنغ (1921-1923) في إبقائه طيّ الكتمان. قارنت افتتاحية متعاطفة في **ذي نيويورك تايمز** شكاوى السوريين من الحكم الفرنسي بالمظالم المدرجة في إعلان الاستقلال الأميركي، بل إن الصحيفة لخصت تحذير التقرير القائل إنه "لا يمكن إقامة حكومة يهودية من دون اهتضام الحقوق المدنية والدينية بالنسبة إلى الجماعات غير اليهودية في فلسطين"⁽¹⁸⁾.

ثالثاً: "الغائبون الحاضرون" العرب في لوزان

في خريف عام 1922، تصوّر السوريون والفلسطينيون أن للحلفاء الأوروبيين اهتمامات جديدة؛ ما دفعهم إلى الاعتقاد أنه يمكنهم أن يلغوا الانتداب. ففي تشرين الأول/ أكتوبر، أدت المحاولة البريطانية للتدخل ضد تركيا في جناق قلعة إلى إسقاط حكومة

15 "Palestine Mandate Defeated in Lords," *The New York Times*, 21/6/1922, p. 1; "'Palestine' and 'The Palestine Mandate': Government Defeat in the Lords," *The Times* (London), 21/6/1922, pp. 6, 10.

16 "The Approach to Peace," *The Times* (London), 23/10/1922, p. 11.

17 "Letter from A. Shahbandar to Former President Woodrow Wilson, 6 May 1922," King Crane Commission Digital Collection, Oberlin College Archives, accessed on 9/12/2024, at: <https://acr.ps/1L9zQDE>

18 "The Crane-King Report," *The New York Times*, 20/8/1922, p. 44; "Dept. of State memo to Mr. Harrison, 6 April 1922"; "Dept. of State Undersecretary Memo to Mr. Turlington, 7 April 1922," National Archives and Record Administration, College Park, RG 59.763.72119/7156-7210, Microfilm M367 Roll 439, Images 0067-69; "The Secretary of State to the Ambassador in Great Britain (Harvey), 3 April 1922," in: *Foreign Relations of the United States, 1922*, vol. 2: 0012, Great Britain, pp. 271-275; "The Secretary of State to the Ambassador in France (Herrick), 19 May 1922," in: *Foreign Relations of the United States, 1922*, vol. 2: 0010, France, p. 117.

لويد جورج ومعه تشرشل، وهو ما دفع إلى اعتقاد أن حكومة بونار لو الجديدة قد تكف عن الاهتمام البريطاني بالانتداب. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، بدا الجنرال الفرنسي غورو مستعداً للاستقالة من منصبه بصفته مفوضاً سامياً في سوريا ولبنان، بعد أن خفضت باريس ميزانية الانتداب.

كانت توجد أيضاً إشارات إلى أن إيطاليا التي لطالما انتقدت الانتداب، قد تدعم العرب في لوزان؛ فقد فضل بعض الدبلوماسيين الإيطاليين دعم العرب وسيلةً لعرقلة النفوذ البريطاني والفرنسي⁽¹⁹⁾. ونشر أحد علماء القانون الدولي الإيطاليين البارزين مقالاً لاذعاً شكك فيه في شرعية الانتداب. وخلص أماديو جيانيني إلى أنه إذا أبدى أعضاء عصبة الأمم اعتراضاتهم، فقد تُحال قضية الانتدابات إلى محكمة العدل الدائمة في لاهاي⁽²⁰⁾. وكان الأمر المبشر أكثر من غيره أن بينيتو موسوليني Benito Mussolini (1922-1943) تولّى في أواخر تشرين الأول/أكتوبر منصب رئيس الوزراء؛ خلفاً للحكومة التي صوتت لتصديق الانتدابات خلال تموز/يوليو السابق.

لذلك تقرب العرب السوريون من الأتراك، مذكّرين إيّاهم بأنهم ما زالوا مواطنين قانونيين في الإمبراطورية العثمانية، وأن الميثاق المّلي لعام 1920 تضمّن مطلباً بتقرير العرب مصيرهم⁽²¹⁾. ووفقاً لإحدى الصحف في القاهرة، فضل مصطفى كمال إقامة دولة عربية مستقلة موحدة⁽²²⁾. وحتى رشيد رضا أعرب عن تفاؤل حذر بأن صديقه شكيب أرسلان قد يقنع الأتراك بالإصرار على استقلال العرب، في تحدٍّ لما اعتبره مؤامرة اللورد كيرزون ضد العالم الإسلامي⁽²³⁾.

تطلّع بعض السوريين والفلسطينيين أيضاً إلى الشريف حسين في مكة؛ إذ قاوم الضغوط البريطانية لتوقيع معاهدتي فرساي وسيفر، ورفض في عام 1922 توقيع معاهدة ثنائية منفصلة تؤيد الانتداب. وبعد تصديق عصبة الأمم في تموز/يوليو 1922، سافر وفد فلسطيني إلى مكة. وردّاً على ذلك، هدد اللورد كيرزون الشريف حسين بدعم عدوّه اللدود، ابن سعود، وباستبعاده من مؤتمر لوزان. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ حسين، الذي يُقال إنّه "غضب"، أرسل إلى لوزان ممثله ناجي الأصيل⁽²⁴⁾.

لكن الأمل خفّ مرة أخرى في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، عند افتتاح المؤتمر. فقد اختار المندوبون اللورد كيرزون رئيساً للمؤتمر، وتجاوزوا اقتراحاً تركياً متعلّقاً بجعل مجريات المؤتمر علنية. وحذر المندوب الفرنسي البارز كاميل باربير من أنه "ينبغي ألا تُستحضر المشاعر العامة في مناقشات المؤتمر مهما كان الثمن"⁽²⁵⁾. والأسوأ من ذلك أن الحلفاء رفضوا مطالبة العرب بإشراكهم باعتبارها "سخيفة"؛ لأن العرب، بحسب المادة (22)، "لا يستطيعون النهوض وحدهم في ظروف العالم الحديث الشديدة".

19 Vincenzo Strika, "L'Italia e il nazionalismo arabo del vicino oriente tra le due guerre mondiali," *Quaderni di Studi Arabi*, vol. 5, no. 6 (1987-1988), pp. 726-746.

20 Amadeo Giannini, "I mandati tipo A e la loro natura Giuridica" [The Type A Mandates and Their Legal Nature], *Oriente Moderno*, vol. 2, no. 3 (15 August 1922), p. 139.

21 Awad Halabi, "Liminal Loyalties: Ottomanism and Palestinian Responses to the Turkish War of Independence, 1919-22," *Journal of Palestine Studies*, vol. 41, no. 3 (Spring 2012), pp. 21-22; Mutaz Qafisheh, "Genesis of Citizenship in Palestine and Israel: Palestinian Nationality During the Period 1917-1925," *Journal of the History of International Law*, vol. 11, no. 1 (2009), pp. 1-36.

22 "A Turco-Arab Alliance: Kemalist Proposal," *The Times* (London), 4/11/1922, Quoting *Al-Mokattam* Newspaper of Cairo. Also Quoted in: Eliot Grinnell Mears, *Modern Turkey* (New York: MacMillan, 1924), p. 549.

23 "مؤتمر لوزان: أحوال العالم الإسلامي، مؤتمر الصلح"، المنار، مج 24، ج 2 (شباط/فبراير 1923)، ص 145-152.

24 Suleiman Mousa, "A Matter of Principle: King Hussein of the Hijaz and the Arabs of Palestine," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 9, no. 2 (April 1978), pp. 183-194; Timothy J. Paris, *Britain, the Hashemites and Arab Rule, 1920-1925* (London: Routledge, 2003), pp. 277-298, 341-353.

25 United Kingdom, UK Parliament, *Lausanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923: Records of Proceedings and Draft Terms of Peace (With Map)* (London: H.M.S.O., 1923), p. 4.

إنّ ما عرقل العرب أيضًا هو عجزهم عن التحدث بالصوت الموحد ذاته الذي خاطبوا به مؤتمر باريس للسلام ولجنة كينغ-كرين في دمشق. فمنذ عام 1920، تعرضوا للنفي والتقسيم إلى كيانات سياسية منفصلة، وخضعوا لمراقبة مكثفة، وقسمتهم الطرائق البريطانية والفرنسية في شراء التعاون. وكان فيصل قد قبل عرض تشرشل بحكم العراق بموجب معاهدة منفصلة مع البريطانيين. ووقع شقيقه عبد الله المعاهدة التي رفضها والده الشريف حسين. وصار المؤتمر السوري - الفلسطيني، الذي كان موحدًا وسافر إلى جنيف في عام 1921، منقسمًا. وعيّن مؤتمر فلسطيني موسى كاظم الحسيني، عمدة القدس السابق، زعيمًا لوفده. وأرسل المنفيون السوريون في القاهرة وفدًا منفصلًا. وجمّعت الوفود العربية المختلفة مناشداتها إلى قوى مختلفة ومتنافسة. وقبل وصولها إلى لوزان، التقى السوريون والفلسطينيون بممثلي خديوي مصر عباس حلمي (1892-1914) بخصوص اقتراحه أن يحكمهم في ظل دولة موحدة، والتقوا أيضًا بالزعيم الإيطالي الجديد موسوليني الذي أعرب عن دعمه لدولة مستقلة⁽²⁶⁾. لكن الفلسطينيين ما إن وصلوا إلى لوزان، حتى تصوروا وجود فرصة للتفاوض الثنائي مع خليفة تشرشل، فغادروا إلى لندن، تاركين السوريين وراءهم⁽²⁷⁾. ومع أنّه كانت لدى الوطنيين المصريين مخاوف مماثلة لمخاوف السوريين والفلسطينيين، فإنهم اختاروا ألاّ يجمعوا بين قواهم. وبدلًا من ذلك، أرسلت الأحزاب المصرية المنافسة وفودًا منفصلة إلى أنقرة⁽²⁸⁾. وأرسل المسؤولون المصريون كذلك رسائل رسمية مباشرة إلى لوزان، مطالبين بالمشاركة في المفاوضات⁽²⁹⁾. وأرسل المنفيون اللبنانيون في القاهرة أيضًا عريضة مباشرة إلى المندوبين الفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين والأتراك في لوزان. وأعلنت العريضة نيابةً عن الشعب اللبناني ما يلي: "نطالب بأن تعترف معاهدة السلام باستقلال الدولة اللبنانية ضمن حدودها الحالية"⁽³⁰⁾.

أدرك الزعماء العرب، على نحو مؤلم، أنّ الطرائق الأوروبية القائمة على سياسة "فرق تسد" أضعفتهم. وقد نددت صحيفة **الكرمل** الفلسطينية بالجهد العربي المتصدع: "أما استحضاراتهم لمؤتمر لوزان فإنها تنحصر بالوفد الفلسطيني السوري الذي توجه رافقته السلامة تحت رئاسة سعادة كاظم باشا الحسيني ووفد العراق المؤلف من جعفر باشا العسكري [1885-1936] وتوفيق بك السويدي [1892-1968] والذي غادر العراق للسعي في لندن لتمثيل الحكومة العراقية في مؤتمر لوزان أما الحجاز المعترف باستقلاله فلم يحرك ساكنًا ولم يرسل مندوبًا واحدًا يراقب سير المفاوضات، وأما شرق الأردن فلقد جاء في البرقيات الأخيرة أن سمو أميرها [عبد الله] عازم على العودة إليها ولا نعلم ماذا يحمل للعرب في حقيقته"⁽³¹⁾.

ونبّهت الصحيفة الدبلوماسية العرب إلى تحدي تكتيكات "فرق تسد" البريطانية، وإلا فإنهم سيخضعون للحكم الأوروبي. وعلى نحو مماثل، حثت صحيفة **الأهرام** المصرية المبعوثين المصريين على الاتحاد مع العرب السوريين في لوزان للاحتجاج على استبعادهم من المفاوضات⁽³²⁾.

26 "أخبار الأخيرة: ملك سورية وفلسطين"، **فلسطين**، 1922/11/24.

27 "The Palestinian Arabs' Case," *The Times* (London), 23/12/1922, p. 7.

28 ينظر: "تصريحات رجال الحزب الوطني لمندوب الأهرام بلوزان"، **الأهرام**، 1923/1/8؛ "Rival Egyptian Missions Seeking Favours at Angora," *The Times* (London), 28/12/1922, p. 8.

29 "مصر في لوزان"، **الأهرام**، 1923/1/4؛ "إلى مؤتمر لوزان"، **الأهرام**، 1923/2/22.

30 [مقال من دون عنوان]، **الأهرام**، 1923/1/29.

31 "موقف العرب"، **الكرمل**، 1922/11/15. أرسلت الحجاز أيضًا مندوبًا في وقت لاحق.

32 "مصر في لوزان"، **الأهرام**، 1923/1/4؛ "إلى مؤتمر لوزان"، **الأهرام**، 1923/2/22.

لجأ البريطانيون إلى استراتيجيات إضافية متعددة للحيلولة دون المشاركة العربية؛ تمثلت الاستراتيجية الأولى برفض اللقاءات الشخصية وإلقاء الخطب أمام المؤتمر. واقترح مستشارو اللورد كيرزون وجوب أن "يُعرض الإذن بمخاطبة المؤتمر على المؤتمر كي يمكن رفضه، وأن يرفض اللورد كيرزون استقبالهم على أساس أنهم سبق أن حصلوا على فرصة كافية لعرض آرائهم أمام [وزير الدولة] للمستعمرات، وهو الوزير المعني في المقام الأول"⁽³³⁾. وعلى هذا، فقد حذر المفوض السامي لفلسطين، هيربرت صموئيل Herbert Samuel (1870-1963)، موسى كاظم من أن رحلته إلى لوزان ستكون "مضيعة للوقت".

في الواقع، وكما رأى الفلسطينيون، لم تكن الانتدابات قد دخلت حيز القانون الدولي بعد، ولذلك كانت لدى العرب حجة يواجهون بها طردهم من الأمم صاحبة الحقوق إلى فئة الشعوب المُستعمَرة المنزوعة الحقوق: "الآن وقد ألغيت معاهدة سيفر التي انخرطت بها فلسطين انخراطاً شديداً"، كتب الوفد العربي الفلسطيني في لوزان، في 28 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1922، أنه يُمكن لمعاهدة سلامٍ منقّحة أن "تُبنى على أنبل الاعتبار". وأصرّ الفلسطينيون على أنهم لكونهم مواطني "الإمبراطورية التركية"، فإنهم خاضعون للميثاق الملي التركي، المُتبني في أنقرة، والذي طالب بأن "يقرّر مصير البلاد العربية سكّان تلك البلاد"، وجادلوا أيضاً بأنّ وعد بلفور بموطنٍ يهودي في فلسطين يُخالف المادة (3) من اتفاقية لاهاي، التي نصّت على منع قوّة محتلّة من تقديم تغييراتٍ أساسية على بلد ما: "نناشد مؤتمرهم أن يزيح هذا الظلم عن فلسطين"⁽³⁴⁾.

لكن مصير هذه القضايا القانونية، التي صاغها بعناية محامون عرب درسوا في أوروبا، كان التجاهل في لوزان، على غرار مصيرها في لندن وباريس وجنيف؛ إذ أوضح البريطانيون أنّ القانون الدولي لا يُعنى بالعدالة إلا للأوروبيين. واعتبر اللورد كيرزون هذه المناشدات "وقاحة" حتّى إنّه وبّخ الشريف حسين، وهو حاكم دولةٍ مستقلّةٍ ساندت جهود الحلفاء الحربية. وفي 8 كانون الأول/ديسمبر عام 1922، طلب موفد الشريف حسين، الأصيل، لقاء كيرزون ليقدم له رسالةً من الشريف، لكن كيرزون رفض لقاءه⁽³⁵⁾.

تّبّط البريطانيون أيضاً التعاون التركي - العربي. واستنكرت صحيفة **ذي تايمز**، لسان حال المؤسسة البريطانية الحاكمة، احتجاج الأتراك أنّه ليس لبريطانيا حقٌّ في تمثيل المصريين في لوزان. وبغضّ النظر عن ذلك لمّحت مقالةٌ عنوانها "الخطرة التركية" إلى المناظرة القانونية باقتباسها قول مصطفى كمال لوفد مصري في أنقرة: "الوفد التركي وحده هو الذي يستطيع الدفاع عن قضية مصر في لوزان، لأنّ حقوق تركيا على مصر ما زالت كما كانت في السابق"⁽³⁶⁾.

تمثّلت الاستراتيجية البريطانية الثانية بالإصرار على أن المؤتمر لن يتطرق إلى أيّ مسألة من المسائل التي تهّم العرب. وفي 27 كانون الأول/ديسمبر 1922، نبّه اللورد كيرزون زملاءه في البعثات البريطانية لأنّ يتجنّبوا أيّ ذكرٍ لسكّة حديد الحجاز، ردّاً على استفسارات الشريف حسين⁽³⁷⁾. وفي 5 كانون الثاني/يناير 1923، أرسل برقيةً إلى الشريف حسين يطمئنّه فيها؛ مفادها أنّ المؤتمر في لوزان لن يُناقش وضع المُقدّسات الإسلامية، ولا المؤسسات الدينية في مكّة والمدينة، ولا سكّة حديد الحجاز التي أقامها العرب. ووعده، في الواقع، بأنّ مملكة الحجاز لن تُذكر في المعاهدة؛ "لأنّ وضعها المستقلّ قد أقرّه الحلفاء في جميع الأحوال حين شغل ممثليها [الأمير فيصل] مقعداً في مؤتمر السلام عام 1919". وذكر كيرزون الشريف حسين بأنّ الحجاز "له الحرية" في أن ينضمّ إلى

33 FO 839/25, File 3, memo from Forbes Adam and memo from R. V. Vernon, 24 November 1922.

34 FO 839/31, memo from Palestine Arab Delegation, 28 November 1922, Lausanne, 225.

35 FO 839/37, memo by Forbes Adam, 8 December 1922;

تعليق كيرزون على الوقاحة، في: FO 839/9 telegram Curzon to Sir E. Crowe, London, 10 December 1922.

36 "Turkish Pretension," *The Times* (London), 17/1/1923, p. 9.

37 FO 141/589, 27 December 1922.

عصبة الأمم بتصديقه على معاهدة فرساي (وبذلك يقبل الانتدابات)⁽³⁸⁾. وردّ الشريف حسين بإصراره على مطالبته بسكّة حديد الحجاز العازم على إصلاحها. وكان يخشى عن حقّ، صواباً، أن يطالب بها الأتراك⁽³⁹⁾.

بعد يومين، في 29 كانون الثاني / يناير 1923، عقد المؤتمر اجتماعاً حول وضع الموصل، المدينة التي يطالب بها كلّ من العرب والأتراك. واعترض الأصيل على مناقشة وضع الموصل وحدود سوريا والعراق بغياب الشريف حسين: "يجب ألا يُعطى أيّ اتفاقٍ يُضِرّ بمصلحة العرب شكلاً نهائياً في مؤتمرٍ لا يضم سوى الأتراك والحلفاء"⁽⁴⁰⁾.

كان العرب حاضرين في المؤتمر ذلك الحضور المؤلم ولو بوصفهم "غائبين حاضرين"؛ وإذ زجرهم اللورد كيرزون وافتقدوا سطوة الشريف، الحاكم العربي المستقلّ الوحيد، اجتمعوا سرّاً بعصمت باشا، رأس الوفد التركي. وفي حين أكّد عصمت الدعم التركيّ الكامل للعرب، فإنّه استخدم في مفاوضاته مع البريطانيين سيفَ بلاغةٍ ذا حدّين. ففي اجتماع 23 كانون الثاني / ديسمبر 1923، على سبيل المثال، رفض عصمت باشا ربط الموصل بالانتداب البريطاني في العراق زاعماً أنّ "العنصر العربيّ يكاد لا يُلحَظ" في الإقليم الذي لا يزال يعود قانونياً إلى الإمبراطورية العثمانية. ووتّخ عصمت باشا البريطانيين على عدم احترامهم المادة (22) التي تطالبهم بأنّ يلتمسوا رغبات الأمم المستقلة. وقال مقتبساً من ويلسون: "لا يجوز مقايضة الشعوب والمناطق ونقلها من سيادة إلى سيادة أخرى". لكن كيرزون ردّ بأنّ الأتراك يناقضون أنفسهم بشأن الانتدابات: يريدون إغراقهم بالديون العثمانية، ويرفضون الاعتراف بهم. وأصرّ عصمت باشا على أنّ ديون سوريا والعراق ليست اعترافاً بالانتدابات. وفي آخر الأمر، وافق عصمت باشا على ألاّ يصرّ على حقّ العرب في تقرير مصيرهم في لوزان: "نحن نحصر مطالبنا في لوزان في المناطق التي يجب أن تُعاد إلى تركيا [أي الموصل]"⁽⁴¹⁾.

أفضت ملاحظات عصمت باشا الافتتاحية للمؤتمر، في 20 تشرين الثاني / نوفمبر 1922، إلى "الحقيقة العارية". لم يكن مؤتمر لوزان تحقيقاً للرؤية الويلسونية لنظامٍ يعقب الحرب، ولم يكن قائماً على القانون الدولي وحق تقرير المصير، بل إنّ الأتراك، بحسب تعليق عصمت باشا اللاذع، أُجبروا على الظفر بحقّهم في تقرير مصيرهم عن طريق الحرب: "احتلّت الأمة التركية مكانها بين البشرية المتحضّرة مع جميع تلك الحقوق بالوجود والاستقلال المتأصلة لدى الأمم ذات الحيوية المتقدّمة [...]".⁽⁴²⁾ هكذا عملت ملاحظات عصمت باشا، بمعناها الضمني، على تكريس حالة العرب الاستعمارية الجديدة، بوصفهم شعباً من دون جيش، وتالياً من دون حقوق. وفي توكيدٍ بلاغيّ مشابه، حذف العنوان البريطاني لمعاهدة لوزان أيّ إشارةٍ إلى الشرق الأدنى أو العرب: "معاهدة السلام مع الأتراك الموقّعة في لوزان".

ومع ذلك، تطرّقت أكثر من 20 مادة من أصل مواد المعاهدة النهائية البالغة 143 مادة إلى مسائل ذات أهميّة مباشرة بالنسبة إلى سكّان الأقاليم الناطقة بالعربية العثمانية سابقاً. وقد نزع مؤتمر لوزان أقاليم العرب من الإمبراطورية، من دون استشارتهم، ورسم حدود دولهم (المواد 3، 16-17)، وحدّد شروط اختيارهم جنسيتهم (المواد 30-36)، وحملهم أعباء الديون العثمانية غير المسدّدة

38 FO 141/589, memo no. 21, 5 January 1923, Curzon to Sir Eyre Crowe, Enclosing Text of Telegram Sent to Major Marshall, Jeddah, and 27 January 1923 memo to Curzon.

39 FO 141/589, Colonial Office to FO, 27 January 1923, Based on a Report from Herbert Samuel.

40 FO 836/16, Naji El Assil to Curzon, 29 January 1923.

41 United Kingdom, UK Parliament, *Lausanne Conference on Near Eastern Affairs*, pp. 339-353, 370, 388-389, 395;

في الصفحة 444، كرّر عصمت باشا دعم تركيا حقّ تقرير المصير بالنسبة إلى سوريا، وبلاد ما بين النهرين، ومصر، والحجاز في 27 كانون الثاني / يناير. ونجد مطالبته بأنّ تشارك هذه المناطق نفسها في تسديد الديون العثمانية في الصفحات 538، و543، و555، و567. وفي حين كان العرب غائبين، سُجِح لممثلي اليونان وألبانيا بأنّ ينازعو مثل هذه المطالبة بأنفسهم. وقد كان الخطّ المرسوم بين الحقوق الأوروبية وغير الأوروبية واضحاً.

42 United Kingdom, UK Parliament, *Lausanne Conference on Near Eastern Affairs*, p. 11.

(المواد 46-55)، وحرمتهم من المعاشات التقاعدية المدنية والعسكرية التركية التي استحقّوها (المادة 61)، وأقصاهم عن حقّ استرداد الممتلكات المنقولة الذي مُنح لسكّان المناطق العثمانية السابقة في البلقان (المادة 67).

كانت ضروب المسكوت عنه في المعاهدة صارخة. ففي حين ضمنت المعاهدة إعادة أسرى الحلفاء والحفاظ على المقابر العسكرية، لم تقدّم أيّ ضماناتٍ مشابهة للعرب الذين حاربوا بجانبهم (يكاد الحضور العربيّ في غالبيولي ألا يكون موثقاً إلى اليوم). وبالمثل، وعلى الرغم من وعود اللورد كيرزون، لم تنصّ المعاهدة على عودة المقدّسات إلى الحجاز أو القدس، أو على تعويض عن جرائم الحرب التي ارتكبتها الأتراك، ومُنح الأتراك والمصريون، من دون السوريين، تمثيلاً في لجنةٍ صحيّة تشرف على الحجّ إلى مكّة (المادة 117). ومن الواضح أنّ المادة (139) الخاصة باستعادة المحفوظات والسجلات والخطط وسندات الملكية والوثائق الأخرى الموجودة في تركيا والتي لا تهمّ سوى حكومة إقليم "منفصل" لم تُنفذ، نظراً إلى الصعوبة التي يواجهها الفلسطينيون اليوم في الحصول عليها. وعلى الرغم من أهمية موضوع الانتدابات، فإنّه لم يُذكر في نص لوزان، بخلاف معاهدة سيفر، وكان السكوت عنه في خدمة مصالح البريطانيين والفرنسيين الذين زعموا في لوزان أنّهم يمثلون فلسطين وشرق الأردن والعراق ولبنان وسوريا بحسب موثائق الانتداب التي خوّلتهم تحكّماً تامّاً في الشؤون الخارجية. لكن الانتدابات، كما سبق القول، لم تكن قد حازت بعد قوة القانون. وكما احتجّ علماء قانون معاصرون وحكومة أنقرة، فإنّ الانتداب لا يمكن أن يُمنح قبل توقيع معاهدة سلام تحكم المناطق العثمانية. وفي الجدل حول الموصل، بلغ الأمر باللورد كيرزون إلى حدّ اعتباره أنّ انتداب العراق قد صدّق عليه في سيفر وأنّ بريطانيا لا يمكنها التخلّي عنه قانونياً⁽⁴³⁾.

بعد أسابيع من توقيع معاهدة لوزان، حازت الانتدابات قوة القانون. وأصبح سكّان المناطق ذات الأغلبية العربية المنفصلة عن الإمبراطورية العثمانية في آسيا ومصر ذلك "الغائب الحاضر" الفعلي في القانون الدولي، قبل وقت طويل من سكّ دولة إسرائيل هذا المصطلح لوصف الفلسطينيين المشرّدين بعد حرب 1948.

رابعاً: نزع استعمار الرواية التاريخية: لوزان بوصفها منعطفاً حاسماً

تكرّست الرواية التي بُنيت في لوزان. وفي حين ظفر الأتراك ببلدٍ سيّد مستقل، أودّع الخطاب العرب العالم المستعمر أو "النامي". وكانت النصوص الرسمية التي أنتجت في لوزان تجسيداً لممارسة قانونية أوروبية تهدف، بحسب المؤرّخ القانوني أنتوني أنغي، إلى التعمية على الأصول الاستعمارية للقانون الدولي⁽⁴⁴⁾.

لكن الخدعة لم تنطلي على الباحثين والسياسيين العرب، فقد فهموا أنّ معاهدة لوزان مرّقت المبادئ الليبرالية الكونية التي كان يجب أن تؤخّد المسلمين والمسيحيين والآسيويين والأوروبيين؛ وعوضاً عن ذلك، جعلت لوزان من عصبة الأمم، التي وعد ويلسون بأنّها ستصون حتى حقوق الأمم الصغيرة، أداةً لفرض إقصاء العرب عن العالم المتحضّر.

على غرار أنغي، علينا أن نعتبر لوزان منعطفاً تاريخياً حاسماً رسّخ الأصول الاستعمارية للقانون الدولي والنظام العالمي الجديد المُبتكر في باريس. وأدّى الإغلاق النهائي للباب القانوني أمام السيادة العربية في عام 1923 إلى تغيير الأساس المؤسسي للفعل السياسي عند الليبراليين العرب. وتعبير أنغي نفسه، أسّس هذا المنعطف شكلاً "عالمياً ثالثياً" مميزاً من السيادة المبتورة، يسمح بتدخّل القوى الخارجية اللامتكافئة. ونتيجةً لذلك، أفسحت الدستورية الليبرالية، التي سبق أن كانت مهيمنة، مجالاً لحركات سياسية مناهضة للنظام في العالم العربي، أعادت صوغ السياسة العربية لبقية القرن العشرين.

43 "Lord Curzon on Mosul," *The Times* (London), 24/1/1923, p. 9.

44 Antony Anghie, *Imperialism, Sovereignty and the Making of International Law* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).

ولّد الاعتراف بهذا المنعطف الحاسم الاضطراب في التاريخ الاستعماري الجديد السائد للسياسة العربية بعد الحرب العالمية الأولى. وكان من أبرز الذين اعتنقوا الرواية الاستعمارية كوينسي رايت، الباحث القانوني الأميركي البارز الذي نشر في عام 1930 الكتاب الحاسم، **انتدابات في ظل عصبة الأمم**. ورغم أن رايت زار الشرق الأوسط بعد فترة وجيزة من انهيار الإمبراطورية العثمانية، فإنه افترض خاطئاً أن العرب والأرمن كانوا رعايا استعماريين للأتراك، ولم يكونوا مواطنين أنداداً. واعتبر تالياً أن للعرب المنزلة التي للكامبرونيين، الرعايا السابقين للإمبراطورية الألمانية الخاضعين في ذلك الوقت لانتداب بريطاني وفرنسي. وعلى سبيل المثال، وصف رايت كيف أن الحلفاء في مؤتمر السلام أرادوا أن يعرقلوا "إعادة المستعمرات إلى تركيا وألمانيا". واستشهد بقرار مؤتمر السلام الذي نصّ على أنه "[...] بسبب سوء حكم الأتراك التاريخي لرعيّتها [...] اتفق الحلفاء والدول التابعة لهم على أن أرمينيا، وسوريا، وبلاد ما بين النهرين، وفلسطين وشبه الجزيرة العربية يجب انتزاعها بكاملها من الإمبراطورية العثمانية"⁽⁴⁵⁾.

تتجلى متانة رواية الحلفاء القانونية - أن العرب كانوا رعايا استعماريين، لا مواطنين عثمانيين - في أن أنغي نفسه يكررها. ف نظام الانتداب، كما يقول، "لم يطبق إلا على مناطق ألحقت في السابق بألمانيا والإمبراطورية العثمانية"⁽⁴⁶⁾. واستناداً إلى هذه الرواية التاريخية، اعتبر أنغي وآخرون الانتدابات خطوة نحو السيادة، لا سلباً للحقوق العربية. ويسير أحدث الكتب المهمة عن نظام الانتداب، من تأليف سوزان بيدرسن، على هدي رايت وأنغي في إهمالهما لوزان؛ إذ لا تُذكر سوى مرة واحدة في صفحات الكتاب البالغة 571 صفحة⁽⁴⁷⁾. ويتجاهل كذلك كتاب دايفد فرومكين المهم **سلام ما بعده سلام** جهود الليبراليين العرب في لوزان. وفي تذييل جديد، يفسّر فرومكين غياب الأنظمة الديمقراطية العربية اليوم على النحو التالي: "[...] لعله كان من الشوفينية أن يقول المسؤولون البريطانيون في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته أن البلاد العربية لم تكن مهيأة لأن تحكم ذاتها - ما يعني أنظمة دستورية ديمقراطية ليبرالية مع حكم القانون - لكن أدلة عهدنا القريب لا يبدو أنها تخالفهم"⁽⁴⁸⁾. وفي عام 1923، لا شك في أن اللورد كيرزون ما كان ليرفض ادعاءً متمثلاً في أن غياب الأنظمة الدستورية الليبرالية في الشرق الأوسط ناجم عن غرارة العرب الثقافية، لا عن الآثار المدمّرة للتدخل الأوروبي العنيف في عام 1920.

كذلك رسّخ المختصون بالشرق الأوسط روايات الحلفاء عن لوزان. ولا تزال مقرّرات التاريخ المعتمدة باللغة الإنكليزية تصوّر مؤتمر لوزان على أنه لا يتعلق إلا بالأتراك. لا يذكر ألبرت حوراني، عزّاب التاريخ العربي الحديث، في كتابه **تاريخ الشعوب العربية**، لوزان إلا بوصفها تمهيداً لقيام الجمهورية التركية. ويكرّر هو أيضاً تلك اللغة الاستعمارية عن العرب بوصفهم أغراً سياسياً، يفترقون إلى خبرة الأتراك و"قائدهم المرموق، مصطفى كمال"⁽⁴⁹⁾. أمّا الكتب الأحدث، فتكاد لا تأتي على ذكر معاهدة لوزان أو تهملها كلياً، لمصلحة رأي مفاده أن القوة العسكرية هي التي تضع شروط السلام، وليس الدبلوماسية⁽⁵⁰⁾.

45 Quincy Wright, *Mandates Under the League of Nations* (Chicago: Chicago University Press, 1930), pp. 28-29.

46 Anghie, pp. 172-186.

47 Susan Pedersen, *The Guardians: The League of Nations and the Crisis of Empire* (Oxford: Oxford University Press, 2015), p. 264.

48 Fromkin, pp. 559, 573, 575.

49 Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (Cambridge: The Belknap Press of Harvard University Press, 1991/2002), pp. 315-319.

كذلك يهمل المؤرخون العثمانيون أهمية معاهدة لوزان بالنسبة إلى العرب. ينظر:

Caroline Finkel, *Osman's Dream: The History of the Ottoman Empire* (New York: Basic Books, 2005), pp. 545-546; Erik Zürcher, *Turkey: A Modern History* 3rd ed. (New York: I.B. Tauris, 2004), pp.160-166.

50 William L. Cleveland & Martin Bunton, *A History of the Modern Middle East*, 6th ed. (New York: Boulder Westview, 2019), p. 169; James L. Gelvin, *The Modern Middle East: A History*, 5th ed. (Oxford: Oxford University Press, 2020), pp. 197-205; Eugene Rogan, "Divide and Rule: World War I and the Postwar Settlement," in: Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (New York: Basic Books, 2009), pp. 147-174; Rashid Khalidi, "A Failure of Leadership," in: Rashid Khalidi, *The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood* (Boston: Beacon Press, 2006), pp. 65-104.

في العالم الروائي التخيلي الذي خلقه الحلفاء وهؤلاء الباحثون، ما من مجال لاستكشاف أثر المعاهدة السياسي العميق. فالليبراليون العرب في رأيهم إما أنهم لم يكن لهم وجود وإما أنهم لم يفهموا الوقائع السياسية، بل إن مؤرخي الحقبة ما بين الحربين يصوّرون الجنود المقاتلين على أنهم الواقعيّون الوحيدون في العالم العربي، والدستوريون الليبراليون الذين تفاوضوا مع الأوروبيين هم من المغفلين أصلاً. غير أن هنالك أدلة كثيرة على أن القادة العرب المدنيين كانوا المعيّنين جدّاً في تحليل مأزقهم السياسي في عام 1923، وأنهم فهموا بوضوح أن ضعفهم في لوزان كان نتيجة لتلاعب الحلفاء أكثر منه غرارةً سياسية أو رجعيةً ثقافية. ومثل هذه الخبرة القانونية والسياسية مكّنت المؤتمر السوري - الفلسطيني، في أيلول عام 1922، من رؤية أن الانتدابات مستعمرات غير شرعية، وأنها تجرّد العرب من حقوق كانوا يتمتعون بها قبل الحرب، حين كانوا ينتخبون ممثليهم في البرلمان العثماني⁽⁵¹⁾.

تجاهل الرواية الاستعمارية الأدلة، المتاحة في الصحف المعاصرة، ومفادها أن المدنيين العرب كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم يشنون حرباً أرفع من تلك التي يشنها الجنود، لإنقاذ الليبرالية من الحكم العسكري. وما كانوا يجهلون قطّ أمر المفاضلة بين الديمقراطية والدكتاتورية العسكرية. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1922، تكلم موسى كاظم بلغة واقعية في مقابلته مع **ذي تايمز**: "هناك شعورٌ قويٌّ جدّاً بأنّ على جميع الشعوب العربية أن تتحدّ كما فعل الأتراك، إذا أرادوا أن يحصلوا على أيّ شيءٍ من القوة. فالدرس الذي تعلّموه من الأتراك هو أن هؤلاء كسبوا قوتهم بحذّ السيف"⁽⁵²⁾.

في نيسان/ أبريل عام 1923، اجتمعت وفود من فلسطين والعراق وسوريا والحجاز واليمن ونجد ومسقط لمناقشة إقامة اتحاد بغية "تأسيس مركزٍ مشتركٍ في الخارج يدافع عن قضية العرب"، وفقاً لمجلة **الشرق الحديث**. وقد نشرت هذه المجلة الإيطالية تصريحاً لفارس الخوري (1877-1962)، الوزير السابق في المملكة العربية السورية، جاء فيه أن "جميع المفاوضات التي جرت في لوزان بخصوص حدود سوريا، وبخصوص انفكاك الروابط مع الحكومة التركية، والتي لم تُشارك فيها البلاد، لن تعترف بها سوريا"⁽⁵³⁾.

توضّح افتتاحية تمّوز/ يوليو عام 1923، في **لسان العرب** المقدسية، أن النخب السياسية العربية فهمت بوضوح قواعد اللعبة، وأنّه لا يمكن لغير الدول ذات السيادة أن تتمتع بحقوقٍ ومكانة في نظام باريس العالمي. تناولت الافتتاحية برقية الشريف حسين المتداولة على نطاقٍ واسع، التي تُطمئن الفلسطينيين على أنّه لن يعترف أبداً بالانتداب البريطاني. وفي حين أُنئت البرقية على معارضة الشريف حسين الثابتة للانتدابات، فإنّها نُبّهت "المتعصّبين" لئلاّ يسمحوا بالتفريق بينهم بمناشداتٍ تتيح للأتراك تمثيلهم دولياً. كانت الوحدة خلف الشريف حسين مفتاح النجاح. وفي حزيران/ يونيو عام 1923، عندما انهال المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث على الشريف بالانتقاد "الفظّ"، أوهن ذلك الركن السيادي الوحيد الذي يتمتع به العرب⁽⁵⁴⁾، فعلى الفلسطينيين وسائر العرب أن يجتمعوا في الحجاز، لا أن يرسلوا وفوداً منفصلة إلى لندن أو أنقرة.

بقي الليبراليون العرب جزءاً أساسياً في صوغ السياسة العربية الجديدة بعد هزيمتهم في لوزان، ونشروا الوعي بالإجراءات المجحفة وغير القانونية التي اتخذها حلفاء العرب السابقون بين عامي 1919 و1923. فقد دخل العرب الحرب العالمية الأولى وحضروا مؤتمر السلام في عام 1919 بوصفهم مواطني دولة ذات سيادة، على أمل أن يحظوا بالحقوق ذاتها التي حظي بها مواطنو الإمبراطوريات الأوروبية المهزومة ذوو البشرة البيضاء. لكنهم، بخلاف الأوروبيين، خرجوا من عملية السلام إلى حالة احتلال عسكريٍّ

51 *Oriente Moderno*, 15 October 1922, Quoting a 5 September 1922 Petition to the League of Nations by the SPC.

52 "Palestinian Arabs' Case," *The Times*, 23/12/1922, p. 7.

53 "Confederazione Araba," *Oriente Moderno* (15 April 1923), pp. 642-643; "For Syria in Lausanne," *Oriente Moderno* (15 June 1925), p. 51. (مقتبس من **لسان العرب**)

54 "Palestine, the Treaty, and the Sharif," *Lisan al-Arab*, Translated in: *Oriente Moderno*, 15/7/1923, p. 87.

أجنبي. وخضعوا، عوضاً عن ذلك، للنظام الانتدابي نفسه الذي خضعت له الشعوب الأفريقية التي لم تكن ذات سيادة قبل عام 1914. وعلى مدى عقودٍ من توقيع معاهدة لوزان، ظلَّ العرب في حال من الندم والحسرة حيالها بوصفها خيانة وإجحافاً تاريخيين⁽⁵⁵⁾.

انتشر تأثير العرب السوريين الذين تبذرت أوهامهم عندما فرّوا من دمشق في عام 1920 ليشغلوا مواقع ذات أثر في مصر والعراق والأردن والحجاز والسعودية، وحتى في فلسطين ولبنان وسوريا التي عادوا إليها في النهاية. فأصبحوا وزراء ومعلمين، ومحرري صحف، وقادة حركاتٍ سياسية مناهضة لأوروبا. وقد فعلوا ذلك، بعكس افتراضات الروايات التاريخية السائدة؛ ليس من باب العداء الثقافي للغرب، ولا من باب جهلهم بالديمقراطية الليبرالية؛ إذ كان من بينهم رجالٌ درسوا في باريس، وفي مدارس للقانون غربية أخرى، لا سيما في منحٍ أوروبية لدراسة القانون الدولي: فارس الخوري، وزير خارجية المملكة العربية السورية في عام 1920 ولاحقاً رئيس وزراء الجمهورية السورية، وإحسان الجابري، رئيس أركان الملك فيصل في عام 1920 ثمَّ العضو البارز في المؤتمر السوري - الفلسطيني، ورياض الصلح (1894-1951)، عضو المؤتمر السوري - الفلسطيني، فالكتلة الوطنية ولاحقاً رئيس وزراء لبنان، وعوني عبد الهادي، المستشار القانوني للملك فيصل في 1919-1920 ثمَّ رئيس أول حزب سياسي للفلسطينيين، حزب الاستقلال. وكان من بين مناهضي الانتداب البارزين، أيضاً، عبد الرحمن الشهبندر، الطبيب الفصح بالإنكليزية الذي درّس في الكلية البروتستانتية السورية في بيروت، وأسس حزب الشعب السوري (1925)، وأدّى دوراً مهماً في الثورة السورية عام 1925 ضد فرنسا.

كان هؤلاء الرجال المتعلمون في أوروبا وأميركا على صلة وثيقة بسياسيين عرب تعلّموا في أرقى مدارس القانون والإدارة في العاصمة العثمانية، مثل هاشم الأتاسي (1875-1960) وشكري القوتلي (1891-1967) رئيسي سوريا لاحقاً. ولم ترتكز المرارة التي سوف تغذي حركاتٍ جديدة مناهضة للغرب على الانفعال وحده، بل إنها ارتكزت أساساً على معرفتهم العميقة بالقانون والسياسة وانخراطهم العميق فيهما. وعبرت حركات معارضة سياسية كثيرة، في فترة ما بين الحربين، عما يفوق كثيراً الغضب حيال وعود الاستقلال التي حثت بها بريطانيا. وكان يحفزهم إصلاح ما أصاب القانون وحقوقهم من فساد على أيدي القوى العالمية التي زعمت انتصار الديمقراطية في الحرب.

ما من زعيم عبّر عن المزاج السياسي ما بعد لوزان كما عبّر عنه رشيد رضا، رئيس المؤتمر السوري. ففي بداية المنعطف الحاسم، كرّس غالبية العدد الصادر في كانون الأول / ديسمبر 1918 من مجلته الذائعة الصيت، **المنار**، لمديح الرئيس ويلسون بوصفه أداة سلامٍ بيد العناية الإلهية وعدت بحقوق متساوية حتى للأمم الصغيرة. وفي عام 1921، قال لقزائه إنه سافر إلى جنيف ليلتقي "أحرار الأوربيين" الذين يمكن أن يضغطوا على القوى الكبرى كي تحترم سيادة العرب؛ ذلك أن قواعد الله تنطبق على جميع الأمم. لكن هؤلاء الليبراليين كانوا أضعف من أن يواجهوا الأحزاب الاستعمارية في بلدانهم، كما أورد رشيد رضا. وقد توقّع، عن حق، حدوث سنوات من الثورات العنيفة إن أصرت أوروبا على حرمان العرب من حقوقهم في السيادة⁽⁵⁶⁾.

كان رفض رشيد رضا لليبرالية على أنّها خديعة غربية واضحاً في مقاله عن الفشل العربي في مؤتمر لوزان، فقد هزأ من طلب العدل من طريق القانون الدولي، وفي المقابل أثنى على الأتراك لتضحياتهم بحياتهم في مقاومة الاستعمار. وقد كتب رشيد رضا: "والفضل الأكبر للنهضة التركية الجديدة أن قادتها قاءوا [كذا] ما أوجرتهم سياسة أوربة من سمّ اليأس [...]"، فقد فهم الأتراك

55 فاضل حسين، محاضرات عن مؤتمر لوزان وأثره في البلاد العربية (القاهرة: معهد الدراسات العربية، 1958).

56 محمد رشيد رضا، "الرحلة الأوروبية (7)"، المنار، مج 23، ج 9 (تشرين الثاني / نوفمبر 1922)، ص 696.

الحيل الأوروبية، مقارنة بالقادة العرب الذين وثقوا بهم وباعوا شعوبهم إلى "الاسترقاق"⁽⁵⁷⁾، وأخذ رشيد رضا يعبر عن التضامن مع الشرق؛ إذ انضمّ عرب العراق وسوريا وفلسطين والحجاز إلى ثورة عامّة ضد الغرب، "والهند قد وسعت استقلال فلسطين وسائر البلاد العربية في برنامجها"، كما ذكر في شباط/فبراير 1923⁽⁵⁸⁾.

كان إقصاء العرب عن عائلة الأمم ذات الحقوق في لوزان منعطفًا حاسمًا أنهى هيمنة الدستورية الليبرالية في السياسة العربية، ولن يكتب رشيد رضا بعد ذلك إلا نادرًا عن دوره بصفته رئيسًا للمؤتمر السوري وعن الدستور السوري. وبعد عام 1923، أخذت محاضراته تلفت انتباه الناشطين المسلمين في القاهرة، ومن بينهم حسن البنا الذي أسس جماعة الإخوان المسلمين. وعلى غرار مجموعات إسلامية مشابهة بزغت في سوريا الكبرى، دعا الإخوان إلى حكم الشريعة الإسلامية ضدّ العلمانية الليبرالية. وقطع الشعبويون الإسلاميون ما بعد عام 1923 بحدة مع الليبرالية الإسلامية التي سادت في شباب رشيد رضا وأجيال سابقة من القادة الدينيين. وقد أسس الشيخ السوري محمد كامل القصاب حركةً شعبية دعمًا للمؤتمر السوري في الفترة 1919-1920. لكنه عند عودته إلى سوريا بعد سنين من المنفى، التحق بقيادة المعارضة المحلية في تأسيس حركة الإخوان الناشئة هناك.

في الوقت ذاته، اجتذبت الأحزاب الشيوعية أتباعًا لها، لا سيما من بين الشعوب التي لم تُمنَح دولًا في مؤتمر باريس للسلام - وقد شمل ذلك الكرد والأرمن إضافةً إلى العرب - ومن بين الجماعات المُهمّشة بسبب سياسات الانتداب الطائفية، كالشيعة في لبنان والعراق⁽⁵⁹⁾. وتنظمت جماعاتٌ يمينية مسلّحة ضد الحكومات الضعيفة غير التمثيلية التي نصّبتها بريطانيا وفرنسا، مطالبةً بدولة شعبية قوية مثل تركيا في عهد مصطفى كمال التي عززت النمو الاقتصادي وبنت المدارس لمواطنيها. وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين، استمدت جماعاتٌ مثل "القمصان الحديدية السورية" و"مصر الفتاة" الإلهام من موسوليني وأدولف هتلر Adolf Hitler (1889-1945) أيضًا. ومع أن هذه الجماعات ربما تكون قد احتفظت برطانة الأهداف الدستورية، فإنّها نأت بنفسها عن المشاركة فيما اعتبرته ليبرالية زائفة في الدساتير المفروضة في ظلّ الحكم الأوروبي⁽⁶⁰⁾.

يمكن، من هذا المنظور، مقارنة السياسة العربية بين الحريين بالحركات المناهضة للنظام التي بزغت في البلدان الأوروبية المهزومة بعد الحرب العالمية الأولى. وتكشف مثل هذه المقارنة، على سبيل المثال، أن أخلاقيات الحركات الإسلامية بعد الحرب كانت ردًا على نزاع إنسانية العرب في عملية السلام في باريس⁽⁶¹⁾. وكما لاحظ آدم تووز، فإن النظام العالمي الذي تبلور بعد الحرب العالمية الأولى "لم يهدّد بأقل من النسيان التاريخي" أولئك الذين قرروا الانضمام إلى الحركات الشيوعية والفاشية. وعوضًا عن منح الأمم حقوقها، "أفرغت" المعاهدات المفروضة من باريس سيادة الشعوب المهزومة وكشفتها أمام استغلال رأس المال الأوروبي والأميركي. وهذا هو أصل العنف السياسي الذي تأجج في حقبة ما بين الحريين في كلّ من أوروبا والشرق الأوسط، كما يرى تووز⁽⁶²⁾.

57 محمد رشيد رضا، "مؤتمر لوزان للصلح في الشرق" المنار، مج 23، ج 10 (كانون الأول/ديسمبر 1922)، ص 794-796. الإشارة هنا إلى دعوة فرانز قانون الشهيرة الرعايا المستعمرين لأن "يتقيّأوا [كذا]" الحضارة الأوروبية التي نزعَتْ إنسانيتهم: "في فترة نزاع الاستعمار تستهزئ الجماهير المُستعمَرة بهذه القيم [العربية] عينها، وتمطرها بالشتائم وتفتيّها [كذا]". ينظر:

Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth*, Richard Wilcox (trans.) (New York: Grove Press, 2004), p. 8

58 محمد رشيد رضا، "أحوال العالم الإسلامي: مؤتمر الصلح"، المنار، مج 24، ج 2 (شباط/فبراير 1923)، ص 148.

59 Rula Jurdi Abisaab & Malek Abisaab, *The Shi'ites of Lebanon: Modernism, Communism and Hizbullah's Islamists* (New York: Syracuse University Press, 2014), pp. 51-60; Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq* (Princeton: Princeton University Press, 1978), pp. 367-432.

60 Thompson, *Justice Interrupted*, pp. 8-10.

61 Thompson, *How the West Stole Democracy from the Arabs*, pp. 324-333.

62 Adam Tooze, *The Deluge: The Great War, America and the Remaking of the Global Order, 1916-1931* (New York: Viking, 2014), pp. 4-7.

تمتّل معاهدة لوزان الخاتمة المأساوية لفاتحة ليبرالية استثنائية في الفترة 1918-1923. فقد شرّعت عملياً احتلال فرنسا العسكري لدمشق في عام 1920، وأوقفت بذلك ازدهار ديمقراطية محلية في سوريا وغيرها. وكان لفرض الانتداب البريطاني في العراق تأثيراً مماثلاً. ولاحظ تومز أيضاً ما يلي: "بلغ إذلال الطبقة السياسية العربية ذروته في آذار عام 1924 عندما جرّ حُرّاسُ بريطانيون مسلّحون أعضاء المجلس التأسيسي المنتخبين إلى البرلمان للتصديق على المعاهدة الإنكليزية-العراقية التي أسست استقلال العراق، لكنها منحت بريطانيا السيطرة على جيشه وأمواله. لقد خُلِقَ نظامٌ جديد في الشرق الأوسط [...] قائم على استخفاف مقصود بالشرعية السياسية"⁽⁶³⁾. وكما بيّنت كارولين إلكنز مؤخراً، كان العرب الفلسطينيون أكثر الذين عانوا عنفاً بريطانياً استعماريّاً مكّنه فرض الانتداب. ودفعت الديون وإرهاب الشرطة الشباب المتعلّمين إلى حركات وطنية جذرية أطلقت ثورةً مسلّحة في عام 1936⁽⁶⁴⁾. وأصبح أبطال العرب الشعيون مقاتلين مسلّحين، لا رجال الدولة الليبراليين.

كانت الانتدابات ذلك المشروع العنيف، أصلاً، الذي جعل سيادة القانون محطّ سخرية في سعي تلك الانتدابات لفرض حكمها على شعبٍ لا تريده. وأصبحت حكومات الانتداب، كما بيّن أنغي وآخرون، مختبرات للقمع والمراقبة. وفي حين تبيّن مؤرّخون جذور الدكتاتوريات العربية الحالية في أنظمة الانتداب، فإنهم تجاهلوا فعل العنف الأساسي الذي أوهن الديمقراطيين الليبراليين ومحقق الجهود الباسلة التي بذلها العرب السوريّون في نصرة الحكم الديمقراطي⁽⁶⁵⁾. وغالباً ما كانت النتيجة افتراض ضرب من الاستمرارية لقيادة غير ديمقراطية بين ما قبل الحرب وما بعدها⁽⁶⁶⁾.

أوضحت هذه الدراسة أنّ دعوة ويلسون إلى حقّ الشعوب في تقرير المصير سبقت طموح العرب الليبرالي إلى التماس السيادة بين "عائلة الأمم". لكن مؤتمر باريس للسلام بذّر الاضطراب في تلك الأمان. وبعد عام 1923، كانت الغلبة لمرارة الإقصاء، لكنّها لم تهزم الإيمان بالمبادئ الليبرالية في سوريا وأراضٍ أخرى ناطقة بالعربية من الإمبراطورية العثمانية السابقة. وباستعادة هذا المنعطف الحاسم، يمكن أن ينزع المؤرّخون استعمار التواريخ اللاحقة المتعلقة بالإسلام السياسي، والعنف، والحكم العسكري السلطوي، في الشرق الأوسط. وعلى الأبحاث المقبلة أن تحدد ضروب الاستمرارية الظاهرية كي تستعيد الطرائق التي تقبع فيها المطالبة بالكرامة الإنسانية والحقوق الليبرالية وراء الميل إلى العنف، وتبقى قوّة دافعة في السياسة العربية قبل وقت طويل من الربيع العربي عام 2011.

63 Ibid., p. 381.

64 Caroline Elkins, *Legacy of Violence: A History of the British Empire* (New York: Alfred A. Knopf, 2022), pp. 193-208.

65 ينظر على سبيل المثال:

Daniel Neep, *Occupying Syria under the French Mandate: Insurgency, Space and State Formation* (Cambridge: Cambridge University Press, 2012).

66 ينظر على سبيل المثال:

Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945* (London: I.B. Tauris and Co. Ltd., 1987).

المراجع

العربية

- حسين، فاضل. **محاضرات عن مؤتمر لوزان وأثره في البلاد العربية**. القاهرة: معهد الدراسات العربية، 1958.
- الحكيم، حسن. **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية**. بيروت: دار صادر، 1974.
- رضا، محمد رشيد. "الحقائق الجلية في المسألة العربية". **المنار**. مج 22 (حزيران/ يونيو 1921).
- _____. "أحوال العالم الإسلامي: مؤتمر الصلح". **المنار**. مج 24، ج 2 (شباط/ فبراير 1923).
- _____. "الرحلة الأوروبية (5)". **المنار**. مج 23 (تموز/ يوليو 1922).
- _____. "الرحلة الأوروبية (7)". **المنار**. مج 23، ج 9 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1922).
- _____. "الرحلة السورية الثانية (10)". **المنار**. مج 23 (أيار/ مايو 1922).
- _____. "مؤتمر لوزان للصلح في الشرق". **المنار**. مج 23، ج 10 (كانون الأول/ ديسمبر 1922).
- السيوفي، يوسف. **ذكرى استقلال سوريا: 17 جمادى الثانية 1338 الموافق 8 آذار (مارس) سنة 1920**. القاهرة: مطبعة طه إبراهيم ويوسف برلاوي، 1920.
- شهرستان، ماري ألمان. **المؤتمر السوري العام 1919-1920**. بيروت: دار أمواج، 2000.

الأجنبية

- Abisaab, Rula Jurdi & Malek Abisaab. *The Shi'ites of Lebanon: Modernism, Communism and Hizbullah's Islamists*. New York: Syracuse University Press, 2014.
- Anghie, Antony. *Imperialism, Sovereignty and the Making of International Law*. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.
- Batatu, Hanna. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq*. Princeton: Princeton University Press, 1978.
- Christopher M. Andrew & A.S. Kanya-Forstner. *The Climax of French Imperial Expansion, 1914-1924*. California: Stanford University Press, 1981.
- Collier, David & Gerardo L. Munck. "Building Blocks and Methodological Challenges: A Framework for Studying Critical Junctures." *Qualitative and Multi-Method Research*. vol. 15, no. 1 (Spring 2017).
- "Confederazione Araba." *Oriente Moderno* (15 April 1923).
- "Dept. of State memo to Mr. Harrison, 6 April 1922."
- "Dept. of State Undersecretary Memo to Mr. Turlington, 7 April 1922." National Archives and Record Administration. College Park, RG 59.763.72119/7156-7210. Microfilm M367 Roll 439. Images 0067-69.

- Elizabeth F. Thompson. *How the West Stole Democracy from the Arabs: The Syrian Congress of 1920 and the Destruction of Its Historic Islamic-Liberal Alliance*. New York: Atlantic Monthly Press, 2021.
- Elkins, Caroline. *Legacy of Violence: A History of the British Empire*. New York: Alfred A. Knopf, 2022.
- Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth*. Richard Richard Wilcox (trans.). New York: Grove Press, 2004.
- Finkel, Caroline. *Osman's Dream: The History of the Ottoman Empire*. New York: Basic Books, 2005.
- FO 839/25, File 3, memo from Forbes Adam and memo from R.V. Vernon, 24 November 1922.
- FO 839/31, memo from Palestine Arab delegation, 28 November 1922, Lausanne, 225.
- FO 839/37, memo by Forbes Adam, 8 December 1922.
- FO 839/9 telegram Curzon to Sir E. Crowe, London 10 December 1922.
- FO 141/589, memo no. 21, 5 January 1923, Curzon to Sir Eyre Crowe, enclosing text of telegram sent to Major Marshall, Jeddah, and 27 January 1923 memo to Curzon.
- "For Syria in Lausanne." *Oriente Moderno* (15 June 1925).
- Foreign Relations of the United States, 1922*, vol. 2: 0010, France.
- Foreign Relations of the United States, 1922*, vol. 2: 0012, Great Britain.
- Fromkin, David. *A Peace to end All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*. New York: Holt Paperbacks, 1989/ 2001.
- _____. *The Modern Middle East: A History*. 5th ed. Oxford: Oxford University Press, 2020.
- Giannini, Amadeo. "I mandati typo A e la loro natura Giuridica" [The type A mandates and their legal nature]. *Oriente Moderno*. vol. 2, no. 3 (15 August 1922).
- Halabi, Awad. "Liminal Loyalties: Ottomanism and Palestinian Responses to the Turkish War of Independence, 1919-22." *Journal of Palestine Studies*. vol. 41, no. 3 (Spring 2012).
- Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*. London: Oxford University Press, 1962.
- _____. *A History of the Arab Peoples*. Cambridge: The Belknap Press of Harvard University Press, 1991/ 2002.
- Khalidi, Rashid. *The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood*. Boston: Beacon Press, 2006.
- Khoury, Philip S. *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945*. London: I.B. Tauris and Co. Ltd., 1987.
- "Letter from A. Shahbandar to Former President Woodrow Wilson, 6 May 1922." King Crane Commission Digital Collectio. Oberlin College Archives. at: <https://acr.ps/1L9zQDE>
- MacMillan, Margaret. *Paris 1919: Six Months that Changed the World*. Toronto: Random House Trade Paperbacks, 2002.
- Manela, Erez. *The Wilsonian Moment: Self-Determination and the International Origins of Anticolonial Nationalism*. Oxford: Oxford University Press, 2009.
- Mousa, Suleiman. "A Matter of Principle: King Hussein of the Hijaz and the Arabs of Palestine." *International Journal of Middle East Studies*. vol. 9, no. 2 (April 1978).

- Neep, Daniel. *Occupying Syria under the French Mandate: Insurgency, Space and State Formation*. Cambridge: Cambridge University Press, 2012.
- Paris, Timothy J. *Britain, the Hashemites and Arab Rule, 1920-1925*. London: Routledge, 2003.
- Pedersen, Susan. *The Guardians: The League of Nations and the Crisis of Empire*. Oxford: Oxford University Press, 2015.
- "Petition from the Syrian Conference in Damascus, 3 July 1919." King Crane Commission Digital Collection. Oberline College Archives. at: <https://acr.ps/1L9zQNf>
- Qafisheh, Mutaz. "Genesis of Citizenship in Palestine and Israel: Palestinian Nationality During the Period 1917-1925." *Journal of the History of International Law*. vol. 11, no. 1 (2009).
- Rogan, Eugene. *The Arabs: A History*. New York: Basic Books, 2009.
- Strika, Vincenzo. "L'Italia e il nazionalismo arabo del vicino oriente tra le due guerre mondiali." *Quaderni di Studi Arabi*. vol. 5, no. 6 (1987-1988).
- "The Covenant of the League of Nations." *The Avalon Project: Documents in Law, History and Diplomacy*. Yale Law School. Article 22. at: <https://acr.ps/1L9zQGg>
- The Last Ottoman Generation and the Making of the Modern Middle East*. Cambridge: Cambridge University Press, 2017.
- Thompson, Elizabeth F. *Justice Interrupted: The Struggle for Constitutional Government in the Middle East*. Massachusetts: Harvard University Press, 2013.
- Tooze, Adam. *The Deluge: The Great War, America and the Remaking of the Global Order, 1916-1931*. New York: Viking, 2014.
- United Kingdom. UK Parliament. *Lausanne Conference on Near Eastern Affairs. 1922-1923: Records of Proceedings and Draft Terms of Peace (With Map)*. London: H.M.S.O. 1923.
- United States Treaties and Other International Agreements*. Library of Congress. at: <https://acr.ps/1L9zQAN>
- William L. Cleveland & Martin Bunton. *A History of the Modern Middle East*. 6th ed. New York: Boulder Westview, 2019.
- Wright, Quincy. *Mandates Under the League of Nations*. Chicago: Chicago University Press, 1930.
- Zurcher, Erik. *Turkey: A Modern History*. 3rd ed. New York: I.B. Tauris, 2004.

على هامش مفاوضات لوزان

اتفاقية صلح عربي حجازي - تركي بعد فوات الأوان

Alongside the Lausanne Negotiations

The Belated Arab-Turkish Reconciliation Agreement

تحلل هذه الدراسة إشكالية العلاقة بين استبعاد بريطانيا العرب، ممثلين بالحكومة العربية الهاشمية في الحجاز، عن مؤتمر لوزان، وبين تسريع تلك الحكومة قنوات اتصالاتها مع قادة حكومة مجلس الأمة الكبير (الكمالي) للوصول إلى إنهاء حالة الحرب بين الأتراك والعرب رسميًا، وتوقيع اتفاق صلح عربي - تركي. وتتوقف عند مضامين الاتصالات العربية الحجازية - التركية الرسمية على هامش المؤتمر، واتخاذ الملك الحسين موقف الحياد الإيجابي لصالح الأتراك في الصراع التركي - البريطاني حول قضية الموصل، وعرقلة مشروع المعاهدة البريطانية - الحجازية؛ ما أدى مع عوامل ومتغيرات أخرى، إلى فتح الطريق أمام سقوط مملكته، وطرده نهائيًا من لعبة الترتيبات الجيوسياسية في المنطقة.

كلمات مفتاحية: مؤتمر لوزان، الصلح العربي - التركي، حرب الاستقلال التركية، الملك حسين، الموصل.

This study analyses the relationship between (a) Britain's exclusion of Arab representatives of the Hashemite government of the Hejaz from the Lausanne Conference and (b) that government's acceleration of communication channels with the leadership of the (Kemalist) Grand National Assembly to officially end the war between Turks and Arabs through an Arab-Turkish reconciliation agreement. The study reflects on official Hejazi-Turkish communications at the time of the conference; King Hussein's adoption of a neutral, pro-Turkish position toward the Turkish-British conflict on the question of Mosul; and the king's obstruction of the British-Hejazi treaty. These factors among others cleared the way for the collapse of his kingdom and his permanent exclusion from the region's geopolitical game.

Keywords: Lausanne Conference, Arab-Turkish Peace, Turkish War of Independence, King Hussein, Mosul.

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

Researcher at the Arab Center for Research and Policy Studies

jamal.barout@dohainstitute.edu.qa

مقدمة

أدى حصول أخطر تحول تاريخي في ميزان العلاقات الدولية حول تركيا بين آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر 1922 إلى فتح الطريق إلى مؤتمر لوزان، وإعادة بناء خريطة الشرق الأوسط؛ فقد انتصر الكماليون انتصاراً ساحقاً على الجيش اليوناني، ليستعيدوا إزمير في 9 أيلول/ سبتمبر 1922. وبهذا، انتهت رسمياً حرب الاستقلال، و"قُلَيْتِ الطاولة" على الحلفاء، وسقطت معاهدة سيفر (1920) التي لم يبرمها أحد نهائياً، فاضطرت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا إلى توقيع هدنة مودانيا (1922) مع الحكومة الكمالية، وسرعان ما انضمت إليها اليونان، المهزومة في الحرب نفسها، بعد نحو ثلاثة أيام⁽¹⁾، معترفة بما بات حقيقةً، وهو نهاية أحلامها الهيلينية (البيزنطية)؛ إذ أجهزت الهدنة على كل ما منحه معاهدة سيفر لليونان، واستعاد الكماليون آسيا الصغرى بكاملها، وتراقيا الشرقية⁽²⁾.

في 27 تشرين الأول/ أكتوبر، دعت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الحكومتين الكمالية والعثمانية الرسمية إلى مؤتمر لوزان الذي سيُعرف باسم "مؤتمر لوزان حول شؤون الشرق الأدنى"، وتقرر افتتاحه في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922. وقد دعا الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) سبع دول للمشاركة في المؤتمر⁽³⁾، وتمثلت مهمته المركزية، كما بينت نتائجه، في عقد آخر معاهدة صلح وهي معاهدة الصلح مع الدولة العثمانية. وكان العراق، الذي ظلت مشكلته حول الموصل مع الحكومة العثمانية (التركية)، عضواً غير مباشر يتابع مجريات المؤتمر، لكن لا يملك شيئاً من الصلاحية لأن من يمثله هو بريطانيا بموجب معاهدتها معه⁽⁴⁾. في حين استبعد العرب رسمياً، في البداية، من هدنة مودانيا، واقتصرت ردة فعلهم على احتجاج الملك الحسين بن علي (1853-1931) في الحجاز لدى الحلفاء على عقدهم صلحاً منفرداً في مودانيا مع الأتراك، وترك العرب في حالة حرب معهم⁽⁵⁾، وهذا الاحتجاج لم يعن شيئاً للحكومة البريطانية. وحين انعقد مؤتمر لوزان إثر تلك الهدنة كان للملك حسين مندوب هو ناجي الأصيل، لكن اقتصر نشاطه على الاتصالات مع اللورد جورج كيرزون George Curzon (1859-1925) حول مشروع المعاهدة البريطانية - الحجازية المتعثرة بشدة، وعلى الاتصال مع الوفد التركي للتوصل إلى اتفاق سلام عربي - تركي ينهي من الناحية القانونية حالة الحرب بين العرب والأتراك.

بعد ثلاثة أيام من توجيه الدعوة إلى المؤتمر، استبق الكماليون انعقاد المؤتمر باتخاذ مجلس الأمة الكبير قراره التاريخي في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922 بالفصل بين الخلافة والسلطنة، لبيد الكماليون وقد غدوا الحكومة الشرعية الوحيدة في تركيا المرحلة الأخيرة من كفاحهم المرير وهي الحصول على اعتراف الدول باستقلال تركيا وسيادتها. وفي هذا الكفاح، تركزت أولوية الكماليين على انتزاع اعتراف الحلفاء في لوزان بتركيا دولة مستقلة ذات سيادة، وتعبئة العالم الإسلامي خلفهم لدعم موقفهم في المؤتمر، بينما سارع الحسين لعقد اتفاقية صلح مع الأتراك، يتنازل بموجبها الأتراك عن حقوقهم الدولية في البلاد العربية، لوضع الحلفاء وفق ظنه

1 فاضل حسين، مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية - الإنكليزية - التركية وفي الرأي العام، ط 2 (بغداد: مطبعة أسعد، 1967)، ص 27؛

Patrick Kinross, Atatürk: The Rebirth of a Nation (London: Phoenix, 1995), p. 217.

2 هارولد تمبرلي وأ. ج. غرانت، أوروبا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين 1789-1950، ترجمة محمد علي أبو درة ولويس إسكندر، ج 2 (القاهرة: منشورات سجل العرب، 1967)، ص 304؛ هربرت أ. ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث 1789-1950، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الصبح، ط 9 (القاهرة: دار المعارف، 1993)، ص 580-582.

3 هي الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ويوغوسلافيا ورومانيا، ودعت روسيا وبلغاريا إلى جلسة مناقشة المضائق فقط، أما الولايات المتحدة فاعتذرت عن عدم المشاركة لأنها لم تعلن الحرب على الدولة العثمانية، واكتفت بتمثيل عضو مراقب لها. ينظر: حسين، ص 28.

4 لم يكن العراق ممثلاً في مؤتمر لوزان، وإن أرسل الأمير فيصل مندوباً شخصياً له مع ناجي السويدي ليتابع مجرياته من دون عضوية فيه. ينظر: المرجع نفسه، ص 29.

5 جاء في الاحتجاج أن الحكومة العربية لا تستطيع أن تفهم كيف يفكر الحلفاء، فقد "ترك العرب في حالة حرب مع الأتراك [...] ثم هم يعقدون الصلح منفردين، وإضاعة حقوقهم كلياً"، "مع أن العرب أبوا الصلح المنفرد الذي كلفهم به القائد التركي بضمانة الإمبراطورية الألمانية"، في إشارة إلى عرض أحمد جمال باشا (السفاح) (1872-1922)، الصلح مع العرب بعد فضح البلاشفة اتفاقية سايكس - بيكو (1916). لكن هذا الاحتجاج لم يعن شيئاً للحكومة البريطانية. ينظر: من خارجة الحجاز إلى خارجة بريطانيا، 1922/10/16، في: المراسلات التاريخية، مج 3: 1920-1923: الثورة العربية الكبرى، سليمان موسى (محرر) (عمان: [د.ن.])، 1975، ص 245-246.

أمام أمر واقع. وفي هذا السياق، جرت أول الاتصالات العربية الحجازية - التركية الرسمية لعقد اتفاقية صلح، مهدت لها الاتصالات الكمالية غير المباشرة، منذ أيلول / سبتمبر 1920، مع الحسين في الحجاز عبر رسل حركة الاتحاد الإسلامي.

أولاً: الحملة الكمالية الدعائية لعقد صلح عربي - تركي

1. احتجاج الحسين على استبعاد العرب من صلح مودانيا

مثل الحسين مندوباً هو ناجي الأصيل، ليس ليشارك في أعمال المؤتمر، بل كي يتم إنجاز مشروع الاتفاقية البريطانية - الحجازية، التي ظل الحسين يعاند توقيعها، بسبب الخلاف الشديد في عدة مواد، كان من أبرزها وأشدّها تأثيراً في تعثر المفاوضات ومن ثم إخفاقها بصورة تامة، ما اشتملت عليه ضمناً من الاعتراف بوعود بلفور (1917)، من خلال المادة (17) التي تنص على اعتراف الحسين بـ "المركز الخاص لحكومة صاحب الجلالة في العراق وفلسطين" وإصرار الحسين على تعديل بعض موادها وفي مقدمتها تلك المادة. ومثل هذا الاحتجاج مبرراً له، كي يعقد اتصالات مع الأتراك تتيح له تحقيق الصلح معهم، بعد أن سار فيه الحلفاء، وأن يحصل من الحكومة التركية على تنازلها القانوني عن الدول العربية، كي يضع المؤتمر أمام أمر واقع. أضف إلى ذلك محاولة حفظ ماء وجه الحجاز الإسلامي في بقاء حالة الحرب الرسمية بينها وبين الأتراك بينما صالحها الأعداء "الكفار"، وفي مرحلة غدا فيها العالم الإسلامي ملتقاً على نحو كامل ومشدوداً حول مصطفى كمال. لكن ما كان مسموحاً به للحلفاء لم يكن مسموحاً به للحسين، كما أن رهان الأخير على مؤتمر لوزان في تحقيق العرب استقلالهم، بعد تنازل تركيا رسمياً عن حقوقها في البلاد العربية، كان وهمًا محضًا.

2. تحول مصطفى كمال إلى بطل تاريخي للعالم الإسلامي

حدث هذا الالتفاف بعد النصر التركي الحاسم على اليونان واستعادة إزمير، والذي انتهت معه حرب الاستقلال وفق السردية التاريخية التركية الرسمية. انتشر، في إثر استعادة الكماليين إزمير، اسم مصطفى كمال في العالم الإسلامي وجميع أنحاء آسيا حتى بلاد فارس والهند والصين، على غرار انتشار اسم غاريبالي ذات يوم في جميع أنحاء أوروبا، وفي جميع أنحاء سوريا ومصر، وأيقظ ما يمكن تسميته بلغة كينروس الثورة القومية الشرقية أو ما وصفه ذات مرة لينين بعصر "يقظة آسيا". لكن عيني مصطفى كمال كانتا ثابتتين في اتجاه الغرب الذي ما يزال نصفه حتى صلح مودانيا على الأقل يعاديه، وليس تجاه قيادة آسيا. وابتهج الفقراء والفئات الوسطى التي تغذت رؤاها بحركة الاتحاد الإسلامي ضد الغرب بالنصر أيما ابتهاج، وارتفع في الهند حجم تبرعاتهم لصندوق لجنة الخلافة في بومباي لصالح الكماليين، وبلغ حجم هذا الصندوق نحو 125 ألف جنيه إسترليني، استخدم مصطفى كمال جزءاً منه في تسديد رواتب الجيش، ولاحقاً في تشييد مبنى البرلمان والمصرف المركزي التركي⁽⁶⁾.

حدث مثل ذلك في مصر وسورية والعراق، التي عمّت فيها الاحتفالات؛ إذ "أرسلت البرقيات من جميع الأقطار الإسلامية مهتنة بما تم من نصر وتوفيق"⁽⁷⁾. وحدث في المدن السورية ما حدث في البلاد العثمانية والعالم الإسلامي، واستقبل الانتصار بفرح عارم في سورية حيث ازدادت المساجد والمآذن فيها بالمصابيح⁽⁸⁾ في دمشق، وبالتظاهرات والاحتفالات في حلب، وأطلق على مصطفى كمال لقب سيف الإسلام، وأقيمت الصلوات في المساجد بهذه المناسبة. وذكر أن الاحتفالات أقيمت كل يوم في مسجد من مساجد

6 Kinross, pp. 329-330.

7 أمين سعيد وكريم خليل ثابت، سيرة مصطفى كمال باشا وتاريخ الحركة التركية في الأناضول (القاهرة: إدارة دار اللطائف، 1922)، ص 56.

8 منير الرئيس، الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي: الثورة السورية الكبرى (بيروت: دار الطليعة، 1969)، ص 120.

حلب على نفقة دائرة الأوقاف، وأرسلت برقية من بعض شيوخ دمشق وأعيانها إلى مصطفى كمال تهنئته على النصر، وفي بيروت جمعت عشرة آلاف ليرة ذهبية أرسلت إلى الكمالين، كما جمع بعض تجار دمشق مبالغ أخرى⁽⁹⁾.

وفي أيلول/ سبتمبر 1922، وُصف مصطفى كمال في بعض الأدبيات العربية بـ "البطل الكبير والغازي الشهير" و "القائد العظيم، والوطني الصميم"⁽¹⁰⁾. وسار الكماليون على هذا الإيقاع، مستبقيين انعقاد المؤتمر بالإجهاد على الحكومة الرسمية في إسطنبول، واتخاذ مجلس الأمة الكبير قراره التاريخي بالفصل بين الخلافة والسلطنة.

3. الدعاية الكمالية لصلح عربي - تركي ووعد عصمت باشا لوفد "اللجنة"

التقط رسل حركة الاتحاد الإسلامي معاندة الحسين الشديدة في توقيع مشروع الاتفاقية البريطانية - العربية (الحجازية) ليواصلوا حث الأتراك والعرب على التصافي، فنشطوا في اتجاه عقد اتفاقية صلح بين الأتراك والعرب، حاملين معهم إلى أنقرة رغبة العرب في الاتفاق مع الكمالين، على أن يعلنوا اعترافهم باستقلال البلاد العربية. فما كان من الكمالين الذين تخلوا سياسياً، ولكن ليس قانونياً بعد، عن الدولة العثمانية في قانون الفصل بين الخلافة والسلطنة، إلا أن استنفروا وأطلقوا في تشرين الأول/ أكتوبر 1922 وأبلاً من التصريحات، خلاصتها "أنهم يصرون على أن يكون للعرب الاستقلال التام". ونشرت جريدة القبلة في الحجاز خلاصة هذه التصريحات⁽¹¹⁾.

في الشهر نفسه حين تقرر عقد مؤتمر لوزان، وُسِّم عصمت باشا (إينونو) (1884-1973)، رئيساً للوفد التركي، وصل وفد اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني المؤلف من شكيب أرسلان وإحسان الجابري إلى تركيا للحصول على تأكيدات من الأتراك بألا يتنازلوا عن سيادتهم على البلاد العربية المنفصلة عنهم إلا لأهلها. وفق ما نص عليه الميثاق المُلَي، ووفق المصادر العربية، أعطى عصمت باشا وعداً لأرسلان والجابري بذلك، وأن الميثاق هو دستور عمل وفد الحكومة في لوزان⁽¹²⁾، واطمأن وفد اللجنة لتأكيدات عصمت باشا.

4. تفنيد دعاوى عصمت باشا بشأن رفض انتدابات سان ريمو

لم تفض المراسلات بين عصمت باشا وكيرزون إلى تسوية ثنائية بشأن الموصل خارج جدول أعمال المؤتمر، فقرر كيرزون إحالة المسألة إلى المؤتمر للبت فيها. وفي 23 كانون الثاني/ يناير 1923، بلغ السيل الزبى، نتيجة حوار الطرشان بين كيرزون وعصمت باشا، حيث كرس هذا اليوم برمته لمسألة الموصل التي أخفقت الحكومة التركية في إخراجها من مسار جلسات المؤتمر، والمسألة الكردية التي تعقد الجدل بينهما بشأنها⁽¹³⁾.

طرح عصمت باشا في مذكرته أمام المؤتمر عدم الاعتراف بقرارات مؤتمر سان ريمو (نيسان/ أبريل 1920) حول الانتداب على العراق، وأن تركيا لم تعترف قط بانتداب بريطانيا على العراق، وأنه لا قيمة قانونية لأي معاهدات عقدتها بريطانيا مع العراق؛ لأنه لم

9 عبد الكريم رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث (دمشق: مكتبة نوبل، 2002)، ص 318، 322-332.

10 سعيد وثابت، ص 4.

11 "استقلال العرب والانتصار الكمالي"، القبلة، العدد 637، 16/10/1922، ص 1.

12 نصت المادة الأولى من الميثاق المُلَي الذي أقره مجلس المبعوثان العثماني يوم 28 كانون الثاني/ يناير 1920 على ما يلي: "تتنازل الدولة العثمانية عن الأراضي المأهولة بأكثرية عربية على أن يقرر مصيرها بحسب إرادة سكانها وأما القسم المأهول بالترك المتحدين اتحاداً دينياً وقومياً فيتألف منه مجموع لا يتجزأ". ينظر: أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، مج 3: إمارة شرق الأردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهاشمية وثورة الشام (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1934)، ص 280-281.

13 م. س. لازاريف، المسألة الكردية 1917-1923، ترجمة عدي حاجي (بيروت: دار الفارابي؛ أربيل: دار أراس، 2013)، ص 466.

يجرّ التشاور مع الأهالي بشأن الانتداب، وأنه لا سبب يمنع تعديل قرارات المؤتمر⁽¹⁴⁾. ودخل كيرزون معه في مساجلة دقيقة نقطة فنقطة لما تضمنته المذكرة، فقد فككها وبيّن تناقضها الداخلي، وسخر من عصمت باشا بأن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها أن الأكراد هم أترك. وسقّه، في 23 كانون الثاني/ يناير 1923، موقفه بشأن الانتدابات التي قرّرها مؤتمر سان ريمو بأن الحكومة التركية اعترفت بمبدأ الانتداب الفرنسي على سورية، الذي أقره المؤتمر نفسه، مشيرًا في ذلك إلى اتفاقية فرانكلان-بويون، بينما ترفض هذا المبدأ بالنسبة إلى العراق⁽¹⁵⁾. فقد صممت الحكومة البريطانية مؤتمر لوزان على أساس اعتراف الحكومة التركية بالانتدابات التي قرّرها مؤتمر سان ريمو، بينما صممت مشروع المعاهدة البريطانية - الحجازية على أساس إقرار الحسين بالوضع الانتدابي الخاص لبريطانيا في فلسطين والعراق، بعد أن أرضت فيصل بعرض العراق، واحتوت مشاكسات عبد الله وتنغيصه لعلاقتها مع الفرنسيين بإمارة شرق الأردن التي كانت تدعى يومئذٍ بـ "الشرق العربي".

في أواخر كانون الثاني/ يناير 1923، سلّم الحلفاء في مؤتمر لوزان عصمت باشا مشروع معاهدة الصلح، وأمهلوا الحكومة التركية أربعة أيام تنتهي في 4 شباط/ فبراير 1923 للرد عليها. لكن حكومة مجلس الأمة الكبير ما كان يمكنها أن توافق عليها، في ظل ارتفاع صوت غلاة الكماليين، مع أن مصطفى كمال استبعد تمامًا اللجوء إلى الحرب لاستعادة الموصل، وقرر استعادتها بالسبل الدبلوماسية، واستخدام تظاهرات القوة فقط لتحسين المطالب التركية بالموصل.

انفضّ مؤتمر لوزان الأول في 4 شباط/ فبراير 1923⁽¹⁶⁾، ليمثل بداية لحظة حرجة في مفاوضات السلام الأوروبية - التركية، وحزم كيرزون بالفعل حقائب وفده للعودة. وفي هذه اللحظات الحساسة بين تقديم كيرزون مسودة معاهدة الصلح في أواخر كانون الثاني/ يناير إلى عصمت باشا، وإمهال حكومته أربعة أيام في "شبه إنذار" للجواب عنها، ثم إغلاق المؤتمر في 4 شباط/ فبراير وبين عودته إلى الانعقاد في نيسان/ أبريل 1923 بعد رسائل تركية إيجابية باستئناف المفاوضات، بدأت أولى اتصالات عربية حجازية - تركية رسمية للخروج قانونيًا من حالة الحرب.

ثانيًا: الاتصالات العربية الحجازية - التركية الرسمية

1. التزام بين توتر العلاقات البريطانية - التركية والعلاقات البريطانية - الحجازية

جرت الاتصالات المباشرة بين مندوب الحسين ناجي الأصيل وعصمت باشا، حول توقيع اتفاقية صلح نهائية مع الأتراك، في هذه اللحظات الحرجة من تأزم مؤتمر لوزان الأول ثم إغلاقه من جهة، وتأزم المفاوضات البريطانية - الحجازية منذ نهاية العشر الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1922 حول مشروع المعاهدة البريطانية - العربية الهاشمية (الحجازية) التي أعدتها وزارة المستعمرات في 20 أيار/ مايو 1921 من جهة أخرى؛ بسبب تمعّن الحسين عن توقيعها لما اشتملت عليه من بنود غير مقبولة منه، وفي مقدمتها المادة (17) التي تنص على اعتراف الحسين بـ "المركز الخاص لحكومة صاحب الجلالة في العراق وفلسطين".

14 حسين، ص 31.

15 لازاريف، ص 468-469.

16 يمكن التمييز في مؤتمر لوزان بين مرحلتين هما؛ مرحلة مؤتمر لوزان الأول (20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922-4 شباط/ فبراير 1923) ومرحلة مؤتمر لوزان الثاني (23 نيسان/ أبريل - 24 تموز/ يوليو 1923). وقد فشل الأول على خلفية رفض الحكومة التركية مشروع المعاهدة التي عرضها الحلفاء عليها، وانقطعت أعمال المؤتمر بين جولتي انعقاده إلى أن تقدمت الحكومة التركية بمقترحات جديدة تمخض عنها عقد مؤتمر لوزان الثاني الذي انتهى بمعاهدة لوزان التاريخية التي رسمت صورة الشرق الأوسط الحالي الأساسية.

وفي 9 كانون الأول/ ديسمبر 1922، أوضح الحسين للمعتمد البريطاني بجدة أنه لا يستطيع مطلقاً توقيع مسودة المعاهدة إن لم يجر تعديل تلك المواد؛ لأن هذا التوقيع، بحسب تعبيره، "لمس صحيفة تاريخي، فهو يزيل ويسقطني من ثقة بلادي وأقوامي الأقرين"⁽¹⁷⁾. كان الحسين قد غدا في هذه الفترة الحساسة الشائكة مقتنعاً بأن الحكومة البريطانية قد غيرت سياستها نحوه "وهي الآن تعامله كعدو وليس كصديق"⁽¹⁸⁾.

2. إبداء الحسين حسن النية تجاه الأتراك ورفض القتال ضدهم في الموصل

سار الحسين في هذه الاتصالات في اتجاه معاكس تماماً، بل مستفز للسياسة البريطانية بشأن العلاقة الإيجابية مع الأتراك من جهة أولى، والعلاقة السلبية مع البريطانيين من جهة ثانية بخصوص مسألة الموصل، رغم تنصيب فيصل ملكاً على العراق، ومطالبتها الملحة بالموصل.

أبدى الحسين في هذه الاتصالات حسن نية كاملة تجاه الأتراك، برفض استخدام البريطانيين لابنه الأمير زيد في ترتيب أي حركات عدائية ضد الأتراك المحتشدين حول الموصل، والذين قابلتهم تحشيدات بريطانية شارك فيها الجيش العراقي الوليد بحماية المواصلات⁽¹⁹⁾؛ ما أثار حقن البريطانيين على سير الحسين عكس قواعد اللعبة التي صمموها في لوزان من جهة أولى، وتعتته في توقيع مشروع المعاهدة البريطانية - الحجازية من جهة ثانية.

وردّ الحسين، في 28 كانون الثاني/ يناير 1923، حين شارك مؤتمر لوزان الأول على الإغلاق، بسبب مشكلة الموصل بدرجة أساسية، على المعتمد البريطاني بجدة حول عزم الأمير زيد التوجه إلى الموصل "بالنظر إلى تشبثات الأتراك ومسايعهم فيها"، بأنه لم يرسل ابنه لقتال الأتراك "بل لعيادة أخيه" فيصل، وأنه لن يقاتل الأتراك من أجل البريطانيين. وجدد للمعتمد البريطاني إحباطه من السياسة البريطانية، وأنه لم يحصد من تحالفه مع البريطانيين إلا "نتيجة" واحدة مشهودة للعالم، وهي اتهام العالم الإسلامي وحتى العرب له "بالتجرد من الإسلامية"؛ "لأنهم رأوا ما يخالف ما صرّحنا لهم به اعتماداً على مقرراتنا مع العظمة البريطانية". وأضاف الحسين بمرارة: "فهل بعد هذه النتيجة والحكم علينا بالتجرد من كل شمم وشرف عنصري أو ديني يمكننا أن ننسب بكلمة واحدة أمام الأقوام، أو بقي محل لاعتمادهم وثقتهم بنا. بل إن هذا مما يؤيد الحكم بقطعية كل ما يزعمونه ويرموننا به، إذ لا نتيجة من هذا إلا سقوطنا من كلّ حيثية واعتبار إن بقي لنا شيء منهما في أنظارهم"⁽²⁰⁾. كان ما فعله الحسين عملاً معادياً للبريطانيين خلال مفاوضاتهم الشائكة مع الأتراك، وتعتته في رفض مشروع المعاهدة معهم.

3. اجتماعات الأصيل - عصمت باشا (شباط/ فبراير 1923)

مع تسليم كيرزون، في 29 كانون الثاني/ يناير 1923، مسودة المعاهدة للوفد التركي، وإمهاله أربعة أيام للجواب عنها، التقطت الاستخبارات البريطانية مجريات اجتماع سري عقد في الأول من شباط/ فبراير 1923 في لوزان بين ناجي الأصيل ممثل الحجاز في

17 من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني، 9 كانون الأول/ ديسمبر 1922، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 247.

18 تقرير جدة للميجر مارشال المعتمد والقنصل البريطاني في جدة إلى اللورد كيرزون وزير الخارجية عن الفترة من 31-1 كانون الثاني/ يناير 1923، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6: 1921-1922، اختيار وترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 2004)، ص 125.

19 ورد في يومية 30 كانون الثاني/ يناير 1923 أن زيد ذهب إلى الموصل، وحشد الأتراك أفواجهم في جزيرة ابن عمر، واستعرض الجيش البريطاني قواته في الموصل، بينما خصص للجيش العراقي الوليد مهمة حماية المواصلات. ينظر: غزترود بيل، العراق في رسائل المس بيل، ترجمه وعلق عليه جعفر الخياط (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2003)، ص 540.

20 من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة، 1923/1/28، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 7: 1923-1924، اختيار وترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة (بيروت: دار الساقى، 2007)، ص 121-122.

مؤتمر لوزان وعصمت باشا مفوض الخارجية في حكومة مجلس الأمة الكبير، ورئيس الوفد التركي في المؤتمر. في هذا الاجتماع، صرح الأصيل بالنيابة عن الملك الحسين "أنه إذا اعترف الأتراك به ملكاً على جميع جزيرة العرب، فإنه [الحسين] يستعمل كل نفوذه لمساعدة الأتراك ضد بريطانيا العظمى، حتى إلى عقد حلف هجومي ودفاعي مع تركيا". وردّ عصمت باشا بأن "حكومته مستعدة للاعتراف باستقلال العرب بشرط أن يتحد العرب بصورة فعالة تحت رئاسة الملك حسين". ويشير التقرير إلى أنه تبين أن "جعفر باشا [العسكري] والملك حسين أرسلوا بعد ذلك مراسلات سرية إلى أنقرة في موضوع العلاقات التركية - العربية حسب الظاهر"⁽²¹⁾. وفي النقد الداخلي والخارجي لمعلومات التقرير، يمكن استبعاد طرح الحسين "عقد حلف هجومي ودفاعي مع تركيا"، ليس في ضوء انعدام أي قدرات له على ذلك، وتهديده المستمر بهجمات ابن سعود فحسب، بل في ضوء حقيقة موقفه من أنه يطوي من جهته صفحة العداء بين العرب والأتراك الناتجة من الحرب، ويتجلى موقفه باتخاذ موقف "حيادي" في الصراع بين الأتراك والكماليين، وإن كان في حقيقته حياداً إيجابياً ارتبط ارتفاع وتيرته بارتفاع وتيرة توتر العلاقات بين الحسين والحكومة البريطانية حول مشروع المعاهدة.

أبلغ عصمت باشا ناجي الأصيل بأن العداء بين تركيا والعرب "أصبح من الماضي، وصرف النظر عنه. إن تركية قد اعترفت بحقوق العرب الاستقلالية، وأضاف أنه يتكلم رسمياً وباسم المجلس الوطني الكبير"⁽²²⁾. لم يعترض الملك فيصل (ثوَج ملكاً على العراق في 23 آب/ أغسطس 1921)⁽²³⁾ على اندفاع الحسين للاتفاق مع الأتراك، فقد قصر خلافه الوحيد مع الأتراك على مسألة الموصل، وطلب من والده في 15 شباط/ فبراير 1922 أن يؤكد الأتراك ذلك "خطياً وبصورة واضحة كي لا نقع في فخ آخر كما فعل معنا الحلفاء بأقوالهم التي لم يؤيدوها كتابة". وأبدى فيصل خشيته مما وصفه مراوغة الترك، بالقول: "أخاف أن لا تنقيد أنقرة بتصريح عصمت في المستقبل"⁽²⁴⁾.

وكان موقف فيصل معتدلاً كثيراً تجاه الأتراك فقصره على الموصل، على الرغم من أن الحكومة التركية قادت حملة تعبئة عداوية ضد تنويجه ملكاً على العراق، فحركت الاتحاد الإسلامي، الذي أصدر بياناً باسمه أعلن فيه أن سلطة فيصل غير شرعية، ومنافية لمبادئ الخلافة، وطلب حظر ذكر اسم فيصل في خطب الجمعة، بينما صعد القائد الكمالي علي شفيق أوزدمير عملياته ملقباً نفسه بـ "قائد الانتفاضة الوطنية" في العراق وكردستان⁽²⁵⁾. ونشرت الصحف، في نيسان/ أبريل 1921، إشاعة مفادها أن الأتراك يعزّزون تنصيب أحمد الشريف السنوسي رئيس الحركة، الذي كان يشار إليه في المجال التداولي العراقي بنائب الخليفة حاكماً على "دولة ما" في العراق، وشبهه مستقلة⁽²⁶⁾.

21 وممن حضر الاجتماع عن العرب شكيب أرسلان وناجي الأصيل وجعفر العسكري والدكتور إسماعيل صدقي. ينظر: تقرير من دائرة الاستخبارات السرية عن العلاقات التركية - العربية، 27 آذار/ مارس 1923؛ ووضعت في مقدمته ملاحظة: بأن "المعلومات الواردة في هذه الخلاصة يجب اعتبارها سرية جداً"، ينظر: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 6، ص 167؛ ووفق تقرير آخر عقد اجتماع آخر، في 6 شباط/ فبراير 1923، بين عصمت باشا وناجي الأصيل وشكيب أرسلان وإحسان الجابري، وكرر فيه ناجي ما جاء في الاجتماع السري في 1 شباط/ فبراير 1923. ويضيف التقرير إلى التقرير السابق أن عصمت أقر بالاعتراف باستقلال العراق، إلا أنه "ليس مستعداً للبحث في قضية الموصل مع العرب، ما داموا باقين أدوات للإمبريالية البريطانية"، ورأى عصمت أن موقف الحكومة الكمالية هو "حث الملك حسين على نبذ كل عدا مع تركيا، ومواصلة جهوده لتوحيد جزيرة العرب لأجل طرد الإنكليز من الأماكن الإسلامية المقدسة". ينظر: ملحق، مفاوضات سرية في لوزان حول العلاقات التركية - العربية، 27 آذار/ مارس 1920، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 6، ص 168-170.

22 من الملك حسين إلى المبعوث البريطاني في جدة، 23 شباط/ فبراير 1923، في: **المراسلات التاريخية**، مج 3، ص 251.

23 ارتبط بعد تنويجه بمعاهدة تحالف مع بريطانيا (10 تشرين الأول/ أكتوبر 1922) تعترف ضمناً وليس نصاً بانتداب بريطانيا على العراق، تحاشياً لردة الفعل السلبية على هذا المصطلح، بينما ارتبط بوعده شرف مسجل للبريطانيين بالألا يتدخل في سورية، ولم يرد في نص المعاهدة مصطلح الانتداب، وكان صك الانتداب بنوب جديد على الطريقة البريطانية وليس الطريقة الفرنسية. ينظر: حسين، ص 21-22.

24 من فيصل إلى الملك حسين، 15/2/1923، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 7، ص 252-253.

25 لازاريف، ص 368.

26 المرجع نفسه، ص 412؛ أما محمد عيسى صالحية فيشير إلى أن مجلس المبعوثان العثماني قد عينه في نيسان/ أبريل 1921 ملكاً على العراق لكن حظوظ فيصل فاقت حظوظه بسبب دعم بريطانيا له. ومن الواضح لدينا أنه لا يوجد أي سند لهذا الزعم في دراسة صالحية. ينظر: محمد عيسى صالحية، **صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا: وثائق من تاريخ السيد أحمد الشريف السنوسي 1292-1350هـ-1875-1933م**، سلسلة حوليات كلية الآداب، الحولية 1 (الكويت: كلية الآداب - جامعة الكويت، 1980)، ص 22.

4. برقيات عصمت باشا - الحسين

أرسل عصمت باشا رسالة إلى الحسين تنص على الاعتراف باستقلال العرب⁽²⁷⁾. وقد تابع وزير الخارجية البريطانية مجريات ومعلومات المحادثات بين الأصيل وعصمت باشا من الأصيل نفسه الذي كان ينقل لكيرزون ما يقوم به من اتصالات. وتابع كذلك اللقاءات بين وفد اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني المؤلف من شكيب أرسلان وإحسان الجابري وبين عصمت باشا، وكان الطرفان منقسمين في موقفهما من الحسين، حيث حمل أرسلان في اللقاء مع عصمت باشا الحسين المسؤولية الأولى عن "إدخال النفوذ الأوروبي وغير الإسلامي في الأقطار العربية"، بينما عارضه الجابري، لكن كيرزون اهتم بمعرفة ما إذا كان عصمت باشا قد "لمح بأية صورة كانت عن اتحاد بين تركيا والأقطار العربية"، قاصداً بذلك مشاريع الاتفاقيات العربية - الكمالية السابقة حول تشكيل كونفدرالية تركية - عربية بعد التحرير، فنفي الأصيل ذلك مشيراً إلى أن عصمت باشا أكد فقط "على استعداد تركيا لاحترام الاستقلال العربي، وشرح الرأي التركي حول وضع الخلافة"⁽²⁸⁾، في إشارة إلى قرار مجلس الأمة الكبير بالفصل بين الخلافة والسلطنة، وتحويل وظائف السلطان إلى المجلس بوصفه يمثل الأمة، وأن الأمر لا يعني إضعاف الخلافة، بل يعني إعلاء هيبتها ومكانتها في العالم الإسلامي كما جاء في تبرير مجلس الأمة الكبير لقراره التاريخي.

ورحبت وزارة الخارجية الحجازية، في 17 شباط/ فبراير 1923، بذلك حين استلمته رسمياً من الحكومة التركية. وكانت تلك أولى الرسائل الرسمية التي يجري تبادلها بين الحكومة الحجازية والحكومة التركية⁽²⁹⁾. لكن موقف الوفد التركي نفسه في مؤتمر لوزان لم يكن موحدًا⁽³⁰⁾، فبينما أبدى عصمت باشا "حماسه" و"صدقه" للتوصل إلى اتفاق صلح مع العرب، كان رضا نور عضو الوفد، والعرب الأساسي في صياغة مشروع فصل الدين عن السلطنة، يطلق تصريحاته ضد العرب، ويصمهم بأنهم "خونة"⁽³¹⁾.

5. موقف الحسين من النزاع بين بريطانيا والأتراك و"احمرار العين" البريطانية منه

أبلغ الحسين الحكومة البريطانية بوقوفه على "الحياد" في نزاعها مع الأتراك حول الموصل، مع بقاء ولائه لها⁽³²⁾، واعتبر في برقيته إلى المعتمد البريطاني أن هذا الاعتراف الرسمي من الحكومة التركية باستقلال البلاد العربية يمثل "فرصة عظيمة لكم [بريطانيا] ولنا"، "ولا سيما أن الترك بلغوني بذلك لأبلغه للعرب"، و"أن اعتراف الترك بهذا انقلاب عظيم في سياستهم"⁽³³⁾.

27 هذا التاريخ مستمد من برقية وكيل المندوب السامي البريطاني للعراق إلى وزير المستعمرات في لندن، والمؤرخة في 14 شباط/ فبراير 1923. في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 7، ص 138.

28 برقية من اللورد كيرزون، وزير الخارجية إلى المستر هندرسن (الأستانة)، 13 شباط/ فبراير 1923، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 135-136.

29 من الحسين إلى فيصل، 1923/2/17، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 254.

30 كان الوفد التركي مؤلفاً من عصمت باشا وزير الخارجية الجديد رئيساً، ومن رضا نور وزير الصحة وهو مناهض للاتحاديين، ومن مستشارين هما وزير المالية العثماني الاتحادي السابق جاويد، والحاخام الأكبر ناحوم. ينظر:

Andrew Mango, *Atatürk* (London: John Murray Publishers, 1999), p. 379.

31 خلاصة اللقاء بين كيرزون وناجي الأصيل، من اللورد كيرزون، وزير الخارجية إلى المستر هندرسن (الأستانة)، 1923/2/13، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 135-136.

32 من فيصل إلى الملك حسين، 1923/2/20، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 255. من اللورد كيرزون، وزير الخارجية إلى المستر هندرسن (الأستانة)، 1923/2/13، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 7، ص 135-136.

33 من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة، 1923/2/23، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، ص 134-135.

وطلب الحسين من مندوبه الأصيل بأن يخبر عصمت باشا على لسانه "بالطف أسلوب ممكن أن تركية تستطيع في المستقبل أن تعتبرنا محايدين. وأخبروا أصدقاءنا [البريطانيين] في الوقت نفسه أن هذا التصريح وجوابنا لن يغير علاقاتنا الثابتة" (34).

استوضحت وزارة الخارجية البريطانية موقف الحسين من الترك، وردّ الأصيل في ضوء موقف الحسين على كيرزون "أن جلالته سيقى والعرب على الحياد تجاه الأتراك، مع احتفاظه بولاء بريطانيا" (35)؛ وهو ما أقلق وكيل المندوب السامي في العراق في مرحلة التوتر البريطاني - التركي حول مشروع معاهدة الصلح، من أن "يحدث العرض التركي تحولاً في الشعور بين العرب هنا، حينما يتم إعلان، حين يظن العراقيون أنهم يستطيعون الاستغناء عن الدعم البريطاني. وقد يكون هذا محرّجاً" (36). فقد كان عرب العراق وأكرادهم يفضلون الأتراك على البريطانيين، على حد تعبير رشيد رضا "بعد أن بلوهم وعرفوا إفكهم وخداعهم، وذاقوا مرارة جبروتهم وظلمهم، فلا يمكن أن يحاربوا الترك معهم أو تحت قيادتهم، لجعل أن تكون العراق مستعمرة هندية لهم" (37). لكن هذا القلق سرعان ما تحول إلى غضب، فاعتبر البريطانيون أن بقاء العرب على الحياد بين البريطانيين والترك خطر عظيم، ف "في حالة اتخاذ العرب هذا الموقف [...] قد تضطر الحكومة البريطانية إلى إعادة النظر في علاقاتها مع العرب برمتها"، ووصف فيصل ذلك بـ "الإنذار الصريح" (38).

6. ارتياح الحجاز لموقف الحسين

استقبل موقف الحسين من الأتراك، وقراره "الحياد" في صراعاتهم مع البريطانيين بإيجابية كبيرة في الحجاز؛ فقد أثار الموقف البريطاني من الأتراك بشأن الموصل ردة فعل حادة في الحجاز، حيث لحظ تقرير بريطاني أن "إنكلترا في الوقت الحاضر تخسر عواطف أهالي جزيرة العرب بسبب الموقف الذي تقفه ضد تركية. إن أهالي جزيرة العرب لا احترام لهم للأتراك كأتراك، ولكن كما هو الأمر في كل الحادث من هذا القبيل، ينظرون إليهم كإخوان مؤمنين في الدين، وكل خطوة تتخذ ضد تركية يعتبرها المسلمون وكأنها موجهة ضد الإسلام كله" (39). في حين فسرت تقارير أخرى أنهم عامة "يميلون إلى الكماليين بسبب كرههم للملك حسين" (40)، ويتوقعون إلى عودة الحكم التركي (41). وتمثل السبب الحقيقي الأكبر في كراهية الحجاز عموماً وكراهية حاشية الملك الحسين نفسه ما عدا قلة قليلة لبريطانيا (42)، بينما غدا "احمرار العين" البريطانية منه أكثر شدة من أي وقت مضى (43)، وظهر للبريطانيين أن اتفاق الحسين مع الأتراك "خطر عظيم" (44)، وأخذت نظرتهم إليه تتحول من تقييمه بوصفه رجلاً مشاكساً ومنغصاً لهم إلى نوع من خصم محتمل.

- 34 خلاصة الاجتماع في لندن بين كيرزون وناجي الأصيل ممثل الملك حسين، من اللورد كيرزون وزير الخارجية إلى المستر هندرسن (الأستانة)، 1923/2/13، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 7، ص 135-137.
- 35 من فيصل إلى الملك حسين، 1923/2/20، في: **المراسلات التاريخية**، مج 3، ص 255؛ من اللورد كيرزون، وزير الخارجية إلى المستر هندرسن (الأستانة)، 1923/2/13، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 7، ص 135-136.
- 36 من وكيل المندوب السامي للعراق إلى وزير المستعمرات لندن، 1923/2/14، في: المرجع نفسه، مج 7، ص 137-138.
- 37 محمد رشيد رضا، "كيد السياسة البريطانية للعرب"، **المنار**، مج 24، ج 2 (30 جمادى الآخرة 1341/16 شباط/فبراير 1923)، ص 148.
- 38 من فيصل إلى زيد، 1923/2/21، في: **المراسلات التاريخية**، مج 3، ص 257-258.
- 39 من كامل فهمي إلى الفيلد مارشال اللورد ألبيني المندوب الشامي في مصر، 1923/4/2، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 7، ص 176.
- 40 تقرير جدة للفترة 31-1 آذار/مارس 1923، في: المرجع نفسه، مج 6، ص 171.
- 41 تقرير جدة للفترة 28 أيلول/سبتمبر-31 تشرين الأول/أكتوبر 1923، في: المرجع نفسه، مج 6، ص 354.
- 42 يستثنى توماس إدوارد لورنس (العرب) Thomas Edward Lawrence (1888-1935) كلاً من فؤاد الخطيب والأمير زيد من العداء للبريطانيين. ينظر: من الكرنل لورنس (جدة) إلى وزارة الخارجية، لندن، 1921/1/2، في: المرجع نفسه، مج 6، ص 239.
- 43 من فيصل إلى زيد، 1923/2/21، في: **المراسلات التاريخية**، مج 3، ص 257-258.
- 44 المرجع نفسه.

ترافق ذلك مع ارتفاع وتأثر التوتر بينه وبين الحكومة البريطانية نتيجة تصلبه في رفض توقيع مشروع المعاهدة البريطانية - الحجازية، الذي ينتزع منه الاعتراف بالوضع البريطاني الخاص (الانتدابي) في العراق وفلسطين، وإدخاله التعديلات المتتالية التي تمس ذلك الوضع. ونقلت التقارير البريطانية، في حزيران/ يونيو 1923، أن الحسين يبدي حرصاً "مرضياً" على سمعته في العالم الإسلامي كمرآة معادية للأوروبيين والمسيحيين، وأن "كل الذين في البلاد العربية ضد النفوذ الأوروبي يؤيدونه في تصلبه ويجدون في رسائله وتصريحاته أسلحة ضد البريطانيين، لكنه في حال توقيعه على مشروع المعاهدة سينفضون عنه" (45). ووصف تقرير لوكيل المعتمد البريطاني أن ما يبديه الحسين من حرص على سمعته في العالم الإسلامي، يمثل مفتاح فهم "خلفية جميع أفكاره، والعامل الذي يقرر تصرفاته"، واعتبر أنه يشبه في ذلك "المحاولات اليائسة من أجل إعادة اعتبار سيدة تريد أن تنفض عن نفسها حماقة سيئة. إن الأمر مبالغ فيه" (46).

ثالثاً: من حياد الحسين الإيجابي تجاه الأتراك إلى طرده من اللعبة

1. سحب الأمير زيد من الموصل ورفض القتال ضد الأتراك في الموصل

لاحتواء ضغط فيصل على الحسين، في أن يحصل على اعتراف خطي من عصمت باشا بعراقية الموصل، أعلمه الحسين في 22 شباط/ فبراير 1923 بأنه سيطلب من الترك "تصريحاً وافياً بتخليهم عن مطامعهم في الموصل" (47). لكنه على ما يبدو لم يفعل شيئاً، أو أنه لم يذهب إلى أكثر من هذا الطلب، بل قام على عكس ما رغب فيه فيصل منه، وتحدى ما نقله إليه من أن البريطانيين وجهوا "إنذاراً صريحاً" بإعادة النظر في العلاقة به، بما يعنيه ذلك من إشهار البطاقة الحمراء ضده بالطلب من الملك فيصل أن يرغم زيداً الذي انفرد مع فؤاد الخطيب في كامل حاشية الحجاز بعدم العداء للبريطانيين (48)، والذي كان يرغب في البقاء مع فيصل دعماً له على العودة من العراق إلى الحجاز "حتى لا يتدخل علناً في المظاهرات المعادية للأتراك" (49).

كان الحسين واعياً بما دار في مناقشات الصحف العربية من أن السياسة البريطانية بشأن الموصل تهدف إلى تجديد "العداوة بين الترك والعرب" كي يتيسر لها "ضرب أحدهما بالآخر عند الحاجة إلى ذلك" (50)، وأراد تفادي هذا الاتهام جذرياً بسحب زيد من الموصل. وكان يعتقد أن أي مواجهة عربية - تركية في الموصل يقوم بها سيحمل مسؤوليتها، وأن "مسؤولية أعمال الأمير [زيد] تُسبب إليه رأساً، ويعلم أن الأتراك يتخذون هذه وسيلة لاستصراخ العالم الإسلامي الجاهل، مدعين بأن الملك حسين أرسل ابنه ليقاتلهم ويعين الأجانب عليهم" (51). كان حسين شديد الحساسية تجاه أي عمل يقوم به زيد ضد الأتراك في ظل الاحتلال البريطاني للموصل. وصارح المعتمد البريطاني بجدة بقوله: "في كل الأحوال لا أحتاج أن يتعرض ابني زيد في أوائل حياته إلى الشتم والسب الذي تحمله إلينا كل بوسنة في الصحف العمومية والكتب الخصوصية" (52).

45 من وكيل القنصل والمعتمد البريطاني في جدة إلى وزير الخارجية، 1923/6/4، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 216-222.

46 تقرير من وكيل القنصل والمعتمد البريطاني في جدة إلى وزير الخارجية، 1923/6/4، في: المرجع نفسه، مج 7، ص 218.

47 من فيصل إلى المندوب السامي في بغداد، 1923/2/22، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 260.

48 من الكرنل لورنس (جدة) إلى وزارة الخارجية، لندن، 1921/1/2، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 239.

49 هذا التاريخ مستمد من برقية وكيل المندوب السامي البريطاني للعراق إلى وزير المستعمرات في لندن، المؤرخة في 14 شباط/ فبراير 1923، في: المرجع نفسه، مج 7، ص 138؛ رد زيد على والده بأنه لم يذهب إلى الموصل ليحارب الأتراك، أو يتجاوز على بلادهم، بل للحفاظ على حدود البلاد العربية. ينظر: من زيد إلى الملك حسين، 16 شباط/ فبراير 1923، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 253.

50 رشيد رضا، "كيد السياسة البريطانية للعرب"، ص 150.

51 من فيصل إلى المندوب السامي في بغداد، 1923/2/22، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 260.

52 من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة، 1923/2/23، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 134-135.

من هنا اغتاز من استمرار وجود زيد في الموصل⁽⁵³⁾، ووبخه في 18 شباط/ فبراير 1923 على بقائه فيه معتبراً أن وجوده "مع أي قوة أجنبية والحالة هذه يثبت الاتهامات التي رمونا بها بأننا نريد تسليم البلاد للأجانب"، وطلب منه أن يعود إلى بغداد، وأن يبلغ عصمت باشا "رسمياً" أنه عاد إلى بغداد بناءً على أمره بعد تبليغ حكومة الحجاز بـ "أن لا قصد لهم [الأتراك] في البلاد العربية معترفين باستقلالها"، لكنه وجه زيّدًا إلى أن يطلب من عصمت باشا أيضًا الكف "عن كافة الأعمال المشهودة ضد العرب في حدود العراق"⁽⁵⁴⁾. وذهب الحسين إلى أبعد من ذلك معتبراً أن الاحتلال البريطاني للموصل هو المشكلة وليس الحكومة التركية التي تتذرع بما وصفه الحسين بـ "الاحتلال" البريطاني للموصل. وطالب الحكومة البريطانية عن طريق المعتمد البريطاني بجدّة بالانسحاب "فوراً" من الموصل إلى البصرة، كي يتم نزع ما يتذرع به الأتراك من تحشدهم حول الموصل من الاحتلال البريطاني له. ورأى أن هذا الانسحاب الفوري هو ما يضمن سلامة هذه المنطقة بوصفها إقليمًا عربيًا من العدوان التركي⁽⁵⁵⁾.

2. إعلان الحسين من جانب واحد الاستقلال العربي: ادعاءات لعبتين بريطانية وتركية

في 16 نيسان/ أبريل 1923، وبعد طول عناء حول مشروع المعاهدة، وقع كيرزون مع الأصيل بالأحرف الأولى نصًا جديدًا للمعاهدة، ورأى الحسين أن النص الجديد مقبول، فوقعه بعد إدخال التعديلات على المادة الثانية (حلّت محل المادة 17) المتعلقة بالوضع الخاص لبريطانيا في العراق وشرقي الأردن، أي الانتداب البريطاني عليهما⁽⁵⁶⁾. وفي 17 أيار/ مايو 1923، أعلن الحسين في حفل كبير بمكة عن توقيع المعاهدة العربية - البريطانية، واعتبر هذا اليوم "عيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم"⁽⁵⁷⁾ على أساس اعتراف ملك بريطانيا باستقلال العرب في شبه جزيرتهم وفي أقطارهم الأخرى، ووعدنا بالمساعدة العملية في إنشاء اتحاد يضم كل هذه الأقطار، بما فيها العراق وفلسطين وشرقي الأردن وأقطار عربية أخرى في شبه الجزيرة العربية⁽⁵⁸⁾. وخلا الإعلان المنشور من ذكر سورية، لكن تضمنت إذاعته في جدة إضافة كلمات "وسورية ستأتي قريباً"⁽⁵⁹⁾.

وأبلغ الحسين، في 11 حزيران/ يونيو 1923، موافقته المبدئية على الانضمام إلى عصبة الأمم⁽⁶⁰⁾، مع تمسكه بعدم توقيع معاهدة فرساي المنشئة لعصبة الأمم، رفضًا للمادة (22) من ميثاقها التي تنص على الانتداب⁽⁶¹⁾.

شكّل إعلان الحسين مفاجأة ضخمة عشية المرحلة الأخيرة من مؤتمر لوزان، فقد افترضت وزارة الخارجية البريطانية في رسالتها إلى وزارة المستعمرات، في ضوء نظرية الدومينو الكلاسيكية، أن التعديلات التي أدخلها الحسين على نص المعاهدة، "سيكون لها تأثير غير قليل على الموقع الذي سيكون للمعاهدة في بلاد الشرق الأوسط الأخرى التي تقع مسؤوليتها على وزارتك"⁽⁶²⁾.

53 يومية 1923/2/15، في: بيل، ص 542.

54 من الحسين إلى زيد، 1923/2/18، في: المراسلات التاريخية، مج 3، ص 254.

55 من الملك حسين إلى المعتمد البريطاني في جدة، 1923/2/23، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 134.

56 موسى، ص 629؛ وافق الملك جورج الخامس على مشروع المعاهدة في 16 أيار/ مايو 1923، وأدخل فيها "بعض جمل تفسيرية لتوطيد عرى الصداقة والولاء". ينظر: من الملك حسين بن علي إلى الملك جورج الخامس ملك بريطانيا، 1923/5/16، في: المرجع نفسه، مج 6، ص 255.

57 سعيد، مج 3، ص 166-167.

58 إعلان الاستقلال والوحدة العربية، جريدة القبلة، العدد 688، 1923/5/31؛ الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 235. يبدو أن الأصيل قد أرسل إلى الحسين إشارات إيجابية "خافتة" تتضمن تفهم الحكومة البريطانية لتعديلاته، حيث أكترت الصحف البريطانية والوكالات من إذاعة نبأ توصل الأصيل مع الحكومة البريطانية إلى "عقد معاهدة بريطانية عربية تقرر فيها اتحاد الممالك العربية واستقلالها". المنار، مج 24، ج 6 (15 حزيران/ يونيو 1923)، ص 435.

59 من وكيل القنصل والمعتمد البريطاني في جدة إلى وزير الخارجية، 1923/6/4، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 219.

60 من ناجي الأصيل المندوب المفوض للحكومة الهاشمية في لندن إلى وكيل وزارة الخارجية - لندن، 11 حزيران/ يونيو 1923، في: المرجع نفسه، ص 242.

61 مقتبس من: جريدة القبلة، العدد 724، 1 تشرين الأول/ أكتوبر 1923، في: المرجع نفسه، ص 355.

62 من وزارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات، 16 حزيران/ يونيو 1923، في: المرجع نفسه، ص 343.

شككت بعض الصحف مثل **الأهرام** في مدى صدقية ما أعلنه الحسين من موافقة بريطانيا على استقلال العرب، وتشكيل اتحاد يضم أقطارهم، واعتبرت أن المعاهدة تأتي في سياق "سياسة التضييل والتخدير"⁽⁶³⁾. ورأت مقالة أخرى نشرتها **سورية الجديدة** أن الاتحاد العربي الذي أعلن عنه بموجب المعاهدة، هو حركة بريطانية لتشكيل جبهة عربية ضد الأتراك⁽⁶⁴⁾، وهو ما ذهب إليه رشيد رضا في **المنار**، فرأى أن وزارة المستعمرات إزاء ما يعترض السياسة البريطانية في المشرق العربي لا سيما في فلسطين ومصر من مشكلات، "رجّحت إحداث تغيير جديد في شكل إدارة البلاد العربية، وتجديد الضغائن والبغضاء بين العرب والترك قطعاً لطريق الجامعة الإسلامية"⁽⁶⁵⁾. فقد كان موقف رضا من الحسين قد تحول إلى موقف عدائي صارخ، معتبراً إياه رجل بريطانيا في القضاء على الجامعة الإسلامية، واحتلال الغرب للبلاد العربية، على الرغم من توترات العلاقة بين الحسين والبريطانيين. ورأى في رسالته في 30 كانون الثاني/يناير 1923، حين كان مؤتمر لوزان الأول يكاد ينغلق بسبب الفشل في التسوية، إلى شكيب أرسلان رفيقه في المؤتمر السوري - الفلسطيني الذي أخذ باسم اللجنة التنفيذية تعهداً من عصمت باشا بعدم تنازل تركيا عن البلاد العربية إلا للعرب، أن الأقرب إلى المعقول أن "اشتداد شأن الأتراك لخصومهم الذين هم خصومنا" "ما يقربهم منا، إذ لا يُعقل أن يدعوا بلادنا المجاورة لهم سلاحاً في أيدي أعوانهم يقاتلونهم به، وهم قادرون على عكس ذلك إذا أنصفونا من أنفسهم ببناء التعاون بيننا على اعترافهم باستقلالنا كاستقلالهم". وأضاف رضا: "إنني لا أكتف عكك أنني ما زلت أرجح الترك على الإفرنج كافة، وإن ظلمونا واحتقرنا وبغوا علينا وأعرضوا عنا وأسمعونا أذى كثيراً"، وأرجح أن يعود الترك سائدين حاكمين لبلادنا على بقاء الإفرنج فيها بأي اسم من الأسماء أو صفة من الصفات"⁽⁶⁶⁾.

بينما انتهت مصادر أخرى في الاستخبارات البريطانية من أن دسياسة كمالية تقف خلف إعلان الحسين الاستقلال العربي بما فيه فلسطين، أو بالأحرى كانت متيقنة من أن الكماليين يشجعون الحسين على إعلان الاستقلال العربي، عبر الشيخ عبد القادر المظفر المقدسي عضو اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني والصدیق المقرب من الحسين ومن مصطفى كمال في آن واحد، والذي وصفته التقارير بـ "الفلسطيني المتطرف"، وبلهجه العلني باسم مصطفى كمال في محيط الحسين؛ على نحو دفع البريطانيين إلى تهديده بالسجن عبر إسماعه "صليل مفاتيح زنزانة السجن" ومن ثم ترحيله عن الحجاز بينما استاء الحسين وفق تلك التقارير منه لقدومه "المفاجئ" إلى الحجاز، ومن "جهده الذي لم يكن يخفى لمراقبة الأمور"، وليس من الرسائل التي يحملها إلى الحسين من الكماليين⁽⁶⁷⁾.

3. تكذيب الحكومة البريطانية نص المعاهدة وتبرؤ الحسين من نصها المنشور

تخرج دراسة تفاصيل ذلك عن مجال البحث، لكننا نشير، بالنظر إلى أهمية آثارها في الأسابيع الأخيرة لنهاية أعمال مؤتمر لوزان، إلى أن الحكومة البريطانية كذبت الحسين، واتهمته بالتلاعب بنص المعاهدة، وأعلنت على الملأ رفض النص الذي أعلنه

63 جاء في المقالة: "هل يعقل أن تتراجع بريطانيا عن وعد بلفور بعد محادثات قصيرة مع ناجي الأصيل؟". وشككت في حرص بريطانيا على وحدة العرب، بينما تربط مشيختهم وحكامهم في الجزيرة العربية بها عبر اتفاقيات تكفل سيطرتهم عليهم. وطالبت الحسين بأنه كما طلب من الكماليين "أن يتنازلوا عن المطالبة بالموصل برهاناً على صدقهم في الاعتراف باستقلال العرب، فيجدر به أن يطالب حلفاءه البريطانيين بأن يتنازلوا ولو عن التدخل في شؤون الحجاز الصحية". **الأهرام**، العدد 14053، 1923/5/21، ورد في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 6، ص 230-232.

64 اعتبرتها "حركة بريطانية محضة تقوم إنكلترا بمساعدتها، لكن هذه الحركة التي تساعدها إنكلترا الآن قد رفضتها هي نفسها من قبل"، وخلصت المقالة إلى أن دافع سياسة بريطانيا اليوم تشكيل اتحاد عربي بهدف تكوين قوة منافسة للكماليين في الشرق بعد أن "أثبت الأتراك أنهم ذوو قيمة"، ولذلك فالاتحاد العربي لا يُقصد أن يكون للعرب بل بالأحرى ضد الأتراك". ينظر: من القنصل البريطاني في دمشق إلى وزير الخارجية، 1923/6/9، في: المرجع نفسه، ص 239-240.

65 رشيد رضا، "كيد السياسة البريطانية للعرب"، ص 148.

66 من رسالة رشيد رضا إلى شكيب أرسلان، 13 جمادى الآخرة 1341هـ / 30 كانون الثاني/يناير 1923، في: الأمير شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة (دمشق: مطبعة ابن زيدون، 1937)، ص 314-315.

67 تقرير جدة للفترة 1-29 أيار/مايو 1923، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 6، ص 234.

الحسين لها، ونشرت النص المعتمد من جانبها، وفيه اعتراف بالانتداب البريطاني ووعده بلفور، وأنها لم تبرم، وأن البحث جارٍ في التعديلات التي طلب الحسين إدخالها عليه⁽⁶⁸⁾، "فقامت الدنيا على الحسين ولم تقعد"⁽⁶⁹⁾.

وتصدر رشيد رضا في اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني الحملة على الحسين، ووصمه بـ "الخيانة" وبـ "الارتداد" عن الإسلام إن وقعها، كما وصمها بـ "المعاهدة المشؤومة". ولم يكن هذا موقف رضا منها فحسب بل شجبها أيضاً المؤتمر العربي الفلسطيني السادس المنعقد في يافا، وشجبتها في 20 حزيران/ يونيو 1923 اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني⁽⁷⁰⁾، وكانت حملة رضا متأثرة إلى حد بعيد بتحيزه لابن سعود ضد الحسين، وبرهان اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني على الموقف التركي بضمان استقلال العرب.

لكن الحسين تبرأ على الملأ من النص الذي نشرته الحكومة البريطانية، وكذبه، ووصفها بأنها "معاهدة مزعومة"⁽⁷¹⁾. وانتهاز فرصة الحج ليتبرأ مما نشر، وقال إنه عدل المعاهدة تعديلاً مهماً على نحو نصت فيه "على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً مطلقاً" يخول الفلسطينيين إدارة بلادهم بأنفسهم، واختيارهم طريقة الحكم التي يريدونها، وبذلك جعلت وعد بلفور في حكم أنه لم يصدر وقضي عليه بالموت". وخاطب الحسين كبار الحجاج قائلاً: "أؤكد لكم أنه إذا لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التي طلبتها فلا يمكن أن أوقع على المعاهدة بل أرفضها رفضاً باتاً"، وأوفد مندوباً رسمياً منه إلى فلسطين لتأكيد ذلك للجنة التنفيذية العربية⁽⁷²⁾. وبغض النظر عن مكائد خصوم الحسين في اللجنة التنفيذية له، واستغلالهم أي شاردة وواردة ولو كانت من نوع "حاطب ليل" للنيل منه، فإن الحملة دفعت الحسين إلى تصليب موقفه من المشروع البريطاني، وتجذيره بصورة أشد، وخفف بذلك من آثار الحملة. ونقلت التقارير البريطانية في حزيران/ يونيو 1923 أنه يبدي حرصاً "مرضياً" "على سمعته في العالم الإسلامي كمرأة معادية للأوروبيين والمسيحيين"، وأن "كل الذين في البلاد العربية ضد النفوذ الأوروبي يؤيدونه في تصليه ويجدون في رسائله وتصريحاته أسلحة ضد البريطانيين، لكنه في حال توقيعه على مشروع المعاهدة سينفضون عنه"⁽⁷³⁾.

4. نهاية الحسين

تجاوز الحسين قواعد اللعبة البريطانية إلى تحدّيها على أكثر من مستوى؛ ما جعل الإنذار البريطاني الصريح يتحول من الإشهار الفاقع للبطاقة الحمراء إلى طرد الحسين من اللعبة نفسها، ورميه خارجها. وترابط موقفه من الأتراك مع تعنته في رفض الاتفاقية البريطانية - الحجازية.

68 سعيد، مج 3، ص 168-170؛ سليمان موسى، **الحركة العربية: سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924**، ط 3 (بيروت: دار النهار، 1986)، ص 630.

69 قادت صحف القاهرة ومجالاتها مثل **المقطم والأهرام والمنار** الحملة على الحسين، وكانت هذه الحملات شديدة حتى إن التقارير البريطانية قدّرت أن "من شأنها منع الملك حسين من توقيع أية مسودة تقدم له". ينظر: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 6، ص 218؛ في أيار/ مايو اشتدت حملة الصحف المصرية لا سيما **المقطم والأهرام** على الحسين. ينظر: المرجع نفسه، ص 228-231؛ وعلقت **الأهرام** على مشروع المعاهدة: "أهذه وعود ملك الحجاز على صفحات القبلية إنه لا يريد للعرب سوى الاستقلال، وهل هذا الاستقلال الأعرج هو الاستقلال الذي يسعى لأجله خمس سنوات، ولأجله حارب الأتراك وأعلن الثورة عليهم". ينظر: المرجع نفسه، ص 229؛ وبات في دورة "عذاب شديد حين يأتي كل بريد قادم بحملة من الرسائل المغفلة والشتم الصحفي، وغدا متوتر الأعصاب". ينظر: من وكيل القنصل والمعتمد البريطاني في جدة إلى وزير الخارجية، 1923/6/4، في: المرجع نفسه، ص 218-219، 230-231.

70 وصفها رضا بـ "المعاهدة المشؤومة" لما تضمنته من الاعتراف بالوضع الخاص لبريطانيا في فلسطين والعراق وبنود أخرى، وأنها "جديرة إن أمضيت بأن تجعل ذكرى خزيها مناحة ومأثماً"، وأن الحسين بإقراره لها "يعد ارتداداً عن الإسلام بإجماع المسلمين، ولا يوجد عالم مسلم يمكن أن ينازع في هذا بعد العلم". ينظر: "المعاهدة البريطانية - الحجازية وخدمة الوحدة العربية (2)"، **المنار**، مج 24، ج 7 (29 ذي القعدة 1341هـ - تموز/ يوليو 1923)، ص 532-542.

71 **القبلية**، العدد 713، 9 آب/ أغسطس 1923، ص 2-1.

72 سعيد، مج 3، ص 172-173.

73 من وكيل القنصل والمعتمد البريطاني في جدة إلى وزير الخارجية، 1923/6/4، في: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)**، مج 6، ص 216-222.

وحين كاد مؤتمر لوزان الثاني ينهي أعماله بتوقيع آخر معاهدة للحلفاء، وهي معاهدة الصلح مع تركيا، جددت جريدة القبلة رفض الحسين مشروع المعاهدة البريطانية - العربية، بينما كان مؤتمر لوزان يكاد ينهي أعماله بتوقيع المعاهدة (24 تموز/ يوليو 1923) وعقلت الجريدة على ذلك بقولها: "إن الحسين بن علي لم يتوقف عن إمضاء المعاهدة [...] فقط، بل رفض قبلها معاهدة فرساي أيضاً، لإسقاطهما الحقوق المعترف بها لبلاده وأبناء قومه، وعداه، فبولائكم [...] ووفائكم يعز علينا بحثكم في تردده عن إمضاء المعاهدة المذكورة، وعهودكم المعلومة له، ضربتم بها عروض الحيطان". واعتبر الحسين أن توقيعه مشروع المعاهدة يخل بأسس اتفاقه مع الحكومة البريطانية، التي أكدت أن مقاصدها تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة للحفاظ على كيان للعالم الإسلامي بالنظر إلى ما حل وما سيحل بها، ولحماية العظمة البريطانية من الاستهداف، وسلامته "من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة"، وقال إن تعديل هذه المقاصد "طمس صحيفة تاريخي، فهو يزيلني ويسقطني من ثقة واعتماد بلادي وأقوامي الأقربين حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التي أعلنتها لهم" (74).

وبعد نهاية أعمال مؤتمر لوزان ووضع معاهدته، انزعج الملك الحسين انزعاجاً شديداً منها، واحتج عليها لدى الحكومة البريطانية، واتهمها بعقد صلح منفرد، وبخذلانها للعرب، ونكثها بعهودها لهم (75). وصدرت جريدة القبلة حاملة افتتاحية تهاجم الحلفاء لعقد صلح أغفلت فيه مصالح العرب، ونقلت التقارير البريطانية أن الحسين قد أخذ يجاهر من يستقبلهم بالتكلم "بشدة ضد حكومة صاحب الجلالة"، "متهمًا إياها بنقض وعودها بخصوص الصلح" المنفصل "مع الأتراك وشؤون أخرى" (76). وأصيب أشد المتحمسين للرهان على الكماليين، وهو شكيب أرسلان، بخيبة أمل شديدة، ويكتب أرسلان في رسالته المؤرخة يوم 9 أيلول/ سبتمبر 1923 من لوزان إلى رشيد رضا ما يلي: "وأما الترك فكما قلت لا أمل بهم البتة، ومرادهم - أي حكومة أنقرة الحاضرة - مخاصمة العرب، وإيذاؤهم بأي وجه كان، أي سياسة أهواء وطيش ونزف، فعلى العرب أن يتركوهم، وينظروا إلى أنفسهم، فمتى رأى الترك أن العرب انتظمت حالهم جاؤوا هم يخطبون ودّهم" (77).

وأبدى الحسين تمنعاً أكبر عن توقيع المسودات الجديدة لمشروع المعاهدة البريطانية - العربية، فأخذ يضع شروطاً إضافية لدى أي تقدم في مراحل التسوية، وبحلول 12 أيلول/ سبتمبر 1923 كانت المفاوضات "قد تعثرت بشدة" أكثر من قبل (78). وأثرت متغيرات أخرى في قطع بريطانيا ورقة الحسين، والتخلص منه، لا تتسع الدراسة لتحليلها، لكننا نشير إلى عنوان المتغير الجديد، وهو رفض المشاركة في مؤتمر الكويت الذي حددت الحكومة البريطانية موعداً لانعقاده في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1923،

74 "إنكلترا وملك الحجاز"، القبلة، العدد 602، 13 تموز/ يوليو 1922، ص 1-2.

75 وجه الحسين نداء مطولاً إلى الحكومة البريطانية "وساستها وكافة الشعب البريطاني" ونشره في جريدة القبلة، وأعرب فيه ضمناً عن رفضه نتائج مؤتمر لوزان، معتبراً أن بريطانيا أخلفت وعودها للعرب بشأن عدم عقد أي صلح مع تركيا ما لم يكن من مواده استقلال البلاد العربية، بينما رفض العرب عرض مثل هذا الصلح المنفرد مع تركيا بضمانة ألمانية يوم كان الوضع العسكري لقوات الحلفاء حرباً. وناشد بريطانيا بشعور عارم بالمرارة، أن تفي بوعودها لحلفائها العرب الذين "أصبحت وحدتهم ممزقة، وبلادهم محتلة متفرقة، مما جعل العالم الإسلامي خصوصاً، بل أكثر أقوامي أيضاً، يرميني ويتهمني بأنني بعت البلاد لبريطانيا وحلفائها"، وأنهى رسالته بأنه ليس "بمقام المنذر بل المذكر"، وأنه "قد طفح الكيل، وبلغ السيل الزبي". ينظر: "المنشور الملوكي الهاشمي إلى فخامة وزراء العظمة البريطانية وعظماؤها وساستها وكافة الشعب البريطاني النجيب"، في: القبلة، العدد 754، 7 كانون الثاني/ يناير 1924، ص 1؛ مطابق للوثيقة المحفوظة في الأرشيف البريطاني تحت عنوان "المنشور الملكي الهاشمي إلى عموم الشعب النجيب البريطاني"، 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1923، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 7: 1923-1924، ص 362-365.

76 من القنصل بولارد في جدة إلى اللورد كيرزون وزير الخارجية، 1923/8/29، تقرير جدة للفترة 30 تموز/ يوليو 1929- آب/ أغسطس 1929، في: المرجع نفسه، ص 291-292.

77 الأمير شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة: ملاحق الرسالة من رسائل الأمير شكيب إلى رشيد رضا، قدم له وجيه كوثراني، ج 3 (بيروت: الدار التقديمية، 2010)، ص 49.

78 من وزير المستعمرات إلى المقيم السياسي في الخليج العربي، 1923/9/12، في: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مج 6، ص 299.

لـ"مناقشة المشاكل بين نجد من جهة وبين العراق وشرقي الأردن من الجهة الأخرى، والتهيئة للبحث في المشاكل النجدية-الحجازية"⁽⁷⁹⁾. واقتُرحت وزارة المستعمرات على وزارة الخارجية في 5 كانون الأول / ديسمبر 1923 ثلاث طرائق للضغط على الحسين؛ الأولى: "التهديد بالتشهير، مما يضر بنفوذه، والثانية: التهديد بعرقلة الحج مما يؤثر في إيراداته، والثالثة: التهديد بأن حكومة صاحب الجلالة ستتغاضى عن خطط ابن سعود العدوانية"⁽⁸⁰⁾، وهو ما حدث. وفي 3 تشرين الأول / أكتوبر 1924، قضى الأمر بنتيجة نجاح الهجوم السعودي على الحجاز وانهزام قواته، وتنازل الملك الحسين عن العرش لابنه الأمير علي، الذي سيتقوض عرشه من ثم بتأثير ابن سعود في طموحه إلى بناء دولة مركزية في الجزيرة العربية. وفي 18 حزيران / يونيو 1925، أبعثت بارجة بريطانية الحسين إلى منفاه في قبرص، وتوفي في 4 حزيران / يونيو 1931، ودفن في ساحة الحرم الشريف في مدينة القدس.

79 من وزارة الخارجية إلى المستر بولارد في جدة، 1923/11/1، في: المرجع نفسه، مج 6، ص 355؛ تقرير جدة للفترة 1 تشرين الثاني / نوفمبر 29- تشرين الثاني / نوفمبر 1920، في: المرجع نفسه، ص 369.

80 من وزارة المستعمرات إلى وزارة الخارجية، 1923/12/5، في: المرجع نفسه، ص 372-373.

المراجع

العربية

- أرسلان، الأمير شكيب. السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة. دمشق: مطبعة ابن زيدون، 1937.
- _____ . السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة: ملاحق الرسالة من رسائل الأمير شكيب إلى رشيد رضا. قدم له وجيه كوثراني. ج 3. بيروت: الدار التقدمية، 2010.
- بيل، غرترو. العراق في رسائل المس بيل. ترجمه وعلق عليه جعفر الخياط. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2003.
- تمبرلي، هارولد وأ. ج. غرانت. أوروبا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين 1789-1950. ترجمة محمد علي أبو درة ولويس إسكندر. ج 2. القاهرة: منشورات سجل العرب، 1967.
- الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز). مج 6: 1921-1922. اختيار وترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة. بيروت: دار الساقى، 2004.
- الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز). مج 7: 1923-1924. اختيار وترجمة وتحرير نجدة فتحي صفوة. بيروت: دار الساقى، 2007.
- حسين، فاضل. مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية - الإنكليزية - التركية وفي الرأي العام. ط 2. بغداد: مطبعة أسعد، 1967.
- رافق، عبد الكريم. دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث. دمشق: مكتبة نوبل، 2002.
- رضا، رشيد. "كيد السياسة البريطانية للعرب". المنار. مج 24، ج 2 (30 جمادى الآخرة 1341 / 16 شباط / فبراير 1923).
- الرئيس، منير. الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي: الثورة السورية الكبرى. بيروت: دار الطليعة، 1969.
- سعيد، أمين وكريم خليل ثابت. سيرة مصطفى كمال باشا وتاريخ الحركة التركية في الأناضول. القاهرة: إدارة دار اللطائف، 1922.
- سعيد، أمين. الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن. مج 3: إمارة شرق الأردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهاشمية وثورته الشام. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1934.
- صالحية، محمد عيسى. صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا: وثائق من تاريخ السيد أحمد الشريف السنوسي 1292-1350هـ-1875-1933م. سلسلة حوليات كلية الآداب. الحولية 1. الكويت: كلية الآداب - جامعة الكويت، 1980.
- فشر، هيربرت أ. ل. تاريخ أوروبا في العصر الحديث 1789-1950. ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. ط 9. القاهرة: دار المعارف، 1993.
- لازاريف، م. س. المسألة الكردية 1917-1923. ترجمة عهدي حاجي. بيروت: دار الفارابي؛ أربيل: دار أراس، 2013.
- المراسلات التاريخية. مج 3: 1920-1923: الثورة العربية الكبرى. سليمان موسى (محرر). عمان: [د. ن.]، 1975.

موسى، سليمان. الحركة العربية: سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924. ط 3. بيروت: دار النهار، 1986.

الأجنبية

Kinross, Patrick. *Atatürk: The Rebirth of a Nation*. London: Phoenix, 1995.

Mango, Andrew. *Atatürk*. London: John Murray Publishers, 1999.

وثيقة تفريق السلطنة عن الخلافة "الخلافة وسلطة الأمة" سياقها التاريخي وتداعياتها في الفكر العربي الإسلامي

Separating Sultanate from Caliphate

The Historical Context and Consequences of "The Caliphate and the Authority of the People" for Arab-Islamic Thought

تتناول هذه الدراسة وثيقة "الخلافة وسلطة الأمة" على نحو تُقرأ فيه بوصفها دراسة تاريخية وفقهية وقانونية؛ وذلك انطلاقاً من فرضية أنها شكّلت التمهيد النظري والأيدولوجي لإلغاء الخلافة، بعد توقيع معاهدة لوزان. وتستند الدراسة في ذلك إلى السياق التاريخي لدعوة "تفريق السلطنة عن الخلافة" من خلال تلك الوثيقة وأهم ما تضمّنته من أفكار، وتداعيات "التفريق"، ثم "الإلغاء"، على الفكر العربي الإسلامي من خلال نموذجين، هما: محمد رشيد رضا وعلي عبد الرزاق. وتخلص إلى أن ردّات الفعل السياسية والأيدولوجية والدينية وإن تركّزت لاحقاً في قرار إلغاء الخلافة، فإن دور وثيقة "الخلافة" الضمني المحوري، بوصفه بردياً بحثياً، لدى المفكرين والباحثين والفقهاء في العالم الإسلامي كان بيئياً، وذا تأثير مهم في إثارة نقاشات بينهم.

كلمات مفتاحية: الخلافة، السلطنة العثمانية، مصطفى كمال أتاتورك، العلمانية، الفكر السياسي الإسلامي.

This study examines the memorandum "The Caliphate and the Authority of the People" as a historical, jurisprudential, and legal study. It argues that this study laid the theoretical and ideological groundwork for the abolition of the caliphate after the signing of the Treaty of Lausanne. The papers three sections consider the historical context of the document's call to "separate the sultanate from the caliphate"; its most important ideas; and the consequences of separation, then abolition for Arab-Islamic thought, via the models of Muhammad Rashid Rida and Ali Abdel Raziq. The study concludes that although political, ideological, and religious reactions would subsequently centre on the abolition of the caliphate, the crucial implicit role of the document (as a research paradigm) among intellectuals, scholars, and jurists in the Islamic world has been obvious and of great consequence in opening discussions between them.

Keywords: Caliphate, Ottoman Sultanate, Mustafa Kemal Atatürk, Secularism, Islamic Political Thought.

* أستاذ التاريخ في معهد الدوحة للدراسات العليا.

Professor of History at the Doha Institute for Graduate Studies.

wajih.kawtharani@dohainstitute.org

مقدمة

في الوقت الذي تشردت فيه الحركة العربية المشرقية مع الاحتلالين الإنكليزي والفرنسي للبنان وسورية وفلسطين والعراق وبرزت مشاريع الدول متقاطعة مع الحدود الجغرافية المصطنعة للتقسيم ومرتكزة على قوى محلية تسعى لبناء سلطاتها في مناطقها، كانت الحركة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال تشق طريقاً سيكون له خلال السنوات القليلة التي أعقبت هزيمة الدولة العثمانية الدور الحاسم في الوجهة التي اتخذتها صيغة بناء الدول "المحدثة" في المنطقة، وفي تعيين اتجاهات الدائل التي قدّمها الخطاب السياسي الذي رافق عملية البناء، وذلك إما من موقع الهزّة التي أحدثتها في النفوس تدابير مصطفى كمال إثر معاهدة لوزان، وإما من موقع الاقتداء بأول تجربة قومية علمانية في العالم الإسلامي.

على أنّ وقائع (غير مرئية للعيان) وهي من طبيعة ما سمّاه "المؤرخون الجدد" التاريخ اللاحثي أو تاريخ الأفكار والعقليات لم يجرّ الانتباه لها ولأهميتها في فعل التغيير. ومن ذلك ما جرى على الساحة الفكرية والفقهية من مناظرات ومناقشات وجدال. واللافت للانتباه، في هذا المجال، المعركة الفكرية والفقهية التي خاضها مصطفى كمال عام 1922، بعد انتصاراته العسكرية خلال سنوات ثلاث (1919-1922) على الاحتلال الفرنسي والإنكليزي واليوناني والإيطالي. وتمثلت هذه المعركة في تشكيل حكومة منبثقة من "المجلس القومي" كان من مهماتها نزع صفة "السلطان - الخليفة" من السلطان وحيد الدين؛ أي عملياً نقل صلاحياته السياسية ومهماته بموجب قرار 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922 باعتباره سلطاناً إلى مؤسستَي المجلس القومي (البرلمان) والحكومة، والإبقاء على صفته الدينية البحتة (خليفة). وتزامن القرار مع إصدار وثيقة هي في الواقع دراسة تاريخية وفقهية وقانونية، بعنوان "الخلافة وسلطة الأمة"، كتبها مجموعة من الفقهاء والقانونيين كلّفها مصطفى كمال بالمهمة، وتبيّن تلك الدراسة شرعية "تفريق السلطنة عن الخلافة" ومشروعيتها، وكان لها الأثر البالغ في إطلاق نقاشات بين فقهاء ومفكرين في العالم الإسلامي.

تتمثل فرضية هذه الدراسة في أنّ تلك الدراسة شكّلت التمهيد النظري والأيدولوجي لإلغاء الخلافة بعد توقيع معاهدة لوزان. وإذا تركّزت لاحقاً ردّات الفعل السياسية والأيدولوجية والدينية في قرار الإلغاء، فإنّ دورها الضمني المحوري في وسط المفكرين والباحثين والفقهاء في العالم الإسلامي كان بيّناً وواضحاً.

أولاً: السياق التاريخي لدعوة "تفريق السلطنة عن الخلافة" في وثيقة "الخلافة وسلطة الأمة"

عندما نزل مصطفى كمال في سامسون كان مكلفاً بمهمة تنظيم التراجع وحلّ المقاومة، لكنه في حزيران/ يونيو 1919 خالف الأوامر الصادرة إليه وبدأ ينشئ المقاومة الجديدة وينظمها.

في هذا الوقت كان الغرب مشغولاً بتقسيم أملاك "الإمبراطورية"؛ إذ فُرضت على السلطان معاهدة سيفر، وكان يمكن، لو أنّها طبّقت، أن تقسم تركيا ويتحول ما تبقى منها إلى مناطق وصاية⁽¹⁾، شأنها في ذلك شأن الولايات العربية في المشرق، لكن شيئاً من هذا لم يُطبّق؛ إذ كانت دولة جديدة، كما يقول برنارد لويس، قد بدأت تتكوّن في الأناضول⁽²⁾.

1 معاهدة سيفر، فُرضت على السلطان العثماني محمد السادس، وبموجبها تنازل عن تراقيا وإزمير وجانب من الدردنيل لليونان. ونصّت المعاهدة على تأليف دولة أرمنية مستقلة في الأناضول الشرقي، وعلى إمكانية قيام دولة كردية في كردستان بحكم ذاتي. وأعطيت إيطاليا جزيرة رودس وجزر الدوديكانيز، إلى جانب بنود أخرى "قاسية". للمزيد عن توسيع بنود هذه المعاهدة والمواقف منها، ينظر: أمين محمد سعيد وكريم خليل ثابت، *مسيرة مصطفى باشا وتاريخ الحركة التركية الوطنية في الأناضول* (القاهرة: مجلة اللطائف المصورة، 1922)، ص 33؛

Maurice Baumont, *La faillite de la paix* (1918-1939) (Paris: P.U.F., 1967), pp. 178-179.

2 Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, 2nd ed. (London: Oxford University Press, 1968), pp. 237-242.

ارتبط المسار الذي قطعه هذا التكوّن بمسار حرب التحرير التي قادها مصطفى كمال، فبعد أن نظّم كوادري جيشه، أخذ يرسل البرقيات إلى عدد من الشخصيات في الأستانة (إسطنبول) طالباً إليها عقد اجتماع للبرلمان لإقرار حقوق الأمة وإعلانها للعالم كله بعيداً عن كل ضغط خارجي.

وعُقد في 23 تموز/ يوليو 1919 مؤتمر لمدنوبي المناطق الشرقية انتخب مصطفى كمال رئيساً له، وأصدر بياناً عُرف فيما بعد باسم الميثاق المَلّي. ولم تكن المقررات السياسية الصادرة عن هذا المؤتمر واضحة وموحّدة في بادئ الأمر؛ إذ عبّر المؤتمر عن ولائه للسلطان وسخطه على الحكومة في آن معاً، وكذلك فعلت القيادات العسكرية في البرقيات التي أرسلتها إلى إسطنبول. واستطاع مصطفى كمال عبر المؤتمر، الذي سُمّي فيما بعد بـ "جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والرومللي"، أن يحصل على أغلبية المقاعد في البرلمان 1920، الذي أقرّ الميثاق المَلّي وصاغ المطالب الرئيسة للسيادة الإقليمية والاستقلال الوطني.

ردّ السلطان بأن حلّ البرلمان وشنّ هجوماً عنيفاً على القوميين، استعمل فيه الأسلحة المتوافرة كافةً، وحكم عليهم بالإعدام غيائياً بعدما أصدر شيخ الإسلام فتوى تجيز قتلهم. أما القوميون فكان ردهم مرناً؛ إذ اكفوا باستصدار فتوى مضادة من جانب مفتي أنقرة تعلن "بطلان فتوى شيخ الإسلام وتدعو إلى تحرير الخليفة من الأسر"⁽³⁾. وفي الواقع كان ارتهان السلطان للقوى الأجنبية في إسطنبول ينزع من مركزه شرعية تمثيله للمسلمين في تركيا وسائر أنحاء العالم الإسلامي. وفي المقابل وفي سياق الانتصارات التي أحرزها مصطفى كمال ضد الاحتلال الأجنبي، ازداد الالتفاف الشعبي حول زعامة هذا الأخير. فخلال سنوات ثلاث جرى الانتصار على اليونانيين، وانسحب الفرنسيون من كيليكيا، وكذلك الإيطاليون من جنوب الأناضول، والبريطانيون من الدردنيل. وتوجت هذه الانتصارات بمعاهدة لوزان التي أقرّت السيادة التركية على مجمل أراضي الجمهورية التركية الحالية تقريباً. فهذه المعاهدة تشكّل من هذه الناحية اعترافاً دولياً بمطالب الميثاق المَلّي. وبهذا تكون تركيا، كما يقول لويس، "الدولة المهزومة الوحيدة التي فرضت شروطها على المنتصرين"⁽⁴⁾.

وتمثّل معاهدة لوزان، من ناحية أخرى، خطأً محدداً لنهاية مرحلة تاريخية كانت تطرح فيها وفي سياق حرب التحرير التي قادها مصطفى كمال احتمالات جديدة ورهانات لبروز قيادة إسلامية – تركية للشعوب الإسلامية التي خضعت للاحتلال الأجنبي بعد الحرب العالمية الأولى⁽⁵⁾. فصيغة الجهاد التي استثمرها مصطفى كمال في حربه ضد الاحتلال الأجنبي، وتوجهه لدعم انتفاضات الشمال السوري في بادئ الأمر، وتشجيعه الضمني على وفاقٍ عربي – تركي⁽⁶⁾، وعدم كشف مخططة القومي العلماني خلال السنوات الثلاث، بل مهادنته الظاهرة للسلطان والإسلام⁽⁷⁾، كل هذا أدى إلى رهانات سياسية في المشرق العربي تمثلت في تحريم علماء العراق التصدي للأتراك في الموصل⁽⁸⁾، والرهان على قيادة مصطفى كمال في تشكيل جبهة عربية – تركية معادية لـ "الغرب الاستعماري"⁽⁹⁾، وعلى تنصيبه زعيماً إسلامياً وإحياء منصب الخلافة وجعلها في تركيا كما هي حال دعوة رضا، والاقتراء بالثورة الكمالية في بناء الدولة،

3 Ibid., pp. 247-249.

4 Ibid., pp. 249-250.

5 قارن بـ: لوثرروب ستودارد، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات بقلم شكيب أرسلان، مج 2، ج 4، ط 4 (بيروت: دار الفكر، 1972)، ص 149.

6 المرجع نفسه، ص 151.

7 R. Peters, *L'histoire des turcs: De l'empire à la démocratie* (Paris: Payot Nevers, impr. Chassaing, 1942), p. 142.

يقول مصطفى كمال في مذكراته: "كانت مشكلة شكل الحكم في ذلك الحين صعبة، وقبل أن أقترح وضع الحكومة المؤقتة، كان عليّ أن أحسب حساباً للمجلس القومي والشعور الذي يبدو من جماعتي وأنصاري، وكان عليّ أن أَرْضخ لأرائهم وأن أخفي أغراض الحقيقة عنهم بحكم الضرورة". وعندما صرّح له بعض أتباعه فيما بعد بأنهم خدعوا، ذكر لهم "أنهم لو كانوا قد تنبهوا قليلاً لأمكنهم أن يلاحظوا فوراً بأن قرارات أيار كانت لا تعني شيئاً غير تأسيس الحكم الجمهوري". ينظر: ميكوش (داجوبرت فون)، **مصطفى كمال: المثل الأعلى**، ترجمة كامل مسيحة (بيروت: المكتبة الأهلية، 1933)، ص 211-213، 266-265.

8 Hans Kohn, *A History of Nationalism in the East* (London: George Routledge and Sons, Ltd, 1920), p. 312.

9 قارن بـ: شكيب أرسلان، **السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** (دمشق: مطبعة ابن زيدون؛ القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1937)، ص 315-318.

حتى "خية الأمل" بالنسبة إلى الإسلاميين أو "البشرى" بالنسبة إلى القوميين، وذلك بعد معاهدة لوزان وإعلان الجمهورية وتخلي مصطفى كمال عن شتى الأيديولوجيات الوحدوية التي رافقت حرب التحرير، من إسلامية وعثمانية وطورانية⁽¹⁰⁾، والاكتفاء ببناء الدولة القومية التركية التي نصت المعاهدة على حدودها.

وتضمنت بنود هذه المعاهدة مجالات تأسيس الدول في المناطق العربية "المحررة" وتوزيع "الجنسيات" أو "الهويات الوطنية" المختلفة Nationalites على أبنائها⁽¹¹⁾. وأتاحت حرية الحركة لمصطفى كمال أن يبدأ بناء الدولة القومية العلمانية في مشروع مصلحة مع الغرب تقضي بتخلي تركيا عن تاريخها العثماني، ودخولها بوصفها دولة رأسمالية وحديثة إلى العالم الغربي. وجاء في مذكرات رضا نور الذي رافق محادثات لوزان عن الجانب التركي ما يلي: "وبهذه المناسبة أذكر حادثة معينة: لقد كنت أول من تلفظ بهذه الكلمة في جلسات مؤتمر لوزان، إذ قلت: إن تركيا أضحت علمانية، وقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا ما تمّ الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية" ويضيف: "وكلامي هذا سُجل في محاضر الجلسات. وقد قلت هذا من أجل الدفاع عن مصالحنا في لوزان، وكانت هذه من أهم نقاط الارتكاز التي كنا نستند إليها في لوزان. وقد سبق أن وضعتُ شرط فصل الدين عن الدولة في التقرير الذي وضعته عن إلغاء السلطنة. وهذا الفصل هو أساس العلمانية"⁽¹²⁾.

والواقع أن الاعتراف الدولي بالميثاق المّلي في مؤتمر لوزان مهّد الطريق لقانون 1924 الذي ألغيت بموجبه الخلافة إلغاءً نهائياً، باعتبارها مؤسسة مناقضة لفكرة الدولة القومية التركية. وكان مصطفى كمال قد مهد لذلك بقانون تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1922 عندما اكتفى بتفريق السلطنة عن الخلافة، وإبقاء الخلافة مؤسسة دينية منفصلة عن الدولة، وذلك في محاولة لإلغاء مركز السلطان المستسلم، من دون أن يمسّ الشعور الديني الشعبي الموطّن آنذاك في حرب التحرير ضد اليونانيين والحلفاء.

وقدّم مصطفى كمال اقتراحه هذا إلى الجمعية الوطنية. وجرت نقاشات طويلة في الجمعية، بيد أنه حسمها عندما "ذكّرهم بأن مسألة سلطة الشعب قد حُسمت بالقوة وأنهم مجتمعون فقط لإيجاد صيغة التعبير السياسي عنها، وسواء أقرّت الجمعية ذلك أم لم تقرّه، فإن سلطة الشعب ستقوم، ولكن الفرق الوحيد هو في تدرج عدد من الرؤوس في حال عدم إقرار الجمعية لها [...] حسمت الجمعية قرارها بسرعة ورفض إجراء أي تصويت على القرار، بل قال إن الجمعية ستتخذ بالتأكيد قراراً بالإجماع"⁽¹³⁾.

أما "القرار-القانون" فقد تألّف من فقرتين: تعلن الفقرة الأولى أن الشعب التركي يعتبر أن شكل الحكم القائم على حكم الفرد لم يعد له وجود في تركيا، وتطلب الفقرة الثانية من الجمعية أن تنتخب الخليفة الجديد على أن يكون الأفضل في شخصيته وتعليمه من بين الأمراء العثمانيين⁽¹⁴⁾.

10 Lewis, p. 250.

11 تنص المادة 30 من المعاهدة على ما يلي: "إن الرعايا الأتراك المقيمين على الأراضي التي فصلت بموجب المعاهدة الراهنة عن تركيا لهم ملء الحق - وضمن شروط التشريع المحلي - في أن يصبحوا رعايا الدولة التي ألحقت بها تلك الأراضي". وتنص المادة 32 التي فسحت المجال أمام تنقلات عرقية عبر حدود الدول على أن "الأشخاص الذين تجاوزوا الثمانية عشرة والمقيمين على أرض فصلت عن تركيا بموجب المعاهدة القائمة، والذين يختلفون عرقاً عن أكثر السكان في الأرض المذكورة، يستطيعون في مهلة سنتين من إبرام هذه المعاهدة أن يختاروا جنسية إحدى الدول، حيث تكون الأكثرية من السكان من العرق الذي ينتمي إليه الشخص طالب الجنسية، وذلك شرط قبول الدولة المعنية بذلك". ينظر نصّ المعاهدة في ملحق كتاب:

Maxime Nicolas, *La Nationalité au Liban d'après le traité de Lausanne* (Lyon: BOSC Freres & Riou, 1928), p. 14.

12 الرجل الصنم: مصطفى كمال أتاتورك، حياة رجل ودولة، ترجمة عبد الله عبد الرحمن (بيروت: دار الرسالة، 1978)، والنص منقول عن: رضا نور، حياتي وذكراياتي، بالتركية. في: [Riza Nur, *Hayat Ve Hatıratım* (Ankara: İşaret Yayınları, 1967)].

13 اعتماداً على: 254-Lewis, pp. 250؛ ينظر أيضاً: سليم الصويص، أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها (عمّان: مطبعة شنلر، 1970)، ص 2-1.

14 Lewis, p. 254.

بين قرار تفريق السلطنة⁽¹⁵⁾، وفصلها عن الخلافة (4 تشرين الثاني / نوفمبر 1922) من جهة، وقرار إلغاء الخلافة من جهة أخرى، اتخذ مصطفى كمال عدة خطوات تمهيدية، كان أهمها وثيقة غير موقعة، ولكنها شبه رسمية، أعدتها مجموعة من العلماء بتوجيه أحد أعضاء البرلمان، وقد هدفت إلى تهيئة الرأي العام في تركيا والخارج لفصل الخلافة عن الدولة تمهيداً لإلغائها.

ثانياً: أهم الأفكار التي تضمنتها الوثيقة⁽¹⁶⁾

تكمّن أهمية هذه الوثيقة في أنها تشتمل على الحجج القانونية والفقهية التي اعتمد عليها الجمهوريون. وقد تُرجمت إلى الفرنسية وترجمها إلى العربية عبد الغني سني بك، السكرتير العام الأسبق لولاية بيروت والمقيم في القاهرة، ونُشرت في أحد أعداد **الأهرام** عام 1923 مرفقة بمقدمة كتبها سني بك، ثم صدرت عن دار الهلال بعنوان "الخلافة وسلطة الأمة" في عام 1924⁽¹⁷⁾.

تبدأ الوثيقة بالتعريف والتذكير بماهية الخلافة: "إن مسألة الخلافة في حد ذاتها هي من المسائل الفرعية والفقهية ومن جملة الحقوق والمصالح العامة المختصة بالأمة، ولا علاقة لها بالاعتقاد. فهي ليست من المسائل الاعتقادية. نعم إن علماء أهل السنة بحثوا بحثاً مستفيضاً عن هذه المسألة في كتب العقائد، لكن بحثهم عنها ليس لكون هذه المسألة من مسائلها، بل لإبطال الأفكار الباطلة ورد الخرافات التي أحاطت بهذه المسألة"⁽¹⁸⁾.

"خلاصة القول: إن الخلافة هي من الأمور الدنيوية أكثر من كونها من الأمور الدينية لذا ترك الرسول الأكرم أمرها إلى أمته ولم ينصب خليفة له ولم يوص به حين ارتحاله أيضاً". وتستشهد الوثيقة بسلسلة من الفقهاء في تعريف الخلافة، لتستنتج وتشدد على تعريف يقول إن "الخلافة هي استحقاق تصرف عام على المسلمين وهي تنتسب إلى باب الأحكام الفقهية وليس الاعتقادية. هي إذاً أحكام اجتهادية. وحيث إن الأحكام الاجتهادية لم تكن من الأحكام الإلهية يسوّغ للحكومة أن ترجع وتختار في أمر تنظيم القوانين الأصلح لحاجة العصر من بين المسائل الاجتهادية الفقهية التي اختلف فيها المجتهدون".

"إن الخليفة وبعبارة أخرى الإمام هو رئيس جمهور المسلمين ولم تكن ولايته العامة كولاية البابا الرومانية، بل إنها إدارية وسياسية كالولاية العامة الموجودة عند رئيس جمهورية أو ملك"⁽¹⁹⁾.

يتساءل كتاب الوثيقة: "ألا تبقى البلاد في حالة الفوضى والأمة في حال الاختلال؟"

تجتهد الوثيقة باستخلاص نتيجة لفكرة الوجوب (وجوب نصب خليفة) وفكرة عدم الوجوب في حال استحالة اكتمال الشروط وهو: "يجب نصب شخص وتأسيس حكومة، ولكن لا يقال لهذا خلافة، ولا لرئيسها خليفة بمعنى إمام. ولا إثم على الأمة الإسلامية لهذا"⁽²⁰⁾.

15 فهم بعضهم هذا "التفريق" بوصفه إلغاءً "للسلطنة"، والحقيقة أن المصطلح يثير التباساً بين معنيين؛ معنى إلغاء السلطنة بوصفها امتداد حكم "إمبراطوري" في الجغرافية السياسية في العالم الإسلامي، ومعنى آخر، هو أن ما مثله السلطان من مهمات حكم وصلاحيات رئاسة، انتقل إلى حكومة مصطفى كمال والجمعية الوطنية العامة (المجلس القومي).

16 اعتمدت في عرض أفكار الوثيقة (الخلافة وسلطة الأمة) على النص الذي حققته ونشرته في كتابي. ينظر: وجيه كوثراني، **الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا** (بيروت: دار الطليعة، 1996)، واعتمدت في ترقيم الاقتباسات على مكان ورودها في نسخة الكتاب المذكور، وأشارت إلى إحالاتها في متن النص.

17 وقد أشار إليها كتاب: علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم** (القاهرة: مطبعة مصر، 1925)، واستعار بعض المفاهيم والآراء الواردة فيها. يقول عبد الرازق في معرض حديثه عن صيغة الولاية للخليفة بصفتها عقداً مع الأمة يتضمن معنى العزل ما يلي: "ومن أوفى ما وجدنا في بيان هذا المذهب والانتصار له رسالة الخلافة وسلطة الأمة التي نشرتها حكومة المجلس الوطني الكبير بأنقرة ونقلها من التركية إلى العربية عبد الغني سني بك، وطبعها بمطبعة الهلال بمصر سنة 1342هـ/1924م".

18 كوثراني، ص 215.

19 المرجع نفسه، ص 220.

20 المرجع نفسه، ص 224.

على قاعدة هذا الشرح تقدم الوثيقة المدخل التاريخي التبريري للوصول إلى دعوة "جواز تفريق السلطنة عن الخلافة" (21).

خلاصة القول أن جمهور أهل السنة قالوا بوجوب نصب إمام مطاع في أمره ونهيه على الأمة الإسلامية، كما هو محرر في كتب علم الكلام. لكن إذا نظرنا إلى الدلائل المسرودة لإثبات هذا الواجب بنظر نافذ يرى أن الواجب واللازم هو تأسيس الحكومة، والذي لا يجوز هو عدم وجود حكومة وترك الأمة في حالة ارتباك وفوضى واختلال؛ لأنهم "جمهور أهل السنة" يعترفون صراحةً بأن المقصد الأصلي من نصب الإمام هو: سد الثغور وتجهيز الجيوش وإقامة الحدود، وقطع النزاع وفصل الخصام وإقامة الشعائر الدينية وأشباهها من الأمور العامة والمشاركة بين المسلمين. وكما يحصل هذا المقصد بنصب إمام عادل مدبر ذي نية خالصة، يحصل أيضًا بتأسيس حكومة - على أي شكل كانت - تكفل الضبط والربط والنظام، ولا تضيع حقوق الناس ولا تختل أمور الأمة ومصالحها فيها (22).

يقود ما سبق إلى طرح الأسئلة التالية: هل يجوز تقييد حقوق الخلافة وواجباتها؟ وإن كان جائزًا، فإلى أي حد يصل هذا الجواز؟ وبعبارة أخرى: هل يجوز تفريق السلطنة عن الخلافة؟

إذا تعذر وجود خليفة تتوافر فيه الشروط التي وضعها الفقهاء (جمهور أهل السنة) كما توافرت للخلفاء الراشدين (الأربعة)، وخامسهم عمر بن عبد العزيز، وإذا كان جميع من يسمون (خلفاء) (سمّوا أنفسهم أو سمّاهم آخرون)، من بني أمية إلى بني العباس وفي جميع عهود هؤلاء وأجيالهم (حتى نهاية عصر المماليك) وصولاً إلى العثمانيين، هم في حقيقتهم جميعاً ملوك وسلطين، فإنه، في الزمن الراهن، ومع تشكل الحكومات (الديمقراطية - التمثيلية)، أصبح من الجائز، بل من الواجب استبدال حكومات تختارها مجالس تمثيلية بسلطات الشخص الواحد.

وعلى هذا، يتضح أنه لا معنى للبحث في الخلافة في أيامنا، إذا أمعنا النظر في مضامين النصوص الصريحة وفي شروط الخلافة وأنواعها وفي سائر المباحث التي سبق ذكرها وتأمّلنا جميع أطرافها. ومسألة الخلافة في زماننا ليست إلا من المسائل السياسية. والمجلس الكبير المّلي، لعلمه وتقديره هذه السياسة لم يبلغ مقام الخلافة، بل ردّها إلى شكلها الذي كانت عليه في مصر، ووضعها بحال لا تضر فيها الأمة والبلاد بتصرفاتها الاستبدادية وأبقى السلطنة في يد الأمة التي هي صاحبها الحقيقية، ورضي بهذا الشكل صاحب الخلافة نفسه واستصوبه، كما جرت الحال من قبل في مصر، وأجازة أكابر الفقهاء، يومئذٍ، وفي جملتهم الإمام العز بن عبد السلام (23).

تستعيد الوثيقة الدعوة إلى إرجاع الخلافة إلى وضعها السابق (العثماني)، بحجة "عدم إثبات هذه المشروعة بالنصوص الشرعية"، "أما ما يتعلق بإرجاع الخلافة إلى وضعها الأصلي (الراشدي)، فالخلافة قد أخرجت عن وضعها منذ أيام معاوية بن أبي سفيان قبل ألف وثلاثمائة سنة ولم ترجع لأصلها بعدها. وردّها لوضعها الأصلي اليوم وإن أمكن عقلاً، لكن لا يمكن طبعاً وعادةً لتعذر جمع شروطه" (24).

وخلاصة الوثيقة، أن مسألة الخلافة ليست دينية، بل قانونية وضعية، والدليل أن الفقهاء السّنة يتحدثون عن مسألة الخلافة من دون ذكر الإمامة. فالخلافة تخضع لحقل القانون ويجب اعتبارها مسألة سياسية وإدارية وزمنية، على المسلمين أن يعالجوها مباشرة، كمعالجتهم "للولاية العامة الموجودة عند رئيس جمهورية أو ملك".

21 المرجع نفسه، ص 225.

22 المرجع نفسه، ص 233.

23 المرجع نفسه، ص 246.

24 المرجع نفسه.

ثمة دليل آخر مفاده أنه لا توجد إشارة دقيقة في القرآن ولا في الحديث تتعلق بمسائل الخلافة الأساسية، بل توجد نصائح عامة تتعلق بإطاعة متسلمي السلطة "أولي الأمر"، فالخلافة ليست فرضاً إسلامياً أساسياً، ولو كان الأمر على غير ذلك لورد في النص. فهي مجرد عقد "ولا تختلف عن الانتداب والتوكيل في شيء"؛ ومن ثم، يجب تطبيق كل قوانين الانتداب عليها. فالخليفة يمكن أن ينحى من الشعب، وبيعة أهل الحل والعقد تساوي الوكالة التي تمنحها الأمة، والخلافة ليست غاية في حد ذاتها، بل هي وسيلة لغاية، وهي ليست أكثر من شكل من أشكال الحكم التابعة لمقتضى الزمن والمصلحة العامة وأحوال الناس الاجتماعية، وأحكامها تتبدل بحسب تطورات هذه الأحوال والبواغث.

ثالثاً: تداعيات الوثيقة والتفاعل معها في نموذجين

1. محمد رشيد رضا ومسألة الخلافة

كتب محمد رشيد رضا⁽²⁵⁾، في عام 1922، سلسلة من المباحث في مسألة الخلافة، في مجلة المنار، ثم جمعها في كتاب الخلافة أو الإمامة العظمى. وكانت الظروف التي كُتبت فيها تدفع الفقيه إلى استعادة النص الفقهي الذي يرى في الخلافة الراشدية "نموذجاً" للخلافة الصحيحة، والتي هي ليست "سلطنة" أو "إمارة استيلاء" كما أوضحت نيابتها في نظرية الماوردي (974-1058)، أو "عصبة متغلبة" كما أوضحت في نظرية عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406). وهو إذ يرى في الأحداث التي تعصف بالعالم الإسلامي، وفي أحداث تركيا، مناسبة للتذكير بشروط الإمامة وبصفات أهل الحل والعقد المشروطة لاختيار الخليفة، وبشروط البيعة وواجبها، بعد أن يسقط من حسابه الرهان على إحياء الخلافة العثمانية التي قامت على التغلب ودخلت في "دار الجور والبغي"، مميّزاً بين نوعين من "خلافة الاضطراب": الخلافة التي تصدر عن أهل الحل والعقد ولو لم تتوافر فيها بعض الشروط، والأخرى التي تقوم على التغلب، يقول: "والفرق بين هذه الخلافة وما قبلها بعد كون كل منهما جائزاً للضرورة أن الأولى صدرت من أهل الحل والعقد باختيارهم لمن هو أمثل الفاقدين لبعض الشرائط، ولذلك فرضه المحقق [سعد الدين] التفتازاني (722-792هـ) قرشياً إذ القرشيون كثيرون دائماً وجزم طاعته مع فرض كونه ضعيفاً. وأما الثانية فصاحبها هو المعتدي على الخلافة بقوة العصبة لا باختيار أهل الحل والعقد له، لعدم وجود من هو أجمع للشرائط منه، فذاك يُطاع اختياراً، وهذا يُطاع اضطراراً"⁽²⁶⁾. ويضيف: "ومعنى ذلك أن سلطة التغلب كأكل الميتة ولحم الخنزير عند الضرورة تنفذ بالقهر وتكون أدنى من الفوضى. ومقتضاه أنه يجب السعي دائماً لإزالتها عند الإمكان، ولا يجوز أن توطن الأنفس على دوامها ولا أن تجعل كالكرة بين المتغلبين يتقاذفونها ويتلقونها"⁽²⁷⁾.

وفي نظر رضا ليست السلطنة العثمانية إلا شكلاً من أشكال سلطة التغلب الذي جازت إزالته. ولكن منذ سقوط رهانه على الاتحاديين "المتفرنجين" الذين أحيوا العصبة التركية في رأيه، ومنذ الإرباك الذي أحدثه مصطفى كمال في قراره جعل الخلافة

25 محمد رشيد رضا، ولد ونشأ في القلمون. اتصل بالإمام الشيخ محمد عبده في مصر، وتتلّمذ له. وأصدر مجلة المنار لبت آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي. وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ولما أعلن الدستور العثماني (1326هـ) زار بلاد الشام، واعترضه في دمشق، وهو يخطب على منبر الجامع الأموي، أحد أعضاء الإصلاح، فكانت فتنة عاد على إثرها إلى مصر، وأنشأ مدرسة "الدعوة والإرشاد"، ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها، وغادرها بعد دخول الفرنسيين إليها (1920)، فأقام في مصر مدة. ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، ثم استقر بمصر، ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 5، مج 6 (بيروت: دار العلم للملايين، 1980)، ص 361-362؛ مختارات سياسية من مجلة المنار، تقديم ودراسة وجيه كوثراني، ط 2 (بيروت: دار الطليعة، 1996 [1980]).

26 محمد رشيد رضا، الخلافة أو الإمامة العظمى، نص محقق في: وجيه كوثراني، الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا: رشيد رضا - علي عبد الرازق - عبد الرحمن الشهبندر، دراسة ونصوص (بيروت: دار الطليعة، 1996)، ص 74.

27 المرجع نفسه.

روحية - "دينية" وفَرَّقها عن السلطنة، يرى أنه استبدل في هذه المرة "نوع من التغلب بنوع آخر". يقول: "ألم تر إلى من استناروا بالعلم الاجتماعي (من الأمم) كيف هبوا لإسقاط حكوماتها الجائرة وملوكها المستبدين، وكان آخر من فعل ذلك الشعب التركي ولكنه أسقط نوعاً من التغلب بنوع آخر عسى أن يكون خيراً منه، وإنما فعله تقليداً لتلك الأمم الأبية، إذ كان جماهير علماء الترك والهند ومصر وغيرها من الأقطار يوجبون عليه طاعة خلفاء سلاطين بني عثمان ما داموا لا يظهرون الكفر والردة على الإسلام، مهما يكن في طاعتهم من الظلم والفساد وخراب البلاد وإرهاق العباد، عملاً بالمعتمد عند الفقهاء بغير نظر ولا اجتهاد" (28).

أفرد رضا فصلاً لبيان مفسدة إخراج الخلافة الإسلامية عمّا وضعها عليه الإسلام، وجعلها تابعة لقوة العصبية والتغلب، فهو يرفض رأي ابن خلدون قائلاً: إن "قاعدة ابن خلدون في العصبية مخالفة للإسلام". ويضيف: "خُدع كثيرون بمظهر ذلك الملك حتى حكيمنا الاجتماعي (ابن خلدون) الذي اغتر باهتدائه إلى سَنَةِ قيام الملك وسائر الأمور البشرية العامة بالعصبية فأدخل فيها ما ليس منها، بل ما هو مضاد لها، كدعوة الرسول (صلعم) فجعل مدارها على منعهم في أقوامهم وقوة عصبية عشائريهم معتمداً على حديث معارض بآيات القرآن الكثيرة، وبوقائع تواريخهم الصحيحة، وبنى على ذلك إلحاق الخلافة بالنبوة بما ليس عليه من ذلك. وإنما النبوة وخلافة النبوة هادمتان لسلطان العصبية القومية ومقررتان لقاعدة الحق" (29).

وهكذا ينطلق الفقيه من رفض الاعتراف بإسلامية الخلافة التي تقوم على التغلب والقهر والجور، من خلافة بني أمية حتى خلافة بني عثمان: "نعم - يقول - إن بعض كلام ابن خلدون في حكمه جعل الخلافة في قريش صحيح، وهو مكانتهم العليا في الجاهلية والإسلام التي لم ينازعهم فيها أحد من العرب، وأولى ألا ينازعهم فيها من يدين بالإسلام من العجم، وذلك من أسباب جمع الكلمة [...] وأما عصبية القوة الحربية فلم تكن علّة ولا جزء علّة لجعل الخلافة في قريش. لأن الإسلام قد قضى على هذه العصبية الجاهلية - يعترف ابن خلدون كغيره بذلك - فلا يمكن أن يجعلها علّة من علل شرعه القويم الذي مداره على جعل القوة تابعة للحق" (30).

أين هي "الخلافة الشرعية" التي يدعو إليها رضا في عام 1922 مستعيذاً النص الفقهي السني ومركزاً على مبدأ الشورى وصيغة "أهل الحل والعقد؟ ومن ثم، أين هم "أهل الحل والعقد" في ظرف تاريخي اتسم بالسيطرة الغربية المباشرة، وبالتفكك الاجتماعي - السياسي الذي يكرّس سلطات وإمارات بصيغة الدول الوضعية المحددة جغرافياً، وإقامة مشاريع دول وبرلمانات ودساتير في أقطار مصر والعراق وسورية، وأماكن أخرى؟ وأين هو مرشح الخلافة الذي يحوز شرط "وحدة الإمامة" في ظرف تطلع إلى زعامة العالم الإسلامي أكثر من زعيم: الملك فؤاد الأول (1868-1936)، والشريف حسين، وعبد العزيز بن سعود؟ (31)

يبدو أن استعراضاً لواقع الحال في البلدان العربية والإسلامية (32) يوصل رشيد رضا إلى موقف مماثل لموقف كاتب الوثيقة: "تفريق السلطنة عن الخلافة". ويبدأ الفصل "وحدة الإمامة بوحدة الأمة" بالتذكير أن "الشعوب الإسلامية قد مزقتها العصبية المذهبية ثم الجنسية (33)، واستحال أن يجتمع أهل الحل والعقد في البلدان الإسلامية على إمام واحد لا سيما

28 المرجع نفسه.

29 المرجع نفسه، ص 144.

30 المرجع نفسه.

31 قارن: أحمد الشرباصي، رشيد رضا: صاحب المنار، عصره وحياته ومصادر ثقافته (القاهرة: الشؤون العربية، 1970)، ص 50، 158-159؛ محمد عمارة، "مقدمة"، في: علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000)، ص 12-13.

32 رشيد رضا، ص 52-57.

33 المرجع نفسه، ص 52.

"البلاد الرازحة تحت أثقال السيطرة الأجنبية كمصر وسائر أقطار أفريقيا الشمالية وسورية والعراق". فهذه الأخيرة كما يقول "ليس لها من أمر حكمها أو حكومة دينها شيء وليس فيها جماعة تتصرف في ذلك بحل ولا عقد. فلو أن رؤساء الحكومة والشعب في قطر منها - وهم الذين كانوا لولا السلطة الأجنبية أهل الحل والعقد - أرادوا أن يبايعوا خليفة في بلاد الترك أو العرب مثلاً مبايعة صحيحة، وهي ما توجب عليهم أن يكونوا خاضعين لسلطانهم، مطيعين في أمورهم العامة لأمره ونهيه، ناصرين له على من يقاتله أو يبغى عليه، لما استطاعوا ذلك ولما أمكنهم أن ينفذوه دون إذن الدولة الأجنبية المسيطرة عليهم. وهي لن تأذن وإن كانت تدعي أنها لا تعارض المسلمين في أمور دينهم وأنها تاركة أمر الخلافة إليهم" (34).

ينبّه رضا إلى خطورة حماسة بعض الفقهاء لتعلقهم بمسألة البيعة حتى لو كان السلطان مستبداً فيقول: "إن جعل أحكام الضرورة في خلافة التغلب أصلاً ثابتاً دائماً هو الذي يهدم بناء الإمامة وذهب بسلطة الأمة المعبر عنها بالجماعة". وهو ينبّه أيضاً إلى أن هذا التعلق في الظرف الراهن، وقد فصل مصطفى كمال السلطنة عن الخلافة وحصر هذه الأخيرة بالأمور الروحية، يؤدي إلى إرضائهم بالخلافة الروحية بحيلة لفظية، كأن تشترط الحكومة الفعلية على من تسميه خليفة أن يفوض إليها أمر الأحكام كلها (35)، وكما هو حال وثيقة التفريق بين الخلافة والسلطنة.

وهو إذ لا يوافق على هذا الحل الذي يرتئيه بعض حزب "المتفرنجين" كما يقول، والذي يلتقي مع أهل القول بـ "إمامة الضرورة" من "الفقهاء الجامدين" يبقى مؤملاً أن يعود مصطفى كمال عن قراره فيدعو إلى تشكيل "حزب الإصلاح الإسلامي المعتدل"، هذا الحزب "الجامع بين الاستقلال في فهم الدين وحكم الشرع الإسلامي وكنه الحضارة الأوروبية" (36). وفي هذا الإطار يدعو رضا إلى اتحاد عقلاء الأقطار الإسلامية "لتكوين جماعة أهل الحل والعقد بما يتفقون عليه من النظام لأجل قيادة الرأي العام ولتكوين مؤتمر عاجل لأجل تقرير ما يتخذ من الوسائل الآن؛ ذلك أن "مسألة الخلافة كانت مسكوتاً عنها فجعلها الانقلاب التركي الجديد أهم المسائل التي يُبحث فيها" (37).

إن فصل الخلافة عن السلطنة لا يعني بالنسبة إلى رضا استدعاءً لموقف يقوم على الدفاع عن السلطان العاجز الذي لا تنطبق أحكام الإمامة عليه، بل مناسبة ملحة لـ "العمل على تجديد الخلافة الشورية على النموذج الراشدي". وبعد أن يفند "موانع جعل الخلافة في الحجاز" وفي الشريف حسين والتي أهمها كما يقول: "إن الملك المتغلب على الحجاز لهذا العهد يعتمد في تأييد ملكه على دولة غير إسلامية مستعبدة لكثير من شعوب المسلمين وطامعة في استعباد غيرها" (38)، يحاول بعد ذلك أن يقدم مرجحات الخلافة في بلاد الترك. وهذه المرجحات هي:

أ. "إن الترك الآن في موقف وسط بين جمود التقاليد وطموح التفرنج [...] وحضارة الإسلام وحكومة الخلافة هي وسط بين الجمود وبين حضارة الإفرنج المادية".

ب. "إن ما ظهر من عزم الحكومة التركية الجديدة وحزمها وشجاعتها وعلو همّتها وإقدامها يضمن بفضل الله تعالى نجاحها في إقامة هذا الإصلاح الإسلامي، بل الإنساني الأعظم بإقامة حكومة الخلافة الجامعة بين القوة والفضائل الإنسانية".

34 المرجع نفسه، ص 56.

35 المرجع نفسه، ص 65-66.

36 المرجع نفسه، ص 68.

37 المرجع نفسه، ص 62.

38 المرجع نفسه.

ج. "إن الدولة التركية الجديدة هي الدولة الإسلامية التي برعت في فنون الحرب الحديثة ويرجى إذا نجحت فيما تعنى به من الأخذ بوسائل الثروة والعمران أن تمكّنها مواردها من الاستغناء عن جلب الأسلحة وغيرها من أدوات الحرب بصنعها في بلادها فتزداد قوة على حفظ حكومتها وبلادها وتكون قدوة لجيرانها وأستاذًا لهم".

د. "إن جعل مقام الخليفة في بلاد الترك أو كفالتهم له يقوي هداية الدين في هذا الشعب الإسلامي الكبير وبحول دون نجاح ملاحدة المتفرنجين وغلاة العصبية الجنسية".

هـ. "لئن كان جهل العرب والترك في الزمن الماضي بمعنى الخلافة ووظائفها - ولا سيما جمعها لكلمة المسلمين - سببًا من أسباب تقاطعهما وتدابرهما التي انتهت بسقوط السلطنة العثمانية وباستيلاء الأجانب على قسم كبير من بلاد العرب والتمهيد للاستيلاء على الباقي، فإن ما نسعى إليه الآن سيكون إن شاء الله تعالى، أقوى الأسباب لجمع الكلمة والتعاون على إحياء علوم الإسلام ومدنيته مع استقلال كل فريق بإدارة بلاده مستمداً السلطة من الخليفة الإمام المجتهد في علوم الشرع الإسلامي المنتخب بالشورى من أهل الحل والعقد من العرب والترك وغيرهما من الشعوب الإسلامية بمقتضى النظام الذي يوضع لذلك" (39).

بعد هذا الاستعراض، يتقدّم رضا على الرغم من "ضعف أمله" كما يشير، ولكن من دون أن يتسرب اليأس إليه، بهذا الاقتراح: "على حزب الإصلاح أن يسعى لإقناع الترك أولاً بجعل الخلافة في مركز الدولة، فإن لم يستجيبوا فليساعدوا على جعلها في منطقة وسطى من البلاد التي يكثر فيها العرب والترك والكرد كالموصل المتنازع عليها بين العراق والأناضول وسوريا ويضم إليها مثلها من البلاد المتنازع فيها بين سوريا والأناضول وتجعل شقة حياد ورابطة وحل معنوي، في مظهر فصل جغرافي، فتكون الموصل اسمًا وافق المسمّى" (40).

والواقع أن رضا يحاول خلال هذه الفترة التي سبقت قانون إلغاء الخلافة أن يوظف أملاً - ولو كان ضعيفاً كما يقول - في احتمال عودة مصطفى كمال إلى الإسلام والانطلاق من الإنجاز الذي حققه في استقلال "تركيا" وتحييده عن حزب "المتفرنجين" و"ملاحدة الأتراك". ففي 30 كانون الثاني/يناير 1923 يبعث برسالة إلى صديقه شكيب أرسلان يذكر فيها أنه في حال فشل مؤتمر لوزان المرتقب، فسيصبح من الضروري ومن أجل مصلحة الأتراك "توثيق روابط الإخاء الديني بينهم وبين العرب" (41).

ويذهب إلى حد ترجيح الترك على الإفرنج فيكتب: "إنني لا أكتف عنك أنني ما زلت أرجح الترك على الإفرنج كافة وإن ظلمونا واحتقرونا وبغوا علينا وأعرضوا عنا وأسمعونا أذى كثيراً ولم يعذروا من تعلم منهم التعصب القومي (أي العرب) [...] أرجح أن يعود الترك سائدين حاكمين لبلادنا على بقاء الإفرنج فيها بأي اسم من الأسماء أو صفة من الصفات" (42).

ويضيف: "أتمنى أن نجد عند عقلاء الترك إنصافاً بنبي عليه اتفاقاً ثابتاً لا يستطيع أعداؤنا نقضه"، اتفاقاً قائماً على "العدل والمساواة". ويرى أن هذا الاتفاق يمكن أن يحدث في ظل انتصار الأتراك والعودة إلى الإسلام "أعظم انقلاب اجتماعي في الأرض" (43). ويبقى أمله حتى حينه معلقاً على مصطفى كمال؛ إذ يضيف:

39 المرجع نفسه، ص 73-76.

40 المرجع نفسه، ص ص 76-78.

41 أرسلان، م. س.، كتاب مؤرخ في 30 كانون الثاني/يناير 1923 إلى شكيب أرسلان، ص 314-320.

42 المرجع نفسه، ص 315. الجملة المعترضة لشكيب أرسلان.

43 المرجع نفسه.

"لو عرف هذا الرجل العالي الهمة مصطفى كمال من الإسلام ما أعلم لأمكنه أن يكون رجل العالم لا رجل الترك فقط [...]" لكن هذا الرجل الكبير لا يعلم ومن لي بأن يعلم وقد كتب إلى بعض زعماء الهند بمثل ما يطالبني صاحب لي هنا من الترك وهو الترغيب في الذهاب إلى أنقرة⁽⁴⁴⁾.

ومن المؤكد أن رضا قد كتب مجموعة مقالاته في موضوع "الخلافة" في سياق هذا الاهتمام بالتوجه إلى الأتراك⁽⁴⁵⁾، بغية إقناعهم مخاطباً أرسلان: "قد كتبت مقالاً في مسألة الخلافة نشرت منه إلى الآن سبع كراريس في المنار ثم طبعتها على حدة وإنني مرسل بها إليك فتعلم أنه لم يكتب مثلها في الإسلام وإنني واثق بأنها ستترجم بعدة لغة [لغات] وسيعلم منها إخواننا الترك أنهم لا يستطيعون السيادة على العالم الإسلامي بمنصب الخلافة إلا إذا تأخوا مع العرب"⁽⁴⁶⁾.

وجواباً عن مطلب بعض زعماء الهند وصاحبه التركي، في الذهاب إلى أنقرة، يقترح رضا على أرسلان أن يتولى هذه المهمة؛ إذ يقول: "وخلاصة القول إن الفصل في أمر الاتفاق مع القوم أرجى ما يرجى من مثلك، ومن ذا الذي يقدر على ما تقدر عليه وله ما لك من المكانة عندنا وعندهم، فإن عجزت كان عجزك برهاناً على سوء نيتهم وفساد طويتهم"⁽⁴⁷⁾. ولم يدم الانتظار طويلاً، ففي هذه الفترة كان مصطفى كمال يمهّد لقوانين أذار/ مارس 1924، ومن ضمنها إلغاء الخلافة.

ويكتب أرسلان في تعليقه على كتاب صاحبه رشيد رضا معبراً عن عجزه في مهمته التي كان يحملها منذ عهد "الاتحاديين": "نعم عجزت عن إتمام أمر كانت تحول دونه المبادئ التي أراد مصطفى كمال بثها لا في تركية فقط، بل في كل العالم الإسلامي"⁽⁴⁸⁾.

2. علي عبد الرازق⁽⁴⁹⁾ ومسألة الخلافة

صدر كتاب علي عبد الرازق الإسلام وأصول الحكم عام 1925؛ أي في الفترة التي ازدهمت فيها مناقشات مسألة الخلافة منذ الحرب العالمية الأولى وحتى تاريخ إلغاء المنصب عام 1924، مروراً بوثيقة حكومة أنقرة عام 1922 (أي وثيقة تفريق السلطنة عن الخلافة). وبكتابات رضا في المنار في المدة 1922-1925، وفي هذا الوقت، كان يجري التحضير في القاهرة لمؤتمر الخلافة (19 آذار/ مارس 1924) الذي حاول الملك فؤاد توظيف بعض اتجاهاته من أجل ملء الفراغ الذي تركه انسحاب تركيا - مصطفى كمال من زعامة العالم الإسلامي. وبناء عليه، يمكن اعتبار هذا الكتاب مساهمة في النقاش الدائر، تهدف إلى تقديم حل لإشكالية الدولة التي يجري بحث منطلقاتها وأسسها وعلاقتها بالإسلام آنذاك، انطلاقاً من واقعتي التفريق والإلغاء.

44 المرجع نفسه، ص 316-317. ويعلق شبيب أرسلان على هذه النقطة في حاشية كتابه: "كان هذا الكتاب قبل أن يلغي مصطفى كمال منصب الخلافة تماماً من تركية وقبل أن يظهر بالمظهر اللاديني الذي ظهر به وجعله صبغة تركية الحاضرة"، ينظر: المرجع نفسه، ص 317.

45 يهدي رشيد رضا كتابه إلى الترك مناشداً: "أيها الشعب التركي المتروكي: انهض بتجديد حكومة الخلافة الإسلامية [...] أيها الشعب التركي العاقل: إني أهدي إليك هذه المباحث"، ينظر: رشيد رضا، **الخلافة أو الإمامة العظمى**، ص 8: المنار، مج 24، ج 6، ص 465.

46 أرسلان، ص 317.

47 المرجع نفسه، ص 318.

48 المرجع نفسه.

49 علي عبد الرازق (1888-1966): باحث، من أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر، وُلد بأبي جرج، من أعمال المنيا، وتعلّم بالأزهر ثم بأكسفورد. وعُيّن قاضياً في المحاكم الشرعية. وأصدر كتاب **الإسلام وأصول الحكم** عام 1925، فأغضب ملك مصر وشجبت منه شهادة الأزهر [العالمية]، وانصرف إلى ممارسة المحاماة وانتخب عضواً في مجلس النواب، فمجلس الشيوخ، وعُيّن وزيراً للأوقاف. وعمل في حزب الوفد المعارض بقيادة سعد زغلول، واستمر 20 سنة يحاضر في طلبة "الدكتوراه" بجامعة القاهرة في مصادر الفقه الإسلامي. وطبع من كتبه **أمالى علي عبد الرازق**، رسالة جمع فيها دروساً ألقاها عام 1911؛ **الإجماع في الشريعة الإسلامية**؛ ومحاضرات ألقاها في جامعة القاهرة؛ ومن آثاره **مصطفى عبد الرازق**، في سيرة أخيه مصطفى، ينظر: الزركلي، مج 4، ص 276.

كانت المحاولات تجري في تركيا، ولا سيما منذ حركة التنظيمات ثم إعلان الدستور، وانتخاب "ال خليفة- السلطان" من جانب المجلس، على صعيد الدولة العثمانية عمومًا. وقد ترجّحت تلك المحاولات بين القول باستيعاب الشريعة للمعطى السياسي الغربي حيث تتساوى البيعة ومفهوم سيادة الشعب عند نامق كمال⁽⁵⁰⁾، والدعوة إلى دولة وضعية ينفصل عنها الدين عند ضياء كوك ألب. وهذا الفصل يقوم على التمييز بين "الشريعة الذاتية والشريعة الاجتماعية"؛ بين النص والعرف، وعلى إعطاء الأهمية للعرف على النص. تلك كانت مقومات وثيقة فصل الخلافة عن السلطنة، ثم إلغاء الأولى، إلى أن أغلقت تدابير مصطفى كمال - كما يقول إروين روزنتال - الباب أمام استكمال هذه الاختبارات النظرية⁽⁵¹⁾، بينما استمرت في البلدان العربية والإسلامية الأخرى الخاضعة للسيطرة الغربية التساؤلات ذاتها. وفي حالة عبد الرزاق، يدفعه الجدل القائم إلى تطوير النص الخلدوني الذي يميز بين الخلافة والملك؛ بين الوازع الديني والعصبي، وإلى تأويله منتهياً إلى القول بغياب وجوب الخلافة في الإسلام، وما يقال له "خلافة" هو سلطان زمني يتبدل ويتغير ويزول، ويقوم على القهر والغلبة. وهنا يتطابق نظره مع مقولات وثيقة "التفريق": الخلافة وسلطة الأمة.

يقول: "لم نجد فيما مرّ بنا من مباحث العلماء الذين زعموا أن إقامة الإمام فرض، من حاول أن يقيم الدليل على فرضيته بأية من كتاب الله الكريم. ولعمري لو كان في الكتاب دليل واحد لما تردد العلماء في التنويه والإشادة به، أو لو كان في الكتاب الكريم ما يشبه أن يكون دليلاً على وجوب الإمامة لوجد من أنصار الخلافة المتكلفين، وإنهم لكثير، من يحاول أن يتخذ من شبه الدليل دليلاً، لكن المنصفين من العلماء والمتكلفين منهم قد أعجزهم أن يجدوا في كتاب الله تعالى حجة لرأيهم فانصرفوا عنه إلى ما رأيت، من دعوى الإجماع تارة، ومن الالتجاء إلى أقيسة المنطق وأحكام العقل تارة أخرى"⁽⁵²⁾.

وهو إذ يدفع بالتحليل الخلدوني إلى نهايته في مسألة علاقة السياسة بالدين، يفصل السياسي عن الديني، ويجعل المجال السياسي حيزاً علمياً مستقلاً عن علوم الدين. فالإسلام ليس سياسياً وينبغي أن يبحث عن أنظمة الحكم والدولة لا في الفقه، بل في العلوم السياسية الوضعية، فهو بعد أن يشير إلى خلاف المسلمين حول مقام الخلافة منذ أبي بكر الصديق وبرز حركة المعارضة وتياراتها، يقول: "مثل هذه الحركة كان من شأنها أن تدفع القائمين بها إلى البحث في الحكم وتحليل مصادره ومذاهبه، ودرس الحكومات وكل ما يتصل بها ونقد الخلافة وما تقوم عليه، إلى آخر ما تتكون منه علوم السياسة. لا جرم أن العرب قد كانوا أحقّ بهذا العلم وأول من يواليه"⁽⁵³⁾.

ويتساءل عن غياب هذا العلم فيقول: "فما لهم قد وقفوا حيارى أمام هذا العلم، وارتدوا دون مباحثه حسيرين؟ ما لهم أهملوا النظر في كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو وهم الذين بلغ من إعجابهم بأرسطو أن لقبوه المعلم الأول؟ وما لهم رضوا أن يتركوا المسلمين في جهالة مطبقة بمبادئ السياسة وأنواع الحكومات عند اليونان، وهم الذين ارتضوا أن ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان في علم النحو، وأن يروضوهم بريضة بيدبا الهندي في كتاب كليله ودمنة، بل رضوا أن يمزجوا لهم علوم دينهم بما في فلسفة اليونان من خير وشر وإيمان وكفر؟".

ويعلق عبد الرزاق على تساؤله: "لم يترك علماؤنا أن يهتموا بعلوم السياسة اهتمامهم بغيرها غفلة منهم عن تلك العلوم ولا جهلاً بخطرها"⁽⁵⁴⁾. والسبب في رأيه هو الإرهاب الذي مارسه الخلفاء فلم يسمحوا بالنقد وحرية الرأي⁽⁵⁵⁾.

50 Lewis, pp. 142-143.

51 E. Rosenthal, *Islam in the Modern National State* (Cambridge: Cambridge University Press, 1965).

52 عبد الرزاق، ص 122.

53 المرجع نفسه، ص 128.

54 المرجع نفسه.

55 المرجع نفسه، ص 129، وما بعدها.

أما ربط مقام الخلافة بالدين وجعل مسألتها مسألة فقهية - دينية تتمحور حول البيعة فيردّ عبد الرزاق على هذا المفهوم - مفهوم البيعة - بشواهد من التاريخ الإسلامي مؤداها "أن الخلافة في الإسلام لم تتركز إلا على أساس القوة الرهيبة، وأن تلك القوة كانت، إلا في النادر، قوة مادية مسلحة، فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف والجيش المدجج والبأس الشديد" (56).

ويذكر عبد الرزاق بقصة البيعة ليزيد "حين قام أحد الدعاة إلى تلك البيعة خطيباً في الحفل فأوجز البيان في بضع كلمات [...] قال (أمير المؤمنين هذا) وأشار إلى معاوية، (فإن هلك فهذا) وأشار إلى يزيد (فمن أبى فهذا) وأشار إلى سيفه" (57).

ينطلق عبد الرزاق من هذه القصة التي يعتبرها الفقهاء الستة بداية "الملك العضوض"؛ ليدين من خلالها صيغة البيعة والإجماع معتبراً إياها غطاء الاستبداد المتغلب منذ ذلك الحين حتى تاريخنا الراهن، ومقدماً مثل بيعة فيصل بن الحسين في العراق للاستدلال على قيام البيعة على تغلب الإنكليز، فيقول: "تذكرنا قصة يزيد بن معاوية بقصة فيصل بن حسين بن علي. كان أبوه حسين بن علي أحد أمراء العرب الذين انحازوا في الحرب العظمى إلى جانب الحلفاء خروجاً على الترك، وعلى سلطان الترك [...] وامتاز فيصل أحد أولئك الأولاد بالزلفى من الإنجليز لحسن بلائه في مساعدتهم وإخلاصه في خدمتهم فعيّنه ملكاً على الشام. ولم يكد يستقر به حتى هاجمت ملكه جيوش الفرنسيين فولّى فيصل هارباً، تاركاً مملكته وعرشه وغيرهما حتى وصل إلى إنكلترا. ومن هناك حمّله الإنكليز إلى بلاد العراق، ونصبوه عليها ملكاً وقد زعم الإنجليز أن أهل الحل والعقد من أمة العراق انتخبوا فيصلاً ليكون ملكاً عليهم بالإجماع، اللهم إلا أن يكون قد خالف في ذلك نفر قليل لا يُعتدّ بهم. فأولئك الذين دعاهم ابن خلدون من قبل شواد". ويضيف إلى ذلك قوله: "ولعمرك ما كذب الإنجليز فإنهم قد عملوا انتخاباً له كل مظاهر الانتخاب الحرّ القانوني، وأخذوا يومئذ رأي الكثيرين من أهل الزعامة في العراق، فكان رأيهم أن ينتخبوا فيصلاً ملكاً عليهم". ويقول معلقاً على ذلك: "إن (هذا) الذي أخذ به خطيب معاوية البيعة ليزيد هو عينه هذا الذي أخذ به الإنجليز إجماع العراقيين لإمامة فيصل" (58).

وتبقى المعضلة الأساسية في هذا المنهج: إذا كان الإسلام لم يدعُ إلى بناء دولة ولم يحدّد أجهزتها وولاتها وقضاتها كما تمثّلت في حكومات الخلفاء الراشدين، فماذا يمكن اعتبار حكومة النبي محمد في رأيه؟

يرى عبد الرزاق، انسجاماً مع منطقته في نفي وجود الخلافة باعتبارها مؤسسة في الإسلام، أن الدعوة النبوية اقتضت على الرسالة "ولم تنشئ ملكاً". وهو إذ يحرص على الدمج بين الخلافة والسلطنة، ردّاً على محاولة التمييز الفقهي، يجهد، في معالجته أمر الرسالة والحكم اعتماداً على تشوش الأخبار المتعلقة بالتنظيم الإداري والمالي والقضائي المنسوب إلى الرسول، أن ينفي عن الرسول محاولة بناء دولة، يقول: "وما يروى من ذلك فكله عبارة عن توليتها أميراً على الجيش، أو عاملاً على المال، أو إماماً للصلاة، أو معلماً للقرآن، أو داعياً إلى كلمة الإسلام. ولم يكن شيء من ذلك مطّرداً. وإنما كان يحصل لوقت محدود، كما ترى فيمن كان يستعملهم على البعوث والسرايا، أو يستخلفهم على المدينة إذا خرج للغزو".

ويضيف: "إذا نحن تجاوزنا عمل القضاء والولاية إلى غيرهما من الأعمال، التي لا يكمل معنى الدولة إلا بها، كالعاملات التي تتصل بالأموال ومصارفها (المالية) وحراسة الأنفس والأموال (الشرطة) وغير ذلك مما لا يقوم دونه أقل الحكومات وأعرقها في البساطة، فمن المؤكد أننا لا نجد فيما وصل إلينا عن زمن الرسالة شيئاً واضحاً يمكننا ونحن مقتنعون ومطمئنون، أن نقول إنه كان نظام الحكومة النبوية" (59).

56 المرجع نفسه، ص 129.

57 المرجع نفسه، ص 131.

58 المرجع نفسه، ص 133.

59 المرجع نفسه، ص 143.

واضح أن الدولة أو الحكومة عند عبد الرازق وكما عرفها التاريخ الإسلامي هي دولة الدواوين والولاية؛ أي الدولة السلطانية، أو دولة "العصبية" التي أرّخ لها وحلّل طريقة قيامها ابن خلدون، على قاعدة قانون "التغلب" والتي أضفى الماوردي عليها - كما مارة استيلاء و"كوليات" - طابعاً شرعياً مقبولاً "ضرورة". وها هو عبد الرازق يدفع بالنظرية الخلدونية إلى أقصاها ليرفض التسوية التي لجأ إليها الماوردي وبقية الفقهاء الذين صالحوا بين "السلطنة والخلافة"، ليقول إنهما عملياً وتاريخياً من طبيعة واحدة: هي طبيعة العصبية والتغلب التي لا علاقة للدين بها وإن تسترت به.

هكذا يفصل عبد الرازق الاجتماع الإسلامي المتدين عن فكرة الدولة باعتبارها مؤسسة، سواء أكانت خلافة أم سلطنة، ليترك المجال للعقل السياسي كي يجتهد في أمر نظام الحكم. فهو يختم كتابه بقوله: "والحق أن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون ويريء من كل ما هيؤوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة. والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة. وأما تلك فخطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لندرج فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم، وقواعد السياسة". ثم إن تبرير الجيوش الإسلامية، وعمارة المدن والثغور، ونظام الدواوين لا شأن للدين بها، بل يرجع الأمر فيها إلى العقل والتجريب أو إلى قواعد الحروب، أو هندسة المباني وآراء العارفين.

"لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسبقوا الأمم الأخرى، في علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي دلّوا له واستكانوا إليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم، ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية، وأمكن ما دلّت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم"⁽⁶⁰⁾.

ويعلق روزنتال على أطروحة عبد الرازق قائلاً: "إن دعوته لضرورة أن يتبنى المسلمون الدولة الوضعية تقطع الطريق على الفكر الذاتي المتمثل بطرح رشيد رضا لمسألة الخلافة وتنقل الصراع الذي خسره الإسلام في تركيا إلى العالم العربي"⁽⁶¹⁾.

صحيح أن النقاش انتقل إلى العالم العربي آنذاك، ولكن من غير أن تبرز على موازاته "دولة كمالية"؛ أي تتبنى نموذج "القومية العلمانية" وتكون قد حققت استقلالاً عن المستعمر الغربي نفسه. فالسلاطين والملوك العرب المنتشرون في أنحاء المنطقة العربية، كانوا في معظمهم مرشحي الغرب للدول الإقليمية "الحديثة" أو أصحاب "سلطات مستقلة" تدور في فلك الغرب المنتصر وتمثل في الإسلام من موقع ما آلت إليه "السلطنة العثمانية"؛ أي مجرد "صبغة دينية" لتقوية دولة السلطان أو الملك. ومن هنا كان حرص الملك فؤاد على التصدي لكتاب عبد الرازق والدفع إلى محاكمته من جانب هيئة كبار العلماء، وذلك لكي يقوّي زعامته بالإسلام ولكي يبرر ترشيحه ضمناً للخلافة وقد شغل مركزها بالغائها في تركيا، خاصة أن الإعداد لمؤتمر الخلافة كان يجري آنذاك في القاهرة⁽⁶²⁾.

وأما الثورات الأهلية العديدة التي انفجرت في المنطقة العربية في مشرقها وفي مغربها، فإنها لم تؤدّ إلى قيام دولة تحمل المضامين الأهلية المحلية الإسلامية (الوطنية المندمجة بالإسلام) كتلك التي حملها، على سبيل المثال، عبد الكريم الخطابي (1882-1963) بالنسبة إلى المغرب، أو علماء النجف بالنسبة إلى العراق، أو التي فكّر فيها سعد زغلول في صورة توفيقية لدولة مصرية

60 المرجع نفسه، ص 182.

61 Rosenthal, p. 102.

62 ينظر وصف تاريخي لظروف محاكمة علي عبد الرازق ولرّدات الفعل التي أثارها الكتاب في: عمارة، "مقدمة"، ص 42-7.

حديثه تتصالح مع الإسلام⁽⁶³⁾، وشكّلت الهموم الفكرية الوحودية لدى شكيب أرسلان، وكذلك رضا وعادل أرسلان في متابعتهم لحركة الجهاد في الثورة السورية ومستقبلها⁽⁶⁴⁾.

إن سعي السلاطين والملوك المحليين إلى اعتلاء عروش "دول محدثة" ونزوع أعيان وزعامات مدنية محلية لترؤس كيانات سياسية كانا يترافقان مع عنف الدول الغربية وتدمير المقاومة الأهلية وإرساء إدارات محلية مكانها. وكان هذا وذاك يتقاطعان في المرحلة اللاحقة عند ملتقى تحوّلين: تحوّل في السياسة الدولية للاستعمارين الفرنسي والبريطاني من جهة، وتحوّل في سياسة المواجهة لدى القيادات المحلية التي كان لها بعض المواقع في الثورات الأهلية. فبالنسبة إلى السياسة الدولية، اتخذت السيطرة الغربية لنفسها أسلوب المعاهدات الذي يضمن للدولة السيطرة الغربية وإلحاقها للدولة الجديدة "المستقلة"، وذلك عبر "الامتياز الخاص" في العلاقة و"الاستشارة" ومنح المعونة العسكرية لبناء "الجيش الوطني" أو عبر صيغة "الانتداب" أو صيغة "الحماية"⁽⁶⁵⁾. أما بالنسبة إلى قوى الحركات الوطنية المتشكلة في الدول - الأقطار، فقد بدأت هذه الأخيرة تصوغ برامجها على قاعدة "النضال السلمي" بوساطة "الأحزاب الدستورية" والكتل البرلمانية، والنقابات من أجل مزيد من ممارسة "البرلمانية" و"الحياة الدستورية" والصلاحيات الإدارية في الدولة الجديدة.

إنه نموذج ديمقراطي مقتبس من الغرب، ولكن ممنوع عليه أن ينجح؛ لأن سياسات الدول الغربية كانت تعارض تطبيق "ديمقراطيتها" خارج حدودها⁽⁶⁶⁾.

في سياق هذه الظروف، ظروف ما بعد ضرب الثورات الأهلية في المنطقة العربية وظروف بناء الدولة في ظل معاهدات الوصاية والاستقلالات التابعة، كانت النقاشات الفكرية السياسية التي أثارها كتاب عبد الرازق لا تترجم الحيز "الشرعي" الذي اجتهد فيه الكاتب ليجيز للمسلم أن يكون علمانيًا في مسألة بناء الدولة فحسب، بل كانت تترجم أيضًا موقفًا من حدث مصيري: الحدث هو الدولة الكمالية وضغط المشاريع الغربية في المنطقة.

ففي تركيا أقام مصطفى كمال دعائم الدولة العلمانية منذ عام 1924. وقبل ذلك، قاد حركة تحرير للأطراف استخدم فيها الإسلام صيغة تبوية ومصدر دعم ومساندة، ولجأ في الوقت نفسه إلى العلاقات الدبلوماسية والتسويات على حساب الآخرين، وبالتحديد على حساب الثورات العربية تحديدًا، وذلك لتخليص الأرض التي عيّنها الميثاق المَلّي حدودًا للأمة التركية.

63 لم يوافق زغلول على كتاب عبد الرازق، بل هاجمه قائلاً: "قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم في الإسلام حجة كهذه الحجة في التعبير على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه. وإلا فكيف يدّعي أن الإسلام ليس مدنيًا ولا هو بنظام يصلح للحكم؟ فأية ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام؟ هل البيع، أو الإجازة، أو الهبة، أو أي نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئاً من هذا في الأزهر؟ أو لم يقرأ أمماً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهداً طويلة كانت أنصر العصور؟ وأن أمماً لا تزال تحكم بهذه القواعد وهي آمنة ومطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنيًا ودين حكم؟"، ورد في: عمارة، ص 109.

64 ينظر مراسلات رشيد رضا إلى شكيب أرسلان في شأن الثورة السورية والخلاف مع آل لطف الله والدكتور شهبندر في: أرسلان، السيد رشيد رضا، ص 467، 498، 652، 708، 717؛ ذوقان قرقوط، تطور الحركة الوطنية في سورية 1920-1939 (بيروت: دار الطليعة، 1975)، ص 280-282؛ قارن أيضًا ما ورد في كتابنا. حول موقف رشيد رضا من المسألة السورية، ينظر: مختارات سياسية من مجلة "المنار" لرشيد رضا، تقديم ودراسة وجيه كوثراني (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019)، ص 263-273.

65 دشنت بريطانيا هذه السياسة في العراق وهي السياسة التي رسمت خطوطها في مؤتمر القاهرة 1921. وقد عُقدت سلسلة من المعاهدات بين بريطانيا والدولة المنشأة: معاهدة 1922، معاهدة 1926، معاهدة 1927، معاهدة 1930... إلخ. وأصبحت المعاهدات البريطانية - العراقية نموذج الحركة المطالبة الوطنية في المنطقة فيما بعد. ينظر: جورج أنطونيوس، بقطة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس (بيروت: دار العلم للملايين، 1962)، ص 482-484؛ عبد الله الفياض، الثورة العراقية سنة 1920 (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1963)، ص 328-333.

66 حول الموقف الفرنسي من مسألة "التمثيل البرلماني" في مشروع "تنظيم لبنان وسوريا" عام 1920، المراسلات السرية بين الرئيس الفرنسي ميلران (Millerand) والمفوض السامي، الجنرال غورو، ينظر: وجيه كوثراني، السكان الاقتصاد والسياسة في بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1980)، ص 223.

المراجع

العربية

- أرسلان، شكيب. السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة. دمشق: مطبعة ابن زيدون؛ القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1937.
- أنطونيوس، جورج. يقظة العرب (الترجمة العربية). بيروت: دار العلم للملايين، 1962.
- الرجل الصنم: مصطفى كمال أتاتورك، حياة رجل ودولة. ترجمة عبد الله عبد الرحمن. بيروت: دار الرسالة، 1978.
- الزركلي، خير الدين. الأعلام. ط 5. بيروت: دار العلم للملايين، 1980.
- سعيد، أمين محمد وكريم خليل ثابت. مسيرة مصطفى باشا وتاريخ الحركة التركية الوطنية في الأناضول. القاهرة: مجلة اللطائف المصورة، 1922.
- سني بك، عبد الغني. الخلافة وسلطة الأمة. القاهرة: دار الهلال، 1924.
- الشرابصي، أحمد. رشيد رضا: صاحب المنار، عصره وحياته ومصادر ثقافته. القاهرة: الشؤون العربية، 1970.
- الصويص، سليم. أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها. عمان: مطبعة شلر، 1970.
- عمارة، محمد. الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق: دراسة ووثائق. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.
- الفياض، عبد الله. الثورة العراقية سنة 1920. بغداد: مطبعة الإرشاد، 1963.
- قرقوط، ذوقان. تطور الحركة الوطنية في سورية 1920-1939. بيروت: دار الطليعة، 1975.
- كوثراني، وجيه. السكان الاقتصاد والسياسة في بلاد الشام في مطلع القرن العشرين. بيروت: معهد الإنماء العربي، 1980.
- _____. الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا. بيروت: دار الطليعة، 1996.
- ستودارد، لوثرروب. حاضر العالم الإسلامي. ترجمة عجاج نويهض. ط 4. بيروت: دار الفكر، 1972.
- مختارات سياسية من مجلة "المنار" لرشيد رضا. تقديم ودراسة وجيه كوثراني. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019.
- مختارات سياسية من مجلة المنار. تقديم ودراسة وجيه كوثراني. ط 2. بيروت: دار الطليعة، 1996 [1980].
- ميكوش، داجوبرت فون. مصطفى كمال: المثل الأعلى. ترجمة كامل مسيحة. بيروت: المكتبة الأهلية، 1933.

الأجنبية

- Baumont, Maurice. *La faillite de la paix* (1918-1939). Paris: P.U.F., 1967.
- Kohn, Hans. *A History of Nationalism in the East*. London: George Routledge & Sons, Ltd, 1920.
- Lewis, Bernard. *The Emergence of Modern Turkey*. 2nd ed. London: Oxford University Press, 1968.

Nicolas, Maxime. *La Nationalité au Liban d'après le traité de Lausanne*. Lyon: BOSC Freres & Riou, 1928.

Peters, R. *L'histoire des Turcs: De l'empire à la démocratie*. Paris: Payot Nevers, impr. Chassaing, 1942.

Rosenthal, E. *Islam in the Modern National State*. Cambridge: Cambridge University Press, 1965.

نهاية الخلافة العثمانية ومسلمو شبه القارة

The End of the Ottoman Caliphate and Muslims of the Subcontinent

تناقش هذه الدراسة التطورات التاريخية والدينية التي أدت إلى إلغاء الخلافة العثمانية. وتمهّد لهذا الأمر، على نحو مختصر، من خلال أصول مؤسسة الخلافة، والفهم العثماني لهذه المؤسسة، إضافة إلى موقعها ودورها المركزي داخل الدولة العثمانية نفسها أو خارجها. وفي هذا الصدد، تحلّل الدراسة تأثير إلغاء الخلافة في بعض العلماء المسلمين والثوار الهنود، وهو ما تمثّل حينئذ في رابطة مسلمي الهند والتطورات التاريخية لتشكّلها. وتركز الدراسة على تأثير قضية الخلافة في تأسيس لجنة الخلافة المركزية، وما تمخّض عن "حركة الخلافة"، وكيف أنّ هذه الحركة عملت على تعبئة المجتمع الهندي بقضية الخلافة في الدولة العثمانية بوصفها قضية سياسية بالنسبة إلى مسلمي الهند. وتخلص الدراسة إلى أن إلغاء الخلافة أدّى إلى تغيير في الوضع السياسي في الهند، وأن هذه الحركة فقدت قوّتها السياسية وجاذبيتها لدى الجماهير؛ بسبب حرمانها من مبرر وجودها، وانقسام زعماء الحركة فيما بينهم. والجانب الأهم في هذا السياق، هو ما أدّى إليه ذلك كلّ من تدهور في العلاقة بين الهندوس والمسلمين.

كلمات مفتاحية: نهاية الخلافة العثمانية، مسلمو الهند، حركة الخلافة، معاهدة لوزان، الجامعة الإسلامية.

This study discusses the historical and religious developments that brought about the abolition of the Ottoman Caliphate. It begins with a brief overview of the roots of the caliphate institution, how the Ottomans understood it, and its central role within and without the Ottoman Empire. Hence, the study analyses the connections that emerged in India, based on the issue of the caliphate and the consequences of its abolition, among some Muslim scholars and Indian revolutionaries, at the time taking the form of the All-India Muslim League. The study concentrates on the impact of the caliphate question on the establishment of the "Central Khilafat Committee" through the Khilafat Movement, and how this movement mobilized Indian society around the question of the caliphate in the Ottoman Empire as a political issue of concern to Indian Muslims. Yet the movement lost its political power and attractiveness among the masses, as it was deprived of its raison d'être and there was internal discord among its leadership. More importantly, this contributed to the deterioration of Hindu-Muslim relations.

Keywords: End of Ottoman Caliphate, Indian Muslims, Khilafat Movement, Treaty of Lausanne, Pan-Islamism.

* أستاذ في جامعة السلطان محمد الفاتح في تركيا.

Professor at Fatih Sultan Mehmet University in Turkey.

azmiozcan@fsm.edu.tr

قام بترجمة هذه الدراسة ثائر ديب، باحث ومترجم سوري.

This Study was Translated by Thaer Deeb, Syrian Writer and Translator.

thalde62@gmail.com

طُبِّقَ مصطلح "خليفة" سياسياً على خلفاء النبي محمد (610-632م [11 قبل الهجرة-11هـ]) لشؤون الدنيا. ونشأ هذا التقليد مع مبايعة أبي بكر الصديق (632-634م / 10-11هـ-12هـ) أول خليفة، وكانت له أهمية دينية وتاريخية بالغة، لا سيما في الفكر السياسي السني.

وصارت هذه المؤسسة، من الناحية الفعلية، سلطنة، في عام 670م / 49-50هـ، حين أسمى الخليفة الأموي معاوية ابنه يزيدًا وريثًا له. وبعد الأمويين (661-751م / 40-41هـ-133-134هـ)، أتت الخلافة العباسية التي استمرت اسميًا حتى عام 1517. وتزعم الرواية التاريخية العثمانية أن السلطان سليم الأول، حين فتح مصر وشبه الجزيرة العربية في عام 1517، تقلّد لقب "خادم الحرمين الشريفين".

حين ازداد نفوذ الخلافة العثمانية في الخارج، ونالت سلطتها قبولًا واسع النطاق، بدت معاهدة كوجك كينارجة عند نهاية الحرب العثمانية - الروسية كأنها نقطة تحوّل وقّدت أيضًا مؤشرات واضحة على الصيغة التي سيكون عليها مفهوم الخلافة العثماني منذ ذلك الحين فصاعدًا. ومع هذه المعاهدة، خسر العثمانيون القرم، أول منطقة يقطنها المسلمون تنفصل عن البرّ الرئيس، واستمرت سلطة السلطان باعتباره خليفة على مسلمي القرم؛ إذ تضمنت المادة 3 من المعاهدة ما يلي: "وحيث إنّ الطائفة المذكورة هي من أهل الإسلام ولأنّ السلطانية الموسومة بالعدالة هي إمام المسلمين وخليفة الموحدين فإنها توجب على الطائفة المرقومة ألاّ تلقى خللاً في الحرية الممنوحة لدولتهم وبلادهم، بل يجب أن تنظم أمورها المذهبية من طرفي الهمايوني بمقتضى الشريعة الإسلامية"⁽¹⁾.

تتسم هذه المعاهدة بأهمية بالغة؛ لأنها أول وثيقة رسمية توقّعها قوة غير مسلمة تعترف بالسلطين العثمانيين خلفاء للمسلمين جميعًا⁽²⁾. وبموجبها، سجّل زعم خلافة السلطان العثماني وولايته الدينية الرسمية على المسلمين خارج أراضيه السيادية أول مرة في معاهدة دولية⁽³⁾. وسيُعمل بذلك فيما يخصّ المناطق الأخرى ذات الأغلبية المسلمة التي ستُفصل عن الإمبراطورية العثمانية، مثل بلغاريا والبوسنة والهرسك وصربيا واليونان⁽⁴⁾.

واصل السلطين العثمانيون بعد ذلك انشغالهم بالمسلمين خارج الحدود، برؤيتهم أنّ ذلك، من منظور، يُعدّ حقًا للخلافة. والامر اللافت للانتباه، أكثر من غيره، هو أنّ الدول الأوروبية الأخرى بدت أيضًا كأنها أقرّت أنهم "خلفاء عالميون"، بعد أن فعلت روسيا ذلك⁽⁵⁾.

1 ينظر النص الإنكليزي الكامل للمعاهدة في:

Jacob C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East, A Documentary Record 1515-1914*, vol. II (Toronto: D. Van Nostrand Company, Inc., 1956);

ينظر النص التركي في: 56 p. (Istanbul: No. P, 1855), I. 1 Cevdet Paşa, *Vaka-i Devlet-i Aliye*, vol. I (Istanbul: Türk Tarih Kurumu Yayınları, 1895), vol. I, p. 208, vol. II, p. 122; Roderic H. Davison, "Russian Skill and Turkish Imbeddity: The Treaty of Kuchuk Kainardji Reconsidered," *Slavic Review*, vol. 35, no. 3 (1976), pp. 463-483.

2 Aziz Ahmad, "An Eighteenth-century Theory of the Caliphate," *Studia Islamica*, 38 (1968), p. 144; Bernard Lewis, "The Ottoman Empire in the Mid-nineteenth Century: A Review," *Middle Eastern Studies*, vol. 1 (1965), pp. 291-294.

3 Name-i Humayun Defteri IX/1, 25, Başbakanlık Osmanlı Arşivi (BOA); Cevdet Paşa, *Tarih-i Cevdet*, 359; Ş. Tufan, "The Question of Caliphate under the Last Ottoman Sultans," in: Itzhak Weismann & Fruma Zachs (eds.), *Ottoman Reform and Muslim Regeneration* (London: Bloomsbury, 2006), pp. 17-36; Hilafet ve Saltanat, Istanbul: 2016.

4 Düstur, 1st series, vols. I-IV, Istanbul, 1289-1296/1872-1879; vols. V-VIII, Ankara 1937-1943, vol. II, pp. 14, 152, 177, 179-183; vol. VII, pp. 10, 24, 51-53;

وبالمثل، نصّ الإطار المتعلق بالشؤون الدينية للسكان المسلمين في اليونان ورومانيا وصربيا وبلغاريا والجلب الأسود، الذي أعده مكتب شيخ الإسلام في عام 1884، على أن المسلمين أينما عاشوا، يجب أن يكون ولاؤهم للخليفة المعظم. ينظر:

İlhami Yurdakul, "Şeyhülislam Abdullah Efendi ile Şeyhülislam Medeni Mehmet Nuri Efendi' nin Hilafet Hakkında Muhtıraları," *Divan*, vol. 6 (1999), pp. 235-248.

5 على سبيل المثال، إسبانيا في عام 1782. ينظر: 194-200 p. Cevdet Paşa, pp. 194-200. وطلبت بريطانيا العظمى من السلطان سليم الثالث (1789-1808) أن يرسل رسالة إلى تيبو سلطان ميسور بصفته "زعيم جميع المسلمين";

Syed Mahmud, *The Khilafat and England* (Patna: Mohamed Imtiyaz, 1920), p. 77; Yusuf Hikmet Bayur, *Hindistan Tarihi*, vol. III (Ankara: TTK, 1950), pp. 205-206; İrade-Meclis-i Mahsûs, nr. 1524; İrade-Dahiliye, nr. 26941, BOA.

كانت الخلافة، بالنسبة إلى ملايين المسلمين، رمزًا للإسلام ذاته ومَثَلًا أعلى محوريًا يمثل آمالهم وتطلعاتهم، لا سيَّما في عصر انحطاط القوى الإسلامية. وبعد أن أخضع المستعمرون أراضيهم، بدا السلطان العثماني التجسيد الطبيعي للأصرة الوجدانية التي تربط المسلمين في العالم. وكان نموُّ مثل هذه المشاعر العاطفية أمرًا مفهوميًا، نظرًا إلى التطورات التاريخية. فبين القرنين السادس عشر والثامن عشر، حكمت القوى الإسلامية - العثمانيون ومغول الهند والصفويون والخانات التركستان - أجزاءً كبيرة من العالم. لكنَّ العثمانيين تميَّزوا، في أواخر القرن الثامن عشر، باعتبارهم القوة الإسلامية الأعتى في وجه التوسع الأوروبي. فكان من الطبيعي أن تتحول إليهم أنظار المسلمين.

أدت مؤسسة الخلافة، في هذه الظروف، دورًا مركزيًا في علاقات الدولة العثمانية الداخلية والخارجية، لا سيَّما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني خلال حكمه الذي دام 33 عامًا، ونجح إجمالًا في تشكيل رأي عام إسلامي مشترك في العالم حول الخلافة العثمانية⁽⁶⁾.

في عام 1909، أطاحت حركة المعارضة العثمانية التي قادتها تركيا الفتاة السلطان الخليفة عبد الحميد الثاني. واستمر المسلمون في جميع أنحاء العالم، وخصوصًا في شبه القارة الهندية، في تقديم ولائهم الديني للخليفة الجديد محمد الخامس (1909-1918) المشهور بالسلطان محمد رشاد في إسطنبول. وفي أوقات الحرب الصعبة الإيطالية - العثمانية (1911-1912) وحروب البلقان (1912-1913)، كان الدعم يُقدَّم بوسائل مختلفة، مثل تنظيم البعثات الطبية، ومقاطعة البضائع الأوروبية، وإرسال التبرعات والمتطوعين⁽⁷⁾.

وفي الوقت الذي كان احتمال نشوب حرب كبرى يخيم على الأجواء في أوروبا، وفي محاولة لتعزيز الروابط القائمة، شرعت تركيا الفتاة في إرسال عدد متزايد من ممثليها إلى الأراضي الإسلامية مستندة إلى ذرائع مختلفة. وفي الوقت نفسه تقريبًا، أُقيمت صلات في الهند مع بعض العلماء المسلمين والثوار الهنود من أجل تعاون محتمل⁽⁸⁾. ونظرًا إلى التطورات، كانت تركيا الفتاة تعرف أنه لم يعد في وسعها أن تثق ببريطانيا. وكانت تخشى ألا يتاح لتركيا البقاء على الحياد بعد اندلاع الحرب، ما قد يؤدي إلى تقاسمها بين القوى العظمى. وفي بحثها عن حليف، اقتربت أولًا من قوات الحلفاء، لكن ذلك كان من دون جدوى. فبدأ أن ألمانيا هي القوة التي يمكن أن تسهّل للأتراك إمكان تحرير أراضي المسلمين من نير غير المسلمين. ونتيجة لذلك، تحالفت تركيا مع ألمانيا من خلال معاهدة سرية وُقِّعت في 2 آب/ أغسطس 1914⁽⁹⁾.

كان هذا هو الوقت الذي رأت فيه الحكومة الهندية أن من الضروري إعداد الرأي العام الهندي المسلم في حال انضمام تركيا إلى الحرب إلى جانب الألمان. وكانت ثمة دعاية لتشويه سمعة تركيا الفتاة، مفادها أنها لم تُبدِ أي اهتمام بالخليفة أو الإسلام، بل اهتمت بتطلعاتها القومية والإلحادية. وفُرضت رقابة صارمة على الصحف بحيث لا يُنشر في الهند سوى الرواية الرسمية للأحداث⁽¹⁰⁾. لذلك، ظلَّ المسلمون الهنود عمومًا، حتى أيلول/ سبتمبر 1914، على قناعة بأنَّ الحرب لا علاقة لها بالمسلمين والعثمانيين. ووجّه

6 Azmi Özcan, *Pan-Islamism, Indian Muslims, the Ottomans and Britain (1877-1924)* (Leiden/ New York/ Köln: Brill, 1997).

7 M. Y. Abbasi, *The London Muslim League 1908-1928: An Historical Study* (Islamabad: National Institute of Historical and Cultural Research, 1988), pp. 281-302; S. M. Naimtullah, "Recent Turkish Events and Moslem India," *The Asiatic Quarterly Review*, October 1913, p. 247; FD. Extnl. B, April 1913, nos. 342-428; Chaudhry Khaliquzzaman, *Pathway to Pakistan* (Lahore: Longmans, 1961), p. 21; A. S. Shah Jahanpuri, *Ghazi Abdurrahman Shahid Peshawari* (Karachi: [n. p.], 1979), p. 120; "Report A," ICP, no. 206, January 1919, IOR.

8 دخل حوالي ألف عضو من منظمة ثورية تدعى غدر إلى الهند لتنظيم الحركة المناهضة لبريطانيا خلال الحرب في أوائل عام 1914. لكن الحكومة سرعان ما اكتشفت المؤامرة، فسجنّت الغدريين وأعدمتهم قبل أن يصبحوا قادرين على الفعل. بالنسبة إلى صلاتهم بألمانيا وتركيا، ينظر:

R. K. Trivedy, "Turco-German Intrigue in India During the World War II," *PIHC*, p. 43; Don Dignan, *The Indian Revolutionary Problem in British Diplomacy 1914-1919* (New Delhi: Allied Publishers, 1983), pp. 22-50; Sedition Committee, *Report* (Calcutta: 1918), pp. 167-172; Irade taltifat, p. 651, C. Ahir 1333 (1914), BOA; FD. Sec. I, Dec. 1912, nos. 3-5, National Archives of India (NAI).

9 L/P&S/10/518, no. 4265/1914, I. India Office Records (IOR); H. Poll. A, Nov. 1914, nos. 1-27 NAI.

10 H. Poll. A, Nov. 1914, nos. 1-27, NAI.

تشارلز هاردينج Charles Hardinge (1858-1944)، نائب الملك، نداءً للمسلمين ذكياً، في الوقت المناسب، معلناً أن الإمبراطورية البريطانية هي أعظم قوة إسلامية في العالم، وأن بريطانيا تعتبر أمن الأماكن المقدسة أمراً يحظى بأقصى درجات الأهمية⁽¹¹⁾. ومن الواضح أنه على الرغم من الوضع "المُرَضِي" عمومًا، بدا أن ولاء المسلمين يعتمد على بقاء تركيا على الحياد. كتب هاردينج إلى لندن في آب/ أغسطس 1914 أنه نظرًا إلى أن المسلمين ليسوا على علم البتة بموقف تركيا، فإنه يُخشى أن يكون لإعلان الحرب المفاجئ مع تركيا من دون سابق إنذار تأثير مزعج في المسلمين. ولذلك اقترح إصدار بيان يعلن فيه حماقة تركيا ويدافع عن موقف بريطانيا. وأوضح أن البيان يجب أن يؤكد حقيقة أنها كانت دائمًا صديقة حسنة لتركيا وساعدتها. ووافق على الاقتراح مباشرة وترك الأمر لحصافة الحكومة الهندية كي تُصدر إعلانًا عند الضرورة.

حين بدأت الحرب، شعر المسلمون بالألم الشديد بسبب هذه المعضلة التي وجدوا أنفسهم فيها. وعبر عن ذلك بوضوح زعماء الجماعة المسلمة في دلهي. وقالوا لجماعتهم إن الأتراك إخوانهم وإن البريطانيين حكامهم⁽¹²⁾. ولم تكف الصحافة الإسلامية أيضًا عن إبداء قلق متزايد حيال الوضع. ومن بين المقالات المختلفة التي تعبر عن مخاوف المسلمين ومظالمهم، أشارت مقالة "خيار الأتراك" التي ظهرت في صحيفة **الرفيق** *The Comrade* بوضوح إلى الطريق المفتوح أمام المسلمين الهنود في حالة الحرب⁽¹³⁾.

قال مولانا محمد علي [جوهر] (1878-1931) الذي كتب المقالة إن البقاء على الحياد يصب في مصلحة الأتراك. لكن بالنظر إلى الأحداث الأخيرة في تركيا وخسارتها أراضي على أيدي "القوى الأوروبية الطامعة"، فإن للحياد ما يبرره، حتى لو حاول الأتراك الاستفادة من مشاركة روسيا وفرنسا في الحرب والردّ بذلك على مظالمهم التي أنزلتها بهم هاتان القوتان. وقد أثارت مثل هذه المقالات غضب الحكومة الهندية، فأغلقت الصحف المؤثرة مثل **الرفيق** و**الهلال** واعتُقل محرروها أو جرى نفيهم⁽¹⁴⁾.

لم يرغب المسؤولون البريطانيون في تحمّل أيّ أخطار، وكانوا على استعداد لمواجهة الدعوات الإسلامية الجامعة من داخل الهند وخارجها على حد سواء. و"من سوء حظ" المسلمين الهنود، أن السؤال المباشر قد صار: كيف يوفقون بين مشاعرهم الدينية وولائهم السياسي لبريطانيا. وفي حالة من اليأس المطلق، وجّه العديد من المسلمين البارزين نداءات مباشرة إلى حكام تركيا بعدم التورط في الحرب⁽¹⁵⁾.

لكنّ هذه النداءات لم يكن لها أي أثر. وفي نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1914، دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء. وأعلن نائب الملك، على الفور، البيان المُعدّ⁽¹⁶⁾. وتكرّر هذا في إعلان ثان صدر في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، في شأن الأماكن المقدسة الإسلامية والمقدسات في بلاد ما بين النهرين: "ما من مسألة ذات طابع ديني [في الحرب]. سوف تكون هذه الأماكن المقدسة

11 Viceroy to S S I, 21 Aug. 1914, S S I to Viceroy, 24 Aug. 1914 H. Poll. A, Nov. 1914, nos. 1-27, NAI.

12 L/P&S/10/518, no. 5058/1914, IOR.

13 Comrade, 26 Sept. 1914.

كُتبت المقالة ردًا على صحيفة **ذي تايمز** التي هددت تركيا في مقالة تحمل العنوان نفسه بأنها ما لم تدعم بريطانيا وحلفاءها فسوف تُعتبر عدوًا.

14 H. Poll. A, Feb. 1915, nos. 178-204; H. Poll. A, May 1916, nos. 452-544, NAI; Y. D. Prasad, *The Indian Muslims and World War I* (New Delhi: Janaki Prakashan, 1985), p. 79.

15 Afzal Iqbal, *Life and Times of Mohamed Ali* (New Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1978); "10 Memo." by DCI, L/P&S/10/518, no. 4265/1914, IOR.

لجأ عبد الباري أيضًا إلى نائب الملك كي يستخدم نفوذه لعل الحكومة البريطانية تتبنى موقفًا يفضي إلى حياد تركيا. ينظر:

dk/vL/P&S/10/518, no. 4266/1914. IOR. 148, in: Iqbal, *Life and Times*, p. 110.

16 H. Poll. A, Nov. 1914, nos. 1-27, NAI. Y.H. Bayur, "Türk Inkilab," *Tarihi*, vol. III, p. 342; His Britannic Majesty's Minister, Tehran to Secy. to G I, F and Poll, Dept. 8 Dec. 1914, H. Poll. D, Dec. 1914 no. 61, NAI.

[...] في مأمن من أي هجوم أو مضايقة تقوم بهما القوات البحرية والعسكرية البريطانية [...] وبناء على طلب حكومة صاحب الجلالة، قدمت حكومتا فرنسا وروسيا ضمانات مماثلة⁽¹⁷⁾.

كانت إعلانات حصانة الأماكن المقدسة من الهجمات هذه عزاءً لمسلمي الهند. وسرعان ما تعاقب النظام والنواب والصحافة والرابطة الإسلامية والعديد من المنظمات الإسلامية، بتشجيع من الحكومات، على إعلان ولائهم للبريطانيين وحثّ المسلمين على البقاء كذلك⁽¹⁸⁾. من جهة أخرى، كان قانون الدفاع الهندي قد قيد فعلاً أي انتقاد للسياسات البريطانية أو السعي وراء تطلعات إسلامية جامعة⁽¹⁹⁾. ونتيجة لذلك، ليس من المستغرب أنه لم يكن ثمة أثر لدعوة العثمانيين التي حثّت الهنود والهندوس والمسلمين على الثورة على البريطانيين وتحرير البلاد⁽²⁰⁾، بل إن الأمر الأكثر إحباطاً بالنسبة إلى تركيا وألمانيا كان حقيقة أن إعلانات الخليفة الجهاد الأكبر لم تلقَ استحساناً في الهند. ومع ذلك، كان ثمة أمر واضح مفاده أن التعاطف الحقيقي لمسلمي الهند هو مع الأتراك⁽²¹⁾. وقد عبّر عن ذلك محمد علي عن المشاعر الحقيقية في العدد الأخير من **الرفيق**: "حدثت أخيراً الكارثة التي كانوا يخشونها كثيراً، وما بقي لهم الآن هو الصلاة إلى الله كي يتمكنوا من الارتقاء إلى مستوى هذا الاختبار الرهيب والأعظم. إنه لمن النفاق أن نخفي حقيقة أن حب تركيا وشعبها هو شعور عميق وثابت بالنسبة إلى المسلمين الهنود، وأن الملايين منهم ييجلون السلطان باعتباره خليفته. ولذلك، ما كان ليُفترض بالمسلمين الهنود أن يكونوا غير مبالين بمصير تركيا".

كان شوكت علي شقيق محمد علي أشد وضوحاً: "ليس هنالك مسلم واحد إلا يدعو في قلبه لانتصار الخليفة وهزيمة أعدائه وتدميرهم، بما في ذلك بريطانيا العظمى"⁽²²⁾.

بلغت الحرب العالمية الأولى ذروتها في تشرين الأول / أكتوبر 1918. وخلال الحرب، وفي عدة مناسبات، قدّمت الحكومة البريطانية طمأنات بمعاملة منصفة لتركيا في الاتفاقية النهائية، وكان ذلك أساساً لتهدئة المسلمين وضمان دعم الهند المجهود الحربي. وقدّم الطمأنة الأخيرة رئيس الوزراء لويد جورج Lloyd George (1863-1945) في 5 كانون الثاني / يناير 1918، في خطاب

17 ظهر أن فكرة إعلان حصانة الأماكن المقدسة من الهجمات تعود إلى موظف مدني مسلم، ينظر: C. Bayley to Hardinge, 22 Aug 1914؛ وبالنسبة إلى النص الكامل للإعلان، ينظر: H. Poll. A, Nov. 1914, nos. 1-27, NAI.

18 ينظر في شأن مئات البرقيات والقرارات الخاصة بإعلانات الولاء من مختلف المنظمات والأفراد:

L/P&S/10, 518, nos. 4265, 4266, 4918, 4965-6/1914, IOR. Hon. Secy. of the Nadvatu'l-Ulema to Lt. Gov. of UP, 14 Dec. 1914, L/P&S/10, no. 4265, pt. II, 945, IOR.

19 H. Poll. A, Feb. 1915, nos. 178-204; H. Poll. A, May 1916, nos. 452-544, NAI.

20 ينظر: Sedition Committee Report, 118.

21 بالنسبة إلى نصوص الإعلانات والفتاوى باللغة التركية وإلى التوقعات والرأي العام وخيبة الأمل في تركيا في شأن أثر الجهاد، ينظر:

Ş. S. Aydemir, vol. II, pp. 561-565, vol. III, pp. 15-29; Y. H. Bayur, *Türk İnkılabı Tarihi*, Ankara 1983, vol. III, pp. 317-346; Text in English, A. E. Yalman, pp. 174-175;

من المثير للاهتمام أن السلطان المخلع عبد الحميد الثاني كان مرتاباً حيال الإعلان. ويُقَل عنه أنه قال: "ليس الجهاد نفسه، بل اسمه هو الذي كان سلاحاً في أيدينا في الأحيان التي أردت تهديد السفراء"، ينظر: A. Osmanoglu, *Babam Sultan Abdulhamid* (İstanbul: Timaş Yayınları, 1984), p. 231. ومع ذلك، كانت هناك بعض الحالات المعزولة. وبحسب ما ورد انضم حوالى سبعة مسلم هندي في مكة إلى القوات العثمانية. وحدثت بعض الاضطرابات على الحدود وعبر العديد من الطلاب من لاهور وبشاور الحدود إلى أفغانستان للذهاب إلى تركيا. ينظر: Z. H. Aybek, Ab Biti, Lahore, n.d. 21-63. لكن المحاولة الأكثر جدية حصلت في عام 1916 وتُعرف بـ "مؤامرة رسالة الحرير". ينظر:

Sedition Committee Report, pp. 176-179; "Birinci Dünya Savaşında Bir Hind Osmanlı Planı," Tarih ve Toplum, no. 103, 1992. H. Poll. B, Feb. 1915, nos. 742-753; Apr. 1915, nos. 412-415, NAI.

22 "Report A" ICP nr 206/ 1919 IOR.

ألقاه في مجلس العموم⁽²³⁾. ووُقِّعت هدنة مودروس، وبدأت الجيوش العثمانية في التخلص من الأسلحة⁽²⁴⁾. وتبين أن الوعود لم تكن وعودًا حقيقية، وما إن وقَّع الأتراك الهدنة حتى احتلت قوات الحلفاء إسطنبول، مقر الخلافة. وسار اليونانيون، بدعم من بريطانيا، نحو إزمير. وكان الحلفاء على استعداد لتسليم شرق الأناضول بأكمله إلى الأرمن. وكان من المقرر كذلك إنشاء دولة يونانية - بنطية في منطقة البحر الأسود. كان الوضع شبه ميؤوس منه. ووسط هذا الارتباك جاءت معاهدة سيفر التي سعت القوى الأوروبية من خلالها لحل الإمبراطورية العثمانية عمليًا وتقسيمها بين القوى المتحالفة. ومع ذلك، لم يكن من الممكن تنفيذ ذلك بسبب المقاومة الوطنية المتزايدة بقيادة مصطفى كمال باشا في الأناضول. وفي 19 أيار/ مايو 1919، بدأ حملته لمعركة الاستقلال في مدينة سامسون الشمالية. طردت السلطات البريطانية 150 مئثقًا عثمانيًا بارزًا وضابطًا في الجيش ومسؤولين إلى مالطا. وفي 23 نيسان/ أبريل 1920، أُنشئ برلمان جديد، مجلس الأمة الكبير، في أنقرة على نحو يشمل الوظائف التنفيذية والتشريعية على حد سواء⁽²⁵⁾. أخيرًا، في آب/ أغسطس 1922، حقق الجيش التركي نصرًا حاسمًا على اليونانيين.

لإنهاء الصراع كليًا، دعا البريطانيون حكومتَي أنقرة وإسطنبول إلى مؤتمر لوزان، لكن حكومة أنقرة لم تقبل، فقرر مصطفى كمال أولاً فصل السلطنة عن الخلافة، ثم ألغى مكتب السلطنة لإنهاء مشكلة الحكومتين في البلاد. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1922، سَنَّ مجلس الأمة الكبير تشريعًا جديدًا لهذا الغرض. أما الخليفة، فاضطر إلى أن يبقى بعض الوقت باعتباره وجهًا دينيًا، تختاره الجمعية الوطنية من بين أكثر أعضاء آل عثمان جدارة وملاءمة. وبهذه الطريقة انتهت حكومة إسطنبول. عارض السلطان وحيد الدين هذا القرار بشدة، ورأى أن حياته ومنصبه في خطر، ففرَّ من البلاد في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1922، على متن سفينة حربية بريطانية في اتجاه مالطا. وفي اليوم التالي، خلعت حكومة أنقرة من منصب الخليفة وانتخبت عبد المجيد الثاني. وأصدر الخليفة الجديد بيانًا صيغ بعناية لمسلمي العالم، من دون استخدام مفاهيم ذات مضامين سياسية كما أملت عليه الحكومة في أنقرة. وكان الأمر واضحًا: ألا يشارك الخليفة في الحكومة بأي شكل أو وسيلة⁽²⁶⁾.

بينما كانت هذه الأحداث الحاسمة تجري في تركيا، بدأ مؤتمر لوزان. وبعد جلسات عدّة مطولة وأشهر من المناقشات، وقَّعت معاهدة لوزان التي تعترف بالسيادة التركية على الأراضي التي تشكل تقريبًا الجمهورية الحالية. ومن ناحية أخرى، كان على تركيا أن تتخلَّى عن جميع الحقوق المتعلقة بالأراضي العثمانية السابقة التي باتت الآن خارج الحدود، وكذلك عن التطلعات السياسية مثل الجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية⁽²⁷⁾. وأعقب ذلك إعلان تأسيس الجمهورية التركية في 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1923، وكان مصطفى كمال أول رئيس لها. وصار من الممكن للجمهورية التركية الجديدة أن تبدأ بإصلاحات سياسية واجتماعية وثقافية ودينية. وكان أولها إنهاء الخلافة العثمانية، الموضوع الذي كان نقطة التقاء العالم الإسلامي خلال عدة قرون.

23 رفض لويد جورج في 5 كانون الثاني/ يناير 1918 في مجلس العموم جميع المقاربات الإمبريالية وقال: "أنا أعبر عن مشاعر وقارات الأمة والإمبراطورية بأكملها. لسنا في حالة حرب مع تركيا لنحرّمها عاصمتها القسطنطينية، أو نفصل السهول الخصبة في آسيا الصغرى وتراقيا، حيث يتمتع الشعب التركي بالأغلبية المطلقة من السكان، كما أننا لا نعارض المبادئ القائلة إنه في المناطق التي يشكل فيها الأتراك أغلبية، يجب أن يظلوا تحت السيطرة والسلطة وأن تظل القسطنطينية عاصمتهم". وبعد أيام قليلة، في 8 كانون الثاني/ يناير، جاءت المبادئ الأربعة عشر الشهيرة للرئيس ويلسون لإنهاء الأعمال العدائية وعُبرت عن الطمأنات نفسها التي قدمها رئيس الوزراء البريطاني: *The Times*, 6/1/1918; H. Timperley (ed.), *A History of the Peace Conference of Paris*, London, 1920-24, vol. VI, pp. 1-22.

24 بالنسبة إلى المصطلحات: Hansard Parliamentary Papers, 1919, pp. 25-27.

25 Mustafa Kemal Atatürk, *Nutuk* (İstanbul: Devlet basimevi, 1938), pp. 323-313.

26 بالنسبة إلى الشروط التي وُضعت أمام الخليفة الجديد في شأن ما يستطيع وما لا يستطيع. ينظر:

Nutuk, pp. 498-500; FD. Foreign and Poll. Dept. Extn (sec.) no. 657-X, *National Archives of India* (NAI), p. 469.

27 Documents on British Foreign Policy, First Series, XVIII, 688-1044; S. L. Meray, *Lozan Barış Konferansı Tutanaklar Belgeler*, Ankara, 1969.

تابع مسلمو شبه القارة الهندية الحرب العالمية الأولى عن كثب وتفاعلوا بحماسة مع مجرياتها. وقرب نهاية الحرب، وصل هذا الاهتمام إلى ذروته. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1918، نظموا حركة الخلافة الشهيرة. كان هدفهم الرئيس هو الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية وسيادتها ضد الانتهاكات الغربية. وكانت تحذوهم آمال متعلقة بانتهاء جهدهم إلى شيء من النجاح؛ لأن موقفهم كان يركز على عدة وعود مطمئنة قدمها رجال الدولة البريطانيون بأن يعدلوا في معاملتهم تركيا⁽²⁸⁾.

بدأت الحركة مجموعة صغيرة من الشخصيات البارزة مثل مولوي عبد الباري، والدكتور مختار أحمد أنصاري (1880-1936)، وحكيم أجمل خان (1868-1927)، وأبو الكلام آزاد (1888-1959)، وحسرت موهاني (1875-1951)، وسيث شوتاني، وعمر صبحاني (1890-1926)، ومشير حسين كيدواي (1878-1937)، وسيد ظاهر أحمد (1942)، والأخوين علي، شوكت ومحمد. وظهرت أول التعبيرات عن المشاعر المؤيدة للأتراك في كانون الأول/ ديسمبر 1918، في الجلسة السنوية لرابطة مسلمي الهند في دلهي⁽²⁹⁾. كان العزم تنظيم حركة شعبية لمصلحة الأتراك قبل مؤتمر السلام الذي سيقدر مصير الإمبراطورية العثمانية. ثم أُسست هيئة منفصلة، لجنة الخلافة المركزية، في اجتماع عُقد في بومباي في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919. وفي وقت لاحق، أُسست لجان محلية وإقليمية في جميع أنحاء البلاد. واجتمعت لجنة الخلافة المركزية في دلهي يومي 23 و24 تشرين الثاني/ نوفمبر لتقرر أنشطتها. في ذلك الوقت، أبدى الهندوس أيضًا اهتمامًا باللجنة وقدموا لها دعمهم. وترأس المهاتما غاندي الشهير اجتماع دلهي. ودعوا إلى تمثيل هندي في مؤتمر السلام وحثوا على بقاء إسطنبول في أيدي الأتراك. وسرعان ما تناولت قضية الخلافة الهيئات التمثيلية الرئيسة الثلاث للمجتمع الهندي: رابطة مسلمي عموم الهند، ولجنة الخلافة المنشأة حديثًا، والمؤتمر الوطني الهندي. وأعلن يوم 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1919 يوم الخلافة في الهند كلها. وكانت هذه أول مناسبة حقيقية للناشطين كي يظهروا الوحدة الهندية حيال قضية الخلافة. أصدر غاندي بيانات لتشجيع الهندوس. ونتج من ذلك نجاح كبير. وتجمّع مئات الآلاف من الأشخاص في أماكن الاجتماع في مدن مختلفة. وفي أوائل عام 1920، التقى وفد مسلم من الشخصيات البارزة نائب الملك. وأوضح أعضاء الوفد أن الخلافة مؤسسة دينية أساسية، وأن انقراضها سيكون كارثة لا يمكن أن يتحملها المسلمون. ولفقوا الانتباه إلى الوعود العديدة التي قطعت في الماضي. وردّ نائب الملك بأنه سيواصل إقناع الحكومة في لندن بوجهة النظر الإسلامية، ووعد بمساعدة وفد الخلافة الهندي الذي كان يوشك أن يسافر إلى أوروبا لعرض القضية على الحكومات الأوروبية وإقناعها بخطورة الأمر. تألف الوفد من محمد علي وسيد حسين، رئيس تحرير صحيفة *ذي إندبندنت* *The Independent*، وسيد سليمان الندوي، مدير أكاديمية شبلي في أزمجاره ورئيس تحرير صحيفة *الندوة*، وأبي القاسم، عضو المجلس التشريعي في بومباي. وانضم إليهم كيدواي لاحقًا في أوروبا. وغادر أعضاء الوفد بومباي إلى أوروبا في 1 شباط/ فبراير 1920. وبينما كانوا في الطريق، بدأ مؤتمر السلام في لندن. ووصلوا إلى لندن في 26 شباط/ فبراير، واتجهوا على الفور إلى البرلمان البريطاني، حيث كان يجري نقاش حول المسألة التركية. وتابعوا العملية بقلق شديد؛ ففي تلك اللحظة تحديدًا، كان الأعضاء المناهضون لتركيا يدينون الأتراك بلا هوادة ويطالبون بطردهم من أوروبا وإسطنبول. وبعد بضعة أيام، فوجئ الوفد مرة أخرى عندما أدرك أن موقف الرأي العام في إنكلترا لا يختلف عن الأجواء السائدة في البرلمان. وطالبت الصحافة البريطانية، لا سيما صحيفة *ذي تايمز*، وكذلك كبار السياسيين، بطرد الأتراك من أوروبا وتحرير الدول الأخرى من الحكم التركي.

28 Home Dept. Poll. A, March 1919, NAI; A. C. Niemeijer, *The Indian Khilafat Movement* (Leiden: Brill, 1970), p. 80; Shan Muhammad, "The Indian Muslims, A Documentary Record 1900-1947," *Civil and Military Gazette*, vol. V1 (3 January 1919), pp. 92-239; K. K. Aziz, *The Indian Khilafat Movement, 1915-1923, A Documentary Record*, Karachi, 1972, pp. 60-64.

29 Political and Secret Subjects File, 186/1920, IOR; Nineteenth Century, LXXXVI, 1919, p. 116; Abdul Hamid, *Muslim Separatism in India: A brief Survey 1858-1947* (Lahore: Oxford University Press, 1967), p. 134.

نظرًا إلى المواقف المعروفة المعادية للأتراك التي تبناها لويد جورج واللورد كرزون، كان من الصعب أن توقع مقارنة متساهلة تجاه قضية الخلافة⁽³⁰⁾. وقد عقد الوفد الهندي محادثتين رسميتين مع وزراء الحكومة. أولاً، استقبلهم اللورد فيشر في 2 آذار/ مارس 1920، نيابة عن إدوين مونتاجو Edwin Montagu (1879-1924)، وزير الدولة لشؤون الهند. وعبر محمد علي عن رؤية المسلمين الهنود على نحو واضح وشامل. فالخليفة هو المدافع عن إيمانه، ولا بد من أن تظل سلطته الروحية والزمنية كما هي، وأن تظل الأراضي التركية محمية. وأكد الوفد أنهم موجودون في إنكلترا بوصفهم مسلمين، وليس بوصفهم ممثلين للأتراك، وأن مطالبهم دينية محضة. وأكد لهم اللورد فيشر أن الحكومة البريطانية ستأخذ في الاعتبار مشاعر المسلمين، بل قال أيضاً: "ليس سرًا، في الواقع، أن القرار الذي اتخذته القوى المتحالفة والمتحدة بالإبقاء على السيادة التركية في القسطنطينية كان متأثرًا إلى حد بعيد برغبة الحكومة البريطانية في إرضاء المشاعر الدينية لرعاياها المسلمين في الهند"⁽³¹⁾.

كانت المقابلة الثانية مع لويد جورج، ولكن ليس قبل توقيع المعاهدة. ولم تنجح حجة الوفد المتمثلة في أن عقد اجتماع بعد اتخاذ جميع القرارات سيكون بلا جدوى. وفي 17 آذار/ مارس، التقى بهم جورج وكرروا المطالب ذاتها. وكان رد جورج صريحًا؛ فلم يبد منه أي انتباه إلى المسائل التي أثارها المندوبون، ولم يشير إلى وعده الذي قطعه في 5 كانون الثاني/ يناير 1918. وكان من المقرر أن يعامل الأتراك وفقًا للمبادئ التي تنطبق على الدول المهزومة الأخرى، من دون أن يُمنحوا أي معاملة تفضيلية. وبرر جورج الأنشطة اليونانية في الأناضول بقوله إن اليونان لها الحق في ضمّ تراقيا وإزمير⁽³²⁾.

لم تكن هذه التطورات واعدة، وعاد الوفد في نهاية الأمر إلى بومباي في تشرين الأول/ أكتوبر 1920. وبينما كان الوفد في باريس، جرى توقيع معاهدة سيفر التي تضمنت كل ما كان المسلمون يخشونه. وكانت المعاهدة المقترحة تعني عمليًا نهاية الإمبراطورية العثمانية. ورغم أن السلطان الخليفة بقي في إسطنبول، فإنه كان عمليًا أسيرًا لدى حلفائه⁽³³⁾.

خلال هذه الظروف، كادت جميع الجهود التي بُذلت باسم قضية الخلافة وتركيا تذهب سدى. فأرسلوا برقية إلى السلطان وحيد الدين ليعربوا عن دعمهم، وطلبوا منه أن يرفض المعاهدة. وفي هذه الأثناء، كان المسلمون في الهند يتابعون بقلق الأحداث والأنشطة التي يقوم بها وفد الخلافة في أوروبا. وعندما وصلت أنباء معاهدة سيفر المخيبة للآمال إلى الهند، شعروا بالغضب. وكان تجاهل الحكومة البريطانية لضمّاناتها بالمعاملة العادلة للأتراك خرقًا لوعدها. فأصدروا نداءً، وأعلنوا في 19 آذار/ مارس 1920 يوم حداد. وكان الجو متوترًا جدًا، ووصف زعماء الجماعات الهندية، من مسلمين وهندوس، مسألة مستقبل حركة الخلافة بأنها "مسألة حياة أو موت". واتخذ قرار باستخدام أسلوب جديد للمقاومة، وهو عدم السماح لأي شخص بالعمل في المكاتب الحكومية لتنفيذ سياسة عدم التعاون التي لن تُستخدم فيها القوة. واعتبر هذا اختبارًا للمشاعر الشعبية. وفي 22 حزيران/ يونيو 1920، كتب غاندي خطابه البالغ الأهمية إلى نائب الملك، احتجاجًا على معاملة تركيا، وطالبه بالاستقالة لأنه لم يرقّ إلى مستوى توقعات الهنود. وبعد يومين، أرسلت بعض الشخصيات الإسلامية البارزة خطابًا إلى الحكومة تقول فيه إنها ستمنع المساعدات عن أولئك الذين أضغفوا

30 E. Ronaldshay, *The Life of Lord Curzon*, III (London: Benn, 1928), pp. 259-268.

31 The Secretary State for India and the Khilafat Delegation, *The Indian Khilafat Delegation Publications*, 1920, cited in: K.K. Aziz, p. 92.

32 Political and Secret Memoranda, pp. 370-371, IOR; G. Minault, *The Khilafat Movement: Religious Symbolism and Political Mobilization in India* (New York: Colombia University Press, 1982), p. 88; M. Naeem Qureshi, *Pan-Islam in British Indian Politics, A Study of the Khilafat Movement 1918-1924* (Leiden: Brill, 1999); For the full text *The Muslim Outlook*, April 1920, cited in: Shan Muhammad, vol. VII, pp. 185-202.

33 بالنسبة إلى النص الخاص بمعاهدة سيفر:

Treaty Series 1920; FO, 371/E. 5433/139/44, PRO; Cited in: Qureshi, Mohamed Ali's Khilafat Delegation to Europe, February-October 1920, Islamabad 19809, p. 45 ff.

الخلافة وتراجعوا عن وعودهم. وأعقب ذلك فتوى أقرها مئات العلماء المسلمين تحظر على المسلمين التعاون مع الحكومة⁽³⁴⁾. وكان هذا تحذيراً واضحاً لنائب الملك بأنه ما لم يفعل شيئاً لتوضيح موقف المسلمين من معاهدة سيفر، فسوف تطبق سياسة عدم التعاون بدءاً من 1 آب / أغسطس 1920.

في هذا التاريخ بدأت سياسة عدم التعاون، وطلب من الناس التخلي عن جميع الألقاب والمناصب التي منحتها الحكومة لهم ورفض حضور جميع المناسبات الرسمية. وطلب من الطلاب الانسحاب من المدارس والمعاهد العامة. ودعا البرنامج إلى مقاطعة جميع السلع الأجنبية ورفض الخدمة في الجيش البريطاني. وسرعان ما حظيت الحركة بدعم كبير من قطاعات الجماعة قاطبة. وكان الشعور العام السائد في البلاد هو أن بريطانيا وحلفاءها قرروا تدمير الإسلام. وخلصوا إلى أن عليهم المقاومة بجميع الوسائل الممكنة. وقُدِّمت تضحيات هائلة لتنفيذ سياسة عدم التعاون. وبعد عودة محمد علي إلى الهند، قام هو وغاندي بجولات مكثفة في جميع أنحاء البلاد لحشد الدعم. في البداية، تمكنت السياسة من أن تحرز تقدماً في جو من السلمية. وبمرور الوقت، وعلى الرغم من كل جهود القادة، بدأ العنف يظهر. وفي غضون ذلك، سُجنت أعداد كبيرة جداً من الناشطين. وكادت الهند تقع في حالة من الفوضى، وكانت روح الانتفاضة واضحة في كل مكان، وبدأت التطورات تخرج عن نطاق السيطرة. وفي شباط / فبراير 1922، هاجمت مجموعة من الناشطين في حركة عدم التعاون مركزاً للشرطة وأضرمت فيه النار؛ ما أدى إلى حرق أكثر من 21 ضابطاً حتى الموت. وفي ذلك الوقت، شعر غاندي بأنه يتعين عليه إيقاف العصيان المدني الجماعي. وكان هذا، على نحو ما، نهاية التحالف الهندوسي - الإسلامي⁽³⁵⁾.

ظهر نوع آخر من ردّات الفعل على معاملة الحلفاء للإمبراطورية العثمانية وتجاهل بريطانيا للتطلعات الهندية، وهو ما يسمى بحركة الهجرة Hijret التي بدأت في صيف عام 1920. كانت هذه الحركة فرعاً من حركة الخلافة، ودعت إلى هجرة المسلمين من أرض لم تعد تعتبر داراً للإسلام. وفي أوائل عام 1920، أعلن شوكت علي في مؤتمر الخلافة في باتنا أن "ليس هناك سوى طريقين متاحين: الجهاد أو الهجرة". وبعد معاهدة سيفر، بدأت الفكرة تجتذب انتباه العلماء، فأصدروا فتوى تفيد أن الهجرة تجوز في ظروف يشعر فيها البشر أنه لم يعد في وسعهم أداء واجباتهم الدينية في ظل سلطة غير مسلمة⁽³⁶⁾. وقد كتب محمد علي رسالة إلى نائب الملك شرح فيها الفكرة: "عندما لا تكون الأرض آمنة للإسلام، لا يكون أمام المسلم سوى خيارين: الجهاد أو الهجرة. وفي حالتنا الضعيفة الحالية، فإن الهجرة هي البديل الوحيد أمامنا [...] وهذه الخطوة [...] ربما تكون الأكثر حسماً في تاريخ جماعتنا"⁽³⁷⁾.

افتُتحت مكاتب هجرة كثيرة في أجزاء مختلفة من البلاد. واقتنع آلاف كثر من المسلمين ببيع ممتلكاتهم والانضمام إلى حركة الهجرة. وفي غضون بضعة أسابيع، أصبح الموكب بمنزلة نوع من الخروج نحو ممر خير. وفي آب / أغسطس 1920 وحده، يُقدَّر أن حوالي 25 ألف شخص انتقلوا إلى هناك. لكن سرعان ما أدركت السلطات الأفغانية أنها لا تستطيع التعامل مع هذا التدفق المفاجئ واتخذت تدابير لإعادة المهاجرين. ونتيجة لذلك، تباطأت الهجرة. ويُقدَّر أن نحو 60 ألف هندي حاولوا الهجرة. وبعد معاناة ومشقة شديتين، عاد ثلثاهم إلى الهند. لكنّ البرد والمرض والإذلال وخيبة الأمل والصعوبات التي واجهتهم في الرحلة كانت كبيرة. وأشار مراقبون إلى أن الطريق من بيشاور إلى كابول كان يعجّ بقبور الرجال والنساء والأطفال الذين لم يتمكنوا من النجاة. وتفرّق بعض

34 The Indian Annual Registrar, 1921; Shan Mohammed, vol. VII, p. 37.

35 Minault, pp. 123, 143-145; A.C. Niemeijer, pp. 141-142.

36 I.H. Qureshi, *Ulema in Politics* (Karachi: Ma'aref Limited, 1972), p. 265; For the full text in Urdu, G.R. Mehr, Tabarrukat-ı Azad (ed), (Hyderabad, 1959), pp. 203-204, cited in: Sh. Ali Khan, "The Indian Khilafat Movement," *Journal of Pakistan Historical society*, vol. 48 (1984); H. Malik, *Muslim Nationalism in India and Pakistan* (Washington, DC: Public Affairs Press, 1963), pp. 343-344.

37 Bamford, *The Histories of Non-Cooperation and The Khilafat Movements* (Delhi: Manohar, 1925), p. 158; Muhammed Ali, *Freedom of Faith and its Price* (London: 1920), p. 117.

أولئك الذين لم يعودوا إلى الهند في جميع أنحاء آسيا الوسطى، بل إن بعضهم تمكن من الوصول إلى تركيا⁽³⁸⁾. وعلى أي حال، فإن حركة الخلافة فقدت زخمها بسبب الأحداث في الهند، لكنها لم تتراجع فجأة؛ لأنها كانت مرتبطة في الأساس بالتطورات في تركيا؛ ففيها كان النضال من أجل التحرير الوطني قد بدأ أصلاً واستمر بلا توقف. ولإظهار دعمهم، واصل المسلمون الهنود أنشطتهم المؤيدة للأتراك وعملوا بجهد لجمع الاشتراكات لصندوق الإغاثة التركي. وعلاوة على ذلك، ومع ورود أنباء انتصار الأتراك على اليونانيين، تصاعدت الحماسة في الهند. وتسبب دعم بريطانيا لليونانيين في الأناضول في صعوبات واجهتها الحكومة الهندية. وحث نائب الملك اللورد ريدنج لندن مراراً وتكراراً على التوصل إلى اتفاق مع الأتراك، وإيلاء الهنود ما يجب من مشاعر الاعتبار. وكان مفاد الرسالة التي نُقلت إلى لندن أن إسطنبول يجب أن تُخلى، وأن تظل سيادة السلطان الخليفة على الأماكن المقدسة محفوظة. إلا أن الحكومة البريطانية أصرت على موقفها المناهض للأتراك. لكن هذا الموقف تغير بعد الانتصار النهائي للأتراك على اليونانيين في معركة سكاريا. واضطرت بريطانيا، بعد أن وقفت وحدها بين حلفائها، إلى أن تنضم، في 11 تشرين الأول/أكتوبر 1922، إلى هدنة مودانيا التي انضم إليها الحلفاء، ومن ضمنهم اليونان، وتتوصل إلى اتفاق مع أنقرة⁽³⁹⁾، وهو ما مهد للدعوة إلى عقد مؤتمر لوزان.

كانت المشاعر متوترة في الهند خلال الأيام الحاسمة من الحرب اليونانية - التركية، وكذلك خلال الأزمة بين بريطانيا وتركيا، إبان هذه الحرب، ثم بعدها خلال جلسات المؤتمر. وعُقدت اجتماعات عديدة، كان المسلمون فيها ينتظرون بفارغ الصبر مراجعة معاهدة سيفر. بل إن المسلمين فكروا في تشكيل فيلق أنقرة الخاص لإرساله إلى تركيا، وانتُخبت لجنة لهذا الغرض. لكن التغييرات السياسية التي أجراها الأتراك أنفسهم فاجأت المسلمين الهنود؛ إذ كان فصل السلطنة عن الخلافة في تشرين الثاني/نوفمبر 1922 صدمة لهم؛ لأنه يعني تقسيم سلطتي السلطان الخليفة الروحية والزمنية غير القابلتين للتقسيم. كانت هذه تحديداً إحدى المسائل التي أثارها المسلمون الهنود في أوروبا عندما احتجوا على الخطط الغربية على الأسس ذاتها⁽⁴⁰⁾. وحتى قبل أن تصل ردات فعلهم إلى تركيا، كان السلطان وحيد الدين قد فرّ من البلاد، بعد عزله، وانتخب عبد المجيد خليفة جديداً من دون أي سلطة سياسية. وكانت ردة فعل المسلمين الهنود على هذه التطورات غير المتوقعة في البداية مزيجاً من التردد وعدم التصديق والإنكار. فقد اعتقد أغلبهم أن الأخبار التي وصلت إليهم كانت مختلقة أو مشوهة أو منقولة من طريق الأوروبيين. وعندما تبين أن الأمر صحيح، لم يكن الجميع على استعداد لقبول هذا الأمر الواقع، فقد اعتبر العديد من العلماء أن قرار حكومة أنقرة يتعارض مع مبادئ الإسلام، وتتابع التصرّيات حول الأسباب الداعية إلى هذا القرار. لكن أغلبهم كانوا ينتظرون بتفاؤل أن يحاول الأتراك إنقاذ الخليفة فحسب من عبء حكم البلاد حتى يتمكن من المزيد من التركيز على الأمور المتعلقة بالعالم الإسلامي. وبالنسبة إلى بعضهم، كان الأمر أكثر إسلامية من ذي قبل. وبناءً على هذا، رحّب مؤتمر جايا Jaya للخلافة، الذي عُقد في 27 كانون الأول/ديسمبر 1922، بهذا التغيير ترحيباً حذراً، واعتبره عودة إلى الممارسة الإسلامية الأصلية. وعُرض على مصطفى كمال باشا لقب سيف الإسلام ومجاهد الخلافة⁽⁴¹⁾. وذكر المؤتمر المسلمين بأن "الدفاع عن الإسلام واجب على المسلمين الهنود بقدر ما هو واجب على مصطفى كمال". وفي هذه الأثناء، أعلن مؤتمر لوزان عن المعاهدة. وكانت المواقف الأولية القاسية التي اتخذتها قوى الحلفاء تجاه تركيا كافية لإحداث اضطرابات في الهند. وقرر مؤتمر جايا للخلافة ما يأتي: "يعارض المسلمون جميع الشروط التي فرضها الحلفاء على تركيا في مؤتمر لوزان، التي

38 من الصعب تحديد الرقم الدقيق، وتراوح التقديرات بين 18 ألف إلى 50 ألفاً. والرقم الرسمي المذكور في مصادر الحكومة الهندية هو نحو 25 ألفاً، ينظر: A. C. Niemeijer, ff 31; S. Ali Khan, pp. 49-51.

39 L / P. S/10/895, 3344/1920, IOR.

40 لمعرفة ردات فعل المسلمين الهنود تجاه التطورات في تركيا، ينظر:

Home Poll. 18/ Nov. 1922, NAI. 30. G. Minault, p. 202; A. C. Niemeijer, p. 51.

41 M. K. Öke, *Hilafet Hareketleri* (Ankara: İrfan Yayinevi, 1989), pp. 83-84; M. Sadiq, *The Turkish Revolution and the Indian Freedom Movement* (Delhi: Macmillan India, 1983), p. 111; Shan Muhammad, pp. 183-187.

تهدف إلى إضعاف قوة الخلافة وهيبتها، كما أنهم يعارضون التدخل بأي شكل من الأشكال في استقلالية السلطان التركي، وعدم حماية حرمة الأماكن المقدسة، وعدم تحريرها من تأثير غير المسلمين، أو تقديم المساعدة لوضع دول إسلامية أخرى تحت سيطرة غير إسلامية [...] ويحذر هذا الاجتماع من أن مسلمي الهند في حال نشوب حرب مع تركيا، بسبب الموقف الظالم للحلفاء، وبخاصة بريطانيا، سيطلقون شرارة العصيان المدني على الفور في جميع أنحاء الهند، مع ترتيب البرنامج الشامل الذي سوف يشتمل على نشر الدعاية المعادية الشاملة بين الشرطة والجيش الهندي المكون من الهنود، ووقف التجنيد في الجيش، ورفض الاشتراك في صندوق القروض للحرب، ووقف إدخال الهنود في الوظائف الحكومية، والإضراب العام، وإقامة حواجز أمام الأقمشة والمشروبات الكحولية الأجنبية ومنع تصدير الحبوب الغذائية" (42).

وصلت هذه الرسالة إلى لندن بلا شك، وأدرك كثير من الإنكليز أن العامل الإسلامي الهندي في لوزان كان "أحد العوامل الحاسمة"، لكنه في شكله النهائي، لم يلبّ توقعات المسلمين الهنود. وواصل الهنود المؤيدون للخلافة انتقاد الحكومة البريطانية لعدم تلبية مطالبهم بشأن جزيرة العرب. وبذلك، كانت هنالك أسباب أخرى لاستمرار الحركة. وبعد ستة أشهر، في 3 آذار/ مارس 1924، واجه مؤيدو الخلافة أكبر ضربة لهم؛ فقد ألغى البرلمان التركي الخلافة. وكانت التطورات في تركيا فيما يتصل بموقع الخليفة مصدر قلق أصلاً للمسلمين الهنود، فقد كانت هناك مؤشرات تدلّ على احتمال وقوع صدام بين مصطفى كمال باشا والخليفة في وقت قريب. وكان هذا هو سبب رغبة لجنة الخلافة المركزية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1923 في إرسال وفد إلى تركيا للتعبير عن دعمها وشرح وجهات نظرها في شأن قضية الخلافة. غير أن هذه الزيارة لم تتحقق؛ لأن السلطات البريطانية رفضت منح الوفد جوازات سفر (43). وفي الشهر نفسه، كتب آغا خان (1877-1957) وسيد أمير علي (1849-1928)، بصفتهم ممثلين للجالية المسلمة في الهند، رسالة إلى رئيس الوزراء التركي عصمت باشا، يحثان فيها حكومته على استعادة الخلافة "على أساس يولّد الثقة والتقدير لدى الأمم الإسلامية". وجاء في الرسالة ما يلي: "بصفتنا أصدقاء ثابتين لتركيا الجديدة وفي تعاطف تام مع تطوراتها كعضو مستقل في مجتمع الأمم الحرة في العالم، فإننا نرغب، بإذنكم، في لفت انتباه الجمعية الوطنية الكبرى إلى الآثار المزعجة جداً للوضع الحالي غير المؤكّد للخليفة - الإمام بين الجموع الهائلة التي تنتمي إلى الطائفة السنية. لقد لاحظنا بأسف شديد أن الإسلام، كتعاليم أخلاقية وقوة متماسكة، يضع بين قطاعات كبيرة من السكان السّنة، نظراً إلى تدني كرامة الخليفة وهيئته ووزنه ونفوذه [...]". عندما كانت الخلافة في خطر من الهجمات الخارجية، ثارت المشاعر الإسلامية في جميع أنحاء العالم غاضبة، وأبدى مسلمو الهند تعاطفهم ودعمهم للأمة التركية معتقدين أنهم في كفاحهم من أجل استقلالهم يقاتلون أيضاً من أجل الحفاظ على سلامة المؤسسة التي رمزت إلى التضامن الإسلامي. كنا طيلة تلك الأوقات العصيبة نتضرع من أجل القضية التركية [...]". ما نلح عليه، بكل احترام، هو أن تظل الزعامة الدينية للعالم السني سليمة وفقاً للشريعة. وفي رأينا، فإن أي انتقاص من هيئة الخليفة أو إزالة الخلافة كعامل ديني من الجسم السياسي التركي يعني تفكك الإسلام واختفاءه العملي كقوة أخلاقية في العالم [...]". وفي رأينا، فإن الخليفة الإمام يرمز إلى وحدة الطائفة السنية. وحقيقة أنه عضو في الشعب التركي ومن ذرّة مؤسس الأمة التركية تمنح تركيا مكانة مرموقة بين الدول الإسلامية" (44).

42 Sadiq, p. 111; Shan Muhammad, pp. 183-187.

43 The Times, 14. XII. 1923; A. J. Toynbee, *Survey of International Affairs 1925: The Islamic World Since the Peace Settlement* (London: Oxford University Press, 1927), pp. 571-572.

44 لمعرفة ردة فعل الحكومة التركية على نشرها في الصحافة التركية وما جرى من تطورات حيالها، ينظر:

N. Güz, *Türkiyede Basın İktidar İlişkileri* (Ankara: Gazi Üniversitesi Basın Yayın Yüksekoku, 1991), pp. 95-120; 38. L/P&S/229, IOR, p. 546, 13 Dec. 1923; TBMM. GCZ. vol. IV, pp. 315-316.

تلقت بعض صحف إسطنبول الرسالة ونشرتها حتى قبل أن تعلم الحكومة التركية بها، مع أنها كانت موجهة إلى رئيس الوزراء التركي في أنقرة، واعتُبر هذا دليلاً على مؤامرة ضد الدولة التركية؛ إذ كانت صحف إسطنبول مصنّفة بوصفها معارضة مناصرة للخلافة. وأثيرت ضجة في أنقرة في شأن ما وُصف بالتدخل غير المبرر في الشؤون الداخلية للجمهورية التركية. ولأن آغا خان وأمير علي شيعيان، وكانا، في الوقت نفسه، معروفين بولائهما للبريطانيين، فقد فُسر تحركهما على أنه تكتيك مدفوع من الحكومة البريطانية. وقد كانت هذه الرسالة ذريعة رئيسة لمصطفى كمال وعصمت باشا لإلغاء الخلافة. وقد عُرض الأمر على الجمعية الوطنية في 1 آذار/ مارس 1924، وبعد يومين صوت النواب لصالح إلغاء المنصب، وحُلَّ الخليفة خلال أربع وعشرين ساعة، وطُرد جميع أفراد الأسرة العثمانية⁽⁴⁵⁾.

لم تكن نهاية الخلافة بسبب هذه الرسالة ونشرها في الصحف فحسب، كما أثير الأمر رسمياً⁽⁴⁶⁾؛ فقبل مدة طويلة من ذلك، كان يُعتقد أن إلغاء الخلافة أمر ضروري لأسباب شتى، ولم يكن هناك سوى انتظار الفرصة المناسبة. وفي هذا الصدد، تبقى الوثائق البريطانية، ومذكرات بعض الأعضاء البارزين في البرلمان التركي الأول، كاشفة ودالة⁽⁴⁷⁾. فقد تابع ممثلو بريطانيا في تركيا التطورات يوماً بعد يوم وأبلغوا لندن بها. وما يشيرون إليه هو أن مصطفى كمال باشا عارض وجود الخلافة؛ لأنه لم يكن يريد تقاسم السلطة مع خليفة في إسطنبول لا يزال الناس يُظهرون له الاحترام والولاء، ولأنه يُحتمل أن يكون الخليفة مركز المعارضة السياسية؛ لأن أولئك الذين كانوا ضد سياسات مصطفى كمال مالوا إلى تأييد الخليفة. وثالثاً، اعتُبر الشكل الجمهوري للنظام الجديد والإصلاحات العلمانية المخططة غير متوافقين مع وجود الخلافة. ورابعاً، كان يُعتقد أن الخلافة التي كانت دائماً مصدرًا للشكوك بالنسبة إلى الدول المسيحية الأوروبية، نظراً إلى حساسيتها تجاه الجامعة الإسلامية، تشكّل مصدر خطر مستمراً على الأمة التركية. وأخيراً، توصل عصمت باشا، خلال مفاوضات لوزان، إلى استنتاج مفاده أن إلغاء الخلافة من شأنه أن يؤثر في السياسات البريطانية تجاه تركيا⁽⁴⁸⁾.

علّق المفوض السامي البريطاني، رونالد تشارلز ليندسي Ronald Charles Lindsay، في إسطنبول على هذه القضية، قبل أسبوع واحد فقط من نهاية الخلافة، قائلاً إن زعماء أنجورا قرروا التخلص من الخليفة لأنهم يأملون أن يؤدي هذا الأمر إلى "تخفيف الشكوك البريطانية حيال الجامعة الإسلامية، وأن "ينحو إلى أن يجعل حكومة صاحبة الجلالة أقل صعوبة في التعامل مع مسألة الموصل"⁽⁴⁹⁾.

كيفما كانت أسباب ذلك، جاء قرار حكومة أنقرة صدمة كبيرة للمسلمين الهنود؛ ففي البداية لم يصدقوا. وعندما تأكدت الأنباء، فوجئوا بالقرار وسارعوا إلى وصفه بأنه "كفر"، ودعوا الحكومة التركية إلى إعادة النظر في قرارها، لكن أنقرة لم تستمع إلى طلبهم⁽⁵⁰⁾.

45 PSSF p. 2456/241 with 1135/241, IOR.

كان على الخليفة السابق المخلوع أن يقضي بقية حياته على راتب من نظام حيدر آباد، وتبرعات من أمراء هنود، ومن أقطاب جمعية أمير علي للهلال الأحمر ومموليها. ينظر: Lindsay to MacDonald, March 12, 1924, FO, 371/10217. PRO.

46 British High Commissioner to London, 12 Dec 1923, L/P&S/10/895. 344/1920, p. 4928. IOR.

47 على سبيل المثال، ينظر:

İ. Bozdağ (ed.), *Kazım Karabekir, Paşaların Kavgası* (İstanbul: Emre Yayınları, 1992); Rauf Orbay, *Cehennem Değirmeni Siyasi Hatıralar* (İstanbul: Emre Yayınları, 1993).

48 بخصوص التقارير من إسطنبول، ينظر:

FD. Foreign and Poll. Dept. Ext. (sec.) no. 657-x, pp. 453-454, 457-458, 460, 469-470, 474-475, 483, NAI; Lindsay to London, 12 Dec 1923, L/P&S/ 10/895, pp. 3344/1920, IOR; FO, 371/10217, no. 66, PRO.

49 27 Feb. 1924, L/P&S/10/1111, pt. 2, p. 1224 IOR.

في رسالة أخرى، ورد أيضاً أنه "فيما يتعلق بمفاوضات الموصل على وجه الخصوص، فإنهم يعتزمون استغلال إلغاء الخلافة دليلاً على أن الجامعة الإسلامية قد ماتت وأن بريطانيا العظمى ليس لديها من الآن فصاعداً سبب للخوف في المستقبل من المشاكل التي تسببت بها في الماضي تبعاتها الإسلامية". ينظر:

Lindsay to London, March 8, 1924, no. 200, pp. 1443/1924. IOR.

50 Civil and Military Gazette, 10 March 1924; A. C. Niemeijer, p. 155.

وعقدوا مؤتمر الخلافة لمناقشة الأمر، وأصدر المؤتمر قرارات حاسمة بالإجماع تشجب إلغاء الخلافة⁽⁵¹⁾. وبعد الصدمة والغضب الأوليين، اقترح أنصار الخلافة، بعد أن رأوا أن أنقرة غير راجية في التراجع عن قرارها، أن يقبل مصطفى كمال لقب الخليفة، ولكنه استهجن ذلك ورفضه⁽⁵²⁾. وفي نهاية المطاف، لم يقبل المسلمون الهنود، في الإجمال، الأمر الواقع الذي فرضته الحكومة التركية في أنقرة⁽⁵³⁾. وعلى الرغم من كل الجهود والمناشدات والاحتجاجات من المسلمين الهنود، فإنه لم يكن هناك أي تغيير في تركيا؛ إذ كانت عملية العلمنة قد بدأت بالفعل.

أدى إلغاء الخلافة أيضاً إلى تغيير جذري في الوضع السياسي في الهند. فقد فقدت حركة الخلافة قوتها السياسية وجاذبيتها لدى الجماهير؛ لأنها خُرمَت من مبرر وجودها. ولم يعد هناك وجود لوحدة بين المجموعات المختلفة التي تمثل كل مناحي الحياة والقطاعات المجتمعية. بل إن زعماء الحركة انقسموا فيما بينهم. والأهم من ذلك أن هذا الأمر ساهم في تدهور العلاقة بين الهندوس والمسلمين. ومع نهاية حركة الخلافة بدأ الهندوس في الابتعاد عن المسلمين وبدأت المنظمات الطائفية بين المجموعتين تتعزز. واختار زعماء حركة الخلافة، مع إحباطهم وخيبة أملهم، الصمت أو الانضمام إلى إحدى هذه المنظمات الطائفية. وعلى هذا النحو، انتهت حركة الخلافة الطموحة ببطء⁽⁵⁴⁾. واندثرت مؤسسة الخلافة، التي استمرت قروناً من الزمان، وسط مشاعر التفجع التي انتابت الملايين من المسلمين.

51 M. Zaidi (ed.), *Evolution of Muslim Political Thought in India*, vol. IV (New Delhi: Michiko & Panjathan, 1975-1979), pp. 613-619; cited in: M. Sadiq, p. 119;

ينظر ردّات فعل أخرى في:

Civil and Military Gazette, 11 March 1924; 15 March 1924; Abstract of: Intelligence no. 19, for the Week 10/5/24. f. 12/6/1, vol. XI B. N. 29.

52 M. K. Öke, p. 122; Azad's Letter to Haqiqat L/R/5/ NNR, no. 20/1924. IOR.

53 رأى بعضهم، منهم أبو الكلام آزاد، أن الخلافة باعتبارها مؤسسة انتهت إلى يد شخص واحد هو من أقوى أمة إسلامية. وبذلك، فإن المؤسسة انتقلت الآن تلقائياً إلى البرلمان التركي بوصفها هيئة تمثيلية لأقوى دولة إسلامية. ولذلك اعتبر إلغاء الخلافة غير سار ومستحيلاً من الناحية النظرية. ورأى آخرون أن التطورات في تركيا تقدمية ومقبولة. وعلى سبيل المثال، وافق محمد إقبال على القرار قائلاً إن هذا كان ممارسة لحقّ الاجتهاد. ينظر:

M. Iqbal, *Reconstruction of Religious Thought in Islam* (Lahore: Iqbal Academy Pakistan, 1930), p. 149; A. Kalam Azad, *India Wins Freedom* (New Delhi: Orient Black Swan, 1978).

54 واصلت مجلة (*Indian Annual Registerer*) نشر أخبار مؤتمرات الخلافة حتى عام 1933.

المراجع

- Abbasi, M. Y. *The London Muslim League 1908-1928: An Historical Study*. Islamabad: National Institute of Historical and Cultural Research, 1988.
- Ahmad, Aziz. "An Eighteenth-Century Theory of the Caliphate." *Studia Islamica*. vol. 38 (1968).
- Ali Khan, Sh. "The Indian Khilafat Movement." *Journal of Pakistan Historical Society*. vol. 48 (1984).
- Ali, Muhammed. *Freedom of Faith and its Price*. London: 1920.
- Atatürk, Mustafa Kemal. *Nutuk*. İstanbul: Devlet basimevi, 1938.
- Azad, A. Kalam. *India Wins Freedom*. New Delhi: Orient Black Swan, 1978.
- Bamford, P.C. *The Histories of Non-Cooperation and The Khilafat Movements*. Delhi: Manohar, 1925.
- Bayur, Yusuf Hikmet. *Hindistan Tarihi*. Ankara: TTK, 1950.
- Bozdağ, İ. (ed.). *Kazım Karabekir, Paşaların Kavgası*. İstanbul: Emre Yayınları, 1992.
- Davison, Roderic H. "Russian Skill and Turkish Imbeddity: The Treaty of Kuchuk Kainardji Reconsidered." *Slavic Review*. vol. 35, no. 3 (1976).
- Dignan, Don. *The Indian Revolutionary Problem in British Diplomacy 1914-1919*. New Delhi: Allied Publishers, 1983.
- Güz, N. *Türkiyede Basın İktidar İlişkileri*. Ankara: Gazi Üniversitesi Basın Yayın Yükseköğretim Enstitüsü, 1991.
- Hamid, Abdul. *Muslim Separatism in India: A Brief Survey 1858-1947*. Lahore: Oxford University Press, 1967.
- Hurewitz, Jacob C. *Diplomacy in the Near and Middle East, A Documentary Record 1515-1914*. Toronto: D. Van Nostrand Company, Inc., 1956.
- Iqbal, Afzal. *Life and Times of Mohamed Ali*. New Delhi: Idarah-i Adabiyat-i Delli, 1978.
- Iqbal, Muhammad. *Reconstruction of Religious Thought in Islam*. Lahore: Iqbal Academy Pakistan, 1930.
- Jahanpuri, A. S. Shah. *Ghazi Abdurrahman Shahid Peshawari*. Karachi: [n. p.], 1979.
- Khaliquzzaman, Chaudhry. *Pathway to Pakistan*. Lahore: Longmans, 1961.
- Lewis, Bernard. "The Ottoman Empire in the Mid-nineteenth Century: A Review." *Middle Eastern Studies*. vol. 1 (1965).
- Mahmud, Syed. *The Khilafat and England*. Patna: Mohamed Imtiyaz, 1920.
- Malik, H. *Muslim Nationalism in India and Pakistan*. Washington, DC: Public Affairs Press, 1963.
- Minault, G. *The Khilafat Movement: Religious Symbolism and Political Mobilization in India*. New York: Colombia University Press, 1982.
- Muhammad, Shan. "The Indian Muslims, A Documentary Record 1900-1947." *Civil and Military Gazette*. vol. VI (3 January 1919).
- Naimtullah, S. M. "Recent Turkish Events and Moslem India." *The Asiatic Quarterly Review* (October 1913).
- Niemeijer, A. C. *The Indian Khilafat Movement*. Leiden: Brill, 1970.
- Öke, M. K. *Hilafet Hareketleri*. Ankara: İrfan Yayınevi, 1989.

- Orbay, Rauf. *Cehennem Değirmeni Siyasi Hatıralar*. İstanbul: Emre Yayınları, 1993.
- Özcan, Azmi. *Pan-Islamism: Indian Muslims, The Ottomans and Britain (1877-1924)*. Leiden/ New York/ Köln: Brill, 1997.
- Paşa, Cevdet. *Vaka-i Devlet-i Aliye*. İstanbul: 1855.
- _____. *Tarih-i Cevdet*. İstanbul: Türk Tarih Kurumu Yayınları, 1895.
- Prasad, Y. D. *The Indian Muslims and World War I*. New Delhi: Janaki Prakashan, 1985.
- Qureshi, I. H. *Ulema in Politics*. Karachi: Ma'aref Limited, 1972.
- Qureshi, M. Naeem. *Pan-Islam in British Indian Politics, A Study of the Khilafat Movement 1918-1924*. Leiden: Brill, 1999.
- Ronaldshay, E. *The Life of Lord Curson*. London: Benn, 1928.
- Sadiq, M. *The Turkish Revolution and the Indian Freedom Movement*. Delhi: Macmillan India, 1983.
- Sedition Committee. *Report*. Calcutta: 1918.
- Timperley, H. (ed.). *A History of the Peace Conference of Paris*. London: 1920-24.
- Toynbee, A. J. *Survey of International Affairs 1925: The Islamic World Since the Peace Settlement*. London: Oxford University Press, 1927.
- Weismann, Itzhak & Fruma Zachs (eds.). *Ottoman Reform and Muslim Regeneration*. London: Bloomsbury, 2006.
- Yurdakul, İlhami. "Şeyhülislam Abdullah Efendi ile Şeyhülislam Medeni Mehmet Nuri Efendi' nin Hilafet Hakkında Muhtıraları." *Divan*. vol. 6 (1999).
- Zaidi, A. M. (ed). *Evolution of Muslim Political Thought in India*. New Delhi: Michiko & Panjathan, 1975-1979.



ترجمات Translations





فرانسوا دوس | *François Dosse
ترجمة: أنس ريري | **Translated by: Anas Riri

التاريخ والتحليل النفسي: جينولوجية علاقة***

History and Psychoanalysis: The Genealogy of a Relationship

تبني المعرفة التاريخية مشروعها عبر حوار جوهري مع التحليل النفسي، حيث تتحول الوقائع إلى نصوص لواعية تنتظر التفكيك، ولا يقتصر هذا التداخل الجدلي على تطبيقات "النظرية الفرويدية" على أحداث الماضي، بل يتعداه إلى إعادة تعريف التاريخ نفسه كسيرورة علاجية تكشف عن الصدمات المكبوتة للجماعات والأمم. يبرز هنا التحليل النفسي كعدسة مفصصة عن العلاقات الخفية بين البنى الظاهرة والرغبات المتوارية، تراوح بين الإسقاط والتبرير والكبت. يبحث كل من المؤرخ والمحلل النفسي عن المعنى في الفجوات والانزياحات، وأحياناً في الصمت أكثر من الكلام. يضعنا فرانسوا دوس في تحليله لهذه العلاقة المتشابكة أمام إشكالية إبستمولوجية مركزية: كيف يمكن للتاريخ أن يظل موضوعياً وهو يخضع لقوانين اللاوعي؟ وإلى أي حد يقدم التحليل النفسي قراءة منهجية في تناوله لوقائع تاريخية حاضرة/ غائبة؟

كلمات مفتاحية: التاريخ النفسي، اللاوعي الأرشيفي، أركيولوجيا الحدث، التأويلية المتشظية، عبور التخصصات.

Historical knowledge necessitates an essential dialogue with psychoanalysis, whereby historical events transform into unconscious texts requiring critical deconstruction. This dialectical intersection extends beyond mere applications of "Freudian theory" to past events, advancing toward a fundamental reconceptualization of history itself as a therapeutic process that reveals the repressed traumas of collectivities and nations. Within this framework, psychoanalysis emerges as an analytical lens that exposes the hidden relationships between manifest structures and latent desires – mechanisms operating through projection, rationalization, and repression. Both historians and psychoanalysts pursue meaning through examining discursive gaps, epistemic displacements, and often more significantly, through analysing silence rather than speech. François Dosse's examination of this intricate relationship presents us with a central epistemological problem: How can historical inquiry maintain its claims to objectivity while being subject to the determinisms of the unconscious? Furthermore, to what extent can psychoanalysis provide a methodologically sound reading when addressing absent/present historical realities?

Keywords: Psycho-Historiography, Archival Unconscious, Archaeology of the Event, Fragmentary Hermeneutics, Interdisciplinary

* مؤرخ وفيلسوف فرنسي، يُعرف بمساهماته في حقل تاريخ الأفكار. يشغل حالياً منصب أستاذ التاريخ المعاصر في المعهد الجامعي لتدريب المعلمين (IUFM) في كريتيي.

Prominent French historian and philosopher recognized for his significant contributions to intellectual history. Currently, he holds the position of Professor of Contemporary History at the Institut Universitaire de Formation des Maîtres (IUFM) at Créteil.

** باحث في مختبر التاريخ والتراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، المغرب.

Researcher at the Laboratory of History and Heritage, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.

Ralpha967@gmail.com

*** François Dosse, "Histoire et psychanalyse: Généalogie d'un rapport," *Espaces Temps*, no. 80-81 (2002); Michel de Certeau, "histoire/ psychanalyse. Mises à l'épreuve," sous la direction de Christian Delacroix, François Dosse et Patrick Garcia, pp. 66-93. © Éditions Gallimard, Paris, 2010.

راجع هذه الترجمة محمد حبيدة. أستاذ التاريخ في جامعة ابن طفيل بالقنيطرة في المغرب.

This translation was reviewed by Mohammed Houbaida. Professor of History at Ibn Tofail University in Kenitra, Morocco.

houbaidamohamed@yahoo.fr

شهد كل من التحليل النفسي والتاريخ تدافعاً شبيهاً بما حصل بين المقاربة المعيارية والمقاربة التفردية؛ بين السرد وزمنيته من جهة، والتطلع إلى إيجاد تجانسات فعالة وعلاقات سببية، ومطامح علمية من جهة أخرى. وي طرح هذا التقارب العديد من العوائق المشتركة بين الاتجاهين.

انبثق من العلاقة التفاعلية بين الماضي والحاضر، الذي دشنته مدرسة الحوليات، تقاربٌ بين المادة التاريخية والتحليل النفسي. وقد بين ذلك المحلل النفسي الفرنسي، كونراد شتاين، في كتابه **المعنون الطفل المتخيل**⁽¹⁾، مؤكداً أن غاية العلاج، من باب المفارقة، هي تغيير الماضي، وهي مهمة تبدو مستحيلة لدى المؤرخ الذي لا يحبذ أن يدير ظهره للماضي بقطيعة لا يمكن تجاوزها، ويتعارض فيها الأحياء والأموات، كما لدى المحلل النفسي الذي يفشل في الاشتغال ببنية غير مكتملة للموضوع المستهدف بالتحليل. نجد تشابهات بين المنهجين في النقطة المتصلة بأهمية الحدث لدى المؤرخ والمحلل النفسي؛ فبالنسبة إلى هذا الأخير، لا يُختزل الحدث في صدمة حادة؛ إذ "لا يمكن تعريف الصدمة بشكل بسيط على أنها حدث خارجي، কিفما كانت درجة عنفها وتأثيرها، ولكن بمنزلة رابط بين خطر خارجي ودخلي، وبين الماضي والحاضر"⁽²⁾. يرى سيغ蒙德 فرويد أن الصدمة هي أثر لاحق، يقحم الماضي في فلك الحاضر، عبر مسارات تفضي إلى تقاطعات؛ لذلك فإن مهمة المحلل النفسي هي إبقاء طرفي السلسلة الدلالية بعيداً عن الحتميات الميكانيكية.

استطاعت مدرسة الحوليات، من خلال إحيائها الصلة بين الماضي والحاضر، أن تضع نصب أعينها هذا النوع من التقاطعات التي تكشف عن الماضي داخل الأثر اللاحق. لكن سرعان ما بلغ هذا التقارب بين النهجين حدوده في رحاب الفرضيات الدوركهايمية، وهي نفسها فرضيات المدرسة التاريخية الفرنسية التي شهدت مرحلة طويلة من "كسوف السرد"، وفقاً لما بينه بول ريكور في كتابه: **الزمن والسرد**. توجه طموح مؤرخي الحوليات العلمي إلى مختلف الأشكال التي تضيء الموضوعية على المصادر، بمسافة مع مقارنة الفهم. فإذا كان التاريخ إبداعاً، فبمعنى فرضياته العلمية، وليس بمعنى الحوار المستتر بين المؤرخ وأولئك الذين جرى إحياءهم. وشيئاً فشيئاً، تعزز هذا التوجه، وساهم في إضفاء طابع التعددية على الزمن الاجتماعي، وفي تسلسله انطلاقاً من نماذج تحليلية مستوحاة من علم الاقتصاد: اتجاهات، ودورات، وظرفيات. فقد ظل التاريخ كميّاً ولم يلاحظ أي خلاص علمي للمؤرخ إلا بالاعتماد على التكميم. وبالكيفية نفسها، تم تبخيس قيمة مكوّن آخر من دعائم الممارسة التاريخية في إطار هذا المنظور العلمي وهو: الحدث/ التحول. مررنا على نحو غير محسوس، من التاريخ بصفته علماً للتحول والتغيير، كما حدده مارك بلوك، إلى تاريخ شبه ثابت وفق التصور "الحيوتاريخ البروديلي"، وانتهاءً بـ "التاريخ الثابت"، وهو عنوان الدرس الافتتاحي لإيمانويل لوروا لادوريه الذي ألقاه في "كوليج دو فرانس". من هذا المنطلق، يصبح الزمن القصير والمقياس التحليلي البشري عدوين لعلوم الإنسان، ويمنح فيرناند بروديل لهذا المستوى من التحليل معايير كمية معبرة: "لعنة"، و"دخان"، و"نزوة"، و"أوهام خادعة".

يبدو أننا بلغنا مرحلة جديدة من الكتابة التاريخية، أكثر عمقاً، وذلك في سياق تحوّل حقيقي، هيرمينوطيقي وبرغماتي⁽³⁾. ويمكن أن تكون هذه اللحظة مثمرة، في إطار التبادل بين التاريخ والتحليل النفسي. إنها تسمح لنا، بعيداً عن الحدث نفسه، أن نضع في الحسبان السياق النصي الذي ينتجه، والآثار التي يخلفها وراءه، والأساطير التي تشغل حوله، والخطابات المخيالية التي تحتويه. وتصبح كل هذه الأدوات فضاء مميّزاً للمؤرخ الذي يتعبّر اليوم أن نظام التمثلات في تحولاتها المتتالية جوهرية في موضوع بحثه. فمن دون دراية بالفاعلين في الحدث، فإن تطور التمثلات لهذا الحدث، وتعدد الروايات التي ينتجها، هما جزء كامل من الحدث

1 Conrad Stein, *L'enfant imaginaire* (Paris: Denoël, 1971).

2 Michèle Bertrand & Bernard Doray, *Psychanalyse et sciences sociales* (Paris: La Découverte, 1989), p. 132.

نفسه في تقلبه مع مرور الزمن. هذا ما بدا جلياً من خلال منظور جورج دوبيه بخصوص "معركة بوفين"⁽⁴⁾، من خلال تأريخ عناصرها وأساليبها. يمكن المؤرخ الاجتماعي أيضاً تجنب أي شكل من أشكال تجنيس الأدوات الاجتماعية؛ فالحاضر في صورة ماؤ متبلور أو هيمنة مفهوم التجربة المعيشة، يسمح هنا أيضاً بإجراء نوع من المقابلة بين الممارسة التاريخية والممارسة النفسية، على الأقل فيما يتعلق بعلاقتها بالزمنية والذاتية. ويساهم التعريف الذي وضعه المؤرخ بيير نورا فيما يتصل بالطريقة الجديدة المتمثلة في "التاريخ الأنوي" (نسبة إلى "الأنا")⁽⁵⁾، في مسعى مماثل؛ إذ ينطلق من مسلمة مفادها أن المؤرخ يضيء التاريخ الذي يكتبه، بغض النظر عن تخصصه، محاولاً الكشف عن تاريخه الخاص. لذلك يجب أن يطبق على نفسه المنهجية التي يختبرها على الآخرين.

ومع ذلك، يصطدم كل من المؤرخ والمحلل النفسي بالعقبة نفسها؛ وهي المواجهة الضرورية بين الخطاب والواقع. وفي حقيقة الأمر، لا يمكن أن يقيد المؤرخ نفسه داخل دائرة التمثلات، أو حقل خطابي مستقل بالقياس على ظروف ظهوره. وعليه أيضاً أن يأخذ في الاعتبار الأهمية المادية لتسلسل الأحداث؛ أي التاريخ الاجتماعي بالمعنى الواسع. وعلى الشاكلة نفسها، يجب على المحلل النفسي أن يعود إلى ما هو واقعي لأنه يسمح، من دون الخلط بينه وبين الحقيقة، بمنح وضع للخيال: "فالحقيقة لها بعد في العلاج، لأننا لا نستطيع التمييز بين ما هو خيالي من غيره إذا لم تكن هناك علامات في الواقع"⁽⁶⁾.

من تاريخ النفسية إلى تاريخ العقلية: توظيفات مدرسة الحوليات

اشتهر مؤسساً مجلة **الحوليات** عام 1929، بلوك ولوسيان فيفر، بفتح آفاق البحث التاريخي على المجالين الاقتصادي والاجتماعي، غير أن معظم إسهاماتهما العلمية ارتبطت بحقل جديد في المعرفة التاريخية، ألا وهو دراسة الذهنيات. فقد تغذت مصنفاتهما الفكرية على رافدين رئيسين وهما: علم النفس الذي كان تأثيره مهماً في تلك الفترة بصفة خاصة بين المؤرخين الذين رغبوا في تجديد مناهجهم: "فالتاريخ إجمالاً، هو علم النفس ذاته؛ إنه ميلاد وتطور لما يُسمّى النفسية"⁽⁷⁾، وأيضاً علم الاجتماع الدوركيهامي، حيث بصم هذا الاستلهم المزدوج مسار مديري مجلة **الحوليات** بصفة متباينة.

انجذب فيفر أكثر نحو المواجهة بين الفرد والعالم الذهني الذي يتدخل فيه؛ وبهذا فتح فجوة نقدية في التاريخ التقليدي للأفكار من خلال وضع مهمة المؤرخ في مستوى التمهّل بين المنجز من الأعمال والظروف الاجتماعية والذهنية التي تمخض عنها. ومن أجل استبطان العالم الذهني والنفسي، فإنه يجعل من الفرد أيضاً عينةً للتحليل، سواء أكان مارتن لوتر، أو فرانسوا رابليه، أو مارغريت دو نافار، أو مجالاً مادياً ملموساً متفرداً. فقد كان علم النفس أكثر إلهاماً لفيفر من غيره، وهو الذي دعا إلى تأسيس تاريخ الأحاسيس، والحب، والموت، والعاطفة، والقسوة، والفرح، والخوف... إلخ، لكنه سرعان ما يبين أنه يجب دمج هذا التاريخ في دراسة شمولية لحضارة ما وعدم عزله عن جذوره بصفته شيئاً مبتوراً عن سياقه في إطار تعميمات دياكرونية موسّعة حول الطبيعة البشرية.

وتنص ثنائية الفرد/المجتمع، التي تمثّل جوهر إشكالية فيفر، على ما يلي: "ليس الفرد شيئاً آخر غير ما يعكسه عصره ووسطه الاجتماعي"⁽⁸⁾. يواجه فيفر من خلال عمله **المصير: مارتن لوتر**⁽⁹⁾، نفسية الفرد مع العالم الذهني الذي ميّز ألمانيا خلال القرن

4 Georges Duby, *Le Dimanche de Bouvines* (Paris: Gallimard, 1973).

5 Pierre Nora (dir.), *Essais d'ego-histoire* (Paris: Gallimard, 1987).

6 Cornélius Castoriadis, cité par Bertrand & Doray, p. 142.

7 Henri Berr, 1911, cité par: Jacques Revel, *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: PUF, 1986), pp. 450-456.

8 Lucien Febvre, *Combats pour l'histoire* (Paris: Armand Colin, 1953 [1938]), p. 211.

9 Lucien Febvre, *Un destin: Martin Luther* (Paris: PUF, 1968 [1928]).

السادس عشر، فمن وحي هذا الالتقاء انبعث إصلاح الكنيسة، والانشقاق عن روما. وعلى عكس الدراسات التقليدية، فإن من يستحق التقدير ليس هو الفرد، بل هو العالم الذهني، وهو نقطة التماس بين التطورات الفردية والجماعية. ويبقى الغرض من تطبيق قاعدة الأثر الرجعي في علم النفس هو استعادة المحددات الذهنية للفتحات الماضية، والقطع مع تصورات الطبيعة البشرية اللازمية والثابتة، ومن ثم مع أي شكل من أشكال المغالطة التاريخية؛ أي بالميل الطبيعي إلى نقل أنماط التفكير والأحاسيس واللغة إلى مجتمعات ليس لها معنى أو ليس لها على الأقل المعنى نفسه. هذا هو القصد من عمل فيفر الموسوم بـ **مشكل الإلحاد خلال القرن السادس عشر: ديانة رابليه** الصادر عام 1942: "يجب تجنب خطيئة الخطايا: إنها المغالطة التاريخية، فهي السقطة التي لا تغتفر"⁽¹⁰⁾. تساءل فيفر عن وضعية الإلحاد في القرن السادس عشر، وانتقد أطروحة أيل لوفران، التي جعلت من رابليه عقلانيًا ومفكرًا حرًا. لم تسمح الآليات الذهنية في القرن السادس عشر في نظر فيفر ببروز الفكر المنطقي، الذي بزغ متأخرًا مع الموضوعة الديكارتية خلال القرن الثامن عشر، ومع غاليليه، وكتاب **قواعد اللغة الفرنسية** لصاحبه بور رويال. وقد دشّن اكتشاف البنى الفكرية في القرن السادس عشر لدراسة التشكيلات الخطابية التي قادها ميشيل فوكو.

ويتقاسم بلوك مع فيفر هذا الاهتمام بتاريخ الذهنيات كما أنه يمنح، في سياق بنائه، علم النفس مكانةً مركزية. غير أن بلوك لم يكتب تاريخ الذهنيات بالطريقة نفسها التي سار عليها فيفر، فمصدر إلهامه الرئيس مختلف عنه ويتجاوز علم النفس، فقد نهل من ترسانة الأنثروبولوجيا التاريخية الحديثة العهد التي عايشها عن كتب. كان بلوك زميلًا في الدراسة للويس جيرني ومارسيل غرانيه، في المدرسة العليا، ثم جاور هذا الأخير داخل أسوار مؤسسة ثيبر في الفترة 1909-1912. وكان بلوك من بين هؤلاء الثلاثة، من تأثر تأثرًا حاسمًا بالدوركهامية المنفتحة على التاريخ. وجّه غرانيه زميله بلوك إلى الاهتمام بالطقوس والأساطير وعلم النفس الجماعي المقارن، ومنظومة المعتقدات؛ وستسمح كل هذه الثيمات بظهور عمل بلوك الكبير والمبكر عام 1924: **الملوك صانعو المعجزات**. لم تقتصر دراسة بلوك للذهن على مجال الفكر الواعي المنظم، بل حاول البحث عن العلاقات بين المواقف الدينية والوقائع الاجتماعية، لفهم التداخات السوسولوجية للتاريخ الديني والانعكاسات الدينية للتاريخ الاجتماعي. وقد مثلت الكنيسة، في هذا المستوى من الكتابة التاريخية، حدودًا بين العالمين المثالي والمادي. فعلى غرار فيفر، قاوم بلوك التصور السلبي للمؤرخ الذي تسيّد في رحاب ما يُسمّى المدرسة "التاريخانية"، وفُضّل، على عكس ذلك التساؤل، وضع الفرضيات على محك الوقائع، وليس تلك المكتوبة وفق إملاءاتها.

وفي إطار تاريخ الذهنيات، فتح من هذا المنظور أفقًا ثريًا بدعوته المؤرخ إلى أن يكون واعيًا بالمسكوت عنه في الوثائق: "ما يخبرنا به النص على نحو صريح، لم يعد اليوم موضوعًا يثير اهتمامنا"⁽¹¹⁾. فلنأخذ على سبيل المثال، سير القديسين (المناقب) المكتوبة إبان العصر الوسيط الأعلى، فهي تبرز أن حياة هؤلاء لا تخبرنا بشيء عن الشخصيات التي تدّعي توصيفها. وفي المقابل، تشكل منجمًا للمؤرخ الذي يستفسر عن الأصناف الذهنية في الماضي. يدمج بلوك أيضًا مصادر جديدة، وأدوات مبتدعة، من أجل تطوير الذهنيات، فهو لا يقتصر على الوثيقة المكتوبة، ولكنه يغنيها بالإيقونوغرافيا، ودراسة الطقوس... إلخ، باعتبارها وسائل تقود إلى لاوعي الممارسات الاجتماعية. إن تجربة كهذه، هي تجربة مَعيشة، قادت بلوك إلى سلك مسار دراسة هذه البنى العميقة وهذه الأصناف الذهنية: شارك في حرب 1914-1918 بصفته جنديًا، وبصفته مؤرخًا يفكر في واقعه المعيش: "كانت الحرب تجربة فريدة وكاشفة عن علم النفس الاجتماعي"⁽¹²⁾. استنادًا إلى هذه التجربة المكتسبة، وانطلاقًا من تبنيه لنهج متكرر اتخذته نموذجًا، تساءل

10 Lucien Febvre, *Rabelais ou le problème de l'incroyance au XVIe siècle* (Paris: Albin Michel, 1968 [1942]), p. 15.

11 Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire* (Paris: Armand Colin, 1974 [1941]), p. 62.

12 Marc Bloch, "Réflexions d'un historien sur les fausses nouvelles de la guerre," in: Marc Bloch, *Revue de synthèse historique*, repris dans *Mélanges M. Bloch* (Paris: EHESS, 1983 [1921]), p. 57.

بلوك عن المعتقد الجماعي فيما يخص قدرة الملوك على العلاج، ليخلص إلى أن الأمر يتعلق بما يمكن تسميته "الخبر الزائف الضخم". ومع ذلك، حينما درس موضوع تاريخ الذهنيات، فقد أدمجه ضمن رؤية شمولية واسعة من خلال المجال المدروس، وطويلة زمنياً، وأقحم جميع مظاهر المجتمع من دون أن يتخلى عن المظهر السياسي الذي يوجد في الكتاب. يتساءل بلوك عن قوة الشعور بالولاء تجاه المؤسسة الملكية وحيوية ذلك الشعور واستمراريته، ويرى في سماتها الخارقة تفسيراً محتملاً لذلك التساؤل. كما أنه يضع لبنات تاريخ متجدد للأفكار، يتغذى من أحداث الحياة اليومية أكثر مما يرتشف من الأعمال النظرية. إن طقس الشفاء والقدسية والمسحة الملكية كلها تحديات ورهانات متصارعة بين الكنيسة والأمراء الحاكمين. فالتنافس شديد على هذه الجبهة، حيث الغلبة للأقوى بين هيتين مهممتين في مجتمع العصور الوسطى: أولئك الذين يعبدون، وأولئك الذين يقاتلون. والذي قضى على هذا الاعتقاد هو التصدي السياسي للاستبداد، سواء في إنكلترا مع ثورة القرن السابع عشر، أو في فرنسا مع ارتقاء فكر التنوير خلال القرن الثامن عشر وثورة 1789. فمع تقدم العقلانية وانهيار الاستبداد اختفى تصور للعالم، ونشأ تصور جديد.

وبعد مرحلة طويلة من أفول الاهتمام بتاريخ الذهنيات، عاد هذا الأخير إلى واجهة البحث التاريخي ابتداءً من ستينيات القرن العشرين. إن السياق التاريخي، الذي ميّزه الجهد المبذول لتصفية الاستعمار والنجاح الفكري الذي حققته البنيوية، عزز الاهتمام بالأزمة الطويلة الثابتة، والاستمراريات، ومقاومات التغيير. ففي هذا الإطار، أحدث تاريخ الذهنيات شغفاً مذهلاً؛ وهو ما سمح للمؤرخ بارتداء عباءة الإثنولوجي لبناء تاريخ اجتماعي - ثقافي. ومن ثم، كان لتاريخ الذهنيات دور استراتيجي ثلاثي الأبعاد بالنسبة إلى المؤرخين، وخاصة لدى مدرسة الحوليات التي هيمنت على الخطاب التاريخي العالم. أولاً، إن المقاربة على مستوى الذهنيات تمكن من تجنّب الشبكة الماركسية القائمة على تراكم مستويين: البنية التحتية والبنية الفوقية؛ حيث يفضي هذا التمييز إلى إنتاج علاقات سببية ميكانيكية، حتى في صيغتها الأكثر تعقيداً، الواردة عند الفيلسوف الماركسي لويس ألتوسير. فمن خلال سمتها التي تشمل مفهوم الذهنيات، فإنها تتموقع عند نقطة تقاطع هذين المستويين. ثانياً، إن تاريخ الذهنيات هو إجابة من المؤرخين على الرواج المميز لما سمي "الفرويدية" التي لاحت بقوة في سنوات السبعينيات؛ إذ استطاع (أي تاريخ الذهنيات) أن يجد له موقعاً في تربة الحقل النفسي، عبر ترسيخ علم النفس الفردي في الجماعي. ومن ثم، تمكن المؤرخون أن يبلغوا لوعي الممارسات الجماعية، ووضع اليد على مجال معروف بصعوبة اختراقه من تخصص وصفي وإمبريقي في الغالب، ومحدود في دائرة الوعي. وباستعادة اللاوعي، ومحاولة تاريخانيته من خلال مخلفاته، وإيجابية الواقع المعيش، استطاعت بذلك المعرفة التاريخية استملاك حقول جديدة. ثالثاً، أرجعت الموجة البنيوية المؤرخ ومقارنته الدياكرونية إلى القرن التاسع عشر؛ إنه تحدّ كبير لتخصص التاريخ الذي أصبح مهدداً بأن يصبح نشاطاً متحيفاً محضاً. وستفاعل مؤرخو الحوليات مع هذا الوضع، من خلال الانخراط في الحقل الجديد والخصب الذي مثله تاريخ الذهنيات والأنثروبولوجيا الثقافية، وسينتزعون من البنيويين مجالهم البحثي المفضل.

في سياق إعادة توجيه الاهتمام نحو المجال الذهني، كانت اللحظة الحاسمة هي تنظيم ندوة في المدرسة العليا للأساتذة بسان كلود عام 1965 تحت إشراف إرنست لابروس وبمعية مجموعة كبيرة من الطلبة الذين شاركوا في إعداد دراسات مونوغرافية جهوية لتشكيل تاريخ اجتماعي أكثر علمية، يركز على الفئات والطبقات الاجتماعية من خلال التكميم. ومن ثم فتح لابروس أفقاً جديداً في البحث، كان قد بدأه علماء الاجتماع من قبل، تمثل في دراسة كل ما يستحيل اختزاله في التغيير، ألا وهو الذهنيات. وقد قال في هذا الصدد: "هل ترغبون في أن أدلي باعترافي [...] حسناً، لقد أنتجنا إلى حدود اللحظة تاريخاً للحركات، ولم نقم بما يكفي لإنجاز تاريخ المقاومات حتى الآن [...] إن مقاومة الذهنيات القائمة هي من العوامل الرئيسة للتاريخ البطيء"⁽¹³⁾. وسيتخلى العديد من الباحثين، أنباع لابروس، عن مشاريعهم المرتبطة بالدراسات الوصفية للوقائع الاجتماعية، بإعادة توجيهها إلى دراسة الذهنيات. ألهم هذا التوجه

السائر من الأسفل إلى الأعلى، بحسب تعبير ميشيل فوفيل، جيلاً كاملاً من المؤرخين، عبر الانتقال من دراسة البنى الاقتصادية إلى تاريخ الذهنيات. وقد وجد فيه الأمد الطويل فضاء مثاليًا، وهو نفس ما شهدته المقاربة التسلسلية المستلهمة من الأساليب المعتمدة إلى حد الآن في البحث عن المنحنيات الديموغرافية والاقتصادية.

يُعتبر دوبيه أن تاريخ الذهنيات يشكّل الحلقة الدقيقة من التاريخ الاجتماعي، ونقطة التقاطع بين العالمين المثالي والمادي. وقد سعى مؤرخ الذهنيات إلى ضبط المتناقضات والتفاوتات المتعددة بين الواقع الاجتماعي والتمثلات. وحدّد دوبيه منذ عام 1961 مكانة الذهنيات في البحث التاريخي⁽¹⁴⁾، لكن لم يتصوره بصفته وحدة مستقلة؛ إذ رأى على العكس من ذلك أنه لا يجب أن تقتصد في العلاقة بين ما يسميه الماركسيون البنية التحتية والبنية الفوقية. فالذهنية، بالنسبة إلى دوبيه، لها زمنيته الخاصة بها، حيث قسمها وفقاً للشبكة البروديلية إلى ثلاثة أنساق زمنية: الأول سريع، ينبثق من مشاعر لحظية، من ظرفية، وينطلق من الإشاعة وصولاً إلى أبسط صياغة تعبيرية بدلالاتها المؤقتة؛ ويرصد الثاني تطوّر السلوكيات والمعتقدات المشتركة بين فئة اجتماعية معينة؛ وأخيراً، على المدى الطويل، الأطر الذهنية الأكثر مقاومة للتغيير، والإرث الثقافي، ومنظومة المعتقد أو نمط السلوك الذي يدوم ما بعد الحدث. ومن أجل تطوير تاريخ الذهنيات، عمد دوبيه إلى تحويل نظرة المؤرخ لسرد الأحداث الماضية، والبحث عن صحة الآثار التي تركتها الأنساب وسير القديسين والأخبار، ليدرس من خلال هذه المصادر نفسها التمثلات التي تتوافر عنها مرحلة ما عن تاريخها وعن ذاتيتها. وهكذا، لم تعد الوثيقة شاشة بين واقع تجري إعادة بنائه وبين المؤرخ، بل تصبح هي موضوع تبلور الشفافية.

لم يعد المؤرخ يتصور الذهنيات على أنها موضوع إضافي بسيط، من شأنه السماح لمجال المؤرخ أن يتشظى إلى قطع متنافرة؛ بل صارت تدعو إلى ضرورة تشكيل بناء ونسق متجانس، أكثر صعوبة وأكثر أهمية في الوقت نفسه. وعلى المنوال نفسه، حينما حدد فوفيل مكانة تاريخ الذهنيات، أدمجه ضمن التاريخ الشامل. ويتفرد مفهوم الذهنية بكونه أوسع من مفهوم الأيديولوجيا؛ إذ يحتوي على بعد أكبر، فهو يسمح بالانتقال من دراسة الوعي المصوغ على نحو جليّ من المؤسسات أو الأفراد إلى ما هو غير مؤسسي، وإلى المواقف والتمثلات غير الواعية. لذلك يجب أن يأخذ العالم الذهني في الاعتبار ما هو أيديولوجي مع تجاوزه في الآن نفسه؛ إذ غالباً ما يتم تقديمه على أنه صهارة عديمة الشكل ومن دون تمفصل ممكن. ويتميز هذا التعقيد بسعة بالغة في حركة الفعل المزدوجة هذه، وفي عملية الارتداد بين الواقع والمخيّل. أما بالنسبة إلى زمنية الذهنيات، فإنها تتطور بشكل عام بوتيرة أبطأ من وتيرة تطور المجتمع وفقاً للتحليل الماركسي. ومن ثمّ أمكن وصفها كما فعل بروديل أو لابروس. من جهة أخرى، يشير فوفيل إلى المظهر المتجدد لأنظمة التمثيل، ويقول: "على العكس من ذلك، يجب أن نتحدث عن الإبداع الحقيقي لهذا المتخيّل"⁽¹⁵⁾.

غير أن هناك استعمالاً آخر لتاريخ الذهنيات، ساد على نحوٍ واسع في السبعينيات من القرن الماضي وهو محاولة البحث من خلال تقاطع البيولوجي والثقافي عن الطبيعة البشرية وآثار اللاوعي الجماعي. ويتيح هذا التوجه إمكانية التموّج في ميدان التحليل النفسي وإخفاء التاريخ الاجتماعي أو حجب. ولذلك، تاريخ الذهنيات هو ظاهرة "قد يحلّ بموجبها اللاوعي الجماعي، في سياق ما تمكنه الثقافات الشفوية وما تصدّه الثقافات المكتوبة، محلّ اللاوعي الفردي الفرويدي أو يتراكم معه"⁽¹⁶⁾. ومن ثمّ تميل الأمور إلى التصور اليوناني (نسبة إلى كارل يونغ) أكثر منه إلى الفرويدي لتعقب النماذج الأصلية، وثوابت الطبيعة البشرية العابرة للتاريخ، حيث يقول فيليب أرياس في هذا الصدد: "في اعتقادي، الانزياحات الكبرى التي تصيب الذهنيات، ومنها المواقف تجاه الحياة والموت، مرتبطة

14 Georges Duby, "L'histoire des mentalités," in: Charles Samaran (dir.), *L'Histoire et ses méthodes* (Paris: Gallimard, 1961).

15 Michel Vovelle, *Idéologies et mentalités* (Paris: Maspéro, 1982), p. 93.

16 Philippe Ariès, "L'Histoire des mentalités," in: Jacques Le Goff (dir.), *La nouvelle histoire* (Paris: Encyclopédie Retz, 1978), p. 423.

بمحركات دفيئة وأكثر سرية عند حدود البيولوجي والثقافي، بمعنى عند اللاوعي الجماعي⁽¹⁷⁾. يُعد أرياس في هذا الميدان باحثًا متفردًا، والرائد الحقيقي في فرنسا فيما يتصل باستكشاف الذهنيات، فقد أصدر منذ عام 1948 كتابه **تاريخ السكان الفرنسيين ومواقفهم من الحياة**. كانت نظريته قد ظلت تَحِنُّ إلى مجتمع الأمس التقليدي، لدرجة تقديمه صورة خادعة عن عصر ذهبي. وترتبط دراسته بالتغيرات ذات الصلة بثيمة واحدة، هي التطور الداخلي لفكرة الطفولة والأسرة، والسلوكيات الناتجة منها. في هذا المستوى، لا يمكن استبعاد مساهمة أرياس أو تبخيسها، فبالرغم من بقاءه حبيسًا للمقاربة الوصفية المتعلقة بالعالم الذهني، فإنه فتح مجالات اهتمام جديدة أمام البحث التاريخي، إضافة إلى إحرازه سبق بخصوص إجابته عن سؤال الكيف. ونجد لاحقًا النهج التسلسلي نفسه في عمل أرياس حول الموت على مر تاريخ الغرب الأوروبي، عبر تتبع تذبذبات اللاوعي الجماعي بحسب آليات التأقلم وانعكاس الدلالات.

1. مسألة العبور عند الحدود

يرتبط السؤال المركزي، الذي يخترق علاقات المنهج التاريخي مع التحليل النفسي بالنسبة إلى المؤرخ، بإدراك هذا السؤال: هل من الضروري الاقتصار على بعض الحالات الفردية في استقراء بنية اللاوعي، أو اللجوء إلى وضع تعميمات جماعية؟ وقد مورس هذا النوع من التحويل بكيفية جامحة بعض الشيء لاعتبارات مرتبطة بمنهج التحليل النفسي في مجال التاريخ، خاصة في سنوات السبعينيات من القرن الماضي. اعترف لادوريه في درسه الافتتاحي في كولينج دو فرانس، بتأثير فرويد في مقارنته، خاصة الأولى، على عكس "أتباع أتوسير" الذين لا يعترفون إلا بماركس الناضج: "بالنسبة إلينا، لم يكن فرويد أبدًا لا شيئًا، ولا حتى مجرد ناضج"⁽¹⁸⁾. كان هذا التأثير في العمل التاريخي مزدوجًا: فقد ساهم العمل الفرويدي في فهم بعض الثورات الشعبية بصفتها تعبيرًا عن هستيريا الردة، ومن ناحية أخرى، تمكن من ضبط تأثيرات الصدمة في تحديد النسل: "وفي كلتا الحالتين، بقينا في حدود فرويد في سنواته الأولى، قبل اكتشاف عقدة أوديب، أي في مستوى 'رسائل إلى فيلهلم فليس'، ودراسات حول الهستيريا"⁽¹⁹⁾. ولذلك، يقدم لادوريه في أطروحته عن فلاحي لانغدوك "ثورة الكالفينيين" ضد لويس الرابع عشر باعتبارها هستيريا الردة. في هذه الحالة المحددة يأخذ مرض العصاب معناه ومعالمه من الكبت الجنسي الذي فرضته طائفة "الهوغونو" البروتستانتية، والذي كان سيفضي إلى تعصب دموي: "فهناك على الخصوص صلات عميقة بين أعياد السبت والثورات، على مستوى البنى الذهنية والنفسية اللاواعية"⁽²⁰⁾.

ظل تقييم اللاوعي الجماعي قاعدة أساسية لنجاح التاريخ النفسي الذي قاده ألان بيزانسون في سبعينيات القرن العشرين. فهو يدافع أيضًا عن تصور ثابت ينطلق من فرضية أولية، ترى أن اللاوعي يعمل وفقًا للقواعد نفسها لدى الجميع، ويسمح بوضع نوع من التعميم على الطبيعة الإنسانية اللاواعية والثابتة: "يبدو لي أن علم النفس التحليلي ينحاز إلى أولئك الذين يؤكدون عدم قابلية الإنسان للتغير. فبالنسبة إليه هذا هو شرط ممارسته بصفته منهجًا تاريخيًا"⁽²¹⁾. وقد سمح هذا المنظور لبيزانسون باختزال كل مظهر تاريخي في التعبير عن اللاوعي الجماعي الذي يجعل كل ميل إلى التغير تافهًا.

هناك أمثلة أكثر إقناعًا حول جدلية التداخل بين التاريخ وعلم النفس التحليلي. يمكن أن ندرج هنا أبحاث عالم النفس الألماني إريك إريكسون حول لوثر. ربما يكون صاحب الإصلاح الديني، في انشقاقه عن كنيسة روما، قد أعاد إنتاج علاقات الصراع مع والده.

17 Philippe Ariès, *Essai sur l'histoire de la mort en Occident* (Paris: Seuil, 1975), p. 222.

18 Emmanuel Le Roy Ladurie, "Leçon inaugurale au Collège de France," in: Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le territoire de l'historien* (Paris: Gallimard, 1973), p. 11.

19 Ibid., p. 12.

20 Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les paysans de Languedoc* (Paris: Flammarion, 1969), p. 244.

21 Alain Besançon, *L'histoire psychanalytique* (Paris: Mouton, 1974), p. 11.

يستخدم إريكسون، في هذه الحالة بالذات، المنهج التماثلي، باعتباره متخصصًا في علاج الأطفال الذين يعانون الاضطراب السلوكي الناتج من ظروف وسطهم الأسري. وبذلك، يُسقط ملاحظاته على المجتمع الألماني في القرن السادس عشر من خلال شخصية لوثر. فقد رغب والده في أن يصير ابنه وريثًا لعائلة رأسمالية تستثمر في التنقيب بمناجم الفضة، في حين أنه أصيب بخيبة أمل حينما علم أن ابنه قرر أن يدخل الدَّير، وهو ملاذ تلجأ إليه عادة الأسر المتواضعة. ومن هنا بدأ في التعامل بغضب مستمر مع ابنه لوثر إلى درجة السخط. يرى إريكسون في هذا الرفض الأبوي وحالة اليأس الذي أحدثه في نفسية الابن روح الحياة البروتستانتية، المتسمة بالتقشف، وذلك على خلفية تراجيدية، والتي دافع عنها لوثر ضد روما بعد أن صار راهبًا. يُعدّ هذا التوضيح مثيرًا للاهتمام والأنسب، بالنظر إلى حالة فردية، لكنه لا يقول شيئًا عن سبب التحامل الذي لقيه لوثر في انتقاده لمظاهر البذخ والأبهة الرومانية والتسامح والغفران. إلا أن تحليله يُغيّب البعد الاجتماعي - التاريخي، الذي لا يستقيم من دونه فهم سياقات نجاح البروتستانتية. وبناء عليه، فقد أصبح لوثر خارج الزمن.

لطالما عبّر ميشيل دو سيرتو، وهو المشتغل بصرامة شديدة على واجهتي التخصصين (التاريخ والتحليل النفسي)، عن عدائه الشديد لأي شكل من أشكال تسخير علم لفائدة علم آخر. وبصفته مشتغلًا بعبور التخصصات، فإنه يشترط احترام الصلاحية الخاصة بكل مفهوم يتمّ توظيفه. وهذا بالفعل ما عبّر عنه بصرامة حين قال: "ربما هذه النقطة هي ردة فعل في حد ذاتها ضد طريقة ما من استغلال التحليل النفسي. فقد أظهر عدد من الدراسات، سواء في الإثنولوجيا أو التاريخ، أن استعمال مفاهيم التحليل النفسي قد يتحول إلى بلاغة مُستحدثة، وفي هذه الحالة، تتحول إلى أشكال تعبيرية، ولذلك، تصير العودة إلى المفاهيم الفرويدية (التحويل، عقدة أوديب، موت الأب ... إلخ) صالحة لكل شيء وقابلة للاستعمال في جميع الحالات، فيسهّل اختبارها على أماكن معتمدة في التاريخ [...] فتطوَّق ما يتعذر تعليقه ولا تفسره، وتعترف بقصورها. وبناء عليه، يتم وضعها حيثما يترك التحليل الاقتصادي أو الاجتماعي مجالًا هامشيًا للتفسير" (22).

جدد دو سيرتو دعوته إلى هذا التحذير المنهجي، في مقابلته مع المؤرخة والمحللة النفسانية السويسرية، ميراى سيفاليه، في عام 1983، حيث أثار المبادئ المعتمدة في مؤلفه الموسوم بـ **الخرافة الغامضة**: "رفضتُ كلّ خلط، ففي مقدمة الكتاب، أردت فقط توضيح منطقي، المتقلب على مدى عشرين عامًا، من التجربة بين أسوار مدرسة جاك لاكان الفرويدية. هذا يعني أنني غيرت من أسلوب تفكيري، وليس انخراطي في نوع من المقارنة العشوائية التي تبتغي البحث عن العقد الأوديبية والأنا العليا، أو عن استئصالات من بين حزمة وثائق الأدب الصوفي في القرنين السادس عشر والسابع عشر. فمفاهيم نظرية ما ترتبط بالوظائف التي تؤديها، فيستحيل أن تصبح موضوعات تخصص آخر، كالتاريخ مثلاً الذي لديه قواعد وجهازه المفاهيمي الخاص به" (23). فما انتقده دو سيرتو، ساد في السبعينيات من القرن الماضي، لأن التحليل النفسي آنذاك سخره ذلك التاريخ الذي أدار ظهره للفعل الإنساني مانحًا منطلق المدة الطويلة والاستمراريات والثوابت الأسبقية.

عندما استدعى المؤرخون دو سيرتو لكتابة فصل "التحليل النفسي والتاريخ" في المجلد الجديد الذي احتفى بنجاح "التاريخ الجديد" عام 1978⁽²⁴⁾، اعتبرها فرصة ذهبية لتحديد نقاط الالتقاء بين هذين الحقلين المعرفيين "المتنافرين"، وأيضًا لقياس ما يفصلهما⁽²⁵⁾. إذا كان على هذين الحقلين الاشتغال مع الذاكرة، وارتداداتها وحدودها التي تطارد الحاضر مثلما يطارد الموت الإنسان

22 Michel de Certeau, "Ce que Freud fait de l'histoire," in: Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire* (Paris: Gallimard, 1975), p. 292.

23 Michel de Certeau, "Entretien avec Mireille Cifali," *Le Bloc-Notes de la psychanalyse*, no. 4 (1984), p. 156.

24 Le Goff (dir.), p. 17.

25 Michel de Certeau, "Psychanalyse et histoire," in: Ibid., pp. 477-487; Repris dans Michel de Certeau, *Histoire et psychanalyse entre science et fiction*, Collection Folio essais (Paris: Gallimard, 1987), pp. 97-117.

الحج، فإنهما يمتلكان، بحسب دو سيرتو، استراتيجيتين مختلفتين عن الزمن، وطريقتين متباينتين في التعامل مع مجال الذاكرة. فالتحليل النفسي يُشغل آثار الذاكرة في تفاعل مع الحاضر، في حين أن التاريخ يفرض قطيعة بين بُعد الذاكرة ولحظة تحيينها: "فالأول يقرّ بوجود هذا في ذلك، والثاني يضع هذا جنب ذاك" (26).

ومع ذلك، أصبحنا الآن على بينة من استخدامات أقل عشوائية، وعلى العكس أكثر إحياءً لأعمال فرويد في أبحاث المؤرخين. فإضافة إلى العمل المميز ذي الاتجاهين للمحلل النفسي جاك ناصيف والمؤرخ فيليب بوتريه (27)، أظهرت لين هانت مؤخرًا كيف يمكننا إعادة قراءة الثورة الفرنسية، من خلال مفهوم فرويد لـ "السردية العائلية" (28)، حيث استندت إلى أحد النصوص التاريخية النادرة لفرويد وهو **الطوطم والطابو**، وربطت بين النشاط الدؤوب للفاعلين في الثورة والسرد الأسطوري للبدايات. ومن ثم، أقامت ترابطاً بين قتل الأب على أيدي أبنائه الذين كانوا يسعون من خلال هذا الانتهاك لتعويض اتهامهم بتأكيد قوة تضامنهم الأخوي، وما نتج من ذلك سياسياً من تمثيل سياسي للحكومة الثورية بعد قطع رأس لويس السادس عشر. ومن دون شك، فاستعمالها لمفهوم اللاوعي الجماعي أمر يناقش، لكنها حرصت على عدم إسقاط علم النفس الفردي على مجال التاريخ: "إنني لا أدعي اختزال السياسة في استيهامات فردية أو جماعية" (29). سعى مشروعها الفكري لتأويل تجربة الثورة الفرنسية من خلال إخضاع السرد الفرويدي لاختبار النقد التاريخي عبر استكشاف المتخيل السياسي لهذه الفترة بمجرد اختفاء رمز الملكية. وتطلبت دراستها فحصاً لمصادر متنوعة جداً، وفتحت للمؤرخ أيضاً جميع أشكال التعبير الفني، وظلت قريبة من تمثيلات العصر، مبيّنة تزايد التطلع إلى الأب الصالح طوال القرن الثامن عشر، واستبداله، عند استحالة تحقيق هذه الغاية، بجماعة الأشقاء الذين يبحثون عن استقرار عقد اجتماعي ضامن للنظام الجديد: "وهكذا وكما بين ذلك فرويد، بعد قتل الأب، لم تعد السيطرة الذكورية على العالم أمراً بديهياً أبداً" (30).

2. التاريخ على محك التحليل النفسي: فرويد المؤرخ؟

مع ذلك فإن فرويد نفسه، قد انهمك في أبحاث تاريخية حتى وإن أعلن مزحة كتابتها وهو يدخن الغليون لتمضية الوقت. فقد بين من خلال شخصيتي موسى، والرئيس الأميركي توماس وودرو ويلسون، تصوره للتاريخ المستند إلى التأويل النفسي. فالصورة التي رسمها لشخصية ويلسون بين عامي 1923 و1933 (31)، ليست مجرد دراسة نفسية بسيطة لرئيس الولايات المتحدة الأميركية، ولكنها محاولة للإجابة عن سؤال: كيف يمكن أن يكون الهذيان الوجداني مصدرًا لإنكار الواقع؟ وراء هذا التحليل النظري، لا يخفي فرويد موقفه الشخصي باعتباره مواطناً نمساوياً يشعر بنوع من الكراهية المفرطة إزاء المسؤول عن معاهدة فيرساي. وقد ألهمت هذه السيرة تياراً كاملاً من المنتسبين إلى حقلي السيرة النفسية والتاريخ النفسي اللذين شهدا ازدهاراً ملحوظاً في الولايات المتحدة استناداً إلى هذا العمل المؤسس لفرويد.

وكان ثاني مشروع تاريخي لفرويد هو كتابه **موسى والتوحيد** الذي نُشر عام 1939. فقد اعتمد فيه على أعمال أوتو رانك، وبيّن كيف تشكلت أسطورة البطل موسى الذي قاوم بنجاح السلطة السياسية لفرعون، وقاد شعبه وراءه بمنحه تشريعاً. اهتم فرويد هنا بقضايا الأصول، حيث يستهل تحليله بفرضية مفادها أن موسى كان مصرياً: "سيظهر لنا بوضوح فجأة أن موسى كان مصرياً وربما

26 Ibid., p. 99.

27 Philippe Boutry & Jacques Nassif, *Martin L'Archange* (Paris: Gallimard, 1985).

28 Lynn Hunt, *Le roman familial de la Révolution française* (Paris: Albin Michel, 1995).

29 Ibid., p. 11.

30 Ibid., p. 224.

31 Sigmund Freud & William Bullitt, *Thomas Woodrow Wilson* (Paris: Albin Michel, 1967).

مصريًا من أصل نبيل⁽³²⁾. وتُشدد قراءة دو سيرتو لفرضية فرويد هذه على طابع الخيال المرتبط بالتاريخ في هذا السفر نحو الزمن الأصلي المستحيل: قال فرويد "هذا استيهام"⁽³³⁾. لذلك نجد أنفسنا، في هذا الفضاء المُلتبس المعنى، بين الخيال والتاريخ. ومن جهة أخرى، فإن كتاب **موسى والتوحيد** ليس دراسة حول الثقافة اليهودية فحسب، بل يتعداها إلى رصد نمط الكتابة لدى فرويد، والتي طرح خلالها موضوع علاقة المؤلف بمشروعه العلمي، وبمهمته كاتبا في نهاية حياته، علماً أن الكتاب صدر بعد وفاته بعام.

ثمة طريقة لقراءة أعمال فرويد على نحو تاريخاني بهدف التمييز بين ما هو صحيح وبين ما هو زائف، ولكن هناك أيضًا بُعد يمكن أن يُؤخذ على محمل الجد استيهامه بوصفه رواية نظرية: "تظهر هنا السردية التحليلية (أو العلمية)، ولكن مرة أخرى في شكل سرد تاريخي"⁽³⁴⁾. يتساءل دو سيرتو عن الأسلوب الغريب المقلق في الكتابة الفرويدية التي تبعده عن المقاربة التاريخية، وفي المقابل، كيف يمكن أن يتأثر البحث العلمي بتحليل فرويد؟⁽³⁵⁾ يعيد دو سيرتو تمثيل نقطة البداية بدقة، من خلال التساؤل عن شخصية موسى التي أثارت اهتمام فرويد منذ البداية، وأصبحت عقدة أساسية في المطارحات التي يبديها حول قضية البنى التأصيلية لمعاداة السامية خلال عامي 1933 و1934 التي شهدت انتصار النازية. ونتيجة لذلك، تتضح المشاركة الفعالة لذاتية فرويد نفسه وللثورة التحليلية التي دشنها في موضوع دراسته: "يتدخل أصل صورة اليهودي مع أصل الكتابة الفرويدية باستمرار. والموقع الذي ينطلق منه فرويد ومنجزه الفكري يتداخل فيهما النص بالموضوع المستهدف بالتحليل"⁽³⁶⁾. يرى دو سيرتو في ذلك نشوء نظام تاريخاني جديد، حيث لا ترتبط الأحداث أبدًا بالتسلسل الزمني أو تتابع الأحداث، حيث يتعارض الماضي المنتهي بالحاضر، بقدر ما يرتبط بالتعايش بين زمنيّات في الساحة التجريبية نفسها، وفي تشابك بين الماضي في الحاضر. "في هذا المقام، يتحرك الماضي والحاضر في مكان واحد ومتعدد. ومن 'مستويات' النص، لا يشكل أي مستوى مرجعًا للمستويات الأخرى"⁽³⁷⁾.

إن النهج الذي اتبعه فرويد في الحقل التاريخي هو تحليلي بامتياز، حيث يتعلق الأمر بالموضوع نفسه، الذي يعاود اكتشافه انطلاقًا من هذا التناقض اللفظي الغريب والمسيء للدين، المرتبط بـ "موسى المصري" الذي يحيل وفقًا لدو سيرتو، إلى الانشطار الأساسي للموضوع، وإلى استبطان هذا التجزؤ، وإلى قطيعة تتيح ما صار يُعرف بالشعب المختار: "إن الهوية ليست واحدة، بل مزدوجة، هي هذا وذاك"⁽³⁸⁾، حيث يُستعاد المبدأ نفسه للكتابة التاريخية. ويتجلى البعد الآخر في كتابة فرويد في السؤال الذي يطرحه بخصوص العلاقات القائمة بين الكتابة والمكان. والحال، بحسب فرويد، أن الأمة هي وهم وبناء متأخر، ومن ثم، لا يمكن أن يسمح المرء لنفسه بمكان، لأنه يجد نفسه محرومًا إلى الأبد من تربته الوجودية.

أكد دو سيرتو أنه قد تتبع، بصفته مؤرخًا، فرويد في استدلاله. فقد انطلق من فكرة سد ثغراته (فرويد) في المعرفة التاريخية، واعتبر أن موسى المصري به ثغرات جديدة تقوض "المكان الذي تسمح به الهيستوريوغرافيا، والميدان الذي هو نتاجها النصي"⁽³⁹⁾. إذا كان التاريخ معتادًا مسألة الآخر بوصفها جدليات زمنية، فإن ما يتم الشك فيه هنا هو البناء الذي يقوم عليه، من أجل أن يمتد في أمكنة "خاصة"، تعود إما إلى الماضي أو الحاضر، ومن ثم المتراكبة أو المترابطة وفقًا لمعايير جينيولوجية. وبالقيااس على منطلق

32 Sigmund Freud, *Moïse et le monothéisme*, Collection Idées (Paris: Gallimard, 1975 [1939]), p. 17.

33 Michel de Certeau, "La fiction de l'histoire. L'écriture de *Moïse et le monothéisme*," in: Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 312.

34 Ibid., p. 313.

35 Ibid.

36 Ibid., p. 316.

37 Ibid., p. 317.

38 Ibid., p. 319.

39 Ibid., p. 353.

المكان هذا باعتباره سلطة، تنتصب الممارسة الفرويدية المرتبطة بـ "سوء الفهم" و "الخيال" المنظورة، لكن المبعدة في الكتابة التاريخية تحت تأثير التقليد، مع احتفاظها بالطابع الديني الهائل من خلال أشكال التعبير السردي؛ فالسرد هو التجميع المستحيل الذي يدعم العلاقة بين العلمي وعناصره المبعدة⁽⁴⁰⁾.

يرى دو سيرتو في "الرواية" الفرويدية شكلاً تنظيرياً لهذا النوع من الخيال العلمي الذي يميز التاريخ أيضاً. قام فرويد بالفعل على شاكلة المؤرخ، من خلال فرضيات متتالية، بمساءلة المسكوت عنه، والمستور، ومناطق العتمة، وصولاً إلى الطابع المأزقي لكل إعادة بناء شامل للماضي الذي لا يمكن مقارنته إلا من خلال شظايا صغيرة من الحقيقة. هذا ما يزيح مفهوم فاعلية الحقيقة في التاريخ، التي لا ترتبط دائماً بالواقع؛ لأن ما يهيمن في التقليد يحيل بصفة أكبر على ما يترك أثراً في الهوية السردية التي تطبع جماعة بشرية أو شخصية عمومية حول حدث مؤسس: "أردنا أن نثبت أن الديانة اليهودية لم تؤثر في الشعب اليهودي إلا عندما أصبحت تقليداً"⁽⁴¹⁾.

تنتفتح هذه القضية على تعدد الأزمنة المتداخلة، حيث يرصد دو سيرتو عند فرويد في كتابه **موسى والتوحيد** استعمالاً لمفهوم الزمن الذي لا يفقد شيئاً من حركيته التي تتكرر عند تغيير المضامين. يتمحور التوضيب المشهدي عند فرويد حول لحظتين: لحظة الزمن البدائي؛ أي لحظة العلاقة الثابتة بين الاسم المتصل بالشخصية وبين الواقع، ولحظة زمن النفي، الذي يتم من خلاله افتكاك الاسم عن الموضوع. وفي هذه الحالة، يستمر التاريخ في التقدم ولكن بصفة متعثرة. وفي هذه السيرة، يصبح الكلام مستحيلاً، فتعوض الكتابة هذا النقص وهذا الغياب في شكله المخيالي.

وتهتم الدراسة التحليلية الفرويدية الأخرى، التي اتخذها دو سيرتو نموذجاً لفهم علاقتها بالتاريخ، بالعصاب الشيطاني في القرن السابع عشر، والذي درسه فرويد عام 1922⁽⁴²⁾. يتعلق الأمر بحالة رسام من بافاريا يدعى هايتزمان "أصابه مس من الجن"، فأصبح متديباً بعد تطهيره من الأرواح الشريرة. وفي هذا المثال، يعالج فرويد حالة معتادة في مجال مألوف لدو سيرتو من خلال كتاب **مس شيطان لودان**.

يتساءل دو سيرتو، إن كان لدينا مع عمل فرويد، نموذج متعدد التخصصات يعمل بأدوات التحليل نفسها في مجال التاريخ. في الواقع، يحوّل فرويد المخطوط الذي يتوفر عليه إلى وثيقة تاريخية "بطريقة خاصة به"⁽⁴³⁾. وبالرغم من أن "عصاب هايتزمان" يبدو مرتبطاً، من خلال موقعه وزمنه التاريخي، بحالة وثيقة تاريخية كلاسيكية، فإنه لا يصح تاريخياً إلا "عندما يتم تكييفه بوصفه إشكالية تاريخية، تفترض من فرويد أن يكشف عنها من خلال طبيعة عمله التأويلي"⁽⁴⁴⁾. في هذه الحالة بعينها، هناك بعدان تاريخيان يتطلب تفسيرهما الوفاء لمقومات العصر الكلاسيكي. فمن جهة، التعارض الذي حدده فرويد بين الله والشيطان، حيث "تصبح الدولة بديلاً من الأب"⁽⁴⁵⁾، بسبب الانقسام الديني بين الكاثوليكين والبروتستانتين، والذي أدى إلى زعزعة اليقينيات. ومن جهة أخرى، مكنته عهود هايتزمان مع الشيطان من اكتساب أب آخر في زمن لا يوجد فيه أب يمكن اللجوء إليه.

40 Ibid., p. 357.

41 Freud, p. 171.

42 Sigmund Freud, "Une névrose démoniaque au XVIIe siècle," in: Sigmund Freud, *Essais de psychanalyse appliquée* (Paris: Gallimard, 1952 [1922]), pp. 213-254.

43 Michel de Certeau, "Ce que Freud fait de l'histoire. A propos d'une névrose démoniaque au XVIIe siècle," *Annales E.S.C.*, vol. 25 (1970); Repris dans Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 296.

44 Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 296.

45 Ibid., p. 298.

ومن ثم أصبح المشكل هو مدى وضوح الماضي الذي يبدو لفرويد أكثر شفافية كلما بدأ أقدم: "الأقدم هو الأوضح" (46). ما استند إليه فرويد من وثائق لا يرتبط كثيراً بالواقع، بل ببناءات تاريخية. فالعمل التاريخي يقضي بإخفاء ما هو جلي: "ويبقى الأصل حاضراً في دراسته" (47). فيما يتعلق بحالة هايتزمان، يشير فرويد إلى وجود "أب بديل" في صورة شيطان، وعلى الأب الجديد أن يكرس نفسه كلياً "للحصول على شرف لقب الابن" (48). وهكذا، يتم تصور التاريخ على أنه سلسلة احتمالية من العلاجات، وبلجاً الفعل الفرويدي إلى قاعدة داخل الممارسة العلمية، مشابهاً إلى حد ما لغموض التاريخ نفسه، الذي يتأرجح ما بين الأسطورة وشيء آخر غير الأسطورة. ولم يكن دو سيرتو هنا واضحاً فيما ذهب إليه في نقده، فهو يضع مسافة حاسمة تجاه المنعطف المنطقي في عمل لاكان؛ لأن العلم هو الذي يتحدث، واضعاً إياه في تقابل مع فرويد: "ففي مقابل الجنون الذي يأتي قبل العلم لدى فرويد، ثمة جنون يتحدث العلم، فيمتزج العلم الذي 'يسمح' بالعالم الذي 'يسمح' لنفسه" (49).

بحسب ما لاحظته دو سيرتو، يقترح فرويد قراءة أخرى للوثيقة التاريخية، حيث يتخذ أي سرد في علاقته الممكنة مع بنية أو حدث. ففي رأيه، إن الماضي المؤسس للمشاهد البدائية واللقاءات الأولية يمحي الحاضر ويُبعدة، وفي الوقت نفسه ينظم هذا الحاضر. يصف فرويد هذه العلاقة الثنائية بين الماضي المشيد والحاضر بالمُحدثة لـ "غربة مقلقة" أو حتى لـ "ألفة مقلقة". وهذا ما يُترجم عند فرويد في الطريقة التي يقسم بها الفاعل لينظر إليه بصفته مُركباً من عنصرين يتجاذبان حول اسم الأب الميت، والذي يعود مع ذلك ليطارد الحاضر ويفرض قانونه. وبالرغم من تَشَبُّه بما يصطلح عليه بالألمانية "أوفكلارونغ" (التنوير)، يعود فرويد إلى فكرة الوعي المستنير لتأكيد البعد أو الهوية مع المواقف الكانطية حول مبادئ الحرية ومسؤولية المعرفة واستقلاليتها، مع إعادة كل "الاقتراحات الكانطية" بشكل معكوس: من "دون تحليل، يَظْهَرُ الشخص البالغ محكوماً بـ 'قصوره'، والمعرفة بالآليات الاندفاعية، والحرية بقانون اللاوعي، والتقدم بالأحداث الأصلية" (50). ويكمن التباعد الآخر عند فرويد في الأجواء الفكرية السائدة في الفترة التي يكتب فيها، وهي سيادة الفلسفة الوضعية، والنزعة العلمية، التي تخلى عنها فرويد لصالح اقتصاد المشاعر (51). عاد فرويد إلى المبعّد في نظرية العواطف التي عرفت رواجاً خلال القرن الثامن عشر. هنا أيضاً، ينبش دو سيرتو في هذا البعد المنسي لفرويد، فيشير إلى الهوية التي تفصله عن لاكان الذي يقلل من أهمية العاطفة، حيث تصبح غير ذات أهمية قصوى في رحاب الثلاثية اللاكانية: الواقعي، والرمزي، والخيالي، بل أكثر من ذلك منذ التوجه المفضي إلى الجبريم. تخلت اللاكانية، على نحو خاص، عن كل أبعاد العاطفة وأمزجة الجسد، بينما عبر أنثروبولوجيون، أمثال فرانسوا إيريتيني أوجيه، ومارسيل ديتيان، عن أهميتها. في الآن نفسه، أعاد بعض المحللين النفسيين، مثل أندريه غرين، للعواطف والمزاج ومادية الجسد كفايتها. وجرى تجاهل البعد المزاجي للجسد في المدرسة اللاكانية، لفائدة رمزية خالصة أكثر فأكثر، على نحو حصري، وفي طور منطقي كامل.

يرد دو سيرتو على هذا الانحراف المأزقي بصفة مستترة، من دون أن يستهدف لاكان شخصياً، من خلال التذكير بفرويد ودينامية العواطف لديه: "المشاعر هي الشكل الذي يتخذ عند فرويد عودة الانفعالات [...] فمع فرويد، سيظهر هذا المقصي من

46 Ibid., p. 299

47 Ibid., p. 303.

48 Ibid., p. 305.

49 Ibid., p. 311.

50 Michel de Certeau, "Le Roman psychanalytique et son institution," *Confrontation* (1981), pp. 129-145;

هذا المقال أعيد نشره تحت هذا العنوان: "Le 'roman' psychanalytique. Histoire et littérature," in: de Certeau, *Histoire et psychanalyse entre science et fiction*, p. 130

51 ينظر مساهمة نيكول إلمان: 27-35 pp. *Espaces Temps*, no. 80-81 (2002), pp. 27-35.

العلم في خطاب اقتصادي " (52). وقد مكنت إعادة الاكتشاف من تحديد الفاعل المحلل مؤرخًا، بوصفه ذاتية مشاركة تعترف بتفاعلاتها العاطفية تجاه الحالة المدروسة، بالطريقة التي يعالج بها فرويد نفسه المرضى الذين يستقبلهم: "فقد شوّشت عليه دُورا، وأربعه موسى كما نحتة ميكيلانجيلو، وأزعجه يهوه التوراتي، وما إلى ذلك. وهذه القاعدة الذهنية لكل علاج نفسي تُناقض بشكل جلي أحد المعايير الأولى والأساسية للخطاب العلمي، والتي تقضي بأن تكون الحقيقة المعلنة مستقلة عن المتكلم " (53).

يُعتبر دو سيرتو أن الجزء الخاص من عمل فرويد، الذي تحدث فيه عن علم الأحلام، والجزء الخاص بأصل البشرية (الطوطم والطابو) وتاريخها، ركيزتان أساسيتان تتضافران في تشييد هذا الصرح. إذا كان دور التحليل النفسي تجاه التاريخ يهدف إلى إطلاعه على طبيعة الموضوع، فإن دور التاريخ تجاه التحليل النفسي هو شرح العلاقة التي تربطه باستمرار بالسلطة. هذا ما قد تكون عليه الصورة في شكل تكامل حقيقي بين التخصصين، واحترام خصوصية كل منهما، وبتقاسمهما الفضاء الإبيستيمولوجي نفسه، فضاء التنوع المتسم بالامتزاج.

3. التاريخ والتحليل النفسي: إبستيمولوجيا مشتركة بين العلم والخيال

بفعل المكانة المميزة التي حظيت بها الذاكرة، تحدث حركية لنقط حدودية بين التاريخ والتحليل النفسي. ويثير هذا التحول تقاربًا يشمل أدوات الاشتغال والأساليب المتبعة لدى الحقلين العلميين. ففي كلتا الحالتين، تتشكل المعرفة من خلال قطيعة جذرية تفصل بين ماضٍ معتم لذاكرة تبحث عن علامات إرشاد وتوجيه، وحاضر ممتد يصعب تجاوزه.

ويجعل هذا التطور من التمييز الذي يتبناه دو سيرتو أكثر مسامية عندما يناظر بين استراتيجيتين لمفهوم الزمن عند التخصصين: تاريخ يبدو حتميًا في شكل تسلسلي ومترابط ومؤثر، مقابل تحليل نفسي مبني على نوع من التداخل والتكرار والالتباس: "يتوفر التحليل النفسي والهيستوريوغرافي على منهجين مختلفين في توزيع مساحة الذاكرة وشغلها، إنهما يرسمان العلاقة بين الماضي والحاضر بتصورات مختلفة، يعترف الأول بالأحداث السابقة في الأحداث اللاحقة، في حين يضع الثاني الأحداث بعضها بجانب بعض " (54). في مجال الذاكرة المشتركة هذه، التي يتقاسمها المحلل النفسي والمؤرخ، يكون التحام الماضي والحاضر مماثلًا وبعيدًا عن تعارض المنهجين، وينسج لهما أفقًا مشتركًا، وهو آثار الماضي في فاعليته، والقناع الذي يلبسه هذا الأخير في قدرته على التعقيم.

ومن هذا التقارب يبرز بردايم مشترك ما بين التخصصين، وهو النموذج القياسي الذي أدى إلى ظهور نقاشات فكرية خصبة مع التاريخ المجهرى، الذي رُسمت معالمه الجينية مع المؤرخ الإيطالي كارلو غانزبورغ. تقتبس هذه الكتابة التاريخية الجديدة الكثير من عناصر التحليل النفسي للخروج من البديل الزائف المتأرجح بين العقلانية واللاعقلانية. فالبردايم القياسي، الذي ظهر مع نهاية القرن التاسع عشر، سيكون في ملتقى منهج حدد معالمه جيوفاني مورييلي في حقل تاريخ الفن للتحقق من لوحات الرسامين المشهورين من خلال ضبط الجزئيات الدقيقة وطريقة التحقيق البوليسي، والأهم من ذلك طريقة فرويد في تحليل تمظهرات اللاوعي، من خلال العناية بالترابطات الحرة والأحلام، وزلات اللسان. ويضع غانزبورغ وجيوفاني ليفيه ومن سار على منوالهما الفكري الكتابة التاريخية إلى جانب السرد، والتفرد، والقياس، والتخمين. فهما يتخيلان عن الأحلام العلمية لتاريخ علمي ومعياري من أجل رصد أفضل لملاح تاريخ "من أسفل " (55). إن البحث عن أحداث دالة يضع مقاربتيهما في توازٍ مع أسلوب التحليل النفسي، حيث يقتبسانه منه

52 Michel de Certeau, "Le "roman" psychanalytique. Histoire et littérature," in: de Certeau, *Histoire et psychanalyse entre science et fiction*, p. 132.

53 Ibid., pp. 133-134.

54 de Certeau, *Histoire et psychanalyse entre science et fiction*, p. 99.

55 Jacques Revel, "préface," in: Giovanni Levi, *Le pouvoir au village* (Paris: Gallimard, 1989).

جزءًا كبيرًا من طريقة العمل نموذجًا إرشاديًا لتطبيقه في الحقل التاريخي. وتشابه منطلقاتهم تمامًا مع المحلل النفسي، فيما يتصل بمسألة تنسيب يقينية الحالات. لا يقدم التاريخ المجهرى نفسه بصفته عودة بسيطة إلى تاريخ قصصي محض، طالما تمتع بشعبية لدى فئات واسعة من الجمهور، ولا ينفي في المقابل وجود تاريخ شمولي، ولكنه يعرض منهجًا جديدًا لاقتحامه من خلال تجزيته محليًا، أي في صورة مجتمعات صغيرة، كتلك التي درسها ليفيه كما هو حال بلدة سانتينا، على بعد نحو عشرين كيلومترًا من مدينة طورينو الإيطالية⁽⁵⁶⁾. لا تلغي هذه العينة من التاريخ البحث عن مظهر العقلانية على مستوى الممارسات الاجتماعية، لكن لا تختزلها في شبكة وظيفية أو بنوية، وذلك بالانطلاق من التفاعل بين السلوكيات التي تفرض منطقتها في رحاب مكان بعينه، ليس لمثاليته، بل بالعكس لتفاهته.

إذا كان التعاون بين الحقلين المعرفيين ممكنًا عبر استبطان أعماق اللاوعي، من وجهة نظر التحليل النفسي وتتبع الخط الزمني من وجهة نظر التاريخ، فلن يقوم إلا بتجنب استخدام الأساليب العشوائية لمفاهيم اشتغال الآخر وأساليبه وأدواته. يواجه كل من المؤرخ والمحلل النفسي المشكلة نفسها، فهما لا يستطيعان إحياء الماضي إلا بوساطة المخلفات. فكما يستحيل على المحلل النفسي ملامسة الواقع، يستحيل على المؤرخ إحياء واقع الماضي. يجب على كل منهما أن يمسك بطرفي السلسلة: الواقع الخارجي وتأثيره الداخلي لمحاولة معالجة موضوعهما. يحتاج المؤرخ إلى أن يتعلم من المحلل النفسي الطبيعة المنكسرة للإنسان. أما بالنسبة إلى المحلل النفسي، فعليه أن يتخلى عن اعتقاد وجود فئات عابرة للتاريخ. هذا ما يوضحه جون بيير فيرنان لبيير كان عندما يذكره بأن الذات القديمة تختلف كثيرًا عن الذات الحديثة: "تجربة الذات ليست موجهة إلى الداخل، ولكنها موجهة إلى الخارج. يبحث الفرد عن ذاته ويجد نفسه في الآخر"⁽⁵⁷⁾. الوعي بالذات ليس وعيًا بالآنا، بل يمر عبر بوابة الآخر.

تسمح الأبحاث التاريخية الحديثة، التي تأخذ في الاعتبار بُعد الذاكرة، باقتحام جوانب جديدة في البحث تقترب كثيرًا من الممارسة التحليلية والعملية الهيستوريوغرافية. ويبقى الرهان هو وعي المؤرخين بمقام خطابهم، لكونه من درجة ثانية. لم تغلق الهوة بين التاريخ والذاكرة غلقًا كاملاً، بل يمكن تجنب سلك الطريق المسدود الذي يؤدي إلى الانفصال الكبير، وحتى استعادة المفهومين كذلك. ويمكن تحقيق تمفصل بين البعدين من خلال وساطة السرد. ومن هذا المنطلق، يمكن أن تكون الممارسة التحليلية النفسية ملهمة للمؤرخ، وفقًا لريكور. يتحدث المحلل النفسي من خلال تجلّي اللاوعي في كلامه، في شكل مقاطع سردية متنافرة، وأحلام، وأفعال غير مكتملة وغيرها، والهدف هو أن ينتهي به الأمر في حبكة مفهومة ومقبولة ومؤسسة لهويته الشخصية. في هذا المسعى، يمر المريض، وفقًا لفرويد، عبر وساطتين: بالدرجة الأولى، وساطة الآخر، المُنصّت، أي المحلل النفسي. إن وجود طرف آخر يسمح بالحكي ضروري للتعبير عن الذاكرة المكلمة والجريحة؛ إذ يتحدث المريض أمام شاهد عيان، وهو الذي يساعده على إزالة عقبات الذاكرة. أما الوساطة الثانية، فهي لغة المريض نفسها، وهي لغة جماعة فريدة. نحن نستعير موارد الممارسة الاجتماعية، ومن خلال ممارسة الحكي الاجتماعية هذه، نلتقي بالسرد قبل أن نتعرف إلى ذواتنا. تمنح هاتان الوساظتان السردَ جذورًا اجتماعية لتحويله على مستوى الممارسة، وتخلق تدابير العلاج، من خلال وجود طرف آخر، شكلاً خاصاً من تفاعل الذوات. أما بالنسبة إلى كلام المريض نفسه، فرواياته المنسوجة من روايات سابقه هي راسخة في الذاكرة الجماعية. يعبر المريض عن استبطان للذاكرة الجماعية المتقاطعة مع ذاكرته الفردية التي طغى عليها هاجس التواصل والانتقال بين الأجيال، بأمر من الرّخور (فلتتذكر) وفق ما جاء في كتاب

56 Levi, *Le pouvoir au village*.

57 Jean-Pierre Vernant, "D'une illusion des illusions," *Espaces, journal des psychanalystes* (Printemps 1986), pp. 75-83.

العهد القديم⁽⁵⁸⁾. لذلك فإن هذه الذاكرة انبثقت من حبكة خصوصية وعمومية في الوقت نفسه. يحدث ذلك في شكل سرد مشكّل لهوية شخصية "متشابهة في حكايات"⁽⁵⁹⁾، تجعل من الذاكرة ذاكرةً مشتركة.

ويتمثل الدرس الثاني الكبير الذي استخلصه ريكور من الممارسة التحليلية في الطابع المجروح للذاكرة، التي تهدف آلياتها المعقدة إلى إبعاد الصدمات والذكريات الأليمة، والتي هي أساس مختلف الحالات المرضية. ثمة مبحثان لدى فرويد يركزان على علاج الذاكرة على المستوى الجماعي. فهما يسلمان الضوء على المستوى الفردي والدور الحيوي للذاكرة، باعتبارها تباشر عملاً ما. يساهم العلاج التحليلي في "فعل التذكر"⁽⁶⁰⁾ الذي يجب أن يمرّ عبر شاشة الذكريات، التي هي منبع الانحسارات المؤدية إلى ما يصفه فرويد بالإكراه النفسي على التكرار لدى المريض الذي يجد نفسه محكوماً عليه بأن يقاوم بالتشبث بأعراضه المرضية. ويبقى الاستعمال الثاني لفعل الذاكرة الذي استحضره فرويد، أكثر شهرة، وهو "فعل الحِداد"⁽⁶¹⁾. الحِداد هنا ليس محنة فحسب، بل هو تفاوض حقيقي مع فقدان الشخص العزيز في سياق بطيء ومؤلم من الاستيعاب والانفصال. إن حركة الاستدكار هذه، من خلال فعل التذكر، وإخفاء الأسى من خلال اشتغال الحِداد، تبين أن فقدان والسيان هما في صميم اشتغال الذاكرة لتجنب الاضطرابات. وهكذا، في مواجهة الضرورات الحالية، التي تقضي بضرورة قاطعة جديدة، والمرتبطة بواجب الذاكرة، يضع ريكور، مستلهماً من الممارسة التحليلية، مقاربة أخرى، من خلال اشتغال الذاكرة، لا تُحدث انقطاعاً في المرحلة الإستمولوجية للعملية الهيستوريوغرافية.

يرى ريكور في هذه الظاهرة تماثلاً ممكناً على مستوى الذاكرة الجماعية. فالذاكرة الفردية والجماعية تسعيان معاً للحفاظ على تجانس في الزمن، حول هوية تدوم وتنخرط في الزمن والفعل: "فتكوّن الثنائية القطب للهوية الفردية، وللهوية الجماعية، هو الذي يبرّر في النهاية توسيع دائرة التحليل الفرويدي للحِداد، ليشمل صدمة الهوية الجماعية. يمكننا الحديث، ليس فقط بالمعنى التماثلي في إطار تحليل مباشر، عن الصدمات الجماعية، وجروح الذاكرة الجماعية"⁽⁶²⁾. على هذا النحو، فإن الهوية الذاتية⁽⁶³⁾ مختلفة عن الذات العينية، وهي التي يشير إليها هذا العبور التجريبي للذاكرة نحو ثيمة الوعد. ونلاحظ هنا أيضاً مواقف متناقضة للغاية، حيث نواجه في بعض الحالات "ماضيًا لا يريد أن يمرّ"، وفي حالات أخرى، مواقف هروب، واحتجاب، بوعي أو عن غير وعي، ونفي أكثر اللحظات المؤلمة من الماضي. يمكن أن تتجلى أمراض الذاكرة الجماعية أيضاً في حالات تخمة الذاكرة، يقدم فيها "إحياء الذكرى" والميل إلى تأصيل تراثي للماضي الوطني في فرنسا مثلاً جيداً، أو من خلال مواقف معاكسة، حيث تغيب الذاكرة، كما هو الحال في جميع البلدان ذات الأنظمة الشمولية التي تهيمن فيها الذاكرة المتلاعب بها: "يفهم عمل التاريخ على أنه إسقاط مستوى اقتصاد العواطف على مستوى الجهد الفكري، في هذا العمل المزدوج للتذكر والحِداد"⁽⁶⁴⁾. هذه هي الطريقة التي لا تنفصل بها الذاكرة عن فعل النسيان.

58 Yosef Hayim Yerushalmi, *Zakhor* (Paris: La Découverte, 1984).

59 Wilhelm Schapp, *In Geschichten verstrickt* (Wiesbaden: B. Heymann, 1976); Jean Greisch (trad.), *Enchevêtré dans des histoires* (Paris: Cerf, 1992).

60 Sigmund Freud, "Erinnern, wiederholen und durcharbeiten (1914)," in: Sigmund Freud, *La technique psychanalytique* (Paris: PUF, 1953), pp. 105-115.

61 Sigmund Freud, "Trauer und melancholie, 'Deuil et Mélancolie' (1917)," in: Sigmund Freud, *Métapsychologie* (Paris: Gallimard, 1952), pp. 189-222.

62 Paul Ricœur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli* (Paris: Seuil, 2000), p. 95.

63 Paul Ricœur, *Soi-Même comme un autre* (Paris: Seuil, 1990).

64 Paul Ricœur, "Entre mémoire et histoire," *Projet*, no. 248 (1996), p. 11.

أوضح الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس على نحوٍ جلي الحالة المرضية للشخص الذي يحتفظ بكل شيء حتى يغرق في الجنون والظلام، من خلال عمله المعنون بـ **فونيس القويّ الذاكرة**⁽⁶⁵⁾. لذلك، فإن الذاكرة، على شاكلة التاريخ، هي نوع من الالتقاء في الماضي، وبناء فكري، وليس تدفقاً خارج حدوده. أما بالنسبة إلى الالتزام الذي يوجه "واجب الذاكرة"، فهو على مفترق طريق ثلاثي يلتقي بموجبه الماضي والحاضر والمستقبل: "إن استهداف المستقبل بصدمة مرتدة عوض استهداف الماضي يشبه في النهاية حركة معاكسة تزكي الماضي على حساب المستقبل"⁽⁶⁶⁾. وبعيداً عن كونها عبئاً ثقيلاً تتحمله مجتمعات الحاضر، يمكن أن يصبح "الدّين" مصدر معنى، شريطة إعادة فتح تعددية ذكرات الماضي واكتشاف المنع الكبير للإمكانات غير المؤكدة. لا يمكن تحقيق هذا المسعى من دون جدّنة الذاكرة والتاريخ، بالتمييز، في إطار التاريخ النقدي، بين الذاكرة "المرضية" التي تعمل كدفع مكرور والذاكرة الحية، ضمن منظور يعمل على إعادة البناء: "من خلال إعطاء وعود مكسورة، من خلال التاريخ، بل حتى منعها أو رفضها عبر المسار اللاحق للتاريخ، يمكن أن يبلغ شعب ما أو أمة ما أو كيان ثقافي ما تصوّراً مفتوحاً وحياً لتقاليده"⁽⁶⁷⁾.

تتجاوز اليوم الذاكرة المتعددة والمجزأة "ميدان المؤرخ" من كل الجوانب، وباعتبارها أداة رئيسة للربط الاجتماعي والهوية الفردية والجماعية، تنتصب في قلب الرهان الحقيقي، وتنتظر دائماً من المؤرخ أن يولّد المعنى، داخل الأثر اللاحق، على غرار ما يقوم به المحلل النفسي. وبما أنها ظلت لفترة طويلة أداة للتلاعب، فقد أمكن إعادة توظيفها في منظور تأويلي منفتح على المستقبل، مصدرًا لإعادة الاستملاك الجماعي، وليس مجرد عرض متحفٍ معزول عن الحاضر. وتبقى الذاكرة التي تفترض وجود الغياب (النسيان) هي الحلقة الأساسية بين الماضي والحاضر في هذا الحوار الصعب بين عالم الأموات وعالم الأحياء. فالتاريخ وفق ما ذكره بلوك هو "علم التغيير"، يعتمد بصفة متزايدة المسالك الغامضة والمعقدة للذاكرة حتى في أنماط التبلور القصوى، المثالية والمادية على حد سواء، من أجل فهم أفضل لمسارات التحول والانبعاث من جديد، وقطائع الماضي التأسيسية. وبعيداً عن القراءات المسيجة التي ينحصر طموحها في ملء البياضات والبحث عن المسببات، يظل التاريخ الاجتماعي للذاكرة متنبّهاً لأي تغيير يروم الحركة، والذي ينبغي تتبع تأثيراته. فموضوعه هو الغائب الذي يتفاعل، والفعل الذي لا يمكن أن يظهر إلا إذا كان موضوع تساؤل للآخر: "فالذاكرة، بعيداً عن كونها وعاء أو سلة مهملات للماضي، فإنها تحيا بإيمانها بالممكنات، وبانتظارها ليقظ لهذه الممكنات"⁽⁶⁸⁾.

4. مقبرة للموتى: التحول التدويني للممارسة الهيستوريوغرافية

تتمتع الكتابة التاريخية، على غرار التحليل النفسي، بقيمة إنجازية. فهي تساعد، بحسب دو سيرتو، على تشييد "قبر الميت"⁽⁶⁹⁾، بالمعنى المزدوج لتكريم الماضي، وفي الوقت نفسه على إعادته إلى مكانه الطبيعي، ونقله إلى عالم الأحياء الحاضر. تندرج كلتا الممارستين ضمن ما يصفه فرويد بـ "اشتغال الجِداد"؛ وهو أمر ضروري للغاية لإعادة فتح الحاضر أمام ممكنات جديدة. يشير دو سيرتو في هذا المقام إلى وظيفة أساسية للعملية الهيستوريوغرافية، التي تحوّل الغياب الفيزيولوجي للشيء المفقود إلى وجود داخلي - وجداني. فقد يكون التاريخ هو ذلك الخطاب المتمحور حول "حضور مفقود"⁽⁷⁰⁾، الذي يقيم قطعة لا رجعة فيها؛ لأن ما كان حاضراً يصير غائباً إلى الأبد، ويجعل من المستحيل كل مقارنة ترمي إلى العثور على صوت الأحياء في الماضي: "إن كل أدب

65 Jorge Luis Borgès, "Funes ou la mémoire," in: Jorge Luis Borgès, *Fictions*, Collection Folio (Paris: Gallimard, 1957), pp. 127-136.

66 Paul Ricœur, "La marque du passé," *Revue de métaphysique et de morale*, no. 1 (Mars 1998), p. 25.

67 Ibid., pp. 30-31.

68 Michel de Certeau, *L'invention du quotidien*, 1- *Arts de faire*, Collection Folio essais (Paris: Gallimard, 1990), p. 131.

69 Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire* (Paris: Gallimard, 1975), p. 119.

70 Michel de Certeau, *L'absent de l'histoire* (Paris: Mame, 1973), p. 9.

ينشأ من بصمات صامتة نهائياً، وكل ما ولى لن يعود أبداً، ويُفتقد الصوت إلى الأبد⁽⁷¹⁾. في الوقت نفسه، تظل هذه الحدود التي أنشأتها الكتابة التاريخية هشة على الدوام؛ فهي تهدف إلى تثبيت حدود منيعة، فتُبعد معتقدات عدد من الحضارات بشأن التجاور بين الأموات والأحياء، دالة في الوقت ذاته على القطيعة المستحيلة للصلة بالماضي. إن الكتابة التاريخية، وهي في آن واحد عمل على الموت وعمل ضد الموت، تعبّر عن المكان الذي ينبغي أن يتم فيه الدفن. يكتسي هذا الطقس الجنائزي طابعاً مزدوجاً، فهو شكل من أشكال طرد الأرواح الشريرة من خلال دوره في عملية الدفن، ذلك أن الكتابة التاريخية "تطرد هذه الأرواح عن الموت بإدخاله في خطابها"⁽⁷²⁾، وفي الوقت نفسه، تمارس، في هذا المستوى، وظيفة رمزية "تمكّن المجتمع من التمتع، ومن أن تمنح لنفسها ماضياً عبر اللغة، ومن ثمّ تفتح للحاضر مجالاً خاصاً به"⁽⁷³⁾. لذلك، يتصور دو سيرتو علاقة حيوية بين هذين المكانين المتمثلين في مكان الموت ومكان القارئ كفعل منجز. ويحيل ذلك على تضارب التاريخ باعتباره ميداناً معرفياً قائماً على "شرط الفعل وإنكار الغياب"⁽⁷⁴⁾. وهذه الإنجازية التي تفترض، عن طريق اللغة، ممارسةً يمكنها أن تفسح المجال للآخر، للماضي، ولا تخلو أيضاً من صلات مع ممارسة العلاج التحليلي.

في الجزء الثالث من كتاب **الذاكرة والتاريخ والنسيان**، المخصص لأنطولوجيا التاريخ، وللظروف التاريخية، والذي يظهر من خلاله كائنات مرتبطة بالذاكرة والتاريخ، يولي ريكور مكانة خاصة لأطروحات دو سيرتو. فقد عرّف هذا الأخير كتابة التاريخ باعتبارها المعادل التدويني للدفن، وذلك الفعل الذي يحوّل الغياب الجسدي للشيء المفقود جراء دفنه إلى حضور داخلي. ويبدو تحول الموت، هذا المتغير إلى كلام، وكأنه يجعل وظيفة الكتابة التاريخية، في توجيهها الأنطولوجي، تكمن في استحضار الغائب في التاريخ. لم يعد الغياب، كما يشير ريكور، حالة جامدة، بل نتيجة عمل المؤرخ الذي يحوّل معرفته إلى آلة حقيقية لإنتاج الاجتناب، وإثارة التغيرات. يتناول ريكور تحليل دو سيرتو لماهية الشرط التاريخي، ويُعرّفه بأنه الانتقال من مكان بسيط إلى فعل حقيقي: "هكذا تقوم علاقة حيوية بين المكانين، مكان الموت ومكان القارئ. ومن ثم يتحول الدفن - المكان، إلى دفن - فعل"⁽⁷⁵⁾. يجري هذا الانتقال على مستويين: أولاً، تتدخل الكتابة كطقس دفن، وثانياً تسمح الكتابة للمجتمع، من خلال وظيفتها الرمزية، بالتموقع، حيث يستملك هذا المجتمع ماضياً ذا مغزى. وهكذا، يؤسس هذا الطقس، على المستوى الجماعي، لما يعادل التغلب على العصاب على مستوى التحليل النفسي. هذا التحوّل التدويني، الذي يمارس دوراً إنجائياً، يمنح القارئ مكانة تأخذ شكل "واجب الفعل"، وينفتح على علاقة داخلية بين الحاضر والماضي سواء لدى دو سيرتو أو لدى ريكور.

وبما أن التاريخ ينطوي على علاقة بالآخر بوصفه غائباً، بحسب دو سيرتو، فإن ما يكتبه المؤرخ يشكّل جزءاً من حركة الماضي الذي يساهم في ممارسة الاجتناب، حيث يفهم هذا المؤرخ أنه ينجز عملاً "مرتبطاً بالهستوريوغرافيا"⁽⁷⁶⁾. ففي تعدد ترسبات المعاني المتراكبة في سمك الماضي، يوجد اللغز دائماً في الطريق إلى ما هو واقعي، والذي يتوفر، لدى دو سيرتو، على ذلك البعد المحدود لاستعادة صورة ضائعة، كما هو الحال عند لا كان الذي يمنح الواقعي مكانة المستحيل. ومن ثمّ، يكون الواقعي، وبصفة نهائية، في موقع الغائب "المفترض هنا وهناك، والمفقود هنا وهناك"⁽⁷⁷⁾. ومع ذلك، فإن هذا الغائب موجود، يلتف داخل الحاضر نفسه، ليس

71 Ibid., p. 11.

72 de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 118.

73 Ibid., p. 118.

74 Ibid., p. 120.

75 Ricœur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli*, p. 478.

76 de Certeau, *L'absent de l'histoire*, p. 173.

77 Michel de Certeau, *La faiblesse de croire* (Paris: Seuil, 1987), p. 198.

كمن يستمر في صورة تحفظية ينتظر على نحوٍ مناسبتي أن يكون موضوع اهتمام، بل يكون متاحًا للفهم بفضل التحولات المتتالية التي يشهدها، عبر ابتداء دائم على مر الزمن للأحداث الماضية التي يعاد تشكيلها في كل مرة. يمنح دو سيرتو، على هذا المستوى، العلاقة المتحركة باستمرار التي يقيمها الحاضر مع ماضيه أولوية: "الطابع التاريخي للحدث، لا يكمن مؤشره في بقاءه خارج الزمن، بفضل المعرفة التي تمت صيانتها، بل بعكس ذلك بإقحامه في زمن مختلف الابتداءات التي يخصص لها موقعًا" (78). وبإقامة ترابط بين قوة الانفتاح لاكتشاف البدايات الأولى للماضي، وأيضًا البناءات الجديدة التي شيدها المؤرخون داخل الأثر اللاحق، يسلط دو سيرتو الضوء على الغنى الهائل للماضي الذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال إعادة فتح مجال جديد، بفضل العملية الهيستوريوغرافية. ولذلك، تُعرض أمامنا مساحة شاسعة، وموارد هائلة، ليس بوصفها رافعة لإعادة الإنتاج، بل بصفاتها مصادر إلهام لإبداعات حقيقية في مراحل الأزمة والاهتزاز، ملاذًا محتملاً لقاعدة أخرى لعلاقتنا بالعالم.

إن تكرار الشيء نفسه وإعادة صياغته، هو مجرد مظهر يبدو أنه يربط صورة الماضي بإحياء ذكراها في الحاضر، ولكن في الواقع، وراء هذه الهوية الشكلية يمكن المؤرخ، المنتبه للممارسات في دلالاتها بالنسبة إلى الفاعلين، قراءة الاختلاف في محتوى الحدث الذي يجري الحديث عنه وتكراره. ولذلك، لم يعد المرء ينظر إلى التاريخ باعتباره ذلك الإرث أو العبء الذي يجب تحمله، كما تصوره نيتشه، وهو يدينه، وإنما بوصفه تمزقًا زمنيًا متواصلًا، مطويًا في زمنيته. وبناءً عليه، تتجلى وظيفته، كما قال ألفونس دوبرون، في "فك ما تصلّب بفعل الزمن"، فلا تراتبية في هذا الزمن المترسب؛ لأن كل لحظة من لحظات التحيين تشكل في حد ذاتها "قطيعة مؤسّسة" تجعل تبعاته غير قابلة للقياس على ما جرى من قبل. يولد التاريخ من هذه العلاقة مع الآخر، الذي ينقل خطوط الحاضر في تداخل مع التاريخ والذاكرة: "إن توازي 'الذاكرة' / 'التاريخ' يجعل الثنائي 'أنا' / 'أنت' غير بادٍ للعيان. لكنه يقترح على المستمع حميمية ضمنية للتعارض المرئي (الواضح) الذي يفصل بين الزمن الوجداني (الذاكرة) وزمن الآخر (التاريخ)" (79).

لم يكن لدو سيرتو أن يدرك المكانة المركزية الحالية التي تشغلها الذاكرة، التي بلغ اجتياحها درجة إزاحة التاريخ، وتجاوز العمليات النقدية. ومع ذلك، فقد فكر في الأدوات التي تسمح لنا بالحفاظ على مسافة معقولة واستشكال هذين البعدين معًا. وعلى غرار فرويد، فقد خصص للماضي حيّز المبعد الذي يعود مستترًا في عباءة حاضر أبعد منه، على طريقة والد هاملت الذي عاد، ولكن في صورة شبح. في مواجهة مجال الذاكرة، حيث يطارد الميث الحي، تتميز المقاربة الهيستوريوغرافية من نهج المحلل النفسي بطريقتها في تقسيم مساحة الذاكرة التي تتضمن استراتيجية متفردة في التعامل مع الزمن: "إنهما يفكران على نحوٍ مختلف في العلاقة بين الماضي والحاضر" (80). ففي الوقت الذي يهدف فيه التحليل النفسي إلى البحث عما علق بالذاكرة في الوقت الحاضر، يضع المؤرخ الماضي "بجانب" الحاضر. وفي مواجهة إرث الذاكرة، لم يتبنّ المؤرخ موقفًا سلبًا متجلبًا في إعادة إنتاج، ونبش في الأصول. فتحرّكاتهما وإعادة تشكيلاتها تحيل إلى فعل وجهد واشتغال: "وبناءً عليه، فإن عملها هو أيضًا حدث، وبما أنه لا يكرر الأشياء، فإنه يغيّر التاريخ - الأسطورة إلى تاريخ - اشتغال" (81). إن الاستراتيجيتين المعتمدتين لفهم الفقدان، وذكر الغياب والتعبير عن الدّين تبلوران بين الحاضر والماضي عبر عمليات منفصلة. فمن جهة، تهدف الهيستوريوغرافيا إلى أن تنتشل من النسيان الإيجابيات المفقودة؛ ونقل محتويات النص من خلال إخفاء غياب الصور بمنحها أقصى قدر من الحضور، ومن ثمّ خداع الموت،

78 Ibid., p. 212.

79 Michel de Certeau, *La Fable mystique* (Paris: Gallimard, 1982), p. 409.

80 de Certeau, *Histoire et Psychanalyse entre science et fiction*, p. 99.

81 de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 292.

"فالهيستوريوغرافيا تشتغل كأنها عايشة الماضي، فتصمم على بناء الحقيقة، وسد الثغرات" (82). وفي النتيجة، فهي تمحو صلتها بالزمن، في الوقت ذاته الذي يستخدم فيه هذا الأخير خطابه الخاص عن الحاضر. على العكس من ذلك، تتموقع الرواية الفرويدية إلى جانب الكتابة، وتضع في صلب انشغالاتها المعلنة علاقة شفافة في ارتباطها بالزمن بصفته مكاناً تسجل فيه أساليب الانتماء والمصادرة. لكن، مع هذا التمييز يبقى هناك تماثل أساسي لمقاربتني نظرة التحليل النفسي والنظرة الهيستوريوغرافية اللتين تشتركان في عملية التحويل، وليس في عملية التحقق. في هذا الصدد، يمكن أن نقابل بين لحظة استعادة التاريخ - الذاكرة التي يجري التفكير فيها ضمن خطية الانتماء الجينياالوجي، وبين ظهور نسق تاريخياني جديد، على النحو الذي نتصوره اليوم، وذلك من خلال ما يدعم الإشكالية الفرويدية التي ألهمت دو سيرتو حينما رأى فيها إمكانية للتفكير في الغربة، عندما تتميز بإعادة تشغيل البقايا وترسبات المعنى في المكان نفسه.

5. متغايران اثنان: زمنية متعددة الطبقات

في بداية الثمانينيات، ركز دو سيرتو تفكيره على ظاهرة التمدن، بناءً على النص الشهير لفرويد حول الطبقات الزمنية المتداخلة والمتعددة لمدينة روما (83). يستخدم فرويد روما مثل استعارة للذاكرة مصدرًا للهوية الفردية وتحصيلًا لعدة لحظات، بالطريقة التي يمكن أن يتخيل المرء بها مدينة روما وهي حاضنة لمختلف مراحل تطورها: "هذا يعني أنه فوق هضبة بلاتين، ستظل القصور الإمبراطورية ومبنى السيبترونيوم دائماً في ارتفاعها الأصلي والأولي، وستعلو أركان حصن سانت أنج تلك التماثيل الجميلة التي كانت تزينة قبل حصار القوط [...] وبدلاً من قصر كافاريلي، الذي لم يكن من الضروري هدمه لهذا الغرض، قد يرتفع معبد جوبيتر كابيتولينا مرة أخرى، ليس فقط بالشكل النهائي الذي تصوره الرومان في عصر الإمبراطورية، ولكن أيضاً بالشكل الإيتروسكري الأصلي" (84). وبالطريقة نفسها التي تفترض بها الذاكرة النسيان، فإن المدينة لكي تستمر يقتضي الأمر الهدم من أجل التشييد من جديد. هذا التداخل الزمني الذي توخاه فرويد يصبح مصدر تفكير يقود إلى تعدد الأزمنة، وتجاوز مختلف الأنظمة التاريخية المتشابهة في الحاضر نفسه. ويذكر هذا التعدد بالضرورة التاريخية للهدم في أي مجتمع. وممارسة من هذا القبيل ليست تجديداً مرتبطاً بالحدث، بما أن القس سوجر لم يتردد في القرن الثاني عشر في تدمير كاتدرائية سان دونيه الكارولنجية. وكان فرانسوا الأول قد تخلص في القرن السادس عشر، من دون شعور بالذنب، من قلعة أسلافه من أجل تشييد قصر اللوفر. وبطبيعة الحال، منح التحديث للظاهرة منظورية وإيقاعاً مذهلين، معروفين جيداً منذ زمن هوسمان؛ لذلك يجب البحث عن توازن عادل بين عمليتي الهدم والحفظ، على المنوال نفسه الذي وصّح، من خلاله، فرويد الذاكرة بوصفها دائماً توازناً هشاً بين ضغط الذكريات في الحاضر وإقصائها الخادع.

ينطوي كل من التاريخ والتحليل النفسي، باعتبارهما تخصصين متغايرين، على ثنائية فقدان والغياب. ومن أجل إضعاف الواحد وعدم جعله رهينة المنشأ، يتحركان ويخلقان الغيرية والتغيير: "الخيال العلمي هو قانون التاريخ. ومن الخيال العلمي، تصير رواية فرويد هي النظرية" (85). ومع ذلك، فإن مفهوم الزمن الذي يمارسه التحليل النفسي، والذي هو زمن متقطع، غالباً ما يكون ممزقاً، ومجزأً على أي حال، يندرج فيما يُسمى "التباين الدياكروني" (86)، وفقاً للمحلل النفسي غرين. كان فرويد قد أدرك بالفعل ظاهرة الأثر اللاحق في وقت مبكر، منذ عام 1895، ومنذئذ أصر لا كان بشدة على فاعليتها التي تكشف عن عمل غير خطي للذاكرة

82 Ibid., p. 331.

83 Sigmund Freud, *Malaise dans la civilisation* (Paris: PUF, 1971).

84 Ibid., p. 12.

85 de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 357.

86 André Green, *Le temps éclaté* (Paris: Minuit, 2000), p. 35.

الفردية والجماعية، حتى إن الأثر اللاحق صار ظاهرة انتقال رئيسة في العلاج التحليلي، والتي بموجبها لا يرتبط المعنى بالحدث وحده فحسب، بل بالطريقة التي تم بها تسجيل هذا الحدث في الزمن وفقاً لتعديلات متنوعة، ووفقاً لتقلبات "وظيفة التذكر". يُستفاد من مفهوم هذه الظاهرة، في المقام الأول، أنها ظاهرة تتدخل لاحقاً وتعطي فهماً جديداً للماضي، ولكنها تحدّد أيضاً بوصفها تكملة للمعنى الذي لا يتفقت إلا لاحقاً شكلاً من أشكال السببية المؤجلة.

لا تخلو هذه الإضافة في المعنى من تقاربات محتملة مع مقاربة هيرمينوطيقية تاريخانية، والتي تعتبر أيضاً أن مسافة الزمن ليست بالضرورة عائقاً لكشف الماضي، ولكن على العكس من ذلك، يمكن أن تكون دافعاً لمعرفة أفضل للماضي. وينطبق الأمر نفسه على التحليل النفسي. ومن ثم، يمكننا مقارنة ما كتبه غرين حول هذا المعنى الإضافي بما يقوله غادامير: "يقضي تطور المعنى العودة إلى الخلف الذي يضاعف المحتوى الأولي بطريقة استرجاعية، كما يقتضي خياراً 'يستقر' على أحد الاحتمالات المختلفة"⁽⁸⁷⁾. ويتجلى طموح التأويل التاريخي في توظيف واحد من اثنين، أي ما يقع بين الألفة التي نشعر بها مع العالم المحيط بنا، والغربة التي يمثلها العالم الذي فقدناه. وتصبح القطيعة التي تقابل بين حاضرننا والماضي ميزة لنشر وعي هيستوريوغرافي جديد؛ "لذلك فإن المسافة الزمنية ليست عقبة يجب التغلب عليها [...] وفي الواقع، يكون من المهم أن نرى فيها إمكانية إيجابية، ومثمرة، ومحفزة للفهم"⁽⁸⁸⁾، كما يرى هذا الهيرمينوطيقي من جهته. ولذلك، يتم تصوّر المعنى على أنه توليد لسيرورة تمسّ المستقبل الذي ينبغي ابتكاره، وفي الوقت ذاته الماضي، وذلك انطلاقاً من اللحظة التي نتصور فيها مستقبلاً للماضي. يُضاف تعدد أنظمة التاريخانية، التي حلّت مؤخراً محلّ النظرة الخطية للزمن التاريخي، وفقاً للأشكال المختلفة من فلسفات التاريخ⁽⁸⁹⁾، إلى رؤية فرويد لما يُسمّى "التغير الزمني" للنفسية البشرية. يمكن مفهوم أنظمة التاريخانية⁽⁹⁰⁾، عند تقاطع الواقع المعيش والمفهوم، والتحليل النفسي والتاريخ، أن يفسر التعددية التي تعيش بها المجتمعات البشرية علاقتها بالزمن، وترسم بها تقسيمات الزمن المختلفة انطلاقاً من عدد من الثوابت والفئات المتعالية.

6. ممارسة الإنصات والاجتناب

يكمن التماثل الآخر المحتمل بين الهيستوريوغرافيا والتحليل النفسي في ممارسة الإنصات والاجتناب (نفي الذات عن الموضوع). فعلى غرار موقف المحلل النفسي في العلاج التحليلي، يجب على المؤرخ التخلي عن أي وضع مهيمن، وبدء عملية فصل ذاته عن موضوعه: "علمني بحثي، خلال دراسة شخصية جون جوزيف سوران، أن أميز نفسي منه"⁽⁹¹⁾. وهكذا كتب دو سيرتو، وهو يمنح الأفضلية للحظة فهم الآخر، التي تفترض مسبقاً أن يترك وقتاً لشبكة التحليل الخاصة به في الاحتياط، وهي المرحلة التي وصفها، من خلال دراسته لحالة "مَسّ شيطان لودان"، بـ "ضبط النفس" الضرورية: "لا يقينية أبداً في التاريخ"⁽⁹²⁾. من الضروري إفساح المجال للآخر، ومن ثمّ فإن المؤرخ لديه مهمة أولية وهي قبل كل شيء، شأنه في ذلك شأن المحلل النفسي، محاولة الفهم. ومع ذلك، فإن الإنصات الذي يفترض مسبقاً التزهد، من أجل إفساح المجال للآخر، لا يؤدي إلى محو الذات. وهكذا، كان دو سيرتو

87 Ibid., p. 50.

88 Hans Georg Gadamer, *Vérité et méthode* (Paris: Seuil, 1976), p. 137.

89 Krzysztof Pomian, *L'ordre du temps* (Paris: Gallimard, 1984).

90 François Hartog & Gérard Lenclud, "Régimes d'historicité," in: Alexandre Dutu & Norbert Dodille (dir.), *L'Etat des lieux en sciences sociales* (Paris: L'Harmattan, 1993), pp. 18-38.

91 de Certeau, *L'absent de l'histoire*, p. 158.

92 Michel de Certeau, *La possession de Loudun*, Collection 'Archives' (Paris: Julliard, 1970; Gallimard, 1990), p. 7.

ينوي أن يجنب المؤرخ عقبتين اثنتين: من ناحية، يجب أن يحترس من الانبهار بالأرشف الذي يوهمه بالولوج المباشر من دون وساطة الماضي، ومن ناحية أخرى، عليه الابتعاد عن المفارقة التاريخية من خلال توظيفه قراءة معاصرة وإسقاطها على الماضي.

يسمح الإنصات بممارسة الاجتناب، وهو أمر ضروري جداً بالنسبة إلى الإنصات الشارد الذي يساعد في كشف المحلل النفسي للأعراض، وأيضاً في معاناة المؤرخ الميدانية للأرشف، التي تجعله يتقبل المفاجأة، ويستعيد الألفة المفقودة أو يكشف غرابة مقلقة. يميز دو سيرتو بين الكتابة والكلام، من دون أن يضيفي على هذه القطيعة صبغة مطلقة، فهو يسألها من جميع الزوايا، "لاستحداث مساحة ثالثة، هي مساحة الإنصات"⁽⁹³⁾. إنه يجعل الغلبة لصالح الشفوية، والصوت، والكلمة التي يعترف فيها بالصورة العابرة، التي غالباً ما تكون مبعدة، ومقصاة، من دون إطلاقية لأصل مزيف ومفقود، قد يطفو على السطح باعتباره كلاماً أولياً وأصلياً، وحاملاً لحقيقة حضور الذات. في هذا الصدد، لا يساهم دو سيرتو في تلك النظرة الحنينية للغرب التي تعتبر، من زمن جان جاك روسو إلى كلود ليفي ستروس، أن مفعول الكتابة قد أفسد بصفة حتمية وإلى الأبد الأصالة المفقودة لمهد البشرية، ألا وهي التبادل الشفهي في شفافيته المفترضة. بالطبع، هناك خسارة، "لكن خسارة ماذا؟ ليس خسارة حضور، ولكن خسارة "فراغ"⁽⁹⁴⁾. فما أحدث الثغرة عبر الزمن، بحسب جون دي ليريه، هو غياب المعنى. يبحث دو سيرتو دائماً عن هذه البدايات والخرافات التي تتواتر، فيوضح في كل حالة، مثل حالة التصوف، أن هذه الأصوات نفسها في صيغتها المادية الموجودة داخل بنية ما، وتاريخ ما، وكتابة ما، تكون مدمجة في هذه الرموز.

هذا ما تكشفه الممارسة التحليلية باعتبارها "ممارسة للحركية"، و"العبور المُغيّر"⁽⁹⁵⁾، ولهذا السبب حافظ دو سيرتو خاصة على علاقة وطيدة مع التحليل النفسي. هنا مرة أخرى، لا يقابل جذرياً بين الكتابة التي من شأنها أن تعزز الجانب التأصيلي، وبين كلام قد يتوافق مع الإبعاد؛ لأن المستويين في حالة تفاعل دائم. وهكذا، فإن كلام جان دي أنج في لودان، والتي كان بها مس على غرار آخرين، يندرج داخل نظام الانتماء، ويرتكز إلى الرموز الموجودة. وبالطريقة نفسها، كشف مراسلو تحقيق القس غريغوار حول اللهجات المحلية، إبان الثورة الفرنسية، عن وجود توتر بين التقاليد الشفوية والكتابة الحديثة. من بين التعبيرات الأخرى لهذا التهجين، اتخذ دو سيرتو مجالاً للدراسة حالة اضطراب اللغة، هذا "التحدث باللغة" الذي حير اللغوي فرديناند دو سوسير. وبتناوله الحالة المعروفة لـ "هيلين سميث"، أبرز دو سيرتو كيف استجابت بالفعل لإيحاءات عالم النفس ثيودور فلورنوي الذي وضعها في حالة تنويم مغناطيسي: "سؤالي هنا يتعلق بطبيعة هذا الكلام الممنوع من جانب الخطاب، والذي يعود داخله، أو، إذا صح القول، من خلال القول عن طريق التغيير الذي يلحق الخطاب نفسه"⁽⁹⁶⁾.

تجعل ممارسة الإنصات هذه ممارسة الاجتناب ممكنة، وهي التي نظمها دو سيرتو، باعتبارها فعلاً قادراً على أن يصبح ذا دلالة استكشافية. فعلى شاكلة المحلل النفسي الذي عليه أن ينقاد مع الاستكشاف، من خلال ممارسته للإنصات الشارد، على المؤرخ كذلك أن يحسن الاندهاش ويترك المجال للمفاجأة. فنزعت الطبعية هي الإحاطة بالماضي في إطار سببي لجعله أكثر وضوحاً. والتحليل النفسي يعلمه مدى هشاشة هذا النوع من إعادة البناء، ويقترح عليه بدلاً من ذلك نزع الحتمية عن الماضي لمعاينة المفاجأة، والوقوف على ضبابية ما كان يُعد حاضراً في الماضي. هذه الغرابة، بقدر ما هي مقلقة، تُعد وسيلة استكشافية قوية، سبق أن دل عليها

93 Monique Schneider, "La voix et le texte," in: Luce Giard (dir.), *Michel de Certeau*, Cahiers pour notre temps (Paris: Centre G. Pompidou, 1987), p. 135.

94 Ibid., p. 140.

95 Ibid., p. 142.

96 de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, p. 254.

لودفيغ فيتغنشتاين حينما دعانا إلى الانبهار أمام حياتنا اليومية. فهذه الأخيرة مكونة من لا شيء تقريباً حتى تكتسب مدلولاً مهماً، وهنا مرة أخرى، تكون الممارسة التحليلية النفسية، بتنبُّهها لزلّات هذا المدلول، ولتراخي الرقابة العقلانية، إيحائية بالنسبة إلى المؤرخ.

نجد لدى دو سيرتو هذه العناية تجاه ما يبدو أنه يشكل بقايا المعنى وهوامشه، وهذا التساؤل حول ما يظهر أنه غير دالّ، وعديم الجدوى. إن الخطاب الصوفي، الذي درسه، يحوّل الجزئي إلى أسطورة، ويضاعف وقعه في سياق تاريخاني خاص. فقد رسم إستيمولوجيته التاريخية في إطار من التوتر بين القول والفعل، وذلك ضمن هذا التشابك حيث يلتقي بموضوعات مجزأة يدرسها من خلال قراءة الأعراض التي تتحول إلى تقنية حفر تاريخية تُوصِل إلى الفهم على نحو أفضل: "اعتمدتُ وقائع 'لودان'، إلى حد ما، مثلما اعتمد فرويد الزلة في الخطاب"⁽⁹⁷⁾. تصوّر العلاقة بين التاريخ والتحليل النفسي باعتبارهما تخصصين، يشترطان حضور أحدهما موضوعاً للآخر، ويمثلان نوعين ينتج أحدهما الآخر في الشيء نفسه.

لم يتضمن تصوّر حوار واقعي بين التحليل النفسي والتاريخ في إطار الاحترام المتبادل لخصوصيتهما، مع أنهما قابلان لتغيير ممارساتهما، استدامةً كبيرة، نظراً إلى الاستخدامات العشوائية التي سادت في سبعينيات القرن العشرين، والتي كان لها وقع في شكل انطواء، وتراجع للمؤرخين الذين أداروا ظهورهم إلى حد بعيد للتحليل النفسي. لكن ما خلفوه من سجل إشكالي يبقى مفيداً فيما يتصل بالاستخدام المثمر لمفاهيم كل منهما، سواء المؤرخين أو المحللين النفسيين. ويقتضي هذا المنظور، ليس تقديم إجابات نهائية عن أسئلة، بقدر ما يتعلق الأمر بطرح أسئلة حول إجابات سابقة. وكما أشار إلى ذلك بول ريكور في خاتمة كتابه **الذاكرة والتاريخ والنسيان**: "تحت التاريخ، توجد الذاكرة والنسيان، وتحت الذاكرة والنسيان، توجد الحياة، لكن كتابة الحياة هي تاريخ آخر، غير مكتمل"⁽⁹⁸⁾.

97 Michel de Certeau, *France-Culture*, 12 avril 1970.

98 Ricœur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli*, p. 657.

فهرس

- تكميم: Quantification
- توضيب مشهدي: Montage scénique
- الثلاثية اللاكانية (نسبة إلى جاك لاكان):
Trilogie Lacanienne
- ثورة الكالفينيين: La révolte des Camisards
- جان دي أنج: Jeanne des Anges
- جبريم (رمز رياضي ابتكره جاك لاكان واستخدمه في التحليل النفسي): Mathème
- جذلة: Dialectisation
- جوبيتر كاييتولينا (معبد): Jupiter Capitolin
- جيرني، لويس: Louis Gernet
- خارج الزمن: Atemporel
- دو سوسير، فرديناند: Ferdinand de Saussure
- دو سيرتو، ميشيل: Michel de Certeau
- دوبرون، ألفونس: Alphonse Dupront
- دوبيه، جورج: Georges Duby
- دورا: Dora
- ديتيان، مارسيل: Marcel Detienne
- الذات العينية: Mêmeté
- الذاتية: Subjectivité
- رابليه: Rabelais
- رانك، أوتو: Otto Rank
- ريكور، بول: Paul Ricœur
- الزخور: Zakhor
- الزمنية: Temporalité
- سان كلود: Saint Cloud
- سانت أنج (حصن في روما): Saint-Ange
- سانتينا (بلدة في إيطاليا): Santena
- سوران، جون جوزيف: Jean Joseph Surin
- السيبتزونيوم (مبنى أثري في روما): Septizonium
- الأثر اللاحق (ظاهرة): Le phénomène de l'après-coup
- إيقونوغرافيا (دراسة الرسومات والصور): Iconographie
- إريكسون، إريك: Erik Erikson
- استذكار: Remémoration
- أصل: Urbild
- أعياد السبت: Sabbats
- اقتصاد المشاعر: Economie des affects
- ألتوسير، لويس: Louis Althusser
- إنجازية: Performativité
- أوفكلارونغ (التنوير): Aufklärung
- إيريتيبي أوجيه، فرانسوا: François Héritier-Augé
- بروديل، فيرناند: Fernand Braudel
- بالاتين (هضبة): Palatin
- بلوك، مارك: Marc Bloch
- بوتريه، فيليب: Philippe Boutry
- بور روبال: Port-Royal
- بورخيس: Borges
- بيزانسون، ألان: Alain Besançon
- التاريخ الأتوي: Ego-histoire
- التاريخ الثابت: Histoire immobile
- التاريخ الشمولي: Macro-histoire
- التاريخ المجهرى: Micro-histoire
- التاريخ النفسي: Psycho-histoire
- تحديد النسل: Birth control
- عبور التخصصات: Interdisciplinarité
- تشكيلات خطابية: Formations discursives
- تغاير زمني: Hétérochronie
- تفاعل الذوات: Intersubjectivité
- تفردية (مقاربة تفردية): Idiographie

- ✧ السيرة النفسية: Psychobiographie
- ✧ سيفاليه، ميراي: Mireille Cifali
- ✧ شتاين، كونراد: Conrad Stein
- ✧ صدمة: Trauma
- ✧ الطفل المتخيّل: L'enfant imaginaire
- ✧ طورينو: Turin
- ✧ عصاب شيطاني: Névrose Démoniaque
- ✧ العصر الكلاسيكي (القرن السابع عشر): Age classique
- ✧ غادامير: Gadamer
- ✧ غاليليه: Galilée
- ✧ غانزبورغ، كارلو: Carlo Ginzburg
- ✧ غرانيه، مارسيل: Marcel Grani
- ✧ غرين، أندريه: André Green
- ✧ فلسفات التأريخ: Chronosophies
- ✧ الفلسفة الوضعية: Positivism
- ✧ فلورنوي، ثيودور: Théodore Flournoy
- ✧ فوفيل، ميشيل: Michel Vovelle
- ✧ فوكو، ميشيل: Michel Foucault
- ✧ فيتغنشتاين، لودفيغ: Ludwig Wittgenstein
- ✧ فيرنان، جون بيير: Jean Pierre Vernant
- ✧ فيفر، لوسيان: Lucien Febvre
- ✧ القس سوجر: L'abbé Suger
- ✧ القس غريغوار: L'abbé Grégoire
- ✧ القوط: Goths
- ✧ كافاريلي (قصر في روما): Palazzo Caffarelli
- ✧ كان، بيير: Pierre Kahn
- ✧ لابروس، إرنست: Ernest Labrousse
- ✧ لوثر، مارتن: Martin Luther
- ✧ لوروا لادوريه، إيمانويل: Emmanuel Le Roy Ladurie
- ✧ لوفران، أبييل: Abel Lefranc
- ✧ ليبريه، جون دي: Jean de Léry
- ✧ ليفيه، جيوفاني: Giovanni Levi
- ✧ مارغريت دو نافار: Marguerite de Navarre
- ✧ مَسْ شيطان لودان: La possession de Loudun
- ✧ معاداة السامية: Antisemitisme
- ✧ معركة بوفين: La bataille de Bouvines
- ✧ معيارية (مقاربة معيارية): Nomothétie
- ✧ مغالطة تاريخية: Anachronisme
- ✧ الملوك صانعو المعجزات: Les Rois Thaumaturges
- ✧ المنهج التماثلي: Méthode analogique
- ✧ موريلي: Morelli
- ✧ مؤسسة ثيير: Fondation Thiers
- ✧ ميكيلانجيلو: Michel-Ange
- ✧ ناصيف، جاك: Jacques Nassif
- ✧ النزعة العلمية: Scientisme
- ✧ النفسية: Psyché
- ✧ نورا، بيير: Pierre Nora
- ✧ نيتشه: Nietzsche
- ✧ هاملت: Hamlet
- ✧ هانت، لين: Lynn Hunt
- ✧ هايتزمان: Haitzmann
- ✧ هوسمان، جورج أوجين: Georges Eugène Haussmann
- ✧ هوغونو (طائفة بروتستانتية من أتباع جون كالفن): Huguenots
- ✧ الهوية الذاتية: Ipse
- ✧ هيرمينوطيقي (تأويلي): Herméneutique
- ✧ يهوه: Yahvé
- ✧ يونغ، كارل غوستاف: Carl Gustav Jung

المراجع

- Ariès, Philippe. *Essai sur l'histoire de la mort en Occident*. Paris: Seuil, 1975.
- Bertrand, Michèle & Bernard Doray. *Psychanalyse et sciences sociales*. Paris: La Découverte, 1989.
- Besançon, Alain. *L'histoire psychanalytique*. Paris: Mouton, 1974.
- Bloch, Marc. *Revue de synthèse historique*. Repris dans *Mélanges M. Bloch*. Paris: EHESS, 1983 [1921].
- _____. *Apologie pour l'histoire* (1941). Paris: Armand Colin, 1974 [1941].
- Borgès, Jorge Luis. *Fictions*. Paris: Gallimard, 1957.
- Boutry, Philippe & Jacques Nassif. *Martin l'Archange*. Paris: Gallimard, 1985.
- De Certeau, Michel. "Ce que Freud fait de l'histoire. A propos d'une névrose démoniaque au XVIIe siècle." *Annales E.S.C.* vol. 25 (1970).
- _____. *La possession de Loudun*. Collection 'Archives'. Paris: Julliard, 1970.
- _____. *L'absent de l'histoire*. Paris: Mame, 1973.
- _____. *L'écriture de l'histoire*. Paris: Gallimard, 1975.
- _____. "Le Roman psychanalytique et son institution." *Confrontation* (1981).
- _____. *La Fable mystique*. Paris: Gallimard, 1982.
- _____. "Entretien avec Mireille Cifali." *Le Bloc-Notes de la psychanalyse*. no. 4 (1984).
- _____. *Histoire et psychanalyse entre science et fiction*. Collection Folio essais. Paris: Gallimard, 1987.
- _____. *La faiblesse de croire*. Paris: Seuil, 1987.
- _____. *L'invention du quotidien*, 1- *Arts de faire*. Collection Folio essais. Paris: Gallimard, 1990.
- Delacroix, Christian, François Dosse & Patrick Garcia. *Les courants historiques en France, 19e-20e siècles*. Paris: Armand Colin, 1999.
- Duby, Georges. *Le Dimanche de Bouvines*. Paris: Gallimard, 1973.
- Dutu, Alexandre & Norbert Dodille (dir.). *L'Etat des lieux en sciences sociales*. Paris: L'Harmattan, 1993.
- Febvre, Lucien. *Combats pour l'histoire*. Paris: Armand Colin, 1953.
- _____. *Rabelais ou le problème de l'incroyance au XVIe siècle*. Paris: Albin Michel, 1968 [1942].
- _____. *Un destin: Martin Luther*. Paris: PUF, 1968 [1928].
- Freud, Sigmund. *La technique psychanalytique*. Paris: PUF, 1953.
- _____. *Malaise dans la civilisation*. Paris: PUF, 1971.
- _____. *Essais de psychanalyse appliquée*. Paris: Gallimard, 1952 [1922].
- _____. *Métapsychologie*. Paris: Gallimard, 1952.
- _____. *Moïse et le monothéisme*. Collection idées. Paris: Gallimard, 1975 [1939].

- Freud, Sigmund & William Bullitt. *Thomas Woodrow Wilson*. Paris: Albin Michel, 1967.
- Gadamer, Hans Georg. *Vérité et méthode*. Paris: Seuil, 1976.
- Giard, Luce (dir.). *Michel de Certeau*. Cahiers pour notre temps. Paris: Centre G. Pompidou, 1987.
- Green, André. *Le temps éclaté*. Paris: Minuit, 2000.
- Greisch, Jean (trad.). *Enchevêtré dans des histoires*. Paris: Cerf, 1992.
- Hunt, Lynn. *Le roman familial de la Révolution française*. Paris: Albin Michel, 1995.
- Labrousse, Ernest. *L'histoire sociale*. Paris: PUF, 1967.
- Le Goff, Jacques (dir.). *La nouvelle histoire*. Paris: Encyclopédie Retz, 1978.
- Le Roy Ladurie, Emmanuel. *Le territoire de l'historien*. Paris: Gallimard, 1973.
- _____. *Les paysans de Languedoc*. Paris: Flammarion, 1969.
- Levi, Giovanni. *Le pouvoir au village*. Paris: Gallimard, 1989.
- Nora, Pierre (dir.). *Essais d'égo-histoire*. Paris: Gallimard, 1987.
- Pomian, Krzysztof. *L'ordre du temps*. Paris: Gallimard, 1984.
- Revel, Jacques. *Dictionnaire des sciences historiques*. Paris: PUF, 1986.
- Ricœur, Paul. "Entre mémoire et histoire." *Projet*. no. 248 (1996).
- _____. "La marque du passé." *Revue de métaphysique et de morale*. no. 1 (Mars 1998).
- _____. *La mémoire, l'histoire, l'oubli*. Paris: Seuil, 2000.
- _____. *Soi-Même comme un autre*. Paris: Seuil, 1990.
- Samaran, Charles (dir.). *L'Histoire et ses méthodes*. Paris: Gallimard, 1961.
- Stein, Conrad. *L'Enfant imaginaire*. Paris: Denoël, 1971.
- Vernant, Jean-Pierre. "D'une illusion des illusions." *Espaces, journal des psychanalystes* (printemps 1986).
- Vovelle, Michel. *Idéologies et mentalités*. Paris: Maspero, 1982.
- Yerushalmi, Yosef Hayim. *Zakhor*. Paris: La Découverte, 1984.

مراجعات کتب Book Reviews



أتاتورك: سيرة حياته، لكلاوس كرايزر

Atatürk. Eine Biographie By Klaus Kreiser

المؤلف: كلاوس كرايزر.

الترجمة: سميرة قوزال.

عنوان الكتاب: أتاتورك: سيرة حياته.

العنوان الأصلي: *Atatürk: Eine Biographie*.

الناشر: الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سنة النشر: 2023.

عدد الصفحات: 184 صفحة.

* أستاذ جامعي ومؤرخ، ومدير مؤسس لهيئة علماء المستقبل الدولية عام 2002، وهو محرر تقريرها السنوي.

University Professor and Historian. He is the Founding Director of The Community for Future Studies (2002) and the Editor of its Annual Report.

sayyarjamil@hotmail.com

مقدمة

كان مصطفى كمال (أتاتورك) (1923-1938)، مؤسس الجمهورية التركية الحديثة، موضوعاً لعشرات الكتب ومئات المقالات، التي نشرها العديد من المؤرخين الأتراك والمستشرقين والمراقبين الغربيين، سواء كان ذلك في عهده أو خلال عهود سياسية لاحقة، وقد أبدت أغلبها إعجاباً بتجربته وأفكاره وتوجهاته، وقبل ذلك، نضاله وقيادته لحرب الاستقلال، في ظروف هي الأصعب في تاريخ الدولة العثمانية، وخصوصاً الحرب العالمية الأولى وما تلاها من تحولات مفصلية.

حظي تاريخ أتاتورك بكثيرٍ من الدراسات والأبحاث المتنوعة سواء من حيث التركيز على شخصيته وسيرته أو مساره الفكري والأيدولوجي في إطار ما عُرف لاحقاً بـ "الكمالية"، فضلاً عن سياساته الداخلية والخارجية، فقد انتصر انتصاراً كبيراً في حرب تحرير بلاده من المحتلين، ونجح في لَمْ شتات الأتراك في الأناضول الآسيوية وتراقيا الأوروبية. وانتقدت كتابات أخرى سياساته وأفكاره وتجربته العلمانية والمبادئ الستة التي قام عليها نظامه الجمهوري على امتداد القرن العشرين، والمتمثلة في الوطنية والدولية والجمهورية والشعبية والعلمانية والثورية.

أولاً: سيرة أتاتورك: قيمة تاريخية

انعكست سيرة مصطفى كمال المعقّدة والمركّبة على بناء الشخصية التركية المعاصرة؛ فهو لا يزال، حتى يومنا هذا، رمزاً وطنياً للأتراك بتوجهاتهم الفكرية والأيدولوجية المتباينة، وأفكاره وكلماته ظلت نافذة، وصوره وتمائيله في كل مكان، بادية للعيان في أرجاء تركيا، على الرغم من تغيّر سياسات الحكم، ومخالفة بعضها لتوجهات النهج الكمالي وأفكاره؛ وهذا أثار اهتمام المثقفين الأتراك والأجانب. في هذا الخضم، يأتي عمل المؤرخ الألماني كلاوس كرايزر في كتابه **أتاتورك: سيرة حياته** المترجم إلى العربية ترجمة ممتازة، أنجزتها سميّة قوزال، والصادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، في الدوحة عام 2023.

ثانياً: ملاحظات أوليّة

يُعدّ كرايزر أحد أهم الخبراء الدوليين في التاريخ العثماني والتركي، وتميّز كتابه ببراء مادته، وإتقانه للموضوع، فضلاً عن أمانته العلمية، على الرغم من غياب التوثيق والهوامش والملاحظات الأساسية على النص، باستثناء ما قدّمه من ملاحظات مهمّة في نهاية الكتاب عن مصادره ومراجعته، ولا حجة له في ذلك، خصوصاً أنه، كما يقول في المقدمة، قد استخدم وثائق تتضمّن معلومات نادرة يكشف عنها أول مرة. إنّ المؤرخ المتمرس لا يكتفي بمجرد الاطلاع على عشرات المصادر والوثائق، بل يسعى إلى توثيق مادته توثيقاً دقيقاً وشاملاً، فالضرورة تقتضي، خصوصاً في كتابة سيرة وإنتاجها، توثيق مادتها، عملاً بأصول الأمانة العلمية وموضوعيتها البعيدة عن نشوة حماس الباحث والمؤرخ. والملاحظ أنّ المؤلف تجاهل الروايات المعارضة والمعلومات غير الصحيحة التي نشرها خصوم أتاتورك. وبدا واضحاً، من خلال قراءة الكتاب أنه نجح في تقديم سرد ذكيّ وواسع بنقّس علمي هادئ ورصين، وتجنّب إصدار أحكام قيمة مطلقة، فهدفه الرئيس كان وصف مصطفى كمال ضمن السياق التاريخي لظهوره، ليأتي، من بعد ذلك "أتاتورك" الزعيم، ولم ينظر إليه منبهراً كما هو حال الأوائل.

قسّم كرايزر الكتاب إلى مقدمة واثني عشر فصلاً وخاتمة. وبدا متوازناً في تضمين ما وجده في سيرة حياة أتاتورك، مع نشر عدة صور تاريخية له في أماكن وتواريخ متباينة. ونلاحظ أنه تعمّد أن تتناغم فصول الكتاب مع سيرة الرجل لا مع قوة هذا الحدث التاريخي أو ذاك، فالأهمّ لديه هو التركيز على مفاصل حياة أتاتورك. كان من الأجدى أن تقدّم ترجمة الكتاب نبذة مختصرة عن أسلوب ترجمتها له، ولكنها

استدركت ما غيَّبه المؤلف، حيث أوضحت وزن اسم "أتاتورك" وقوّته في متاهة صراع الأضداد بين مؤيديه من العلمانيين والإسلاميين، وهي مشكلة مستحكمة في المجتمع التركي المعاصر (وحتى العربي) إلى اليوم. كنت أودّ لو وَّضح المؤلف ملابسات تحوّل اسم أتاتورك إلى ظاهرة تاريخية مثيرة للجدل؛ إذ إنه، من جهة، رَسَخ الأسس العلمانية للجمهورية التركية، ومن جهة أخرى، ظل موضع نفور لدى الإسلاميين. وقد أبقي المؤلف نفسه بعيداً عن هذا الجدل ليقصر على تقديم نبذة موجزة عن كتابه في مقدمته المختصرة. إننا مطالبون بأن نبقي في حدود "النص" من دون الابتعاد عنه. لم يكن أتاتورك زعيماً عادياً، فقد شكّل ظاهرة في تاريخ الشرق الأوسط، وينبغي للمؤرخ له أن يكون في مستوى تلك "الظاهرة"، فلا يمكن التوقّف عند سرد الأحداث من دون قراءتها قراءة نقدية.

ثالثاً: المضامين البيوغرافية

وصف كرايزر في البداية سيرورة خط حياة أتاتورك بقوله: "بدأ عسكرياً ثم أصبح سياسياً، يرى في نفسه تجسيدا لإرادة أمته، وقاد لاحقاً ثورة ثقافية أحدثت تغييراً جذرياً في الحياة الدينية والقانونية وفي التاريخ واللغة وحتى الملبس والموسيقى" (ص 25). وبالرغم من كل الصعوبات، فقد نجح في ترسيخ "النظام" الذي أراده من خلال تجربته وتطبيقاته بنفسه.

وُلد مصطفى كمال في سالونيك؛ حيث ميناء مقدونيا، ونشأ وتعلّم فيها في طفولته وشبابه، في الفترة 1881-1896. ونجح كرايزر في تحليل وضع سالونيك السكاني انطلاقاً من معطيات إحصائية، وأثبت عبر ذلك وبطريقة غير مباشرة، أن أتاتورك كان تركياً عثمانياً مسلماً من خلال أسماء أفراد أسرته، فلم يكن من يهود الدونمة، كما يقول معارضوه الإسلاميون العرب؛ فاسمه الحقيقي هو "مصطفى"، وأضيف إليه لاحقاً اسم كمال ليغدو اسماً مركباً، حيث عُرف عنه إعجابه بالأديب التركي الشهير محمد نامق كمال. وكان ناجحاً في مساره الدراسي لينخرط في مسار كفاحه الوطني عبر نشاطاته السريّة، في الفترة 1896-1905، ليبدأ حياته في الشكّة العسكرية داخل الكلية الحربية، التي درس فيها وتدرّب في أروقتها وميدانها. وحاول كتابة الشعر لكنه لم يُوفّق. وانتقل إلى العاصمة العثمانية إسطنبول في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ليشهد حياة جديدة، وهناك تلقّى برنامجاً تعليمياً في روسيا، على غرار أقرانه الضباط العثمانيين الذين كانوا من شتى الملل والأعراق، مشكّلين بذلك جيلاً جديداً انخرط في تجارب تاريخية صعبة وممريرة منذ عام 1908. وقد حلّل المؤلف حياة مصطفى كمال بدقة، مسلطاً الضوء على تجاربه في المعارك والحملات العسكرية في الفترة 1905-1910. تتنقّل هذا الضابط في مناطق صعبة من ولاية دمشق، وخصوصاً في منطقة الدروز، وهو يرنو إلى مقدونيا التي بدأت تشتعل، مقارناً بين الحياة العربية التي تكتسي طابع الكآبة وبيئته الأوروبية المتمدنة، والأهم أنه كان يراقب ثورة "تركيا الفتاة" متسائلاً: هل كانت ثورة عسكرية؟ ليجد نفسه بين أناس يعادون تلك الثورة في ثكنات إسطنبول. وعاش كذلك مناورات حربية في بيكاردي.

تتنقّل المؤلف في كتابه مع مصطفى كمال في جميع الجبهات، متابعاً إياه خلال الفترة 1908-1915. وغدا داعية "الأترك الجدد" في طرابلس الغرب؛ وهو يشهد تلك السفن الحربية الإيطالية على سواحل أفريقيا، ويلتقي بعض الوطنيين في الصحراء. وكان الجيش اليوناني قد دخل إلى سالونيك مدينته، التي وُلد فيها فاهتزت عواطفه القومية، ونُصّب ملحقاً عسكرياً في صوفيا. وفي هذا الصدد، وقف المؤلف على رسائل أرسلها مصطفى كمال إلى صديقه مدام كورين لطفي، أرملة صديقه، التي عبّرت عن طموحاته الواسعة. وأظهرت الرسائل المتبادلة بين الطرفين، المكتوبة بلغة فرنسية متعثرة، معلومات جديدة، وترجمت مشاعر مصطفى كمال إزاء مدام كورين. وكانت الدولة العثمانية قد دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا القيصرية ضدّ الحلفاء، ليشهد معركة غاليبولي عام 1915 ودفاعه عن شبه الجزيرة. هنا، بدت نقاط الضعف في القيادة الألمانية بادية للعيان أمام مصطفى كمال وبقيّة الضباط العثمانيين، وهم لا يسمعون إلاّ الدعوات والتضرّع والوعود بالجنة. لكنه نجح في ردّ الاعتبار في أدّرتة.

ركّز الكتاب على تحركات مصطفى كمال بين كردستان وأرمينيا، في الفترة 1915-1918، في مواجهة العدو الروسي للعثمانيين. وهي مواجهة تعود جذورها إلى الماضي لتتواصل في القرن العشرين. كان أتاتورك يراقب عن كثب الأحداث الدموية في ديار بكر وبقية المدن الممتدة في شرقي الأناضول. وشهد ما حلّ بالأرمن والسريان من "إبادة"، إبان الحرب العالمية الأولى (ص 152)⁽¹⁾.

وكتب تأملاته الفلسفية، وحلّل القراءات الدينية والكراهية العرقية لدى الملل المحلية، عندما كان في ثكنة سلوان. وقرأ متبّعاً ما كان قد نظمه شاعران عثمانيان معروفان (ص 160)⁽²⁾. وتأتي النجدة الكردية مع المساعي التي بُذلت من أجل وحدة الجيش، وما حدث من مشادات مع إريش فون فالكنهاين، وما تمخضت عنه التجربة التاريخية بين العثمانيين والألمان باعتبارهما حليقيّن، وانطباعات مصطفى كمال عن وليّ العهد العثماني محمد وحيد الدين، وكان أحد مرافقيه إلى ألمانيا للعلاج عام 1917 (ص 170-171). وتوقّف المؤلف عند مرض مصطفى كمال متأماً قوله: "لا أريد أن أكون مثل عامة الناس، بل على عامة الناس أن يكونوا مثلي" (ص 181). في إثر ذلك، عاد إلى العاصمة إسطنبول ليمثل بين يدي السلطان ويتوقّف إطلاق النار ويكون الاستسلام، وهي لحظة شعر فيها العثمانيون بالمهانة والمذلة، وفقدوا فيها كرامتهم. غير أن تلك الهزيمة كانت منعطفاً لبداية مسار جديد لمصطفى كمال ورفاقه.

رابعاً: مصطفى كمال: من ضابط ثكنة إلى رجل سياسة

انتقل المؤلف محلّلاً تحوّل مصطفى كمال تحوّلًا مصيريًا من ضابط استراتيجي عثماني إلى رجل سياسة عام 1919، وهو الشاهد بنفسه على هروب المسؤولين العثمانيين، بعد انتهاء الحرب، يضاف إلى ذلك صدمة إنزال اليونان، العدو للدود للعثمانيين، بسواحل البلاد عند إزمير، وتزامن ذلك مع محاولات لنزع سلاح الوحدات العسكرية في الأناضول، ثم النزول التاريخي في سامسون، في 19 أيار/ مايو 1919. نجح المؤلف في تحليل طموحاته المتطلعة إلى أماكن عدة من الأناضول، وخصوصاً في أماسيا وأرضروم، وهناك خلغ مصطفى كمال بزّته العسكرية ليلبس بدلة الثوار، أما في أثناء الاجتماعات فقد لبس البدلة المدنية، التي تداولت مصير البلاد ومستقبل الأتراك في ظل محاذير التفكك والتمزق والخشية من أن يصبح الأناضول لقمة سائغة في أفواه الأعداء من اليونانيين والروس وغيرهم. وقرّر، وهو في سيواس، أن يسير بخطوات ثابتة في اتجاه النظام الجمهوري، في تجاهل تامّ لكل الأطراف المتشبثة بالخلافة.

انعقد مجلس الأمة، في الفترة 1920-1923، في ظل صراع داخلي محتدم بين الأتراك المستنيرين وأنصار بقاء الخلافة ولو بصيغة رمزية؛ إذ إن التيار المحافظ الداعي إلى بقاء الخلافة لم يكن يتكوّن من العلماء فقط بل شمل عدّة أطراف متفاوتة التوجّه، فالتهمت نار الاضطرابات في كلّ البلاد مع تقدّم الجيوش اليونانية. كانت الموارد محدودة والدولة منهارة لتتوقّع معاهدة سيفر في غياب تامّ لإسطنبول النائية ولأنقرة الثائرة المضطربة، فلم يكن الحال هيناً ولا يسيراً؛ إذ إنه لا مناص من إعلان السير إلى الحرب على عربات تجرّها الثيران. وكان لأتباع مصطفى كمال، وعلى رأسهم رفيقه عصمت باشا (إينونو) (1884-1973)، دورهم المؤثّر. وتصدّى الأتراك لإيقاف زحف اليونانيين، فكانت معركة سكاريا، وهي معركة دفاعية بهجوم موسّع على الجبهة الغربية نتج منها استسلام الجنرال ثريكو بيس (1869-1956) مسلّماً سيفه بعد احتراق إزمير.

1 أتوقف قليلاً لأصوّب ما كتبه كرايزر عن تهجير "الأشوريين الكلدانيين"، وقد قصد بهم الآثوريين، وهم ليسوا بكلدانيين كاثوليك، بل إنهم من المسيحيين النساطرة الشرقيين.

2 هما محمد أمين يورداكول في ديوانه أشعار تركية، وتوفيق فكرت في مجموعته الشعرية الربابة المكسورة.

خامسًا: أب لأمة وليدة (1922-1930)

تزامن انتصار مصطفى كمال في حرب الاستقلال مع انعقاد مؤتمر لوزان عام 1923، الذي خُصص لمعالجة شؤون الشرق الأوسط، وقد خرج الأرمن والأكراد والسرريان وغيرهم بلا كيانات لأوطانهم العريقة. كان اهتمام مصطفى كمال باشا منصبًا، تحديدًا، على الأناضول؛ حيث اتخذ أنقرة عاصمة لمؤسساته الجديدة، وتشانكايا مقرًا لإقامته. ووفد إليه زوار رسميون تجمعوا حول طاولته المستديرة، فأقرّ النظام الجديد تحت رعايته، واتخذ "أتاتورك" (أبو الأتراك) لقبًا له. وأقرّ النظام الجمهوري، وأعلن عن مبادئه الستة، وصدحت الموسيقى القومية. وانبثق حزب الشعب الجمهوري مع نهاية مؤلّمة للحزب الجمهوري التقدمي؛ إذ إن حزب الشعب شهد انقسامًا داخليًا إثر إلغاء السلطنة، فسَمّى المنشقون أنفسهم بالحزب الجمهوري التقدمي. وسَمّى مصطفى كمال وجماعته حزبهم بحزب الشعب الجمهوري. وبدأ التنافس السياسي بين الحزبين. ولمّا تعرّض مصطفى كمال لمحاولة اغتيال، اتُّهم المنشقون بمحاولة انقلاب. فانهقدت محاكمات في إزمير وأنقرة، وأعدم بعض قادة الحزب المنشق (ص 286-290). وجرى البحث سريعًا عن رجال من الأتليجينسيا التركية. وألقى أتاتورك خطابه الشهير في مدينة نُطق، وبدأ التنافس يسود الحياة السياسية الجديدة (ص 291-295).

قدّم المؤلف أتاتورك بوصفه قائدًا لثورة فكرية في الفترة 1922-1925؛ إذ إنه بدأ بعزل الخليفة وإلغاء الخلافة التي كان السلطان عبد الحميد الثاني قد وظّفها واتخذ لنفسه لقب الخليفة في إطار الجامعة الإسلامية، وهو لقب لم يكن مستخدمًا رسميًا قبل ذلك. وشهد المجلس جدلًا حادًا حول الطرق الصوفية وعمليات التمرد الواسعة للأكراد بقيادة الشيخ سعيد، عام 1925، وكان أتاتورك في هذه المرحلة قد ركّز على إطلاق مشاريع كانت تهدف إلى تعليم شعبه الدروس الوطنية والتربوية، ومحو التقاليد القديمة واستبدالها بالتقاليد الجديدة المستوحاة من الغرب الأوروبي.

تناول المؤلف أيضًا القانون الجديد ووضع المرأة في الفترة 1923-1935، كما أسماه المؤلف (ص 329)، واعتنى بثورة التحديث في القانون ونظام المحاكم. وأبقى أتاتورك على علم البلاد فهو "المرشد الحقيقي" في حياة الأتراك (ص 332)، واحترامًا للدماء التي أهدرت في سبيل الوطن. وجرى إصدار قانونين جمهوريين مستلهمين من القانون السويسري والقانون الجنائي الإيطالي في انسجام تامّ مع رؤيته للمسار نحو التمدّن وكيفية بناء الأمة المتحضّرة. وقد غدا أتاتورك المعلم الأكبر في الفترة 1928-1935، وقد جرى استبدال الأبجدية العربية في كتابة اللغة التركية بالأبجدية اللاتينية؛ فتنتج من ذلك التركية الجديدة المطمّعة بمفردات مستقاة من لغات أوروبية، وتمّ بناء مدارس الأمة التي باتت وسيلة أساسية لنشرها وتعليمها. واهتم أيضًا بعلم الآثار والأنثروبولوجيا في الأناضول، معتمدًا النظرية اللغوية الشمسية مع الاهتمام بالعلوم السومرية الكلاسيكية.

مرض أتاتورك في الفترة 1936-1938، وعاش الأيام الأخيرة من حياته في قصر دولما بهجة Dolmabahçe. وتوفي، وأقيمت له جنازة مهيبّة تليق بمكانته بوصفه زعيمًا في حقبة من أهمّ حقبة تاريخ تركيا.

سادسًا: أتاتورك: رمز الدولة الوطنية التركية الحديثة

لا يزال أتاتورك رمزًا لتركيا المعاصرة رغم تحوّل الأيديولوجيات، على نحو لا يماثله أيّ من زعماء العالم القدامى الذين تراجعت رمزيّتهم مع الزمن، فصوره ومنحوتاته ومجسماته ومقاطع من خطبه منتشرة في كلّ مكان من تركيا حتى يومنا هذا. وحتى خلال حياته، جرى إضفاء طابع التعظيم على شخصه باعتباره منقذًا ومخلصًا للوطن من التشرذم والتمزق ومن أيدي المحتلين الأوروبيين، فهو الزعيم الملهم وصاحب البصيرة والرؤية الحاسمة. وقد أثار مصطفى كمال بقبّعته الشهيرة إعجاب المراقبين الغربيين والشرقيين

على حدّ سواء. ومن يراجع العديد من الأدبيات العربية في عقد العشرينيات يلمس الإعجاب المنقطع النظير الذي حظي به، فقد بدا العالم الزعيم الوطني الوحيد الذي أنقذ تركيا وبنى نظامها الجمهوري، وأعاد الحياة إلى مؤسساتها، كما وقف ضد مخططات المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، وكان له الدور الكبير في وحدة الإرادة الوطنية التركية. وحارب من أجل الاستقلال ليقطف ثمار النضال بعد عدة سنوات. جرى الإعلان عن أول دولة وطنية تركية عام 1923 على أشلاء إمبراطورية عثمانية ممتدة عانت ويلات الحرب. وأصدر أتاتورك مرسومًا قطع مع التقاليد الموروثة، وأسدل الستار على الماضي؛ ليفتح نوافذ جديدة للأتراك على العالم. وألغى الخلافة، فأثار بذلك الانقسامات، وأثار ردود فعل قويّة ضدّه، سواء من العرب أو غيرهم. إضافة إلى ذلك، حظر أتاتورك كل مظاهر التدين؛ فقد منع وضع العمام، وزيارات الأضرحة، وأغطية الوجه والرأس في الأماكن العامة. وجرى نقل العاصمة من إسطنبول إلى مركز البلاد الجديدة أنقرة.

أخالف كرايزر الرأي حينما ذهب في اتجاه تأكيد قمع أتاتورك للتعليم الإسلامي بقوله: إنه "قمع التعليم الإسلامي بصرامة"؛ فالحقيقة أنه لم يقمعه بل نجح في تحجيمه، حيث أبقى على دوره الاجتماعي فقط وأفرغه من مضمونه الديني، في مقابل ذلك توسّع في بناء المدارس المدنية لتستفيد دولته ومؤسساتها من الخريجين المتميّزين. كان أتاتورك يرى أنّ الدولة لا يمكنها التقدّم بوجود الدين، فحيّده وفصله عن الدولة لا المجتمع. بمعنى آخر، أسدل الستار على الماضي⁽³⁾. وسعى إلى إرساء نظامه السياسي والقضائي انطلاقًا من القوانين الأوروبية الداعية إلى المساواة بالنسبة إلى النساء. وتساءل كرايزر: كيف يمكن أن يصبح جندي محترف ذو خلفية متواضعة رئيس دولة يمثل هذا المستوى الثوري والثقافي؟ وجدنا الكاتب يسرد حياة مصطفى كمال بوضوح شديد، ويظهر أن الظروف التاريخية وشبكة علاقاته القوية قد خدمته. كان ذكيًا في تعامله مع الأقوياء، وفرض شخصيته من خلال جمع ما تبشر من أشلاء الوطن، فضلًا عن قوة الكاريزما التي ميّزته، ما جعله زعيمًا فريدًا تمكّن من الصعود بين أبناء وطنه، ليصبح ذائع الصيت في الشعوب المجاورة.

سابعًا: الكمالية من زاوية موضوعية

هكذا، غدت أنقرة (كما تُعرف أنكورا في الأدبيات القديمة منذ عام 1930)، العاصمة الجديدة للبلاد، وجرى إصلاح خدمة البريد التركية. كانت المدينة سابقًا بلدة إقليمية في عمق الأناضول، ومع حرب الاستقلال، تحوّلت إلى مركز حيوي لحركة الاستقلال. أراد أتاتورك حكومة تبنّي مباشرة من مجلس الأمة التركي الكبير بعد حلّ البرلمان العثماني عام 1920⁽⁴⁾، وتصور ديمقراطية تمثيلية يكون فيها البرلمان الوطني هو المصدر الأعلى للسلطة. ووددت لو أن كرايزر توقّف عند علاقة أتاتورك بالسلطة والمجتمع، وأن يحلّل مقارنة شخصيته عبر مراحل مختلفة من حكمه؛ ليتتبّع تغيير مواقفه وكذا ملابسات ذلك. احتاجت البلاد إلى إعادة الإعمار، ولم يكن في إمكان "الحكومة المباشرة من قبل الجمعية" البقاء في مثل هذه البيئة. وقد واجه أتاتورك ورفاقه تحديات جسيمة من أنصار النظام العثماني القديم، وكذلك أنصار الأيديولوجيات الأحدث في القرن العشرين، من قبيل الشيوعية والفاشية والنازية. وكان يرى عواقب المذهبيين الفاشي والشيوعي في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، ورفضهما⁽⁵⁾. وحال دون انتشار حكم الأحزاب الشمولية التي هيمنت على الحكم في الاتحاد السوفياتي وألمانيا وإيطاليا. فاعتبر بعضهم معارضته لأصوات هذه الأيديولوجيات وإسكاتهما

3 "أتاتورك: الكاريزما في التكوين التركي المعاصر"، في: سيار الجميل، العرب والأتراك: الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997)، ص 99-133.

4 Andrew Mango, *Atatürk: The Biography of the Founder of Modern Turkey* (Woodstock, NY: Overlook Press, 2002), p. 501.

5 M. Şükrü Hanioglu, *Atatürk: An Intellectual Biography* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011), p. 55.

وسيلةً للقضاء على منافسيه. ورأى آخرون أنه كان من الضروري حماية الدولة التركية الفتية من الوقوع في فوضى الأيديولوجيات الجديدة، ومن خطر الفصائل المتنافسة. وبناء عليه، فإن عهد أتاتورك شهد عملية الاعتقال المعروفة باسم اعتقال عام 1927؛ إذ جرى إطلاق حملة اعتقالات واسعة النطاق شملت أعضاء الحزب الشيوعي التركي. وحوكمت شخصيات سياسية شيوعية، مثل حكمت كيفيلجيملي، وناظم حكمت، وشفيق حسنو، وحُكم عليهم بالسجن. وعام 1937، قرر وفد برئاسة أتاتورك أن يفرض رقابة على كتابات كيفيلجيملي باعتبارها دعاية شيوعية ضارة⁽⁶⁾.

خاتمة

يعرض كرايزر حياة مصطفى كمال بأسلوب تصويري يوضح من خلاله إسهام الظروف التاريخية، فضلاً عن الاستفادة من شبكة علاقاته القوية، والوعي بالقوة والكاريزما، في جعل مساره مساراً فريداً.

قد تكون سيرة أتاتورك لكرايزر هي الأكثر رصانة وعمقاً لمؤرخ من خارج تركيا. وعلى الرغم من بعض القصور الذي شابها، وبعض الأخطاء بدرجات متفاوتة، وأنها سيرة غير مثالية، فإنها سلّطت الضوء على أتاتورك قائداً ثقافياً مستنيراً، لكنه بعيد عن إبراز ديناميكيات الثورة ومعناها. ومع ذلك، فهي سيرة تاريخية متميزة، ولا ينبغي لها أن تكون السيرة الوحيدة التي يُعَوَّل عليها لفهم أتاتورك. وإذا كان لا بد من الاكتفاء بسيرة واحدة لأتاتورك، فإن كتاب كرايزر يُعدّ خياراً جيداً ومفيداً للغاية.

ولعل أهم ما يميز سيرة أتاتورك لكرايزر أنها سيرة غير متحيزة من وجهة نظر مؤرخ أجنبي. إنه عمل يسهل تتبّعه من الناحية الكرونولوجية، غير مُغرق في التفاصيل، فضلاً عن ثرائه البليوغرافي. مكّني هذا المؤلف من الاطلاع على تفاصيل لا حصر لها عن أتاتورك، لذلك فهو مرجع لا غنى عنه بالنسبة إلى الباحثين والمؤرخين في العالم.

يُعتبر هذا الكتاب بمنزلة تقييم لزعامه أتاتورك التاريخية بوصفها حلقة ضمن سلسلة حلقات متصلة للتاريخ التركي المعاصر في القرن العشرين، خصوصاً أنه يمثل رؤية بعيدة المدى لأحداث حاسمة من منظور واسع. في الواقع، هذه ليست دراسة تبحث في سيرة أتاتورك، بل هي تحليل عميق للأحداث السياسية التي غدت لبنة أساسية في فهم تاريخ جديد لتركيا وصنعه. إن عمل كرايزر ليس سيرة سردية بطلها مصطفى كمال، بل هو دراسة موضوعية عميقة تتبّع تحوّل من ضابط عثماني إلى مؤسس دولة. وذلك هو جوهر العظمة الذي يفخر به الأتراك حين منحوه لقب "أتاتورك العظيم". لذلك، فإن المؤرخ كرايزر بدا أكثر حرفية من عدد من المؤرخين والمؤلفين الأتراك.

6 M. Jacob Landau, *Atatürk and the Modernization of Turkey* (Boulder: Westview Press, 1984), p. 252.

المراجع

العربية

الجميل، سيّار. **العرب والأتراك: الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997.
_____. **زعماء العالم: بناء وطغاة في القرن العشرين**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2022.

الأجنبية

Hanioğlu, Şükrü M. *Atatürk: An Intellectual Biography*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011.
Landau, M. Jacob. *Atatürk and the Modernization of Turkey*. Boulder: Westview Press, 1984.
Mango, Andrew. *Atatürk: The Biography of the Founder of Modern Turkey*. Woodstock, NY: Overlook Press, 2002.

وادي موسى والبترا في القرنين التاسع عشر والعشرين

Wadi Musa and Petra in the Nineteenth and Twentieth Centuries

المؤلف: سليمان علي إبراهيم الفرجات.

عنوان الكتاب: وادي موسى والبترا: في القرنين التاسع عشر والعشرين.

الناشر: عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية.

سنة النشر: 2023.

عدد الصفحات: 184 صفحة.

* باحث مهتم بالتاريخ والمجتمع وتحولات القبيلة في السياق الأردني، حاصل على شهادة الماجستير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من معهد الدوحة للدراسات العليا.

Researcher Interested in History, Society, and the Transformations of the Jordanian Tribe. He Holds a Master's Degree in Sociology and Anthropology from the Doha Institute for Graduate Studies.

mal130@dohainstitute.edu.qa

تقديم: أين تاريخ القرى والأرياف في الأردن؟

تحظى المدرسة التاريخية في الأردن بأهمية كبيرة نظرًا إلى عدة أمور، منها الزخم المعرفي الذي أنتجته حول قضايا عديدة في تاريخ الأردن والمنطقة العربية عمومًا. وقد ضمت هذه المدرسة أسماء بارزة في علم التاريخ والتأريخ؛ مثل محمد عدنان البخيت، وعلي محافظة، وسليمان الموسى، وهند أبو الشعر، وغيرهم من الباحثين البارزين. ومع ذلك، تواجه هذه المدرسة كثيرًا من الإشكاليات، إحداها تتعلق بغياب عمليات التأريخ الحقيقي والشامل للقرى والأرياف والبوادي في مختلف المناطق⁽¹⁾؛ إذ إن معظم الكتب والدراسات والاتجاهات ركزت على الأحداث الكبرى في تاريخ الدولة، مثل حركة العائلة الحاكمة واستقرارها، وبناء الدولة وترسيخ المؤسسات، والحروب والمعارك التي خاضتها الدولة، والمؤتمرات والأحزاب التي نشأت مع بداية المشروع الوطني، وبعض الاهتمامات الأخرى مثل تدوين تاريخ بعض الشخصيات البارزة ومسيرتها.

وفي مطلع التسعينيات، انعطفت حركة الكتابة التاريخية في السياق الأردني نحو قضايا ذات ارتباط أكبر بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وذلك بسبب الانفتاح على عدد من المصادر الجديدة؛ مثل سجلات المحاكم الشرعية، وسجلات مقررات المجالس البلدية، وسجلات الطابو، والأوقاف، والمدارس، والكنائس، والصحافة⁽²⁾. وعلى الرغم من ذلك، غابت الكثير من القضايا والأحداث عن الدرس والفحص والتسجيل. وقد أشار مهند مبيضين، في محاولته تقييم وضع الكتابة التاريخية في الأردن، إلى أن ما تمت كتابته عن مدينة عمان، مركز الأردن، في مختلف الحقب والجوانب لا يعادل ما كُتب عن مدينة دمشق⁽³⁾ حتى القرن السادس الهجري⁽⁴⁾. وتحدثت هند أبو الشعر، على نحو مفصل، عن مشكلات الكتابة التاريخية في الأردن؛ إذ تؤكد أن الريف الأردني لم يحظَ باهتمام كافٍ من البحث والدراسة التاريخية⁽⁵⁾، بل اعتبره الباحثون أمرًا ثانويًا⁽⁶⁾.

ما يهمنا في هذه الأطروحات هو إجماع مختلف على نقص حاد في الكتابة التاريخية أو في عملية التأريخ للمجتمع الأردني ومناطقه، فضلًا عن "العطب المنهجي" والغموض الدلالي في الكتابات الأخرى التي تتناول بعض القضايا التاريخية والاجتماعية⁽⁷⁾. ونتج من هذه الإشكالات فجوة كبيرة في فهم جوانب مهمة من تاريخ الممارسات والنمط المعيش بالنسبة إلى الأفراد والجماعات المختلفة، وهو ما يُعرف بـ "التاريخ الاجتماعي"، أو "تاريخ الناس العاديين"، أو حتى "تاريخ المهمشين"⁽⁸⁾. وقد برز هذا التوجه بوضوح مع صعود مدرسة الحوليات عام 1929؛ نتيجة لتفاعل التاريخ، بوصفه علمًا وواقعًا اجتماعيًا، مع العلوم الاجتماعية والإنسانية

1 هذا الطرح لا ينفي وجود كتابات مهمة تتحدث عن بعض القرى والمناطق في الأردن. على سبيل المثال، ينظر: هند أبو الشعر، **إربد وجوارها: ناحية بني عبيد 1850-1928** (عمان: منشورات جامعة آل البيت وبنك الأعمال، 1994).

2 ينظر: هند أبو الشعر وعبد الله العساف، **معان: المظاهر الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقررات مجلس البلدية 1929-1931** (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2016)؛ هند أبو الشعر وعبد الله العساف، **مادبا: الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقررات مجلس البلدية 1923-1927** (عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية، 2012).

3 ربما لا تكون هذه المقارنة عادلة، فوضع المدينتين في الميزان نفسه هو في حد ذاته إجحاف في حق كل منهما، تبعًا لعدة أمور.

4 للمزيد بشأن هذا الطرح، ينظر: مهند مبيضين، **الأردن المعاصر: إشكاليات التدوين والثورة والحركة الوطنية** (عمان: دار أمجد للنشر والتوزيع، 2019).

5 حاولت أبو الشعر في هذا الباب سدّ جزء من هذه الثغرات، عبر عدة مساهمات.

6 هند أبو الشعر، "ريف الأردن في العهد العثماني: قرية الصريح بلواء بني عبيد نموذجًا"، **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**، مج 4، العدد 3 (2010)، ص 62.

7 من هنا، تأتي دعوات المؤرخين المتكررة إلى إعادة كتابة تاريخ الأردن من جديد، وخصوصًا تاريخ المتوالية الأولى من عمر الدولة، على أن يجري تطوير الأدوات المنهجية، واستخدام كتابات جديدة، لكون الكتابات الأولى استخدمت مصادر محددة. ينظر: هند أبو الشعر، "العبور إلى المستقبل في كتابة تاريخ الأردن: نظرة في المصادر والتوثيق"، **مجلة أفكار**، العدد 389 (2021).

8 ثمة كتاب مهم في هذا الشأن، وهو مجموعة من النصوص التي جمعها مركز الأردن الجديد للدراسات. ويتناول هذا الكتاب جوانب متنوعة من التاريخ الاجتماعي لبعض المناطق الأردنية، وفيه مساهمات مختلفة من كتاب عرب وغربيين. وقد نُشر، أول مرة، عام 2003، وأعادت وزارة الثقافة نشره من جديد في جزأين. ينظر: **تاريخ الأردن الاجتماعي** (عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية، 2021).

الأخرى، وبخاصة علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا. ويُعدّ هذا الاتجاه توجهاً نقدياً وردّة فعل على أدبيات التاريخ السياسي التي لم تهتمّ إلا بالأحداث والعلاقات السياسية بين الدول والأدوار التي طالما تؤدّيها النخب.

في ظلّ النقص المتعلق بفهم أشكال ونمط المعيش لدى التجمعات والمناطق المختلفة في الأردن، ومع حاجتنا الملحة إلى فهم الشكل العام لهذه الممارسات وهذا التاريخ، على الأقل، يستعين بعض المؤلفين في الأردن بعدة طرائق؛ مثل التوجه إلى أخذ مداخل من كتابات الرحالة والمستشرقين والأنثروبولوجيين الذين سجلوا صوراً عامة عن شكل التجمعات وأنماط الاستقرار والبناء والتفاعلات بين الجماعات في فترات مبكرة. يضاف إلى ذلك ما يتعلق بما جُمع وسُجّل ووُثّق من التاريخ الشفوي⁽⁹⁾، علاوةً على إمكان آخر حظي بأهمية أكبر في الفترات الأخيرة هو المذكرات الشخصية والسير الذاتية⁽¹⁰⁾.

أولاً: تساؤلات حول الكتابة التاريخية عن مناطق البتراء ووادي موسى

لنتجاوز مسائل الكتابة التاريخية حول المجتمع الأردني عموماً، ولننتقل إلى السياق؛ منطقة البتراء ووادي موسى تحديداً⁽¹¹⁾. خلال اشتغالي، في الفترات السابقة، بالجماعات التي تقطن في منطقة البتراء والتحويلات التي طرأت على بنيتها منذ ظهورها في الكتابات التاريخية، لاحظت وجود فراغ في إنتاج معرفة محلية باللغة العربية حول الجماعات التي تقطن في المنطقة⁽¹²⁾ والمناطق المجاورة. وكان التساؤل الذي يتردد دائماً بشأن هذا الفراغ، هو: لماذا لا يكتب سكان هذه المناطق عن تاريخهم، وعن ممارساتهم اليومية وعلاقتهم الاجتماعية؟ وبعد التعمق في الكتابات من حولهم أكثر فأكثر، وبعد المقابلات والأحاديث الطويلة مع أفراد هذه الجماعات، بدأت أدرك أنه توجد صراعات بين هذه الجماعات؛ إذ تسعى كل جماعة لتسليط الضوء على تاريخها، وفي الوقت نفسه تحاول تجاهل تاريخ الجماعات الأخرى وإنكار حقيقة وجودها في تاريخ المنطقة.

ومع ازدياد حركة النشاط السياحي، تزداد حدة الصراعات في المنطقة. وتستخدم هذه الجماعات أشكالاً وأدوات جديدة تهدف إلى محاولة تقليل الوزن العرقي للجماعات الأخرى، وذلك عبر إنتاج صور مختلفة حولها. وهذه الصور، التي تُنتج متخيلة، هي جزء من عمليات الوصم الثقافي Cultural Stigma التي تمارسها هذه الجماعات. وتُعدّ هذه العمليات، كما أشار إرفنج غوفمان Erving Goffman، علاماتٍ ورموزاً تحدد الأفراد والجماعات بخصائص وصور نمطية غالباً ما تكون سلبية؛ ما يؤدي إلى إلصاق عيوب ونقائص بنيوية في الجماعة المستهدفة⁽¹³⁾. وفي هذا السياق، تمس هذه العمليات تاريخ هذه الجماعات وهويتها، وهو ما يعوق مساواتهم ويؤدّي إلى تمييز سلمي يتوسع تدريجياً في المجتمع الكبير.

9 إن الجزء الأكبر من هذا التاريخ قد اختفى قبل أن يُسجل على نحو فعال. فغالبية هذه المعرفة لم يُعْتَنَ بها ولم تجمع بالطريقة المطلوبة، على الرغم من بعض محاولات من الأفراد والمؤسسات.

10 للمزيد حول الكتابة التاريخية في الأردن من حيث أشكالها، ومعضلاتها، وإنجازاتها، ومؤرخوها، ينظر: المهدي الرواضية، **أنظار وملامح حول الكتابة التاريخية عن الأردن** (عمّان: مركز الدراسات الاستراتيجية - الجامعة الأردنية، 2021).

11 تقع مدينة البتراء في محافظة معان في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية، وتُعدّ المدينة السياحية الأولى في البلد، وتحظى بأهمية كبيرة لدى الأردنيين، خصوصاً بعد اعتبارها واحدة من عجائب الدنيا السبع، وهي اليوم من أهم المناطق الأثرية والتاريخية والسياحية في العالم. وتقع منطقة وادي موسى إلى جوارها، ويعيش فيها ائتلاف عشائري متحد بمفهوم القبيلة، ويُعرف باسم "الليانة"، ويقطن في منطقة البتراء تجمع آخر متحد أيضاً بمفهوم القبيلة يطلق عليه "البدول". ويعمل أبناء كل من القبيلتين في أنشطة متعددة تخدم الحركة السياحية في المنطقة. ومع ازدياد الحركة السياحية في البتراء وازدياد الفائدة الاقتصادية، تزداد النزاعات بين القبائل، وقد يتجلى ذلك في البداية من خلال التساؤل حول شرعية كل قبيلة وأحققتها في ممارسة العمل السياحي في المنطقة.

12 ثمة مؤلفات محدودة في هذا الشأن. ينظر: صالح أبو طويلة، "تحولات البداوة الأردنية، قبيلة البدول في البتراء أنموذجاً"، **مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي**، مج 8، العدد 2 (2021).

13 للمزيد حول هذا الطرح، ينظر: Erving Goffman, *Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity* (New York: Simon & Schuster, 1986).

من خلال فهم هذه الصراعات، أصبح التساؤل الأكثر إلحاحًا هو: إذا جرت عملية الكتابة من داخل هذه الجماعة، فكيف ستكون الكتابة المنجزة في أثناء هذا التاريخ الطويل المليء بالصراعات المختلفة؟ هذا إلى جانب الحاجة الملحة إلى فهم كيفية تناول الأفراد تاريخهم، خصوصًا أن معظم المعرفة المنتجة حول هذه الجماعة أنتجتْها الأيدي الغربية⁽¹⁴⁾؛ بدءًا من كتابات الرحالة والمستكشفين وعلماء الآثار خلال القرن التاسع عشر، وهي كتابات كانت تركز على مدينة البتراء الأثرية التي جرى اكتشافها من جديد، وجرّت محاولة تقديمها إلى العالم، مع ملاحظات لوصف الجماعات والمنطقة والعشائر والتشكيلات المختلفة التي كانت قائمة، ووصولًا إلى الدراسات اللاحقة التي كانت ذات طابع أكثر جدية⁽¹⁵⁾. لكن هذه الكتابات حملت كثيرًا من المشكلات، فهي كانت ذات طابع غرائبي في نظرتها إلى هذه الجماعات. ورغم توقف الرحلات فترات طويلة أيضًا بسبب النزاعات بين القبائل في المنطقة⁽¹⁶⁾، فإن هذه الكتابات تظل بالغة الأهمية لفهم تاريخ هذه الجماعات وتاريخ المنطقة؛ إذ تكاد تكون المصدر الوحيد في هذا الشأن⁽¹⁷⁾.

ثانيًا: كتابات السكان بين أيدينا

يتصدى هذا الكتاب الذي سنقدمه ونناقشه للأطروحات السابقة⁽¹⁸⁾؛ وذلك من خلال انطلاقه من الرابط الداخلي على حد تعبير عبد الله حمودي⁽¹⁹⁾. ويسعى الكتاب لإنتاج معرفة شاملة ومهمة متعلقة بتاريخ بعض المناطق الأردنية، وهو بعنوان **وادي موسى والبتراء: في القرنين التاسع عشر والعشرين** للباحث سليمان الفرجات. وتكمن أهميته في عدة جوانب؛ أولها أنه يتناول عملية تأريخ لما نعتبره يقع ضمن تاريخ القرى والأرياف الأردنية⁽²⁰⁾، خصوصًا أنه يشرع في عملية التأريخ للمنطقة منذ الإدارة العثمانية ويضعنا في الجو العام لوضع هذه المناطق قبل انطلاق الثورة العربية الكبرى، وفي الفترات التي شهدت قيام إمارة شرق الأردن وتشكيل دولة الأردن. أما ثانيها، فهو أنه يجمع بعض الرحلات الأجنبية التي قدمت إلى المنطقة، ويؤرخ لها. وإضافة إلى ذلك، يعرض بعض الوثائق المهمة بخصوص المنطقة مثل المراسلات التي كانت تجري بين الوالي والمركز العثماني، ثم إنه يتضمن بعض الصور التاريخية، ويقدم جداول تفصيلية مهمة تتضمن أسماء الطلاب في المدارس، وأعدادهم، ومعدلاتهم، وأسماء أوائل المعلمين، والضرائب، وكمية إنتاج السكان من المحاصيل الزراعية، وتطور أعداد السياح، وغيرها من الجوانب المهمة.

ينقسم هذا الكتاب إلى ستة أقسام، ويتطرق القسم الأول منها إلى الجانب الإداري (الصفحات 21-52). ويهتم القسم الثاني بالتعليم وتطوره (الصفحات 53-126)، بينما يركز القسم الثالث على الوضع السياحي والأثري في المنطقة (الصفحات 127-212). ويناقش القسم الرابع الجوانب التشريعية (الصفحات 213-228)، في حين يتناول القسم الخامس الجوانب الاجتماعية (الصفحات

14 ضمت هذه الأعمال، نصوصًا أنتجها عرب مثل نص توفيق كنعان، الذي كان ضمن البعثة الإنكليزية التي انطلقت من الخليل عام 1929، والذي قدّم مؤلفًا جيدًا لفهم المنطقة والسكان في ذلك الوقت. ينظر:

Tawfiq Canaan, *Studies in the Topography and Folklore of Petra* (Jerusalem: Beyt-ul-Makdes Press, 1930).

15 للمزيد حول هذه الدراسات، وحول التحولات التي مرت بها قبيلة البدول في علاقتها بالمسكن ونمط المعيش، والعلاقة بينها وبين الدولة والقبائل المحيطة، ينظر: مثنى المصري، "تحولات البداوة في الأردن: قبيلة البدول مثالاً"، **عمران**، مج 13، العدد 52 (ربيع 2025).

16 هند أبو الشعر، **تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 1516-1918** (عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية، 2010)، ص 258.

17 في محادثاتي المختلفة مع سكان هذه المناطق، وجدت محاولات لكتابة أجزاء مهمة من تاريخ هذه المناطق وهذه القبائل، وتمكنت من الاطلاع عليها، لكنها لم تستكمل، لعدة أسباب.

18 كان من المفترض أن يقوم بذلك.

19 للمزيد حول هذا الطرح، ينظر: عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية: خطوة في تأسيس خطاب أنثروبولوجي مستقل"، ترجمة المولدي الأحمر، **عمران**، مج 5، العدد 19 (شتاء 2017).

20 حتى البوادي الأردنية قد تقع ضمن هذا الباب، ونحن هنا غير مهتمين بالوضع الإداري وتسميات المنطقة بقدر ما نهتم بدراسة التجمعات التي تقطن فيها، وكيفية تعاملها مع تاريخها.

(229-254). ويختتم الكتاب بالحديث عن البنية التحتية والجوانب الخدمية في القسم السادس (الصفحات 255-278)، وذلك في محاولة لتوثيق هذه الحقبة الزمنية الغنية بالأحداث والوقائع التاريخية.

يتناول المؤلف تطوّر الوضع الإداري لمناطق البتراء ووادي موسى منذ فترات الحكم العثماني حتى قيام الدولة الأردنية وتأسيس مؤسساتها، ويسلط الضوء على كيفية تحوّل هذه المناطق من عشوائيات وقرى غير واضحة المعالم إلى نواحٍ منظمة، مع الترتيبات والتطويرات التي كانت تجري على هذه النواحي. ويسجل المؤلف أسماء مديري الناحية (مثلاً: محمد عز الدين الحلبي، وعبد الرحمن ارشيدات، ونجيب أفندي العجلوني)، إلى حين تحوّل هذه المناطق إلى مديرية قضاء ثم متصرفية. ويوثق كمية إنتاج السكان تاريخياً من المحاصيل الزراعية وحصص الدولة من هذه الإنتاجات.

على الرغم من اعتماد المؤلف على الوثائق والسجلات العثمانية ودفاتر الطابو وسجلات المحاكم الشرعية، فإنه لم يقدّم إلا إشارات بسيطة متعلقة بأوضاع هذه المناطق في القرن السادس عشر، ثم إنه يتجاوز ذلك ليتركز، على نحو أكثر، على وضع مناطق وادي موسى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وربما يعود ذلك جزئياً إلى أن أول ذكرٍ لوادي موسى في السجلات العثمانية كان عام 1869.

يتتبع المؤلف وضع هذه المناطق بعد انتهاء الحكم العثماني، مع بداية الثورة العربية الكبرى عام 1916 والعهد الفيصلي 1918-1920. ويسجل إسهامات شيوخ المنطقة في المشاركة في الثورة العربية، ويؤرخ للمعارك التي جرت بين القوات التركية والعربية على أراضي وادي موسى، مما يشير إلى أهمية هذه المناطق وحيويتها في ذلك الوقت.

ثمّ يسلط المؤلف الضوء على وضع هذه المناطق بعد تأسيس الدولة الأردنية عام 1921. ويذكر أسماء الأشخاص الذين عينتهم الدولة لإدارة المنطقة، ويشير إلى ردت فعل السكان على هذه التعيينات والصراعات التي نشبت بين أفراد المنطقة وموظفي الحكومة وأفراد المخفر. ويسجل أيضاً المراسلات التي جرت بين الأمير وشيوخ المنطقة لحل هذه الإشكاليات.

أما بالنسبة إلى الناحية التعليمية فأشار المؤلف إلى تطور مراحل التعليم في هذه المناطق منذ أواخر الفترة العثمانية حتى الفترات الحديثة، مع التحول من نظام التعليم في الكتاتيب ووجود المعلمين المتجولين إلى حين تأسيس المدارس وانتشارها. ويسجل أيضاً زيادة أعداد الطلبة في مدرسة وادي موسى، فضلاً عن أسمائهم في كل صفّ، والناجحين في هذه المراحل التعليمية، ويوثق المواد التدريسية المستخدمة في كل مرحلة وانتشار المدارس وتطورها. ويذكر أسماء أوائل المعلمين الذين عينتهم الدولة في المنطقة. وقد أشار إلى المرتبات التي كانوا يحصلون عليها، وأوضح التعديلات التي أجرتها وزارة المعارف على المناهج خلال تلك الفترات، مسلطاً الضوء على جهود الدولة في تطوير نظام التعليم في منطقة وادي موسى.

في إثر ذلك، يناقش المؤلف الجانب السياحي والأثري لمنطقة البتراء التي تُعتبر من أشهر المناطق السياحية في العالم. يبدأ الحديث عن ملامح السياحة في القرن التاسع عشر، مركّزاً على الرحلات والبعثات التي زارت المنطقة، ويوضح تواريخ كل زيارة والأنشطة التي ركزت عليها الرحلات، مثل استكشاف المعالم الأثرية ورسم المواقع الأثرية، إضافةً إلى رصد الجماعات واستكشاف البيئة الحيوانية والنباتية. ويتناول الرحلات التي نظمتها شركة توماس كوك Thomas Cook⁽²¹⁾ إلى البتراء والمناطق المجاورة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ويشير إلى طريق السفر المستخدم وتوقيت الرحلة ومسارها، فضلاً عن مدة الإقامة، والطعام المتاح، والخدمات الأخرى مثل التخييم وغيره.

21 وهي أول شركة نظمت رحلات سياحية من أوروبا إلى مناطق مصر، وسورية، والأردن، وفلسطين، ولبنان، والعراق، عبر البواخر. وكانت تروج لبرامجها السياحية عبر الصحف والمجلات المختلفة.

ثم يتحدّث المؤلف عن التطور الإداري لمؤسسات الدولة المعنية بحفظ الآثار وتنظيم العملية السياحية؛ بدءاً من سنّ التشريعات النازمة لقطاع السياحة والآثار إلى تأسيس دائرة الآثار ومصلحة السياحة عام 1923، ويسجل نمو الإيرادات السياحية خلال المواسم المختلفة، ومساهمة الدولة في الترويج للمنطقة الأثرية، مثل عقد المهرجانات (مهرجان البتراء مثلاً)، ويوثق أيضاً أسماء رؤساء المجالس البلدية المتعاقبة لبلدية وادي موسى وأعضائها منذ تأسيسها عام 1964.

في الجانب الاجتماعي، يتحدث المؤلف عن تاريخ ذكر سكان منطقة وادي موسى، الليثانة، لدى الرحالة بدءاً من بركهارت عام 1812، وتعدادهم في العهد العثماني، مع تأسيس الإمارة. ويناقش القضاء الشرعي قبل مرحلة تأسيس الإمارة وبعدها. ويُعتبر هذا الجانب "أضعف" جانب في الدراسة؛ إذ غابت الكثير من القضايا عن الدرس، وأهم نقص هو عدم ذكر البدول سكان منطقة البتراء في هذا السياق؛ فكأنما يجري تجاهل تاريخ وجودهم في هذه المناطق. ويختتم الكتاب بالحديث عن الجوانب الخدمية والبنى التحتية في المنطقة، مثل تطور الطرق وغيرها.

ثالثاً: نقاش

قبل أن أخوض في نقاش هذا العمل وأضع بعض التعقيبات، أؤكد أنني أقدر جهد المؤلف الذي ساهم في إثراء المكتبة الأردنية، وأنه سيستفيد منه العديد من القراء. ولا تقلل الملاحظات التي سأوردّها من هذا الجهد، بل إن الاهتمام الذي أولاه بمسائل كتابه يبيّن أن موضوع هذه المناطق وهذه الجماعات متشعب وراهن، ويمكن أن تشغل به أجيال بأكملها. ولأن العمل يلتزم بالقوالب التقليدية الجامدة التي هيمنت على الكثير من الكتابات التاريخية في الأردن، فلن أخوض في قضية ترتيب الفصول وتنسيقها، بل ستكون ملاحظاتي متعلقة بالقضايا التي تخصّ المنهج والجوانب المفقودة في النص.

أرى أن المؤلف خسر منذ اللحظة الأولى رهان المراقبة المنهجية الصارمة في علاقته بالموضوع المدروس، فقد أضع "الخييط الدقيق" الذي يربطه بالموضوع. والمسألة هنا تتعلق بالکیفیه التي بنی فیها موضوعیاً نصّاً معرفياً، وبکیفیه تجریدنا ذواتنا وارتباطاتها الاجتماعیة والثقافیة عند كتابة النص؛ فلا نقحم انتماءاتنا داخله. إذا لم نفعل ذلك، فسنعمل على إنتاج نص لا يكون ناقصاً فحسب، بل مشوّهاً أيضاً. ومن ثمّ، لن نتّمن عبّره من قراءة المشهد كما هو على أرض الواقع.

إنّ موضوع الكتاب الأساسي هو إنجاز كتابة تاريخیة عن مناطق وادي موسى والبتراء، بما فی ذلك التطور الإداري والتشکیلات الاجتماعیة الموجودة فی المنطقة. ومع ذلك، لم يتناول المؤلف سكان مدينة البتراء، البدول، خصوصاً فی القسم الاجتماعی، بل ركز على سكان مناطق وادي موسى من دون أن يتطرق إلى الكتابات التاريخیة التي اهتمّت بالبدول فی منطقة البتراء. ولكن، عندما نريد أن نؤرخ لمنطقة البتراء، لا يمكننا أن نستثني البدول من تأريخنا؛ إذ تشير الأدبیات إلى أنهم كانوا فی المنطقة داخل الكهوف الأثریة، أو على أطراف الجبال، طوال أكثر من 150 عاماً، وأنهم مرّوا بأحداث مهمة فی تاریخ المنطقة مثل اتفاق مشایخهم مع الدولة للخروج من المنطقة الأثریة على أن تمنحهم مساكن جدیدة فی منطقة أم صیحون، وهو ما تمّ عام 1985⁽²²⁾. وبالنظر إلى هذا الاتفاق، تمكنت الدولة من تعیین البتراء على قائمة التراث العالمی لتصبح من أهم الوجهات السياحية العالمیة.

22 للمزيد في هذا السياق، ينظر: مارغريت غيلديرملسين، **تزوجت بدويًا**، ترجمة سلمى خليل مقدادي (الرياض: العبيكان للنشر، 2009)؛ وللمزيد حول أهمية هذا العمل، ينظر: مثنى المصري، "تزوجت بدويًا" المذكرات مصدرًا لفهم تاريخ الجماعات في الأردن"، **ميغازين**، 2024/8/25، شوهد في 2025/4/23، في: <https://acr.ps/1L9zRnf>

وعلى الرغم من انتقال الجزء الأكبر من البدول من الكهوف إلى المنطقة المجاورة، أم صيحون، فإنهم لا يزالون يمارسون العمل السياحي في المنطقة ويخدمون السياح؛ ما يجعل تجاهل هذه القضايا تجاهلاً لتاريخ غني ومهم بالنسبة إلى المنطقة عمومًا. لقد جعل المؤلف نفسه في مأزق عندما ادعى أن موضوع الدراسة هو مناطق البتراء ووادي موسى؛ ولذا كان من الضروري أن يلتزم منهجيًا بما حدده لنفسه، أو كان من الممكن أن يقتصر التركيز على جماعته فقط، وهذا عمل مشروع ومقبول أكاديميًا ومُرحَّب به كثيرًا لمعرفة تاريخ هذه الجماعة وحركتها على نحو موضوعي.

إنّ تجاهل الجماعات الأخرى في هذه الحالة يُعدّ إقصاءً، وهو أمر يشبه الجانب القصديّ للنص. وربما كان ذلك في محاولة لـ "جرّ" الصراعات المختلفة بين هذه الجماعات من أرض الواقع إلى النصوص البحثية، وذلك للتشويش على حقيقة وجود لقابائل أخرى في المنطقة، وهو أسوأ ما يمكن أن تواجهه أيّ قبيلة. ومثلما قال بيير بورديو، لا يوجد شيء أسوأ من أن تمرّ من دون أن يلاحظك أحد⁽²³⁾. هذا ما يحاول المؤلف فعله في تقديمه لتاريخ هذه المنطقة للقراء مستثنياً وجود جماعات أخرى فيها، فكأنها خارج تاريخ هذا المكان.

تكمّن مشكلة هذا الطرح في أنه لا يتعارض مع نصوص الرحالة الذين قدموا إلى البتراء فحسب، بل إن بعضهم اعتبروا أنّ البدول أكثر معرفةً وأكثر استخدامًا للأماكن في البتراء من الليثانة⁽²⁴⁾. ويبرر آخرون ذلك بأنهم موطنهم الحقيقي ومسقط رؤوسهم⁽²⁵⁾. وهذا يدلّ على أن المؤلف لم يستفد معرفيًا وموضوعيًا من المعرفة المنتجة حول هذا الجماعات وحركتها في هذه المناطق، والتفاعلات والصراعات التاريخية التي كانت تجري بينهم، علمًا أنه استشهد بالمرجعين السابقين.

من المؤكد أنّ أيّ قارئ خارجي ليس له أيّ ارتباط عاطفي بالنص، سيتساءل عن النتائج المعرفية والأخلاقية التي تترتب على هذه المواقف، خصوصًا بالنسبة إلى شخص أخذ على عاتقه أن يعرض جزءًا من تاريخ وطنه. في هذا الباب، يلجّ عليّ سؤال مهمّ، هو: لماذا يتجاهل بعض المؤلفين، عند وصفهم تاريخ المناطق وتفاعلات الجماعات، الصراعات القائمة بينهم ضمن عملية التأريخ والبحث؟ هل أنّ الموضوع مرتبط بنزوع المؤلف إلى الحياد مثلاً؟

المشكلة في هذا الباب أنّ تجاهل هذه الصراعات في بعض الحالات، على غرار هذه الحالة، يؤثر سلبياً في فهم تاريخ هذه الجماعات، وحاضرها. ولا يجعل من العمل حياديًا على الإطلاق؛ فهذه الصراعات موجودة على أرض الواقع ولا يختلقها المؤلف. والصراع بين قبيلتي الليثانة والبدول، صراع مهمّ ومركزي في علاقتهما بالمكان "البتراء" وهذا الصراع يحمل تاريخًا طويلاً⁽²⁶⁾.

في أثناء هذه الصراعات المستمرة، تتحدث كل جماعة عن تاريخ وجودها في المنطقة، ودورها في الدفاع عنها وحمايتها، وذلك في محاولة لفرض أكبر قدر من الشرعية على حضورها اليوم في المكان وممارسة الأنشطة السياحية في المنطقة، ومحاولة نزع الشرعية عن القبائل الأخرى. وفي هذه الحالة، يستخدم أفراد هذه الجماعات عدة طرائق؛ منها الوثائق المختلفة، والاتفاقات التي أبرمها مع الدولة عند قيام مؤسساتها، وأحاديثهم مع الأمراء، والاتفاقات بين المشايخ، والتاريخ الشفوي الذي يحظى بأهمية كبيرة

23 Pierre Bourdieu, *Outline of a Theory of Practice*, Richard Nice (trans.) (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), p. 11.

24 Canaan, p. 2.

25 بن العربي هو مفتي وقاضي معان في الفترة 1922-1925، وهو جزائري الأصل ومن مواليد الحجاز، أرسله الشريف الحسين بن علي للعمل مع الأمير عبد الله الأول في مشروع إمارة شرق الأردن. للمزيد ينظر: الشيخ حمزة بن العربي، *جولة بين الآثار*، تحقيق تركي المغيض، ج 1 (إربد: دار الكندي، 2002).

26 حول الصراعات المختلفة بينهم، ينظر:

N. Reeves, "Sheikhs and Tribal Entrepreneurs: Tribal Hierarchies, Governmental Development Policies and the Struggle over Representation in Petra's Tourism Economy," *Oxford Middle East Review*, vol. 4, no. 1 (2020).

بينهم، وذلك من أجل سدّ النقائص في التاريخ المكتوب⁽²⁷⁾. ولهذا، لا يمكن تجاهل الحديث عن هذه القضايا وكأنها غير موجودة في كتاب هو في الأصل مرجعي وشامل. فهذه المواضيع لا تزال تحتاج إلى الكثير من المساءلة والفحص، ويجب التأريخ لها.

يضاف إلى ذلك مشكلات أخرى لدى المؤلف؛ مثل الضعف الشديد في تناول القضايا المرتبطة بالجوانب الاجتماعية. ففي طرحه ثغرات عديدة، كان من الممكن أن يُجري بعض المقابلات والأحاديث مع أفراد الجماعات التي تقطن في هذه المناطق. ولو أنه أنجز ذلك مثلاً، لكان قد أثرى كتابه وقدم إضافات حقيقية جديدة لفهم تاريخ الحالة. ثم إنه لم يتطرق إلى الكثير من القضايا الأخرى؛ مثل ترحال هذه الجماعات واستقرارها، والأنماط الاقتصادية، والحالة السياسية والبناء الزعامي، والمشيخة، والتراتبية، وموقع المرأة، وتحولات نمط المعيش، والتعدد اللغوي لأفراد هذه الجماعات، والعلاقة بالعالم الخارجي، وخصوصاً مجتمع السياح والكثير من القضايا الأخرى، فضلاً عن مسألة ضعف الترابط الوظيفي بين نصوص العمل الذي أدى إلى تلاشي المعنى أحياناً.

أعتقد أن جزءاً من هذه الإشكاليات ينبع بسبب الممارسات الشائعة بين بعض المؤلفين. ففي عملية الكتابة والتأريخ لبعض المناطق مثلاً، نتخيل أنفسنا أننا نقوم بدور الدولة. ونشرع في إنجازات وإسهامات للدولة في هذه المناطق وطريقة إدارتها لها، وكأنّ هذه العملية هي الكتابة التاريخية نفسها، أو كأننا موكلون بهذا العمل، وكأنّ الدوافع ليست هي الهواجس البحثية التي تؤدي إلى طرح إشكالات معينة. بطبيعة الحال، لا بد من أن نتطرق إلى الحديث عن هذا الدور في بعض الحالات، ولكن أداءه في حالات أخرى يقلل فاعلية العمل المنجز وجودته؛ لكل دوره، فالدولة تؤدي دور الدولة، والباحث يضطلع بدور الباحث.

على مستويات أخرى أوسع، لم يقدم لنا هذا الكتاب الكثير، خصوصاً حول القضايا المرتبطة بالمعرفة السوسولوجية أو السوسيوثقافية، والتي عادةً ما تقدّم لنا مداخل بحثية عديدة. والنقص الكبير في المكتبة العربية والأردنية بشأن هذا الموضوع وبشأن رغبتنا في فهم السؤال: كيف يمكن أن يؤرخ سكان البتراء والمناطق المجاورة لتاريخهم؟ هو ما جعلنا نناقش هذا الكتاب.

27 حول أهمية التاريخ الشفوي في هذه الحالة، ينظر: نيكولاس غيفس، "بين الماضي والحاضر حكايات أبناء قبيلتي البدول والليانة التاريخية وأهميتها المستمرة في العصر الراهن"، أبحاث اليرموك سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 31، العدد 1 (2022).

المراجع

العربية

- أبو الشعر، هند. **إربد وجوارها: ناحية بني عبيد 1850-1928**. عمان: منشورات جامعة آل البيت وبنك الأعمال، 1994.
- _____. "ريف الأردن في العهد العثماني: قرية الصريح بلواء بني عبيد نموذجًا". **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**. مج 4، العدد 3 (2010).
- _____. **تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 1516-1918**. عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية، 2010.
- _____. أبو الشعر، هند. "العبور إلى المستقبل في كتابة تاريخ الأردن: نظرة في المصادر والتوثيق". **مجلة أفكار**. العدد 389 (2021).
- أبو الشعر، هند وعبد الله العساف، معان: **المظاهر الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقررات مجلس البلدية 1929-1931**. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2016.
- _____. **مادبا: الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقررات مجلس البلدية 1923-1927**. عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية، 2012.
- أبو طويلة، صالح. "تحولات البداوة الأردنية، قبيلة البدول في البتراء أنموذجًا". **مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي**. مج 8، العدد 2 (2021).
- بن العربي، حمزة. **جولة بين الآثار**. تحقيق تركي المغيض. إربد: دار الكندي، 2002.
- تاريخ الأردن الاجتماعي**. عمان: وزارة الثقافة والفنون الأردنية، 2021.
- حمودي، عبد الله. "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية: خطوة في تأسيس خطاب أنثروبولوجي مستقل". ترجمة المولدي الأحمر. **عمران**. مج 5، العدد 19 (2017).
- الرواضية، المهدي. **أنظار وملامح حول الكتابة التاريخية عن الأردن**. عمان: مركز الدراسات الاستراتيجية - الجامعة الأردنية، 2021.
- غيفس، نيكولاس. "بين الماضي والحاضر حكايات أبناء قبيلتي البدول والليانة التاريخية وأهميتها المستمرة في العصر الراهن". **أبحاث اليرموك سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**. مج 31، العدد 1 (2022).
- غيلديرملسين، مارغريت. **تزوجت بدويًا**. ترجمة سلمى خليل مقدادي. الرياض: العبيكان للنشر، 2009.
- مبيضين، مهند. **الأردن المعاصر: إشكاليات التدوين والثورة والحركة الوطنية**. عمان: دار أمجد للنشر والتوزيع، 2019.
- المصري، مثنى. "تحولات البداوة في الأردن: قبيلة البدول مثالًا". **عمران**. مج 13، العدد 52 (ربيع 2025).

الأجنبية

- Bourdieu, P. *Outline of a Theory of Practice*. Richard Nice (trans.). Cambridge: Cambridge University Press, 1977.
- Canaan, Tawfiq. *Studies in the Topography and Folklore of Petra*. Jerusalem: Beyt-UI-Makdes Press, 1930.

Goffman, Erving. *Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity*. New York: Simon & Schuster, 1986.

Reeves, N. "Sheikhs and Tribal Entrepreneurs: Tribal Hierarchies, Governmental Development Policies and the Struggle over Representation in Petra's Tourism Economy." *Oxford Middle East Review*. vol. 4, no. 1 (2020).

"كان يعشق الحقيقة": اعترافات مؤرخ شاهد على هزيمة فرنسا أمام القوات النازية

"He Used to Love the Truth": Confessions of a
Historian who Witnessed France's Defeat against
Nazi Forces

المؤلف: مارك بلوخ.

المترجمة: عومرية سلطاني.

عنوان الكتاب: الهزيمة الغربية: شهادة نُظِّمت في عام 1940.

العنوان الأصلي: *L'étrange défaite: Témoignage écrit en 1940*.

الناشر: الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سنة النشر: 2021.

عدد الصفحات: 184 صفحة.

* باحث، بصدد إعداد أطروحة الدكتوراه في تخصص التاريخ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله.

A Researcher at the Department of History, Sidi Mohamed Ben Abdellah University.

youness.ghab@usmba.ac.ma

لم يكن مارك بلوخ Marc Bloch، وهو يخط مسودة هذا الكتاب، واثقًا بإمكانية تسرّبه إلى جمهور واسع من القراء، لكن عقّده الأمل على مستقبل فرنسا كان كافيًا بجعل فتح مثل هذه الملفات الخفية، أمرًا أساسيًا لتبديد الغشاوة عن مرحلة من أصعب مراحل الانهيار التاريخي لفرنسا في القرن العشرين، خاصة أن هذا التقرير (/ الشهادة) الذي هو عبارة عن ملاحظات واعتراقات تبرز أسباب الهزيمة وسياق تبلور الفكر الانهزامي بعد الغزو الألماني، قد خُطَّ بيد مؤرخ رأى أن فهم الماضي يستحيل من دون إمعان النظر في الحاضر، وفي الآن ذاته يُعد كتابه حصيلة تجربة استثنائية لجندي شارك في حربين عالميتين متتاليتين.

لقد سبق أن تناول فرانسوا دوس François Dosse في البيوغرافية القصيرة لـ "ثنائي ستراسبورغ" مؤسسي مجلة **الحواليات** *La revue des Annales*، لوسيان فيفر Lucien Febvre ومارك بلوخ، حياة بلوخ نفسه باعتباره المناضل الفذ والمؤرخ الملهم والمواطن الصالح والإنسان الكوني. وتتضح صفات هذا النوع من المؤرخين من خلال أن العتاب الصريح في هذا التقرير/ الشهادة لا يستثني حتى الخطاب التاريخي والتعظيم الذي مارسته مجلة **الحواليات** على دخول النازية لفرنسا. وفي هذا الصدد، يقول بلوخ: "[...] بعيد عن كل انتماء وبعيد عن أي تضامن عرقي مزعوم، لقد شعرت طوال عمري قبل كل شيء بأنني فرنسي، أموت كما عشت فرنسيًا صالحًا"، وهو ما جعله ينتمي إلى جيل التطرف في قضية دريفوس L'affaire Dreyfus. ولم يتردد في معارضة استمرار نشر المجلة الذي لا يمكن أن يجري إلا وفقًا لشروط سلطات الاحتلال النازية، أي إدارة فرنسيين للمجلة لا ينحدرون من أصل يهودي، وفي الوقت نفسه رفض الذهاب إلى المدرسة الأميركية، بل إنه انخرط - على عكس ذلك - في صفوف المقاومة ضد النازية. ومن ثم، عُوض بلوخ في إدارة المجلة، وحلّ محله بول لوليو Paul Leuilliot، في حين ظلّ يشارك في المجلة تحت اسم مستعار هو مارك فوجير Marc Fougères⁽¹⁾.

يتوزع متن الكتاب على ثلاثة فصول ووصية تأبينية تركها بلوخ لزوجته كليرمون-فيران Clermont-Ferrand، مؤرخة في 18 آذار/ مارس 1943. في الفصل الأول، "تعريف بالشاهد"، يعرف بلوخ بأصوله اليهودية التي لم تحلّ دون أن يكون مواطنًا فرنسيًا بارعًا، ثم يجري التطرق إلى تجربته في الحرب العالمية الثانية وملاحظاته حولها بوصفه مؤرخًا وجنديًا سابقًا، وهي ملاحظات دقيقة ومتنوعة المصادر، تهتم بالتفاصيل البسيطة، التي تتمحور في أغلب الأحيان حول حيثيات الغزو الألماني للأراضي البلجيكية وتراجع الجيش الفرنسي قبل انهياره في نهاية الأمر. أما في الفصل الثاني، "شهادة مهزوم"، فلا يتوانى المؤلف في تحميل مسؤولية وقوع الهزيمة بالنسبة إلى العديد من الأطراف، خصوصًا القيادة العسكرية العاجزة التي لم تطور خططها المعتمدة في الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى سوء التواصل بين مكونات القوات المسلحة وعدم الإحاطة بالمعلومات الكافية حول الحرب الجديدة، والتحالف الفاشل مع الإنكليز، وعدم قدرة كوادر الجيش على تحمّل المهمات الجسيمة والتردد في إنجازها. أما الفصل، "فرنسي يفحص ضميره"، فهو يُعد في نظرنا بمنزلة قراءة تاريخية للأخطاء التي أدّت في نهاية المطاف إلى الهزيمة، باعتبارها شهادة تتعدى الانتماء إلى الجيش لتكون بذلك شهادة مواطن فرنسي يفحص ضميره، شهادة تحمّل مسؤولية الضعف الجماعي بالنسبة إلى كل مكونات المجتمع؛ بدءًا من أرباب مصانع الأسلحة والبرجوازية المتخاذلة، ومرورًا بانتهازية الاتحادات العمالية واستنزاق الصحافة، ووصولًا إلى قصور النظام التعليمي وغياب التجديد الفكري، وأخيرًا مسؤولية النظام السياسي القائم على المحسوبية والكولسة (التفاوض في الكواليس حول المناصب العليا) والتنافس الشخصي.

تأتي قراءتنا للكتاب من باب التعرّف إلى أسباب هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية، من منظور مؤرخ الذهنيات وأحد ألمع الباحثين في تاريخ أوروبا الوسيط خلال القرن العشرين، باعتباره كان شاهدًا على هذه الهزيمة وراصدًا لأهم مراحلها وناقدًا

1 فرانسوا دوس، **التاريخ المفتت من الحوالمات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009)، ص 98.

للمسؤولين عن حدوثها، غير أن تناول المؤلف إيّاها، على نحو أكثر حساسية واستحضاراً للضمير الجمعي والفردى، يجعلنا نتقل إلى مستويات أخرى من أسباب الهزيمة تتجاوز المعطيات العسكرية والهفوات التنظيمية واللوجستية، لتستحضر مسؤولية كل أطراف المجتمع. بعبارة أخرى، تحاول هذه القراءة الإجابة عن أسئلة من بينها ما يلي: كيف تُهزم المجتمعات؟ وكيف يجري التطبيع مع الفكر الانهزامي والتملص من تحمّل المسؤولية في أصعب الفترات التي تمرُّ بها الأوطان؟ وما موقع المؤرخ والمثقف عمومًا واستحضار الفكر التاريخي من الهزائم التي تتعرّض لها الشعوب؟

تتنظم هذه القراءة في محورين رئيسيين، يرتبط أولهما بتحديد هذا الجنس من الكتابة والبحث عن الأسباب العميقة للهزيمة، بدايةً من النظر في ضمير أمة "تحت السلاح" Nation en armes بمؤرخيها وسائر مكوناتها الاجتماعية، ثم انطلاقاً من ملاحظات بلوخ بوصفه جندياً عن مجريات ساحة المعركة وأخطاء القيادة العسكرية. أما المحور الثاني (الأخير)، فيهتم بتجميع الوصايا التي قدّمها بلوخ نفسه إلى الأجيال المقبلة من أجل اجتناب هزائم مستقبلية، وأهم ما تضمنته وصيته الأخيرة المتصلة أساساً بمراسيم الدفن كما أراد لها أن تكون.

أولاً: شهادة أم محاكمة تاريخية؟ أسباب الهزيمة من منظور مؤرخ وجندي مهزوم

يقول مارك بلوخ في بداية الكتاب إنه ليس بصدد كتابة مذكراته، لأن المغامرات الشخصية الصغيرة التي يعيشها جندي خالط الكثير من الجنود أمثاله ليست لها أهمية في مرحلة عصيبة على غرار المرحلة التي مرّت بها فرنسا في زمن تدوين الكتاب (ص 11)؛ لأن تجربته بوصفه مؤرخاً أتاحت له دراسة هذه الأحداث المأساوية بحسب المعايير المتعلقة بالنقد والملاحظة التاريخيين، علاوة على أن مشاركته في الحرب العالمية الأولى أتاحت له الانتقال ما بين المؤسسات والأوساط الإنسانية للمحاربين، واكتساب تجربة اتسمت بالكثير من التنوع (ص 13).

وسم المؤلف كتابه في بعض الأحيان بأنه "تقرير"، وكان يسميه "الشهادة" أحياناً أخرى. وكلا الوسمين يحيلان على الطابع الرسمي المؤطر لمهمة جندي مشارك في الأحداث، غير أن تناولنا لهذا الكتاب يتجاوز الطابع الرسمي، بل يتناول على نحو أكثر خصوصية وذاتية في علاقته بكاتبه وتصوره للتاريخ وطبيعة عمل المؤرخ، باعتباره بمنزلة اعترافات لمواطن فرنسي يشعر بالحسرة وتأنيب الضمير من جرّاء الهزيمة التي تعرّض لها من جهة، وباعتباره محاكمة تاريخية لشعب بقيادته العسكرية والسياسية ومكوناته الاجتماعية بما فيه نخبته ومثقفوه ومؤرخوه من جهة أخرى.

يتخذ الكتاب صيغة المحاكمة التاريخية لما يمكن أن نطلق عليه "جيل الهزيمة"، استناداً إلى إشارات كثيرة؛ منها ما هو مصرح به، ومنها ما هو ضمني⁽²⁾، بحيث يعترف المؤلف بدايةً من صفحات الكتاب الأولى بأن ملاحظاته، بوصفه جندياً في الجيش الفرنسي، تتأسس على حسّ تاريخي يجعلها تتجاوز الحاضر وتتطلع إلى المستقبل. وفي هذا الصدد، يقول: "تحدث منذ حين عن القيادة، وفي اللحظة التي كتبت فيها هذه الكلمة اعترض المؤرخ في داخلي بشدة على ذلك. من المبادئ الأولية لوظيفتنا بوصفنا مؤرخين تجنّب هذه الألقاب الكبيرة المجردة، والسعي لبناء الحقائق الملموسة التي تقبع خلف تلك الأسماء، وهذه الحقائق تتمثل في الأفراد؛ إذ إن أخطاء القيادة كانت في الأساس أخطاء مجموعة من الأفراد" (ص 39).

2 Dominique Damamme, "Un cas d'expertise, l'étrange défaite de Marc Bloch," *Sociétés contemporaines*, no. 39 (2000), p. 96.

تتضح شخصية المؤرخ في تقرير بلوخ، وأثناء تحليله لأسباب الهزيمة، من خلال ربطه الأخطاء الاستراتيجية بتدريس التاريخ؛ فهو يتساءل: هل يعود القصور في إعدادنا الاستراتيجي إلى تدريس مادة التاريخ؟ (ص 118)، ليجيب بأنه لا ينبغي التجريب المباشر في الفن العسكري، بل من الواجب العودة إلى تجارب الماضي. غير أن تدريس التاريخ بفرنسا خلال هذه المرحلة كان منافياً للحقيقة، وكان قائماً على الاستدلال البسيط. ولأن التاريخ بالنسبة إليه هو علم التغيير في جوهره، فقد تُمكن المقارنة بين أحداثه في الماضي والحاضر من التنبؤ بالمستقبل، بحيث يعرف المؤرخ جيداً أنه إذا حصلت خلال الفترة الفاصلة بين حربين متتاليتين تحولات في الهيكل الاجتماعي، وفي طرائق التفكير، فإنها لن تؤدي أبداً إلى النمط عينه من الحروب (ص 119). لذا، كان من نتائج تغييب التاريخ وعدم قابلية مكونات الجيش لاستيعابه، عدم فهم لوجود قانون لا يقاوم هو "قانون التغيير". وعلى سبيل المثال، فإن ما يعتبر بالأمس "حكمة" و"حسن تقدير"، قد يصير غداً "قلة إدراك".

لا يربط المؤلف علاقة التاريخ بالهزيمة اعتماداً على علاقة تدريس التاريخ والاستراتيجيات العسكرية بالمدارس الحربية فحسب، بل ينتقد أيضاً، في الفصل الأخير من الكتاب، التاريخ المدرس في الجامعات الفرنسية والمدارس الثانوية، حيث لم يستطع التخلص من التركيز على الماضي القريب والمفهوم السياسي للتاريخ، في مقابل إهمال الزمن الطويل وعدم الخوض في دراسات معمقة للمفهوم الاجتماعي (ص 154)؛ وهو ما أدى إلى الاعتقاد الزائف المتمثل في أن النزعة الانفصالية لا تزال حية داخل المقاطعات الألمانية، وأنه لم يكن لهذا التاريخ المدرس أن يعلم النشء شيئاً أفضل وأكثر إنسانية، لتحفيز خيالهم وتدريبهم بوصفهم مواطنين مستقبليين في فرنسا وفي العالم (ص 155).

على الرغم من الإشارات السالفة حول الحس التاريخي للكتاب، لا يتردد المؤلف في التصريح بأنه ليس بصدد كتابة تاريخ نقدي للحرب، ولا حتى تاريخ الحملة العسكرية في الشمال، نظراً إلى كونه لا يمتلك الوثائق الضرورية، ولا الكفاءة التقنية للقيام بذلك (ص 46). وفي مقابل ذلك، كانت الملاحظات التي رصدها بوصفه جندياً سابقاً، كافية لتشخيص مكامن الخلل والأخطاء القاتلة التي قادت للهزيمة؛ من قبيل عدم تجديد كوادرات الحرب، وعدم ملائمة التكوين الفرنسي وتماشيه مع شروط الحرب الجديدة، التي أدارها الألمان بكل كفاءة وتفوق (ص 46-47). وفي الوقت نفسه، لم تُتدارك هذه الأخطاء بسبب التأخر والتردد وبسبب تعصب القادة لأرائهم وعدم تقديرهم الأوضاع على نحو دقيق، وتكرار الحسابات الخاطئة في ساحة المعركة (ص 54).

يرى المؤلف أن القيادة لم تكن وحدها المسؤولة عن الهزيمة، فحتى الجنود يتحملون جزءاً من المسؤولية، ويتضح ذلك من خلال سوء نقل المعلومات وضعف الانضباط، وبطء التفكير والتوقع، وعدم الاستعداد الجيد لمواجهة العدو الذي اعتمد على الإقدام، وعلى عنصر المباغتة، والمعرفة الدقيقة بالقدرات العصبية والنفسية للجيش الفرنسي؛ نظراً إلى ما أشاعته الروح الهتيرية في صفوفه، ولإحاطته بخبراء في علم النفس أيضاً (ص 61). من جانب آخر، كان غياب الآليات العسكرية والمعدات المناسبة، لمواجهة العدو، والثقة العمياء بخط "ماجينو"، علاوة على القتال استراتيجيات الحرب العالمية الأولى نفسها، إضافة إلى الارتجال، وسوء إعداد الاتصالات، والافتقار إلى الدلائل الطبوغرافية البسيطة والتحالف الفاشل مع الإنكليز، من أبرز الأسباب المباشرة للهزيمة التي أقحمت الجيش في دوامة من العبث والتمزق المعنوي.

إن هذه الأخطاء التي يتقاسم ارتكابها كل المصالح العسكرية وجميع الجيوش، كانت في نظر المؤلف مؤشراً دالاً على وجود أزمة في السلطة الحاكمة برمتها التي لم تستطع القيام بعمليات التطهير الضرورية في كوادرها (ص 95)، نتيجةً لفسوّ مظاهر التملق والانصياع داخل مكاتب القيادة، التي أخذت منحى بيروقراطياً فجاً لا يهتم إلا بالمظاهر ومصالح الجنرالات والضباط الشخصية، مقابل تلاشي الشعور القوي بالواجب، وغياب النباهة والجاهزية اللازمين، بسبب التقدّم في السن واعتماد نظريات فهمت عكسياً؛ فأدت، في نهاية المطاف، إلى أخطاء تاريخية.

ثانيًا: الوصايا الأخيرة لمارك بلوخ

يبدو التوجه السياسي لبلوخ مخالفًا لما كان عليه غالبية المفكرين الفرنسيين في فترة ما بين الحربين. فعلى الرغم من أن سائر أعضاء مجلة **الحوليات** نشطوا في صفوف الحزب الاشتراكي، أو كانت تجمعهم علاقات بالجبهة الشعبية، فإن بلوخ كان استثناءً بارزًا في هذا السياق؛ باعتباره جعل "مسافة" بينه وبين كل الأحزاب الناشطة حينئذ، على خلاف الكثير من زملائه، لكنه انخرط في مجموعة "أصدقاء الحقيقة" ذات البرنامج القائم على الاعتدال وتوظيف العقلانية في الحقل السياسي. وقد انعكس هذا الالتزام السياسي على تصوّره للتاريخ ومناهجه وغاياته، فهو من المؤرخين الذين ربطوا بين التاريخ والحياة، وارتبطت في نظره مهنة المؤرخ بالبحث عن الحقيقة، إلا أنها حقيقة لا تنفصل عن الحق والحياة، وعن الممارسة العملية للمؤرخ، بعيدًا عن التصورات النظرية المسبقة، وهو ما جعله يخوض معركة مزدوجة على صعيد البحث العلمي، وعلى صعيد العمل السياسي، ويربط بين التاريخ والحرية⁽³⁾.

يتمظهر الالتزام السياسي بالنسبة إلى بلوخ عند بحثه عن أسباب الهزيمة في الأوساط النقابية والحزبية والنخبة المثقفة، وبيئته ذلك بانتقاده للأصوات التي نادى بعدم مشاركة المثقفين الشباب في الحرب، معتبرًا هذا الأمر دعوة باطلة وتملصًا من واجب الدفاع عن الوطن. ثم إنه قد خصّ النقابات بنقد لاذع، بسبب انتهازيتها في زمن الحرب، وتفضيلها مصالحها المادية الضيقة على مصلحة الوطن، وعلى مواجهة الأنظمة الاستبدادية. أما الأحزاب، سواء كانت يسارية أو يمينية، فهي أيضًا تتحمل قدرًا كبير من مسؤولية الهزيمة، بسبب الجمود أو الخنوع الفكري الذي رافقها، لأنها بقيت أسيرة عقائد تجاوزها الزمن؛ ما جعلها تنقلب لتأييد النظام الألماني، أو تحت الناس على معاداة الفكر الوطني وتدعو الجماهير إلى التملص من خدمة الجيش.

يرى بلوخ أن البرجوازية الفرنسية ورجال السياسة، إلى جانب النظام الديمقراطي الحاكم، كلها أطراف ساهمت في هزيمة فرنسا إزاء القوات النازية، فاحتقار البرجوازية لباقي الطبقات، وابتعادها عن الشعب، واختيار رجال السياسة لمن يطيعهم، بدلًا من ذوي الكفاءة، كلها عوامل تفسّر هزيمة فرنسا، فضلًا عن عوامل أخرى، من بينها طرائق التدريس بالجامعات والثانويات التي أدت إلى العجز عن تنمية الطاقات الفكرية، بسبب غياب التجديد والقراءة، وهو ما انطبق حتى على المدارس والمعاهد العليا التي افتقدت التجديد الفكري، والتي كانت تحكمها روابط الولاء والطاعة، والتي احتكر الأعيان جُلّ مقاعدها، إضافةً إلى تواطؤ أصحاب المال مع الصحافة والسقوط في أخطاء دبلوماسية ناجمة عن غياب الاستشراف؛ ما أدى، في نهاية المطاف، إلى روابط مهنية يطبعها الروتين، والبيروقراطية، والعجرفة الجماعية (ص 158).

دوّن المؤلف في الفصل الأخير مجموعة من الاعترافات المرتبطة بانتمائه إلى جيل يؤنّب ضميره باستمرار. وحتى لا يتكرّر الأمر نفسه مع الأجيال المستقبلية، وحتى لا يهزم الوطن مرة أخرى، قدّم المؤلف إلى الشباب والمسؤولين عن مصير الوطن مجموعة من الوصايا؛ منها ضرورة نقل التقاليد من كبار السن إلى الناشئة، أو من الرئيس إلى المرؤوس، والشعور بأهمية الانتماء الجماعي (ص 43)؛ لأن فرنسا، في نظره، هي الربيع الجديد الذي ينبغي أن تكون فيه مرتعًا للشباب، ويقول في هذا الاتجاه: "[...] إلا أننا نناشدهم فقط أن يتجنبوا جفاف الأنظمة التي تدعي، عن حقد أو عن تفاخر، أنها تهيمن على الحشود، من دون أن تعمل أو تبذل جهدًا على تعليمها أو التواصل معها" (ص 171)، ويضيف قوله: "أطلب من الشباب التفكير في أخطاء من سبقوهم ليتجنبوها" (ص 170)، متمنيًا أن يبقى دائمًا دمٌ نبيل لبذله في سبيل الوطن. ففي نظره، لا خلاص بلا تضحية، ولا حرية وطنية إذا لم يتمّ العمل على انتزاعها من المغتصب.

3 أحمد الشيخ، "التاريخ والحقيقة لدى مارك بلوخ"، **يَتَفَكَّرُونَ**، العدد 3 (شتاء 2014)، ص 86.

إلى جانب الوسايا المستبطنة التي تتضمنها صفحات الكتاب، أورد المؤلف في نهاية هذا الكتاب وصية الوفاة، وقد تمّنى من خلالها أن تكون مراسيم دفنه مدنية خالصة، بحيث لم يطلب أن تُتلى الترانيم العبرية على ضريحه رغم مرافقة إيقاعاتها للكثير من أسلافه، ولم يُرد أن تتخلل طقوس تأبينه أي إشارة إلى انتمائه إلى أي مذهب لا يعترف بتعاليمه أو أي عرق لا يمثل في نظره إلا وهماً. وفي هذا السياق، يقول: "لقد شعرت طوال حياتي، بأنني بعيد عن كل انتماء طائفي رسمي، أو ما يدعى تضامناً عرقياً، لأنني شعرت دوماً وبكل بساطة أنني فرنسي في المقام الأول" (ص 174).

لم يستشهد بلوخ في سبيل فرنسا في الحربين المتتاليتين اللتين شارك فيهما، إلا أن إحساسه بعمق الانتماء إلى الوطن، واستمراره في النضال ضد الغزو النازي حتى لحظات إعدامه، يمثلان نهاية مجيدة لمواطن فرنسي اختار المقاومة وربط تصوره للتاريخ بالممارسة، فكان مما أوصى به خلال مراسم دفنه أن تتلى كلمات التنويه الخمس الصادرة عن قيادة الجيش، وأن ينقش على شاهد قبره عبارة: "كان يعيش الحقيقة" *Dilexit Veritatem*.

خاتمة

إن الالتزام السياسي بالنسبة إلى مارك بلوخ، ومصيره المأساوي الذي لقيه من خلال إعدامه على يد القوات النازية، لم يكونا مؤسسين على انتماء حزبي ضيق أو نتاجاً لأصوله اليهودية، بل كان متناغماً مع مبادئه بوصفه مواطناً فرنسياً صالحاً من واجبه الدفاع عن الوطن، وهو ما يفسر انخراطه في حربين متتاليتين وتضحيته بحياته من أجل حرية فرنسا. إلا أن هذا التضحيات لم تتوقف على الانخراط الميداني، بل تجاوزته إلى البحث عن أسباب الهزيمة والمساهمين في حدوثها من أبناء الوطن والطاير الخامس، إلى حدّ أنه، من خلال حسّه التاريخي، يعترف في الكثير من الأحيان بحماسة الألمان بتنظيمهم المحكم، مقارنةً بعجز القيادة الفرنسية.

ويرى فرانسوا دوس أن كتاب بلوخ **الهزيمة الغربية** *L'Étrange Défaite* هو كذلك نقد ذكي لنقائص الخطاب التاريخي لمدرسة الحوليات ذو أهمية كبيرة؛ بالنظر إلى أنّ مؤلفه، من دون شكّ، هو من "أسياد" هذه المدرسة في فترة مأساوية أودت بحياته عام 1944؛ من خلال إعدامه على يد النازية. إلا أن تجاهل الحوليات ظاهريّ النازية والفاشية، هو ما جعل بلوخ يأسف بمرارة، معتبراً إيّاه خطأً في تأويل التاريخ⁽⁴⁾، ويتضح هذا الأسف مع النقد اللاذع للخطاب التاريخي وطرائق تدريس التاريخ بالجامعات والمدارس الفرنسية، وهو ما تمّت الإشارة إليه في المحاور السابقة.

على عكس لوسيان فيفر الذي أصر على أن تواصل المجلة الصدور، وتستمر تحت اسم جديد هو **منوعات التاريخ الاجتماعي** *Mélanges d'histoire sociale* إلى حدود 1944، يديرها مسؤولان غير يهوديين هما لوسيان فيفر وبول لوليو، فإنّ بلوخ يربط التفكير بالفعل. وفي هذا الصدد، يقول المؤرخ بوريسلاف جيريميك *Borislav Geremek*، إنه لم يهرب، لا هو ولا بلوخ، من التاريخ عندما فرض عليهما مواجهة الجنرال جاروزلسكي *Jaruzelski* أو الوقوف ضد النازية⁽⁵⁾؛ فربط بلوخ التفكير بالفعل هو ما أودى بحياته عام 1944؛ إذ كان مناهضاً لمعاهدة ميونيخ 1938. ومن ثمّ، انضم في عام 1943 إلى المقاومة ضد الاحتلال النازي في منطقة ليون تحت اسم مستعار هو "ناربون" *Narbonne*، لكنه سرعان ما عُرف بين المقاومين. وفي عام 1944، أوقفه من غيستابو *Gestapo*، وقد سجنه الألمان في سجن "مونلوك" *Montluc* وعدّبوه، ثم أُعدم بعد إنزال الحلفاء على السواحل الفرنسية⁽⁶⁾.

4 دوس، ص 100.

5 المرجع نفسه، ص 97.

6 المرجع نفسه، ص 99.

إن مشاركة بلوخ في الحرب العالمية الأولى 1914-1918، بصفته جنديًا، اعتبرت فرصة للوقوف على نفسية الجنود، ومجآلاً لدراسة الأنثروبولوجيا انطلاقاً من ملاحظات ميدانية، بحيث اتخذ من هذا الترابط قاعدة لدراسة البنى العميقة للأنماط الذهنية. وبذلك، لم يقتصر في دراسة الذهنيات على علم النفس التاريخي، بل تناول المنطق الداخلي اليومي والتمثيلات الجماعية وظروف الإنتاج والظواهر الذهنية في علاقتها بالحياة والمجموعات الاجتماعية.

وتحليل كتابات بلوخ الرائدة في حقل التاريخ على تحوّل في الكتابة والخطاب التاريخيين، وهي في الآن ذاته تعتمد قراءة موسعة للوثيقة التاريخية في مفهومها الواسع؛ ما جعل منه أحد المبشرين بالتاريخ الجديد والأنثروبولوجيا التاريخية، كما تعكس ذلك دراساته التي يمكن أن نُحيل منها على كتابين رائدين؛ أحدهما **الملوك مدعو المعجزات** *Les Rois Thaumaturges*، والآخر **المجتمع الفيودالي: تشكل علاقات التبعية** *La Société féodale: La formation des liens de dépendance*. إلا أن كتابه **دفاعاً عن التاريخ أو مهنة المؤرخ** *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien* (الصادر سنة 1949)، يجعلنا نستقي العديد من الخصائص والتقنيات التي اعتمدها في كتاب الهزيمة الغربية، خصوصاً الجزء المرتبط بالمؤرخ والشاهد والحقيقة⁽⁷⁾.

نظر العديد من الباحثين في التاريخ إلى كتاب **الهزيمة الغربية** على أنه بمنزلة إعادة استحضار للحدث التاريخي في وقت كانت فيه مدرسة الحوليات قد بلورت مشروعها البنيوي ذا الميول الاقتصادية في مرحلة أولى مع فرنان بروديل، قبل أن يصير تاريخاً "مفتتاً" مع جيل المدرسة الثالث. غير أن مثل هذا الحكم لا يرقى إلى مستوى النقد التاريخي الرصين، خصوصاً أن بلوخ يتكلم من خلال هذا التقرير/ الشهادة، باعتباره - أولاً - مواطناً فرنسياً وجندياً مهزوماً شارك في حربين متتاليتين، وباعتباره - ثانياً - مؤرخاً "هارباً" من التاريخ. وفي كلتا الحالتين، لا يتوانى في تحميل مسؤولية الهزيمة للمسهمين فيها، كما أنه لا يتردد في فحص ضميره انتصاراً للحقيقة، وإيماناً بمستقبل تزدهر فيه حرية الفكر والرأي على تراب فرنسا مرةً أخرى.

المراجع

العربية

دوس، فرانسوا. **التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد**. ترجمة محمد الطاهر المنصوري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

الشيخ، أحمد. "التاريخ والحقيقة لدى مارك بلوخ". **يَتَفَكَّرُونَ**. العدد 3 (شتاء 2014).

الأجنبية

Bloch, Marc. *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*. Cahier des Annales 3. Paris: Librairie Armand Colin, 1949.

Damamme, Dominique. "Un cas d'expertise, l'étrange défaite de Marc Bloch." *Sociétés contemporaines*. no. 39 (2000).

كلاسيكيات:
أعمال مؤسّسة

Classics:
Seminal Works



كلاسيكيات: في التعريف بالأبحاث المرجعية المؤسّسة

التعامل مع اللغة الصوفية؛ فهي، في نظره، ليست رموزاً شعرية فحسب، بل هي، إلى جانب ذلك، أداة معرفية ورؤية كونية، وقد توقّف عند دلالات بعضها باعتماد المنهج الفيلولوجي (فقه اللغة)، الذي يشكّل "نقطة قوّة" لدى عدد من الكلاسيكيين؛ عرباً كانوا أو مستشرقين. ودعا كذلك إلى الاهتمام باللغة الصوفية في بُعدها الكوني، وقراءة أعمال الحلاج في إطار مقاربات مقارنة بينها وبين المسيحية. أما عبد العزيز الدوري، فقد كان يرى أن فهم تاريخ بدايات الإسلام لن يكتمل إلا بفهم "البيئة العربية الجاهلية تاريخياً، لا أسطورياً"، وأن الباحثين ينبغي أن يتوجهوا إلى دراسة المرحلة السابقة عن الإسلام وتجاوز اختزال "الجاهلية" في الشعر والوثنية. ومن هذه القضايا ما أثاره المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن (1844-1918) في تحليله موضوع "الفتنة" التي لم تكن خلافاً مذهبياً فحسب، بل صراعاً سياسياً على الشرعية والسلطة بين مراكز قوى قبلية أيضاً؛ ومن ثمة، جرت الدعوة إلى إعادة النظر في علاقة الدين بالدولة، بالنظر إلى أن السلطة السياسية تُوجّه الاجتهادات الفقهية في موضوع علاقة الحاكم بالمحكوم.

بناءً على ذلك، قررت هيئة التحرير أن تعود إلى الأعمال "الكلاسيكية"؛ عبر التعريف بها، وبأصحابها، وبسياقاتها الإبيستيمولوجية والسياسية، فضلاً عن كشف القضايا التي أثارها، والتي لم تزل تحظى بعناية كبيرة في البحث التاريخي الحديث، وذلك في باب عنوانه "كلاسيكيات". وعندما تُضمّن الدراسات الاستشرافية في هذا الباب، فإننا لا نقصد أن تكون هذه الدراسات واجهة للصراع على نحو يُفضي إلى إنتاج خطاب تاريخي عقيم، ولا إثارة حالة من الانبهار بنتائج ما توصلت إليه أيضاً، بل إنّ الأمر يتعلّق بإخضاعها للنقد العلمي، وإبراز مكانتها العلمية في تطوير البحث التاريخي، على النحو الذي سار عليه عبد العزيز الدوري في تعامله مع أعمال فرانس روزنتال مثلاً، وذلك عندما رأى أن "الاستفادة من جهود المستشرقين لا تعني القبول بأحكامهم أو مناهجهم كما هي، وإنما نأخذ منها ما يخدم هدفنا في فهم تطور الفكر التاريخي العربي".

أخيراً، نشير إلى أن هذا الباب "سنوي" (يصدر مرة واحدة في كلّ سنة).

عن هيئة التحرير
عبد الرحيم بنحادة

بعد اجتماعات تقييمية لسير العمل في مجلة أسطور للدراسات التاريخية خلال الفترة 2023-2024، لاحظ أعضاء هيئة التحرير أنّ الإحالة على الدراسات التي أنجزت في النصف الأول من القرن العشرين، سواء كانت متعلقة بالدراسات الاستشرافية أو الدراسات العربية الرائدة، تكاد تكون "غائبة"، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أعلام بارزة في مجالها؛ فمثلاً، لا يستحضر العديد من الباحثين العرب دراسات فرانس روزنتال (1914-2003) وعبد العزيز الدوري (1919-2010)، وغيرهما، في المجالات المتعلقة بتاريخ التاريخ. ولا تستحضر كذلك أعمال وليام مونتغمري واط (1909-2006)، وجواد علي (1907-1987)، والأعمال الأثرية لعبد الرحمن الأنصاري (1935-2006)، في البحث عن تاريخ العرب قبل الإسلام، وتغيب أيضاً عن الباحثين المشتغلين بالمذاهب والفرق الإسلامية أعمالاً رائدة لأغناطيوس غولدتسيهر (1850-1921)، ودفيد صمويل مارغليوث (1858-1940)، ومحمد عبد الكريم الخطيب (ت. 1990). وينطبق الأمر نفسه على الأبحاث التي شملت تاريخ التصوف؛ إذ تتوارى دراسات لويس ماسينيون (1883-1962)، وربنهارت دوزي (1820-1883)، ووليام نيكلسون (1877-1940)، وهم السباقون إلى دراسات أعمال الحسين بن منصور الحلاج، وجلال الدين الرومي، ومحبي الدين بن عربي، والذين قدّموا أعمالاً تهمّ تاريخ التصوف عموماً، انطلاقاً من دراسة هؤلاء الأعلام. وفي تاريخ العلوم، ولا سيما العلوم الجغرافية، يغيب اسم المستشرق الروسي يولييانوفتش كراتشكوفسكي (1883-1951) الذي قدّم قراءة نقدية للأدب الجغرافي عند المسلمين، في وقت كانت فيه الغالبية العظمى من هذه النصوص لا تزال مخطوطة.

وإذا كان هؤلاء الباحثون يبرّرون "تغيب" هذه الأعمال بضرورة التعامل مع الأبحاث والدراسات الجديدة في المقام الأول، وفقاً لما تتطلبه مستجدات طرائق البحث، فإنّ ذلك لا يبرّر إغفال الرجوع إلى الأبحاث الكلاسيكية الرائدة في هذا الباب، والتي أغنت مجال البحث التاريخي، وفتحت آفاقاً بحثية في مواضيع على درجة كبيرة من الأهمية.

لقد كان لتجاهل الأعمال الكلاسيكية الرائدة أثر كبير في التعامل مع العديد من القضايا في المواضيع التي أشرنا إليها. وعلى سبيل المثال، أثار لويس ماسينيون عدداً منها، وخصوصاً مسألة



هاملتون جب | Hamilton Gibb
ترجمة: طاهر كنعان | *Translated by Taher Kanaan

إنجازات صلاح الدين الأيوبي**

The Achievement of Saladin

تتناول هذه الدراسة سيرة صلاح الدين الأيوبي، متجاوزةً صورته بوصفه قائداً عسكرياً، وتتساءل إن كانت إنجازاته نابعة من طموح شخصي أم دوافع معنوية أخرى. واستناداً إلى عدد من المراجع المعاصرة له، مثل كتابات ابن الأثير وبهاء الدين بن شداد وعماد الدين الأصفهاني والتقارير والرسائل الصادرة عن كاتب صلاح الدين الأيوبي القاضي الفاضل. وتجادل الدراسة بأن نجاح الأيوبي لم يرتكز على عبقرية العسكرية أو الإدارية، بل على شخصيته المناقبية وقدرته على إلهام المسلمين وتوحيدهم؛ إذ نجح بفضل صدقه ووفائه بالعهود وكرمه وقدرته على حشد القوى اللازمة لمواجهة الصليبيين. وتخلص الدراسة إلى أن إنجازه الأكبر كان أخلاقياً، حيث سعى لإحياء الوحدة الإسلامية في زمن التفكك، ووضعا نصب عينيه هدفاً أسمي من السلطة الشخصية.

كلمات مفتاحية: صلاح الدين الأيوبي، هاملتون جب، نور الدين زنكي، الحملات الصليبية، المصادر التاريخية.

This study examines the biography of Salah al-Din al-Ayyubi, going beyond his image as a military leader, and questioning whether his achievements stemmed from personal ambition or other moral motives. It draws upon a number of resources, such as the writings of Ibn al-Athir, Baha al-Din Ibn Shaddad, Imad al-Din al-Isfahani, as well as the reports and letters issued by Salah al-Din al-Ayyubi's secretary, al-Qadi al-Fadil. The study argues that Saladin's success was not based on his military or administrative genius, but rather on his virtuous character and his ability to inspire and unite Muslims. He succeeded in mobilizing the necessary forces to confront the Crusaders. The study concludes that Saladin's greatest achievement was an ethical one, as he sought to revive Islamic unity in a time of fragmentation, setting before his eyes a goal loftier than personal power.

Keywords: Saladin; H. A. R. Gibb, Nur al-Din Zangi, The Crusades, Historical Sources.

* باحث وأكاديمي، يشغل منصب رئيس مجلس إدارة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات منذ عام 2014.

A Researcher and Academic, the Chairman of the Board of Directors of the Arab Center for Research and Policy Studies since 2014.

** هذا النص ترجمة للدراسة التالية:

H. A. R. Gibb, "The Achievement of Saladin," Originally Published by *Bulletin of the John Rylands Library*, vol. 35, no. 1, Published by Manchester University Press, 1952.

عند محاولة معرفة ما وراء التاريخ الظاهر لقائد تعود سمعته إلى منجز عسكري، فإن المقاربات الحديثة تعتمد إلى تحليل الظروف المركبة، مع الإشارة إلى أنه في الغالب ابنُ للظروف المحيطة به أكثر من كونه صانعاً لها، أو على نحو أكثر إنصافاً، فإنه يمكن فهم إنجازاته بفضل التوافق مع الظروف التي عمل من خلالها. وتلك حقيقة لا تحتاج إلى برهان. غير أن التاريخ، وبخاصة تاريخ الشرق الأدنى، حافل بملوك فاتحين بدوا كما لو كانوا لا يدينون سوى إلى امتلاكهم لجيش قوي في مقابل ضعف خصومهم. والسؤال الذي تطرحه سيرة صلاح الدين الأيوبي هو: أكان واحداً من هؤلاء الفاتحين الذين بنوا شهرتهم على ضعف خصومهم، أم أن في سيرته عناصر معنوية مميزة وسمت انتصاراته المبكرة ومعاركه اللاحقة ضد الحملة الصليبية الثالثة بسمات نوعية مهمة؟ ولا يُعتبر أنه حارب في سبيل الإسلام ضد الصليبيين سبباً كافياً للرد بالإيجاب على الجزء الثاني من السؤال؛ أي تأكيد أن في سيرته عناصر معنوية مميزة. وبعبارة أخرى: هل كان الأيوبي أحد القادة العسكريين الذين لا يحركهم سوى الطموح الشخصي وشهوة الغزو، والذين استغلوا الشعارات والعواطف الدينية استغلالاً لا يهدف سوى إلى تحقيق غاياتهم الخاصة؟

نحن بصدد مسألة تتعلق بالنفاذ إلى أعماق الشخصية والدوافع التي تحركها. وقلما نجد في تاريخ العصور الوسطى مادة موثوقة، تتيح استنباط نتائج إيجابية تصدى للنقد التاريخي الصارم، فيما يخص الدوافع العميقة التي تحرك شخصيات تنتمي إلى تلك العصور. لذا، يجب أن نتأكد أولاً من أن مصادرنا تتيح إمكانية الوصول إلى الإجابة. لكن في حالة صلاح الدين الأيوبي، نجد لحسن الحظ أن في حوزتنا ما لا يقل عن خمسة مصادر عربية معاصرة له، إضافة إلى إشارات عابرة في كتابات رحالة معاصرين له أيضاً. ومن تلك المصادر الخمسة وصلنا أحدها عبر بعض الشذرات، وهو تاريخ ابن أبي طيء، ومؤلفه شيعي المذهب من مدينة حلب، كان معروفاً بعدائه لنور الدين زكي سلف صلاح الدين الأيوبي. وكان من المتوقع أن يكون أيضاً معادياً للأيوبي، غير أنه بدا في الحقيقة إيجابياً تجاهه، بحسب كتابات بعض المؤرخين الذين نقلوا عنه.

ومن المصادر الخمسة، نجد أن ثلاثة منها تعود إلى مؤلفين مشرقيين من خارج بلاد الشام. وأشهرهم هو المؤرخ الموصلية ابن الأثير الذي كان ينتمي إلى أسرة إقطاعية على صلة وثيقة بأمراء الموصل الزنكيين، ووضع مؤلفات تشيد بتاريخهم. ويعكس تشخيص ابن الأثير للأيوبي بعضاً من عدا غابر إلى جانب إعجاب مستجد، يعوزه الإخلاص، ولكن تتطلبه مقتضيات الولاء للزنكيين. غير أن سردية ابن الأثير عن صلاح الدين الأيوبي ليست في معظمها أصيلة، بل هي منقولة بتصرف عن أعمال مؤرخه عماد الدين الأصفهاني⁽¹⁾.

وعموماً، وعلى الرغم من معاصرة ابن الأثير لصلاح الدين الأيوبي، فلا يمكن الاعتماد على سرديته للإجابة عن الأسئلة الخاصة بشخصية الأيوبي من الداخل، لا سيما الدوافع المحركة لها. لذلك فلو كان كل ما لدينا هو تاريخ ابن أبي طيء، وسردية ابن الأثير، لما أمكن الاقتراب من تقييم كاشف لإنجازات هذا القائد العسكري.

لكن لدينا من المصادر الأخرى **سيرة صلاح الدين** التي كتبها قاضي جيشه، بهاء الدين بن شداد، وهو أيضاً من الموصل، وكان منذ عام 1188م بمنزلة الصديق الحميم له وموضع سره. وكتب **سيرة صلاح الدين** عبر أسلوب بسيط ومباشر مع التركيز على صفاته رجلاً. ومع أن سردية ابن شداد غير نقدية للرجل، فإنه لا يمكن اعتبارها من قبيل الإعجاب الأعمى أو عبادة الأبطال، بل إن إعجابه هو من قبيل ما يصدر عن صديق صادق ومخلص لا يخفى عنه أي شأن من شؤون صديقه، ولا يمكنه أن يعتمد إخفاء شيء يقتضيه الصدق، وهذا ما يميز سرديته التي تشمل السنوات الخمس الأخيرة من حياة الأيوبي. ويمكننا اعتبار أخبار ابن شداد عن سيرة الأيوبي من المصادر النادرة المثال عن إحدى شخصيات العصور الوسطى. وهي تصوّر لنا في قمة نجاحه في خضم صراعه اليأس ضد الحملة الصليبية الثالثة. وهي مع ذلك لا تفيدنا في التعرف إلى النضال الطويل والمرير الذي عانا قبل ذلك في سبيل بناء قوته.

1 H. A. R. Gibb, "The Arabic Sources for the Life of Saladin," *Speculum*, vol. 25, no. 1 (January 1950), pp. 58-72.

وعلى نحو استثنائي، فإنه من حسن الحظ وجود مصدرنا الرابع الذي يغطي كامل سيرة صلاح الدين الأيوبي (سواء في نصه الأصلي أم في شذرات موثوق بها) بصورة حميمية وبالغة الصدق. وهذا المصدر هو أعمال الكاتب عماد الدين الأصفهاني، الذي ينتمي إلى الطبقة الجديدة نسبياً من خريجي المعاهد الذين تولّوا وظائف الخدمة المدنية لدى السلاطين السلاجقة والخلفاء في بغداد. وقد ارتقى الأصفهاني من الخدمة في بغداد إلى المنصب الرفيع في دمشق في خدمة نور الدين زنكي، وأخيراً أصبح الكاتب الخاص للأيوبي عام 1175م. وبهذه الصفة كتب الأصفهاني تاريخ المعارك العسكرية خلال الفترة 1187-1188م، وكذلك تاريخ الحملة الصليبية الثالثة⁽²⁾. وألّف عملاً من سبعة مجلدات بعنوان **البرق الشامي**، يتضمّن سيرة عمله في خدمة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي. ومن هذه المجلدات السبعة، لم يبق سوى مجلدين، لكن كل المجلدات حظيت بتلخيص دقيق من المؤرخ أبي شامة الدمشقي (ت. 1267م).

ويُعتبر الأصفهاني من أشهر كتاب الأسلوب الأدبي في عصره، وتتميز أعماله بالنثر الفني المزدان بالسجع الذي تميزت به طبقة الذين عملوا كتاباً لعلية القوم. وتمتاز كتاباته، على الرغم مما تحويه من المحسنات اللفظية، بالإحاطة والدقة والسرد المباشر، وليس فيها ما يشي بليّ الحقائق أو بالتغطية على العيوب سواء عيوب صلاح الدين الأيوبي أو عيوب الآخرين، أو ما يعتبر مديحاً غير صادق لأيّ كان حتى لو كان الأيوبي. وعلى الرغم من إعجاب الأصفهاني البالغ بهذا القائد العسكري، فإنه لم يتردد في كتاباته من توجيه النقد إلى بعض أفعاله أو آرائه، بل يبدو أنه لم يتردد في مواجهته بالنقد وجهاً لوجه. وكان الأصفهاني على أوثق الصلات بمرجه الرسمي في الوظيفة، وهو القاضي الفاضل، الكاتب الرئيس للأيوبي، وكان مرهف الإحساس لما ترتبه مكانته من الشعور بالمسؤولية والحرص على الصدق وتجنّب المحاباة وإخفاء الحقائق. ويعتبر كتاب **البرق الشامي** سيرة ذاتية لصاحبه بقدر ما هو كتاب عن الأيوبي من وجهة نظر مسؤول إداري محترف على تماس وتعامل يومي وثيق مع رئيسه. غير أن ابن شداد كان أوثق منه علاقة بالسلطان الأيوبي.

أما مصدرنا الخامس، فلعله الأكثر قيمة، وهو التقارير والرسائل الصادرة عن كاتب صلاح الدين الأيوبي الأكثر ائتمناً ومستشاره القاضي الفاضل، الفلسطيني الأصل، وقد حفظت تلك التقارير والرسائل ضمن أعمال الأصفهاني وأبي شامة وكتابات أخرى. وتظهر الرسائل الموجهة من القاضي الفاضل إلى الأيوبي الصلات العميقة من الإخلاص والمودة بينهما، والتي ساهمت في مساندة معنويات الأيوبي في أيام الشدة إبان الحملة الصليبية الثالثة، ولكن من دون التردد في توجيه اللوم، حين اقتضت بعض المناسبات. وفي حين أنّ على المؤرخ أن يمارس الحيطة في تحليل الرسائل العلنية التي وجهها القاضي الفاضل إلى الخلفاء وإلى الأطراف الأخرى، ففي تلك الرسائل من الأطروحات والأفكار ما يعكس بدقة الأهداف الحقيقية للأيوبي والمثل التي يستوحياها.

تستند شهرة صلاح الدين الأيوبي إلى إنجازاته العسكري في معركة حطين عام 1187م وإلى استرداده بعدها مدينة القدس؛ لذلك فهو يُعتبر، في نظر المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء، قائداً عسكرياً في المرتبة الأولى، ثم في المرتبة الثانية مؤسساً لأسرة حاكمة. واعتباره الأول قائداً عسكرياً يعود إلى المصادر التاريخية الغربية الخاصة بالحملة الصليبية الثالثة، وكذلك إلى تصوير ابن الأثير له رجلاً استعمل مواهبه العسكرية في إرضاء طموحاته السياسية في تأسيس إمبراطورية واسعة.

ومن هذه الزاوية ذاتها يجري مقارنته بسلفه نور الدين زنكي. ولسوء الحظ ليس لدينا من مادة في المصادر التاريخية تمكّننا من الحكم على شخصية زنكي بالقدر المتاح عن الأيوبي. إن جميع الكتابات الإسلامية المعاصرة (باستثناء الحكايات غير الرسمية أو الشعبية) هي حوليات تشيع فيها نغمة المديح من الدوائر السيّية في مقابل الخدمات التي قام بها في الدفاع عن الشام ضد الصليبيين، وكذلك نتيجة لما قدمه من خدمات أكثر من أجل نشر المذهب السنّي عبر تأسيسه العديد من المؤسسات والمعاهد الدينية (المساجد

2 Carlo de Landberg (ed.), *Conquête de la Syrie et de la Palestine*, vol. 1 (Leyde: E.J. Brill, 1888).

قلماً استخدم مؤرخو الحملات الصليبية هذا النص حتى الآن.

والمدارس، فضلاً عن تشجيع فن الخطابة والإلقاء وبناء الخوانق⁽³⁾ ومقاومة مظاهر التشيع. إن الحوليات المتأخرة، باستثناء الشذرات التي وصلت إلينا من أعمال المؤرخ الحلبي الشيعي ابن أبي طيء، هي الأكثر ثناءً. غير أنه عندما تتفق آراء المؤرخين الصليبيين مثل وليام الصوري مع ذلك الاتجاه، فإننا نتأكد أنها انعكاس أمين للسيرة العامة لنور الدين زنكي. ومن الظلم - ونحن أمام ذلك - أن نظن أنه كان يرغب في تحقيق مصالحه السياسية عن طريق تلك الإجراءات، وأن هدفه كان التعلق بما فيها من أهداف ومثُل عليا.

وعلى أي حال، فإن هناك اختلافاً أساسياً بين الظروف التي عمل فيها نور الدين زنكي وصالح الدين الأيوبي؛ فقد عمل الأخير من داخل البناء السياسي في زمنه. أصاب التفكك سلطنة السلاجقة في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وترتب على ذلك أن الجزء الغربي من هضبة الأناضول سيطر عليه عدد من الأسر الملكية المحلية، التي تأسست (ما عدا بعض الإمارات البعيدة) بواسطة زعماء أتراك أو قادة من التركمان. واتسمت هذه الأسر الملكية بسمتين مشتركتين؛ الأولى هي روح المنفعة الشخصية التي حددت أفعالها وعلاقاتها السياسية الخارجية. وسوف يكون من الصعب علينا أن نجد أي إحساس بضبط النفس بين القادة الأتراك والتركمان، وذلك حين يستغل أحدهم ضعف الآخر. حدث ذلك من دون أي اعتبار لوجود المتنازعين ضمن أسرة ملكية واحدة، بصرف النظر عن الترابط الذي كان بين الإخوة البويهيين في بلاد فارس في القرن العاشر الميلادي. إن الأخبار المتعلقة بالمؤامرات والثورات والتحالفات المؤقتة، ومظاهر الخيانة والغدر بين الأمراء، لا يمكن حصرها في القرن الثاني عشر الميلادي. وخلال تلك الأجواء السياسية المنحلة، فإن الأمراء الأكثر صلابة في بيت آل زنكي وبيت تتش نادراً ما تمكنوا من الصمود.

أما السمة الثانية فكانت تأسيس القوى العسكرية؛ ذلك لأن أساس قوة أيٍّ من الأمراء كان فرقة منظمة من عسكر المماليك التركية التي تألفت من الشبان العبيد من الأتراك الذين جرى شراؤهم في الصغر، قبل تدريبهم على يد فرسان محترفين، وبعد ذلك جرى عتقهم ومنحهم إقطاعات عسكرية لكي يعيشوا من إيراداتها المادية والعينية. وحملت تلك القوات العسكرية المحترفة عبء الحروب المستمرة بين تلك الإمارات، بعدما منحوا قائدتهم المباشر ولاءهم الشخصي. وكان يقومون بواجبهم حتى إذا حوّل ولاءه من أمير إلى آخر جديد، من دون الاكتراث بمصالح الأمير الأول. ولأنهم قوات عسكرية محترفة، فقد كانوا يتكفّلون مبالغ باهظة على الرغم من أعدادهم القليلة. وأحد أسباب محاولات الأمراء الاستيلاء على أراضي جيرانهم هو محاولة الحصول على موارد من أجل زيادة عدد قواتهم. وفضلاً عن ذلك، فإنهم لم يستطيعوا تحمّل الحرب سوى فترة زمنية معينة؛ إذ لم يتحمّلوا الخسارة المادية عبر مواصلة الإنفاق على قواتهم. ومن ناحية أخرى، فإن القوات بعد نهاية الخدمة في الحملة العسكرية التي تدعى بيكار Baïkar يصبح لا همّ لهم سوى عودتهم إلى إقطاعاتهم من أجل التمتع بإيراداتها⁽⁴⁾. بينما يختلف الجنود التركمان قليلاً عن رفاقهم؛ فعلى الرغم من أنهم يمثلون قوات بدوية غير نظامية، فقد كانوا يخرجون في الحرب مدة محددة، وإذا طالت كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب لكي يتمكنوا من مواصلة القتال، وفي بعض الأحيان يتلقون أموالاً ومؤناً تدفعهم إلى مواصلة مهمتهم⁽⁵⁾.

كان نور الدين زنكي ابناً لجنديٍّ محترف من أصل تركي، ولم يكن يعرف هذا النظام فحسب، بل شكّل أيضاً هو نفسه جزءاً منه. وإذا افترضنا أنه كان يسعى لتكوين قوة عسكرية مركزية وقوية، من أجل قتال الصليبيين فضلاً عن إعلاء مكانته الشخصية، فإننا نجد أن جهوده على الصعيدين العسكري والسياسي تتفق مع النهج الموجود في زمانه (وربما كانت في مستوى أخلاقي أعلى). ومن

3 ينظر: N. Elissieff (Nikō'lai N. Elissieff), "Les Monuments de Nur ad-Din," *Bulletin d'études Orientales*, vol. 13 (1951), pp. 5-43.

4 لم تكن هذه الممارسات بدافع اعتبارات شخصية وحسب، بل أيضاً لأسباب اقتصادية معتبرة. فقد كان على القوات النظامية أن تُعيل نفسها وأتباعها أثناء الحملة من مؤن وعلف، على نفقتها الخاصة، وكان لإطالة أمد الحملة أن يُكبدتها نفقات جسيمة، بل وكذلك ديوناً، ينظر:

Imad ad-Din in Abu Shama, vol. 1. p. 271 foot, and *Fath*, pp. 392-393; Albert Schultens (ed.), *Baha ad-Din ibn Shaddad*, pp. 200, 221.

5 Ibn al-Athir, Tornberg (ed.), vol. 10, p. 400; Imad ad-Din, *Al-Barq al-Shāmī*, vol. 3, 139b.

ناحية أخرى، فإن منافسيه وأتباعه الإقطاعيين اعترفوا به ممثلًا طبيعيًا للنظام القائم بفضل نفوذ عائلته. ونال احترامًا بفضل جهوده في تطبيق هذا النظام، فهو رجل دبلوماسي وقائد للجيش في الوقت نفسه. ثم إن جهوده في عملية "إعادة الاعتبار للأخلاق"، عبر منح القادة والمصلحين الدينيين الدعم الكامل، لم تكن أمرًا جديدًا من نوعه. والحقيقة أنه بنى على مثال الدولة السلجوقية، ويستحق أن نقول عنه إنه كان أفضل من بعض أسلافه في هذا الأمر.

باختصار، يمكننا القول إن نور الدين زنكي، بوصفه قائدًا عسكريًا وإداريًا محنًا، كان صاحب رؤية ومقدرة، تفوقان ما عُرف في زمنه، من دون أن يخل ذلك بالنظام الموجود. وليس هناك شك في أنه لو كان قد امتد به العمر، وزالت الوحشة بينه وبين صلاح الدين الأيوبي، لحدث الهجوم المضاد على الصليبيين على نحو أسرع وأشدّ عنفًا مما جرى. ولا جدوى من إنكار ما بينهما من وحشة، تتضح بسهولة للباحثين في المصادر التاريخية، من دون التأثير بتفسيرات ابن الأثير الماكورة. كان زنكي يرى في فتح مصر زيادة أساسية في الإيرادات المالية والعسكرية، تكفل له الاستمرار في القتال بالشام. بينما لمس الأيوبي خطورة الموقف في مصر؛ لذا رأى أن مهمته الأولى هي بناء قوات محلية، تحمي مصر من تواطؤ العناصر المؤيدة للفاطميين في الداخل، وهجمات الفرنجة من الخارج. وربما كان فشل الحملة الصليبية على الإسكندرية (1174م) واستقرار الوضع العام في مصر، يمكن أن يمهدا لإعادة العلاقة الطيبة بينهما، غير أن الأول وافته المنية قبيل وصولها.

إن أولى نتائج موت نور الدين زنكي كانت تفتت القوة العسكرية التي بناها، وذلك بفضل طبيعة النظام السياسي - العسكري الموجود، فقد استولى أقاربه في الموصل على أقاليم الجزيرة، وانقسمت جيوشه الشامية؛ بسبب تنافس القادة حول ابنه القاصر الملك الصالح. وبدا أنه لا بد مجددًا من إعادة ما أنجزه زنكي على نحو مختلف. ولم يكن هناك أمل في العثور من بين آل زنكي على خليفة كفء له؛ لأن أي محاولة جديدة، من أجل إعادة البناء الذي قام به، كان لا بد لها بدايةً من مواجهة الإمارات الزنكية الموجودة. وإذا كان من يقوم بذلك محققًا، فإنه يرجو أن ينال تأييدًا من حركة "إعادة الاعتبار للأخلاق"، غير أنه كان سوف يلقى مقاومة من ممثليها بسبب ولائهم لذكرى زنكي.

وبدا أنه ما دامت ملاسبات إقامة قوة عسكرية مركزية في الشام قد بدت أصعب مما عليه زمن نور الدين زنكي، فكان من الضروري أن يختلف أسلوب من يقوم بذلك عن أسلوبه. وربما لم تكن لتحقيق تلك المهمة قطاً. ولم يكن من سبيل إلى تحقيقها إلا عبر طريقين؛ الأول عبر اتحاد الكيان الزنكي مع كيان عسكري قوي من الخارج (كأن نقول عبر امتداد واسع لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول، أو عبر قيام دولة واسعة في الشرق. وهو ما كان متاحًا آنذاك). أما الثاني، فكان ضرورة البناء على الأسس الأخلاقية التي أقامتها دولة زنكي، وتقويتها كثيرًا إلى الدرجة التي تدفع الكيان الذي أنجزه إلى خدمة الهدف الجديد. وبينما تدل المظاهر الخارجية على أن صلاح الدين الأيوبي قد اقتدى بالطريق الأول، فإن ما حدث أنه اقتدى بالطريق الثاني، وهذا اقتضى ضرورة قيام دولة واسعة ممتدة من كردستان وديار بكر إلى بلاد النوبة واليمن. إن من أراد تحقيق مراده كان عليه إيجاد الوسائل اللازمة لذلك. فقد اقتضت الظروف التي واجهته في زمانه ذلك الأمر، غير أن مكانة الأيوبي الشخصية وكفاءته، والروح التي تحلى بها في إنجاز مهمته، وكذا الأساليب التي لجأ إليها، كانت مختلفة تمامًا عن تلك التي لدى مؤسسي الدول العسكرية الكبرى.

لم يكن صلاح الدين الأيوبي تركي الأصل بل كان كرديًا. وكان الأتراك يشعرون بالاستعلاء بسبب ماضيهم العسكري، فضلًا عن احتكارهم التام للقوة السياسية في المشرق الإسلامي عبر الأمراء الأتراك؛ لذا فقد كانوا ينظرون بدونية إلى الأجناس الإسلامية

الأخرى كافة، كما أن أترك الموصل وشمالي الشام قد بالغوا في احتقار جيرانهم الأكراد⁽⁶⁾. وحينما تقدم جنود الموصل أول مرة في مواجهة صلاح الدين الأيوبي عام 1175م، احتقروه ساخرين منه⁽⁷⁾، واتهموه بالخيانة، واصفين إياه بأنه "كلب يعوي على سيده". وروى أحدهم، بعد سبعة عشر عامًا من ذلك الموقف، أن أحد الجنود من الموصل كان يساعد الأيوبي على امتطاء حصانه خلال الدفاع عن مدينة القدس بينما يقول له: "ما تبالي يا بن أيوب أي موة تحدث لك. إن من يساعدك على الركوب الآن أمير سلجوقي ينحدر من أتاك زنكي"⁽⁸⁾. إن الاختلاف في اللهجة بين عبارات الذم في الحالتين يمثل حدود التغير في النظر إليه، خاصة لدى المتعصبين لعرقهم ولدى المقاومين للمثل العليا التي كان يهدف إليها.

ونلاحظ أيضًا أنه على الرغم من أن والد الأيوبي وعمه وإخوته وهو نفسه كانوا قد انخرطوا في القوات العسكرية الإقطاعية لنور الدين زنكي، فإن ذلك لم يجعل منه قائدًا عسكريًا متميزًا أو صاحب مواهب استراتيجية. ويبدو هذا الحكم غريبًا، حين يكون موضوعه القائد الذي انتصر في حطين. لكن هذا الأداء في حطين يعود إلى مواهبه في التكتيك أكثر مما يعود إلى البراعة الاستراتيجية، وهذه المواهب في التكتيك تفسر أيضًا انتصاراته السابقة في معارك الموصل، وكذلك إنجازاته العسكري الأكبر الذي كثيرًا ما يغفله المؤرخون الغربيون والمتمثل في استرداد قلعة آمد الحصينة في ديار بكر عام 1183م بعد حصار دام ثلاثة أسابيع. ومن اللافت للنظر تكرار بعض الضباط في جيوش صلاح الدين الأيوبي تعابير التشكيك في قدراته القيادية، وأدى هذا التشكيك في بعض الأحيان، والمتمثل في معارضة هؤلاء الضباط لتكتيكاته وخطته للمعارك، إلى تفويت فرص لتحقيق انتصارات خلال معارك الحملة الصليبية الثالثة.

كذلك لم يكن الأيوبي إداريًا جيدًا؛ إذ يبدو أنه كان قليل الاهتمام بالتفاصيل الإدارية، فيما عدا الحرص على كبح الإساءات والفساد. وكان كثير الاعتماد في إدارة المناطق التي يحكمها مباشرة على أخيه العادل سيف الدين، وعلى رئيس الديوان القاضي الفاضل. أما إدارة الأقاليم الأخرى التابعة له، فقد عيّن لها حكامًا مفوضين، شريطة أن يتكفلوا بمكافحة الإساءة والفساد، وأن يعملوا على إمداد جيوشه بالعسكر المحاربين (وإذا دعت الضرورة بالمال) لمتابعة الجهاد.

ووفق ما تشهد به الوثائق التاريخية التي وصلتنا عن ثلاثة من الرجال الذين كانوا وثيقي الصلة بالأيوبي والتعامل المباشر معه؛ وهم: القاضي الفاضل، والأصفهاني، وابن شداد، فإن تفسير نجاحاته لا يعود إلى قدراته العسكرية والإدارية؛ إذ لم تكن هذه جزءًا من تربيته أو ميوله، وإنما يعود إلى قدرته على حشد المعنويات والتصميم على توحيد جهود المسلمين ومواردهم ضد الغزاة الأجانب. وقد نجح في هذا من خلال ضرب المثل بشجاعته، وقوة إرادته الشخصية، وترفعه عن الأنانية وتواضعه وكرمه، ومن خلال إظهار السمو الأخلاقي للإسلام تجاه أعداء الإسلام وأتباعه على السواء. كان صلاح الدين الأيوبي شديد البساطة وأميًا وشفافًا، من دون أن يكون ساذجًا. وقد أدخل الحيرة في نفوس أعدائه في الداخل والخارج؛ إذ وجدوه يترفع عن الدوافع الرخيصة التي تحركهم، وعن الألاعيب السياسية التي يتقنونها، كما وجدوا أنه لا يحمل الضغينة في نفسه، ولا يتوقع أن الآخرين يحملون الضغينة. وفي حين استغل بعض أقاربه هذه المزايا لمنافع شخصية، فلا أحد نجح في حرقه عن إخلاصه للمثل العليا التي نذر نفسه لخدمتها.

وفي رأيي أن هذا الجانب من شخصيته لم يُقدّر حق قدره، فإن الطموح الذي نذر نفسه لتحقيقه لا يقل عن إجلاء الفرنجة إجلاء تائمًا عن فلسطين والشام. وقد أدرك معاصروه، كما أدركت الأجيال من بعد، أن تحقيق ذلك الهدف كان رسالته التي نذر نفسه لها كليًا.

6 ويتجلى هذا الأمر بوضوح وبإسهابه المعهود حتى عند عماد الدين (الأصفهاني)، الذي يخصص أكثر من صفحة لذم الخصال المنافية للجدية لدى الأكراد في جيوش الأرتاة، وذلك على النقيض من مناقب جنود صلاح الدين ورسالتهم. ينظر: Barq, v. 57b sq.

7 If Michael the Syrian is to be believed: Chabot (ed. & trans.), vol. 3, p. 365.

8 Ibn al-Athir, vol. 12, p. 50.

وفي رأيي أن طموحه كان أوسع حتى من ذلك الهدف، وأنه ببساطة شخصيته، وبصيرته المباشرة في الظروف المحيطة، أدرك أن ضعف الجسم السياسي الإسلامي هو ما سمح ببقاء المستعمرات الصليبية في أرض الإسلام، ولذلك كانت ثورته هي ثورة ضد هذا الانحطاط السياسي الذي لم يكن ليعالج إلا بإحياء النسيج السياسي للإسلام عن طريق إعادة تأسيس إمبراطورية إسلامية متحدة تحت حكم الشريعة المستندة إلى الوحي الإلهي، وبالإدارة المباشرة من الخلافة العباسية، وليس بالضرورة تحت حكم الأيوبي. وقد رأى الأيوبي نفسه تابعًا وقائدًا في جيوش العباسيين، على غرار ما سبق أن مارسه لفترة وجيزة وزيرًا وقائدًا في جيوش الخلافة الفاطمية. أما أنه كان يُلقَّب بالسلطان، فهو اللقب الذي اكتسبه من خلال خدمته وزيرًا للفاطميين، ولا يمتُّ بصلّة إلى السلطنة السلجوقية. ولا يظهر هذا اللقب في المراسم أو الحملات التي سادت في عهده. ويروي الأصفهاني حادثة مهمة خلال حصار مدينة عكا، أنب فيها سيده الأيوبي على المبالغة في البساطة، وربما السذاجة⁽⁹⁾؛ فاستجابةً لمبعوث من الخلافة وافق الأصفهاني على تسليم إقليم شهرزور في كردستان إلى حوزة الخلافة، وكان هذا الإجراء موضع غضب أمرائه وإدانتهم، فكان ردّه "أن الخليفة هو سيد الناس والمؤمن على الدين الحق، ولو كان هنا وطلب كل هذه الأراضي لأعطاه إياه، وليس شهرزور فحسب".

لكن الحجة التي تثبت ولاء صلاح الدين الأيوبي للخلافة لا تقتصر على واقعة مثل المذكورة آنفًا، سواء كانت حقيقية أو مزعومة، ولكن يؤيدها المضمون الصريح للعديد من تقاريره المرسلة إلى بغداد، والتي يتواتر فيها الحديث عن الجهاد في سبيل الله وعن كبح الأفعال التي تسيء إلى من يخدمون الله وخليفته على الأرض، وعلى أنه يشهد الله على أن كل سلطة دنيوية ممنوحة له بما فيها الأراضي التي يسود عليها لا غاية لها سوى خدمة الخلافة. ويظهر ولاء الأيوبي للخلافة أيضًا في حوادث عديدة؛ منها اعتراضه على مطالب آل زنكي في الاستيلاء على أراضٍ في الجزيرة في سورية بدعوى الميراث في غياب إجازة صريحة من الخلافة، كما تظهر في استيلائه الناجز على قلعة آمد في ديار بكر لصالح الخلافة، وكذلك في رسالته الصريحة إلى السلطان قلاوچ أرسلان سلطان الأناضول يحذره فيها من اقتتال الأمراء المسلمين فيما بينهم بدلًا من أن يتحدوا في واجبات الجهاد في سبيل الله⁽¹⁰⁾.

وفي الوقت ذاته، كانت النزعة المثالية عند الأيوبي مقيّدة بأخذه باعتبارات الواقع العملي وبالوضوح الذي كان يحكم به على كل خطوة يخطوها نحو تحقيق أهدافه؛ ما يفسر التوسّع المطّرد في سلطانه. وكان مدرّكًا أن المشكلات التي يواجهها ليست ذات طبيعة محض سياسية، بل إنها تتضمن أبعادًا معنوية ونفسية. ولذلك لم يكتفِ بمواجهة هذه المشكلات بالإجراءات السياسية والعسكرية، بل كان حريصًا على دعم هذه الإجراءات ورفع مستوى الولاء السياسي بمحفزات نفسية وأخلاقية. وقد وجد الأيوبي الوسائل لتوفير هذه المتطلبات بما أدهش أصدقاءه وأعداءه على السواء.

ففي تعامله مع الأمراء، سواء من أصدقائه أو أعدائه، كان مبدؤه الأول الصدق والإخلاص المطلق للكلمة التي يعدّ بها. فإذا عقد هدنة مع الصليبيين فهو الوفي تمامًا بعهوده، وليس في سجلّه واقعة واحدة أخلّ فيها بما وعد أو تعهّد به. في المقابل، كان فاقدًا للتسامح وشديد العقاب على من ينكثون بالعهود كما فعل مع رينالد دي شاتيون وفرسان المعبد. أمّا تجاه منافسيه المسلمين فتميز سلوكه بالكرم والإخلاص. فحينما عقد حلفًا مع الملك الصالح عام 1176م (في حادثة استرداد أعزاز الشهيرة) لم ينفذ إجازة الخليفة له بدخول حلب، وأجلّ ذلك إلى ما بعد وفاة الملك الصالح⁽¹¹⁾. ومما يذكر أيضًا أن حصار قلعة آمد كان وفاءً لوعده قطعه للأمير الأرتقي

9 Landberg (ed.), *Fath*, pp. 218-219.

10 ينظر: *Barq*, vol.3, fol. 123a; *From Abu Shama*, vol. 2, pp. 24-48.

11 *Abu Shama*, vol. 2, p. 34.

لحسن "كيفاً" مكافأةً على وفائه. وحين استولى على الحصن، سَلَّم كل الأموال الضخمة التي غنمها إلى حليفه من دون نقصان، مما كان فعلاً من أفعال الوفاء غير المسبوق الذي طبقت شهرته الآفاق⁽¹²⁾.

ومن أجل تحقيق غايته، كان على الأيوبي تقوية أعماله، عبر الاعتماد على تيار خلقي ونفسي قوي تصعب مقاومته. لذلك، وجد غايته في "فقهاء المدارس" الذين كانوا بمنزلة قادة للرأي العام الشعبي. وهو الأمر الذي بدا صعباً للغاية؛ لأن هؤلاء الفقهاء كانوا من المؤيدين لنور الدين زنكي. ونظراً إلى أن الأيوبي بدا مغتصباً لإرث زنكي، فكان من الطبيعي أن يتخذ هؤلاء مع سكان الشام موقفاً سلبياً منه في البداية. ولا يوجد في المصادر التاريخية العربية سوى إشارة بسيطة، تدلّ على تغيّر تدريجي في موقفهم. غير أنه هناك أدلة عديدة في الروايات المعاصرة، تدلّ على أنه قد نجح في النهاية في كسب احترامهم ونيل إعجابهم نتيجة صدقه وإخلاصه⁽¹³⁾. وحذا صلاح الدين الأيوبي حذو نور الدين زنكي، في تقريب المتصوفة منه ورعايتهم، وهو ما كان له الأثر الكبير غالباً في توصيل رسالته إلى سكان الشام. إلا أن أهم القرارات التي جذبت نحوه السكان، بصفة عامة، كان رفع الرسوم والأعباء المادية الجائرة في الأقاليم التابعة له. حدث هذا حتى لو لم يبادر ممثلوه إلى العمل بذلك سريعاً. ومن الملاحظ أن شيعة حلب وشمال الشام، المعروفين بإزعاجهم، والذين ظلوا على مسافة من زنكي، لم ينتفضوا ضد الأيوبي (بعد محاولات الحشاشين الأولى بهدف اغتياله)، بل قدموا يد العون له خلال فتوحاته⁽¹⁴⁾.

ويمدنا الأصفهاني بلمحة بارزة عن دبلوماسية صلاح الدين الأيوبي⁽¹⁵⁾، حينما أراد أتابك الموصل، الذي ينحدر من آل زنكي الموالي للخليفة، أن يبعث له طالباً منه إرسال شيخ شيوخ مدينة بغداد لكي يشفع له عند الأيوبي في عام 1184م. وعلى الرغم من أن رسول الموصل تصرف بما يفسد المهمة تماماً، فإن الأيوبي لان لمشيشة شيخ الشيوخ. ويبدو أن ذلك قد أغضب رسول الموصل مجدداً، فهدد بعقد حلف بين الموصل وسلاجقة فارس الذين يمثلهم طغرل الثاني الذي كان بمنزلة عدو للخليفة. ويشير الأصفهاني إلى أن هذا الأمر دفع صلاح الدين الأيوبي إلى اتخاذ سياسة الحزم في العلاقة مع الموصل، بعد ذلك. وليست هناك مبالغة في رواية الأصفهاني. ثم إن تصرف الأيوبي هذا مثل بداية للصدقة التي نشأت بينه وبين القاضي ابن شداد - الذي يؤيد رواية الأصفهاني - حينما كان فرداً ضمن حاشية رسول الموصل⁽¹⁶⁾.

وبعيداً عن استرداد قلعة آمد، فإن سبب تمدد دولة صلاح الدين الأيوبي في آسيا الصغرى بين عامي 1182 و1186م إنما يرجع إلى تلك العوامل وليس إلى الأعمال العسكرية. ولم تكن تحركاته أمام الموصل وحلب لتعبّر عن تحركات عسكرية، بقدر ما كانت أعمالاً استعراضية. وبما أن أمراء الجزيرة من صغار السن قد بلغهم خلقه وورعه، فقد خضعوا له⁽¹⁷⁾. وهكذا، فبعد أن تظاهر قادة قوات نور الدين زنكي بالحرب ضده، قدّموا في النهاية أنفسهم له. يذكر ابن الأثير أنه حتى في الموصل كان هناك أمراء موالون

12 كان سلوكه في هذا الصدد على قدر من الاساق، ومثيراً للربح في نفوس أعدائه، مما استدعى اختلاق واقعة لموازنة ذلك، وهي الواقعة التي دونها ابن الأثير (مع تظاهر كبير بالحياد) في تاريخه، ينظر:

Ibn al-Athir, vol. 11, p. 341; "The Arabic Sources," *Speculum*, vol. 25, pp.67-68; H. A. R. Gibb, "The Arabic Sources for the Life of Saladin," *Speculum*, vol. 25, no. 1 (January 1950), pp. 67-68.

13 Ibn Jubair, *Rihla*, pp. 297-298; "Abd al-Latif al-Baghdadi," in: Ibn Abi Usaibia, *Iyun al-Anba*, vol. 2, p. 206 (both translated in *RM.C.Or.*, vol. 3, p. 435 sqq.).

14 Claude Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des croisades* (Paris: Paul Geuthner, 1940), pp. 428-429.

15 *Barq*, v. fol. 129 sqq.

16 Ed. Schultens, p. 57.

17 Imad ad-Din, *Al-Barq al-Shāmī*, v. 79b sqq. (Abu Shama, vol. 2, pp. 43-44).

لصلاح الدين الأيوبي أجبروا الأتابك الزنكي على الاستسلام في عام 1186م⁽¹⁸⁾. ومن الضروري أن لا نبالغ في مدى تأثير الفقهاء في الجنود. غير أننا نجد في بعض المصادر إشارات إلى تدخلهم الواضح؛ وهذا جعل منهم عاملاً مساعدًا. وأبرز مثال على ذلك مسألة شاه أرمين مدينة خلاط الذي كان من أبرز خصوم صلاح الدين الأيوبي، والذي قدم جنوده لمساعدته قبل نهاية الحملة الصليبية الثالثة⁽¹⁹⁾.

وحيثما نجح الأيوبي في استعادة السيطرة على فلسطين وبلاد الشام الداخلية خلال سنة ونصف السنة، بعد انتصاراته في حطين، كان لسمعته الطيبة في الإخلاص المطلق لوعوده وكلماته فضل كبير في تحقيق ذلك الإنجاز. وبفضل ذلك الصيت سقط في حوزته العديد من القلاع المحصنة، قبل اندلاع الحملة الصليبية الثالثة، ولولا ذلك لاختلقت نتائج هذه الحملة اختلافاً لم يكن في مصلحته، ولما سقط أكثر من عشر تلك القلاع والبلاد في قبضته. فقد كانت هذه الحملة تحدّيًا من نوع لم يكن قد توقّعه أو استعد له.

وطّن الأيوبي نفسه على أن هدفه النبيل والمثالي في توطيد سلطة القانون في البلاد الإسلامية سوف يتحقق، من خلال التزامه بمبادئ العدالة والإخلاص. وهذا الالتزام لم يكن كافيًا في ذاته لتحقيق الهدف، ولكنه أرسى الأسس المعنوية لحشد جيوش ترابط في الميدان بصورة مستمرة لثلاث سنوات ضد عدو شرس. ولم يكن قد سبق لأي أمير أو قائد مسلم أن تصدى لمثل هذه المهمة أو نجح في إنجازها.

كشفت معارك الحملة الصليبية الثالثة عن مواطن الضعف المادية والمعنوية في إمبراطورية صلاح الدين الأيوبي الواحدة بعد الأخرى، والتي كانت خافية خلال حقبة الانتصارات، ولم يكن قد اهتم بجمع المال أو بالإدارة الحصيفة للموارد، وكان قد "أنفق الموارد المالية المصرية من أجل كسب الشام، وأنفق موارد الشام من أجل كسب بلاد الرافدين، التي أنفق مواردها من أجل فتح فلسطين"⁽²⁰⁾. ووجد نفسه الآن من دون موارد كافية لتغطية تكاليف الأسلحة والغذاء والأعلاف والمعدات ورواتب الجنود؛ وبالنتيجة كان عاجزًا عن توفير ما يلزم للقوات المتحالفة معه حتى تستمر في مساندته⁽²¹⁾. إضافة إلى ذلك، لم يستطع الوصول إلى المعدات العسكرية التي اختزنها في قلعة عكا⁽²²⁾، التي كان قد وقر لها المعدات والتحصينات حتى تكون القاعدة الرئيسة لعملياته المستقبلية. لكن حصار عكا وخسارتها كانا الضربة القاضية التي أضعفت القدرات العسكرية لجيشه.

عدا ذلك، واجهت قواته صعوبات جمة نتيجة الخنادق الحصينة التي استخدمها الصليبيون في حصار عكا. وعلى الرغم من تفوق المحاربين الأتراك على الفرسان الصليبيين في معارك السهول المفتوحة، فإن هذا التفوق لم يكن ذا جدوى في تخفيف ضغط الحصار على مدينة عكا؛ ما أدى في نهاية الأمر إلى تفشي التذمر والميل إلى الانتقاد والمعارضة بين عساكر صلاح الدين الأيوبي، ولا سيما في المراحل الأخيرة من الحملة التي انتهت بسقوط عكا، والفشل العسكري.

لكن ضرر تلك الهزيمة كان ضئيلاً قياساً على الضرر الذي لحق بالقضية الكبرى التي نذر نفسه لها، وتمثّل ذلك في فتح شهية عدد من إخوانه وأقربائه للخروج عن طاعته كما كانوا قد فعلوا في مناسبات سابقة⁽²³⁾، لكن الضرر كان فادحاً هذه المرة؛ لأنه حصل إبان قمة الصراع مع الصليبيين. ومن أمثلة ذلك العصيان المتعمد الذي ارتكبه ابن أخيه تقي الدين ضد أوامره في ديار بكر، وهذا ما تسبب في سلسلة من حوادث التمرد التي أحبطت قدرات الأيوبي في معارك فلسطين التي أعقبت سقوط عكا. ففي هذه الحقبة،

18 Ed. Tornberg, vol. 11, pp. 338, 340. See also the significant incident of the garrison of Harim (quoted by Grousset, vol. 2, p. 720).

19 Baha ad-Din, p. 260.

20 Al-Qadi al-Fadil in Abu Shama, vol. 2, p. 177.

21 Abu Shama, vol. 2, pp. 177-178, 203; Path, pp. 207, 392-393, 443; Baha ad-Din, pp. 200, 221, etc.

22 Baha ad-Din, p. 174.

23 Al-Qadi al-Fadil in a letter quoted by Abu Shama, vol. 2, p. 178.

عانت قواته العسكرية فقدان قوات تقي الدين وقوات أخرى من ديار بكر، وانتشار التذمر بين قواته التي بلغ منها الإجهاد مبلغه في تلك الشهور الحرجة.

تلك كانت الأحداث التي سلبت من صلاح الدين الأيوبي فرص الانتصار على الملك ريتشارد، ولكنها في الوقت ذاته تظهر بجلاء التصميم الذي كانت تعود به الفرق العسكرية من الموصل لاستئناف المعارك سنة بعد أخرى، ولو مع بعض التلكؤ أحياناً، ومن الواضح أنها لم تكن تفعل ذلك تحت ضغط أو إكراه. بل لم يكن لذلك السلوك من تفسير سوى شعور تلك الجيوش بالولاء الشخصي للأيوبي، الذي كان سائداً في الموصل على الرغم من استثناءات فردية. وكان الأيوبي مدرّكاً لهذا الولاء، وعبر عن ذلك بكلمات متواضعة وجهها إلى ابن شداد: "إذا حانت وفاتي، فمن غير المحتمل أن يعود هؤلاء العسكر إلى التضامن فيما بينهم مرة أخرى"⁽²⁴⁾. تلخص هذه الكلمات جوهر ما تمثله طبيعة الإنجاز الذي حققه صلاح الدين الأيوبي؛ وهو أنه من خلال الطبيعة الخيرة والصلبة لشخصيته استطاع في حقبة زمنية حرجة أن يبعث الإسلام من حضيض الانحطاط السياسي، وأن يضع نصب عينيه مثلاً أعلى أخلاقياً، يستقطب جملة حياته وسلوكه، وهو الطموح إلى وحدة المسلمين التي وإن لم تتحقق وفق مشيئته، فإنها مثلت التحدي الخفي الذي تحداه به القدر.

هاملتون جب وأعماله عن الإسلام والحروب الصليبية بين مرآة الاستشراق والتاريخ

Hamilton Gibb and His Works on Islam and the Crusades: Between the Mirror of Orientalism and History

تُقيّم هذه الدراسة أعمال المستشرق البريطاني البارز هاملتون جب، الذي أثري الدراسات الإسلامية في القرن العشرين، خاصة عبر كتابه *دراسات في حضارة الإسلام* وأبحاثه حول الحروب الصليبية. تتناول الدراسة أعماله من زاويتين: الأولى، استشراقية، تبحث في الخلفيات الفكرية التي شكّلت التصور الغربي عن الإسلام. والثانية، تاريخية، تحلل منهجيته في التعامل مع النصوص الإسلامية بوصفها مادة حيّة، جامعاً بين التحقيق النصي والتحليل التاريخي. تركز الدراسة على كيفية معالجته ثنائية "الرواية الغربية" و"الإسلامية"، وتسعى لإعادة تقييم مكانته بوصفه مؤرخاً وفاعلاً مؤثراً ساهم في صياغة فهم الغرب للتاريخ الإسلامي، مع تقديم قراءة نقدية لأعماله ومنهجيته.

كلمات مفتاحية: هاملتون جب، الاستشراق، التاريخ الإسلامي، الحروب الصليبية، الحضارة الإسلامية.

This study evaluates the works of the prominent British Orientalist Hamilton Gibb, who contributed to Islamic studies in the 20th century, particularly through his book *Studies on the Civilization of Islam* and his research on the Crusades. The study approaches his works first from an Orientalist perspective, which examines the intellectual backgrounds that shaped Western perceptions of Islam, and second, from a historical perspective, which analyses his methodology in treating Islamic texts as living material, combining textual investigation with historical analysis. The study focuses on how he handled the dichotomy of "Western" and "Islamic" narratives and seeks to re-evaluate his standing not only as a historian but as an influential actor who contributed to shaping the West's understanding of Islamic history, while offering a critical reading of his works and methodology.

Keywords: Hamilton Gibb, Orientalism, Islamic History, The Crusades, Islamic Civilization.

* باحث زائر، كلية ترينيتي كوليدج دبلن، وعضو هيئة تدريس في كلية الآداب، جامعة دمنهور، مصر.

Visiting Researcher at Trinity College Dublin and Faculty Member in the Faculty of Arts, Damanhour University, Egypt.

sheira@tcd.ie

أولاً: هاملتون جب: النشأة والتدرج الأكاديمي

وُلد السير هاملتون ألكسندر روسكين جب Sir Hamilton Alexander Roskeen Gibb (1895-1971) في مدينة الإسكندرية المصرية، تلك الحاضرة المتوسطية التي امتزجت فيها نسائم البحر بروائح التاريخ، وتمازجت على شواطئها ثقافات الشرق والغرب والشمال والجنوب. وفي هذا الملتقى الحضاري، استنشق جب أول أنفاسه، ليجد نفسه منذ نعومة أظفاره محاطاً بأصداء الحضارات المتداخلة، وتيارات الفكر المتنوع التي تتشكل لاحقاً خلفيته المعرفية ورؤيته الاستشراقية العميقة، وكأن الرياح المتوسطية التي هبّت على شواطئ الإسكندرية في يوم ولادته كانت تحمل نبوءة بمستقبله؛ إذ أضحي عاشقاً ومؤرخاً للحضارة العربية، التي شكلت جزءاً من تاريخ عالم المتوسط وحضارته، منذ بزوغ فجر الإسلام في القرن السابع الميلادي إلى عصرنا الراهن.

نشأ جب في عالمين متوازيين؛ عالم الاستعمار الذي صاغ هويته البريطانية، وعالم الشرق الذي سحره بلغته وتاريخه وثقافته. وبين هذين العالمين، تشكلت رؤيته المزدوجة؛ فلم يكن مستشرقاً عابراً يقف على أعتاب التاريخ الإسلامي وحضارته فحسب، بل كان أيضاً غواصاً في أعماقه، متتبّعاً نصوصه الأصلية، متمعّاً في أحداثه الكبرى، بدءاً من فجر الإسلام، متتبّعاً تطوّر الفكر الإسلامي الوسيط، ثم مستعرّضاً عصر الحروب الصليبية، ليصل إلى الأدب العربي الحديث. كان جب مؤرخاً يجمع بين الرؤية النقدية الغربية والاطلاع العميق على التراث العربي، فاستطاع أن يقدم صورة تتجاوز السرد الاستشراقي التقليدي، ليغدو جسراً ثقافياً بين الشرق والغرب.

جاء والد جب إلى مصر عام 1880 مع جنود الاحتلال البريطاني، ليعمل ناظراً للزراعة في شركة أبو قير لاستصلاح الأراضي. وأرسله والده إلى بريطانيا لاستكمال تعليمه، حيث التحق بالمدرسة الثانوية الملكية في إدنبرة بإسكتلندا. وبعد أن أنهى تعليمه الثانوي، التحق بقسم اللغات السامية في جامعة إدنبرة عام 1912، حيث درس العربية والعبرية والآرامية. وواصل مسيرته الأكاديمية في جامعة لندن، حيث حصل على درجة الماجستير عام 1922، وتزامن ذلك مع تعيينه مدرّساً للغة العربية عام 1921. وفي عام 1929، حصل جب على درجة "ريدر" Reader في تاريخ العرب والأدب العربي بجامعة لندن، وما لبث أن تولى تحرير **دائرة المعارف البريطانية** حتى عام 1956، خلفاً للمستشرق الشهير سير توماس أرنولد بعد وفاته عام 1930. وانتقل إلى جامعة أكسفورد في عام 1937، ليشغل منصب أستاذ اللغة العربية، وزمياً في كلية سانت جون حتى عام 1955. ثم انضم إلى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأميركية، حيث شغل كرسي الأستاذية James Richard Jewett Professor of Arabic، وأصبح رئيساً لمركز دراسات الشرق الأوسط، وواصل إسهاماته العلمية حتى تقاعده، مع بقاءه مديراً للمركز، ليوصل تأثيره في تشكيل الدراسات العربية والاستشراقية⁽¹⁾.

1 George Makdis, "Sir Hamilton Alexander Roskeen Gibb January 2, 1895 - October 22, 1971," *Journal of the American Oriental Society*, vol. 93, no. 4 (1973), pp. 133-134; A.K.S. Lambton, "Sir Hamilton Alexander Roskeen Gibb," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 35, no. 2 (1972), pp. 338-345; Albert Hourani, "Sir Hamilton Gibb," *Proceedings of the British Academy*, no. 58 (1972), pp. 493-523;

ينظر أيضاً: محمد مؤنس عوض، **الحروب الصليبية في مؤلفات المؤرخين الغربيين المحدثين** (القاهرة: مكتبة كلية الآداب، 2016)، ص 133-142؛ عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين** (بيروت: دار العلم للملايين، 1993)، ص 173-174؛ ناصر جاسم الملا، **الاستشراق البريطاني في القرن العشرين: المستشرق هاملتون جب عميد الدراسات العربية** (القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2017)؛ ألبرت حوراني، "هاملتون جب: إنجازات مستشرق"، ترجمة سلام فوزي، **الفكر العربي**، مج 31، العدد 5 (1983)، ص 373-399؛ محمد طارق، "هاملتون. أ. جب ودوره في دراسة التاريخ العربي"، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2012.

توفي جب في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1971، بعد معاناة طويلة مع المرض بدأت بجلطة دماغية شديدة أصابته عشية تقاعده من جامعة هارفارد. وعاد إلى إنكلترا بعد فترة وجيزة، ليعيش مع زوجته في منزلها الجديد في كومنور، القريب من أكسفورد. وبعد وفاة زوجته عام 1969، انتقل إلى شيرينغتون، قرب ستراتفورد أبون أفون، حيث وافته المنية.

هاملتون جب



المصدر: تصوير فايان باكراتش Fabian Backrach، ينظر:

Albert Hourani, "Sir Hamilton Gibb 1895-1971," *Proceedings of the British Academy*, no. 58 (1972).

وفي ذكرى وفاته يقول جورج مقدسي: "لطالما كانت وفاة عالم بارز حدثًا يترك شعورًا عميقًا بالخسارة بين زملائه في الحقل الأكاديمي، فهذه الخسارة لا تقتصر على فقدان شخصية مرموقة فحسب، بل تمثل غياب منارة كانت تنير الطريق، ليس فقط للزملاء والطلاب الذين عرفوه عن قرب، بل أيضًا للكثيرين في المجتمع الأكاديمي العالمي الذين عرفوه من خلال أعماله ومؤلفاته. كنت

قد التقيته آخر مرة قبل بضعة أشهر من وفاته، كما كنت أحرص على زيارته كل صيف تقريباً خلال زياراتي التي كانت تأخذني من المتحف البريطاني إلى مكتبة تشستر بيتي في دبلن، أو خلال رحلاتي بين أوروبا والشرق الأدنى⁽²⁾.

ومن خلال مسار علمي وأكاديمي حافل، تبلورت شخصية جب مستشرقاً بارزاً يجمع بين صرامة الباحث الغربي وعمق الاطلاع على الثقافة الإسلامية من مصادرها الأصلية. وفيما يلي، سنتنقل إلى دراسة موقع جب بين الاستشراق والتاريخ، مستعرضين انعكاس هذه الخلفية الأكاديمية على منهجيته في قراءة التاريخ الإسلامي وتفسيره.

ثانياً: جب بين الاستشراق والتاريخ

لم يكن الاستشراق يوماً مجالاً موحدًا أو ذا معالم ثابتة، بل تميز بتعدد المقاربات وتنوع الأهداف، متحرّكاً بين الدوافع الأكاديمية الصرفة والمصالح السياسية الاستعمارية. يمكننا تحديد عدة مقاربات رئيسة شكّلت ملامح هذا المجال؛ المقاربة الأولى ظهرت في ألمانيا وامتدت إلى الولايات المتحدة، حيث ارتبط الاستشراق بدراسة النصوص التوراتية لفهم العهد القديم، مركّزة على الدقة النصية واللغوية، ومنفصلة عن السياقات الاجتماعية والسياسية التي أثّرت في تلك النصوص. أما المقاربة الثانية، فتمثلت في الاستشراق الفرنسي والبريطاني، حيث ارتبط هذا التيار مباشرة بمصالح الإمبراطوريات الاستعمارية، فالفرنسيون مزجوا بين الاستشراق والعلوم الاجتماعية، وهذا أوجد حيوية فكرية وتكاملاً بين الدراسات الاستشراقية والتحليل الاجتماعي والسياسي للشرق. بينما في بريطانيا، ورغم تأثير الاستشراق العميق، ظل هذا المجال في حالة تنافر مع بعض العلوم الاجتماعية، مثل الأنثروبولوجيا، وهذا حدّد من شموليته النظرية⁽³⁾. أما المقاربة الثالثة، فتمثلت في محاولات بعض المستشرقين، مثل جب، تجاوز هذا الانقسام بين المقاربات المختلفة، حيث جمع بين الدقة النصية والمعرفة التاريخية الواسعة، مرتقياً بمفهوم الاستشراق من مجرد دراسة عن الشرق إلى محاولة فهم عميق لتاريخه وثقافته. وقد تجلّى تأثير جب في مجال الاستشراق عبر إسهاماته الأكاديمية التي جمعت بين الرؤية الاستشراقية الدقيقة والتحليل التاريخي العميق. بدأ جب أبحاثه بالتركيز على دراسة الفتوحات الإسلامية، ثم انتقل إلى كتابة عدة مقالات في مجال الأدب العربي، ثم مع مطلع ثلاثينيات القرن الماضي عاد ليركّز على الكتابة عن التاريخ الإسلامي وخاصة فترة الحروب الصليبية، التي شهدت اهتماماً متزايداً بدراستها في أوروبا مع بدايات القرن العشرين، وذلك نتاج طبيعي للتوسعات الاستعمارية في العالم العربي والشرق الأوسط عامة. أما في العالم العربي، فقد تأخر الاهتمام الأكاديمي بدراسة هذه الفترة حتى خمسينيات القرن العشرين وستينياته، حين بدأت المؤسسات الأكاديمية والباحثون العرب في تناول تلك الحقبة التاريخية ضمن سياق أكاديمي بحثي وتدريسي⁽⁴⁾.

2 Makdis, pp. 133-134.

3 William R. Polk, "Islam and the West," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 6, no. 2 (1975), pp. 131-139.

4 ينظر: محمد مؤنس عوض، *الحروب الصليبية في مؤلفات المؤرخين المصريين المحدثين* (القاهرة: مكتبة الآداب، 2017)؛ عوض، *الحروب الصليبية في مؤلفات المؤرخين الغربيين المحدثين*؛ مصعب حمادي نجم الزبيدي، *الحروب الصليبية: في كتابات المؤرخين الأوروبيين والأمريكيين حتى نهاية القرن العشرين* (بيروت: دار النهضة العربية، 2021)؛

Ahmed Sheir, "The Historiographical Memory of the Crusades in Nineteenth-Century Egypt," in: A. Baadj & A. Sheir (eds.), *The Memory and Historiography of the Crusades in the Modern Arab World* (Budapest: Trivent publishing, 2025); Ahmed Sheir, "Between Peace and War: The Peaceful Memory of the Crusades from the Middle Ages to the Modern Arabic-Egyptian Writings," in: Ali Elsayed, Abdallah al-Naggar & Ahmed Sheir (eds.), *Studies in Peace-building History between East and West through the Middle Ages and Modern Era*, vol. 2 of the History of Peacebuilding Project (Cairo: Sanabil Bookshop, 2019), pp. 145-164.

وقد تجاوز اهتمام جب حدود السرد التاريخي التقليدي ليشمل تحليل النظم الإدارية والتنظيمية للمجتمعات الإسلامية. وقد اعتمدت أبحاثه على دراسة الواقع الاجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي، متجاوزاً النقد التقليدي الموجه إلى الاستشراق الذي يركز على النصوص بمعزل عن سياقاتها. وتعامل مع التاريخ الإسلامي بوصفه ظاهرة اجتماعية وثقافية وسياسية متكاملة، وهذا أتاح له بناء رؤية أكثر عمقاً وشمولاً. وإلى جانب اهتمامه بالأحداث التاريخية، ركّز على دراسة الشخصيات البارزة التي أسهمت في تشكيل مسار التاريخ الإسلامي؛ ففي دراسته شخصية عبد الرحمن بن خلدون، استعرض الخلفيات الفكرية والدينية التي شكلت نظرياته السياسية⁽⁵⁾، كما تناول شخصية ابن سينا بوصفه رمزاً للفكر الفلسفي الإسلامي⁽⁶⁾.

أما في الجانبين السياسي والعسكري، فقد أفرد اهتماماً خاصاً لشخصية صلاح الدين الأيوبي (ت. 1193)، واستند إلى المصادر العربية التي تناولت سيرته، وانطلق منها لاستكشاف السياقات التاريخية الأوسع لفترة الحروب الصليبية⁽⁷⁾. وقد قاده هذا التعمق إلى تحرير عدد من المصادر العربية التي وثقت تلك الحقبة ودرستها، وهذا أسهم في تقديم قراءة دقيقة ومتوازنة لهذه المرحلة المفصلية في التاريخ الإسلامي. وقد ترك جب بصمة مميزة في الدراسات الاستشراقية بفضل توازنه بين الخبرة اللغوية والتحليل التاريخي، وتمثل أعماله إسهاماً بارزاً في مجال الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي، حيث جمع بين التخصص الأكاديمي والخبرة العملية، وهذا جعل أبحاثه مرجعاً أساسياً للمهتمين بتاريخ الإسلام في عيون المستشرقين⁽⁸⁾.

استندت منهجية جب إلى المصادر الإسلامية الأصلية، إلا أن قراءته للتاريخ الإسلامي لم تكن خالية من التحيزات الاستشراقية التي سعت إلى تضخيم الخلافات المذهبية والعرقية داخل المجتمعات الإسلامية. ففي تحليله معوقات الوحدة الإسلامية، بالغ في تصوير التنوع المذهبي واللغوي على أنه حواجز ثابتة أمام أي مشروع وحدوي. واعتمد على منطق استشراقي تقليدي يرى في الحركات الوحدوية الإسلامية محاولات استبدادية، من دون أن يمنح مساحة كافية لفهم الرؤية الإسلامية التي تقبل التعدد ضمن إطار وحدة العقيدة والشرعية. فعلى الرغم من أن جب سعى لكسر الصورة النمطية عن الإسلام في الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية، فإن قراءاته كثيراً ما وقعت في فخ المركزية الأوروبية؛ فقد ظل ينظر إلى الإسلام موضوعاً معرفياً منفصلاً، يخضع لتحليل "الآخر" من دون الاعتراف الكافي بفاعلية الذات الإسلامية في صياغة تاريخها. وقد أظهر ميلاً واضحاً إلى منح الفكر السني مركزية مفرطة، مع إهمال جوانب مهمة من التنوع المذهبي والفكري داخل العالم الإسلامي، وهو ما يتجلى في تجاهله النسبي للتيارات الشيعية والصوفية المستقلة. كما أن اعتماده على المصادر الإسلامية لم يكن كافياً لتحرير خطابه من النزعة التبسيطية التي اختزلت بعض الظواهر الاجتماعية والثقافية في قوالب مسبقة. ويعكس هذا التحيز استمرار التأثير الغربي في بناء صورة مجتزأة عن العالم الإسلامي تخدم سرديات ما بعد الاستعمار⁽⁹⁾.

5 Hamilton Gibb, "The Islamic Background of Ibn Khaldun's Political Theory," *Bulletin of the School of Oriental Studies*, vol. 7 (1933/35), pp. 23-31.

6 Hamilton Gibb, "The Millenary of Ibn Sina," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 14 (1952), pp. 496-500.

7 Hamilton Gibb, *The Life of Saladin: From the Works of 'Imad ad-Din and Baha' ad-Din* (New York/ London: Oxford University Press, 1973); Hamilton Gibb, "The Arabic Sources for the Life of Saladin," *Speculum*, vol. 25, no. 1 (1950), pp. 58-72; Hamilton Gibb, "The Achievement of Saladin," *Bulletin of the John Rylands Library*, vol. 35 (1952-1953), pp. 44-60; Hamilton Gibb, "Al-Barq al-Shami: The History of Saladin by the Katib 'Imad ad-Din al-Isfahani," *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, vol. 52 (1953), pp. 93-115.

8 Makdis, pp. 133-134.

9 رمضان حميدة محمد أبو علي، "رؤية المستشرق هاملتون جب لمعوقات الوحدة الإسلامية من خلال كتاب وجهة الإسلام: دراسة تحليلية"، *حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة*، مج 1، العدد 33 (2021)، ص 254-202.

حظي إرث جب الأكاديمي بإشادة واسعة، لكنه لم يسلم من الانتقادات، خاصة من منظري ما بعد الاستعمار والاستشراق، أمثال إدوارد سعيد⁽¹⁰⁾؛ فقد رأى بعضهم أن تحليلات جب، رغم عمقها، لم تنفصل تمامًا عن بنية الخطاب الغربي التي تنظر إلى الإسلام من الخارج، وتفترض موقعًا مركزيًا للذات الأوروبية. وقد وصفه عبد الرحمن بدوي بقوله: "نال في حياته العديد من ألقاب التشريف التي لا يستحقها من الناحية العلمية. والحقيقة أن شهرته كانت تفوق قيمته العملية، وأن إنتاجه العلمي أقل بكثير من الشهرة التي حظي بها، وهي شهرة ترجع لأسباب بعيدة كل البعد عن العلم". كما وصف أعماله "بالعموم والسطحية"⁽¹¹⁾. ومع ذلك، يبقى جب واحدًا من الذين ساهموا في تطوير مقاربات أكثر انفتاحًا مقارنةً بأقرانه، وفتح الباب أمام جدل علمي حول أهمية استعادة الرواية الإسلامية ضمن إطار نقدي متوازن. ومن هنا، يكتسب مشروعه أهمية خاصة؛ لأنه يمثل حلقة انتقالية بين الاستشراق التقليدي والاستشراق النقدي المعاصر.

ومع ذلك، فإن جب كان أكثر انفتاحًا على تجاوز هذه البنية من كثير من معاصريه، وتمكّن إلى حد كبير من منح المصادر الإسلامية استقلالاً معرفيًا واحترامًا منهجيًا في إطار البحث العلمي. وقد شكّل مشروعه نموذجًا انتقاليًا بين استشراق كلاسيكي قائم على التفوق المعرفي، واستشراق نقدي يحاول الإنصات إلى أصوات المصادر الإسلامية واحترام منطقها الداخلي. إن استعادة قراءة أعمال جب اليوم، لا تعني القبول بها على علاتها، بل تعني استدعاء سياقها، وفهم مساهمتها، ومساءلتها بمنهجية نقدية ووعي حضاري، يدفعنا إلى إنتاج سرديتنا التاريخية من موقع القوة المعرفية، لا ردّ الفعل. وفي هذا السياق، يمكن تحديد منهجية جب في دراسة الإسلام في ثلاث ركائز رئيسية: أولها، اعتماده على المصادر الإسلامية الأصلية، حيث تجاوز الروايات الغربية السطحية وحرص على دراسة النصوص التاريخية والفقهية التي كتبها المسلمون أنفسهم. وثانيها، ربطه الدقيق بين النص والسياق؛ إذ كان يرى أن الأدب والتاريخ الإسلامي لا يمكن فهمهما بمعزل عن الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أفرزهما. وثالثها، نقده المتوازن للرؤية الاستشراقية التقليدية؛ فقد سعى إلى تجاوز الصورة النمطية التي اختزلت الإسلام وعدّته حضارة راكدة، ليقدّم تصورًا أكثر عدالة يعترف بالحيوية والتطور داخل المجتمعات الإسلامية.

وبناءً على هذه المنهجية، يمكن تصنيف أعمال جب ضمن محورين رئيسيين؛ أولهما محور التاريخ العربي الإسلامي، الذي لم تقتصر أبحاثه فيه على عصور الإسلام الوسيطة فحسب، بل امتدت أيضًا لتشمل دراسة المجتمعات الإسلامية في عصورها الحديثة. وثانيهما، محور الأدب العربي، حيث درس التراث الأدبي العربي، متبّعًا تطوره وأساليبه ورموزه، في إطار فهم شامل لتاريخ الفكر العربي. وعلى الرغم من أن الهدف من هذا العرض هو تسليط الضوء على إسهامات جب في مجال التاريخ العربي الإسلامي وعصر الحروب الصليبية، فإنه سيتم الإشارة إلى أعماله الأخرى التي تجسد رؤيته ومعرفته بالثقافة العربية والإسلامية.

ثالثًا: العمل الموسوعي لجب "دراسات في حضارة الإسلام"

لم يقتصر اهتمام جب على دراسة النصوص الدينية والتاريخية بمعزل عن سياقاتها، بل سعى لفهم العلاقة الديناميكية بين النصوص والمجتمعات التي أنتجتها. وتجلّى هذا المزج بين التحليل النصي والدراسة التاريخية بوضوح في عمله الموسوعي **دراسات**

10 صدرت مئات الأعمال التي تناولت الاستشراق بأبعاده المتعددة والمتشابكة في مختلف فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية. وللإطلاع على بعض من أبرز هذه الدراسات، يمكن الاسترشاد بالمراجع التالية: إدوارد سعيد، **الاستشراق: المفاهيم الغربية عن الشرق**، ترجمة محمد عناني (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006)؛ مصطفى السباعي، **الاستشراق والمستشرقون: ما لهم وما عليهم** (القاهرة: دار الوراق، [د.ت.]): أحمد درويش، **الاستشراق الفرنسي والأدب العربي (دراسات أدبية)** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997)؛ بدوي: عبد الحميد عبد المنعم مذكور، **نظرات في حركة الاستشراق** (القاهرة، دار الثقافة، 1990)؛ رودي باريت، **الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه**، ترجمة مصطفى ماهر (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967).

11 بدوي، ص 173-174؛ عوض، **الحروب الصليبية في مؤلفات المؤرخين الغربيين المحدثين**، ص 134.

في **حضارة الإسلام**⁽¹²⁾، الذي يُعدّ خلاصة جهوده العلمية في مجال الدراسات الإسلامية. يضم هذا الكتاب مجموعة واسعة من المقالات التي كتبها جب ونشرها في الفترة 1928-1960، في دوريات ومنشورات أكاديمية متنوعة. وقد حرص على إعادة نشرها مع إجراء تعديلات طفيفة وتصحيح بعض الأخطاء المطبعية؛ وهذا ما يعكس حرصه على تطويرها وحضورها بين أجيال مختلفة.

في مقدمة **دراسات في حضارة الإسلام**، يوضح جب رؤيته المنهجية بعبارة: "إذا كانت [هذه المقالات أو الفصول] تمتلك أي نوع من الوحدة، فإن هذه الوحدة قد فُرضت نتيجة اقتناع متزايد على مدار الوقت بأن الأدب والتاريخ، باعتبارهما تعبيرين عن مجتمع نابض بالحياة، لا يمكن تناولهما بالدراسة على نحو منفصل من دون تشويه جوهر الواقع الأساسي"⁽¹³⁾. تجسد هذه العبارة جوهر منهج جب الذي يجمع بين الدراسة النصية والتحليل التاريخي؛ وهو ما يجعل هذا الكتاب مرجعاً فريداً في فهم الحضارة الإسلامية لدى الغربيين على الأقل. ويعكس الكتاب هذا المنهج، من خلال تقسيمه إلى ثلاثة أقسام رئيسة؛ تناول القسم الأول التاريخ الإسلامي الوسيط، محللاً تطوّر الفكر السياسي والديني في العصرين الأموي والعباسي، ومسلطاً الضوء على العلاقات العربية - البيزنطية وتأثيرها في تشكيل الحضارة الإسلامية. أما القسم الثاني، فيركز على تطور الفكر الديني الإسلامي، مستعرضاً نظريات الخلافة السنيّة ودور التصوّف في تشكيل الروحانية الإسلامية. ويتناول القسم الثالث الأدب العربي والفكر الحديث، متتبّعاً التفاعل بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

وقد بدأ جب هذا العمل بدراسة محورية بعنوان "تفسير التاريخ الإسلامي"⁽¹⁴⁾، حيث قدّم فيها قراءة تحليلية لطبيعة التاريخ الإسلامي، مسلطاً الضوء على العوامل المؤثرة في تطوره. وينطلق من التساؤل عن كيفية تشكّل التاريخ الإسلامي في ضوء المصادر الإسلامية المبكرة، مع التركيز على الديناميكيات الاجتماعية والسياسية التي أسهمت في تطور هذا التاريخ. ويشير إلى أن التاريخ الإسلامي لا يمكن فهمه بمعزل عن السياقين الاجتماعي والسياسي اللذين نشأ فيهما، ويؤكد ضرورة الربط بين النصوص الدينية والتاريخية، والوقائع العملية التي عاشها المسلمون. ويستعرض التطور التاريخي منذ ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية إلى توسع الدولة الإسلامية في العصور اللاحقة، مع التركيز على الصراعات الداخلية والخارجية التي أثرت في هذا المسار. ويرى أن التاريخ الإسلامي لم يكن مجرد سلسلة من الأحداث، بل هو تطور مستمر للقيم والمفاهيم التي شكلت الحضارة الإسلامية.

وفي سياق تفسير جب لتشابكات التاريخ الإسلامي ونظمه، درس "نظام الحكم في الفترة المبكرة من الإسلام"⁽¹⁵⁾، حيث استعرض مراحل تطوّر نظام الحكم الإسلامي منذ عهد النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، مروراً بالخلافة الراشدة، وصولاً إلى العهد الأموي. يبدأ جب بتناول نظام الشورى الذي اعتمد عليه الخلفاء الراشدون، مبيّناً تطوّر هذا النظام؛ فقد كان نموذجاً بسيطاً للتشاور، ثم أصبح نظاماً مركزياً معقّداً في العهد الأموي. ويوضح أيضاً أن هذا التطور كان نتيجة عدة عوامل، من بينها التوسع الجغرافي للدولة الإسلامية، وزيادة التحديات السياسية والعسكرية التي واجهتها. ويناقش دور الخلفاء في إدارة الدولة وتطوير نظام القضاء والضرائب والجيش، مؤكداً أن هذا النظام لم يكن ثابتاً، بل كان خاضعاً للتغيير والتطوير المستمر. واعتمد في تحليله على مجموعة من المصادر التاريخية، مثل كتب التراث الإسلامي، والمصادر البيزنطية والفارسية؛ وهو ما يعكس نظرته الشاملة إلى التاريخ الإسلامي.

12 Hamilton Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, Stanford J. Shaw & William R. Polk (eds.) (Princeton: Princeton University Press, 1962), pp. xiv, 369;

ينظر ترجمته: هاملتون جب، **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة إحسان عباس ومحمد نجم ومحمود زايد (بيروت: دار العلم للملايين، 1979).

13 Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, p. 9.

14 Hamilton Gibb, "An interpretation of Islamic History," in: Ibid., pp. 3-33.

15 Hamilton Gibb, "Evolution of Government in Early Islam," in: Ibid., pp. 34-46; Hamilton Gibb, "Government and Islam under the Early 'Abbasids. The Political Collapse of Islam," in: Hamilton Gibb (ed.), *L'élaboration de l'Islam* (Paris: Maisonneuve & Larose, 1961), pp. 115-127.

وواصل جب اهتمامه بالعلاقات الدولية في فترة الخلافة الأموية، فكتب دراسة بعنوان "العلاقات العربية البيزنطية في عهد الخلافة الأموية" ⁽¹⁶⁾، موضحاً أن هذه العلاقات لم تكن مقتصرة على الصراع العسكري، بل تضمنت أيضاً جوانب دبلوماسية وتجارية وثقافية. يبدأ جب بتحليل الأسباب الجغرافية والسياسية التي جعلت العلاقات بين الدولتين معقدة ومتداخلة، مشيراً إلى أن الصراع العسكري كان جزءاً من تفاعل أوسع بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية. ويتناول الحملات العسكرية المتبادلة، والتحالفات السياسية، وتأثير التبادل الثقافي بين الطرفين. ويشير إلى أن هذه العلاقات أثّرت في تطور الفكر السياسي والعسكري في الدولة الأموية، وقد اعتمد في تحليله على عدد من المصادر التاريخية الإسلامية والبيزنطية؛ وبهذا قدم رؤية متوازنة.

وناقش جب "الأهمية الاجتماعية للشعبوية" ⁽¹⁷⁾، وهي الحركة الفكرية والاجتماعية التي ظهرت في العهد العباسي، والتي عبرت عن رغبة غير العرب من المسلمين في تأكيد مكانتهم الثقافية والاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي. يبدأ جب بدراسة أصول هذه الحركة، موضحاً أنها لم تكن رد فعل اجتماعي فحسب، بل كانت أيضاً تعبيراً عن شعور بالهوية الثقافية لدى الفرس وغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام. ويوضح أن الشعبوية لم تكن حركة واحدة، بل مجموعة متنوعة من التيارات الفكرية التي اختلفت في أهدافها ووسائلها. ويناقش تأثير هذه الحركة في الأدب والفكر الإسلامي، مشيراً إلى أنها أسهمت في إثراء الثقافة الإسلامية، وأدت إلى ظهور أدب جدلي بين العرب وغير العرب داخل الدولة الإسلامية، وأظهرت التوترات الاجتماعية والثقافية التي نشأت نتيجة التوسع الإمبراطوري للإسلام.

ثم توجّه جب إلى دراسة شخصية الأيوبي في فصلين رئيسيين، ستم مناقشتها ضمن أعماله عن الحروب الصليبية في الصفحات التالية. أما مقالته بعنوان "تاريخ" ⁽¹⁸⁾، فيكرّسها لدراسة الهيستوريوغرافيا الإسلامية، متناولاً تطور علم التاريخ في العالم الإسلامي، ومسلطاً الضوء على مسيرة الكتابة التاريخية من بداياتها الشفوية إلى مراحلها المكتوبة الأكثر تنظيمًا. ويوضح أن التاريخ الإسلامي في مرحله الأولى كان امتداداً للتقاليد الشفوية، حيث اعتمد على نقل الأخبار والسير، ثم تطور مع ظهور المؤرخين الأوائل، مثل عروة بن الزبير وابن إسحاق، الذين ركزوا على السيرة النبوية. وفي العصر العباسي، شهد التاريخ تطوراً نوعياً مع ظهور مؤرخين، مثل محمد بن جرير الطبري وأحمد بن يحيى البلاذري، الذين اعتمدوا على منهجية أكثر تنظيمًا ودقة في تصنيف الأحداث وتحليلها. يبرز جب أن هذا التحول لم يكن تطوراً تقنياً فحسب، بل كان أيضاً نتيجة لتفاعل بين الدين والمجتمع؛ إذ أدّى الفقهاء والعلماء دوراً محورياً في صياغة التاريخ وتوجيه تفسيره. ومع انتقال التاريخ إلى مرحلة أكثر نضجاً في العصور المتأخرة، ظهرت أعمال مؤرخين كبار، مثل إسماعيل بن أحمد ابن الأثير، وابن خلدون، وأحمد بن علي المقريزي، الذين ربطوا بين التاريخ والفلسفة الاجتماعية؛ فأتاح لهم ذلك فهماً أعمق للتاريخ الإسلامي بصفته ظاهرة اجتماعية وثقافية. يرى جب أن الكتابة التاريخية في الإسلام لم تكن تسجيلاً للأحداث فحسب، بل كانت أيضاً انعكاساً لتطور الفكر والمجتمع الإسلامي عبر العصور.

ثم ينتقل جب إلى معالجة قضية محورية في الفكر السياسي الإسلامي من خلال مقالته "بعض الاعتبارات حول نظرية الخلافة السنية"، حيث يقدم قراءة تحليلية للنظرية السنية في مفهوم الخلافة، التي تشكل أساس النظام السياسي الإسلامي التقليدي ⁽¹⁹⁾. ويبدأ بتوضيح أصول هذه النظرية في عهد الخلفاء الراشدين، وتطورها حتى أصبحت إطاراً قانونياً ودينياً ينظم علاقة الخليفة بالأمة الإسلامية. ويناقش المصادر الفقهية والفكرية التي اعتمدت عليها هذه النظرية، مثل كتابات الفقهاء الكبار كالإمام الماوردي في **الأحكام السلطانية**. ثم يتناول تأثير هذه

16 Hamilton Gibb, "Arab-Byzantine Relations under the Umayyad Caliphate," in: Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, pp. 47-61.

17 Hamilton Gibb, "The Social Significance of the Shuubiya," in: Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, pp. 62-73.

18 Ibid., pp. 108-139.

19 Hamilton Gibb, "Some Considerations on the Sunni Theory of the Caliphate," in: Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, pp. 141-150.

النظرية في تعزيز مشروعية الخلفاء، موضحاً استخدام الخلفاء العباسيين هذه النظرية من أجل تأكيد سلطتهم الدينية والسياسية، على الرغم من أنهم فقدوا السيطرة الفعلية على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي. ثمّ يستعرض التحديات التي واجهتها هذه النظرية، بدءاً من ظهور الحركات الشيعية التي رفضت شرعية الخلفاء السنة، وصولاً إلى الحركات الصوفية التي قدمت مفهوماً روحانياً للسلطة.

وفي امتداد لهذا الطرح، ناقش جب "نظرية الخلافة عند الإمام الماوردي، حيث يعرض رؤية الإمام الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (364-450هـ / 974-1058م) لنظام الخلافة، مستنداً إلى كتابه **الأحكام السلطانية**⁽²⁰⁾. يبدأ بتعريف الماوردي وسياق حياته في العصر العباسي، ثمّ يستعرض رؤيته لنظام الخلافة كما قدمها في كتابه الشهير **الأحكام السلطانية**. يوضح جب أن الماوردي قدّم رؤية مؤسسية للخلافة، محاولاً تنظيمها على نحو قانوني ودستوري، محدداً شروط الخليفة وواجباته، والعلاقة بينه وبين الأمة. ويستعرض كيفية تأثير رؤية الماوردي بالواقع السياسي في عصره، حيث كانت السلطة الفعلية في يد السلاطين والأمراء، بينما كان الخلفاء العباسيون يمثلون سلطة رمزية دينية. ويشير إلى أن الماوردي حاول من خلال نظريته إعادة إحياء مكانة الخلافة بصفتها سلطة جامعة للمسلمين، مؤكداً أن الخلافة ليست مجرد نظام حكم، بل هي مؤسسة دينية وسياسية في آن واحد.

ثمّ يُعيد جب طرح رؤيته للفكر السياسي لابن خلدون في مقالته "الإطار الإسلامي لنظرية ابن خلدون السياسية"⁽²¹⁾. ويبدأ بتحليل السياق التاريخي الذي عاش فيه ابن خلدون، مشيراً إلى أن تجربته السياسية ومشاهداته المباشرة للصراعات السياسية والاجتماعية في شمال أفريقيا أثرت كثيراً في رؤيته الفلسفية. ثمّ يستعرض نجاح ابن خلدون في صياغة نظرية سياسية تجمع بين الفلسفة الإسلامية والواقع الاجتماعي، موضحاً أن نظريته في العصبية لم تكن تأملاً نظرياً فحسب، بل كانت أيضاً محاولة لفهم الديناميكيات الاجتماعية والسياسية التي حكمت العالم الإسلامي. ويوضح أن ابن خلدون لم يكن مؤرخاً يسجل الوقائع فحسب، بل كان أيضاً مفكراً ناقداً، قادراً على تحليل طبيعة السلطة، ودور الدين في توجيه المجتمعات، والتفاعل بين السياسة والاقتصاد، ويفسر طريقة تشكيل رؤيته مرجعاً لفهم التاريخ والسياسة في العالم الإسلامي.

وفي قراءة للفكر الإسلامي عامة، سطر جب فصلاً جديداً بعنوان "هيكل الفكر الديني في الإسلام" *The Structure of Religious Thought in Islam*⁽²²⁾، مستعرضاً المكونات الأساسية للعقيدة الإسلامية، ومحللاً تطور الفكر الديني من عصر الصحابة إلى العصور المتأخرة. ووضّح أن الفكر الديني في الإسلام لم يكن أحادي البعد، بل شهد تطورات مستمرة، وتأثر بمختلف المدارس الفكرية، مثل الأشعرية والمعتزلة والتصوّف. كما عرض تطوّر العقيدة الإسلامية من التفسير البسيط للنصوص في العصور المبكرة إلى منظومة فلسفية معقدة في العصور اللاحقة، مشيراً إلى تأثير الفلسفة اليونانية في الفكر الإسلامي، خاصة في مجال علم الكلام. وناقش دور العلماء والفقهاء في صياغة المعتقدات الدينية، وكذلك دورهم في الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية. وفي هذا الإطار، رأى أن الفكر الديني في الإسلام ليس مجموعة من العقائد الجامدة، بل هو منظومة حيّة تعبّر عن تفاعل المجتمع الإسلامي مع التحديات الفكرية والدينية التي واجهها عبر تاريخه.

واختتم جب عمله بمقالة عنوانها "خواطر في الأدب العربي"⁽²³⁾، قدّم فيها قراءة تحليلية لتطور الأدب العربي، بدءاً من الشعر الجاهلي وصولاً إلى الأدب الحديث. وسلط الضوء على العلاقة بين الأدب والواقع الاجتماعي، موضحاً أن الأدب العربي مرآة عاكسة للتجربة الإنسانية في العالم الإسلامي، ومنصة للتعبير عن القيم الثقافية والدينية. واستعرض أصول النثر في الأدب العربي، موضحاً

20 Hamilton Gibb, "Al-Mawardi's Theory of the Caliphate," in: Ibid., pp. 151-165.

21 Hamilton Gibb, "The Islamic Background of Ibn Khaldun's Political Theory," in: Ibid., pp. 166-175.

22 Hamilton Gibb, "The Structure of Religious Thought in Islam," in: Ibid., pp. 176-218.

23 Hamilton Gibb, "Reflections on Arabic Literature," in: Ibid., pp. 219-244.

انتقال الأخير من الطابع الشفوي إلى الكتابة، وتطور تقنيات السرد والنثر بمرور الزمن. وسلط الضوء على دور الأدب الحكائي والرسائل الأدبية في تشكيل الأسلوب النثري، وبين تأثير هذا النثر بالثقافات الفارسية واليونانية بعد الفتوحات الإسلامية، وهذا أسهم في إثراء اللغة والأساليب الأدبية. كما حلل كيفية تطور الأسلوب الأدبي من البساطة والوضوح في الأدب الجاهلي إلى التكلف البلاغي في الأدب العباسي، ومن ثم العودة إلى الأسلوب البسيط والمتزن في الأدب الأندلسي. وعرض أمثلة من كتابات كبار الأدباء، مثل الجاحظ وابن المقفع، موضحاً تأثير مدارس الفكر الأدبي المختلفة، مثل مدرسة بغداد ومدرسة الأندلس، في تشكيل الأسلوب الأدبي العربي، فتطور الأدب العربي لم يكن عملية لغوية أو فنية فحسب، بل كان أيضاً انعكاساً للتغيرات الاجتماعية والفكرية التي شهدها العالم الإسلامي، فالأدب العربي كان دائماً مرآة تعكس أحوال المجتمع ومعتقداته وقيمه.

شكلت هذه المقالات موسوعة **دراسات في حضارة الإسلام**، وقد أثبت جب فيها أنه دارس متمرس، وقادر على الجمع بين التحليل التاريخي والنقد الأدبي والفلسفي؛ وهذا منح دراساته عمقاً وشمولاً يتجاوز الحدود التقليدية للاستشراق. وقد سعى لتجاوز النظرة الاستشراقية التقليدية التي تركز على النصوص بمعزل عن سياقاتها الاجتماعية والسياسية، مؤكداً أن دراسة الحضارة الإسلامية لا تكتمل إلا من خلال فهم تفاعل النصوص مع المجتمعات التي أنتجتها.

رابعاً: الإسلام في دراسات جب: التاريخ، والفكر، والأدب

على الرغم من تنوع الموضوعات التي تناولها جب في كتابه **دراسات في حضارة الإسلام**، فإن إسهاماته لم تقتصر على هذا العمل، بل امتدت لتشمل طيفاً واسعاً من الدراسات المستقلة، سواء في شكل كتب منفردة أو مقالات علمية وموسوعية. ومن بين أبرز هذه الأعمال كتابه **الفتوحات العربية في آسيا الوسطى**⁽²⁴⁾، الذي يعود في أصله إلى رسالة الماجستير التي تقدم بها إلى جامعة لندن عام 1921، بعنوان "الفتوحات العربية في بلاد ما وراء النهر" "The Arab Conquest of Transoxiana". وعلى الرغم من أن الكتاب لا يتجاوز مئة صفحة، فإنه قدّم عرضاً تحليلياً دقيقاً لمسار التوسع العربي في منطقة آسيا الوسطى، موضحاً سيطرة العرب على حوضي نهري جيحون وسيحون بحلول عام 741م. يتكوّن الكتاب من خمسة فصول، إضافة إلى مقدمة وببليوغرافيا، ويُعدّ من أولى الدراسات الغربية التي تناولت هذا الموضوع بمنهج نقدي يعتمد بالأساس على المصادر العربية، مع توظيف بعض المصادر الصينية المتاحة.

تناول جب المراحل الأولى من الفتح الإسلامي التي أعقبت معركة نهاوند، مسلطاً الضوء على جهود عبد الله بن عامر في التقدّم نحو طخارستان، وعلى طبيعة المقاومة غير الموحدة التي واجهها العرب من بقايا الساسانيين وبعض الأسر الفارسية. وبرز جب، في أثناء تحليل المرحلة المفصلية من الفتح، دور قتيبة بن مسلم الباهلي، مشيراً إلى استراتيجيته التي جمعت بين الحسم العسكري والتحالفات السياسية، ولا سيما في مدن محورية مثل بخارى وسمرقند. ويتتبع في فصول لاحقة مسار الفتح العربي في ظل الرد التركي، متناولاً مقاومة القبائل التركية في المنطقة (الترك الشرقيين)، ثم يركّز في الفصل الأخير على إعادة تثبيت السيطرة الأموية بعد نكسات مؤقتة، متابعاً تحولات المشهد السياسي حتى أواخر العصر الأموي، مؤكداً أن الفتح لم يكن مساراً خطياً أو موحداً، بل كان معقداً ومتأثراً بالبنى الاجتماعية والسياسية المحلية. ويُعدّ الكتاب نموذجاً مميزاً في الدراسات التاريخية الاستشراقية، يتجاوز التعميمات، ويجمع بين تحليل المصادر وتقديم رؤية تاريخية بالتعقيدات السياسية والعسكرية والجغرافية للفتوحات الإسلامية في آسيا في تلك الفترة⁽²⁵⁾.

24 Hamilton Gibb, *The Arab Conquests in Central Asia*, James G. Forlong Fund, vol. II (London: Royal Asiatic Society, 1923).

25 للمزيد عن هذا العمل لجب، ينظر عرض أرنولد توينبي:

Arnold J. Toynbee, "The Arab Conquests in Central Asia by H. A. R. Gibb," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 2, no. 4 (1923), pp. 650-652.

وجّه جب اهتمامه في باكورة حياته الأكاديمية في الفترة 1926-1933 إلى دراسة الأدب العربي، مُدرّكاً أهميته بصفته مفتاحاً لفهم الثقافة والفكر العربيين. وأصدر كتيباً موجزاً موجهاً إلى القارئ الإنكليزي الباحث عن معرفة عامة حول الأدب العربي، قدّم فيه لمحة تعريفية عن تاريخ الأدب العربي وتطوره، تمثّل مدخلاً يسيّر للقارئ الغربي⁽²⁶⁾. لكن شغف جب بالأدب العربي لم يتوقف عند هذا الكتيب، بل تجلّى في سلسلة من المقالات التحليلية التي نشرها عبر مطبعة مدرسة الدراسات الشرقية والتي بدأها بمقالة عن الأدب العربي في القرن التاسع عشر. وفي عام 1929، عمّق جب هذا الاهتمام بمقالة عنوانها "المنفلوطي والأسلوب الجديد"، حيث قدم قراءة نقدية لدور المنفلوطي في تحديث اللغة الأدبية وإبداع أسلوب جديد جذب شرائح واسعة من القراء العرب، متبعاً ذلك بدراسة حول "المجددين المصريين"، محللاً حركتهم الفكرية وتأثيرهم في نهضة الأدب العربي الحديث في القرن التاسع عشر. وجاءت خاتمة هذه السلسلة في عام 1933، بمقالة عن "القصة المصرية"، حيث استعرض تطورها الأدبي في مصر الحديثة⁽²⁷⁾.

وبعد أن استعرض جب الأدب العربي الحديث، كتب مقالة بعنوان "التوحيد قبل الإسلام في الجزيرة العربية"، ساعياً لاستكشاف جذور الفكر الديني التوحيدي في مجتمع العرب قبل الإسلام⁽²⁸⁾. وناقش كيفية تطور المعتقدات التوحيدية في الجزيرة العربية وتأثيرها في التقاليد الدينية السابقة للإسلام، فالفكر الديني العربي لم يكن معزولاً عن السياقات الثقافية المحيطة، بل تأثر كثيراً بالتفاعلات الحضارية مع الثقافات اليهودية والمسيحية في المنطقة. وشكّلت هذه العناصر التوحيدية جزءاً من البيئة الفكرية التي ساهمت في استقبال الرسالة الإسلامية وتطوّرها.

وفي محاولة لتقديم فهم أعمق عن مصادر تاريخ الإسلام المبكر، كتب جب مقالة بعنوان "كتب السير في الإسلام" نُشرت ضمن مجموعة دراسات بعنوان "مؤرّخو الشرق الأوسط"، وقد حررها بيتر هولت وبرنارد لويس⁽²⁹⁾. إلا أن كتابه **المحمدية Mohammedanism**⁽³⁰⁾، يُعدّ واحداً من أهم أعماله وأكثرها تأثيراً؛ إذ قدم فيه دراسة موجزة وشاملة عن دين الإسلام، مع تسليط الضوء على دور الإسلام بصفته قوة دافعة في تشكيل الهوية الثقافية والسياسية للعالم الإسلامي. ويُعدّ هذا الكتاب مدخلاً أساسياً للقراء الغربيين لفهم الإسلام، خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ يتناول عدة مواضيع عن الإسلام وتطوره عبر التاريخ، وهو مقسم إلى فصول أساسية تشمل مختلف الجوانب الدينية والتاريخية والفكرية. ويبدأ بمقدمة يعقبها، في الفصل الأول، استعراض توسع الإسلام جغرافياً وثقافياً. ويناقش الفصل الثاني حياة النبي محمد ودوره المحوري في نشأة الدين الإسلامي. ويتناول الفصل الثالث القرآن الكريم من حيث هو كتاب مقدس ومصدر أساسي للتشريع. ويتناول الفصل الرابع العقيدة والطقوس كما وردت في القرآن الكريم، وهذا يبرز الجوانب العملية للإيمان الإسلامي. ويركز الفصل الخامس على السنة النبوية ودورها في توجيه المسلمين. ويشرح الفصل السادس الشريعة الإسلامية بصفقتها مصدرًا للقوانين والأحكام الشرعية. ويعالج الفصل السابع الانقسامات العقائدية بين المذاهب الإسلامية المختلفة. أما الفصلان الثامن والتاسع فيناقشان التصوف الإسلامي، بصفته حركة روحية، والسلوكيات التي تتبعها الطوائف الصوفية. أخيراً، يناقش الفصل العاشر الإسلام في العصر الحديث، مع التركيز على التحديات والتغيرات التي يواجهها في عصر الاستعمار الأوروبي للعالم العربي.

26 Hamilton Gibb, *Arabic Literature: An Introduction* (Oxford: Clarendon Press, 1963).

27 بدوي، ص 174.

28 Hamilton Gibb, "Pre-Islamic Monotheism in Arabia," *The Harvard Theological Review*, vol. 55, no. 4 (1962), pp. 269-280.

29 Bernard Lewis & Peter Malcolm Holt (eds.), *Historians of the Middle East*, vol. 4 of *Historical Writing on the Peoples of Asia* (London/ New York: Oxford University Press, 1962).

30 Hamilton Gibb, *Mohammedanism: An Historical Survey*, 2nd ed. (London/ New York: Oxford University Press, 1962).

إن اختيار جب مصطلح "المحمدية" عنواناً في بعض دراساته قد أثار جدلاً واسعاً، نظراً إلى أن هذا المصطلح يركّز على شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، متجاهلاً طبيعة الإسلام ديناً شاملاً يحمل منظومة عقائدية وأخلاقية متكاملة. ثم إن هذا الاختيار يعكس رؤية استشراقية تقليدية، تُحتزل فيها الحضارة الإسلامية في شخص النبي محمد؛ وهذا قد يوحي بأن الإسلام دين بشري مرتبط بفرد، في حين أنه رسالة إلهية عالمية. ومع ذلك، يمكن النظر إلى هذا الاختيار من زاوية أخرى؛ إذ ربما كان جب يسعى لجذب انتباه القارئ الغربي، الذي قد يجد في هذا المصطلح مدخلاً لفهم العلاقة بين النبي محمد ودينه، مع التركيز على الأثر العميق الذي تركه النبي في تشكيل الفكر والمجتمع الإسلامي. دمج جب في منهجيته بين النظرة الأوروبية الاستشراقية - التي اعتادت دراسة الإسلام من خلال شخص النبي - ومعرفته الأكاديمية العميقة بالتاريخ الإسلامي. لكن هذا الدمج لم يكن خالياً من التحديات؛ إذ ظهر في بعض الأحيان كأنه يعيد إنتاج النظرة الاستشراقية التقليدية، وإن حاول تجاوزها.

وقد انخرط جب أيضاً في مشروع جدّ مهم؛ وهو تحرير النسخة الثانية من **موسوعة الإسلام** التي امتدت فترة إصدارها بين عامي 1960 و2004⁽³¹⁾، وهي واحدة من أبرز المراجع الأكاديمية العالمية في الدراسات الإسلامية. وقد تعاون مع نخبة من المستشرقين البارزين، مثل يوهانس كرامرز Johannes Kramers وإيفاريست ليفي-بروفنسال Évariste Lévi - Provençal، وجوزيف شاخت Joseph Schach، للمساهمة في تطوير هذه الموسوعة. وقد شملت إسهاماته مقالات موسوعية عميقة، تناولت الشخصيات التاريخية البارزة، والمفاهيم الدينية، والمؤسسات الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي، وكذلك تناولت مقالات فلسفية مثل مقالاته عن الأخلاق الإسلامية⁽³²⁾.

وفي تتبّع آخر للتيارات الفكرية في العالم الإسلامي، كتب جب مؤلفه **اتجاهات حديثة في الإسلام Modern Trends in Islam** الذي صدر عام 1947⁽³³⁾، وقد تناول فيه الحركات الإصلاحية والأفكار الجديدة التي ظهرت في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ناقش الكتاب العلاقة بين التقاليد الإسلامية ومحاولات التجديد، وحلل تأثير الفكر الغربي في المجتمعات الإسلامية؛ وهذا ما جعله مرجعاً مهماً لفهم الحراك الفكري في تلك الفترة. واستمرراً لهذا التوجه، واصل كتابته عن الإسلام رابطاً بين تاريخ الإسلام المبكر مروراً بالعصور الوسطى والأحوال خلال العصور الحديثة، خاصة خلال الحكم العثماني، وذلك في كتابه المشترك مع هارولد بوين بعنوان **المجتمع الإسلامي والغرب: المجتمع الإسلامي في القرن الثامن عشر**⁽³⁴⁾، وهو كتاب ضخيم صدر في جزأين، يُركّز على دراسة المجتمع الإسلامي في القرن الثامن عشر، وهي فترة اعتبرها المؤلفان انتقالية ومهمة لفهم التحولات الكبرى التي سبقت التغلغل الغربي في العالم الإسلامي.

ويقدم الجزء الأول تحليلاً شاملاً للهيكل الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية السائدة في المجتمعات الإسلامية العثمانية والعربية، قبيل التدخل المباشر للغرب. في حين صدر الجزء الثاني **التحولات السياسية والاستعمار الأوروبي في عام 1957**⁽³⁵⁾، وقد تمحور حول دراسة تأثير القوى الإمبريالية الأوروبية في العالم الإسلامي. يوضح هذا الجزء أن القرن التاسع عشر شهد تغييرات كبيرة في بنية المجتمع الإسلامي بسبب التدخل الأوروبي، مثل: إصلاحات التنظيمات العثمانية، وتأثير الاقتصاد الرأسمالي العالمي،

31 Hamilton Gibb et al. (eds.), *The Encyclopaedia of Islam* (Leiden: Brill, 1960–2004).

32 Hamilton Gibb & Richard Walzer, "Akhlaq," in: *Encyclopédie de l'Islam*, Pt. 1 (1960), pp. 335-339

33 Hamilton Gibb, *Modern Trends in Islam* (Chicago, IL: Chicago University Press, 1947).

34 H. A. R. Gibb & Harold Bowen, *Islamic Society and the West*. vol. I: *Islamic Society in the Eighteenth Century*, Part I (Oxford: Oxford University Press, 1950), p. 386.

35 H. A. R. Gibb & Harold Bowen, *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*. vol. I, *Islamic Society in the Eighteenth Century*, Part II (New York: Oxford University Press, 1957), p. 285.

والنزاعات الناتجة من سقوط الخلافة العثمانية. ويقدم أيضًا رؤية مقارنة بين مختلف الدول العربية والتركية؛ وهذا يعكس فهمًا عميقًا للمتغيرات الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي في تلك المرحلة الحرجة، والتي تبعها سيطرة أوروبية استعمارية لعدة مناطق في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي.

ويمثّل هذا العمل محاولة لفهم السياق التاريخي الذي سبق الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، ويفسّر كيفية تشكّل هذا العالم اجتماعيًا وثقافيًا في لحظة حرجية من تاريخه. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة إليه، بوصفه جزءًا من المشروع الاستشراقي، فإنه لا يزال مرجعًا ثريًا في الدراسات التاريخية والاجتماعية عن الإسلام في العصر الحديث. ومع ذلك، لا يمكن إغفال البعد السياسي لهذا الإنتاج العلمي؛ فقد جاء في سياق استشراقي مرتبط بالمشروع الإمبريالي الأوروبي، حيث استُخدمت المعرفة الدقيقة عن المجتمعات الإسلامية وسيلةً لتمكين السيطرة السياسية والعسكرية عليها. ومن ثم، استمر تأثير هذا الاستعمار في شكل استعمار فكري وثقافي عميق، لم يتوقف حتى بعد انتهاء الاحتلال العسكري. إن كتاب **المجتمع الإسلامي والغرب** ليس دراسة أكاديمية، بقدر ما هو شهادة على كيفية توظيف المعرفة العلمية لخدمة المصالح الإمبريالية. وعلى الرغم مما لهذا الكتاب من قيمة علمية، فإنه يظل جزءًا من سياق تاريخي أكبر، كان فيه العلم أداة لفهم الآخر بهدف الهيمنة عليه؛ وهذا يستدعي قراءة نقدية تبحث في تأثيرات هذا الإرث الاستشراقي في الدراسات الحديثة.

ولم يقتصر إسهام جب على التأليف فقط، بل امتد أيضًا إلى ترجمة المصادر الإسلامية المهمة إلى اللغة الإنكليزية؛ فقد تولى ترجمة وتحقيق واحدة من أبرز الرحلات في التاريخ الإسلامي، وهي رحلة "ابن بطوطة" (36). نُشرت هذه الترجمة، تحت إشراف تشارلز بكينغهام Charles Beckingham أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعتي مانشستر (1958-1965) ولندن (1965-1981)، في أربعة مجلدات. أولى جب اهتمامًا خاصًا لتحقيق النصوص الأصلية لرحلة ابن بطوطة، مع إضافة ملاحظات وشروح تاريخية وجغرافية دقيقة؛ وهذا ما جعله يعيد تقديم النص في سياقه الثقافي والاجتماعي. وركّز على توضيح المواقع والأحداث التي أشار إليها ابن بطوطة في رحلته؛ فأضفى عمقًا على الترجمة، وأتاح فهمًا أكثر شمولًا لعالم القرن الرابع عشر. يمثّل هذا العمل إضافة مرجعية فريدة إلى الدراسات الاستشراقية الغربية؛ ذلك أنه يُبرز رؤية ابن بطوطة للعالم الإسلامي وأجزاء من آسيا وأفريقيا، وعلاقاتها بأوروبا. وقد أتاح هذا المشروع للدارسين الغربيين نافذة جديدة، لفهم التداخل الثقافي بين الشرق الإسلامي وامتداده الجغرافي الواسع. ويعدّ الكتاب نموذجًا في تحقيق النصوص الكلاسيكية، ويظهر الجهد العلمي المبذول في تحليل النصوص ومقارنتها بمصادر تاريخية أخرى، ويجسّد رؤية أكاديمية متميزة لدراسة التراث الإسلامي وفهم التاريخ والجغرافيا الثقافية والاجتماعية للعالم الإسلامي في العصور الوسطى.

ولم يغفل جب دور الحضارة الإسلامية في صياغة التراث الأوروبي، فقد تناول ذلك في دراسته "تأثير الثقافة الإسلامية في أوروبا في العصور الوسطى" (37)، مع التركيز على تأثيراتها الفكرية والعلمية؛ فالثقافة الإسلامية في العصور الوسطى كانت نتاج تفاعل شعوب متعددة، فقد استمدت وحدتها من الإسلام واللغة العربية. ولم تكن حكرًا على العرب، بل شاركت فيها شعوب مختلفة مثل الفرس والبيزنطيين واليهود. ولم يتجلب تأثير الثقافة الإسلامية في أوروبا في نقل المعرفة فحسب، بل كان أيضًا تفاعلًا ثقافيًا؛ فلم تكتفِ أوروبا بنقل المعارف الإسلامية في مجالات الطب والفلسفة والعلوم الطبيعية، بل أعادت صياغتها لتلائم سياقاتها الفكرية. وهذا التأثير كان جزءًا من حوار حضاري أوسع بين الإسلام وأوروبا. ويجب أن تتجاوز دراسة هذا التفاعل النظرة السطحية للاقتباس إلى فهم ديناميكيات التبادل الثقافي والمعرفي.

36 Hamilton Gibb (trans. & ed.), *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325-1354*. Translated with Revisions and Notes from the Arabic Texts, vol. 1-4 (Cambridge: Cambridge University Press for the Hakluyt Society, 1958-2000).

37 Hamilton Gibb, "The Influence of Islamic Culture on Medieval Europe," in: *Change in Medieval Society. Europe North of the Alps 1050-1520* (New York: Appleton-Century-Crofts, 1964), pp. 155-167.

ويتضح مما سبق أن جب لم يكن مستشرقاً تقليدياً، يقتصر على دراسة النصوص بمعزل عن سياقاتها، بل برز بصفته باحثاً يجمع بين التحليل النصي الدقيق والفهم النقدي للسياقات التاريخية والاجتماعية. وعلى الرغم من تأثره بالمدرسة الاستشراقية الكلاسيكية التي ركزت على دراسة الإسلام من منظور خارجي، فإنه استطاع أن يتجاوز هذا الإطار الضيق عبر تبني منهجاً نقدياً يأخذ في الاعتبار البعد الجيوسياسي والثقافي للأحداث والشخصيات التاريخية. وقد برزت قدرته في تقديم قراءة متوازنة تربط بين تحليل الصراعات الجيوسياسية وفهم التفاعلات الثقافية بين العرب وغيرهم من الشعوب؛ وهذا أضفى على أعماله طابعاً علمياً رصيناً وعمقاً تحليلياً مميزاً. ولم تقتصر اهتماماته على هذا الجانب فحسب، بل امتدت أيضاً لتشمل ميدان الدراسات الصليبية، حيث خصص عدداً من أعماله، تأليفاً أو تحريراً أو ترجمة، لدراسة الحروب الصليبية، متناولاً أبعادها الإسلامية. وساهم في تحرير عدد من المصادر العربية الرئيسة وترجمتها، التي تؤرخ لتلك الحقبة، وهو ما سنعرض له بشيء من التفصيل لاحقاً.

خامساً: جب والحروب الصليبية

مثّلت الحروب الصليبية محوراً جوهرياً في اهتمامات جب الأكاديمية، ضمن دراساته حول الإسلام والمسلمين. ولم ينظر إلى الحروب الصليبية بعيون مؤرخي العصور الوسطى الأوروبيين Medievalists، الذين غالباً ما قدّموها على أنها صراع بين المسيحية الأوروبية والإسلام، من منظور المصادر الأوروبية أولاً، بل رأى فيها جزءاً من تاريخ أوسع يتسم بالتشابك والتفاعل بين أوروبا اللاتينية المسيحية والعالم الإسلامي، ولا سيما العالم الإسلامي السني.

ولم يكن جب مؤرخاً تقليدياً يكرّر السردية الغربية السائدة عن الحروب الصليبية، بل سعى بوعي نقدي لإبراز السردية العربية الإسلامية خطاباً بديلاً ومتكاملاً، يتجاوز الأحادية الأوروبية أو ما يمكن تسميته "المركزية الأوروبية" Eurocentrism. فبالنسبة إليه، لم تكن الحروب الصليبية مجرد سلسلة من المواجهات العسكرية فحسب، بل كانت أيضاً إحدى حلقات التلاقي والتفاعل المتكرر بين الشرق والغرب، سواء في إطار الصراع أو في مجالات الثقافة والفكر. وقد بدأ اهتمامه بالحروب الصليبية، من خلال دراسة الروايات العربية الأصلية في عام 1932، وفي مقدمتها كتاب **ذيل تاريخ دمشق** لحمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي (ت. 1160م)، الذي نقله إلى الإنكليزية بعنوان *The Damascus Chronicle of the Crusades الحولية الدمشقية للحروب الصليبية*⁽³⁸⁾، واعتبره من أبرز المصادر العربية التي وثقت أحداث المرحلة الفاصلة بين الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية. وهو من الأعمال الأولى التي أعادت تقديم النصوص العربية إلى القارئ الغربي في صيغة نقدية موثوقة. وقد شكّلت هذه الترجمة جزءاً من مشروع جب الأشمل، الهادف إلى إظهار الرواية الإسلامية للحروب الصليبية، وإبراز الجهاد الإسلامي ضد الفرنجة حينذاك.

واعتمد جب في تحريره **الحولية الدمشقية** على نسخة نادرة من المخطوطة محفوظة في مكتبة بودليان في أكسفورد، مقدّماً قراءة تحليلية للنص، تبرز دقته في رصد الوقائع وتوثيق القلانسي لها بصفته "شاهد عيان"؛ ما جعله مصدرًا لا غنى عنه في بناء تصوّر مغاير للرواية التقليدية. وقد أشار إلى أن هذا العمل قد يكون امتداداً لكتاب المؤرخ هلال بن المحسن الصائبي (ت. 1056)، الذي توقفت روايته بوفاته، ليكمل ابن القلانسي المهمة من النقطة ذاتها، في مشهد يعكس استمرارية تقاليد الكتابة التاريخية الإسلامية في بناء سرد تراكمي متصل. ولم يغفل جب البعد الأدبي للنص، بل نبّه إلى ثراء العمل بما يتجاوز الحكي التاريخي الجاف، حيث ضمّن القلانسي مؤلفه مقاطع شعرية ونصوصاً أدبية تعبّر عن وعي ثقافي متقدم، وتكشف عن حساسية المؤرخ تجاه تفاصيل الحياة

38 Hamilton Gibb, *The Damascus Chronicle of the Crusades* (London: Luzac & Co., 1932).

اليومية وسياقاتها الشعرية. وقد جعل هذا المزج بين التاريخ والأدب من **ذيل تاريخ دمشق** وثيقة تاريخية وأدبية في آن واحد، لها أهميتها وقيمتها في فهم المناخ الثقافي والسياسي لتلك المرحلة.

وتكشف قراءة جب لكتاب **ذيل تاريخ دمشق** عن حسّه التحليلي الدقيق، ووعيه بسياقات التاريخ السكاني والاجتماعي للمنطقة؛ فهو لم يتوقف عند تحليل محتوى الكتاب بصفته مصدرًا تاريخيًا فحسب، بل توسّع أيضًا في فهم خلفياته الجغرافية والديموغرافية، فالقرن الحادي عشر الميلادي شهد موجة هجرة واسعة لقبائل التركمان المعروفة باسم "الغُز"، انطلقت من حدود السهوب الآسيوية غربًا نحو بلاد الشام، مرورًا بآسيا الصغرى. وقد نظر جب إلى هذه التحركات السكانية لا بوصفها أحداثًا عارضة، بل بوصفها تحوّلًا تاريخيًا عميقًا غيّر البنية السكانية والسياسية في المشرق الإسلامي، وأسهم في صياغة المشهد الذي واجه الحملات الصليبية لاحقًا. فقد ركّز على البعد المغفّل في دراسات كثيرة، وهو دور الهجرات الداخلية والغزوات القبلية في صياغة الخريطة السياسية للمنطقة، معتبرًا أن هذه التحركات لا تقل أثرًا عن العوامل العسكرية أو العقائدية في تفسير تحولات الصراع الصليبي الإسلامي. وفي ذلك يتميز جب من كثير من الباحثين الغربيين الذين أهملوا هذه الزوايا الاجتماعية والاقتصادية في تحليلاتهم، وهذا يجعل من مقارباته مرجعًا فريدًا في هذا الحقل.

وإلى جانب اهتمام جب بالمصادر، قدم عددًا من الدراسات التحليلية التي تناولت أبرز الشخصيات الإسلامية في تلك الحقبة، وعلى رأسها الأيوبي. ويُعدّ كتابه **حياة صلاح الدين: من أعمال عماد الدين وبهاء الدين**⁽³⁹⁾ من أهم أعماله وأقدمها، فهو يمثل تنويعًا لجهوده في دراسة الشخصيات التاريخية الإسلامية. ففي كتاب **حياة صلاح الدين**، الذي اعتمد فيه جب على كتابات عماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين بن شداد، قدّم صورة كاملة عن القائد الأيوبي، تشمل إنجازاته العسكرية وأبعاده الفكرية والسياسية والاجتماعية. وقد تناول تطور شخصيته من قائد عسكري إلى زعيم سياسي وحّد العالم الإسلامي، وركّز على كيفية بنائه لاستراتيجية المقاومة الإسلامية للصليبيين.

وفي مقالة "البرق الشامي: تاريخ صلاح الدين"، المنشورة في عام 1952⁽⁴⁰⁾، ترجم جب جزءًا من نص عماد الدين الأصفهاني (ت. 1201م)، مقدّمًا قراءة نقدية لهذا العمل المهمّ، ومبرّرًا في الوقت ذاته أهمية الاعتماد على المصادر الإسلامية المعاصرة للحقبة الصليبية لفهم التاريخ من "الداخل" الإسلامي، لا من خلال الانعكاسات الاستشراقية المتأخرة. ويُعدّ هذا العمل من المحطات المفصلية في جهود جب الرامية إلى تأصيل الرواية الإسلامية، وإعادة تقديمها بوصفها مصدرًا معرفيًا متكاملًا. وقد أظهر براعة في إبراز العناصر البلاغية والسردية التي استخدمها الأصفهاني لصياغة صورة بطولية للأيوبي، معتمدًا على تحليل دقيق للأسلوب والمضامين، وهذا مكّنه من تقديم قراءة مزدوجة للنص تجمع بين النقد الأدبي والتحقيق التاريخي. وقد مثّلت دراسة "البرق الشامي" لدى جب امتدادًا طبيعيًا لمشروعه في إعادة تقييم المصادر الإسلامية الأصلية وإبرازها مرجعًا أساسيًا، لفهم الحروب الصليبية وسير قادتها، بعيدًا عن تحيّزات الاستشراق التقليدي الذي طالما أهمل هذا النوع من النصوص، بوصفه أدبيًا أكثر من كونه تاريخيًا.

وعلى الرغم من أن جب ركّز في **دراسات في حضارة الإسلام** على قضايا فكرية وسياسية وأدبية، فإنه أفرد فيها فصلين مخصصين لدراسة شخصية الأيوبي، أحد أبرز القادة في التاريخ الإسلامي. جاء أحد هذين الفصلين بعنوان "جيوش صلاح الدين"⁽⁴¹⁾، وقد ركّز على دراسة تنظيم جيوش الأيوبي، ودورها في تحقيق الانتصارات خلال الحروب الصليبية. يبدأ الفصل بتقسيم الجيوش

39 Gibb, *The Life of Saladin*.

40 Gibb, "Al-Barq al-Shami: The History of Saladin by the Kātib Imad al-Din al-Isfahani."

41 Hamilton Gibb, "The Armies of Saladin," in: Gibb, *Studies on the Civilization of Islam*, pp. 74-88.

إلى ثلاث فئات رئيسية: الجيش المصري، والجيش السوري، والجيش القادم من بلاد ما وراء النهر Mesopotamian، حيث القوات القادمة من المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، والتي تشمل أجزاء من العراق وسورية الحديثة. يوضح جب كيفية تنظيم هذه الجيوش وتزويدها بالمعدات والتموين، مشيرًا إلى أن الأيوبي لم يعتمد فقط على القوة العسكرية، بل استفاد أيضًا من تنظيم إداري محكم ودعم شعبي واسع. ويناقش تكتيكاته العسكرية، ودوره في توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين، مع التركيز على معركة حطين التي مثلت نقطة تحول في تاريخ الصراع الصليبي - الإسلامي. ويعتمد في تحليله على مصادر تاريخية معاصرة له، مثل **ذيل تاريخ دمشق، والبرق الشامي، وسيرة صلاح الدين.**

وبين فصل آخر عن الأيوبي، عنوانه "إنجازات صلاح الدين" ⁽⁴²⁾، تأثير هذا القائد؛ إذ تجاوز ميدان المعارك إلى إعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم الإسلامي في مواجهة الصليبيين. يبدأ جب بتحليل شخصية الأيوبي قائدًا استثنائيًا، يجمع بين الحكمة السياسية والشجاعة العسكرية، ويوضح أنه تمكن من توحيد العالم الإسلامي، الذي كان ممزقًا بين الإمارات المتصارعة، ليشكل جبهة موحدة ضد الصليبيين. يركز جب بصفة خاصة على معركة حطين (1187م)، التي يعتبرها لحظة حاسمة في تاريخ الصراع الصليبي - الإسلامي، حيث قاد الأيوبي جيوشه إلى نصر ساحق؛ ما مهد الطريق لاستعادة القدس من أيدي الصليبيين. ومع ذلك، لا يكفي جب بالحديث عن النصر العسكري، بل يتناول أيضًا سياسة هذا القائد في الحكم، ومواقفه الإنسانية تجاه الأسرى والخصوم؛ ما جعله نموذجًا للقائد النبيل في المخيال الإسلامي والغربي على حد سواء؛ فالأيوبي لم يكن قائدًا عسكريًا فحسب، بل كان أيضًا إداريًا محنكًا، عمل على إصلاح نظام الحكم، وتطوير المؤسسات العسكرية والإدارية في دولته. وبناءً على ما سبق، يقدم هذا الفصل رؤية متكاملة للأيوبي بصفته قائدًا سياسيًا وعسكريًا، له تأثير كبير في التاريخ الإسلامي، وأثره مستمر في الذاكرة التاريخية "المستمرة" و"الحية".

وتمثل مساهمات جب في موسوعة **تاريخ الحروب الصليبية**، التي حررها كينيث سيتون ⁽⁴³⁾، أبرز أعماله وأكثرها تكاملًا في تأريخ تطوّر القيادة الإسلامية خلال الحقبة الصليبية؛ فقد كتب عدة مقالات تناولت الجوانب المختلفة لهذه الحقبة التاريخية، مقدمًا رؤية متوازنة وشاملة لها، تجمع بين المنظورين الإسلامي والغربي، واعتمد فيها على مصادر إسلامية أصيلة، مثل **ذيل تاريخ دمشق، والبرق الشامي، وسيرة صلاح الدين** ⁽⁴⁴⁾.

علاوة على ذلك، اشتملت مجموعة سيتون حول الحروب الصليبية على عدد من الدراسات التي أسهم بها جب، لا سيما في المجلد الأول، مثل "الخلافة والدولة العربية"، والذي قدم فيه تحليلًا للبيئة السياسية التي شكّلت خلفية المشهد الصليبي، متناولًا تفاعل الخلافة العباسية والدول المحلية في المشرق مع المتغيرات العسكرية والسياسية التي فرضها الصراع وقد ركّز في تحليلاته على بروز قيادات محورية مثل عماد الدين زنكي (ت. 1146)، ونور الدين محمود (ت. 1174)، والأيوبي، مبرزًا دورهم في إحياء حركة الجهاد الإسلامي في مواجهة الفرنجة ببلاد الشام، والتي توجت بانتصار المسلمين في معركة حطين، وما تبع ذلك من استعادة بيت المقدس، بوصفها لحظة رمزية فاصلة في مسار الصراع الصليبي - الإسلامي ⁽⁴⁵⁾. وتضمن المجلد الثاني مقالته عن الأيوبيين ⁽⁴⁶⁾.

42 Hamilton Gibb, "Achievements of Saladin," in: Ibid., pp. 89-107.

43 Kenneth Meyer Setton, *A History of the Crusades*, vol. 1-6 (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1958-1989).

44 Hamilton Gibb, "Notes on the Arabic Materials for the History of the Early Crusades," *Bulletin of the School of Oriental Studies*, vol. 7, no. 4 (1935), pp. 739-754.

45 Hamilton Gibb, "The Caliphate and the Arab State," "Zengi and the Fall of Edessa," pp. 449-463, "The Career of Nur-ad-Din," "The Rise of Saladin, 1169-1189," in: Kenneth Meyer Setton (eds.), *A History of The Crusades*, vol. 1 (Madison: University of Wisconsin Press, 1969), pp. 81-99, 449-463, 513-527, 563-589.

46 Hamilton Gibb, "The Ayyubids," in: Kenneth Meyer Setton (ed.), *A History of The Crusades*, vol. 2 (Madison: University of Wisconsin Press, 1962), pp. 693-714.

التي قدّم فيها تحليلًا موسّعًا لتطوّر بنية الدولة الإسلامية في مواجهة التحدي الصليبي. وقد توسّع لاحقًا في دراسة الدولة الأيوبية في مقالته، حيث تناول البنية السياسية والإدارية التي نشأت عقب الأيوبي، وموقعها في السياق الأوسع للصراع مع القوى الصليبية الغربية، متتبّعًا التحوّلات المؤسسية التي أبقت المشروع السياسي الإسلامي متماسكًا بعد القائد المؤسس.

ولم تقتصر إسهامات جب في دراسة شخصية الأيوبي على البعد الاستراتيجي أو السياسي فحسب، بل امتدت إلى تحليل البنية العسكرية والمؤسسية التي نشأت في ظل الدولة الأيوبية، وما رافقها من تحولات بنوية ساهمت في ترسيخ مشروعه القيادي. وكذلك قدّم قراءة نقدية معمّقة لسيرة نور الدين محمود، تتبّع من خلالها الأصول المؤسسية والسياسية التي مهدت لصعود الأيوبي، مشدّدًا على أن فهم تجربته لا يكتمل من دون التوغّل في الإرث الذي تركه، سواء من حيث البناء الإداري أو التعبئة الأيديولوجية لمفهوم الجهاد. ورأى جب أن التاريخ لا يُفهم باعتباره سردًا خطيًا للأحداث، بل باعتباره نسيجًا معقدًا من التفاعلات الرمزية والواقعية، تتقاطع فيه الشخصيات مع السياسات، وتشكّل من خلاله الرموز التاريخية في الوعي الإسلامي والغربي. ومن هذا المنطلق، تجلّت دقته في تفكيك السياقات التي ساهمت في تشكيل صورة "البطل"، لا من حيث هو قائد عسكري، بل أيضًا بصفته رمزًا ثقافيًا يتجاوز لحظته التاريخية.

وفي هذا الإطار، توقف جب عند إحدى أكثر المحطات إشكالية في سيرة الأيوبي، وهي توقيع معاهدة الصلح مع الإمبراطور فريديريك الثاني عام 1229م، وهي المعاهدة التي أثارت جدلاً طويلاً بين مؤيديه ومنتقديه، نظرًا إلى ما حملته من دلالات سياسية ودينية. وينقل جب عن المؤرخ أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي وصفه للأيوبي بأنه "تواضع للعلم، متلبّس بالعدل والكرم"، ليعلّق بأن هذا التوصيف لا يعكس إعجابه الشخصي فحسب، بل يشير أيضًا إلى نموذج قيادي متكامل، استطاع أن يفرض احترامه وهيئته حتى على خصومه. وهو ما يُفسّر الاحترام الذي أبداه فريديريك خلال المفاوضات، باعتباره انعكاسًا لتقدير سياسي وإنساني نادر في سياقات الصراع المحتدم وقتها.

ويُظهر تحليل جب لهذه المرحلة مدى وعيه بمسألة الرمز في التاريخ الإسلامي؛ إذ لم ينشغل بفعل الحرب والانتصار فحسب، بل أيضًا بتكوين صورة السلطان الأخلاقي والعاقل، الذي استطاع أن يجمع بين الكفاءة السياسية والقيم الدينية والاجتماعية. وهو ما يعكس في النهاية رؤيته المتكاملة لتاريخ الحروب الصليبية، ليس بصفته سرد وقائع، بل من حيث هو مساحة لتقاطع الرؤى والحضارات. يمثّل مجموع هذه الدراسات خريطة فكرية متكاملة، تبرز منهج جب القائم على إعادة الاعتبار للسرد الإسلامي في تاريخ الحروب الصليبية، واعتماده على المصادر الأصلية، وتحليله المتوازن للأحداث والشخصيات. وهو بذلك ينتمي إلى تيار استشراقي نقدي، تجاوز النزعة النصية البحتة إلى قراءة أكثر شمولًا تأخذ في الاعتبار التداخل بين النص والواقع، وبين السياسة والثقافة. وقد استطاع من خلال أعماله أن يقدّم صورة جديدة عن هذه الفترة الحرجة، ويُعيد الاعتبار لدور المسلمين فيها، بوصفهم فاعلين لا مجرد متلقين. وبهذا، أسهم في إعادة تشكيل الوعي الأكاديمي الغربي تجاه الحضارة الإسلامية، وفتح المجال أمام مقاربات أكثر توازنًا وإنصافًا في قراءة التاريخ المشترك بين الشرق والغرب. ولم يكتفِ بالسرد التاريخي التقليدي، بل ركّز على منهج نقدي مقارنة بين الروايتين الإسلامية والغربية، مشيرًا إلى التباين في السرديات وضرورة اعتماد مقارنة تراعي تعدد الرؤى.

خاتمة: نظرة تحليلية عامة

يُعدّ جب أحد الأسماء المهمّة في مسار تطور الدراسات الإسلامية في الغرب؛ بسبب كثافة إنتاجه العلمي ولما تميّز به أيضًا من قدرة فريدة على المزج بين التحليل التاريخي والثقافي والاجتماعي، لتقديم فهم متوازن وشامل للحضارة الإسلامية. لم يكن جب مجرد مستشرق تقليدي يكرر مقولات أقرانه، بل سعى بوعي معرفي ملحوظ لتجاوز نبرة التعالي والانحياز التي كثيراً ما ارتبطت بالخطاب الاستشراقي الكلاسيكي، معتمدًا في ذلك على قراءة نقدية للمصادر الأصلية، وإبراز التعدد والتنوع الذي اتسم به العالم

الإسلامي عبر عصوره المختلفة. وعلى الرغم من ذلك، يتضح من خلال استقراء أعمال جب أن تحليلاته لم تخل من انحيازات معرفية أنتجت صورة غير مكتملة عن الإسلام وحركته التاريخية. فقد أسهم، سواء بوعي أو من دون وعي، في ترسيخ مقاربات ترى في الإسلام مشروعًا عاجزًا عن تجاوز خلافاته البنيوية. ومع أن طرحه اُتسم بالعمق، فإن دراساته ظلت في حاجة إلى مزيد من التوازن في قراءة التجربة الإسلامية من داخلها لا من منظور خارجي يتكئ على المعايير الغربية وحدها. ومن هنا، فإن النقد العلمي لجب لا يتوقف عند تصحيح المعلومات، بل يتعداه إلى مساءلة المنطلقات الفكرية التي انبنى عليها مشروعه الاستشراقي بأكمله.

وقد أظهرت أعماله اهتمامًا عميقًا بإبراز الرواية الإسلامية في مواجهة السردية الأوروبية المهيمنة. ولم يكتفِ بإعادة إنتاج النصوص التاريخية فحسب، بل حلّلها ضمن إطار نقدي، يكشف البنية اللغوية والسياقات الاجتماعية والسياسية التي شكّلتها؛ وهو ما منح مقاربتة بعدًا أكاديميًا أصيلًا وقراءة تاريخية متعددة الأبعاد، شملت تحليلات معمّقة لقضايا الفكر الإسلامي، مثل نظرية الخلافة عند الماوردي، والفكر السياسي لابن خلدون، والبنية الروحية في التصوّف. وقد عالج هذه الموضوعات بوصفها أنساقًا فكرية متكاملة، تكشف عن تطوّر الوعي الإسلامي في سياقاته الزمانية والمكانية. وركّز أيضًا على العلاقة بين الإسلام وأوروبا، مؤكّدًا أن التفاعل بين الحضارتين لم يكن صراعًا مطلقًا، بل تخلّلته موجات من التأثير المتبادل، ساهمت في تشكيل الفكر الأوروبي في القرون الوسطى، وهو ما تجلّى بوضوح في أعماله عن تأثير الثقافة الإسلامية في أوروبا.

وتناول جب شخصيات مثل الأيوبي وزنكي، وركّز على تكوينيهما العسكري والمؤسسي والفكري، مبرّرًا دورهما في صياغة مفهوم الجهاد وتوحيد العالم الإسلامي في مواجهة الحملات الصليبية. وعلى الرغم مما لقيه من إشادة أكاديمية، فقد تعرّض لنقد مشروع من دراسات ما بعد الاستعمار، وخصوصًا فيما يتعلق بموقعه داخل البنية المعرفية الغربية. فقد رأى بعضهم أن جب، على عمق مقاربتة، لم يتحرر تمامًا من مركزية النظرة الأوروبية. إلا أن منجزه يظلّ مفتتحًا على النقد والمساءلة، لا بوصفه خطابًا نهائيًا، بل بوصفه محاولة جادة لتقريب الفجوة بين الاستشراق الكلاسيكي والنقدي.

في ضوء ما تقدّم، يمكن القول إن إرث جب المعرفي يتلخص في ثلاث نقاط محورية؛ وهي: تأكيده أهمية المصادر الإسلامية الأصلية بوصفها مادة معرفية مستقلة؛ وسعيه لإعادة التوازن في سرد العلاقات الإسلامية الغربية بعيدًا عن ثنائية الصراع والهيمنة؛ وأخيرًا إبرازه التنوع الثقافي والاجتماعي في الحضارة الإسلامية. غير أن إعادة قراءة أعماله اليوم لا ينبغي أن تُختزل في التثمين أو النقد وحدهما، بل تستدعي استحضارًا واعيًا للسياق الذي تشكّل فيه مشروعه المعرفي، مع ربط ذلك بالحاجة الملحة إلى تأسيس سرديات معرفية عربية تنبع من الداخل، وتنطلق من منطق الذات العربية الإسلامية، من دون إنكار للآخر وثقافته.

ومن هنا، تبرز إشكالية أكبر طالما طُرحت ولم تجد بعد إجابة حاسمة: أين المشروع المقابل الذي يُعنى بـ "الاستغراب"؟ أي دراسة الغرب من داخله، لا بوصفه مركزًا معرفيًا مفترصًا، بل بوصفه موضوعًا قابلاً للفهم والتحليل من منظورنا نحن، بمنظومتنا الفكرية واللغوية والثقافية، بهدف إعادة التوازن في الحقل المعرفي العالمي، وعدم الاكتفاء باستيراد التصورات الغربية، فلا يكفي أن نستورد الرؤى الغربية عن أنفسنا لنعيد تدويرها في خطابنا الأكاديمي، بل ينبغي لنا أن نتجاوز ذلك إلى إنتاج معرفة نقدية عن الغرب ذاته؛ معرفة تدرس مفاهيمه ومؤسساته ونصوصه الكبرى برؤية مزدوجة: تنطلق من أرضيتنا المعرفية، وتُراعي - في الآن ذاته - تعقيدات "الآخر" الغربي وتاريخه. إن مشروع "الاستغراب" لا يعني نفيًا للآخر أو رفضًا له، بل هو دعوة لاسترداد موقع الفاعل في العملية المعرفية، بحيث لا تظل دراساتنا للغرب صدى لما ينتجه عن ذاته، بل تصبح مساحة لتحليل بنيته الفكرية والسياسية وتثريتها، انطلاقًا من أدوات نقدية نابعة من الذات، وقادرة على بناء توازن معرفي حقيقي في المشهد الأكاديمي العالمي. وفي هذا الإطار، تغدو استعادة أعمال جب - بما تحمله من محاولات انفتاح وتجاوز - فرصة لمساءلة موقعنا نحن، لا بوصفنا موضوعًا للدراسة، بل بوصفنا شركاء في إنتاج المعرفة ذاتها.

المراجع

العربية

- باريت، رودى. **الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه**. ترجمة مصطفى ماهر. القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967.
- بدوي، عبد الرحمن. **موسوعة المستشرقين**. بيروت: دار العلم للملايين، 1993.
- حوراني، ألبرت. "هاملتون جب: إنجازات مستشرق". ترجمة سلام فوزي. **الفكر العربي**. مج 31، العدد 5 (1983).
- درويش، أحمد. **الاستشراق الفرنسي والأدب العربي**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.
- الزبيدي، مصعب حمادي نجم. **الحروب الصليبية: في كتابات المؤرخين الأوروبيين والأمريكيين حتى نهاية القرن العشرين**. بيروت: دار النهضة العربية، 2021.
- السباعي، مصطفى. **الاستشراق والمستشرقون: ما لهم وما عليهم**. القاهرة: دار الوراق، [د. ت.].
- سعيد، إدوارد. **الاستشراق: المفاهيم الغربية عن الشرق**. ترجمة محمد عناني. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006.
- طارق، محمد. "هاملتون. أ. جب ودوره في دراسة التاريخ العربي". أطروحة دكتوراه. كلية الدراسات العليا. الجامعة الأردنية. 2012.
- عوض، محمد مؤنس. **الحروب الصليبية في مؤلفات المؤرخين الغربيين المحدثين**. القاهرة: مكتبة كلية الآداب، 2016.
- _____. **الحروب الصليبية في مؤلفات المؤرخين المصريين المحدثين**. القاهرة: مكتبة الآداب، 2017.
- مذكور، عبد الحميد عبد المنعم. **نظرات في حركة الاستشراق**. القاهرة: دار الثقافة، 1990.
- الملا، ناصر جاسم. **الاستشراق البريطاني في القرن العشرين: المستشرق هاملتون جب عميد الدراسات العربية**. القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، 2017.

الأجنبية

- Baadj, A. & A. Sheir (eds.). *The Memory and Historiography of the Crusades in the Modern Arab World*. Budapest: Trivent Publishing, 2025.
- Elsayed, Ali, Abdallah al-Nagger & Ahmed Sheir (eds.). *Studies in Peace-building History between East and West through the Middle Ages and Modern Era*. vol. 2. Cairo: Sanabil Bookshop, 2019.
- Encyclopédie de l'Islam*, Pt. 1 (1960).
- Gibb, Hamilton A. R. *The Arab Conquests in Central Asia*. James G. Forlong Fund, vol. II. London: Royal Asiatic Society, 1923.
- _____. *The Damascus Chronicle of the Crusades*. London: Luzac & Co., 1932.
- _____. "The Islamic Background of Ibn Khaldun's Political Theory." *Bulletin of the School of Oriental Studies*. vol. 7, no. 35 (1933).

- _____. "Notes on the Arabic Materials for the History of the Early Crusades." *Bulletin of the School of Oriental Studies*. vol. 7, no. 4 (1935).
- _____. *Modern Trends in Islam*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1947.
- _____. "The Arabic Sources for the Life of Saladin." *Speculum*. vol. 25, no. 1 (1950).
- _____. "The Achievement of Saladin." *Bulletin of the John Rylands Library* 35 (1952-1953).
- _____. "Al-Barq al-Shami: The History of Saladin by the Katib 'Imad ad-Din al-Isfahani." *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes* 52 (1953).
- _____. *Mohammedanism: An Historical Survey*. 2nd ed. London/ New York: Oxford University Press, 1962.
- _____. *Studies on the Civilization of Islam*. Stanford J. Shaw & William R. Polk (eds). Princeton: Princeton University Press, 1962.
- _____. "Pre-Islamic Monotheism in Arabia." *Harvard Theological Review*. vol. 55, no. 4 (1962).
- _____. *Arabic Literature: An Introduction*. Oxford: Clarendon Press, 1963.
- _____. *Change in Medieval Society: Europe North of the Alps 1050–1520, 155–167*. New York: Appleton-Century-Crofts, 1964.
- _____. *The Life of Saladin: From the Works of 'Imad ad-Din and Baha' ad-Din*. New York/ London: Oxford University Press, 1973.
- Gibb, H. (ed.). *L'élaboration de l'Islam*. Paris: Maisonneuve & Larose, 1961.
- Gibb, Hamilton A. R. (trans. & ed.). *The Travels of Ibn Battuta, A.D. 1325–1354*. 4 vols. Cambridge: Cambridge University Press for the Hakluyt Society, 1958–2000.
- Gibb, H. A. R. & Harold Bowen. *Islamic Society and the West*. vol. I: *Islamic Society in the Eighteenth Century*. Part I. Oxford: Oxford University Press, 1950.
- _____. *Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*. vol. I. *Islamic Society in the Eighteenth Century*. Part II. New York: Oxford University Press, 1957.
- Gibb, Hamilton A. R. et al. (eds.). *The Encyclopaedia of Islam*. Leiden: Brill, 1960–2004.
- Lambton, A. K. S. "Sir Hamilton Alexander Roskeen Gibb." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*. vol. 35, no. 2 (1972).
- Lewis, Bernard & Peter Malcolm Holt (eds.). *Historians of the Middle East*, vol. 4 of *Historical Writing on the Peoples of Asia*. London/ New York: Oxford University Press, 1962.
- Makdisi, George. "Sir Hamilton Alexander Roskeen Gibb January 2, 1895 - October 22, 1971." *Journal of the American Oriental Society*. vol. 93, no. 4 (1973).
- Polk, William R. "Islam and the West." *International Journal of Middle East Studies*. vol. 6, no. 2 (1975).
- Setton, Kenneth M. (ed.). *A History of the Crusades*. 6 vols. Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1958–1989.
- Toynbee, Arnold J. "The Arab Conquests in Central Asia by H. A. R. Gibb." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*. vol. 2, no. 4 (1923).

وثائق ونصوص Primary Sources



وثائق عثمانية حول دار حسين باشا تونس في مدينة إستانبول

Ottoman Documents on the House of Hussein Pasha of Tunis in Istanbul

تتناول هذه الدراسة فترة حكم الباشا التركي أبي محمد حسين لولاية تونس (1591-1596م)، من خلال ثلاث وثائق أرشيفية محفوظة في متحف قصر التوب كابي سراي في إسطنبول. وتكشف هذه الوثائق عن شراء حسين باشا عقاراً فخماً في بشيكتاش يضم "طابقين" وحديقة وحظيرة؛ ما يعكس رغبته في العودة إلى مركز الخلافة. وتوضح هذه الوثائق أيضاً ميل الباشوات الأتراك إلى الاستقرار قرب تربة (مدفن) خير الدين بربروس وجامع سنان باشا. إضافة إلى ذلك، تبرز قدرة باشوات أوجاق الغرب المالية على اقتناء القصور البحرية، على الرغم من الأزمات الاقتصادية التي عصفت بعاصمة الخلافة والإيالة التونسية آنذاك.

كلمات مفتاحية: حسين باشا، إستانبول، تونس، دار حسين باشا، أوقاف.

This article examines the rule of the Turkish Pasha Abu Muhammad Hussein over the province of Tunis (1591-1596) through three archival documents preserved in the Topkapi Palace Museum in Istanbul. The documents reveal Hussein Pasha's purchase of a luxurious property in Beşiktaş, which includes two floors, a garden, and a stable, reflecting his desire to return to the centre of the Caliphate. The documents also illustrate the inclination of Turkish Pashas to settle near the tomb of Hayreddin Barbarossa and the Sinan Pasha Mosque. Furthermore, the article highlights the financial capability of the Pashas of the Western Odjak to acquire seaside palaces despite the economic crises that afflicted the capital of the Caliphate and the Tunisian Eyalet at that time.

Keywords: Husein Pasha, Istanbul, Tunis, Husein Pasha's House, Awqāf.

* أستاذ مساعد في المعهد العالي للعلوم الإنسانية، جندوبة، تونس.

Assistant Professor at the Higher Institute of Human Sciences, Jendouba, Tunisia.

mouayed.mnari@gmail.com

تمهيد

بعد معركة حلق الوادي الطاحنة والمصيرية بين العثمانيين والإسبان عام 1574م، التي قادها في الجانب العثماني، السردار سنان باشا (ت. 1596م) - وقد تولّى لاحقاً منصب الصدر الأعظم عدة مرات⁽¹⁾، قُرّر تسيير ولاية تونس عن طريق بكرايات أو باشوات أترّك، يُرسلون لإدارة الشأن الإداري والعسكري في الولاية مدّة معيّنة. ولقد اتسم عهد هؤلاء الباشوات في أواخر القرن السادس عشر بغموض تاريخي من جزاء قلّة المصادر التاريخية. وعلى الرغم من الجهود المبذولة من بعض المؤرخين القدامى (حسين خوجة مثلاً)، ومن الباحثين الأكاديميين الجدد على حد سواء، فإن الوثائق العثمانية القديمة المحفوظة في الأرشيفات التركيّة تُفاجئنا باحتوائها معلومات تاريخيّة مهمة؛ فهي تُثير جوانب من عتمة السنوات الأولى للحضور العثماني المتعلقة بأخبار بكرايات الولاية التونسية، وتذكر أسماء بكرايات أو باشوات تظهر أول مرة. وفي هذا السياق، أفدّم في هذه الدراسة ثلاث وثائق أرشيفية جديدة، بعد ترجمتها إلى العربية، وهي أحكام وتقييدات صادرة عن قُضاة المجلس الشرعي في ناحية غَلَطَة Galata، بمدينة إستانبول، وتتعلّق بعمليات شراء/ بيع دار كانت ملكاً لبكركي تونس أبي محمد حسين الذي تقلّد منصب الباشا في بداية عام 1592م، وتولّى باشوية إيالة تونس، وتوفي قبل عام 1618م. وتتميّز هذه الوثائق بأهميتها، نظرًا إلى عرضها معلومات تنشر أول مرّة حول هذا المنزل، وحول أسماء أبناء هذا البكركي.

أولاً: تقديم الوثائق

هي ثلاث وثائق أرشيفية تتعلق بعملية شراء حسين باشا تونس دارًا مُطلّة على ساحل بحر منطقة بشيكتاش Beşiktaş، تتكوّن من 6 "طوابق"، وتشتمل على حديقة وبئر ماء، وحظيرة للإبل والغنم والماشية، وحديقة ممتدة ذات أشجار مثمرة وغير مثمرة. ولمساعدة القارئ في فهم بنية الوثائق ومحتواها، أعدنا أولاً كتابة النص الأصلي المكتوب بالحروف العثمانية (بالحروف اللاتينية المعتمدة في اللغة التركية المعاصرة)، عملاً بالمبدأ المعمول به في التعامل مع الوثائق العثمانية في مجال الدراسات العثمانية، واجتهدنا بعد ذلك في ترجمة النص إلى العربية.

تتمثل الوثيقة الأولى⁽²⁾ في عقد يتضمّن شراء حسين باشا دارًا تُطلّ على ساحل بشيكتاش من ورثة المرحوم خضر شليبي، بثمن قدره 230000 أقجة فضية، بمساعدة وكيله السيد مامي كتحدا ابن عبد المنان. وهذه الوثيقة مؤرخة في أوائل ذي القعدة 1005هـ، الموافق لـ 24 حزيران/ يونيو 1597م، وتحمل ختم كل من مصطفى بن عبد الرحمن، قاضي ناحية غَلَطَة وختم المحرّر (العدل) السيد أحمد بن نبي. وبحسب ما ورد فيها، فإن تقييد عملية الشراء تمّت في المجلس الشرعي لمنطقة غَلَطَة، بحضور عدد كبير من الشهود.

أما الوثيقة الثانية⁽³⁾، فهي عبارة عن "كُتُب" لأداء شهادة شرعيّة بخصوص صحّة شراء الحاج يونس منزل حسين باشا من ورثته، مؤرخة في 22 رجب 1026هـ، الموافق لـ 25 تموز/ يوليو 1617م، وهي تحمل ختم حسين بن شعبان، قاضي ناحية غَلَطَة، المتولي في المجلس الشرعي. وتتضمّن الوثيقة اعتراف المجلس الشرعي بصحة وكالة سنان آغا بن عبد المنان في عملية شراء منزل المتوفى حسين باشا بكركي تونس عن طريق موكله الحاج يونس، بمبلغ قدره 70000 أقجة فضية، وذلك بشهادة عدلين من عدول

1 Joseph Von Hammer-Purgstall, *Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours*, J. J. Hellert (trad.), 18 vols. (Paris: Bellizard, Barthès, Dufour & Lowell, 1835-1843), vol. 7, p. 311.

2 طوب كايي، محفظة أ، وثيقة عدد 0221-12، مؤرخة في أوائل ذي القعدة 1005هـ (24 حزيران/ يونيو 1597م).

3 طوب كايي، محفظة أ، وثيقة عدد 55-1249، مؤرخة في 22 رجب 1026هـ (25 تموز/ يوليو 1617م).

إستانبول. ويفهم من هذا الكتّب أن ورثة حسين باشا تونس أرادوا إلغاء البيع، ورفضوا تسليم الدار لشاريها، بتعلّة عدم صحة الوكالة عن طريق الوعد بالبيع.

أما الوثيقة الثالثة⁽⁴⁾، هي عملية تقييد شراء سنان آغا ابن عبد المنان لدار حسين باشا تونس في إستانبول بكل حقوقها ومنافعها. وكُتبت هذه الوثيقة بيد الكاتب أحمد بن محمد، في محكمة محمود باشا، وعليها طابعه أسفل توقيع. وموضوع الوثيقة هو تسليم سنان آغا عقد الملكية من القاضي الذي أكّد صحّة الشراء، وألزم الورثة بإخلاء ملكيتهم للدار بعد قبض ثمنها. وهذه الوثيقة مؤرخة في 12 جمادى الآخرة 1027هـ، الموافق لـ 5 حزيران/ يونيو 1618م، وهي تتضمن أسماء الشهود الذين حضروا عملية تقييد الدار، بوصفها ملكاً لسنان آغا ابن عبد المنان، وبحضور كل الموكلين في عملية الشراء.

ثانياً: تحليل نصوص الوثائق

يذكر المؤرخ التونسي حسين خوجة (ت. 1145هـ / 1732م)، في الجزء الذي ذيلته في كتاب **بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، أن حسين باشا تقلّد منصب البكرباي في إيالة تونس التي كانت تابعة للدولة العثمانية، بعد ولاية جعفر باشا مباشرة، أي بعد عام 1591م⁽⁵⁾. وقد توافق حكم هذا الباشا وفترة عدم استقرار سياسي وعسكري غير نوعاً ما نظام البكربايات الأتراك الذين كانوا يُرسلون لتسيير الإيالة، وهو ما كان قد أقرّه السردار سنان باشا، الصدر الأعظم لاحقاً (ت. 1596م)، بعد انتصار حملته على الإسبان في معركة حلق الوادي والسيطرة على الإيالة في صيف 1574م؛ إذ بدأ البساط يُسحب، شيئاً فشيئاً من البكرباي، وبدأ نفوذه يتراجع، واستأثر بعده الداوي⁽⁶⁾، شيئاً فشيئاً، بالنفوذ، وذلك في إثر انقلاب عسكري ربّته جماعة الإنكشارية في صلب الديوان عام 1591م. وقد ترتّب على ذلك تشردّم في جماعات أغاوات ديوان الجند العسكري للإيالة، وبروز تسميات جديدة في تراتبية الجند، واختفاء تسميات أخرى عبر الزمن.

لكنّ التراجع الحقيقي لنفوذ مؤسسة البشوات في تسيير الإيالة لم يكن في ليلة وضحاها، ولم يكن بعد الانقلاب العسكري مباشرة، ثم إن الانقلاب كان داخل مؤسسة العسكر، ولم يُغيّر كثيراً في سلطتهم الشرعية ونفاذ كلمتهم في ربوع الإيالة. وقد تواصل تقليد تعيين الباشا أو البكرباي حتى منتصف القرن الثامن عشر. وتؤكد الإشارات السريعة في المصادر التاريخية التونسية والعثمانية، على حدّ سواء، استمرار نفوذ الباشا ونشاطه المعتاد. ولئن سعى مصنّفو الكتب التاريخية التونسية لكتابة تاريخ حديث مفصل، وعرض حيثيات معركة حلق الوادي بين العثمانيين والإسبان عام 1574م، والتوسع في سرد بطولات الدايات وتضخيم حدث انقلاب عام 1591م، فإنهم لم يعرضوا في حديثهم للبشوات. وربما يُعزى هذا الأمر إلى قلّة المعلومات بشأنهم وندرتها. لكن عدم توقّر المعلومات المصدريّة لا يعني أن الباشا قد انتهى دوره، وأنه أصبح "اسماً بلا رسم"، بل تؤكد الوثائق التي سنعرض لها في هذه الدراسة تواصل النشاط العادي للباشا بصفته ممثلاً للباب العالي وأحد الفاعلين في المشهد السياسي، إلى جانب الداوي والباي إلى حدود نهاية القرن الثامن عشر. وحتى عند تجدّر حكم الباي، فإنه هو نفسه لم يتنازل عن لقب الباشا، وأصبح يُرفق مع لقب الباي، "باشا باي" في كل الكتابات الرسمية من وثائق ونقوش معمارية.

4 طوب كايي، محفظة أ، وثيقة عدد 55-1249، مؤرخة في 12 جمادى الآخرة 1027هـ (5 حزيران/ يونيو 1618م).

5 حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق الطاهر المعموري (تونس: المطبعة التونسية، 1929)، ص 327.

6 مصطلح عسكري تركي، يعني الشجاع أو الباسل المقدام، وهو رئيس طابور المئة وواحد 101 في الجيش العثماني في الإيالة التونسية. وقد ثار رؤساء الدايات على جماعة البلوكاشية في ديوان جند الإنكشارية في عام 1591. ينظر في هذا الخصوص: مؤيد المناري، "ديوان جند الإنكشارية ومقام الحاجي بكتاش ولي إيالة تونس: الولاء ورمزية الانتماء العثماني"، **مجلة السبيل مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية**، العدد 14 (أيلول/ سبتمبر 2023)، ص 1-34.

وتحتفظ المصادر التاريخية والشواهد الأثرية ببعض المعلومات المتعلقة بمآثر حسين باشا؛ إذ نجده مزاولاً لنشاطه السياسي، ومتتبعاً لأحوال الإيالة الداخلية، ومهتماً بالعديد من المسائل الاجتماعية. فعام 1598م، يذكر أبو القاسم عظم، قاضي القيروان وتونس أن حسين باشا سأل عن مسألة مفادها أن بنية صغيرة السن "أصبحت قتيلة بخندق القيروان، واتهم بقتلها رجل شاب السن، وأنه كان يتبعها في حال حياتها ويطلب منها الفساد حتى أنه كان يغصبها غصباً"⁽⁷⁾. وبحسب جواب الشيخ المفتي أبي قاسم عظم، فإن حسين باشا حرص على تتبع مجريات القضية، وأرسل من يتحقق ويبحث عن أثر يدين المتهم؛ إذ تم العثور على قطرات دم على سطح دار الجاني. وحفظ لنا نقش معماري في جامع الزيتونة أشغال ترميم حسين باشا عام 1005هـ / 1596-1597م، لنافذة في الواجهة الداخلية لمقصورة القاضي المالكي محرز بن خلف، الذي عُرف في تونس لاحقاً بسيد محرز (ت. 413هـ / 1022م). ويدلّ نقش مثبت في مدخل مسجد الباشا، أو مسجد الحبيبي، في مدينة سوسة، الواقع اليوم في ساحة الدريّة المحاذية لدار الشرع، على أن أبي محمد حسين باشا جدّد المسجد⁽⁸⁾.

وقد ذكر بعض المصادر العثمانية معلومات عن باشوات إيالة تونس لا نجد لها ذكراً في المصادر التاريخية التونسية، مثل تولّي الباشا أبي بكر رتبة قبطان داريا (أي قبطان بحر) عام 1644م، قبل تعيينه بكلربايا على تونس عام 1645م. وذكرت المصادر، أيضاً، أن إبراهيم باشا كان بكلربايا على تونس عام 1663م، وأن يحيى باشا كان بكلربايا على تونس عام 1667م⁽⁹⁾. وقد كان قوصلو أحمد باشا، أصيل جزيرة "قوص" Kos من جزر بحر إيجه القريبة من مضيق الدردنيل، بكلربايا على تونس، لكنه قُتل في ثورة قادها يحيى بن يحيى السويدي ضد العثمانيين في طرابلس الغرب عام 1590م⁽¹⁰⁾، وترك قوصلو ابنًا يدعى "علي باشا"، اشتهر بين رجال الدولة العثمانية بكنية "الجميل" Güzelce Ali Paşa، وقد وُلد عام 1581م أم تركية. وحين بلغه التاسعة من عمره، انضم إلى جماعات وعَدّوه بالانتقام لقتل والده. وفي سن مبكرة، عُيّن علي باشا الجميل بكلربايا على سنجق دمياط في مصر، ثم عاد عام 1608م للمكوث مدة قصيرة في السدة العلية، ومن ثم عُيّن بكلربايا على إيالة تونس، ثم على سنجق "المورة" من بعد ذلك، وأخيراً على جزيرة قبرص. ثم ارتقى علي باشا في منصبه، ليُعيّن وزيراً للسلطان العثماني. وفي إثر ذلك، رجع إلى تونس ليتولّى منصب الباشا. وبعد تمرسه بركوب البحار وقيادة الأساطيل، أحرز لقب "قبطان البحر"، وتولّى قيادة إيالة جزر البحر الأبيض المتوسط (كانت تعرف بالاسم العثماني إيالة بحر سفيد) ليختاره السلطان عام 1619م صدراً أعظم للدولة العثمانية، خلافاً لأوغوز محمد باشا (ت. 1030هـ / 1621م). وعندما تُوفي علي باشا، عام 1621م، دُفن في منطقة بشيكتاش، في مدفنة يحيى أفندي⁽¹¹⁾. وكانت هذه المنطقة المكان المحبذ لاستقرار البكربايات الذين تولوا الباشوية في قيادة أوجاق الغرب، وذلك بسبب وجود مدفن كبيرهم وسيد البحار، وأول بكلرباي على إيالة جزر بحر الأبيض المتوسط وأول قبطان داريا، الرئيس خضر، المعروف باسم خير الدين بربروس (ت. 1546م). وعلى بعد أمتار من هذا المدفن الذي أصبح نقطة مركزية ذات بعد روحي كبير، ومزاراً ذا طالع خير على "الرئيس" المُبحرين لخوض المعارك

7 أبو القاسم بن محمد مزروق بن عظم المرادي، كتاب الأجوبة، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، ج 2 (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون 'بيت الحكمة'، 2010)، ص 55؛ فتوى مؤرخة في يوم الجمعة 22 ذي القعدة 1006هـ (27 حزيران/ يونيو 1598م).

8 Fathi Jarray, "Inscriptions des monuments de la régence de Tunis à l'époque ottomane: études épigraphique et historique," Thèse de doctorat, Université d'Aix-Marseille, Aix-en-Provence, 2007, pp. 62-63.

9 محمد ثريا، تذكرة مشاهير عثمانية المعروف بالسجل العثماني (إسطنبول: المطبعة الأميرية، 1890-1893)، ص 109، 174، 215.

10 لمزيد حول هذا الموضوع، ينظر: محمد الأسطي، "ثورة يحيى بن يحيى السويدي أو سويدان"، مجلة البحوث التاريخية، العدد 1 (1982)، ص 141-531؛ سمية الوحيشي، "ثورة يحيى بن يحيى بإيالة طرابلس في أواخر القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 122 (2006)، ص 63-77.

11 İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, vol. 3 (Ankara: Türk Tarih Kurumu, 2011), part 2, pp. 373-374;

عندما تمرس علي باشا بن قوصلو أحمد بكلرباي تونس بقيادة الأسطول العثماني وخوض المعارك البحرية، وبعدما تقلّد منصب القبطان باشا ثاني مرة، وصل إلى ميناء الترسانة العامرة، وهو يجر خلف أسطوله 6 سفن من سفن الأعداء، محملة بـ 200 أسير، يحمل كل واحد منهم كيساً مملوءاً بالذهب هدية للسلطان. ينظر:

Von Hammer-Purgstall, vol. 8, pp. 251-252.

البحرية في حوضي البحر الأبيض المتوسط، اختار السردار سنان باشا (ت. 1596م)، ومُحرّر تونس من قبضة الإسبان عام 1574م، بناء جامع ومركّبه المعماري بالقرب من مدفن خير الدين بربروس، في منطقة بشيكتاش، وأصبح كل المحيط الدائر يُعرّف بحيّ سنان باشا. وقد حرص الرّئيس الفذّ كيلج علي باشا (ت. 995هـ/1587م) الذي قاتل بشراصة في معركة ليبانت البحرية عام 1571م، مستعينًا بالسفن (باش طاردة) الحربية التونسية والجزائرية والطرابلسية، على بناء جامع ومركّبه المعماري بالقرب من مدفن خير الدين بربروس، في ساحل توب خانة، المجاور لساحل بشيكتاش. واختار بكرباي جزيرة قربص القبطان جعفر باشا ابن عبد المنان (ت. 1607م) الذي أسره كيلج علي باشا، وصيّره مملوكًا وعلمه الإبحار وخوض المعارك البحرية، ورشّحه ليكون باشا على إيالة تونس في الفترة 1590-1592م، ثم باشا على إيالة طرابلس الغرب (مرة عام 1592م، ومرة أخرى عام 1596م)، وقد اختار الاستقرار في حيّ سنان باشا، في منطقة بشيكتاش، بحسب ما ورد في الوثائق الأرشيفية التي نوردها في ملحق هذه الدراسة. ونفهم من محتوى هذه الوثائق أن حسين باشا تونس أراد مجاورة زميله السابق البكرباي جعفر الذي سلّمه عهدة مواصلة منصب باشوية إيالة تونس قبل تولّيه منصب باشا على طرابلس الغرب، ثم على جزيرة قبرص. فاشترى في صيف 1597م دارًا كبيرة مطلة على ساحل البحر في الحيّ الذي يسكنه جعفر باشا، في منطقة بشيكتاش، وهي دارٌ واسعة، تتكوّن من "ستة أبواب"، أي ستّ غرف كبيرة بحساب باب مستقل لكل غرفة، في شكل طوابق، تتقدّمها حديقة تشتمل على أشجار مثمرة وأخرى غير مثمرة (شجر السرو)، وتشتمل على بئر ماء، وحظيرة لتربية الماشية والدواجن والحيوانات الأليفة. وتذكر الوثائق حدود الدار، فتقول إنها تفتح على ساحل البحر من جهة، ويحدّها ملك بيد جعفر باشا من جهة أخرى، وتفتح على الطريق العام من جهة ثالثة. ويذكر عقد الشراء أن حسين باشا اشترى هذه الدار عن طريق وكيله "مامي كنتخدا"، من ورثة شخص تركي يدعى خضر شلبي، وهما عائشة خاتون وأرسلان صوباشي ابن عبد الله، زوج المرحومة صالحة، بمبلغ قدره 230000 أقبجة فضية. ولا شك في أن الوكيل مامي هو من رجال حسين باشا، وقد قدّم من تونس لشراء هذا المنزل، لأن "الكتهدا"، أو "الكتخدا"، هو الذي يتكفّل بنقل الرسائل والأحكام والفرمانات، وله حرية ركوب مختلف سفن الأساطيل العثمانية التي تجوب حوضي البحر الأبيض المتوسط، الشرقي والغربي، ذهابًا وإيابًا. ويفيد عقد الشراء أن مامي حضر في المجلس الشرعي التابع للاحية غلطة في حيّ سنان باشا، ودفع المبلغ أمام القاضي مصطفى بن عبد الرحمن. وكان الشهود الذين حضروا عملية كتابة عقد شراء حسين باشا بكرباي تونس ذلك المنزل في بشيكتاش من بين الشخصيات المرموقة، ومن الطبقة البيروقراطية العثمانية؛ إذ حضر فخر الأمراء محمد بيك أمير لواء "قوجه إيلي" (كوجالي)، وهي محافظة عسكرية في مركز مدينة إزميت Izmit تقع على ساحل بحر مرمرية قبل الخروج من مضيق الدردنيل. ومن بين شهود الحال، نجد أيضًا ذكرًا لمجموعة من "رياس" البحر، مثل سليمان ريس ابن عبد الله، ورايس سلطاني، والقبطان جعفر آغا ابن عبد الله، وشخصيات أخرى، مثل مراد آغا ابن عبد الله، ومحمد بن محمود المؤذن، ومصطفى بن عبد الله الكاتب.

لقد تزامن شراء حسين باشا الدار مع بداية عدم استقرار المشهد السياسي والعسكري في إيالة تونس، ويبدو أن صعود الداوي في رتبته العسكرية الجديدة داخل ديوان العسكر بعد عام 1591م، وتراجع النفوذ العسكري لحسين باشا، كانا سببًا لقراره الخروج من تونس وشراء دار في السدة العلية، ليستقر فيها نهائيًا مع عائلته في إستانبول. والظاهر أن تراجع قيمة الأقبجة وانخفاض وزن معدنها الفضي في تلك السنوات، والوضعية المادية الميسورة لحسين باشا - بغض النظر عن وضعية الإيالة - من بين الأسباب التي جعلته قادرًا على شراء هذه الدار الكبيرة المُنطة على البحر، بذاك السعر المرتفع؛ فالأقبجة شهدت تدهورًا ملحوظًا في الفترة 1585-1690م، وقد انحَل النظام النقدي بسبب نفاد معدن الفضة، ونتيجة للصعوبات المالية والاقتصادية والسياسية التي أدّت إلى سيادة القطع النقدية المعدنية الأجنبية في الأسواق العثمانية. فعام 1596م، تاريخ شراء حسين باشا داره في إستانبول، كان وزن الأقبجة يراوح بين 0.38 و0.32 غرامًا من الفضة، وهو وزن خفيف جدًّا، مقارنة بوزنها في القرن الخامس عشر. وقد دفعت حدة الأزمة النقدية التي عرفتها الأقبجة إلى إذابة

العثمانيين عام 1685م الأواني والأدوات الفضية والذهبية الموجودة في السرايا وتحويلها إلى عملة⁽¹²⁾. وتزامن شراؤه هذه الدار مع أمره بتهيئة نافذة في مقصورة محرز بن خلف في جامع الزيتونة، في تونس (كما ذكرنا سابقاً) وهذا يعكس وضعه المادي الميسور.

الصورة (1)

لوحة زيتية للرسام الإيطالي لويجي مايار: مشهد منازل مُطلّة على ساحل البوسفور (1776م)



المصدر:

"The New York Public Library," *Digital Collections*, 1810, accessed on 15/5/2025, at: <https://acr.ps/1L9zS8O>

تفيدنا العديد من الوثائق، ومن بينها الوثيقة (3) في الملحق، أنّ أبناء حسين باشا الأشقاء، يوسف شلبي ومصطفى شلبي وحميد شلبي، وبناته قمر وتورّكه، بعد وفاة أبيهم (تُرجّح وفاته قبل عام 1618م)، باعوا الدارَ لسانان آغا ابن عبد المنان، نائب أوقاف جامع السلطان بايزيد خان الثاني (ت. 1512م)، بقيمة 70000 أقجة. ويستنتج من خلال الوثيقة الثانية أنه جرى إبرام وعد بالبيع مع الحاج يونس، نائب سنان آغا ابن عبد المنان الذي فوجئ بتراجع أبناء الباشا عن بيع الدار وامتناعهم عن تسليمها. ولم تذكر لنا الوثيقة السبب الأساسي لمحاولة إلغاء أبناء حسين باشا الوعد بالبيع، واكتفت بذكر تعلّلهم بعدم جواز البيع بالوكالة مشافهة. ويكمن السبب الحقيقي لمحاولة إلغاء عملية البيع، بحسب رأينا، في تفتّن الورثة لانخفاض سعر البيع الذي جرى الاتفاق عليه، مقارنة بالسعر الذي دفعه والدهم عند شراء الدار.

ويُفهم من الوثيقة (3) أنّ نائب وقف جامع السلطان بايزيد الثاني الذي خصّه محرّر الكتب، القاضي حسن شعبان، بـ "تحلية" طويلة، "قدوة الأمائل والأركان وعمدة الأماجد والأعيان [...]"، هو من أعيان رجال الدولة الممثلين لأجهزتها الإدارية. كما يفهم من الوثيقة التي بحوزتنا أيضاً أنّ نائب الوقف توصّل إلى إجبار ورثة حسين باشا على القبول بالبيع بالوكالة، وأنّ قضاة المجلس الشرعي حسموا الأمر لمصلحته، والحال أنه بشراء ملك البكركباي المخلف بثمان رمزي أراد أن يلحقه بأوقاف جامع السلطان بايزيد الثاني

12 عبد الرحيم بنحادة، العثمانيون: التاريخ والمؤسسات والاقتصاد والثقافة (1300-1924) (المغرب: منشورات باب الحكمة، 2023)، ص 249-251.

ومركبه المعماري، وكأن العملية أصبحت شراء في شكل مصادرة ملك من أملاك أحد البكرايات. والدليل على أن هذا الملك سينتقل إلى ريع الأقباس هو حضور كاتب الأوقاف فخر الأعيان أحمد أفندي من بين شهود الحال في تقييد صحة الشراء بالوكالة.

لقد حسم نائب وقف جامع ومركب السلطان بايزيد الثاني سنان آغا عملية شراء دار حسين باشا لمصلحته، من خلال اعتراف ورثة حسين باشا اعترافاً كتابياً في المجلس الشرعي، بعدم بقاء أي علاقة لهم بالدار وعامة منافعها، وذلك في صيف 1618م، أي بعد سنة من الخصام، واشتراها من الورثة بالثمن نفسه، وتمكن من تسلم شهادة ملكية مختومة بختم العدل أحمد بن محمد المولى على محكمة محمود باشا في القسطنطينية، وذلك بالثمن نفسه المذكور الذي جرى الاتفاق عليه منذ الوعد بالبيع، أي 70000 أقجة. وقد خسر من الشهود لتقييد الكتب أفاضل رجال الدولة؛ مثل المدرس مصطفى أفندي، والشيخ مولانا حسام الدين، وقائد آغا العسكر حسين جاوش، ومحمد شلبي الكاتب.

الخريطة (1)

مكان دار حسين باشا في ساحل بشيكتاش



المصدر: Google Earth، شوهده في 2025/5/20، في: <https://acr.ps/1L9zS9L>

ثالثاً: قراءة في بنية النصوص

لاحظنا، خلال قراءة هذه الوثائق العثمانية وترجمتها، التشابه الصارخ بينها وبين وثائق الأحكام والنوازل ونسخ الرسوم التي يكتبها عدول وقضاة ومفتي ومشايخ القطر التونسي، فقد اعتمد الكتاب الأتراك كثيراً من المصطلحات المشابهة لمصطلحات لدى التونسيين من ناحية الشكل والمضمون. فمن ناحية الشكل مثلاً، لم تفتقر الوثائق إلى وجود أسماء الشهود والعدول وطابع القاضي أو المفتي وتوقيعه الذي نعت به "خنفسة". ويأخذ النص وسط الورقة، ويترك الهامش من اليمين واليسار، للإضافات والتعديل، في حين تُخصص "الطرة" لكتابة اسم القاضي أو المحرّر. وفي نهاية الورقة، خُصصت المساحة لكتابة أسماء الشهود وتوقيعهم. واحتوت نصوص البيع والشراء والتقييد هذه على ذكر أسماء أعلام مسبوقه بما يعرف لدى التونسيين بـ "التحلية"، فقد ذكر اسم باشا تونس البكلرباي حسين كالآتي: "أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذو القدر والاحترام حالاً بكلربكي إيالة تونس الباشا حسين". ونُعت نائب أوقاف جامع السلطان بايزيد الثاني بـ "فخر الأعيان مقبول الصدق والأركان سنان آغا ابن عبد المنان". ونلاحظ، أيضاً، استعمال مصطلحات تمجيدية وألقاب فخريّة، مثل "فخر الأقران"، و"فضل المدرسين"، و"فخر الكرام"، و"فخر الجيوش"، و"المعتمد"، و"فخر الأمراء"، وبالنسبة إلى النساء، فقد اعتُمدت صفة "الحرّة صاحبة العفة"، و"فخر المخدرات" (أي المصونة). ولم تخلُ الوثائق من دمج إحياءات دالة على فقر الكتبة والقضاة والتضرّع لربهم وإظهار مسكنتهم، فقد تعمّدوا استعمال مصطلحات خاصة عند ذكر أسمائهم، مثل "كتبه العبد الفقير" و"نمقه فقير الوري"، و"عفا عنه رب البريّة"، وهذه الإحياءات ليست غريبة عن كتابة العدول في البلاد التونسية.

نلاحظ أيضاً إحقاق أسماء المدن والنواحي بصفة، مثل "غَلَطَة المحروسة" و"غَلَطَة المحميّة" و"استانبول المحروسة". وقد نعت المجلس الشرعي لناحية إستانبول بـ "المجلس الشرعي الشريف شامخ البنيان ومحفل الدين المنيف راسخ الأركان" للدلالة على عظمتها وعظمة خدماته التي يقوم بها في حماية أحكام الشرع. ومثل ما هو متواتر لدينا، جرت الإشارة إلى موقع دار الباشا حسين وتحديد موقعها بذكر الحدود التي تحيط بها من كل جانب. وأخيراً، خُصص آخر الرقيم (وثيقة الأرشيف التي كُتب عليها العقد) لتحديد تاريخ التقييد باليوم والشهر والسنة الهجرية، ودُكرت مجموعة الشهود تحت مسمى "شهود الحال".

خاتمة

لئن اتسمت بنية السرد التاريخي لأحداث نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بكتابة أخبار تتخذ صفة عدم الاكتمال، وتكشف عن قابليّة مُحَبَّرِها صوغ الخبر من منظورهم الشخصي، سواء كان ذلك عبر تخيل الظروف المكملّة للخبر أو عبر تغييره وعدم إظهار أهميته، فإن هذه الوثائق الأرشيفية تؤدي دوراً في كشف النقاب عن تفاصيل مهمة تساعد في كتابة صادقة لتاريخ السنوات الأولى من الحضور العثماني في القطر التونسي. إن غياب الاطلاع على المصادر التركية العثمانية، جعل الرؤية ضبابية، نسبياً، فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين باشوات تونس، وليس ذلك في مركز الخلافة فحسب، بل في الإيالة نفسها أيضاً. وتتميّز هذه الوثائق بقيمتها التاريخية الكبيرة؛ فمن خلالها تمكّنّا من معرفة أسماء أبناء الباشا حسين، ومكان داره، ومصيرها بعد وفاته. وكشفت لنا عن الوضعية المادية الميسورة لباشا تونس الذي تمكّن من شراء دار في مدينة إستانبول في زمن تميّز بأزمات سياسية ومالية. وتدلّ تلك الأحكام التي نشرها عبد الجليل التميمي على اهتمام الباشوات بتجميع الأموال وخلصتها، ومثول بعضهم أمام المحاكم الشرعية

لاستجوابهم عن التعديت والمخالفات التي قاموا بها، وملاحقة آخرين⁽¹³⁾. وعلى الرغم من الأزمة النقدية التي عاشتها القسطنطينية، وارتفاع الأسعار فيها من جراء تدهور عملتها الفضية، فضلاً عن أن الأزمة المالية التي تتخبط فيها ولاية تونس المنهكة من تبعات الحروب والانقلابات العسكرية، فإن هذه الوثائق أماطت اللثام عن قدرة الباشا على شراء العقارات الباهظة في مركز الخلافة إستانبول التي دخلها كمملوك أسير في البحر، واستقر فيها بعد إنهاء فترة ولايته على الإيالات كـ "متعثم" ابن بلد. وتكشف الوثائق أيضاً عن نية باشوات تونس الأتراك في عدم الاستقرار في تونس، وعن رغبتهم في الرجوع إلى إستانبول والبقاء فيها. وأخيراً، يبقى البحث عن قبر حسين باشا، باشا تونس، في إحدى المقابر الموجودة في بشيكتاش، أمراً عاجلاً، فإمكان العثور على شاهد قبره من الأمور الممكنة، علماً أن الوثائق تشير إلى وجود مقابر قريبة من داره.

13 عبد الجليل التميمي، "عثمة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء المهمة دفترية (1559-1595)"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 34 (2006).

المراجع

العربية

ابن عذوم المرادي، أبو القاسم بن محمد مرزوق. **كتاب الأجوبة**. تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة. تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، 2010.

الأسطى، محمد. "ثورة يحيى بن يحيى السويدي أو سويدان". **مجلة البحوث التاريخية**. العدد 1 (1982).

بنحادة، عبد الرحيم. **العثمانيون: التاريخ والمؤسسات والاقتصاد والثقافة (1300-1924)**. المغرب: منشورات باب الحكمة، 2023.

التميمي، عبد الجليل. "عثمة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء المهمة دفترى (1559-1595)". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**. العدد 34 (2006).

ثريا، محمد. **تذكرة مشاهير عثمانية المعروف بالسجل العثماني**. إسطنبول: المطبعة الأميرية، 1890-1893.

خوجة، حسين. **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**. تحقيق الطاهر المعموري. تونس: المطبعة التونسية، 1929.

المناري، مؤيد. "ديوان جند الانكشارية ومقام الحاجي بكتاش ولي بإيالة تونس: الولاء ورمزية الانتماء العثماني". **مجلة السبيل**. العدد 14 (أيلول / سبتمبر 2023).

الوحيشي، سميرة. "ثورة يحيى بن يحيى بإيالة طرابلس في أواخر القرن السادس عشر". **المجلة التاريخية المغاربية**. العدد 122 (2006).

الأجنبية

Jarray, Fathi. "Inscriptions des monuments de la régence de Tunis à l'époque Ottomane: Etudes épigraphique et historique." Thèse de doctorat. Université d'Aix-Marseille, Aix-en-Provence. 2007.

Uzunçarşılı, İsmail Hakkı. *Osmanlı Tarihi*. vol. 3, part 2. Ankara: Türk Tarih Kurumu, 2011.

Von Hammer-Purgstall, Joseph. *Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours*. J. J. Hellert (trad.). 18 vols. Paris: Bellizard, Barthès, Dufour & Lowell, 1835-1843.

ملاحق

الملحق (1)

[كُتِبَ شراء الباشا حسين لدار في منطقة بشيكتاش]

ترجمة الوثيقة (1)

نظرت بما فيه وتأملت ما يحويه
كتبه العبد الفقير إلى ربّه المستعان
مصطفى بن عبد الرحمن القاضي
في غَلَطَة الخروسة
عفا الله عنهما

الأمر كما ذكر فيه حرّر
الفقير أحمد بن نبي
المولى بقضاء غَلَطَة خلافة
عُفي عنهما

حضر لدى المجلس الشرعي، كل من ورثة المرحوم خضر شليبي، من سكان قسبة بشيكتاش التابعة لمنطقة غَلَطَة المحمية من مدينة إستانبول، الحرّة صاحبة العفة عائشة خاتون بنت محمد، وأتي الذكر محمود بن مصطفى من جهة، وأرسلان صوباشي ابن عبد الله، زوج المرحومة صالحة خاتون، بنت قِيّة من جهة أخرى، وبحضور وكيل المرحومة صالحة خاتون، حسن صوباشي ابن عبد الرحمن، وبشهادة الشيخ إبراهيم شليبي بن عبد الله، وباع ورثة المرحوم خضر شليبي بيعة واحدة المنازل الستة، المعتلات بعضها فوق بعض، وذات الستة أبواب، في قسبة بشيكتاش، بحقوقها وكافة منافعها، المشتمة على حديقة وبئر وحظيرة للماشية، يحدها في طائفة ملك على يد بكربكي إيالة قبرص الباشا جعفر، وفي طائفة أخرى ضفة شاطئ البحر، ومن طائفة طريق عام إلى أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي القدر والاحترام حالاً بكربكي إيالة تونس الباشا حسين، بيعاً صحيحاً باتاً خالياً من الشوائب، بثمن قدره 230000 أقبجة فضية رائجة الوقت، سُلِّمت إلى يد وكيل الباشا السيد مامي كتحدا ابن عبد المنان. واستلم ورثة المرحوم خضر باشا، وقبض الثمن كلّهُ، وذلك بشهادة كل من يوسف باي ابن سليم ورضوان آغا. وتمّت البيعة بالوكالة المذكورة كيفما ذكر الاستقرار التام بالشراء الصحيح والثمن المندفع المعلوم قدره، وحضر شاهداه عمر باي ابن عبد الله ومصطفى باي ابن عبد الله، وتمّ التصديق عليها وجهاً ومشافهةً، وحرّر هذا الكتاب وسُلِّم بيد وكيل باشا تونس المذكور في أوائل شهر ذي القعدة الشريف لسنة ألف وخمس من الهجرة النبوية.

شهود الحال:

مراد آغا ابن عبد الله، راييس سلطاني، أحمد أفندي عبد الله الإمام، إسماعيل باي ابن عبد الله، رضوان بيك ابن عبد الله، مامي شاه ابن مصطفى، محمد بن محمود المؤذن، عمر بيك ابن عبد الله، مصطفى بن حمزة، حاجي محمد بن عبد الله، سليمان راييس ابن عبد الله، فخر الأمراء محمد بيك أمير لواء قوجه إيلي (كوجالي)، حسن بيك ابن عبد الله، جعفر بن محمد، حيدر آغا ابن عبد الله، مصطفى بن عبد الله الكاتب، ديكر جعفر آغا ابن عبد الله قبودان.

الوثيقة (1): النص بالحروف اللاتينية

Belge 1: TSMA. E 0221/ 12

Nazart–u bi mâ fih ve teameltu mâ yahvîh
Katebehu el–abdu'l fakîr ilâ rabîh–i al musta'ân
Mustafa bin Abdurrahman
al– Kazi bi– Galata el–mahrusa
afâ Allahu a'nhumâ

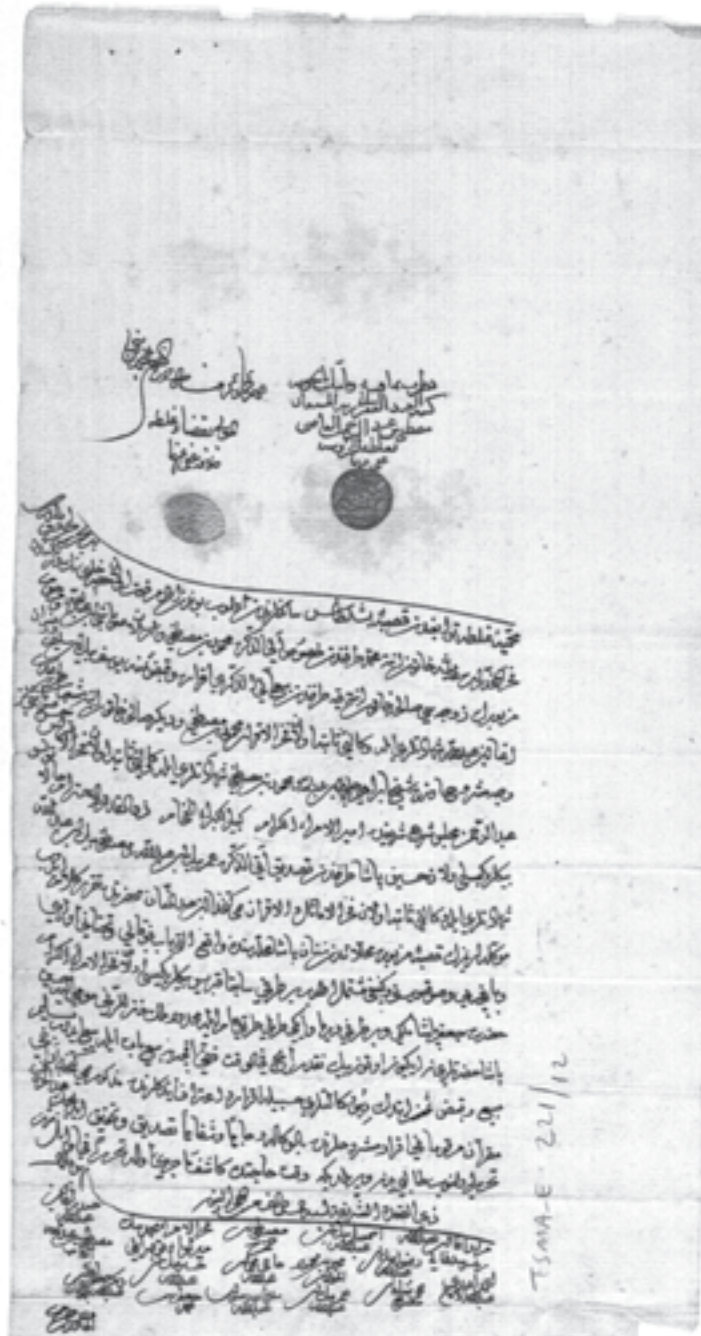
El– emru kema zukira fihi hurrira
El– fakir Ahmed b. Nebi
el Muvella bi–kazâi Galata
hilafeten ufiye anhuma

Mahmiyye-i Galata tevabiinden kasaba-i Beşiktaş sakinlerinden olup bundan akdem fevt olan Hızır Çelebi'nin veresesinden fahrü'l-muhadderât Ayşe Hatun bint Muhammed tarafından husus-i âti'z-zikr Mahmut b. Mustafa ve Arslan Subaşı b. Abdullah ve merhum-ı mezburun zevcesi Saliha Hatun bint Kiyee tarafından bey'-i ati'z-zikri ikrar ve kabz-ı semeneh Yusuf Bey b. Selim ve Rıdvan Ağa b Abdullah'ın şهادتleri ile vekâleti sabite olan fahrü'l-akrân Mahmut b. Mustafa ve değer Saliha hatun bint Şaban tarafından vech-i meşruh üzere Şeyh İbrahim Çelebi b. Abdullah ve Mahmut b. Mustafa şهادتleri ile vekâleti sabite olan fahrü'l-akrân Hassan Subaşı b. Abdurrahman meclis-i Şer'-i Şerif'te emirü'l-ümerâi'l-kiram kebirü'l-küberâi'l-fihâm zü'l-kadri ve'l-ihtram hâlâ Tunus Beylerbeyisi olan Hüseyin Paşa tarafından tasdik-i âti'z-zikr Ömer Bey b. Abdullah ve Mustafa Bey b. Abdullah şهادتleri ile vekâleti sabite olan fahrü'l-emasil ve'l-akrân Memi Kethüda b. Abdülmennân mahzarında takrir-i kelim edip müvekkilimizden kasaba-i mezbure mahallâtından Sinan Paşa mahallesinde vaki altı bâb fevkani ve tahtanı evleri ve bahçeyi ve su kuyusunu ve kenifi müştemil olup bir tarafı sabıkan Kıbrıs Beylerbeyisi olan fahrü'l-ümerâi'l-kiram Hazreti Cafer Paşa mülkü ve bir tarafı derya ve iki tarafı tarik-i âm ile mahdud mülk menzillerini muma ileyh Hüseyin Paşa hazretlerine iki yüz otuz bin nakd-i rayic fi'l-vakti fiddî akçaya bey'-i bat ile bey'i edip teslim-i mebi' ve kabz-ı semen ettik diye vekâletleri hasebiyle ikrar ve itiraf ettiklerinden mezkûr Memi kethüda dahi mukiran-ı markumânı ikrar-ı meşruhlarından bi'l-vekale vicâhen ve şifâhen tasdik ve tahkik edecek hazâ'l-huruf tahrir olunup talibi yedine verildiğine vakt-i hâcette kâşif mâ cerâ ola tahriren fi evaili şehri zılkaade-i eş-şerife li-seneti 1005 mine'l-hicreti'n-nebeviyye.

Şuhudu'-hâl:

Murad Ağa bin abdullah, Reis Sultani, Ahmed efendi bin abdullah al- Imam, Ismail bey bin Abdullah, Rızvan bey bin Abdullah, Memi şah bin Mustafa, Muhamed b. Mahmud al- Müezzin, ömer bey bin Abdullah, Mustafa bin Hamza, Hacci Muhammed bin Abdullah, Süleyman Reis bin Abdullah, fahrü'l- umerâ Muhammed Bey emir-i livây-ı Kocalı , Hasan bey bin Abdullah, Cafar bin Muhammed, Haydar ağa bin Abdullah, Mustafa bin Abdullah al-katib, diğer Cafar Ağa bin Abdullah Kapudan.

صورة الوثيقة (1)



TSMAs.E.0221

المصدر:

طوب كايي، محفظة أ، وثيقة عدد 0221-12، مؤرخة في أوائل ذي القعدة 1005هـ (24 حزيران/ يونيو 1597م).

الملحق (2)

[كُتِبَ لأداء شهادة شرعية بخصوص صحة شراء الحاج يونس منزل المتوفي حسين باشا تونس بعد اعتراض ورثة الباشا
وإدعائهم عدم صحة الشراء بالوكالة]

ترجمة الوثيقة (2)

الأمر كما حرر فيه نَمَقَه أفقر الوري

حسن شعبان القاضي

في مدينة غَلَطَة الحمية عفا

عنهما رب البرية

هذا تحرير كتاب في صحة نصاب،

بعد أن ثبت لدى القاضي حسن شعبان قاضي غَلَطَة المحمية في التاريخ - عفا الله عنه - أنه بعد وفاة بكربكي تونس السابق الباشا حسين، انحصر ملكه المتمثل في دار ذات الستة بيوت، في حي سنان باشا في ورثته من صلبه، وهم أولاده الأشقاء يوسف شليبي ومصطفى شليبي وحמיד شليبي لا غير، وبناته قمر وثوركة لا غير. وكون ذلك كذلك، حضر الآن لدى شاهديه في المجلس الشرعي الشريف شامخ البنيان ومحفل الدين المنيف راسخ الأركان، الحاج يونس بن محمد من متساكني منطقة حيدر باشا، من مدينة إستانبول المحروسة، نائباً عن قدوة الأماثل والأركان وعمدة الأماجد والأعيان سنان آغا ابن عبد المنان وكيل ومتولي وناظر وقف عمارة السلطان المرحوم بايزيد خان عليه الرحمة والرضوان، متقدماً برسم نازلة رفعها ضد يوسف شليبي ومصطفى شليبي وحמיד شليبي ورثة الباشا حسين بكربكي تونس، فحواه أنه اشترى منهم الورثة عن طريق الوكالة الدار كلها، المكونة من ستة أبواب، معتلات بعضها فوق بعض، والكائنة في بشيكتاش التابعة لمنطقة غَلَطَة، وتحديدًا في حي سنان باشا، يحدها في طائفة ملك بيد ورثة جعفر باشا، وفي طائفة أخرى شاطئ البحر، وفي طائفة أخرى طريق عام، بحقوقها كلها وعامة منافعها المتمثلة في بئر وحظيرة للماشية وحديقة وبعض الأشجار المثمرة وغير مثمرة، بثمن قدره سبعين ألف أجرة فضية عثمانية رائجة الوقت، يتم تسليمها لهم في الإبان، وذلك بشهادة العدلين إبراهيم أفندي ابن علي ومحمد أفندي ابن محمود. لكن عند تقييد البيعة امتنع الورثة عن تعيين وكيل مأمور، ورفضوا تسليم المنزل بتعلة أن البيعة تمت مشافهة، وأنكروا البيع بالوكالة. ولتثبيت عملية الشراء، حضر لدينا عدلاً للإشهاد. وعند الشهادة، وبحسب الشهادة الشرعية، توفرت شروط القبول بصحة شراء سنان آغا وصحة وكالة الحاج يونس بحكم الوكالة، وتم التصديق بصحة شرعية ملك سنان آغا للمنزل وسلمت له هذه الحجة، تحريراً في 22 من رجب الفرد لسنة 1026هـ.

شهود الحال:

فضل المدرسين الكرام مصطفى أفندي الشهير بنقشبند مولانا عبد الرحمن أفندي حسام الدين، فخر الأعيان أحمد أفندي كاتب الأوقاف، فخر الكرام يوسف جاوش ابن خاورددي، فخر الجيوش حسين جاوش ابن عبد الله، فخر الأقران محمد جليبي الكاتب، أحمد بن محمد، الحاج حسين بن حسين المعتمد، جعفر بن أحمد المعتمد، عن أصحاب التقرير والرقيم حسن جليبي الكاتب والعدول الحاضرين.

الوثيقة (2): النص بالحروف اللاتينية

Belge 2 : TSMA- E 1249/ 55

El- emru kemâ hurrira fihi

namakahu efkaru'l verâ

Hasan b. şaban al –Kazî

Bî madineti Galata al –mahmiyye afâ

Anhumâ rabbu'l berriyye

Tahrir –i Kitab sıhhat –ı nisab budur ki

Sabıkan Tunus beylerbeyisi olup müteveffa olan merhum Hüseyin Paşa'nın veraseti sulbî kebir oğulları Yusuf Çelebi ve Mustafa Çelebi ve Hamid Çelebi'ye ve sulbiye kızları Kamer ve Turka'ya münhasır olduğu mutea'yyen ve mütebeyyen olduktan sonra bi'l-fiil cennet-mekân firdevs-aşıyan Sultan Beyazıt Han aleyhi'r-rahmetü ve'r-rıdvan hazretlerinin mahruseyi İstanbul'da vaki imaret-i âmireleri evkafı mütevellisi olan kudvetü'l-emâsil ve'l-akran umdatü'l-emâcid ve'l-ayân Sinan Ağa b. Abdülmennân meclis-i şer'-i şerif şamihü'l-bünyan ve mahfel-i din-i münif-i rasihü'l-erkânda mahruse-i İstanbul Haydar Paşa mahallesinde sakinlerinden el-Hâc Yunus b. Muhammed nâm kimesne muvacehesinde üzerine takrir-i dava edip müteveffa-i mezburunun muhalefâtından mahmiye-i Galata'ya tabi Kasaba-i Beşiktaş'ta Sinan Paşa mahalesinde vaki bir tarafı merhum Cafer Paşadan veresine intikal eden mülklerine ve bir taraf şatt-ı bahr ve bir tarafı tarik-i âmma ve bir tarafının bazı mekabire ve bazı tarik-i âm muntehi ve mahdud olup tahtani ve fevkani altı bâb buyutu ve bir su kuyusunu ve kenifi ve zat-ı eşcar-ı müsmire ve gayri müsmire muhavatayı müştemil olan mülk menzili mezbur el-Hâc Yunus bundan akdem mezburûn Yusuf Çelebi ve Mustafa Çelebi ve Hamid Çelebi ve Kamer ve Turka'ya kabillerinden bey'a vekâleti cihetiyle bana fiddî Osmani rayicü'l-vakt yetmiş bin akçeye bâten bey' ve kabz-i semen eymiş iken mebi' olan menzil-i mezkuru teslimden imtina eder vekâlet mahkiyesi cihetinden teslim ettirilmek matlubumdur sual olunsun dedikte inde's-sual merkun el-Hâc Yunus takrir-i kelam edip fi'l-vaki menzil-i mezkûru mude'î-i mezbur Sinan Ağa'ya semen-i mezkûr yetmiş bin akçeye bâten bey'i edup semen-i mezkûr dahi verese-i mezkureye isal için bi't-tamam yedinden kabz eyledim lakin a'kd-i mezkûr inşa emrinde verese-i merkuma kabillerinden vekil memur olmayıp fuzuli olduğum için teslimi üzerime lazım değildir deyip vikaleti inkâr ve teslimden imtina'dan ısrar edecek mude'î-i mezbur Sinan Ağa'dan davasını mübeyyine beyyine taleb olundukta udûldan İbrahim Efendi b. Ali ve Muhamed Efendi b. Mahmud hazirâni fi'l-meclis olup gibbe'l-istişhad fi'l-vaki' mezburdan Yusuf çelebi ve Mustafa Çelebi ve Hamid Çelebi ve Kamer ve Turka'ya mülk-i mevrusları olan menzil-i mezkuru beya' akd-i mezkûrdan mukadem vekil ve beya' akd-i mezkûrdan mukadem-i vekil ve naib-i menâb etmişler idi bu hususa şahitlerden şehadet dahi ederiz diye eda-yı şehadet-i şer'iyye ettiklerinden gibbe riayeti şerayiti'l-kabul şehadetleri hayyiz-i kabulde vaki' olup mezbur el-Hâc Yunus'un sıhhat-ı vekâletine hüküm ve bi-hükmi'l-vekâle menzil-i mezkuru müşteri-yi muşarun ileyh Sinan Ağa'ya teslimine tenbih olmağın vak-i hal gibbe't-taleb ketb ve talibi yedine def olundu tahriren fi'l-yevm 22 min recebi'l-ferd li-seneti 1026.

Şuhudu'l-hâl:

Fahrü'l-müderrişîni'l-kirâm Mustafa Efendi eş-şehir bi-Nakşibendizâde, Mevlana Abdurrahim Efendi b. Husameddin, Fahrü'l-ayân Ahmed Efendi kâtibü'l-evkaf, Fahrü'l-akran Yusuf Çavuş b. Hüdaverdi, Fahrü'l-cuyuş Hüseyin Çavuş b. Abdullah, Fahrü'l-akran Mehmet Çelebi el-Kâtib, Ahmed b. Muhammed, El-Hâc Hüseyin b. Hüseyin el-Mutemed, Cafer b. Ahmed el-Mutemed, An ashabu't-takrir ve'r-rakam hasan Çelebi el-Kâtib, Ve'l udûl al-hazırîn.

صورة الوثيقة (2)



المصدر: طوب كايي، محفظة أ، وثيقة عدد 55-1249، مؤرخة في 22 رجب 1026هـ (25 تموز/ يوليو 1617م).

الملحق (3)

[تقييد عملية شراء الستة منازل وإعطاء شهادة ملكية لسان آغا ابن عبد المنان في المجلس الشرعي]

ترجمة الوثيقة (3)

الأمر كما ذكر فيه، نَمِّقَهُ الفقير لله تعالى أحمد بن محمد المولى خلافة في محكمة محمود باشا، في القسطنطينية المحمية عفا
الله عنهما

هذا تحرير الكُتُب:

بعد أن ثبت لدينا انحصار ملك المرحوم معالي بكربكي تونس حسين باشا في أبنائه من صلبه، وهم يوسف باي ومصطفى باي وأحمد باي، وبناته الكبيرة قمر وثوركة، وبعد أن قبض الشقيقان المذكوران مصطفى وأحمد من يوسف وقمر وثوركة جميع المبلغ الآتي ذكره بشهادة السيد إبراهيم أفندي ابن علي ومحمد أفندي ابن محمود على النهج المعتبر بالوكالة الصحيحة الثابتة في موكلهم فخر الأعيان السيد أحمد شليبي ابن محرم، حضر لدى المجلس الشرعي متولي أوقاف عمارة السلطان بايزيد خان عليه الرحمة والرضوان، فخر الأعيان المقبول الصدق والأركان سنان آغا ابن عبد المنان للتصديق شرعاً على شرائه لجميع الدار المكوّنة من ستة أبواب، معتلات بعضها فوق بعض، والكائنة في منطقة بشيكتاش، التابعة لناحية غَلَطَة، وتحديدًا في حي سنان باشا، يحدها في طائفة ملك بيد ورثة جعفر باشا، وفي طائفة أخرى شاطئ البحر، وفي طائفة أخرى طريق عام، بحقوقها كلها ومنافعها المشتملة على بئر وحظيرة للماشية وحديقة محاطة ببعض الأشجار المثمرة وغير مثمرة، على يد وكيله الحاج يونس بن محمد والحاضر الآن في المجلس أيضًا، الذي أخذ وقبض من يده مقدار 70000 أجرة سكة الوقت ثمن الدار المذكورة المخلفة عن والدهم اشتراء جائزًا صحيحًا منحكمًا منبرمًا باتًا، وقبض البائعون جملة الثمن المذكور بموجب ما ذكر، وكيفما ذكر، ومثلما ذكر. وكون ذلك كذلك، أصبحت الدار المذكورة على ملك المومناً إليه سنان آغا، وأقر الشقيقان المذكوران مصطفى وأحمد أنه لم يعد المبيع المذكور تابعاً لهما، وشهد على إشهدهما الوكيلان أحمد شليبي والحاج يونس تصديقاً في حالة جائزة، وكتب هذا التقييد بطلب منهم في اليوم الثاني عشر جمادى الآخرة سنة 1027هـ.

شهود الحال:

حمزة أفندي القاضي، نصوح بن يوسف، مصطفى أفندي، الحاج حسن بن حسن، مصطفى بن الراحل، إسماعيل بن عبد الله، الحاج محمد بن صالح، سیاوش بن عبد الله، سيد أفندي ابن يعقوب، وغيرهم.

الوثيقة (3): النص بالحروف اللاتينية

Belge 3: 1249 / 55 TSMA-E (BOA, TSMA.e., 124901-55/)

El- emru kemâ hurrira fihi namakahu efkaru lillehi taalâ

Ahmed bin Muhammed hilafe-i al mahmiyye

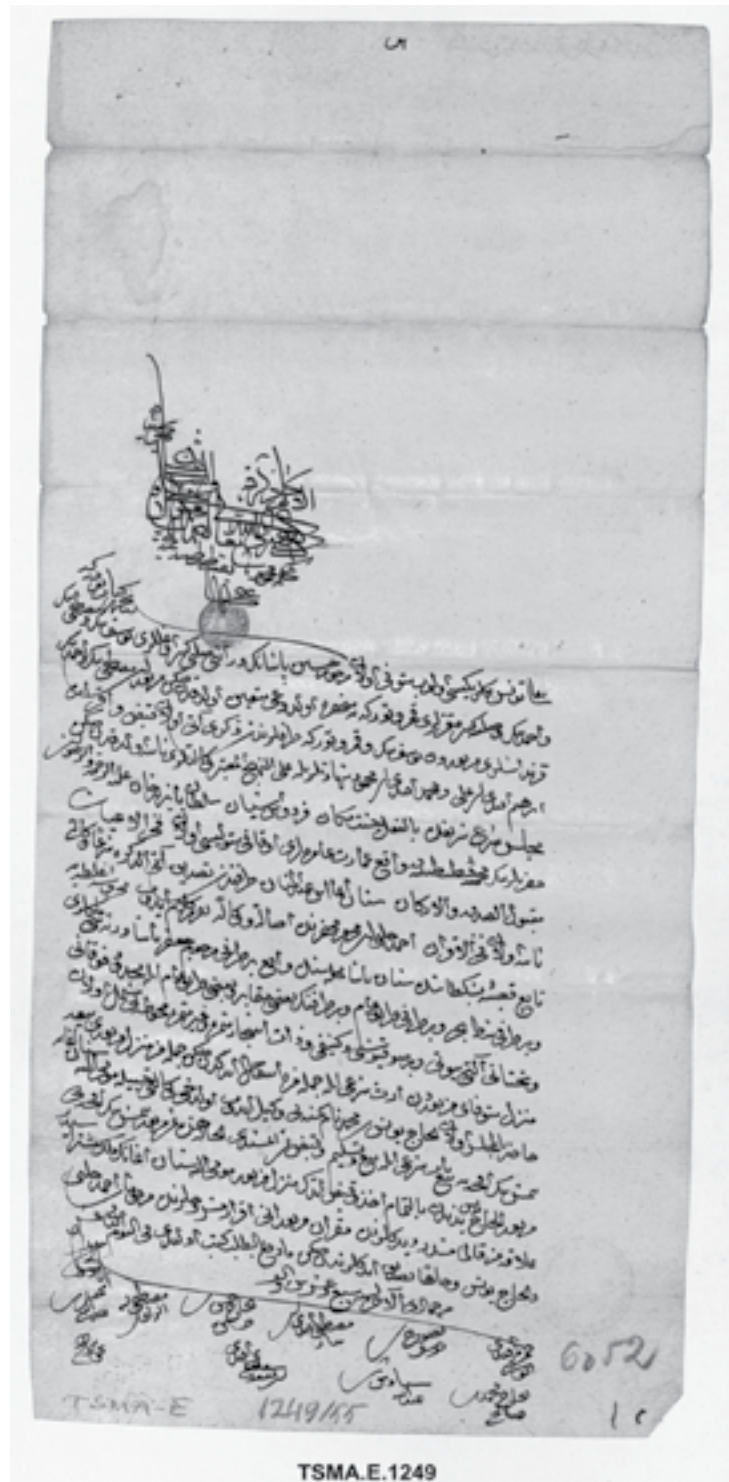
Bî mahalleyi mahmut paşa bil Kostantiniya al-mahmiyye afâ allahu anhumâ

Tahrir-i Kitab budur ki

Meali Tunus Beylerbeyisi olup müteveffa olan merhum Hüseyin Paşa'nın varisi sulbi kebir oğulları Yusuf Bey ve Mustafa Bey ve Ahmed Bey ve sulbiye kebir kızları Kamer ve Turka'den münhasır olduğu müteayyen olduktan sonra mezburları Mustafa Bey ve Ahmed Bey karındaşları mezburûn Yusuf bey ve Kamer ve Turka taraflarından zikr-i âti olan kabzı ve ikrar İbrahim Efendi bin Ali ve Muhammed efendi bin Mahmud şهادتleriyle ale'n-nehci'l-muteber vekaletleri sabite olduklarından sonra meclis-i şer'-i şerifte bi'l-fiil cennet-mekân firdevs-aşıyan Sultan Beyazıt Han aleyhi'r-rahmetu ve'r-rıdvan hazretlerinin mahmiye-i Konstantiniye de vaki' imâret-i âmireleri evkafi mütevellisi olan fahru'l-ayân makbulu's-sıdk ve'l-erkân Sinan Ağa b. Abdülmennân tarafından tasdik-i âti'z-zikr şer'an vekaleti sabite olan fahru'l-akrân Ahmed Çelebi b. Muharrem mahzarında asaleten ve vekâleten takrir-i kalam edip mahurse-i Galata'ya tabi kasaba-ı Beşiktaş'ta Sinan Paşa mahallesinde vaki bir tarafı merhum Cafer Paşa veresesi mülkleri ve bir tarafı şatt-ı bahr ve bir tarafı tarik-i âm ve bir tarafının bazı mekâbir ve bazı tarik-i âm ile mahdud fevkânî ve tahtânî altı buyutu ve bir su kuyusu ve bir kenifi ve zatı eşcar-ı müsmire ve gayrı müsmire muhavvatayı müstemil olan menzili müteveffa-yı mezburdan irs-ı şer'iyle cümlemize intikal ettikten sonra cümlemiz menzil-i mezburu beya' hazır-ı bi'l-meclis olan el-Hâc Yunus b. Muhammed nam kimesneyi vekil edip ol dahi vekaleti hasebiyle muma ileyh Sinan ağaya yetmiş bin akçeye bey'i bât-ı şer'î ile bey' ve teslim ve kabz-ı semen elhaletü hazihi semen-i mezbur yetmiş bin akçeyi mezbur el-Hâc Yunus yedinden bi't-tamam ahz ve kabz ettiği menzil-i mezbur muma ileyh Sinan Ağa'nın mülk-i müşterasıdır alakamız kalmamıştır dediklerinden mukirrân-ı mezburânı ikrâr-ı meşruhlerinde merkuman min Ahmed Çelebi ve el-Hac Yunus vicâhen tasdik ettiklerinden sonra mâ vaka'a bi't-taleb ketb olundu fi'l-yemi's-sâni aşer Cumaziye'l-ahir li-seneti 1027

Şuhudu'l hâl:

Hamza Efendi el-Kâdı, Nasuh b. Yusuf, Mustafa Efendi b. ?, El-Hâc hasan b. Hasan, Mustafa b. er-Râhil, İsmail b. Abdullah, El-Hac Muhammed b. Salih, Siyavuş b. Abdullah, Said Efendi b. Yakub ve gayruhum.



المصدر: طوب كابي، محفظة أ، وثيقة عدد 55-1249، مؤرخة في 12 جمادى الآخرة 1027هـ (5 حزيران / يونيو 1618م).

ندوة أسطور Ostour Symposium



أهمية منهجية التاريخ التسلسلي والكمي في كتابة تاريخ لبنان

Importance of the Serial and Quantitative Methodology
in History and its Application in the History of Lebanon

* أستاذة التاريخ في جامعة البلمند ومديرة قسم التوثيق والتاريخ في معهد التاريخ والآثار وتراث الشرق الأدنى في الجامعة نفسها.
Professor of History at the University of Balamand and Director of the Department of Archive and History of the Research Center of Oriental Heritage.

Souad.slim@balamand.edu.lb

مقدمة

يعاني المؤرخون في لبنان صعوبات كثيرة في التأريخ؛ فمن جهة، كل وثيقة تاريخية يمكن أن نجد لها وثيقة مضادة، إنه جدل الصراع بين المضاد والنقيض. ومن جهة أخرى، "إذا ضاعت الأصول [الوثائق] ضاع التاريخ"⁽¹⁾، ولذلك بذل المؤرخون جهودًا كبيرة لجمع الوثائق المتفرقة في بيوت العائلات في مختلف بلدان الشرق الأوسط. نجد في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية لعام 1920 ووثائق متشابهة من عدة مناطق، تؤكد أن اللبنانيين كانوا يطالبون بانتداب السلطة الفرنسية. في حين أننا نعلم أن العديد من المناطق اللبنانية كانت تعارض ذلك. وفي مرحلة سابقة، يؤكد بعض المؤرخين أن كل أراضي جبل لبنان كانت مصنفة "ملك"؛ وهي ملك خاص لأهالي البلاد. في حين أفصحت الوثائق العثمانية عن أن العديد من الأراضي في جبل لبنان كانت أراضي تيمارية؛ أي أميرية، ضمن الصنف العسكري. ولا تزال العديد من الأراضي في عكار وفي الكورة مصنفة أميرية. وكانت أراضي دير البلمند⁽²⁾، قبل أن تتحول إلى أوقاف، مصنفة في الإحصاء العثماني عام 1520 أنها تيمار محمد كنفاني، وفي إحصاء عام 1157 كانت مصنفة تيمار قلعة طرابلس.

يواجه المؤرخون صعوبات أخرى، تتمثل في انتماءاتهم الطائفية والحزبية، وهذا دفعهم، أحيانًا، إلى تبادل التهم وتحميل مسؤوليات الحرب للفرقاء. وكأن التاريخ أصبح سلاحًا حادًا يُستعمل في المعارك الضارية. وخلال الحروب اللبنانية (1975-1990)، كان كل فريق يسترجع الماضي معتمدًا على وثائق ومراجع تثبت مزاعمه. ففي الصراع على الهوية اللبنانية، إن كانت عربية أو فينيقية، كان كل فريق يدعم آراءه بمراجع قيمة. ولم ينجُ كل من منصور ابن سرجون، جد القديس يوحنا الدمشقي، والبطريك إلياس الرابع، الملقب ببطريك العرب، من تهمة الخيانة. والدليل على ذلك هو الاهتمام الجامع بالشؤون التاريخية خلال الحرب الأهلية، في الندوات، والكتب، والبرامج التلفزيونية، والصحف. فنحن ننظر إلى الماضي، عندما يؤلمنا الحاضر.

تتطلب الاتجاهات العلمية الحديثة لكتابة التاريخ من رفض للماضي في حد ذاته، وتوصي بالاعتماد على الحاضر والانطلاق منه، بحسب مقولة جان شيبو⁽³⁾ "لنمُحْ صفحة الماضي" "Du passé faisons table rase"، حيث يطلق دعوة منهجية لتجاوز التاريخ السردى التقليدي والانطلاق من الحاضر لطرح إشكاليات جديدة. وهذا ما فعله المؤرخ اليوناني ثوكيديد Thucydides⁽⁴⁾، بحديثه المطول عن حرب البيلوبونيز⁽⁵⁾، التي شارك فيها، وهي حرب أهلية جرت بين مدينتي إسبرطة وأثينا. وكذلك تحدث المؤرخ والصحافي الشهيد سمير قصير عن حرب لبنان قبل أن تنتهي، وأكد أنها من صنع اللبنانيين⁽⁶⁾. فالذي يكتب التاريخ هو من فشل في السياسة.

- 1 أسد رستم، **مصطلح التاريخ** (الجيزة: دار تراث للبحوث والدراسات، 2015)، ص 53.
- 2 دير أرثوذكسي عريق يقع في شمال لبنان، وهو من أبرز معالم التراث المسيحي الأرثوذكسي في المشرق. أنشئ في القرن الثاني عشر، على يد الرهبان السيسترسيين اللاتين خلال الحقبة الصليبية (نحو عام 1157م)، وتحول إلى دير تابع للبطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية في القرن السابع عشر. شكل مركزًا دينيًا وثقافيًا مهمًا للكنيسة الأرثوذكسية. أسس فيه البطريك إغناطيوس الرابع هزيم جامعة البلمند في عام 1988، وهي من الجامعات الخاصة في لبنان. يُعرف الدير بمكتبته القيمة ومخطوطاته النادرة، وهو مركز لدراسات اللاهوت الأرثوذكسي والفكر العربي المسيحي.
- 3 جان شيبو Jean Chesneaux: مؤرخ فرنسي بارز في القرن العشرين، عُرف بإسهاماته في التاريخ الجديد وتطبيقه المناهج الحديثة في دراسة التاريخ، خاصة ما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي والثقافي. ينتمي إلى مدرسة الحوليات الفرنسية، وقد دعا إلى القطيعة مع التاريخ السياسي التقليدي الذي يركز على الأحداث الكبرى فحسب، واقترح بدلًا منه التركيز على حياة الناس اليومية، والعقليات، والبنى الاقتصادية، والاجتماعية.
- 4 ثوكيديد (460 ق.م - 395 ق.م): أحد أعظم المؤرخين في التاريخ القديم. يُعتبر مؤسس التاريخ السياسي الواقعي وملهمًا لمدارس الفكر الواقعي في العلاقات الدولية. ترك أسلوبه تأثيرًا عميقًا في المؤرخين والمفكرين حتى العصر الحديث.
- 5 حرب البيلوبونيز: هي سلسلة من الصراعات المسلحة دارت بين أثينا وحلفائها (حلف ديلي) وإسبرطة وحلفائها (الحلف البيلوبونيزي)، دامت بين عامي 431 ق.م. و404 ق.م.، وكان سببها الرئيس هو التنافس السياسي والعسكري والاقتصادي بين أثينا وإسبرطة، وسعي أثينا للهيمنة على المدن اليونانية الأخرى، وخوف إسبرطة من توسع نفوذ أثينا.
- 6 سمير قصير، **حرب لبنان: من الشقاق الوطني إلى النزاع الإقليمي 1975-1982**، ترجمة سليم عنثوري (بيروت: دار النهار للنشر، 2007).

ومن يكتب التاريخ، يساهم في صنعه؛ إذ يؤثر في رؤية المستقبل من خلال الحاضر. فكيف نوفق في كتابة التاريخ بين الموضوعية المطلوبة والالتزام بصناعة الحاضر؟

إن الهدف الأساسي لهذه الدراسة هو عرض المنهجية الحديثة التي نشأت في فرنسا مع مجلة **الأنال**⁽⁷⁾، بالاعتماد على منهجية التاريخ الكمي التسلسلي⁽⁸⁾. وقد طبقت بعض الدراسات هذه المنهجية على تاريخ لبنان.

أولاً: مفهوم التاريخ التسلسلي

تبني منهجية التاريخ التسلسلي بيانات متجانسة ذات طابع إحصائي، تمتد لفترة زمنية منتظمة؛ قد تكون طويلة أو قصيرة. ويؤدي العنصر الكمي دوراً ضمن التاريخ التسلسلي، وتصبح الأرقام الأداة الأساسية لفهم التطور التاريخي، سواء في مجال الزمن الطويل أو القصير، وفقاً للتقلبات والتحويلات الظرفية⁽⁹⁾. أما في الطريقة التقليدية، فقد استُخدمت المعطيات الرقمية بطريقة معزولة وفردية.

تجعل منهجية التاريخ التسلسلي من التاريخ مادة مفيدة، لا ينحصر اهتمامها في الحدث الفردي، بقدر الاهتمام بالعناصر المتكررة القادرة على الاندماج ضمن سلسلة متجانسة. وقد تتوافق مثل هذه السلاسل مع سلاسل أخرى تُستخدم حالياً في العلوم الإنسانية⁽¹⁰⁾. ولا يهتم هذا النوع من التاريخ بأي حدث فردي أو شخصية سياسية أو اقتصادية. وتتضمن هذه المعطيات تكراراً للحقائق الأولية والبيانات الرقمية. ويمكن ألا تحتوي سلسلة المعطيات بيانات رقمية محددة، لكن يمكن التعامل معها بطريقة تسلسلية، عبر تعداد المعطيات ومعالجتها إحصائياً. وتسمح لنا هذه المنهجية بالتحقق من المواقف التاريخية المعروفة، والبيانات المدرجة في الوثائق⁽¹¹⁾.

يمكن اعتبار هذه البيانات المتكررة في الوثائق دليلاً على نوع الحياة والعلاقات الاجتماعية ومستواها، خاصة في مجتمع له طرائقه ووسائل عيشه الخاصة، والعقليات والثقافات المرتبطة بكل مرحلة وبكل منطقة. وتسمح هذه المنهجية بالمزيد من الصدقية والدقة؛ لأنها تستوعب كمّاً من المعلومات المتجانسة، المستقاة من الوثائق أو السجلات، على نحو تتعدد فيه الإثباتات⁽¹²⁾.

ثانياً: مفهوم التاريخ الكمي

إن استعمال الوثائق، على نحو متكرر وإجمالي، من شأنه أن يزيد من مجالات الموضوعية في الحديث عن الأحداث التي نسعى لتحليلها والنتائج التي نريد إظهارها. ويمكن أن يؤدي استخدام الوثائق على نحوٍ إفرادي إلى نتائج متناقضة ومتضاربة؛ لذا كثيراً ما يعود المؤرخون الجدد إلى وثائق الأوقاف، ويعتبر بعضهم أن توسّع الأوقاف كمياً ومؤسّساتياً كان مجحفاً في حق الفلاحين

7 **الأنال**: هي مجلة تاريخية فرنسية أُسست عام 1929 على يد المؤرخين مارك بلوك ولوسيان فيفر، وقد شكلت منطلقاً لمدرسة تاريخية جديدة تُعرف بـ "مدرسة الأنال". دعت إلى تجاوز التاريخ السياسي الضيق، والتركيز على التاريخ الاقتصادي، والبنى الاجتماعية والثقافية، والحياة اليومية. استخدمت أدوات من علم الاجتماع، والجغرافيا، والاقتصاد، والأنثروبولوجيا، وتبنت مفهوم "الزمن الطويل" La longue durée مع فرنان بروديل؛ أي دراسة التاريخ على مدى قرون وليس أحداثاً متقطعة. من أشهر روادها بروديل وجاك لوجوف وبيار شوني الذي اهتم بالتاريخ الكمي والتسلسلي.

8 Huguette Chaunu & Pierre Chaunu, *Séville et l'Atlantique, 1504-1650: Structures et conjoncture de l'Atlantique espagnol et hispano-américain*, 3 vols. (Paris: École pratique des hautes études 'EHESS', 1995).

9 Jacques Le Goff (ed.), *La nouvelle histoire* (Paris: Retz, 1978), p. 508.

10 Pierre Chaunu, *Histoire quantitative, histoire sérielle* (Paris: SEDES, 1978), p. 121.

11 François Furet & Pierre Nora (eds.), "Le quantitatif en histoire," in: *Faire de l'histoire: Nouveaux problèmes, nouvelles approches, nouveaux objets: Nouveaux problèmes*, vol. 1 (Paris: Gallimard, 1974), p. 49.

12 Chaunu, p. 22.

الذين باعوا أراضيهم وأصبحوا شركاء المؤسسات الوقفية، بينما يعتبر مؤرخون آخرون أن الأوقاف، من حيث هي مؤسسة، كانت عادلة ومنصفة للفلاحين الذين تعلموا القراءة والكتابة، وتمكنوا من مواجهة تحديات عصر الحداثة. وتتناسب هذه المنهجية مع أنواع المحفوظات المكتشفة حديثاً في الأبرشيات والأديرة⁽¹³⁾ والمحاكم الشرعية.

وفي العقود الخمسة الأخيرة، جرى الاستفادة من أنواع جديدة من الوثائق غير الرسمية، التي تعود إلى الأبرشيات والمحاكم الشرعية في المدن، وأخرى تعود إلى الأديرة في الأرياف والقرى. وتحتفظ الأديرة والأبرشيات والكنائس بنوع معين من الوثائق والسجلات التي تعتبر أساسية لدراسة التاريخ الديموغرافي. ونستخلص من دفاتر العمد والوفيات والزواج نسب التوالد، وعدد السكان، وتناقص الوفيات أو تكاثرها عبر المراحل والفترات التاريخية. وتبرز هذه الوثائق لنا أرقاماً وإحصاءات حول السكان والضرائب والإنتاج، يمكن أن نحللها استناداً إلى المنهجية التسلسلية الكمية⁽¹⁴⁾. وقد وجدنا في هذه المحفوظات الأصول الرقمية التي إذا عالجها المؤرخون، فإنها تقدّم لهم الأجوبة المرتبطة مباشرة بإشكالياتهم. فسجلات المحاسبة، وإحصاءات الأوقاف، ولوائح الضرائب والمساحة، تحمل معلومات وأرقاماً، إذا ما جرت معالجتها بالطريقة التسلسلية الصحيحة، تنير جوانب لا تزال مجهولة في تاريخنا. أما الحواشي في المخطوطات الدينية وحجج تأسيس الأوقاف وعقود الزواج وعقود الخطبة والدعاوى والوصايا، فليست ذات طابع رقمي، إلا أن استعمالها بطريقة تسلسلية يفتح المجال للتعمق في الإطار السياسي والديني والأطر الإنسانية المختلفة، من أجل فهم التقاليد والعادات والطقوس الاجتماعية والذهنيات Les mentalités.

إن مراجعة عقود الخطبة، التي لا تحتوي على معطيات رقمية، ودراسة لوائح هدايا "العربون"⁽¹⁵⁾ التي يقدمها الشاب للفتاة التي ينوي الزواج منها تفصح عن تحوّل العادات المحلية وتبني الهدايا الغربية، فـ "الدبوس"⁽¹⁶⁾ استبدل بـ "البروش"، والذخيرة [أو الوسام]⁽¹⁷⁾ استبدلت بـ "المدليون". ثم إن دراسة حجج الشراء والوقف على الرغم من أنها لا تحتوي سوى على سعر الأرض، تدلّنا على توسع الأوقاف وازدهارها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر⁽¹⁸⁾.

وهذا التاريخ التسلسلي، الذي يسمح لنا بدراسة التاريخ بدقة، يؤهلنا لفهم الحاضر الذي نعيشه. وهذه القراءة الدقيقة لحاضرنا تؤدي إلى الاستعداد الأفضل للمستقبل. وتسعى هذه المنهجية إلى تفضيل الجماعي على الفردي، والعام على الخاص. ولا يهتم هذا النوع من التاريخ بالحروب والمعارك والأحلاف، كما لا يبحث في قصص الملوك وحاشيتهم، بل هو تاريخ الجماعات المغيبة وطرائق عيشها وعملها وعلاقاتها ببعضها. إنه تاريخ الحياة اليومية وليس ما هو استثنائي في الحياة. ويسعى هذا التاريخ لإعادة بناء أجواء الأيام السابقة من الداخل، لكشف تحولات المجتمعات الإنسانية، عبر تغيير العادات الشعبية وتحوّل الملابس والغذاء. وتستخدم منهجية التاريخ الجديد إشكاليات معتمدة في بقية العلوم الإنسانية. قد دخل هذا النوع من التاريخ في حياة الإنسان ضمن المجتمع؛ إذ خرج من الخاص إلى العام، ومن الاستثنائي إلى ما له معنى عادي. ولم يتوقف التاريخ عن توسّع نطاقه؛ فيمكن أن يدمج في العلوم الاجتماعية والاقتصاد وعلم النفس والجغرافيا... إلخ، في حركة عابرة ومازجة للاختصاصات.

13 Furet & Nora, pp. 51-52.

14 Fernand Braudel, "Pour une histoire sérielle: Séville et l'Atlantique 1504-1650 note critique," *Annales*, vol. 18 (1963), pp. 541-550.

15 العربون هو مجموع ما يدفعه أو يقدمه الشاب للفتاة عند طلب يدها من أهلها، وهو عادة مذكورة في القانون الكنسي يتمثل في عقد الخطبة.

16 "الدبوس" هو قطعة معدنية صغيرة تثبت عادةً على اللباس، وتُستخدم في بعض المناطق اللبنانية للتعبير عن علامة مشاركة أو تضامن. ويُستخدم الدبوس المزين بالورد أو الحرير الأبيض في الخطوبة أو الأعراس لتثبيت على ملابس المدعوين علامة ترحيب. وفي بعض القرى، يُعتبر تثبيت الدبوس على ثوب الضيف دليلاً على قبوله ومحبته من أصحاب الدعوة.

17 الذخيرة قطعة من الذهب تعلق بسلسلة بالرقبة، وهي عبارة عن علبة صغيرة توضع فيها ذخائر القديسين (عود صغير من الصليب أو خيط من زوار العذراء).

18 Magda Nammour, "Evolution de la pratique des fiançailles chez les Grecs-Orthodoxes de Beyrouth à la fin du XIX^{ème} siècle," *Mémoire de maîtrise*, Université Saint Joseph, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Beyrouth, 1989.

فإذا عملنا على موضوع توزّع الملكية في ضاحية بيروت أو في سهل البقاع في عام 2024، أو مشكلات تسويق التفاح في جبل لبنان، نكون بصدد البحث في مواضيع اجتماعية - اقتصادية. أما إذا عالجنا مثل هذه المواضيع منذ بضعة قرون، فإننا نكون بصدد البحث في مجال التاريخ الكمي التسلسلي. فهذا النوع من التاريخ يعطي العلوم الإنسانية العمق اللازم في الزمن الذي يشكل الإثبات الذي لا يمكن تأمينه للنتائج التي تتوصل إليها هذه العلوم.

وتفترض هذه المنهجية تخطيطاً للمعطيات التاريخية على مستويي الزمان والمكان، فيصبح التاريخ في توسع مستمر يشمل عدة مجالات، إلى أن يمسك بتحليل نطاق التاريخ العالمي⁽¹⁹⁾. إن الثورة التي أحدثتها هذه التحولات في المنهجية غيرت مفهوم الزمن La notion du temps؛ فحولت الدراسات التاريخية اهتمامها عن مأساوية الحدث من أجل تحديد الإشكاليات والتعبير عنها، خصوصاً إذا ما كانت تندرج في الزمن الطويل. وبهذا، أصبح تاريخ التطور البطيء للحضارة المادية مندرجاً في نطاق تاريخ الإنسانية.

أما بالنسبة إلى تاريخ المؤسسات الرهبانية، فتظهر المدة الزمنية بطريقتين متناقضتين: أولاً، المدى الطويل للاقتصاد الريفي التقليدي ولثقافة الفلاحين الشعبية المقيدة بالإنتاج والعادات الموروثة؛ ثانياً، المدى القصير لمجال ثقافات النخبة، التي هي مصدر الابتكار والتحديث. في هذه الفترة التي كانت فيها الثقافات مرتبطة بالتراث وبالحياة الدينية، كانت الأديرة مراكز فكرية، فقد أدى النتاج الكتابي الثقافي والديني دوراً كبيراً في نهضة العالم العربي الأدبية. فالأديرة كانت أول مجال جرى فيه اعتماد الترجمات الفلسفية والتاريخية. وكان رجال الدين هم أول من عمل في مجال الترجمات؛ فمطران حلب، جرمانوس فرحات⁽²⁰⁾، كان من أول من كتب وألّف في مجال اللغة العربية وقواعدها، والبطريرك الأنطاكي، أنثاسيوس دباس⁽²¹⁾، ترجم عن اليونانية كتاب **الفصاحة والمنطق**. وأصبحت مادة المنطق تدرّس لطلاب اللاهوت في المدارس. وقد كتب العديد من الرهبان الحوليات التاريخية، كروفائيل كرامة، وحنانيا المنير، وعبد الله ابن طراد.

ونرى نقولاً الصائغ⁽²²⁾ يعمل في مجال كتابة الشعر لمديح الأمراء. وقد جعلت هذه الحركة الثقافية البطريرك، دباس، يستقدم أول مطبعة عربية من رومانيا إلى حلب، وجعلت الشمس عبد الله الزاخر، الذي عمل في مطبعة حلب، يبتكر الأحرف العربية ويصمم أول مطبعة في دير مار يوحنا الشوير⁽²³⁾. وهذا ما جعل الكثير من المؤرخين، مثل ألبرت حوراني، يعتبرون أن النهضة العربية بدأت في الشرق في القرن الثامن عشر، وليس خلال التاسع عشر؛ إذ توسعت وازدهرت مع حكم محمد علي في مصر⁽²⁴⁾.

ارتبط كل ذلك ارتباطاً وثيقاً بالتطور البطيء للاقتصاد الزراعي على المدى الطويل. وتبعنا هذه المنهجية وهذا النوع من التاريخ عن التاريخ التقليدي للبنان، الذي غالباً ما اقتصر على أخبار أعمال الأمير فخر الدين المعني الثاني والأمير بشير الثاني الشهابي،

19 Chaunu, p. 129.

20 جرمانوس فرحات (1670-1732)، كان مطران الموارنة في حلب، وهو شخصية بارزة في النهضة الثقافية المسيحية في بلاد الشام. تلقى تعليمًا لغويًا وفلسفيًا، وأتقن العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية. انتخب مطراناً على الموارنة في حلب، وأعاد تنظيم الرهبنة هناك، وأسس مكتبة رعوية تضم آلاف المخطوطات. صُفّ أكثر من 100 مؤلف في النحو، والعروض، والمنطق، والفلسفة. أنشأ "المطراية الحلبية"، وأرسى نظاماً جامعياً للرهبنة والتعليم داخلها؛ ما أثنى الحياة الدينية والحضارية في المدينة.

21 أنثاسيوس دباس (1790-1851)، هو واحد من أبرز رجال الدين الموارنة في القرن التاسع عشر، وله دور مهم في النهضة الثقافية والدينية في لبنان وسورية. تقلد البطريركية المارونية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وساهم في تطوير التعليم الديني واللغوي بين الموارنة، وشجع على الترجمة العلمية والفلسفية من اليونانية واللغات الأخرى إلى العربية. كان له دور في تأسيس المدارس والمطابع، حيث أدخل أول مطبعة عربية إلى حلب؛ فساعد بذلك على نشر المعرفة والكتب الدينية والعلمية.

22 نقولاً الصائغ، هو شاعر وكاتب لبناني من القرن التاسع عشر، معروف بكتابات في مدح الأمراء ورجال الدين، وله دور في الحياة الثقافية والأدبية في جبل لبنان. عمل في مجال الشعر والكتابة، وقد ساهم في دعم الحركة الثقافية التي رافقت النهضة العربية في الشرق الأوسط.

23 تُعدّ من أقدم المطابع العربية في الشرق، ولها دور ريادي في النهضة الثقافية العربية، خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أُسست عام 1733.

24 ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939** (بيروت: دار نوفل، 2019)، ص 5.

وحروبهما. تقع هذه النزعة التاريخية ضمن إطار تاريخ متسلسل مرتبط بعلوم إنسانية أخرى، وتهدف هذه المنهجية إلى أن تكون جزءاً فعلياً من دراسة أوسع حول شروط تطوير الأوقاف. وتثير هذه الشروط مشكلة تجديد منشآت المناطق التقليدية المحلية، من أجل إشراكها أكثر في التنمية الاقتصادية والثقافية للبلاد.

إن قراءات البيانات المختلفة الموجودة في الوثائق الوقفية توحى بتفسيرات مختلفة، لا بل متناقضة فعلاً. فتعديلات الديون والإعفاءات الضريبية والمساهمات الغذائية، المدرجة في حسابات المزارعين، تشير إلى أن أديرة جبل لبنان أدت دوراً إنسانياً رئيساً. كما يُظهر إلغاء عقود المزارعين واستيلاء الوقف على أراضي الفلاحين في الجبل، أن الإكليروس كان جزءاً من طبقة مالكي الأراضي (الأرستقراطيين). ووفقاً لهذا التفسير، فإنهم احتكروا الأرض إلى جانب الوجهاء الإقطاعيين مصدرًا رئيسًا للإنتاج. إنهم، جنباً إلى جنب مع برجوازي المدن، كانوا مُرابحين يرهقون كاهل الفلاحين المدينين بفوائد مرتفعة.

ثالثاً: التسلسلي والكمي من خلال دراسة الأوقاف والأراضي

تُظهر دراسة إيرادات الأديرة ومصاريفها أن الوضع لم يكن واضحاً تماماً. فسياسات الأديرة فيما يتعلق بالأراضي، سواء كانت محافظةً أو توسعيةً، تعاملت مع كل حالة على حدة؛ إذ لم تُنح حالها الاقتصادية والوضع العام في البلاد لها التأثير إلا ضمن الإمكانيات المتوفرة.

ولم يكن تأسيس الأوقاف أمراً واضحاً، فالسكان الحاليون للقرى المحيطة بالمؤسسات الدينية غالباً ما يشعرون بسلطة أخلاقية معينة تجاه الأراضي التابعة لتلك المؤسسات، مُدعين أن أجدادهم قد منحوا تلك الأراضي للكنيسة عن طريق تحويلها إلى أوقاف. مع ذلك، بعد العودة إلى الأرشيف، خصوصاً صكوك الشراء والوقف التي تحتفظ بها مختلف الأديرة، تحوّل الرهبان إلى أرستقراطية عقارية تستثمر في المضاربة في ربوع الأرض.

إن الدراسة التسلسلية والكمية لحسابات الأديرة، من ضمنها سلسلة عائدات تقاسم المحاصيل ونفقاتها وسلسلة صكوك الملكية، تدفعنا إلى اعتماد موقف أكثر نسبية وحكم أقل صرامةً. فكثيراً ما اتخذت الأديرة مبادرات وتدابير مختلفة، تحت ضغط أزمات استثنائية أو أوضاع سياسية. ينبغي أن تسمح لنا دراسة الوثائق في مجملها، بطريقة متسلسلة، بأن نكون موضوعيين أكثر في ما يتعلق بمشكلات تاريخ الاقتصاد الوقفي.

نرى من خلال دراسة بيانات دفتر حسابات الشركاء في دير مار يوحنا، أنه كلما كانت الدولة العثمانية وجبة الضرائب من المشايخ الملتزمين يزدون من قيمة الضرائب، كان الدير يسقط حياً ويخفف حياً من متطلبات الفلاحين والمدفوعات الواجبة عليهم. وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، انتقلت ملكية الأراضي من عائلات "المقاطعيين"⁽²⁵⁾ إلى أوقاف الأديار؛ وبذلك تحولت عقود الشراكة من المغارسة التي تسمح بامتلاك قسم من الأرض في نهاية العقد إلى عقود مساقاة، حيث تُقسم المحاصيل والإنتاج عملاً بالشرع الإسلامي الذي يمنع اقتسام أراضي الأوقاف. فنتج من ذلك مطالبة الفلاحين الأديار بحصتهم من الأراضي، وهذا ما يدل على أنهم كانوا يجهلون قوانين الأراضي والأوضاع التي تحكم مصدر أرزاقهم⁽²⁶⁾.

25 المقاطعيون هم فئة من الإقطاعيين المحليين في الدولة العثمانية، كانوا يتولون إدارة جباية الضرائب في منطقة معينة تُعرف بـ "المقاطعة"، بموجب نظام يُسمى "نظام الالتزام". وقد انتشر هذا النظام خصوصاً في بلاد الشام، ومنها جبل لبنان، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكانت "المقاطعة" وحدة مالية أو إدارية تُمنح للمقاطعي مقابل دفع مبلغ مقطوع سنوياً للخزينة العثمانية. وكان للمقاطعي سلطة واسعة تشمل جباية الضرائب من السكان، وإدارة الشؤون المحلية أحياناً، واحتكار بعض الموارد الاقتصادية في المقاطعة. وغالباً ما كان المقاطعي من العائلات الكبيرة أو الزعامات الإقطاعية المحلية، فكُون ثروة ونفوذاً عززاً مكانته.

26 Souad Abou el-Rousse Slim, *Le métayage et l'impôt au Mont-Liban aux XVIIIe et XIXe siècles* (Beyrouth: Dar el- mashreq, 1993), p. 75.

وفي عام 1823، تقدم الفلاحون بدعوى ضد الدير طالبين جزءاً من الأرض التي كانوا يعملون فيها. ولعلهم اعتادوا ذلك في عقود الشراكة مع الأمراء من آل أبي اللمع⁽²⁷⁾ التي كانت عقود مغارسة، وكانت هذه الأراضي على الأرجح أميرية، إلا أن الأوضاع تغيرت، حينما أصبحت هذه الأراضي ضمن أوقاف الدير. وتحولت العقود إلى عقود مساقاة وتحولت الأراضي إلى أوقاف. والقانون في الشرع الإسلامي لا يسمح بتقسيم أراضي الأوقاف، وعقد المساقاة لا يفترض تقسيم الأرض، بل هو يتعلق بقسمة الإنتاج فحسب. وقد حكم في هذه القضية قضاة من محكمة صيدا الإسلامية ومن محكمة بيروت. ففي هذه المحاكم، يكون الحكم الصادر دائماً لمصلحة الوقف⁽²⁸⁾.

كذلك كان الأمر في معاملات القسمة أو المبادلة، فأراضي الأوقاف التي لا تُباع ولا تُرهن يمكن أن تخضع للتبادل. أراد دير البلمند استبدال أرض في طرابلس بأرض في أميون الكورة. وبعد تخمين الإيرادات وقيمة الأراضي اتضح أن أرض أميون هي أعلى قيمة، فقرر القاضي في محكمة طرابلس أنها ستكون من حصة الدير ووافق على معاملة الاستبدال⁽²⁹⁾.

سبق الأحداث الطائفية في جبل لبنان، بين عامي 1841 و1860، تراجع أحوال العائلات المقاطعية التي باعت أراضيها إلى الفلاحين جماعياً. فعقود البيع في سجلات المحاكم الشرعية تتوزع على بضعة أسطر من السجل. أما تلك التي تتعلق ببيع آل جنبلاط⁽³⁰⁾ لأراضيهم في إقليم التفاح إلى أهالي جزين وفي إقليم الخروب إلى أهالي شحيم، فتأخذ صفحة كاملة من سجلات محكمة صيدا. فربما شعر هؤلاء الفلاحون، الذين أصبحوا يملكون أراضيهم، بأنهم في غنى عن دفع الضرائب إلى الملتزمين القدامى⁽³¹⁾.

كانت الدولة العثمانية، في مجال دراسة الأوقاف ونظام الأراضي، دولة إسلامية أرست المحاكم بحسب الشرع الإسلامي في الدولة التي حكمتها خلال 400 عام، لكنها خالفت قوانين الشرع الإسلامي في الخطوات الثلاث التي اتخذتها في مجال الوقف؛ فهذه القوانين التي أصدرتها الدولة العثمانية كانت منافية للشرع الإسلامي، وتمثلت الخطوة الأولى في أن الدولة حينما كانت في أوج قوتها تحتل الأراضي وتصطدم بكثرة الأوقاف، صادرت تلك الأوقاف لدى المسيحيين (كجبل آثوس) ولدى المسلمين (أوقاف جوامع القاهرة). فتصدى لهذا القرار العديد من القضاة والأئمة المسلمين الذين اعتبروا أن الشرع يحمي الأوقاف، حتى تلك التي لا تملك إثباتات مكتوبة. فيكفي أن لا يتذكر أحد أن الأرض لم تكن موقوفة⁽³²⁾. وتمثلت الخطوة الثانية في مبادرة السلاطين بوهب أقاربهم من النساء، أو أولادهم الذين لا يرثون العرش، أراضي من القطاع العام؛ أي من الأراضي الأميرية. وقد تبع بقية الحكام والمقاطعيين ما فعله السلاطين، وخصّوا الأوقاف بأراضي أميرية، أصبحت تعرف بأنها أوقاف باطلّة، ثم تمت تسوية أوضاعها مع الوقت. ذلك أن الشرع الإسلامي لا يسمح بوقف أرض، إلا من تلك المصنفة ملكاً، ولا يستطيع الفرد أن يعطي أو يقف ما لا يملكه.

27 آل أبي اللمع هي واحدة من أبرز العائلات الإقطاعية المارونية في جبل لبنان، وكان لها نفوذ سياسي واجتماعي كبير، خاصة في منطقة المتن خلال العهد العثماني، من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر. تعود أصول العائلة إلى بلدة ريفون في قضاء كسروان، ثم استقرت في بيت مري وبعثت وامتلكت أراضي واسعة في المتن الشمالي. وكان أصحابها من كبار المقاطعيين في منطقة المتن، وتولوا مهمات جمع الضرائب (الالتزام) لصالح الدولة العثمانية، مع احتفاظهم بجزء من الإيرادات. كانت لهم علاقات وثيقة بالأمراء الشهابيين، وخاصة الأمير بشير الشهابي، وشغل بعضهم مناصب قضائية أو إدارية. امتلكوا أراضي واسعة، وباعوا أجزاء كبيرة منها في القرن التاسع عشر، خاصة بعد ضعف النظام الإقطاعي وتحول العلاقات الزراعية.

28 محفوظات دير مار يوحنا الشوير في المتن، دفتر الحجج لأراضي الدير.

29 محفوظات دير سيدة البلمند دفتر الحجج لأراضي الدير.

30 آل جنبلاط هي واحدة من أعرق العائلات الدرزية في جبل لبنان، التي أدت دوراً سياسياً محورياً من العهد العثماني إلى العصر الحديث. ارتبط اسم هذه العائلة تاريخياً بمنطقة الشوف، وتحديداً ببلدة المختارة التي لا تزال مقرها الرئيس حتى اليوم. وتعد من أهم المقاطعيين في منطقة الشوف؛ ما منحها سلطة واسعة في جباية الضرائب والسيطرة على الأراضي. وقد تزعمت الزعامة الدرزية في وجه منافسيها التقليديين آل أرسلان. وشاركت في الفتن الطائفية التي اندلعت في جبل لبنان خلال القرن التاسع عشر، خاصة أحداث عامي 1840 و1860، وكانت طرفاً أساسياً في إعادة تشكيل البنية الاجتماعية والسياسية. وعلى الرغم من تقلص ثرواتها العقارية، فقد حافظت على نفوذها السياسي والاجتماعي، من خلال الحضور القوي في الدولة والبرلمان.

31 سجلات محكمة صيدا الشرعية.

32 Souad Slim, *The Greek Orthodox Waqf in Lebanon During the Ottoman Period* (Beirut: Orient Institute, 2007), p. 61.

وقد جعلت هذه الخطوة حكام لبنان يهبون الأراضي الأميرية للأديرة؛ فتصبح منتجة وتدفع المزيد من الضرائب⁽³³⁾. أما بالنسبة إلى الخطوة الثالثة؛ فحتى القرن التاسع عشر كانت السلطات الدينية هي المسؤولة عن الأوقاف، فالذي يهب الأرض يصبح متولياً على الوقف. فالدولة العثمانية، سعيًا منها للحصول على المزيد من الإيرادات الضريبية، عينت متولين على الأوقاف من خارج الفئات الدينية من العلمانيين المتعلمين الذين يجيدون القراءة والكتابة، ويستطيعون تقديم الحسابات للدولة⁽³⁴⁾. وكان لهذه الإصلاحات تأثيرات متفاوتة على الصعيد الطائفي، ففي الوقت التي كانت هذه الخطوة ناجحة لدى المسيحيين ومنعشة لأوقافهم، كانت النتيجة غير مرضية لدى المسلمين؛ حيث تراجعت أوقافهم ولم تعد تُرْمَمُ وأضفت طابعًا سيئًا على مشهد المدن، ذلك أن الأوقاف كانت تشغل جزءًا كبيرًا من أحياء المدن. والسبب في هذا الفرق هو أن المتولين العلمانيين لدى المسيحيين كانوا من الأعيان الأغنياء الذين عملوا على إنعاش الأوقاف، بينما كان المتولون الذين عينوا لدى المسلمين من المتعلمين البسطاء الذين استفادوا من استثمار الأوقاف.

رابعًا: التسلسلي والكمي من خلال التاريخ الديموغرافي

حققت دراسات التاريخ الديموغرافي تقدمًا ملحوظًا في تاريخ لبنان؛ فمعظم الدراسات الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية أصبحت تعتمد الديموغرافيا في بداية الحديث عن مواضيعها، في أغلب التحليلات ومختلف التأويلات. وظلت الديموغرافيا والتعدادات السكانية من الأمور المحظورة والحساسة؛ لأسباب طائفية أو مذهبية. فالخصوم في مجال السياسة يهددون بعضهم بعضًا بالتعداد السكاني، كلما شبّ بينهم الخلاف. ولم يمنع هذا الأمر من ازدهار الدراسات في مجال التاريخ الديموغرافي. فالدراسات التي باشر بها دومينيك شوفالييه⁽³⁵⁾ أظهرت أن المناطق الوسطى، التي تشمل أكبر نسبة من السكان، والتي يوجد فيها أقل نسبة من الأراضي الصالحة للزراعة، هي التي انطلقت فيها الثورات الملقبة بانتفاضات العوام، كما الثورات الفلاحية التي سرعان ما تحولت إلى صراعات طائفية⁽³⁶⁾.

ونذكر من جيل المؤرخين المجددين إيلي إلياس، والأب متري جرداق، والأستاذة مي دابشي. فقد أبرزت دراسات إلياس أن إحصاءات السالنامة العثمانية لولاية بيروت هي الأكثر دقة مقارنةً بنتائج وقرتها مصادر ومراجع أخرى. ومع أن مصدر هذه الإحصاءات كانت إدارة الدولة العثمانية، إلا أنها حصرت اهتمامها بالجباية الضريبية، وليس لرسم أي سياسة اقتصادية أو سياسية أخرى. فقلما استفادت الدولة العثمانية من هذه الإحصاءات التي نالت أقصى الاهتمام من الدول الأوروبية التي اعتمدتها لتحديد مصالحها وتوجيهها⁽³⁷⁾.

33 Ibid., p. 63.

34 Ibid., p. 66.

35 دومينيك شوفالييه Dominique Chevalier، هو مؤرخ فرنسي بارز ومتخصص في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وله إسهامات مهمة في مجال الديموغرافيا التاريخية، خاصة في منطقة جبل لبنان، فقد درس المجتمع في جبل لبنان في فترة الانتقال إلى العصر الصناعي، مع التركيز على التغيرات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية، التي طرأت على سكان جبل لبنان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واستخدم سجلات الضرائب والسجلات العثمانية لتحديد أعداد السكان، والتركيب الطائفي، ومستوى الإنتاج الزراعي، مستفيدًا من منهجية التاريخ الكمي والتسلسلي لفهم التطور الديموغرافي. ودرس أثر توسع الأوقاف، والتحويلات الزراعية، والتغيرات في الملكية في حياة الفلاحين، وانعكاس ذلك على توزيع السكان وحركتهم داخل منطقة جبل لبنان. ساهمت أعماله في تطوير فهم أعمق لتاريخ لبنان الديموغرافي والاجتماعي، مع اعتماد منهجيات كمية تسمح بتحليل أكثر دقة استنادًا إلى مصادر موثوقة.

36 دومينيك شوفالييه، **مجتمع جبل لبنان في الثورة الصناعية في أوروبا**، ترجمة منى عبد الله عاقوري، مراجعة أحمد بيضون (بيروت: دار النهار للنشر، 1994)، ص 135 - 136.

37 إيلي إلياس، "ديموغرافيا المناطق اللبنانية قبل الحرب العالمية الأولى"، في: **لبنان بين الدستورين 1876-1908** (بيروت: الجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، دار سائر المشرق، 2020)، ص 123-141.

وعمل جرداق أيضًا على مدينة بيروت وجبل لبنان، خلال مرحلة المطران غفرائيل شاتيل، ورأى أن الأرثوذكس شكلوا الأثرية في مدينة بيروت، وكانوا منتشرين في كل أنحاء متصرفية جبل لبنان، وحلوا في المرتبة الثانية بعد الموارنة⁽³⁸⁾.

وأثبتت دايفي، في دراستها عن ديموغرافيا الأرثوذكس في مدينة بيروت، أن ارتفاع عدد السكان الملحوظ في مدينة بيروت ناتج من الموجات السكانية المهاجرة إلى بيروت، أكثر مما هو ناتج من حركة التوالد الطبيعي⁽³⁹⁾.

وعمل عصام خليفة على المحفوظات العثمانية لرئاسة الوزراء في إسطنبول، وأظهر عبر دراساته عن الضرائب ارتباطها بالإحصاءات التي أجرتها الدولة العثمانية التي لم تكتفِ بتعداد السكان فقط، بل اهتمت أيضًا بالإنتاج والقطاع وحتى النحل. ودرس التاريخ الديموغرافي لمعظم القرى والمدن اللبنانية، مع ما كانت تدفعه من ضرائب أميرية وجزية عوارض سلطانية تثقل كاهل السكان⁽⁴⁰⁾. وهذه الضرائب، التي اقتصرت في بداية العهد العثماني على الميري (الضريبة على الإنتاج) والجزية (ضريبة شخصية يدفعها المسيحيون)، ازدادت مع تراجع الدولة العثمانية، وأصبحت تشمل البلص والطرح والعوارض السلطانية. وفي عهد الاحتلال المصري، أضيفت ضريبة شخصية هي ضريبة الفرد.

سمحت دراسة الضرائب للعالمين في مجال الديموغرافيا فيليب فارغ وبيير كورباج بالعودة إلى عهود قديمة للتعرف إلى عدد السكان في هذه المراحل القديمة. ففي كتابهما **المسيحيون واليهود في العالمين العربي والتركي**⁽⁴¹⁾، تمكنا من خلال دراسة قيمة الضرائب من معرفة عدد السكان. وطُرحت معهما نظرية جديدة، فيما يتعلق بالعلاقات المسيحية - الإسلامية في بلادنا وفي المنطقة عامة. فاعتمادًا على دراسة أنطوان فتال للأوضاع القانونية⁽⁴²⁾، وكذلك اعتمادًا على دراسة آدمون رباط للحياة الاقتصادية والاجتماعية⁽⁴³⁾، نرى أن هذا الكتاب يعتبر أن نسبة التوالد عند الشعوب بقدر ما تكون مرتفعة، تكون أوضاعها مرفهة وجيدة. وأن انخفاض نسبة التوالد الطبيعي لدى السكان هو دليل على تراجع أوضاعهم وسوء معاملتهم. ويتابع هذا الكتاب أوضاع المسيحيين واليهود منذ الفتح العربي، ويؤكد أن عدد المسلمين في الشرق خلال القرن الأول من الفتح الإسلامي لم يتعدّ 7 في المئة من نسبة السكان، وأن عدد المسيحيين في بلاد الشام ظلّ مستقرًا حتى فترة الحرب الصليبية (المدعوة لدى العرب حروب الفرنجة)؛ فقد بدأت أعدادهم تتضاءل حتى مرحلة حكم المماليك؛ إذ انخفضت نسبة المسيحيين إلى أن أصبحت 10 في المئة فقط من سكان الشرق⁽⁴⁴⁾. إلا أن التاريخ ليس بجامد، وهو يتحول باستمرار. وكثيرًا ما تحدّث المؤرخون عن وضع السكان المسيحيين المزدهر في بلاد الشام، حتى إنهم شغلوا مناصب مرموقة لدى الولاة العثمانيين ولدى القناصل الأجانب؛ إذ يؤكد المؤرخ عبد الغني عماد أنه كان في المدن الساحلية لبلاد الشام ما لا يقل عن 63 مسيحيًا موظفًا لدى الحكام العثمانيين يشغلون مناصب؛ منها: ترجمان، وكاتب، وأمين سر،

38 جرداق الأب متري، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للروم الأرثوذكس في مدينة بيروت ومتصرفية جبل لبنان 1860-1920"، أطروحة دكتوراه، كلية التاريخ الفرع الأول، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2007، ص 7.

39 May Davie, "Histoire démographique des Grecs orthodoxes de Beyrouth (1870-1939)," Mémoire de maîtrise, Université Saint Joseph, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Beyrouth, 1987.

40 عصام كمال خليفة، **أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر** (بيروت: دار الجيل، 1985).

41 Philippe Fargues & Youssef Courbage, *Chrétiens et Juifs dans l'Islam Arabe et Turc* (Paris: Payot, 1997), p. 30.

42 Antoine Fattal, *Le statut légal des non-musulmans en terre d'Islam* (Beyrouth: Imprimerie catholique, 1958).

43 Edmond Rabbat, *La conquête arabe sous les premiers Califes (11/632-40/661): Les Chrétiens dans L'Islam des Premiers Temps* (Beyrouth: Publication de l'Université Libanaise, 1985).

44 Fargues & Courbage, p. 160.

وأمين صندوق، وغيرها من الوظائف التي تساوي رتبة وزير في أيامنا هذه⁽⁴⁵⁾. وعلى الصعيد الديموغرافي، يؤكد لنا فارغ وكورباغ أن عدد المسيحيين في أواخر العهد العثماني بلغ 26 في المئة من العدد الإجمالي السكان⁽⁴⁶⁾.

هنالك مجال آخر مغيب كلياً عن تاريخ لبنان ألا وهو دور السيدات. ولا نعرف سوى الست نسب والدة الأمير فخر الدين والست نظيرة جنبلاط. وقد جمعت املي نصر الله ضمن ستة أجزاء سير 35 سيدة شرقية من ضمن 100 سيدة في العالم عملن في مجالات الأدب والفن والعلوم⁽⁴⁷⁾. وقد أجرت السيدة ناديا الجردي نويهض 50 مقابلة في كتابها **نساء من بلادي**، مع سيدات كان لهن دور في الحياة الاجتماعية.

تشير دراسة حياة النساء في لبنان إلى تطور العقليات والعادات والتقاليد فيه؛ فقد كان دور المرأة في الزراعة والصناعة أساسياً في عملية إنتاج الحرير. ففي الزراعة، كانت المرأة هي المسؤولة عن قطف أوراق التوت وإطعام دود القز وحل الشرائق، بينما كان الرجال يذهبون إلى البساتين لحرثتها وقطاف المواسم والاعتناء بالأشجار. وحينما دخلت المعامل الأجنبية إلى الجبل، كانت أولى التعاملات فيها هن من نساء القرى. ومع انتشار المدارس، عملت العديد من النساء في مجال التعليم، فكانت مهنتا التعليم والتمريض من أول المجالات التي عملت فيها المرأة. وفي الشرق، تُعدّ المرأة أكثر من حافظ على عادات أهل البلاد وتقاليدهم.

جرى تطبيق التاريخ التسلسلي على وثائق غير رقمية؛ ففي عقود الخطبة، التي درستها ماغدا نمور، كان الأب يمثل ابنته في عقد اتفاقية الخطبة، وكانت هدايا العربون التي يقدمها الخطيب إلى الفتاة هي من الهدايا التقليدية يتقدمها المحارم والمنديل والذخيرة والدبوس والبقجة المطرزة... إلخ. وفي نهاية القرن التاسع عشر، توسعت بيروت وارتبطت بالاقتصاد العالمي ودخلت البضائع الأجنبية إلى سوق الاستهلاك المحلي، وانتشر التعليم وبدأت العادات والتقاليد تتغير؛ ففرى أن الشقيق الأكبر حلّ مكان والده لتمثيل شقيقته بصفته وكيلًا عنها في عقد الخطبة. وأخذت هدايا العربون تتغير؛ فحلّ البروش بدلًا من الدبوس، والمديون بدلًا من الذخيرة، ودخلت هدايا جديدة مثل علبة الخياطة وماكينة الخياطة. وبقيت المحارم والمنديل تنصّر لوائح العربون في كل العقود خلال تلك الفترة⁽⁴⁸⁾.

وقد درست الباحثة مها كيال وثائق سجلات المحكمة الشرعية في مدينة طرابلس، وعقود الزواج التي تُسجل فيها كل أغراض الجهاز الذي تأتي به العروس إلى بيت زوجها، من ثياب وأوان بيتية ومفروشات. هذه الأغراض التي تُعرض في الجهاز تُعتبر حصة الفتاة من إرث والدها مع "الدوطة" التي يدفعها الأب إلى صهره قبل الزواج. ولأحظت كيال تحولاً في طريقة اللبس وفي الأغراض المدوّنة في عقد الزواج، وهذا يدلّ على تغيير بطيء في العادات والتقاليد⁽⁴⁹⁾. وكانت العادة في طرابلس أن يُكتب عقد الزواج على قماش مربع من الحرير الأحمر مع توقيع الشهود والسلطات الدينية المشرفة على الإكليل.

ومن المعروف أن قانون الإرث المعتمد في الدولة العثمانية كان هو المعتمد في الشرع الإسلامي ويُطبق على المسلمين والمسيحيين؛ أي أن ترث الفتاة نصف حصة الشاب. وقد جددت أورور عضاضة في دراستها وثائق الإرث في بيروت، أن الأرثوذكس

45 عبد الغني عماد، "تنامي دور الكتاب غير المسلمين وتأثيره في المجتمع المحلي في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر"، في: **التعايش والتزايدات في بلاد الشام في العهد العثماني: العلاقات بين المسلمين والمسيحيين من خلال الحوليات ومؤلفات الرحالة** (بيروت: جامعة القديس يوسف، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، جامعة البلمند، 2014)، ص 101-117.

46 Fargues & Courbage, p. 160.

47 املي نصر الله، **نساء رائدات من الشرق** (بيروت: دار الكتب الحديثة، 2001).

48 Nammour.

49 Maha Kayal, "Le système socio-vestimentaire à Tripoli (Liban) entre 1885 et 1985," Thèse de doctorat, Université de Neuchâtel, Neuchâtel, Suisse, 1989.

كان لهم حرية الاختيار بين تطبيق قوانين الإرث بحسب الشرع الإسلامي أو تطبيق أحكام الكنيسة الأرثوذكسية التي تعطي الفتاة حصتها من إرث والدها نقدًا في الدوطة، وفي الجهاز⁽⁵⁰⁾.

خاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن المنهجية التسلسلية الكمية ليست مجرد تقنية بحثية، بل هي فلسفة جديدة لكتابة التاريخ؛ وهو تاريخ لا يقتصر على النخبة والأحداث الكبرى، بل يشمل حياة الناس العاديين وتحولاتهم اليومية. وبذلك، فإن هذه المنهجية تفتح آفاقاً واسعة لفهم أعمق وأشمل للماضي اللبناني؛ وهذا يمكننا من استشراف المستقبل على نحو أفضل. كما أن الدراسات العلمية، التي تعتمد التاريخ التسلسلي الكمي، وتجمع بين التاريخ والعلوم الاجتماعية والإحصاء، أولت عنايتها لمسيرة الناس في حياتهم اليومية؛ ولم ترتبط بشخصيات مرموقة أو بأحداث فردية، بل هي تاريخ كل الناس.

50 Aurore Adada, "L'héritage dans les familles bourgeoises grecque-orthodoxes de Beyrouth (1877–1920)," Mémoire de maîtrise, Université Saint Joseph, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Beyrouth, 1997.

المراجع

العربية

- الأب متري، جرداق. "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للروم الأرثوذكس في مدينة بيروت ومنتصرفية جبل لبنان 1860-1920". أطروحة دكتوراه. كلية التاريخ الفرع الأول. الجامعة اللبنانية. بيروت. 2007.
- التعايش والنزاعات في بلاد الشام في العهد العثماني: العلاقات بين المسلمين والمسيحيين من خلال الحوليات ومؤلفات الرحالة. بيروت: جامعة القديس يوسف، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، جامعة البلمند، 2014.
- حوراني، ألبرت. الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939. بيروت: دار نوفل، 2019.
- خليفة، عصام كمال. أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر. بيروت: دار الجيل، 1985.
- رستم، أسد. مصطلح التاريخ. الجيزة: دار تراث للبحوث والدراسات، 2015.
- شوفالبيه، دومينيك. مجتمع جبل لبنان في الثورة الصناعية في أوروبا. ترجمة منى عبد الله عاقوري. مراجعة أحمد بيضون. بيروت: دار النهار للنشر، 1994.
- قصير، سمير. حرب لبنان: من الشقاق الوطني إلى النزاع الإقليمي 1975-1982. ترجمة سليم عنتوري. بيروت: دار النهار للنشر، 2007.
- لبنان بين الدستورين 1876-1908. بيروت: الجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، دار سائر المشرق، 2020.
- نصر الله، املي. نساء رائدات من الشرق. بيروت: دار الكتب الحديثة، 2001.

الأجنبية

- Adada, Aurore. "L'héritage dans les familles bourgeoises grecque-orthodoxes de Beyrouth (1877-1920)." Mémoire de maîtrise. Université Saint Joseph. Faculté des Lettres et des Sciences Humaines. Beyrouth. 1997.
- Braudel, Fernand. "Pour une histoire sérielle: Séville et l'Atlantique 1504-1650 note critique." *Annales*. vol. 18 (1963).
- Chaunu, Huguette & Pierre Chaunu. *Séville et l'Atlantique, 1504-1650: Structures et conjoncture de l'Atlantique espagnol et hispano-américain*. 3 vols. Paris: École pratique des hautes études (EHESS), 1995.
- Chaunu, Pierre. *Histoire quantitative, histoire sérielle*. Paris: SEDES, 1978.
- Davie, May. "Histoire démographique des Grecs orthodoxes de Beyrouth (1870-1939)." Mémoire de maîtrise. Université Saint Joseph. Faculté des Lettres et des Sciences Humaines. Beyrouth. 1987.
- Fargues, Philippe & Youssef Courbage. *Chrétiens et Juifs dans l'Islam Arabe et Turc*. Paris: Payot, 1997.
- Fattal, Antoine. *Le statut légal des non-musulmans en terre d'Islam*. Beyrouth: Imprimerie catholique, 1958.
- Gallon, Jacques, François Furet & Jacques Le Goff (eds.). *Faire de l'histoire: Nouveaux problèmes, nouvelles approches, nouveaux objets*. vol. 1. Paris: Gallimard, 1974.
- Kayal, Maha. "Le système socio-vestimentaire à Tripoli (Liban) entre 1885 et 1985." Thèse de doctorat, Institut d'Ethnologie. Université de Neuchâtel. Suisse. 1989.

Le Goff, Jacques (ed.). *La nouvelle histoire*. Paris: Retz, 1978.

Nammour, Magda. "Evolution de la pratique des fiançailles chez les Grecs-Orthodoxes de Beyrouth à la fin du XIX^{ème} siècle." Mémoire de maîtrise. Université Saint Joseph. Faculté des Lettres et des Sciences Humaines. Beyrouth. 1989.

Rabbat, Edmond. *La conquête arabe sous les premiers Califes (11/632–40/661): Les Chrétiens dans l'Islam des Premiers Temps*. Beyrouth: Publication de l'Université Libanaise, 1985.

Slim, Souad Abou el-Rousse. *Le métayage et l'impôt au Mont-Liban aux XVIIIe et XIXe siècles*. Beyrouth: Dar el-Mashreq, 1993.

_____. *The Greek Orthodox Waqf in Lebanon During the Ottoman Period*. Beirut: Orient Institute, 2007.

التاريخ للمدن اللبنانية

The Historiography of Lebanese Cities

* مدير المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في بيروت.

Director of Arab Center for Research & Policy Studies in Beirut.

khaled.ziade@dohainstitute.org

مقدمة

عرف لبنان وفرة في الكتابات التاريخية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وذلك بعد أن أعلنت متصرفية جبل لبنان عام 1861 كياناً إدارياً يدير شؤون مجلس موزع طائفيًا من أبناء المتصرفية ويحكمه متصرف عثماني مسيحي. وقد أنشئت بعد فترة وجيزة ولاية سوريا عام 1864 تمتد من حدود ولاية حلب إلى خليج العقبة، ولهذا ظهرت كتابات تاريخية لإثبات قدم لبنان وهويته التي ترجع إلى العصر الفينيقي، وذلك في وقت ظهرت فيه كتابات عن تاريخ سوريا ترجع إلى أقدم العصور حتى العصر الحديث. وقد أفادت هذه الكتابات والمؤلفات من الاكتشافات الأثرية وطرائق البحث التاريخي ومنهجيته. وشغلت كتابة تاريخ المدن والعودة إلى ماضيها وأثارها حيّزاً بارزاً؛ ذلك أن الآثار إنما توجد في الحواضر التي توفر المواد التي يلجأ إليها المؤرخ لإثبات حجته وتأكيداتها.

من هنا تأتي أهمية العودة إلى تاريخ المدن والبحث في الطرائق التي استطاع من خلالها المؤرخون تأكيد هوية راهنة في خضم الجدل حول الهوية والخصوصية.

اعتمدنا في هذه الدراسة على طريقة تقوم على تقسيم التاريخ إلى حقبات، أو بالأحرى التركيز على حقبات كانت محل اهتمام المؤرخين، وهي ترجع إلى التاريخ القديم الفينيقي أو الروماني، والتاريخ الوسيط الإسلامي - وخصوصاً المملوكي - والتاريخ الحديث المعاصر.

وعلى الرغم من أن العديد من المؤرخين يفترضون تاريخاً متواصلًا يربط ما بين العصور، فإن مؤرخين آخرين اختاروا دراسة حقبة من التاريخ. ولا شك في أن أغلب المدن في لبنان قد عرفت انقطاعاً بين تاريخها القديم والوسيط، وبين تاريخها القديم والحديث.

من جهة أخرى، لا بدّ من الإشارة إلى التقدم في استخدام المصادر التاريخية وفق منهجيات تأخذ في الحسبان مسائل الاقتصاد والاجتماع والثقافة. ثم إن الكشف عن الوثائق القصصية ووثائق المحاكم الشرعية قد أدّى خدمة كبرى لإعادة النظر في بعض المسلمات، لما توفره من مواد ومعطيات تفصيلية في مجالات شتى؛ ما أدى إلى استفادة المؤرخين من علوم الاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا.

أولاً: أثر المناهج الحديثة

أسهم علم الآثار في أوروبا خلال القرن التاسع عشر في تطور كتابة تاريخ الحضارات والمدن، خصوصاً أن المدن المأهولة التي كانت لا تزال مراكز حيّة أو تلك التي اندثرت، كانت مواقع لمُدن ازدهرت في حقب متعاقبة من التاريخ. وقد عمد علم الآثار الأوروبي إلى التنقيب عن الحقب الفينيقية في لبنان، والآثار البيزنطية والرومانية. وعلى هذا النحو نشأ التقليد الذي يتناول تاريخ مدينة من المدن من أقدم العصور إلى الزمن الراهن، مع ما يعتري ذلك من تفاوت في تناول الحقب المتعاقبة. فبعض المدن التي ازدهرت في الفترات الفرعونية أو الرومانية انحسر حضورها في حقب لاحقة، لتعود وتزدهر في مرحلة من مراحل دول الإسلام في العصر الوسيط أو الفترة الحديثة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

من الكتب المبكرة التي اعتمدت على المصادر التاريخية الأوروبية كتاب **تاريخ سوريا**⁽¹⁾ لجرجي بني، وقد أصدر هذا الكتاب عام 1881 وكان لا يزال شاباً، ومع ذلك فقد أظهر دأباً ومثابرة في العودة إلى المصادر باللغات الأوروبية، فرنسية كانت أو إنكليزية، وهي مصادر أصبحت متوافرة في مكتبة الجامعة الأميركية. أما سوريا التي يتحدث عنها المؤلف، ويعيد صياغة تاريخها القديم، فهي ولاية سوريا التي صدر فرمانها عام 1864، في إثر إعلان متصرفية جبل لبنان، وكانت تمتد من حدود ولاية حلب حتى خليج العقبة.

1 جرجي بني، **تاريخ سوريا** (بيروت: المطبعة الأدبية، 1881).

ويخصص يني الفصل الأول لجغرافيا سوريا القديمة ومحاصيلها، لينتقل بعد ذلك إلى فينيقيا التي يفرد لها صفحات طوال، باحثًا في أصول الفينيقيين ومستعمراتهم ولغتهم وديانتهم، ثم ينتقل إلى الدول التي سيطرت على سوريا من خارجها؛ من آشوريين وفرس وصولًا إلى حروب الإسكندر، ليصل إلى الفتح الإسلامي.

أما سوريا المعاصرة، فكانت رابضة في أوائل القرن التاسع عشر تحت مظالم وُلّاتها. وقبل انقضاء النصف الأول من هذا القرن، جاء أوروبيون وأميريكيون كثيرون إلى سوريا وانتشروا فيها راغبين في بث المعرفة⁽²⁾.

أما النصف الثاني من الكتاب، فيخصصه للحديث عن مدن سوريا؛ منها الإسكندرونة وأنطاكية وعسقلان وغزة. ويقدم تأريخًا مسهبًا لأشهرها، مثل دمشق وحمص وبيروت وطرابلس، متعقبًا المراحل التاريخية وأبرز خصائصها ومعالمها، وقد أصبح كتاب **تاريخ سوريا**، مرجعًا للكتب التي ستستند إلى بعض معطياته، خصوصًا أنه كان الأول الذي يؤرخ للمدن وفق المنهجية الحديثة التي ترصد جغرافيتها، وتاريخها القديم، وصولًا إلى الحقبة المعاصرة.

في عام 1913، أصدر أحمد عارف الزين كتاب **تاريخ صيدا**⁽³⁾، ويشتمل هذا الكتاب على تاريخها وسائر شؤونها منذ عمرانها إلى وقتنا الحاضر. وبعد مقدّمة الكتاب التي يذكر فيها أن الذين يكتبون التاريخ من دون عصبية قليلون جدًّا بين الفريقين، أي الشرقيين والغربيين، يبيّن أنّ تمييز صحيح التاريخ من فاسده أصبح من أشق الأعمال. ولا أظن أنّ المؤرخ يسلم من الغلط وينجو من الشطط مهما بالغ في التمهّص.

ويذكر أسماء الكتب التي أخذ عنها؛ منها مقدمة عبد الرحمن بن خلدون، وتاريخ أبي الفدا المختصر في تاريخ البشر، والكمال في التاريخ لعلي بن محمد بن الأثير، وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق، ورحلة محمد بن بطوطة المعروفة بـ **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. ومن مؤلفات القرن التاسع عشر دائرة المعارف لبطرس البستاني، و**تاريخ سوريا الديني** والديني ليوسف الدبس، و**تاريخ سوريا** لجرجي يني وقاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست، وكتب مترجمة مثل **مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة 1840 إلى سنة 1910**، وهو من تعريب فيليب وفريد الخازن، و**الإلياذة: هوميروس**، وهو من تعريب سليمان البستاني. ومن الكتب الإفرنجية كتاب لسائح فرنسي Gnerin، و**معجم لاروس**، و**تاريخ الفنون والآثار القديمة بالفرنسية**.

ويضيف أنّ الكتب المذكورة هي التي أخذ عنها مباشرة. أما ما نقله من خلال واسطة ما، فهو كثير أيضًا، ويُعلم ممّا يتضمّنه الكتاب. وتكمن أهمية ما ذكرناه في أنّ أحمد عارف الزين قد توافرت لديه مجموعة من المصادر الكلاسيكية في التراث الأدبي العربي، ومجموعة أخرى من الكتب المترجمة إلى العربية ومصادر فرنسية وإنكليزية. ويفيدنا ذلك من ناحية أنّنا إزاء أسلوب جديد في الكتابة يعتمد على تمحيص المعطيات أو نقدها، وأننا كذلك إزاء منهج جديد نلمسه في فهرس الكتاب. إلا أنّ تقسيم الكتاب نفسه يتبع المنهج الموضوعي فيخصص فصلًا عن سوريا وفصلًا عن فينيقيا، ليصل إلى تاريخ صيدا. وهذا التقسيم من تأثير التأليف الأوروبي؛ إذ إنّ تاريخ المدن على هذا النحو الذي يبدأ من الحقب القديمة إلى الحقب المتوسطة والحديثة والمعاصرة لم يكن معروفًا في الآداب العربية، ثمّ إنّ الرجوع إلى مصادر متنوعة بلغات متعددة هو مظهر من مظاهر الكتابة الحديثة.

2 المرجع نفسه، ص 302.

3 أحمد عارف الزين، تاريخ صيدا: يحوي تاريخها وسائر شؤونها منذ عمرانها إلى وقتنا الحاضر (صيدا: مطبعة العرفان، 1912).

قبل سنوات قليلة من إصدار أحمد عارف الزين كتابه، أصدر حكمت شريف يكن كتاباً عنوانه **تاريخ طرابلس الشام**⁽⁴⁾. وهو يبدأ بذكر جغرافية المدينة، وينتقل إلى تاريخها منذ العصور القديمة إلى العصر الوثني، ثم ينتقل إلى العصر المسيحي، فالإسلامي، فالصليبي، وصولاً إلى العصر العثماني؛ أي إنه يتبع تحقياً تتعاقب فيه الفترات تبعاً للتسلسل الزمني. وعلى غرار أحمد عارف الزين، يضمّن حكمت شريف كتابه نصوصاً وأشعاراً لرحالة زاروا طرابلس. أما مراجعه، فهي مطابقة تقريباً لمراجع الزين؛ فهو يستند، مثلاً، إلى ابن الأثير وابن خلدون، والدويه، والدبس، ويني وغيرهم.

إن كتابة تاريخ مدينة على نحو يحفظ التسلسل الزمني من الماضي إلى الحاضر وتقسيم التاريخ إلى مراحل هو أسلوب ينتمي إلى الكتابة الحديثة للمدن المأخوذ عن طرائق الكتابة التاريخية الخاصة بالمدن في التأليف الأوروبي.

ثانياً: التاريخ القديم

خلال تسلّم عزمي بيك ولاية بيروت، طلب إعداد تقرير عن أحوال الولاية⁽⁵⁾، وأسند هذه المهمة إلى موظفين إداريين، هما رفيق التميمي ومحمد بهجت. ويذكر المؤلفان في التقديم أن عزمي بيك عرّف شدة الحاجة إلى ملء هذا الفراغ بوضع دليل علمي ومدني يستفيد منه موظفو الحكومة وطبقات الأهليين، وينير مستقبل البلاد العلمي⁽⁶⁾. وعلى الرغم من ظروف الحرب العالمية الأولى، فقد صدر التقرير في جزأين، ويتناول الجزء الأول القسم الجنوبي من ولاية بيروت، في حين يتناول الجزء الثاني القسم الشمالي منها. وفي التعريف، يُذكر أن الأبحاث تتناول الجغرافيا والتاريخ والأديان والاجتماع والصحة والآثار واللغة والأدبيات والفنون الجميلة والمعارف والزراعة والتجارة. أما الطريقة العلمية في البحث، فقد اعتمدت على أمرين؛ يتمثل أحدهما في العودة إلى المصادر العربية والمراجع باللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية، ويتمثل ثانيهما في المعاينة الميدانية والانتقال من مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى أيضاً، عبر وصف العادات والأحوال المعيشية. ومن الطبيعي أن تتعلق المعطيات بالمدن، وأن يصل عددها إلى 16 معطى في القسم الأول. ومن بينها صيدا وصور والنبطية وصفد وطبريا وعكا... إلخ. أما في القسم الثاني، فيتناول المؤلفان عند الحديث عن المدينة، جغرافيتها وموقعها وتاريخها وأثارها واقتصادها وأحوالها الروحية والصحية والأدبية.

لكن عزمي بيك المهتم بالمدن وتاريخها، والذي أشرف على هدم بيروت القديمة، كلف الأب لويس شيخو بكتابة تاريخ بيروت⁽⁷⁾، وهذا ما يذكره المؤلف في توطئة الكتاب.

يبدأ الأب شيخو في القسم الأول بالحديث عن موقع بيروت الجغرافي ويشير إلى جيولوجية بيروت، استناداً إلى مراجع معاصرة. ويتعقب شيخو ممالك الفينيقيين الصغيرة والضيقة المساحة التي عادة ما تتنازع فيما بينها ممّا يعرّضها لأطماع الدول الكبرى من آشوريين وفراعنة. ويتعقب، أيضاً، تاريخ بيروت في عهود الآشوريين واليونان والسلوقيين والرومان، ويخصص فصلاً لمدرسة الفقه الروماني في بيروت التي كانت عامرة في أوائل القرن الثالث، ويرجع إلى مؤلفات لاتينية وغيرها ليتوسع في الحديث عن المدرسة التي يتقاطر إليها الطلاب من كل أرجاء الدولة الرومانية. أما أقول بيروت، فيردّه إلى الزلازل وصولاً إلى زلزال عام 551م؛ إذ دُكّت أبنية بيروت وأصبحت قاعاً صفصفاً⁽⁸⁾.

4 حكمت شريف يكن، **تاريخ طرابلس من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام**، تحقيق منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري (طرابلس، لبنان: دار الإيمان، 1987 [1906]).

5 رفيق التميمي ومحمد بهجت، **ولاية بيروت** (بيروت: مطبعة الإقبال، 1916)، ص 5.

6 لويس شيخو اليسوعي، **بيروت: تاريخها وأثارها** (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1925).

7 شيخو اليسوعي، ص 4.

8 المرجع نفسه، ص 94.

أما تاريخ بيروت بعد الفتح العربي، فيبحث عنه في المصادر العربية، ومنها: **فتوح البلدان** لأحمد بن يحيى البلاذري، و**مسالك الممالك** لإبراهيم بن محمد الاصطخري، و**صورة الأرض** لمحمد بن حوقل، و**سفرنامه** لناصر خسرو، وغير ذلك من المؤلفات عمومًا.

وأما ازدهار بيروت، فيعود إلى مطلع القرن التاسع عشر. ويعتمد في هذه المرحلة على الرحالة الأجانب مثل هنري غيز Henri Guys وهو يقول، في هذا السياق إن تجارة بيروت قد راجت بفضل الأجانب الذين استوطنوها بعد خروج المصريين⁽⁹⁾. ويخصّص حينًا واسعًا لأحوال المسيحيين في تلك الفترة، ويتحدّث عن إقامة الإرساليات الكبوشية واللاتينية والعاذرية واليسوعية، ويشير إلى ازدهار الآداب. ويذكر دور المرسلين البروتستانت منذ عام 1826، وجهود عالي سميث وفان ديك، والشيخ ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني، الذين عربّوا التوراة. ويذكر المطابع أيضًا. وفي هذا الصدد، يقول إن الكاثوليك احتاجوا إلى مطبعة كبيرة تفي بلوازم دينهم وتهذيب أولادهم.

ومن بين المدارس، يذكر مدرسة بطرس البستاني الوطنية 1863، ومدرسة الحكمة 1876، ومدرسة الثلاثة أقمار الأرثوذكسية 1865. أما المسلمون، فقد عززوا مدارسهم. ومن بين مدارسهم يذكر المدرسة الرشدية، والمدرسة العلمية، والمدرسة العثمانية، والكلية الإسلامية (المقاصد). ويذكر، أيضًا، إنشاء زاكي كوهين مدرسة إسرائيلية عام 1857، خلفتها مدرسة الاتحاد الإسرائيلي. ويُنهي الكتاب بذكر المشاريع المدنية مثل جرّ مياه نهر الكلب، وازدهار التجارة، وتأسيس المصارف، وإنشاء مصانع الحرير والمطاحن البخارية.

إنّ هذا الكتاب يُعدّ مرجعًا مهمًّا؛ بالنظر إلى ما يُؤليه من عناية لتاريخ بيروت القديم من خلال جمع المعطيات من مصادر أجنبية وعربية، إضافة إلى المعلومات حول بيروت المعاصرة ونشاطها الأدبي والتربوي مع التركيز على البيئة المسيحية وأنشطتها الدينية والتربوية.

ثالثًا: التاريخ الوسيط

تكشف الكتابات المبكرة عن المدن صيدا وطرابلس وبيروت عن أثر المؤلفات التي تُعنى بالتاريخ القديم لبلاد شرق المتوسط، ولا شك في أن جزءًا من هذه المعرفة الخاصة بالتاريخ الفينيقي قد تغذت من الاكتشافات الأثرية. ومن المعروف أن أول بعثة رسمية كانت برئاسة المستشرق إرنست رينان بعد أن كلفه نابليون الثالث بذلك عام 1860. واستمرت بعثته حتى عام 1874، قدّم في إثرها دراسته عن جذور التاريخ الفينيقي.

إن توافر المراجع والمصادر حول التاريخ القديم، وكذلك المصادر العربية التي أصبحت متاحة بسبب ما نُشر منها بفضل تحقيق مستشرقين أو دارسين عرب، أدى إلى بروز ميلٍ إلى كتابة تاريخ المدن، وربما يكون هذا الميل ناجمًا عن شعور بأنّ كتابة تاريخ لبنان كان مجالها جبل لبنان، فضلًا عن الإمارات المعنية والشهائية، ومن بعدهما المتصرفية، مع إهمال مدن أخرى وتاريخها وأدوارها. وفي هذا السياق، لا يمكن أن نفصل الدوافع الشخصية التي تتلخص بتعلّق الكاتب بمدينته التي عاش فيها، وخبر حاضرها وشغلها بماضيها.

ومن الكتب التي يمكن ذكرها في هذا المجال كتاب سميح وجيه الزين **تاريخ طرابلس قديمًا وحديثًا**⁽¹⁰⁾، وكتاب آخر نلمح فيه دوافع الانتماء لعصام شبارو **تاريخ بيروت**⁽¹¹⁾. وفي هذين الكتابين نجد تركيزًا على العصور الإسلامية. ولكن لا يستغرق التاريخ فيه قبل الفتح العربي سوى ثلاثين صفحة، في حين تستغرق العصور الإسلامية القسم الرئيس من الكتاب. ونذكر في هذا السياق كتاب

9 المرجع نفسه، ص 100.

10 سميح وجيه الزين، **تاريخ طرابلس قديمًا وحديثًا** (بيروت: دار الأندلس، 1969).

11 عصام شبارو، **تاريخ بيروت من أقدم العصور حتى القرن العشرين** (بيروت: دار مصباح الفكر، 1978).

طه الولي⁽¹²⁾، الذي يركز أيضًا على التاريخ الوسيط الإسلامي. ويمكن أن نَعُدّه مقابلًا لكتاب الأب لويس شيخو وكل أولئك الذين امتدحوا التحديث لبيروت على النمط الغربي؛ إذ يقول: "جدير بالذكر أن تحرش هذه الحضارة الغربية بأهل هذه المدينة لم يكن وليد المصادفة البحتة، بل هو في الواقع جاء نتيجة تخطيط مدروس قام به دهاقنة الحضارة المذكورة الذين وجدوا في مدينة بيروت بالذات ما يمكنهم من إقامة رأس جسر لهم يتيح لمن يمتلكه أن يعبر عليه في طريقه إلى الشرق العربي كله، يتيح لمن يمتلكه أن يعبر في طريقه إلى المنطقة كلها [...] ولم يطل الزمن الذي احتاجته الحضارة الغربية حتى أصبحت بيروت أو كادت على صورة الغرب ومثاله في كل شأن من شؤونها تقريبًا"⁽¹³⁾.

ومن ناحية أخرى، يستدرك طه الولي قائلاً: "بيروت هذه اللؤلؤة التي رافقتها أمواج البحر الأبيض المتوسط منذ إنشائها قبل نحو أربعة آلاف سنة على الساحل الشرقي لهذا البحر، وبرزت رافلة بأبهى حُلل الازدهار ومعالم التمدن والتقدم وأبواب الحياة والعمل فيها مشرعة لكل الذين التمسوا الرفاه والاستقرار والطمأنينة في ربوعها، وما لبثت أن امتدت رقعتها وترامت أرجاؤها وأبعادها حتى غدت أو كادت، بالإضافة إلى كونها عاصمة لبنان، تصبح كذلك عاصمة الانطلاق إلى الأحسن والأفضل في الشرق العربي كله"⁽¹⁴⁾.

في ستينيات القرن العشرين حدث تطور في كتابة تاريخ المدن بالتركيز على العصر الوسيط؛ أي منذ الفتح العربي وحتى الحقبة المعاصرة، ويعود ذلك إلى جهد المؤرخ المصري السيد عبد العزيز سالم الذي كان أحد أساتذة جامعة بيروت العربية بُعيد افتتاحها عام 1960. ففي دراسته تاريخ صيدا في العصر الإسلامي، يبدأ من تاريخها القديم، ويثير ملاحظة قلما يهتم بها الباحثون في تاريخ المدن؛ لأن المدينة الحديثة ليست امتدادًا لصيدا القديمة⁽¹⁵⁾. وبخصوص تاريخ صيدا القديم، يستعين بعدد قليل من المراجع الأجنبية، ويعتمد على مراجع معاصرة مثل مؤلفات أنيس فريحة، وفيليب حُتي، وأحمد عارف الزين، وأسد رستم. ويعتمد تاريخ صيدا بعد الفتح العربي على المصادر العربية المعروفة، مثل مؤلفات البلاذري أحمد بن إسحاق اليعقوبي، وشمس الدين المقدسي، ومحمد بن جرير الطبري، وأحمد بن علي المقرئ، ويوسف بن تغري بردي.

أما كتابه عن طرابلس، فهو أكثر إسهابًا؛ نظرًا إلى الأدوار التي أدتها المدينة خلال العصور الإسلامية؛ إذ يقول: "لقد شهدت طرابلس منذ الفتح العربي الأول في خلافة عثمان بن عفان حتى الفتح العثماني في عام 922م أحداثًا تاريخية عديدة، فكانت من بين مدن الشام التي ارتبطت بمصر الإسلامية في عصر الدولتين الطولونية والإخشيدية، وفي القسم الأول من عصر الدولة الفاطمية. وأخيرًا في عصر دولتي المماليك البحرية والشرابية، كما تمتعت بالاستقلال في إمارة بني عمار ما يقرب من نصف قرن من الزمن. وأصبحت أيام الحركة الصليبية مركزًا لكونتية طرابلس ما يزيد على 180 عامًا، ويسهب في دراسة تاريخ المدينة في عصر المماليك"⁽¹⁶⁾.

قسم السيد سالم كتابه إلى قسمين؛ الأول لتاريخ طرابلس في العصور الإسلامية، والثاني لدراسة بعض المظاهر الحضارية من مساجد ومدارس وآثار حربية ومدنية. وفي هذا الكتاب رجع إلى المصادر والمؤلفات نفسها التي استخدمها في تاريخ صيدا، وهي تنتهي في مجملها إلى التأليف العربي الكلاسيكي.

12 طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران (بيروت: دار العلم للملايين، 1993).

13 المرجع نفسه، ص 9.

14 المرجع نفسه، ص 10.

15 السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا الإسلامية (بيروت: جامعة بيروت العربية، 1970)، ص 24.

16 السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، [د. ت.])، ص 1.

يُكمل عمر عبد السلام تدمري ما بدأه سالم بخصوص تاريخ طرابلس، ويجعل من تاريخ الحقبة المملوكية موضوعاً لأغلب أبحاثه حول المدينة، ومنها **تاريخ وآثار ومساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك**⁽¹⁷⁾، و**تاريخ طرابلس السياسي والحضاري** (في جزأين)⁽¹⁸⁾. وقد اعتنى بإعداد موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي. وله العديد من التحقيقات لمؤلفات ترجع إلى الفترة المملوكية.

اجتذبت آثار طرابلس العديد من الدراسات، ومن بينها كتاب حياة سلام لبيش، **عمارة مدينة طرابلس المملوكية**⁽¹⁹⁾، وفيه خُصصت فصولاً للمساجد والمدارس والخانات والحمامات، ودرست في الفصل الخامس كتاب ضريح عز الدين أليك، ونافورة عين التينة، والخانكاه، والمولوية. أما الفصل الأخير، فخصصته للطرائق والمواد المستخدمة في البناء والزخرفة.

وفي الاتجاه نفسه، ألّف إبراهيم أبو طاحون كتاب **عمارة وفنون طرابلس الشام**⁽²⁰⁾، وفيه أبحاث مفصلة عن جامع طينال والمنابر المملوكية، وظاهرة الطبق النجمي، وجامع الأويسية، والحمام الجديد.

نضيف إلى ما ذكرناه من قبل كتاب **الخط العربي في العمارة**⁽²¹⁾، الذي شارك فيه باحثون كثيرون، تناولوا فيه الكتابات من حيث بنيتها ووظائفها وصيانتها وتوثيقها. لا بد من الإشارة، في هذا السياق، إلى كتاب حسان سلامة **سركيس تاريخ طرابلس وإقليمها في الحقب الصليبية**.

وفي إطار دراسة التراث الحرفي، ألّفت مها كيّال كتاباً عن الحرف بين التقليد والتجديد⁽²²⁾، تناولت فيه الحرف من حيث الطرائق التقليدية في التعليم والتلقين، وهي الحرف التي تُعرف بالحرف التقليدية أو الشعبية. ودرست توزيعها، وذكرت أن أغلبها في المدينة القديمة، وتناولت أبرزها من حيث المواد المستخدمة: النحاس، والحديد، والزجاج، والفخار، والخشب، والصابون، والتنجيد، والغذاء، واللباس.

رابعاً: الوثائق العثمانية

حدثت في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته طفرة في استخدام وثائق المحاكم الشرعية في لبنان، علماً أن هذه الوثائق استخدمها بعض الدارسين على نطاق ضيق. نشر في هذا السياق إلى كتاب الأب إغناطيوس الخوري: **مصطفى آغا بربر**⁽²³⁾. ويذكر المؤلف في التقديم أن أسد رستم قد وضع بين يديه عدة وافية من الوثائق الخطية التي استنسخها من سجلات المحاكم الشرعية في مصر وفلسطين ولبنان وسورية. ويذكر، أيضاً، أنه استأذن حاكم الشرع في طرابلس للاطلاع على سجلات المحكمة الشرعية، في بداية خمسينيات القرن العشرين.

ألّف طلال مجدوب كتاباً مسهباً عن **تاريخ صيدا الاجتماعي**⁽²⁴⁾، تناول فيه الإدارة، والقضاء، والأمن، والزراعة، والضرائب والمالية، والتجارة، والحرف، والمواصلات، العمران، والثقافة، والسكان، والحياة الاجتماعية، وذلك اعتماداً على سجلات محكمة

17 عمر عبد السلام تدمري، **تاريخ وآثار ومساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك** (طرابلس، لبنان: دار البلاد، 1974).

18 عمر عبد السلام تدمري، **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور**، ج 1 (طرابلس، لبنان: مطابع دار البلاد، 1978)؛ عمر عبد السلام تدمري، **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور: عصر دولة المماليك - الجزء الثاني** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981).

19 Hayat Salam-Liebich, *The Architecture of the Mamluk City of Tripoli* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983).

20 إبراهيم أبو طاحون، **عمارة وفنون طرابلس الشام [دراسات وبحوث]** (القاهرة: الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2014).

21 **الخط العربي في العمارة: الكتابات في الآثار الإسلامية في مدينة طرابلس أيام المماليك**، إشراف أمين البزري (لبنان: المؤسسة الوطنية للتراث، 1999).

22 مها كيّال، **تقليد وتجديد: دراسة للقطاع الحرفي في طرابلس** (بيروت: اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة، 2002).

23 إغناطيوس طئوس الخوري، **مصطفى آغا بربر: حاكم طرابلس واللاذقية (1767-1834)** (لبنان: مطبعة الرهبانية اللبنانية، 1957).

24 طلال مجدوب، **تاريخ صيدا الاجتماعي (1840-1914)** (صيدا: المكتبة العصرية، 1983).

صيدا الشرعية وعددها 28 سجلاً، وهي تبدأ عام 1285هـ/ 1868م، وتنتهي عام 1336هـ/ 1916م. واستعان بسجلات: مطرانية الروم الكاثوليك، وأوقاف صيدا، وبلدية صيدا، والدائرة العقارية، ودير المخلص، إضافة إلى سالنامة ولاية بيروت، وسالنامة دولة عليّة، وسالنامة المعارف العمومية.

وألّف غسان منير سنو كتاباً عنوانه **مدينة صيدا (1818-1860)**⁽²⁵⁾، ويذكر المؤلف في التمهيد وصفاً تفصيلياً لأحوال سجلات صيدا الشرعية. ويشير إلى أهميتها في دراسة التاريخ العمراني والسكاني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ويبيّن الإمكانات التي توفرها الوثائق الشرعية، بداية من طبوغرافيا المدينة وحراراتها ومعالمها إلى الحياة الإدارية، ثم أوضاع الأوقاف الاجتماعية والاقتصادية.

وقد استخدم وثائق محكمة بيروت العديد من الباحثين، ومن بينهم حسان حلاق الأستاذ في جامعة بيروت العربية، الذي كتب العديد من الدراسات حول بيروت في القرن التاسع عشر اعتماداً على وثائق من بينها سجلات المحكمة الشرعية. أما كتابه **بيروت المحروسة في العهد العثماني**⁽²⁶⁾، الذي لا يذكر فيه مصادره ومراجعته، فقد عاد فيه إلى سجلات المحكمة واستخدمها خصوصاً في الجوانب العمرانية؛ إذ خصص فيه فصلاً لأبراج بيروت وأسواقها والجوامع والزوايا والأفران والحارات والحمامات والخانات والساحات. ويتطرق الكتاب إلى فترة نهوض المدينة وخصوصاً في عصر التنظيمات العثماني، فيذكر مدارس بيروت وأبرزها جمعية المقاصد الخيرية.

ويمكن اعتبار كتاب حسان حلاق أقرب في موقفه ومنهجه من طه الولي من حيث تعلق أبحاثه، على نحو خاص، ببيروت الإسلامية، وتفصيله القول في أسماء عائلاتها وعلمائها.

ومن بين الباحثين الذي اعتنوا باستخدام الوثائق الشرعية في أبحاثهم المحامي عبد اللطيف فاخوري. إلا أن جهده الرئيس وضعه في إنجاز كتابه **منزل بيروت**⁽²⁷⁾، الذي أراد فيه أن يصحح أخطاءً لبعض الباحثين الذين سبقوه. وهو إذ اعتمد أساساً على السجلات الشرعية، فإنه رجع إلى صحافة القرن التاسع وبعض مؤلفات صالح بن يحيى، وأنيس فريجة، ونجم الدين الغزي، وغيرهم.

ويقسم فاخوري كتابه إلى فصول، ويخصص الفصلين الأول والثاني للعمران: البوابات والأبراج العسكرية، والمدينة، والقلعة، والطرق، والأحياء، والأسواق، والحمامات، والزوايا. أما الفصل الثالث، فيخصصه للبيوت والبناء وهندسة البيوت وتقسيماتها. وأما الفصل الرابع، فيخصصه لـ **منزل بيروت**، وتعريفه للمنزل المعد للضيوف، وقد عثر على ذكر أربعة منها ضمن آلاف الوثائق. ويخصص الفصل الخامس (الأخير) لعائلات بيروت. وللفاخوري كتاب آخر هو: **تاريخ القضاء الشرعي في بيروت (1787-1917)**⁽²⁸⁾.

وقد اهتمت جمعية الحفاظ على تراث طرابلس بسجلات محكمة طرابلس الشرعية، وذلك عام 1982، حين صوّر عدد من أعضائها السجلات الأولى خلال العدوان الإسرائيلي على لبنان. ونشر معهد العلوم الاجتماعية الفرع الثالث، السجل الأول العائد لعام 1077هـ/ 1666م، مع مقدمة تحيط بالسجلات وعددها وأوضاعها وما تشتمل عليه من قضايا. وعمل عدد من الطلاب الأكفاء، خلال السنوات اللاحقة، على إعداد رسائلهم من خلال فهرسة سجل من السجلات. وأعد بعض الباحثين، أيضاً، دراسات في موضوع

25 غسان سنو، **مدينة صيدا (1818-1860): دراسة في العمران الحضري من خلال وثائق محكمتها الشرعية** (بيروت: الدار العربية للعلوم، 1988).

26 حسان حلاق، **بيروت المحروسة في العهد العثماني** (بيروت: الدار الجامعية، 1987).

27 عبد اللطيف فاخوري، **منزل بيروت** (د. م.): نشر خاص، 2003.

28 عبد اللطيف فاخوري، **تاريخ القضاء الشرعي في بيروت (1787-1917)** (بيروت: مؤسسة نوفل، 2006).

السجلات. وقد نشرتُ كتابًا منهجيًا عبر قراءة السجلات عنوانه **الصورة التقليدية للمجتمع المدني**، ونشرتُ أيضًا معجمًا يشتمل على أبرز المصطلحات الواردة في السجلات الذي يمكن أن يستفيد منه العاملون على الوثائق الشرعية⁽²⁹⁾.

ولا تقتصر دراسة الوثائق في المرحلة العثمانية على سجلات المحاكم الشرعية. فقد أنجز عصام خليفة العديد من الدراسات اعتمادًا على دفاتر التحرير أو "الطابو دفتر" في أرشيف رئاسة الوزراء في إسطنبول. وفي **أطلس تاريخي**⁽³⁰⁾، استطاع أن يستخلص المعطيات المتعلقة بالتقسيمات الإدارية والسكان والأديان والمذاهب، ذلك أن وثائق دفاتر التحرير تقدّم معلومات تفصيلية في المجالات المذكورة.

واعتمادًا على دفاتر الطابو العثمانية أعد خالد الجندي مؤلفًا ضخماً عنوانه **لواء طرابلس الشام**، وفقًا لدفاتر الطابو العثمانية (1516-1579)⁽³¹⁾. وقد استعرض فيه قانون اللواء وأنواع الضرائب وأسماء النواحي، وفيه أيضًا مسح شامل لأحياء طرابلس ومحلاتها وأعدادها، فضلًا عن أسماء القرى في كل ناحية. ويذكر في مقدمة كتابه شرحًا لبعض المصطلحات، ومن بينها "مقاطعة" و"مال العشر" و"رسم العروس" و"رسم الخراج"، وغير ذلك. وللجندي عدة مؤلفات أخرى من بينها **الإصلاحات العثمانية**⁽³²⁾.

خامسًا: حداثة المدينة اللبنانية

يتصل طرفٌ من الحداثة بالحقبة العثمانية المتأخرة المعروفة باسم عصر التنظيمات الذي يبتدئ مع خط كلخانة عام 1939، والذي يتضمن العديد من المبادئ وخصوصًا إقرار مبدأ المساواة بين السكان. وقد شهد عصر التنظيمات إصلاحات في المجالات العسكرية والإدارة والتعليم والقضاء.

كل ذلك، استدعى منهجيات بحثٍ تتجاوز ذكر الوقائع السياسية والمعالم الأثرية والحارات والعائلات. وقد أصبحت دراسة المدينة من اختصاص علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة والاقتصاد والسكان. وإذ تجاوزت هذه الدراسة تاريخ الحقب الطويلة، فإن المهمة أصبحت متمثلة في دراسة التحولات المتسارعة.

إحدى الدراسات التي تتناول مدينة حديثة أعدها باحث أميركي عن طرابلس، في ستينيات القرن العشرين، عنوانها **طرابلس مدينة عربية حديثة**⁽³³⁾، ويرجع اختياره لهذه المدينة إلى ثلاثة أسباب؛ فهي مدينة متوسطة، ليست صغيرة، وليست كبيرة بحيث تحتاج إلى وقت كثير لدراستها، ثم إن تركيبها السكانية لا تشبه سائر المناطق اللبنانية، فضلًا عن أنها ليست مثل المدن الشهيرة على غرار حلب والقاهرة ودمشق والقدس؛ فهي تحتاج إلى انتباه أكبر.

يتعرّض الكتاب إلى تاريخ المدينة منذ الفتح العربي والمراحل اللاحقة الصليبية والمملوكية والعثمانية. ففي بداية الحقبة العثمانية، تراجعت طرابلس. وفي نهاية الحقبة، بدأ التحديث.

29 نشر معهد العلوم الاجتماعية السجل الأول بعناية: عمر تدمري وفردريك معتوق وخالد زيادة (1982)، ونشرتُ دراسة منهجية بعنوان: **الصورة التقليدية للمجتمع المدني** (1983)، كما نشرت **أركيولوجيا المصطلح الوثائقي** (1984)، ودراسات في الوثائق. وقد جمعتها لاحقًا في كتاب. ينظر: خالد زيادة، **سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية": المنهج والمصطلح** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

30 عصام خليفة، **أطلس تاريخي - نواحي لبنان في القرن السادس عشر: التقسيمات الإدارية، الديمغرافية، الأديان والمذاهب** (بيروت: [د.ن.].، 2004).

31 خالد الجندي، **لواء طرابلس: إحصاءات في التقسيمات الإدارية والإسكانية والاقتصادية وفقًا لدفاتر الطابو العثمانية (1516-1579)** (بيروت: المؤسسة الحديثة، 2024).

32 خالد الجندي، **الإصلاحات العثمانية وأثرها على التعليم في ولاية بيروت (1887-1918)** (إسطنبول: مركز التاريخ العربي للنشر، 2021).

33 John Gulick, *Tripoli a Modern Arab City* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967)

يستعيد طلال منجد⁽³⁴⁾ بدايات التحديث في مدينة طرابلس انطلاقاً من ساحة التل. وبعد تعريفه لمفهوم الساحة في المدينة الإسلامية، يتطرق إلى عصر التنظيمات العثمانية وأحداث النظام البلدي. ويستعرض ملامح التحديث الأولى مع زيارة مدحت باشا والي سوريا عام 1879 ونصيحته للوجهاء بتشكيل أول شركة مساهمة لإقامة خط تراموي بين المدينة والميناء. وتوالت في إثر ذلك إقامة الأبنية والإدارات في ساحة التل، ويتطرق إلى أبرز المعالم: المقهى، والملاهي، والفنادق، والإرساليات.

وفي سياق التحديث الذي عرفته طرابلس، يُعرّف منير مخلوف بالصناعة في طرابلس⁽³⁵⁾، ويعالج في بداية كتابه الظروف الاقتصادية في لبنان الستينيات وأزمة بنك إنترا عام 1966، ويرى أن لبنان قد تجاوز الأزمة بسبب النظام الاقتصادي الليبرالي. أما طرابلس، فإنها تاريخياً مرفأً مهم منذ أيام الفينيقيين، وهي تقع في محيط زراعي خصب، وكانت لها أدوار في كل الحقب التاريخية. وأما الصناعة في طرابلس، فقد كانت تتركز في مصانع السكر والمواد الغذائية والإسمنت والخشب والحديد والزجاج والصابون.

سادساً: بيروت

تستقطب بيروت جُل الدراسات المتعلقة بالمدينة والحداثة. وعلى الرغم من تاريخها العريق وشهرة مدرسة الحقوق فيها خلال العصر الروماني، فإنّ التحديث قد نقلها من مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها خمسة آلاف نسمة في أول القرن التاسع عشر إلى مدينة يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة في نهاية هذا القرن.

وعلى الرغم من أن ازدهار بيروت يرجع، بحسب الباحثين، إلى فترة الحكم المصري (1832-1840) وإقامة الكرنيتينا بجوار مرفئها، فإنّ اعتماد التجار الأجانب عليها قد حصل قبل ذلك؛ فالتجار الذين كانوا يقيمون في عكا لجؤوا إلى بيروت هرباً من حاكمها أحمد باشا البزار، الذي يريد احتكار التجارة، ويضاف إلى ذلك سبب آخر متمثل في الحصار الفرنسي الذي دفعهم إلى مغادرتها خوفاً من بطشه. ويقول شارل عيساوي: "إنه نتيجة اتساع تجارة سكان بيروت وطّد التجار الفرنسيون مركزهم في هذه المدينة، وحققوا بعض المنافع. وقبل عام 1814، وحتى بعدها، كان هناك تاجر أوروبي واحد في هذا الميناء. غير أن بيروت تُعدّ من أكثر موانئ الساحل السوري التجاري نشاطاً، ومن هنا نستطيع القول إن تأسيس البيوت التجارية الأوروبية، هو الذي منح بيروت أهميتها. فبداية بروز تلك الأهمية ترجع إلى الوقت الذي طُرد فيه الفرنسيون من الولاية (عكا)".

ولا شك في أن إجراءات إبراهيم باشا المصري والضمانات التي منحها للأوروبيين، إضافة إلى إقامة الكرنيتينا، هي التي سرّعت من نمو بيروت. ويضيف عيساوي: "في عام 1838 أصبح في بيروت 67 بيتاً تجارياً بينها 11 فرنسية، 8 إنكليزية و14 من جنسيات أخرى، و34 بيتاً للمسلمين والمسيحيين من أبناء البلاد"⁽³⁶⁾.

ويؤرّخ سمير قصير لبيروت في كتاب صدر عام 2003 (قبل استشهاده في 2 حزيران/ يونيو 2005)، ويضيف كتابه على النصب الذي أقيم له في وسط بيروت معنًى إضافياً. فالتاريخ الذي كتبه على درجة من الشمول، بحيث يصعب أن يضاهيه كتاب آخر في موضوعه. ولئن بدأ من تاريخ بيروت القديم، فإنه كان يتطلع إلى الاستثناء الذي مثلته بين المدن والعواصم في العالم العربي: "بيروت

34 طلال منجد، ساحة التل: لقاء التقليد والحداثة (طرابلس، لبنان: منشورات شاعر الفحاء سبأ زريق الثقافية، 2021).

35 منير مخلوف، الصناعة في طرابلس (1967-1975) (بيروت: دار أبعد، 2009).

36 شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلل الخصب (1800-1914) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990)، ص 257-258.

الساحة المعرفية، المدينة الجامعية، عاصمة الصحافة والمنشورات العربية، مركز الاستشفاء، مرفأ الترانزيت، عقدة المواصلات الجوية، السوق المفتوحة لكل الصفقات التجارية والمعرفية.. وظائف كثيرة أدتها بيروت وتخطت الإطار الجغرافي للجمهورية اللبنانية⁽³⁷⁾.

يرى قصير أن ثمة نهجين لدراسة تاريخ المدينة؛ أحدهما نهج الآثاريين أي علماء الأركيولوجيا، والآخر نهج دعاة التاريخ المعاصر الذي يبدأ بالدولة العثمانية. وهو يأخذ بالنهج الأول حينما يتعلق الأمر بتاريخها، ويأخذ بالنهج الثاني حين يتعلق الأمر بنهوضها الحديث.

إن مجد بيروت القديم يعود إلى الفترة الرومانية حيث أصبحت مستعمرة ذات نفوذ واسع. والحفريات تظهر آثار حمامات ومدافن، وغيرها. وتعود شهرتها إلى مدرسة الحقوق. وقد بلغت المدينة مجدها في القرن الخامس الميلادي قبل أن يدمرها الزلزال ليطويها النسيان، خلال ما يزيد على خمسة قرون من الزمن، لتحضر من جديد مع الحملات الصليبية.

وفي فترة فخر الدين المعني، عُدّت بيروت عاصمة للدولة التي أنشأها بحسب الرواية التمجيدية. فقد اعتنى الأمير المعني ببيروت من حيث التشجير وإنشاء الحدائق، واعتنى كذلك بقصر أشرف على بنائه مهندس إيطالي، وبرج أيضاً، إضافةً إلى مسجد الأمير منذ عام 1620⁽³⁸⁾.

خضعت بيروت لإبراهيم باشا المصري دون مقاومة، وكان عدد سكانها قد بلغ 20000 نسمة، وسرعان ما أقام فيها مجلساً إدارياً مكوناً من أعضاء مسلمين ومسيحيين. وأقيم فيها المحجر الصحي (كرنتينا)، فصارت بيروت محطة إلزامية لكل المراكب البحرية. وقبل منتصف القرن أنشئت فيها قنصليات تمثل كل الدول تقريباً ومؤسسات تجارية وفنادق ومخازن مجهزة على أكمل وجه، وأقيم فيها كازينو فخم لا مثيل له في الأساكل. ونتيجة لهذا النمو، فقدت طرابلس أهميتها مثل غيرها من الأساكل في سوريا.

شهدت بيروت انفجاراً سكانياً منذ عام 1830، بداية النزوح السوري، الذي وصل إلى ذروته عام 1860. وإضافة إلى أحداث الجبل، فإن نجاح بيروت الاقتصادي كان عامل جذب؛ ما أدى إلى توسع المدينة عبر إنشاء شبكة مواصلات غيرت حياة السكان. ونشأت شبكة رجال الأعمال المحليين، وقد استأثرت بقسم من التجارة الأوروبية، و"كان الشأن الاقتصادي هو المدخل الرئيسي لعودة نظام المِلل الذي يقوم على مبدأ أساسي هو حماية الطوائف غير المسلمة، وقد استغل من قبل التجار المسيحيين"⁽³⁹⁾.

وبقدر ما ظهرت في بيروت ملامح مدينة غربية، فإنها كانت أيضاً مدينة التنظيمات العثمانية. ويضاف إلى ذلك إنشاء المجالس في الولايات والعمران والتوسع والحدائق. وقد كانت روحية الإصلاح تحرك الحكام والموظفين المحليين والأعيان. وكانوا كلهم مقتنعين بأن هذه هي "طريق المستقبل".

ومن بين المؤلفات التي تركز على لحظة التحول عام 1834، كتاب للمؤرخ الفرنسي دومينيك شوفالييه. ويرى هذا المؤرخ أن تلك اللحظة كانت نهاية زمن الامتيازات أو ما سمي بـ *Les Echelles du Levant*، فقد انفتحت بين بيروت وأوروبا تجارة لا تحدّها الشروط، وتعود إلى القرن السادس عشر. إن كتاب شوفالييه يستند إلى وثائق فرنسية وتقارير القناصل، وخصوصاً غيز والرحالة جيرار دونرفال. ويركز كتابه على خان الملح الذي يقع عند مدخل المرفأ، والذي استأجره القنصل غيز ليكون مكان إقامة للتجار الفرنسيين⁽⁴⁰⁾.

37 سمير قصير، *تاريخ بيروت*، ترجمة ماري طوق غوش، ط 4 (بيروت: دار النهار، 2023)، ص 22.

38 المرجع نفسه، ص 90.

39 المرجع نفسه، ص 153.

40 Dominique Chevallier, *Villes et Travail en Syrie du XIX^e aux XX^e siècle* (Paris: Éditions G.P. Maisonneuve et Larose, 1982), pp. 9-28.

تركز ندى صحنوي في كتابها **غربة الحياة اليومية في بيروت**، على دور التجار المسيحيين الذي كانت لهم سيطرة على كل التجارة السورية. وهؤلاء التجار هم طبقة محلية شكّلت ما يشبه طبقة برجوازية تماهت مع القيم الثقافية الغربية، وقد كانت المحرك لتغريب الحياة اليومية في بيروت⁽⁴¹⁾. وتستعرض الباحثة التطورات المدنية منذ عام 1834؛ من رصف الشوارع إلى فرض شروط الصحة العامة والنظافة، ونشوء أحياء جديدة في رأس بيروت والأشرفية وهي الأحياء التي سكنتها البرجوازية الجديدة. وبعد استعراض تحديث المواصلات والإضاءة بالكهرباء وجّر المياه، عرفت بيروت بناء خمسة مستشفيات في الوقت نفسه الذي عدّ فيه الطب الشعبي غير قانوني.

إذا كانت صحنوي قد استعرضت بعض مظاهر التغريب في بيروت، وركّزت في جانب من دراستها على دور البرجوازية المسيحية في تحديث بيروت، فإن كتاب نادر سراج **بيروت جدل الهوية والحداثة**، وهو كتاب موسوعي يدخل في التفاصيل وأثرها في الأفراد والبيئة الاجتماعية وخصوصاً الإسلامية منها، يُعدّ مبحثاً في مجال الأنثروبولوجيا. وتبعاً لاختصاصه، يتعقّب تطور المفردات والمصطلحات والعلاقة بين العمران ومنظومات الأفراد والجماعات الحضرية واللغوية والثقافية والفكرية⁽⁴²⁾.

ويمكن أن نعدّ كتاب الدويهي **مقاهي بيروت الشعبية**⁽⁴³⁾، نموذجاً لاستخدام طرائق البحث الأنثروبولوجي من جهة، والإضاءة على جانب آخر من بيروت عادةً ما أهمله الذين درسوا حادثة بيروت من جهة أخرى.

وتعكس المقاهي، بوصفها مكاناً اجتماعياً، حاجةً إلى الرعاية أو الضبط والمراقبة. فهذه المرافق التي يحتشد فيها الناس بهوياتهم ومشاربهم ومصالحهم المختلفة تحتاج إلى "ضابط يضبط حركتها"، وهذا الضابط "ليس بالضرورة من توكل إليه قانوناً هذه المهمة. بل الشخص الذي يمتلك رأسماً لدرج على نعته من قبل علماء الاجتماع بـ"الرأسمال العنفي"⁽⁴⁴⁾.

وإذا كان أبناء ولاية بيروت قد رحبوا بالانقلاب وأرسلوا نوابهم إلى "مجلس المبعوثان"، فإن إدارة المتصرفية تمتعت عن ذلك بحجة أنها تملك استقلالاً ذاتياً. وأدت مشاركة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى إلى اندلاع الثورة العربية في الحجاز التي حظيت بتأييد مسلمين ومسيحيين، إلا أن نزعة موارد جبل لبنان إلى الاستقلال بدولة، بدعم فرنسي، قد أصبحت أكثر وضوحاً.

ترى كارلا إده في كتابها **بيروت ولادة عاصمة**⁽⁴⁵⁾، أن اختيار عاصمة لدولة لبنان الكبير كان نتيجةً لتسوية فرنسا سياستها في سوريا وتجديدها، ذلك أنها لا تستطيع الاتكال على دعم المسيحيين اللبنانيين فحسب؛ لهذا بحثت عن صيغة يقبل بها المسلمون وتحفظ صلتها بالمسيحيين في الآن نفسه. ومن ثم، عمدت فرنسا إلى إقناع الوجهاء بنوع من التعاون؛ بحيث تمنح الموارد دولة لبنان وتجعل العاصمة بيروت.

يجدر أن نذكر بأن إعلان دولة لبنان الكبير، في أول أيلول/ سبتمبر 1920، قد جاء بعد خمسة أسابيع من معركة ميسلون (24 تموز/ يوليو 1920) التي أطاحت بالحكومة العربية في دمشق. وفي إثر ذلك، طُرد الملك فيصل، وأُخضعت سوريا للانتداب.

وتصف مي دافي في كتابها **بيروت وضواحيها**⁽⁴⁶⁾، تطور بيروت عبر ثلاث حقب (1840-1940). ففي المرحلة الأولى، كانت بيروت مدينة عربية من حيث بنيتها العمرانية والاقتصادية؛ حيث تشكّل السوق مركز المدينة، وتستقطب نشاطاتها الحرفية والتجارية،

41 Nada Sehnaoui, *L'occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth (1860-1914)* (Beirut: Éditions Dar An-Nahar, [n. d.]), p. 22.

42 نادر سراج، **بيروت جدل الهوية والحداثة** (بيروت: أنطوان للنشر، 2023)، ص 105.

43 شوقي الدويهي، **مقاهي بيروت الشعبية (1950-1990)** (بيروت: دار النهار، 2023).

44 المرجع نفسه، ص 15.

45 Carla Eddé, *Beyrouth, naissance d'une capitale (1918-1924)* (Paris: Actes Sud, 2009).

46 May Davie, *Beyrouth et ses foubourgs (1840-1990), une intégration inachevée* (Beirut: Centre d'études et de recherches sur le moyen-orient contemporain 'CERMOC', 1996).

ويعيش في حاراتها أبناء من كل الطوائف الذين يمارسون حرفهم وحياتهم. أما في المرحلة الثانية، فقد تحولت بيروت إلى مدينة برجوازية متوسطة، في حين تحولت في المرحلة الثالثة إلى مدينة كولونيالية. وهذا التطور الذي عاشته بيروت، خلال قرن من الزمن، يفسر الإخفاق في تكامل المدينة واندماجها، فالسياسات المتبعة في حقبة الانتداب، ثم بداية من الاستقلال، كانت تقوم على إرضاء الزعماء وتحالفاتهم مع رجال الأعمال، وهو أمر أدى إلى سيطرة المصالح على التخطيط؛ ما نجم عنه وضع تدميري؛ ليس بسبب الحرب فحسب، بل بسبب إهمال المناطق حول المركز، مثل الكرنيتينا وسن الفيل والحازمية والحدث والشياح وبرج البراجنة، التي تتحكم فيها مجموعات مالية متعايشة مع النظام الطائفي. وبعد مئة وخمسين عامًا من خروج بيروت من أسوارها، لم تُعد بيروت موجودة؛ إذ أصبحت مجموعة من المساحات المفككة.

خاتمة

لم ينفصل التأريخ في لبنان عن السجلات المتعلقة بالهوية. فقد ركزت المؤلفات المبكرة في بدايات القرن العشرين على فينيقية المدن الساحلية، مثل صور وصيدا وطرابلس وأرود، من خلال العودة إلى التاريخ القديم الذي صار متاحًا بفضل الأبحاث التاريخية والحفريات الأثرية التي قام بها أوروبيون وخصوصًا الفرنسيين؛ وذلك من أجل تأكيد خصوصية الهوية اللبنانية وتميزها من المحيط السوري والعربي.

وقبيل منتصف القرن العشرين ظهرت دراسات مقابلة تعتني بالتاريخ الوسيط وصولًا إلى الحقبة المملوكية وازدهار المدن، وخصوصًا مدينة طرابلس التي أصبحت نيابة سلطنة، ثم ولاية في الحقبة العثمانية.

وفي مرحلة لاحقة، ولا سيما في ثمانينيات القرن العشرين، اكتشف الباحثون في تاريخ لبنان أهمية الوثائق، وخصوصًا وثائق سجلات المحاكم الشرعية، وهو الأمر الذي ضاعف الاهتمام بدراسة المدن من النواحي الاقتصادية والسكانية وغيرها. وتضاءل السجل حول الهوية في مقابل التركيز على الجوانب المنهجية المتعلقة باستخدام الوثائق، والاستفادة من الأبحاث في مجال التاريخ الاجتماعي.

واستقطبت بيروت التي عرفت ازدهارًا ونموًا منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر الدراسات التاريخية التي اعتنت بتاريخها القديم، وركزت على تاريخها الحديث؛ ما دفع المؤرخين إلى استخدام طرائق البحث الاقتصادية والأنثروبولوجية. فقد غيّرت الحداثة وظائف المدن على نحو أدى إلى تبدل طرائق البحث التاريخية.

المراجع

العربية

- أبو طاحون، إبراهيم. **عمارة وفنون طرابلس الشام [دراسات وبحوث]**. القاهرة: الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.
- إسماعيل، السيد عبد العزيز. **دراسة في تاريخ مدينة صيدا الإسلامي**. بيروت: جامعة بيروت العربية، 1970.
- _____. **طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، [د. ت.].
- التميمي، رفيق ومحمد بهجت. **ولاية بيروت**. بيروت: مطبعة الإقبال، 1916.
- الجندي، خالد. **لواء طرابلس: إحصاءات في التقسيمات الإدارية والإسكانية والاقتصادية وفقاً لدفاتر الطابو العثمانية (1516-1579)**. بيروت: المؤسسة الحديثة، 2024.
- حلاق، حسان. **بيروت المحروسة في العهد العثماني**. بيروت: الدار الجامعية، 1987.
- الخط العربي في العمارة: الكتابات في الآثار الإسلامية في مدينة طرابلس أيام المماليك. إشراف أمين البزري. لبنان: المؤسسة الوطنية للتراث، 1999.
- الخوري، إغناطيوس طئوس. **مصطفى آغا بربر: حاكم طرابلس واللاذقية (1767-1834)**. لبنان: مطبعة الرهبانية اللبنانية، 1957.
- الدويهي، شوقي. **مقاهي بيروت الشعبية (1959-1990)**. ط 2. بيروت: دار النهار، 2023.
- زيادة، خالد. **سجلات المحكمة الشرعية "الحقبة العثمانية": المنهج والمصطلح**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- الزين، أحمد عارف. **تاريخ صيدا: يحوي تاريخها وسائر شؤونها منذ عمرائها إلى وقتنا الحاضر**. صيدا: مطبعة العرفان، 1912.
- الزين، سميح وجيه. **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً**. بيروت: دار الأندلس، 1969.
- سراج، نادر. **بيروت جدل الهوية والحداثة**. بيروت: أنطوان للنشر، 2023.
- شبارو، عصام. **تاريخ بيروت من أقدم العصور حتى القرن العشرين**. بيروت: دار مصباح الفكر، 1978.
- شريف بك، حكمت. **تاريخ طرابلس من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام**. منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري. طرابلس، لبنان: دار الإيمان، 1987 [1906].
- شيخو، لويس اليسوعي. **بيروت: تاريخها وآثارها**. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1925.
- الولي، طه. **بيروت في التاريخ والحضارة والعمران**. بيروت: دار العلم للملايين، 1993.
- عبد السلام تدمري، عمر. **تاريخ وآثار ومساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك**. لبنان: دار البلاد، 1974.
- _____. **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور: عصر دولة المماليك - الجزء الثاني**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

- _____. تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ج. 1. طرابلس، لبنان: مطابع دار البلاد، 1978.
- خليفة، عصام. أطلس تاريخي - نواحي لبنان في القرن السادس عشر: التقسيمات الإدارية، الديمغرافية، الأديان والمذاهب. بيروت: [د. ن.]، 2004.
- عيساوي، شارل. التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب (1800-1914). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990.
- فاخوري، عبد اللطيف. تاريخ القضاء الشرعي في بيروت (1787-1917). بيروت: مؤسسة نوفل، 2006.
- _____. منزل بيروت. [د. م.]: نشر خاص، 2003.
- قصير، سمير. تاريخ بيروت. ترجمة ماري طوق غوش. ط 4. بيروت: دار النهار، 2023.
- كيال، مها. تقليد وتجديد: دراسة للقطاع الحرفي في طرابلس. بيروت: اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة، 2002.
- مجنوب، طلال. تاريخ صيدا الاجتماعي (1840-1914). صيدا: المكتبة العصرية، 1983.
- مخلوف، منير. الصناعة في طرابلس (1967-1975). بيروت: دار أبعاد، 2009.
- منجد، طلال. ساحة التل: لقاء التقليد والحداثة. طرابلس، لبنان: منشورات شاعر الفيحاء سبأ زريق الثقافية، 2021.
- يني، جرجي. تاريخ سوريا. بيروت: المطبعة الأدبية، 1881.

الأجنبية

- Chevallier, Dominique. *Villes et travail en Syrie du XIX^e aux XX^e siècle*. Paris: Éditions G.P. Maisonneuve et Larose, 1982.
- Davie, May. *Beyrouth et ses foubourgs (1840-1990), une intégration inachevée*. Beirut: Centre d'études et de recherches sur le moyen-orient contemporain (CERMOC), 1996.
- Eddé, Carla. *Beyrouth, naissance d'une capitale (1918-1924)*. Paris: Actes Sud, 2009.
- Gulick, John. *Tripoli: A Modern Arab City*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967.
- Salam-Liebich, Hayat. *The Architecture of the Mamluk City of Tripoli*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983.
- Sehnaoui, Nada. *L'occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth (1860-1914)*. Beirut: Éditions Dar An-Nahar, [n. d.].

التاريخ المحلي في جبل لبنان في النصف الأول من القرن العشرين

Local History in Mount Lebanon in the First Half of the Twentieth Century

* أستاذ متقاعد من الجامعة اللبنانية، يعمل حاليًا منسق مداخل لبنان لموسوعة "أرابيكا" التي سيصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
Retired Professor at the Lebanese University - Currently Coordinator of Lebanon Entries for the Arabica Encyclopedia, which will be Published by the Arab Center for Research and Policy Studies.

simonabdelmassih@hotmail.com

المقدمة

يشغل التاريخ المناطقي مكانةً بين تصنيفات التاريخ الوطني والإقليمي والقومي، وعلى الرغم من التوجسات والتصورات المرتبطة بالتفكك والانفصالية، فقد أثبت علميته بصفته مجالاً للتطبيق على حيّز محدد مثل مدينة أو بلدة أو قرية صغيرة، وترسخ اقتناع بأن الهوية الوطنية تُبنى عبر ترابط معطيات متنوعة من التواريخ المحلية، حيث تبرز - على الرغم من خصوصية كل منها - التشابهات في الحياة اليومية والتقاليد الاجتماعية ووحدة القوانين الاقتصادية، والإدارية، والمؤسسية، والسياسية. وتتمثل الإشكالية في علاقة التاريخ المحلي بالتواريخ العامة والدوائر الإقليمية المتعددة.

تعتمد هذه الدراسة منهجيةً، تركز على قراءة نصوص المؤرخين المحليين، وفق قائمة تناولت دوافعهم ومنهجياتهم والموضوعات الجغرافية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، وأنماط التحقيب المعتمدة عند كل منهم، والتقليد المتبع في تقسيم التاريخ إلى ديني ومدني. وقد سمحت القراءة التتابعية لتنتاجات التاريخ المناطقي برؤية تطويرية، كانت في شكل حفريات معرفية متراكمة، وبتعيين الاستمراريات والانقطاعات، ورصد الثورات الإستيمولوجية والمنهجية في النصف الأول من القرن العشرين، وكذلك سمحت باستعادة آليات الإنتاج والنشر والتسويق لتلك المؤلفات، وبخاصة طرائق تمويل الطباعة والإصدار عبر ترتيبات إعلانية، كما برزت وظائف مادية أخرى للفكر التاريخي، مثل التسويق الاصطناعي والصناعي والسياحي.

على أن هذه القراءة للأدب التاريخي المحلي أظهرت إشكالية مزدوجة هي كناية عن أسبقيتين؛ الأولى لها طابع جيوسياسي حيث تركزت الدراسات على بعض المدن الساحلية والداخلية التي كانت في نطاق ولايتي بيروت ودمشق، وعلى البلدات الاستقطابية في متصرفية جبل لبنان، قبل أن تندرج جميعها في دولة لبنان الكبير سنة 1920. وترتبط الأسبقية الثانية بالأولى لجهة أن التأريخ المحلي بدا متقدماً على التاريخ الوطني أو متزامناً معه عند منتصف القرن العشرين. وقد نتجت الأولى من أسبقية اندراج المدن والبلدات الاستقطابية في الحداثة، لأسباب تاريخية مركبة: اقتصادية، وتعليمية، وتنظيمية. وتتمثل الثانية في أن البناء المحلي أسبق من البناء الوطني، حيث تستلزم كتابة الثاني إرادة سياسية وتوثيقاً واسعاً ومنهجية ملائمة. وهنا برزت إشكالية العلاقة بين التاريخ الكلي والتاريخ الجزئي.

وفي إطالة على القرن العشرين لمجمل الإنتاج في التأريخ المحلي، تظهت بعض سمات سوسيولوجيا الثقافة وتاريخية انتشار التعليم، بحسب الطوائف والمناطق والطبقات الاجتماعية. فعلى الرغم من أن بعض المدن قد حظيت بأبنية سردية منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى، مثل طرابلس وبيروت وصيدا وبعبك، يضاف إليها تجربة مجلة **العرفان** في جبل عامل، فإن التأريخ المحلي في النصف الأول من القرن العشرين، كان مركزاً على البلدات الاستقطابية في جبل لبنان، لأسباب تعليمية وثقافية واجتماعية واقتصادية. ولهذا السبب، سنتناول بالتحليل تحديداً هذا الإنتاج الأخير، على أن نتناول في بحث آخر تطورات التأريخ المحلي في النصف الثاني من القرن العشرين وحتى زماننا الحاضر، حيث انتشر هذا النمط من التأريخ في كل المناطق اللبنانية نتيجة تطورات، أبرزها انتشار التعليم وبقضة الوعي التاريخي. كل ذلك يعني أن الهدف الأساسي للبحث هو عرض منهجي ومضموني لأحد فروع الكتابة التاريخية، بما يشكل قاعدة للتصنيف والمقارنة والتأثير المتبادل بين مختلف مساراتها في لبنان القرن العشرين. وهو يندرج في سياق إستيمولوجي لمحطات تكوين المعرفة التاريخية وكيفية تطورها.

تأثرت التطورات في ميدان التأريخ المحلي بالتراكم التاريخي؛ فقد تأثرت في البدايات بجهود المستشرقين والأركيولوجيين، وكان إرنست رنان، في النصف الأول من ستينيات القرن التاسع عشر، قد أيقظ الحس التاريخي المحلي بجولاته على المدن والمناطق اللبنانية، مطلقاً حركة توثيقية وأثرية Archeology، أثبتتها في كتابه **بعثة إلى فينيقيا**⁽¹⁾. ثم أصدر الخوري منصور الحتوني، في ثمانينيات القرن عينه،

1 Ernest Renan, *Mission de Phénicie* (Paris: Imprimerie Impériale, 1864-1874).

كتابه نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية⁽²⁾، وكتب ميخائيل موسى ألوف البعلبكي⁽³⁾ النسخة الأولى من كتابه تاريخ بعلبك (1889)، إلى أن تأسست مجلة المشرق (1898)، والتي راحت تنشر الوثائق وزيارات الأب لامنس اليسوعي إلى المناطق اللبنانية، والتي جمعها في كتابه تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار (1913)⁽⁴⁾. ويمكن اعتبار تأسيس الإدارة العثمانية للسالنامة، وتنظيمات إدارة المتصرفية في مسحها للأراضي والسكان والأنشطة الاقتصادية، وكتاب ولاية بيروت لرفيق التميمي ومحمد بهجت سنة (1916)⁽⁵⁾، و"الزيارات الرعائية" لأجهزة الكنيسة وتقاريرها عن القرى والبلدات في الرعايا والأبرشيات، مقدمات تأسيسية للمعطيات والإحصاءات المحلية.

أولاً: بواكير التاريخ المحلي في النصف الأول من القرن العشرين ومحفّزات المؤرخين

يبين المسح الأولي لإصدارات الكتابة التاريخية المحلية أن أغلبية هذه الإصدارات تناولت التجمعات السكانية الكبيرة في جبل لبنان، وتحديدًا تلك التي كانت في نطاق نظام المتصرفية القديم، هذا إذا تركنا لتاريخ المدن مثل بعلبك وصيدا وبيروت وطرابلس حقله الخاص المندرج في دائرة أخرى تتناول تاريخ المدينة العربية. وبناء عليه، فإننا نتناول في هذه الدراسة مؤلفات مجموعة من المؤرخين. وانطلاقاً من قراءة نصوصهم سنتوقف عند حوافرهم في الكتابة، ومصادرههم الوثائقية، ومنهجياتهم، وأنماط تحقيقاتهم للزمن التاريخي، ومقارباتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية/ التعليمية، ووصفهم للمؤسسات السياسية والإدارية في بلداتهم، والجمعيات الخيرية، والأدبية، والدينية. والمؤلفات التي سنتناولها هي:

1. **دليل لبنان (1906) لإبراهيم الأسود (1855-1942)**⁽⁶⁾، ولعله من أول الكتب التي جمعت المعلومات الديموغرافية والاجتماعية والإحصائية عن القرى والبلدات والمدن في جبل لبنان، متأثراً بالسالنامة التركية⁽⁷⁾ من جهة، وبتراكم المعطيات الإحصائية منذ أن كان والده عضواً في مجلس إدارة متصرفية جبل لبنان، ومتابعته مهمات إدارية وقضائية وتربوية من جهة أخرى.

2. **الخوري منصور الحتوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية (د. م. [د. ن. 1884]؛ الخوري منصور الحتوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، ط. 2 [د. م.]: دار كنعان، 1956).**

3. **ميخائيل موسى ألوف البعلبكي (1869-1945)**، كان دليلاً سياحياً، وكان يعرف الفرنسية والإنكليزية والألمانية، وقد أصدر أبحاثه الأولى بهذه اللغات. وألوف من الأدلاء السياحين الذين يستندون في شروحاتهم إلى المعلومات التاريخية الموثقة. وقد عُيّن في المرحلة العثمانية أميناً على الآثار القديمة في بعلبك وحفظ متحفها الهمايوني، وهذا ساعده على تأليف تاريخها، وقد أضفى مرجعاً للجمعيات الجغرافية الغربية والمجلات العلمية الأجنبية والوطنية. ينظر: ميخائيل موسى ألوف البعلبكي، تاريخ بعلبك، ط 3 (بيروت: المطبعة الأدبية، 1908)، ص 4؛ وفي سنة 1920 عُيّن ألوف رئيساً لبلدية بعلبك إلى جانب استمراره في وظيفته في إدارة الآثار. ويبدو أنه من خلال وظيفته وعمله السياحي ومردود كتبه المطبوعة عدة مرات، استطاع تجميع ثروة كبيرة مكنته سنة 1922 من شراء فندق بالميرا الشهير في مدينة بعلبك الذي بُني سنة 1872، بعد أن طرحه أصحابه اليونانيون للمزاد العلني لوفاء ديونهم. ينظر: شرف محمد، "أوتيل بالميرا" في بعلبك.. تاريخ مهدد بالزوال"، السفير، العدد 12566، 2013/8/30.

4. **نشر لويس شيخو مقالات في المشرق عن تاريخ بيروت، ثم نُشرت في كتاب مستقل، ينظر: لويس شيخو، بيروت: تاريخها وأثارها (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1925).**

5. **رفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت (1916/1332هـ) (بيروت: دار لحد خاطر، 1979).**

6. **أبرز مؤلفاته: إبراهيم الأسود، ذخائر لبنان (بعدا: المطبعة العثمانية، 1896)؛ إبراهيم الأسود، دليل لبنان (بعدا: المطبعة العثمانية، 1906)؛ إبراهيم الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج 1 (بيروت: مطبعة القديس جاورجيوس، 1925)؛ إبراهيم الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج 2 (بيروت: مطبعة القديس جاورجيوس، 1927)؛ إبراهيم الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج 3 (بيروت: المطبعة العلمية، 1930)؛ إبراهيم الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج 4 (بيروت: المطبعة العلمية، 1935)؛ ما يهمن في موضوعنا هو كتابه دليل لبنان الذي طبع عدة مرات.**

7. **السالنامة كلمة فارسية تعني "الكتاب السنوي" الذي كانت تصدره الدولة العثمانية ما بين سنتي 1847 و1915. وقد أسسه أحمد جودت باشا وأحمد وافي باشا، ثم تولت وزارة المعارف إصداره، ويتضمن كمّاً كبيراً من المعلومات والإحصاءات. وكان يمكن لإدارة الولايات العثمانية أن يصدر كل منها سالنامة سنوية تتعلق بالولاية، وقد أضحت من أبرز المصادر لدراسة التاريخ العثماني في المرحلة المشار إليها. ينظر: محمد العوض، "السالنامات العثمانية"، الجزيرة نت، 2017/7/11، شوهد في 2025/6/25، في: <https://bit.ly/4kab2Pk>؛ كما أن السالنامة يرادفها "الرزنامة" أو "الكناش" وبالفرنسية Almanach. وقد جاءت ظاهرة استصدار السالنامات أو الرزنامات في الدولة العثمانية وولاياتها وسناجقها في إطار موجة التعصير والتنظيمات.**

2. **تاريخ مدينة زحلة (1911) لعيسى إسكندر المعلوف (1869-1956)**⁽⁸⁾، وقد ألف كتابه خوفاً من اندثار الوثائق، ومواجهة الانحطاط، وإهمال التاريخ والنظرة الدونية للذات مقابل الإعجاب بالمستشرقين⁽⁹⁾. يتحدث المعلوف عما سبق، ويستشف أن هناك ميلاً لدى الجمهور المتعلم لقراءة كتب المستشرقين عن بلادهم. ويبدو نضالاً وحضارياً في آن، وهو لم ينتج لغايات تسويقية، بل التزاماً بالبحث عن الحقيقة التاريخية. ويُعدّ المعلوف رائداً في التاريخ المحلي بسبب اهتمامه بتاريخ الأسر الشرقية، ومنها تاريخ عائلته في كتابه **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف (1908)**، وكذلك لجهوده تحديداً في كتابه **تاريخ مدينة زحلة**. وقد أرسى تقليداً في كتابة تاريخ البلدات والمدن استمر لعقود طويلة خلال القرن العشرين. ومن سمات هذا التقليد الاهتمام بالإطار الجغرافي والطبيعي والبيئي، والحفاظ على منهجية التاريخ التسلسلي والتطوري، إضافة إلى الاهتمام بمفاهيم التراكم والتطور والتغير.

3. **كشف النقاب عن بقعة بيت شباب (1926) للخورى ميخائيل غبريل الشبائي**⁽¹⁰⁾. اهتم الشبائي بالتاريخ المحلي والمناطقى، وذكر ظروف استصدار كتابه، معلناً أنه كان يكتب بناء على رغبة مواطنيه على الرغم من الصعوبات، وبسبب "النهضة التاريخية" المرتبطة بالحفريات الأثرية والعطش إلى معرفة الماضي، مستفيداً في ذلك من تجربة ميخائيل ألوف في **تاريخ بعلبك**⁽¹¹⁾. واعتمد الشبائي على خطة تمويل لكتابه - استمرت فيما بعد مع غيره من مؤرخي بلداتهم - تركز بصورة أساسية على مساهمات الأثرياء من المهاجرين مقابل وضع صورهم وترجماتهم، وذلك بسبب الظروف الاقتصادية والمالية في لبنان ما بعد الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى ربط النقد اللبناني بالفرنك الفرنسي المتدهور⁽¹²⁾.

4. **تاريخ العاقورا (1930)**⁽¹³⁾ للمونسنيور⁽¹⁴⁾ لويس الهاشم. لا يتوسع المؤلف كثيراً في تفسير حوافزه لتأليف كتابه؛ فقد ركز على أهمية كتابة تاريخ بلدة عريقة، وهو أحد أبناء عائلتها التي تنتمي إلى الأسر الإقطاعية القديمة، كما أنها مصدر للعديد من العائلات المنتشرة. ويتمثل أساس مشروعه التاريخي في كتابة أمجاد العائلة وإعادة الربط بين أسرها المقيمة والمنتشرة.

8 وُلد في كفرعقاب، وتعلم في مدرسة القرية، ومن ثم في مدرسة الشوير للمرسلين الإنكليز، حيث تعلم الإنكليزية. ثم تولى تدريس الأدب العربي في مدارس في لبنان وسورية. شارك في "ديوان المعارف" سنة 1919، ثم كان عضواً في "المجمع العلمي" الذي انبثق من هذا الديوان، ثم عضواً في المجمع العلمي اللبناني الذي تأسس سنة 1928، وعضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ إنشائه سنة 1933. انتقل إلى السكن في زحلة منذ سنة 1998. صدر له **دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف (1908-1907)؛ ومدينة زحلة (1911)**.

9 عيسى إسكندر المعلوف، "تاريخ مدينة زحلة"، جريدة **زحلة الفتاة**، 1911، ص 9-11.

10 الأب ميخائيل غبريل الشبائي، **كشف النقاب عن بقعة بيت شباب** (بيت شباب: مطبعة جريدة العلم، 1926).

11 المرجع نفسه، ص 5-6.

12 جرى اعتماد أسلوب متميز في وضع صور أشخاص وعائلات في متون النصوص، من دون أن يكون هناك أي رابط بين الصورة الفوتوغرافية والنص الذي أدرجت فيه، إنما هناك إشارة في أسفل الصورة إلى أن ترجمتها هي في الصفحة المحددة في آخر الكتاب (أي في الملحق) مع رقم هذا الملحق. وقد قدم لهذا الملحق بقوله: "وددنا مع ما بذلنا من البحث والتفتيش أن ندرج في هذا الجزء وتاليه رسوم مشاهير البقعة الشبائية السالفين من دينيين ومدنيين. فلم تتمكن من الحصول إلا على اليسير لمتأخرين؛ إذ لم يكن في أيام المتقدمين من يتعاطى نقل الرسوم". ينظر: الشبائي، ص 172؛ وقد ترجم لـ 35 شخصية، المرجع نفسه، ص 172-210؛ ويبدو أن لإثبات الصور والترجمات غاية تمويلية؛ فقد جاء في "إعلان" في الصفحة الأخيرة من الجزء الأول: "كتب إلينا بعضهم أن نوضح لهم كيفية الاشتراك بكتاب كشف النقاب عن بقعة بيت شباب المنطوي على تاريخ قرى هذه البقعة المتعددة وسكانها منذ صدر [إلى] البشرية إلى يومنا هذا وما جرى في أيامهم وغير ذلك، وعلى رسوم (صور) مشاهيرها الوطنيين والمهاجرين وغيرهم فنقول: يشتمل الكتاب على أربعة أجزاء، يدل على مطاوعها هذا الجزء الأول منها الذي فيه الرسوم (الصور) التي وصلت إلينا مع تراجم أصحابها. ولكي يقف كرام المتغربين عليها، لأنه كتنبيه لمن يريد أن يضع صورته في الأجزاء التالية [...] وقد جعلنا قيمة الاشتراك بالكتاب نصف ليرة إنكليزية تُدفع سلفاً وقيمة أكلاف الصورة ليرة إنكليزية لكل صورة شخص".

13 المونسنيور لويس الهاشم، **تاريخ العاقورا** (د.م.]: مؤسسة خليفة للطباعة، 1930).

14 Monseigneur هي كلمة فرنسية تعني سيدي، وهو لقب لبعض الشخصيات الإقطاعية والدينية، وقد انتقل المصطلح إلى التراتيبات الكنسية في التنظيم الكنسي الماروني بفعل تأثيرات الإرساليات الدينية الفرنسية.

5. **تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ أسرها** (1935) لإدمون بلبيل⁽¹⁵⁾، وله أيضًا كتاب **دليل المصطاف في ناحية بكفيا والمحيثة وساقية المسك وبحر صاف** (1923). وسنلاحظ أن التسويق الاصطلافي كما أرساه المعلوف وبلبل وميلاد رزق الله في كتابه **دليل الشوير ونواحيها**⁽¹⁶⁾ والشبابي قد أضحى مهمة دعائية ساهم المؤرخون في ترويجها.
6. **تاريخ دوما** (1937) للخوري قسطنطين الباشا⁽¹⁷⁾، وقد كرر فيه الحوافز الشخصية كما أعلنها المؤرخون السابقون. وفي السنة عينها حاول الأب مخايل خليفة الحلو الإهمجي⁽¹⁸⁾ أن يكتب تاريخ بلدته إهمج، وقد قدم له الخوراسقف يوسف العمشيتي، ويتفق مُقدّم الكتاب ومؤلفه على غايتهم في إحياء مآثر السلف ونشر مفاخرهم عبرةً للخلف.
7. **تاريخ إهدن القديم والحديث** (1938)⁽¹⁹⁾ لسمعان خازن⁽²⁰⁾. وهو مؤلف من أربعة أجزاء، تناول فيه خازن التاريخ المدني، وقد أوضح مشروعه الطموح حيث قضى المؤرخ⁽²¹⁾ عشر سنوات (على الرغم من مشاغل الوظيفة) في تجميع "المخطوطات والمستندات والنبد التاريخية النفيسة"، ويقول: "حتى إذا عدت إلى داري أقضي الليالي في درسها وتمحيصها واستخراج محتوياتها"⁽²²⁾.
8. **تاريخ بسكنتا وأسرها** (1946)⁽²³⁾ للخوراسقف بطرس حبيقة⁽²⁴⁾. وذكر المؤلف في المقدمة، تحت عنوان "عين إلى زوال، وأثر إلى الأجيال"، أنه وضع في شبابه ما لا تقوى شيخوخته عليه لجهة الإحاطة بالمواضيع التي تفتقر إلى بحث وتنقيب وتمحيص في بعض الأسر وتراجع المغترين. وهو يكرر تجربة تلميذه الهاشم في **تاريخ العاقورا** فيما يتعلق بنشره الإعلانات في الصحف وتديبج الرسائل الشخصية⁽²⁵⁾، مطالبًا فيها بتزويده بالمعلومات والوثائق.
9. **تاريخ بشعلي وصليما** (1947) للخوري اسطفان البشعلاني⁽²⁶⁾. يكرر فيه المؤلف التجارب الشخصية للمؤرخين السابقين. وكان قد تجاوز السبعين حينما قرر نشر كتابه، وقد صرف في هذا الكتاب نحوًا من خمسين سنة، حرصًا عليه من الضياع، وحفظًا لهذه الآثار النفيسة التي تكلف عرق القرية في صونها وتأليفها، وقد كان الفناء يتسرب إلى أكثرها فتطمس، وتصبح خبرًا من الأخبار.

15 إدمون بلبيل، **تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ أسرها** (بكفيا: مطبعة العرائس، 1935).

16 بالتزامن مع كتاب مماثل أصدره بلبيل عن بكفيا ومحيطها، صدر كتاب: ميلاد رزق الله، **دليل الشوير ونواحيها** (بيروت: مطبعة طبارة، 1923).

17 هو هيكيل خليل جرجس الباشا وهيلانه طنوس الغنمه، وُلد في دوما في 3 شباط/فبراير 1870. عمل والده في تجارة الحديد. تعلم على يد والدته القراءة في كتاب المزامير وسير القديسين **الكنز الثمين في أخبار القديسين**. التحق بمدرسة يزبك خير في دوما، التي أسست منذ سنة 1850. ومضمون التعليم كتاب المزامير والأكتويخوس المطبوع في مطبعة دير مار يوحنا الشوير. انضم إلى صفوف الرهبانية المخلصية في عام 1884، حيث تابع في إكليزيكيتهما حصول العلم والمعرفة، وكان من معلميه اليازجيان ناصيف وإبراهيم، وبشارة الخوري الفقيه. وارتسم سنة 1893 بعد تردد. شغل عدة أدوار ووظائف روحية وتعليمية في الرهبنة المخلصية. توفي في دير المخلص سنة 1948، بعد أن استقر فيه منذ سنة 1930 منكبًا على الكتابة والتأليف.

18 الأب مخايل خليفة الحلو الإهمجي، **تاريخ إهمج القديم والحديث** (جونيه: مطبعة المرسلين اللبنانيين، 1937).

19 سماعيل خازن، **تاريخ إهدن القديم والحديث** (درعون: [د.ن.].، 1968).

20 ولد سماعيل خازن سنة (1898)، تلقى علومه في مدرسة مار يوسف زغرتا ومار عبدا هرهريا (كسروان). انتقل إلى باريس (1913-1920) لمتابعة تحصيله العلمي. منذ سنة 1920 عُيّن أمين سر مستشار لبنان الشمالي، ثم شغل عدة وظائف، من بينها مدرس في زغرتا في مدرسة إخوة المدارس المسيحية. في سنة 1939 عُيّن قاضيًا في محاكم طرابلس، والكورة، وجبيل، وصيدا. ومن مؤلفاته: سماعيل خازن، **تاريخ إهدن المدني**، ج 1 ([د.م.]: [د.ن.].، 1938)؛ سماعيل خازن، **تاريخ إهدن الديني** (بيروت: [د.ن.].، 1939)؛ سماعيل خازن، **تاريخ الأسر الإهدنية** (طرابلس: [د.ن.].، 1968)؛ سماعيل خازن، **تاريخ زغرتا القديم والحديث** (طرابلس: مطبعة أديب، 1968).

21 وهو مدني كعيسى إسكندر المعلوف وإدمون بلبيل وليس إكليزيكيًا.

22 المرجع نفسه، ص 5.

23 الخوراسقف بطرس حبيقة، **تاريخ بسكنتا وأسرها** (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1946).

24 الخوراسقف Khryebkosop وهي رتبة كنسية تقع بين رتبة القس Priest ورتبة الأسقف Bishop في الهرمية الكنسية، وتُستخدم في بعض الكنائس الشرقية.

25 المرجع نفسه، ص 2.

26 الخوري اسطفان البشعلاني، **تاريخ بشعلي وصليما** (الدورة: مطبعة فاضل وجميل، 1947)؛ الخوري اسطفان البشعلاني، **تاريخ بشعلي وصليما**، ط 2 (بيروت: دار صادر، 2003).

10. الدوحة العمشيتية (1954) لأديب لحد⁽²⁷⁾. جاء فيه أن الأمة العربية في حضارتها تحرص على تاريخها، وتعتني بحفظ أنسابها وأحسابها وأسرها. والحديث عن العراقة هنا ليس من دون خلفية تماثل بين الأمة بعامّة وبلدته عمشيت التي حققت ازدهارًا وعمرانًا وثقافة خلال القرن التاسع عشر. وحاول لحد كتابة تاريخ هذا المسار الحضاري، مركزًا على تاريخ العائلات وأصولها وأنسابها وإنجازات أبنائها.

وبناء على ما سبق، نلاحظ وجود حوافز شخصية للمؤرخ، مثل سرد المسار التاريخي الطويل الذي قطعه منذ الصغر، دفعته إلى التعميش والتجميع للوثائق والمصادر على مدى عقود من الزمن، انتهاءً بعملية الحبك والبناء للنص التاريخي، إضافة إلى الحوافز العامة والموضوعية مثل مواكبة النهضة التاريخية وتلبية الطلب من ذوي الأقالام والمواطنين، والخوف من ضياع الوثائق وضياح التاريخ معها، وبناء المشجرات العائلية، وإعادة اللحمة بين العائلات المنتشرة في الوطن والمهجر، وإحياء مآثر السلف ونشر مفاخرهم للخلف، ومعرفة تاريخ الأجداد بنعيمهم وشقائهم وبؤسهم ورخائهم.

أما فيما يتعلق بمصادر المؤرخين المحليين ومراجعهم في النصف الأول من القرن العشرين، فيتبين من مراجعة كتب الأسود (1896، 1906، 1925-1935) أن مصادره ومراجعته كثيرة، وباللغات الفرنسية، والتركية، والعربية. ومن مصادره أيضًا التاريخ الشفوي؛ بدءًا من والده وغيره من المسؤولين في الإدارة الحكومية. ويعدّد المعلوف مصادره المتنوعة المنشورة والمخطوطة، المحلية منها والاستشرافية، بما فيها مخطوطة سابقة عن **تاريخ زحلة**. أما الشبائي، المتأثر بحركة الحفريات التاريخية التي تجربها الإدارة الفرنسية الانتدابية، فقد ركز على التاريخ القديم، مستندًا إلى المصادر التي كُتبت عن الفينيقيين وإلى الكتاب المقدس. ويستفيد كذلك من مخرجات الحفريات وما يكتبه الأركيولوجيون، وبخاصة بيار مونته (1885-1966) Pierre Montet الذي كان مشرفًا عليها. ومن مصادره ما تم نشره من مخطوطات لكل من صالح بن يحيى عن **تاريخ بيروت** والبطريك اسطفان الدويهي في **تاريخ الأزمنة**، إضافة إلى وثائق تعود إلى الأمراء الإرسلايين. ويحاول سد الثغرات عبر "الاستدلال المنطقي والاستقراء القولي"⁽²⁸⁾.

ويستند الهاشم إلى لائحة طويلة من المصادر المعروفة والمنشورة في زمنه، إضافة إلى وثائق من بيئته المحلية مثل "الحواشي المعلقة على كتب الصلوات الكنائسية في كنيسة الرعاية، والكتابات والصكوك ودفاتر الديموس والمراسيم والأوامر التي ما زالت محفوظة بأيدينا وأيدي الكثيرين من مواطنينا، وسجلات العماد والتثبيت والوفيات"، يقول: "حتى صار لديّ مادة من الغرض الذي بذلت كل ما بوسعي توصلاً إليه فضممتها في هذا الكتاب خيفة أن تلعب بها أيدي الضياع".

وتحت عنوان "المصادر"، يعدّد لبيل المجموعات الوثائقية والكتب التي اعتمد عليها والتي أضحت متداولة، إضافة إلى قاعدة وثائقية مهمة تتناول الأمراء اللمعيين⁽²⁹⁾. واستثمر الباشا المصادر والمراجع عينها، إضافة إلى الصكوك والسندات القديمة ومخطوطات الكنائس ودفاتر العماد المفيدة بهذا الشأن والمتوافرة في الوسط المحلي. وأما خازن، فيتحسر على فقدان الوثائق بسبب الأحداث الجسام التي مرت على بلدته إهدن، ويسرد قصة تفتيشه عن الوثائق في الأديار والكنائس وعند مواطنيه، أو مقابلاته الشفوية وتحقيقه لها بروح نقدية.

27 أديب بك لحد، **الدوحة العمشيتية: تاريخ أفراد عيال عمشيت الثلاث عبيد وكلاب وكرم منذ الجيل السابع عشر** (د. م.: [د. ن.]، 1954)؛ أديب بك لحد، **الدوحة العمشيتية: تاريخ أفراد عيال عمشيت الثلاث عبيد وكلاب وكرم منذ الجيل السابع عشر**، ط. 2 (د. م.: [د. ن.]، 2003) ص 311.

28 الشبائي، ص 26.

29 الأمراء اللمعيون هم من أمراء منطقة المتن في جبل لبنان، وكانوا من طائفة الموحدين الدروز، ثم تحولوا إلى المذهب الماروني في القرن الثامن عشر بسبب طغيان عدد من رعايا هذا المذهب على إقطاعيتهم، وقد أدوا دورًا مهمًا في تاريخ لبنان.

ويضيف البشعلاني إلى المصادر التاريخية المعروفة التي يستند إليها، قصص جرجي زيدان، وما نشره صديقه المؤرخ المعروف فيليب حتي في مجالات الهدى والخواطر والبشير، وكتاب شارل قرم الجبل الملهم. وقد جمع البشعلاني عددًا كبيرًا من الوثائق والمخطوطات، بفضل وعيه المبكر بأهميتها وضرورة الحفاظ عليها، وبسبب علاقته الجيدة مع الأمراء المعنيين والشهابيين⁽³⁰⁾. وامتلك مكتبة مهمة، فيها العديد من المخطوطات والكتب والمجلات. ويلاحظ أن أرشيفه يتضمن بصورة مركزية محفوظات فترة القائمتين (1842-1860) تحت حكم الأميرين حيدر إسماعيل أبي اللع وبشير أحمد. وقد باع الخوري اسطفان في الأربعينيات بعضًا من الوثائق والمخطوطات إلى مدير المتحف الوطني الأمير مورييس شهاب.

ونعتبر كتاب لحدود - وكتاب سعيد رزق تاريخ جزين وأسرها⁽³¹⁾ وكتاب فرنسيس رحمة تاريخ بشري أو مدينة المقدمين⁽³²⁾ محطة فاصلة في تاريخ التاريخ المحلي، فمعهم ينتهي مسار منهجي مئز مؤرخي النصف الأول من القرن العشرين.

وبهذا، نجد أن مجموعة المصادر والمراجع حتى أواسط القرن العشرين كانت شبه محددة لكل مؤرخي التاريخ المحلي، وقد وسّع بعض من يتقن اللغات الأجنبية دائرة مراجعه لتشمل كتابات علماء الآثار والرحالة الأجانب. وهي مجموعة تساعد على فهم الإطار العام وبناء التحقيقات العامة التي تعكس التحولات السياسية والإدارية. أما مساهمتهم الذاتية، فتتعلق من التقيش عن الوثائق المحلية التي تشتمل على بعض المخطوطات، والسجلات الكنسية، وبعض التدوينات على هوامش الكتب الدينية، وحجج الملكية، وأرشيفات بعض البيوتات المقاطعية، كما اطلع بعضهم على دفاتر المساحة التي أنجزت في بداية عهد المتصرفية. ولكن يمكن استنتاج أن بعض المصادر الوثائقية - مثل السجلات الكنسية ودفاتر المساحة - لم تُستغل بطريقة فعالة ومنتجة لمعرفة تاريخية تنتسب إلى اللامرئي.

ثانيًا: المقاربات المنهجية: "من العائلة إلى البلدة إلى البلد"

"لم يدخل إبراهيم بك الأسود البحث التاريخي من باب التخصص الأكاديمي الصارم، والأرجح أن موقعه في إدارة المتصرفية من جهة، وحسه الوطني اللبناني، حملاه على أن ينكب على وضع عمارته التاريخية"⁽³³⁾. كتب الأسود في تنوير الأذهان في تاريخ لبنان (1925)⁽³⁴⁾ في تعريفه مفهوم التاريخ: "التاريخ علم تعرف به أحوال الأمم الحاضرة والغابرة ولا سيما ما كان يتعلق بالأقاليم والقبائل مع تعيين أوقاتها وبيان أسبابها، ويؤخذ من الآثار والرسوم ومما حفظ من الأوراق والسجلات والمخطوطات". وهو يتميز بـ "الموضوعية وعدم التحيز في ذكر الأحداث والوقائع"؛ إذ قال: "إن غايتنا خدمة التاريخ خدمة صحيحة. ولا يخفى أن واجب التاريخ يقضي على المؤرخ بأن يجهر بالحق دون أن يعأ بما يسر أو يؤلم"⁽³⁵⁾، كما أنه يمارس الشك التاريخي ويقارن الروايات ويستخلص الحقائق⁽³⁶⁾.

30 الأمراء الشهابيون هم حكام جبل لبنان منذ بداية القرن السابع عشر وحتى سنة 1841، وقد ورثوا الأمراء المعنيين في حكم الإمارة بفعل القرابة. وينتسب إليهم الأمير بشير الشهابي الذي أدى دورًا مهمًا خلال فترة حكمه (1789-1840).

31 سعيد رزق، تاريخ جزين وأسرها (صيدا: مطبعة العرفان، 1953).

32 فرنسيس رحمة، تاريخ بشري أو مدينة المقدمين (سان بولو: الرابطة البشراوية، 1956)؛ وكانت بشري قد حظيت بمقالة في مجلة المشرق، ينظر: الخوري اغناطيوس جعجع، "بشري مدينة المقدمين"، المشرق، العدد 6 (صيف 1932).

33 عصام خليفة، شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر، ج 2 (بيروت: [د. ن.، 2002]، ص 113-130).

34 الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج 1.

35 الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج 3، ص 140.

36 خليفة، ص 115.

أما منهجية المعلوف في كتابة التاريخ، فتتميز بتنوع المصادر والمراجع، وبأسلوبه العلمي، والتوسع في الموضوع المعالج، مع وفرة الحواشي، وفهارس الأعلام والأماكن⁽³⁷⁾. ويتنقد المعلوف "المزلق التاريخية المبنية على الوهم والتخرس"؛ إذ يقول: "وذلك كثير في بلادنا ينكره التاريخ الصحيح"⁽³⁸⁾. ويعمد إلى ترصيع النص الثري بين فينة وأخرى بالآبيات الشعرية وأحياناً بقصيدة كاملة من نظمها ألقاها في مناسبات سابقة كما في وصفه لرحلة سنة 1898. ويعتبر التاريخ بين الفنون الأدبية، ويولي تاريخ الأسر والتاريخ الاجتماعي اهتماماً خاصاً. وهو يطبق منهجيات صارمة في تحري النصوص والأخبار المروية، ويتعد عن الأحكام المسبقة.

وبالنسبة إلى الشبابي، فهو لا يعلن منهجيته على نحو مباشر، إلا أنه ينتقد الأساطير والخلط بين التاريخ والحكايات الدينية والأقاصيص الخرافية، مستعصياً عن فقدان الوثائق بالمعينة المباشرة لأطلال الأولين، على أن التاريخ عنده لم ينفصل عن الأدب والشعر، كما الحال مع التأليف التاريخي لهذه المرحلة.

وكان الهاشم صارماً في تعيين منهجيته، وقد أشار إلى مخاطر التاريخ في غياب العلمية وتأکید الحقيقة بالبراهين والدلائل العقلية والنقلية. وأرسى التاريخ على قاعدة الوصف الجغرافي، طارحاً على نحو ذكي إشكالية التاريخ الخاص لبلدته وعلاقته بالتاريخ العام، ويؤكد القاعدة الوثائقية التي امتلكها والروايات الشفهية المحققة، ويطرح ثنائية التاريخ الديني والتاريخ الدنيوي، مؤجلاً الأول إلى كتاب آخر، يبدو أنه أثار مشكلات مع السلطة الدينية بسبب جرأته في طرح الموضوع.

ومع لبيل في "بيان وتوضيح" تتوضح منهجية كتابه عن بكفيا؛ إذ يتألف الكتاب من بضعة مباحث تمهيدية وأربعة فصول تتعلق بتاريخ العائلات وترجمة بعض أفرادها الأموات والأحياء، إضافة إلى مباحث عامة وأخبار متنوعة تتعلق بالبلدة وبموضوعي تاريخها وتقويمها. وهو يركز في ترجمته للشخصيات على "أبناء طبقات محدودة" يعددها، كما يعدد أسماء من تبوأ مركزاً في المؤسسات المحلية أو الوطنية، معتذراً عن عدم اعتماد خطة إثبات الصور وكيل المدائح والتفريط لئلا يُنسب إليه التزلف والتملق⁽³⁹⁾.

وقد تابع الباشا سياسة الإعلان عن مشروعه في الصحف بهدف تزويده بالوثائق، مع وعيه المنهجي لأهمية الأصول والوثائق، منتقلاً إلى الخطوة المنهجية التالية وهي النقد الخارجي والداخلي، وتحقيق الروايات الشفهية غير المنطقية مخضاً إياها للنقد، مستخدماً طرائق التفكير التاريخية المتنوعة، وقد تميّز بالتعريفات الدقيقة والعلمية للمصطلحات التاريخية.

وعرض الأب الإهمجي (1937) مساره المنهجي في مطالعة كتب المتقدمين ووعي قصص المتأخرين وأخبارهم، معتمداً "على روايات الشيوخ المتواترة والتقليد المتواصل مع مراعاة الاستنتاجات والأدلة [...] التي تنطبق على مقتضى الحال". أما خازن، فلا يصرح في كتبه عن تاريخ إهدن وزغرتا (1937، 1939، 1966) عن منهجيته على نحو مباشر، ويبدو أن همّه كان منصّباً على تجميع الوثائق والنصوص، وبخاصة الشعرية منها، التي تتغنى بعظمة إهدن وجمال موقعها وطبيعتها. وتبدو الأهداف المتعلقة بالتاريخ السياسي والمساهمة والتضحيات التي قدمتها إهدن للطائفة والوطن هي هم مركزي، أكثر من الهمّ المتعلق بالتبحر والالتزام بشروط الطريقة التاريخية.

ولا يوجد في كتاب حبيقة تاريخ بسكنتا وأسرهما نص صريح يبيّن فيه منهجيته، وما على المدقق إلا استنتاجها من سياق عرضه لتاريخ بلدته. أما البشعلاني في كتابه تاريخ بشعلي وصليما، فقد عرض بتوسع طريقته التاريخية التي تتجلى في البحث عن الوثائق

37 جوزيف أبو نهر، "المؤرخ العلامة عيسى إسكندر المعلوف، مقارنته للتاريخ ومنهجيته في كتابته"، في: مساهمة المؤرخين الأرثوذكس في التاريخ (بيروت: جامعة البلمند، معهد التاريخ والآثار ودراسات الشرق الأدنى، 2007)، ص 121-143.

38 المعلوف، ص 14.

39 لبيل، ص 8-10.

وتدوين المعلومات والتقاليد المروية، مطبقاً الشك التاريخي ومستخدماً مفهوم النقد التاريخي لينتقل بعده إلى التفسير والتركيب فيقول: "كنت أعرض هذه المعلومات والروايات (المتعلقة بمشجرات النسب) على محك النقد التزيه المجرد عن الغرض، والتعليل المبني على قواعد المنطق مما يعرف عند العلماء بفلسفة التاريخ".

ويختصر لحدود منهجيته في الحديث عن غموض تاريخ الأسر اللبنانية وأسباب ذلك التي تتمثل في المظالم والفتن، والاضطهاد، والهجرات، والتنقل. وأشار إلى الخرافات والأساطير التي تعتري الأصول والأنساب؛ لأن مصادرها مفقودة، والآثار الخطية غائبة. وتابع الحديث عن تقاليد الكتابة في تاريخ البلدات، مستشهداً بما كتبه كبار الأدباء والشعراء والشخصيات التي زارت بلده ووصفتها بنصوص تحكي عن جمالها ومكارم أهلها.

وعلى الرغم من أنه ما من إشارة إلى اطلاع مؤرخي "المحلي" في جبل لبنان على قواعد الطريقة التاريخية كما صاغت المدرسة الوضعية أواخر القرن التاسع عشر مع المؤرخين الفرنسيين تشارلز فيكتور لانغلو وتشارلز سينوبوس في كتابهما **مدخل إلى الدراسات التاريخية**⁽⁴⁰⁾، وتابعهما محلياً المؤرخ أسد رستم في كتابه **مصطلح التاريخ** (1939)⁽⁴¹⁾، فإن ما يعلنه وما يطبقه المؤرخون المحليون، يوحي بأن تأثيرات المدرسة الوضعية وروحيتها كانت منتشرة عبر عدة قنوات تكوينية وثقافية، وكانت موضوع ممارسة قبل أن يصوغها رستم في مقابلة بين معاييرها وطرائق "علم الحديث" الإسلامي. فهناك إجماع على ضرورة التقييش وتجميع الوثائق، ومن ثم ممارسة النقدين الخارجي والداخلي، واعتماد منهج الشك التاريخي، ورفض الرواية التي لا يقبلها العقل السليم، والتشكيك في الروايات السماعية وعدم الاعتماد على التقاليد المروية وحدها من دون تعليل معقول استناداً إلى "قواعد المنطق" وفلسفة التاريخ، واستخدام طرائق التفكير التاريخي النقدية والاستنتاجية والاستقرائية، ومحاولة الاقتراب من الحقيقة التاريخية بكل موضوعية، والفصل بين الأساطير والأقاصيص الخرافية من جهة والواقع التاريخي من جهة ثانية. وعلى الرغم من انفتاح التاريخ المحلي على العلوم الإنسانية وبخاصة الجغرافيا والأركيولوجيا، فإن هناك من يعدّ التاريخ من الفنون الأدبية وبخاصة الشعر.

ثالثاً: التحقيب الذي اعتمده مؤرخو التاريخ المحلي

ما نمط التحقيب الذي اعتمده مؤرخو التاريخ المحلي للمراحل التاريخية الكبرى؟ أهو تحقيب ثلاثي أم رباعي أم خماسي؟ أخضعوا لمفهوم التحقيب الغربي أم كانت لهم رؤيتهم الخاصة للزمن التاريخي بما يتوافق وتاريخهم المحلي والإقليمي؟ وأكانوا يعتمدون تحقيباً يستند إلى التحولات السياسية، بما فيها المعارك العسكرية المفصلية أم أخذوا في الاعتبار التغيرات البيئية والعميقة؟ اعتمد المألوف في تحقيبهم على إعادة تأسيس زحلة في القرن الثامن عشر، فما قبل ذلك هو التاريخ القديم، ثم استعرض تاريخها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع تحقيقات تفصيلية متزامنة مع التاريخ السياسي العام. ومع الشبابي تطوّر مفهوم التحقيب للمراحل والفترات التاريخية، حيث أثبت جدولاً تحقيبياً يعكس امتلاك لبيل كفايات تعليمية تأكدت في إشارته إلى نشره بحثاً بعنوان "التعليم بالأسلوب وليس بكتافة المعرفة".

40 Charles-Victor Langlois & Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques* (Paris: Librairie Hachette et Cie, 1898).

41 أسد رستم، **مصطلح التاريخ: وهو بحث في نقد الأصول وتحري الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها وفي ما يقابل ذلك في علم الحديث** (صيدا: المكتبة العصرية، 1939).

ولكن التقدم لم يشمل المؤرخين كافة. في الواقع يبدو التحقيق الثلاثي (قديم - وسيط - حديث) غير واضح في نصوص خازن، وربما غير مُفكّر فيه كما يتمثله المؤرخون الآن، فالقديم عنده يمتد إلى القرون الوسطى وما بعدها. وبهذا، يغيب التقسيم الثلاثي وتحديداً مفهوم الحقبة الوسيطة.

أما حقيقة، فقد اعتمد المنهج التعاقي في سرديته التاريخية متناولاً لبنان في ظل الحضارات الكلاسيكية الفينيقية واليونانية - الرومانية غير ملتفت إلى الحضارات الشرقية القديمة، ومركزاً في العصور الوسطى على بلدته بسكنتا في ظل إمارة "المردة"، وتحدث عن "بسكنتا الأولى" حتى الحملات المملوكية على كسروان، منتقلاً إلى "بسكنتا الثانية" التي أُعيد تأسيسها في القرن السادس عشر، ثم بعد ذلك، يلتزم بالتحقيقات المعروفة في تاريخ لبنان الحديث، من الإماراتين المعنية والشهابية، والقائمقاميتين، والمتصرفية والانتداب الفرنسي.

إن التحقيق في المستوى الأول هو الحاجة إلى بناء نقاط استدلال كرونولوجية (تسلسلية زمنية) تدور حولها المعطيات التاريخية، وفي المستوى الثاني هو ضروري للإشارة إلى مرحلة تاريخية محددة (الإمارة، القائمقاميتين، المتصرفية)، وضمن هذه المساحة الزمنية تسود سمات وخصائص معينة. أما المستوى الثالث، فيبين أن لكل مرحلة تاريخية أوزانها وأنماطها الخاصة بها.

في الفترة الزمنية التي نستعرض فيها مقاربات التاريخ المحلي كان لعمر فروخ⁽⁴²⁾ رؤيته النقدية فيما يتعلق باعتماد التحقيق الغربي الثلاثي، فقد كتب: "مع أن تاريخنا، نحن العرب عامة والمسلمين خاصة، ينطبق في عدد من حدوده الزمنية على هذا التقسيم، فإن من الأجدى أن يكون لنا تقسيم أكثر انطباقاً على عهود حضارتنا وثقافتنا"، وهو يقترح تقسيماً جديداً. ويبدو هذا التحقيق غير بعيد عن التحقيق الثلاثي العام، لكن يتجلى الاختلاف في المضمون الحضاري لكل حقبة، فإذا كانت العصور الوسطى الأوروبية "مظلمة" (مع أنه يُعاد الآن النظر في هذه الأحكام)، فإن العصور الإسلامية مشرقة، ولهذا اعتُبرت كلاسيكية. وإذا كانت أوروبا دخلت عصر النهضة (هناك جدل طويل حول مسألة نهاية العصر الوسيط وبداية عصر النهضة، ويتأثر هذا الجدل بالقرب من الكنيسة أو البعد عنها، أو بالانتماءات القومية والسياسية، أو بالتخصصات) بعد سقوط القسطنطينية⁽⁴³⁾، فإن العالم العربي والإسلامي بدأ يشهد مرحلة جمود على الرغم من الانتصارات التي حققتها السلطنة العثمانية في عهودها الأولى، وقد تأخرت النهضة حتى منتصف القرن التاسع عشر⁽⁴⁴⁾.

رابعاً: الإطار الجغرافي

يستند الإطار الجغرافي إلى وصف الطبيعة والمشاهد والموقع والتضاريس والمناخ والمياه والأشجار والنباتات... إلخ، مع الاستعانة أحياناً بغنائية الشعراء ونشر قصائدهم. وفي هذه الفترة من التأريخ المحلي، تغيب على نحو عام - مع بعض الاستثناءات -

42 عمر فروخ، تجديد التاريخ في تحليله وتدوينه: إعادة النظر في التاريخ (بيروت: دار الباحث، 1980)، ص 15-23؛ إلا أن عمر فروخ كان ينتمي إلى الجيل الذي نتاوله بالدراسة، وكان له في الثلاثينيات مع زكي النقاش كتاب مدرسي أقرب إلى الرؤية الإسلامية لتاريخ لبنان، في مقابلة مع الكتاب المدرسي الذي ألفه كل من أسد رستم وفؤاد إفرام البستاني بتكليف من السلطة.

43 عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، ج 2: المفاهيم والأصول (بيروت: دار الحداثة، 1992)؛ لاحظ العروي بعد استعراضه تحقيق التاريخ الإسلامي أن الاتجاه العام هو نفسه في التأليفين، العربي والغربي، يقول: "لا يوجد إذاً فرق جوهري بين الأسطوغرافيتين [...] من السهل جداً التوفيق بين التأليفين". إذاً معنا النظر في هياكل التأليف التاريخي الإسلامي، نجد أن القسم الأول، وإن كان أسطورياً خرافياً، يدخل في نطاق التاريخ، في حين أن القسمين الثاني والثالث يوافقان مدلول التاريخ القديم، والقسمين الرابع والخامس يتناولان التاريخ الوسيط. ويبدأ العصر الحديث بأزمة حكم الأعاجم؛ أي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ينظر: المرجع نفسه، ص 279.

44 إننا أمام اختيار صعب؛ إما أن نستعمل الحقبة بوصفها مدة فارغة، ونعطيهما في كل حالة مدلولاً معيناً؛ انحطاطاً أو استمراراً أو تقدماً، فتستحيل المقارنة، وإما أن نعطي لكل حقبة مدلولاً معيناً وحينئذ لم تعد توجد في الموقع نفسه من السلم الزماني بالنسبة إلى كل أمة وكل مجتمع. يمكن أن نقارن بين النهضة الإسلامية والنهضة الأوروبية، إلا أن الأولى سبقت الثانية بأربعة قرون. ينظر: المرجع نفسه، ص 280.

التفسيرات الجيولوجية والمورفولوجية، مع مؤشرات لبدایات الاستفادة من علوم مساعدة متخصصة مثل فحوصات تركيبات المياه لأهداف تتعلق بتسويق المياه المعدنية.

فسّر المعلوف اسم رحلة نسبة إلى عامل الزحول نظرًا إلى طبيعة تربتها، ووصف موقعها على ضفتي نهر البردوني الذي يدير الطواحين المائية الضرورية لحياة المدينة بما تؤمنه من تحويل القمح إلى طحين. ورحلة، كما وصفها أحد السياح الإفرنج، أشبه بـ "الرمانة المفلوقة"، لسطوحها القرميدية الحمراء. كما وصف تربتها الكلسية الطبشورية المناسبة لزراعة العنب على أنواعه، ووصف نباتاتها وحيواناتها، مع شعور قوي بالمسألة البيئية.

وحدد الشباي "البقعة الشباية" معدداً قراها، وواصفاً المشهد الطبيعي بواقعية، ورابطاً بين أسماء الأمكنة واللغة الآرامية؛ وهذا يدل على قدم الحضارة فيها. وكان أول من أشار إلى وسيلة نقل أخشاب الغابات من الجبال إلى الساحل، عبر نهري الكلب وأنطلياس فترة فيضانها، بهدف بناء السفن أو المتاجرة.

ويتغنّى الهاشم بجغرافية العاقورة وموقعها المحصّن بالجبال، مشيراً إلى مياهها العذبة، كما يتبين من تحليل نسب الأملاح المعدنية فيها بحسب الدراسات الكيميائية للأب أندريه روشه اليسوعي. وتحدث عن ثروتها الغابية التي أصيبت بكارثة حقيقية نتيجة جدمها عبر الزمن.

وفسّر الباشا اسم دوما؛ فهو من اليونانية التي تعني البيت أو القصر، وتحدث عن شهرتها بصناعة الحديد، وعن سوقها الواسع المزدهر بوصفها مركز استقطاب لمحيطها، مؤكداً أنه كان قبل الحرب العالمية الأولى أهم من سوقَي مدينتي البترون وجبيل. ولا ينسى، كغيره من مؤرخي هذه الفترة، أن يساهم في الإعلان الدعائي للاصطياف، وبخاصة أن دوما كانت مصيفاً قبل ازدهار مصايف منطقة المتن.

ويتغنّى خازن "بجمال إهدن وموقعها ومناخها وكثرة منتزهاتها وجمال مناظرها وجبالها وأودائها". ويفسر اسم مشتاتها زغرتا، ورحلة السكان بين البلديتين بقوله: "لا يوجد في لبنان بلدة كإهدن وزغرتا يملك كل فرد من أهاليها منزلاً مستوفياً المعدات والأثاث في كل من إهدن وزغرتا وأملاً كاً واسعة في كل منهما، ويرحل شعبها رحلتين عامتين في فصول السنة بتعاقب منظم" (45).

ويفسر حبيقة اسم بسكتنا السرياني بأنه "بيت العدل أو القضاء أو الحكم"، وقد كانت موطناً للمردة، ويحدد موقعها فوق وادي صنين على علو 1430 متراً. مستوحياً - من دون أن يذكر - مفهوماً كتبه الأب لامنس عن العلاقة بين أسماء الأماكن وبخاصة أعلام آثار الأبنية ومن سكنها. وهو يقدم تفسيراً للسكن في الأعالي بأنه كان يحدث في الصيف فقط، منتقداً حدوث تحول مناخي. ولا يهمل الحوادث الطبيعية مثل الزلازل والهزات التي أدت إلى كشف الآثار والأشجار، كما يشير إلى الطوفانات التي تؤدي إلى تخريب الطواحين، وسنوات الطاعون (1760)، والجراد (1777، 1914)، والجذري (1916).

ويفسر لحدود معنى اسم بلدته عمشيت؛ وهي أصلاً قوم شيت، ومعناها بالسريانية الشعب السادس بحسب البطريك بولس مسعد. إنها عروس البلاد الجبيلية. ثم يرسم حدودها، وبعد أن يصف المنظر/ المشهد العام وما فيه من "مظاهر العمران والروعة والبهاء تجلّل تلك المنازل الفخمة (لا يمكن للمشاهد) إلا الحكم بأن ما يشاهده من رداء الحضارة إنما هو منبعه المال الذي أنفقه العمشيتيون في تشييدها مما اقتصدوه من تجارتهم". فالدور والبيوت الفخمة مبنية من طابق أو طابقين بسقوف عالية وأبواب ونوافذ واسعة على طراز بيزنطي. وقد وصف المواد والأثاث في هذه الدور. وعمشيت بالنسبة إلى رينان عندما كان فيها سنة 1861 بمنزلة

فردوس له ولزوجته وأخته. وقد أُطلق على عُمَشيّة "بصرة لبنان" (نسبة إلى بصرة العراق) بسبب انتشار أعداد كبيرة من شجر النخيل قرب حاراتها. أما منتجاتها فهي التين، والزيتون، واللوز، والخروب. وتتميز بالتنوع في غطاءها النباتي وأشجارها الحرجية.

على الرغم من اعتماد المؤرخين المحليين على وصف المشهد الجغرافي، مع إطلالة مبكرة على مسألتي التركيب الكيميائي للمياه والحس البيئي المرفه، فإن العلاقة بين التاريخ والجغرافيا ستتعمق فيما بعد، ولكن ليس بالعمق اللازم، إلا عند بعض الذين امتلكوا ناصية التقدم في علم الجغرافيا وطبقوا ذلك على البيئة المحلية موضوع كتابتهم التاريخية.

خامساً: التاريخ الاجتماعي

يتمحور التاريخ الاجتماعي على سلاسل النسب الذكورية، وكيفية تكوّن الأحياء العمرانية وفق البنى العائلية ومسار استيطانها. وقد دخل المؤرخون في جدل أيديولوجي عن الأصول الإثنية والحضارية؛ فتناول الأسود البنى العائلية للعائلات المقاطعية وامتيازاتها، وعرض للتقاليد الاجتماعية، وأثبت معلومات ديموغرافية تشكّل مادة تحليل للباحثين في علوم الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والعلوم الاجتماعية.

ويقدم المملوف نموذجاً عن كيفية تكوّن مدينة زحلة و"أحواشها" الأميرية (نسبة إلى الأمراء أبي المم) عبر النزوح إليها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أما الشبّابي فقد اهتم بحركة الهجرة الكثيفة من بيت شباب ونثائجها في دعم المقيمين من أهلها. وعرض الهاشم عدد السكان في بلدته استناداً إلى الإحصاءات الرسمية التي جرت في عهد الانتداب الفرنسي، إلا أن أهم ما يشغله هو هذا النزوح المتراكم من بلدته على مدى تاريخها، وحاول تفسيره. وانصب هم لبيل على التحولات الاجتماعية العميقة التي شهدتها بكفيا منذ منتصف القرن التاسع عشر، حيث تراجعت العائلة للمعية المقاطعية لصالح صعود قوى اجتماعية جديدة استفادت من الحرية والتعليم والهجرة والتجارة، فارتقت عمرانياً ووظيفياً. وبتباهي الخازن بخصوبة النساء في بلدته، بعد أن يسرد العلاقة بين العائلة وتكوّن الأحياء، إلا أنه يتحسر على تفكك هذه البنية العائلية العمرانية بفعل التطورات.

وحاول البشعلاني وصف مجتمع بشعلي، مصدر عائلات بلدته صليما، وتاريخية النزوح. وقد حملت العائلة اسم بلدتها، مدافعاً بقوة عن الأصول الأرامية - الفينيقية السريانية. على أن الباشا تجاوز واستهجن الجدل في مسألة الأصول الإثنية، مركزاً على العلاقة بين "الطوائف" العائلية والتكون العمراني، وعلاقة كل منها بالأنشطة الاقتصادية. أما حبيقة، وعلى الرغم من تقديره العائلة للمعية، فإنه لاحظ - كما الحال في بكفيا - صعود قوى جديدة من الأهالي في بسكنتا، وشغلته ظاهرة الهجرة الكثيفة من بلدته وقد تجاوزت ثلثي السكان.

سادساً: التاريخ الاقتصادي همّ مركزي

لم يلتفت مؤرخو التاريخ المحلي إلى العدالة في توزيع الملكية العقارية، إلا أنهم ركزوا في المسألة الاقتصادية على القاعدة المادية وعلى الأنشطة التجارية الداخلية أو المسافات المتوسطة والطويلة. إلا أن الالف هو تركيزهم على أزمة انهيار الحرف المحلية منذ بداية المواجهة مع السلع الأجنبية.

كان المملوف أول من اكتشف أزمة مدينة زحلة في عشرينيات القرن التاسع عشر، بانهايار صناعة النسيج نتيجة المنافسة الأوروبية. لكنّه قبل ذلك أشار إلى الدور الاستقطابي لمدينته في الميادين التجارية والسياحية على ضفاف نهر البردوني.

في المقابل، شكّلت الدراسات التاريخية عن بلدات المتن مصدرًا مهمًا للتاريخ الاقتصادي المتمركز في هذه المنطقة المركزية من جبل لبنان. فالشبابي المؤرخ - وهو ابن البلدة المشهورة بصناعة أجراس الكنائس وصناعة الفخار في لبنان - قدم معطيات مهمة، مستندًا إلى معاناة شخصية وإلى نصوص وردت في جريدة العلم الصادرة في البلدة.

وأما بسكتنا الغنية بالمياه، التي كانت مصدر قوة لتدوير الطواحين، فقد تحولت مع مطلع القرن العشرين إلى مادة تجارية بعد تحليل تركيبها المعدني. ويشير حبيقة إلى مناجم الحديد قرب جبل صنين، إلا أن ما يحول دون استثمارها كان ندرة الفحم الحجري وصعوبة نقل الإنتاج إلى الساحل. ويصف حياة السوق التجاري المعروف بـ "السطوح" حيث محلات التجار والحرفيين. إلا أنه، وكما اكتشف قبله المعلوف، لاحظ أزمة صناعة النسيج.

وفي تجربة مشابهة لرحلة وبلدات المتن الاستقطابية، تحولت دوما في بلاد البترون إلى سوق/ بندر اشتهر بصناعة الحديد، والصناعات النسيجية القطنية والحديدية. ثم مع التراكم المالي تحولت إلى مكان للعمليات المالية من إقراض وصرافة.

ويلاحظ البشعلاني انتقال صليما من اقتصاد زراعي إلى مجتمع تجاري ثم صناعي، وقد تحوّل العديد من تجارها إلى "خواجهات"، وازدهرت فيها الحرف وصناعة النسيج وحياسة الديما. على أن الأبرز في سرديته الاقتصادية هو كيفية اختراق رأس المال الصناعي الفرنسي حياكة النسيج في بلدته ومحيطها، والتداعيات الاجتماعية التي نتجت من دخول النساء إلى العمل في كرخانات الحرير.

أما لحدود فقد حاول تفسير التوسع العقاري لخواجهية بلدته عمشيت في جيل والبترون وأبعد منهما، بحاجة أهلها إلى الحبوب؛ وهو تفسير لا يتجاوز الحس المشترك. وعرض لأنشطتها التجارية بالسلع الأساسية مثل الحرير والأغنام والتبغ والسكر، وتحول أهلها إلى طبقة اجتماعية متميزة.

وتأكيدًا للبنية الحرفية - الصناعية في بلدات جبل لبنان، نستطرد مع فرنسيس رحمة في كتابه تاريخ بشري أو مدينة المقدمين⁽⁴⁶⁾؛ حيث يتناول في فصل مستقل صناعة النسيج، وكيفية صباغتها من مواد صخرية ونباتية من البيئة المحلية.

سابعًا: التاريخ المحلي للمؤسسات

لما كان التأريخ المحلي في النصف الأول من القرن العشرين يتناول البلدات الريفية الاستقطابية، فهذا يعني أسبقيتها في التماسك بأشكاله الدينية، والمدنية، والسياسية، والخيرية، والثقافية. ففي الميدان الديني، أضيف إلى مؤسسة الوقف التقليدية تأسيس الأخويات الدينية للذكور والإناث، أقدمها تلك التي أنشئت في دير القمر (1777) وفي بسكتنا (1833) (كلاهما باسم "الحبل بلا دنس").

وفي الميدان السياسي، جرى تشريع مؤسسة مشيخة الصلح وفق بروتوكول 1861 وتعديلاته (النظام الأساسي)، ومركز مختارين في كل بلدة، وقد حُدِّت صلاحيات كل من المؤسستين (المشيخية والاختيارية). ومنذ ستينيات القرن التاسع عشر، أنشئت أقدم بلدية في جبل لبنان في دير القمر⁽⁴⁷⁾. إلا أن إنشاء مجالس بلدية في البلدات الأخرى انطلق منذ أواسط سبعينيات القرن عينه (بسكتنا 1875، ودوما 1881)، وارتبط تأسيس القوميسيون⁽⁴⁸⁾ بتنظيم الأسواق التجارية والحرفية المزدهرة، لجهة الاهتمام بنظافة السوق

46 رحمة، ص 412-417.

47 ينظر: شكري البستاني، دير القمر في آخر القرن التاسع عشر: محاولة تخطيطية اجتماعية اقتصادية (بيروت: مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية، 1969).

48 هو مصطلح منقول عن الفرنسية Comission، ويعني لجنة البلدية. ويقال أحيانًا: "القوميسيون البلدي".

وتحديد الأسعار ومراقبة الأخلاق وتطبيق النظام وتعيين النواظير وإنارة الأزقة. وبسبب الهجرة وقدرات الجاليات المهاجرة من كل بلدة، أنشئت في المغتربات كما في الوطن، جمعيات خيرية أدت دورًا مهمًا في المساعدات المالية أو في الأعمال العمرانية. وربطًا بالهجرة عينها، أسست مكاتب البريد والبرق (ولاحقًا الهاتف)، وأنشئت جمعيات الموسيقى (النوبة) التي كانت حاضرة في المآتم، كما في مناسبات دينية أو سياسية. وأسست جمعيات لإدارة المدارس، وجرت الإشارة إلى بدايات تكوين فروع لبعض الأحزاب السياسية، كما الحال في بسكنتا.

ثامنًا: المؤرخون المحليون والتاريخ الثقافي والتعليمي

تحدث المعلوم عن إيفاد طالبين من زحلة سنة 1955 إلى مدرسة القصر العيني في مصر لدراسة الطب، وأشار إلى تأسيس الرهبنة الحناوية للكلية الشرقية في زحلة (1898)، وإلى النهضة العلمية والأدبية، بما فيها إنشاء غرف مطالعة عامة في المدينة في بداية القرن العشرين. وخصص البشعلاني فصلًا عن التعليم والمدارس مسترجعًا أهمية كل من المدرسة المارونية في روما ومدرسة عين ورقة، مع تركيز على مدرسة الآباء الكبوشيين في صليما، وكذلك دور الكهنة في فتح المدارس. وتناول مساهمة صليما في الحقل الرهباني بتزويده بـ "القوى الروحية والعلمية" والأدبية. ويشير إلى "العلوم الحديثة" معدداً المدارس الشهيرة التي تعلم فيها أولاد صليما، لإعدادهم للحياة العلمية والوظيفية بحسب المهن، وأبرزها الحقوق. أما الباشا فقد استعرض تاريخ التعليم في بلدته دوما.

يمكن اعتبار عقد الخمسينيات نهاية نمط في التاريخ المحلي؛ بحيث تزامن تراجع الدور المركزي للمؤسسات الدينية - وبخاصة عند الطائفتين المارونية/ الكاثوليكية والأرثوذكسية اللتين تخرّج فيهما كبار المؤرخين للتاريخ العام والتاريخ الخاص/ المحلي والمناطق - وبدأ نمط آخر له سمات متنوعة، إلا أن إحدى خاصياته أنه أخذ في الاعتبار التاريخ الوطني، وتأثر بالمنهج الدراسية في عهد الاستقلال (1946، 1968-1971)، بما فيها مناهج مادة التاريخ المدرسية والجامعية.

خلاصة استنتاجية

يمكن الخلوص إلى بعض الأفكار الاستنتاجية التي تميز الفكر التاريخي المحلي في جبل لبنان في النصف الأول من القرن العشرين:

1. يغيب الإحصاء السكاني والاقتصادي بصفته هماً مباشراً (باستثناء تجربة الأسود الهادفة إلى تجميع المعطيات)، وربما كان التعويض عنه في ميدان الديموغرافيا، من خلال مشجرات النسب العائلية، وما تتضمنه من تعداد لذكورها. هذا على الرغم من وجود ظاهرتين كانتا تستوجبان مثل هذا الهم؛ وهما: الهجرة الكثيفة في العقود الأخيرة من نظام المتصرفية واستمرارها بوتيرة أقل بين الحربين، والمجاعة الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى التي حصدت نسبة كبيرة من السكان، وتأثير ذلك في نسب نموهم. وتوافرت لهؤلاء المؤرخين ثلاثة إحصاءات رسمية على الأقل؛ إحصاء 1913 الذي أجرته الإدارة العثمانية، وإحصاء 1922 و1932 اللذان أجرتهما الإدارة الانتدابية. وتوافرت بين أيديهم، ومنهم كهنة، السجلات الكنسية التي ستصبح من أبرز المصادر في الديموغرافيا التاريخية، لكنهم لم يستثمروها إلا في الحصول على عدد السكان الإجمالي في بلدانهم.
2. تهيمن التحركات السكانية على الفكر التاريخي في منحنيين: منحى النزوح والهجرات عن البلدة، ومنحى توافد العائلات إليها في تراكم طبقاتي بحسب توطن كل منها، لتكوين مجتمعاتها المعاصرة.

3. لم تمثل الهجرة عند هؤلاء المؤرخين مشكلة ديموغرافية واجتماعية - اقتصادية ونفسية مركبة، بل اعتبروها موجة تتكرر في مسار التاريخ منذ الفينيقيين، وبخاصة أنهم كانوا يشهدون بعض النتائج الإيجابية مثل تعمير الحارات أو المساهمة في الأعمال الخيرية والإنمائية، بل إن بعضهم مدين في نشر مخطوطاته للمال الاغترابي.
4. غياب تحليل توزيع الملكية العقارية في كل بلدة ومدينة، ومذلولاته الطبقية والإنتاجية، على الرغم من توافر دفاتر المساحة القديمة التي أنجزت في ستينيات القرن التاسع عشر، بين مصادرهم الوثائقية. كما أنهم يهتمون بتوسع المجال الجغرافي للبلدة بصفتها كياناً بتوسع حدودها، أكثر من اهتمامهم باختلال العدالة داخل البلدة.
5. وصف الموقع والطبيعة وما فيها، مع حس بيئي مرفه يتعلق تحديداً بالقضاء على الثروة الغابية، واهتمام خاص بالثروة المائية مع إشارات إلى بداية مشاريع رأسمالية وتنموية، بجرها بقساطل من الينابيع إلى التجمعات السكانية، أو تعبئتها لتسويقها مياها معدنية.
6. مع أن المعلوف افتتح تحليلاً طبقياً في رحلة - هو أقرب إلى منهج "فيبري" يتناول التغيير في المؤسسات من دون إهمال القاعدة الاقتصادية - فإن مؤرخي المقاطعة اللعمية في المتن (بيت شباب وبكفيا وصليما وبسكتا) كانوا أقرب إلى رصد التحولات بحذر وحيادية، بما يحمل احتراماً وتقديراً وعرفاناً بالجميل للعائلة اللعمية المنتصرة، ولا يحول ذلك دون ملاحظة تراجع قدرتها العقارية وسلطتها السياسية، وتقدم جمهور رعيته عبر التجارة والتعليم والوظائف والمهن.
7. عاين المؤرخون انهيار الزراعة في لحظة كتابتهم لنصوصهم، كما كانوا يشهدون على تراجع أنشطة مجتمعاتهم المهنية والصناعية. وقد تناول المعلوف وغيره من مؤرخي الاقتصاديات المحلية الفترة 1825-1831، بوصفها بداية تدمير الأنشطة النسيجية التي كانت مزدهرة جداً وتشكل مردوداً مالياً مرتفعاً، أمام غزو المنتجات الأوروبية في سعيها لحل أزمة ثورتها الصناعية الأولى. كما راحوا يعاينون تراجع صناعة الحرير منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، بالتزامن مع موجة الهجرة، وإشكاليات عمل النساء في مناخ محافظ.
8. تعتبر البلدات التي كانت موضوعاً للتأريخ المحلي بلدات استقطابية لمحيطها الريفي؛ أي إنها شكلت أسواقاً تجارية وحرفية، كما أنها تحولت إلى مراكز إدارية وسياسية وقضائية وأمنية؛ ما يعني وفود موظفي الإدارة الحكومية إليها، وما يستجلب ذلك من دينامية يومية. والسؤال المطروح هنا: هل عاين الفكر التاريخي مسار التراجع والركود في دور هذه البلدات مع انفتاح الريف على المدن الساحلية؟ التقط الباشا مسار انحسار الدينامية التجارية والحرفية في بلدته دوما، على أن المؤرخين المحليين جميعهم كانوا يأملون التعويض من خلال استقطاب المصطافين المحليين والعرب.
9. اهتم المؤرخون المحليون بتاريخ التعليم في مجتمعاتهم، فبعضهم ذكر دور خريجي المدرسة المارونية في روما التي أسست سنة 1584، أو دور خريجي مدرسة عين ورقة التي أسست أواخر القرن الثامن عشر. إلا أنهم جميعاً يتفقون على دور مدارس الأوقاف المحلية، ومن ثم دور المدارس الإرسالية الأجنبية ومدارس أديار الرهبانات، التي خدمت الطبقات العليا، في حين أمنت مدارس المعارف العثمانية التعليم للطبقات الأخرى منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وعلى قاعدة مدارس الأوقاف ومدارس المعارف العثمانية، أسست المدرسة الرسمية في عهد الانتداب الفرنسي ومن ثم في عهد الاستقلال. الجدير بالملاحظة في حقل التعليم العالي، هو الدور المركزي الذي أدته جامعة القديس يوسف والجامعة الأميركية في بيروت في تخريج النخب التي احتلت مكائنها في الوظائف العامة وفي المهن الحرة وفي القيادة السياسية.

10. اهتم المؤرخون المحليون بكل أشكال التماسس الديني والمدني، فتناولوا الأخويات الدينية التي يعود إنشاء بعضها إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، والجمعيات الخيرية والعائلية في بلداتهم والمهجر، والجمعيات الأدبية والعلمية. أما في المجال المدني فقد توقفوا عند مؤسسة مشيخة الصلح التي أنشئت منذ بداية عهد المتصرفية (1861) في سياق التنظيمات العثمانية، وأسماء الشيوخ وما يقابلهم في كل بلدة من مجلس اختياري. وأشاروا إلى تكوين المجالس البلدية التي تعتبر الأقدم في جبل لبنان (على أن التجربة المدنية أقدم وتعود إلى المجالس التي شكلتها الإدارة المصرية فترة وجودها في بلاد الشام) وبعض إنجازاتها. لكنهم لم يبحثوا في السجلات البلدية أكانت تلك التي تُسجل محاضر الاجتماعات أو تلك التي سُجلت فيها الميزانيات، ولم يربطوا بين تكوين المجالس البلدية والبنى الاجتماعية والاقتصادية والعلمية المؤثرة، إلا في حالات استثنائية كما عند الباشا.

11. انصبّ الفكر التاريخي المحلي على تدوين بطولات الشخصيات السياسية والعسكرية في جانبه المدني، وعلى إنجازات رجال الدين في المؤسسات الرهبانية والأبرشية. ولكن بفعل التجارة والتعليم وتعقد الحياة الاجتماعية - الاقتصادية وتوسع الوظائف الحكومية، برزت أهمية أصحاب الاختصاصات العلمية، ولا سيما في مجالي الحقوق والطب، وقد كان لجامعة القديس يوسف التابعة للآباء اليسوعيين دورها المتميز في تشكيل هذه النخب الجديدة التي أدّت دورًا مركزيًا في السياسة اللبنانية.

المراجع

العربية

- الأُسود، إبراهيم. **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**. ج 1. بيروت: مطبعة القديس جاورجيوس، 1925.
- _____. **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**. ج 2. بيروت: مطبعة القديس جاورجيوس، 1927.
- _____. **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**. ج 3. بيروت: المطبعة العلمية، 1930.
- _____. **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**. ج 4. بيروت: المطبعة العلمية، 1935.
- _____. **دليل لبنان**. بعدا: المطبعة العثمانية، 1906.
- _____. **ذخائر لبنان**. بعدا: المطبعة العثمانية، 1896.
- الإهمجي، الأب مخايل خليفه الحلو. **تاريخ إهمج القديم والحديث**. جونية: مطبعة المرسلين اللبنانيين، 1937.
- البنستاني، شكري. **دير القمر في آخر القرن التاسع عشر: محاولة تخطيطية اجتماعية اقتصادية**. بيروت: مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية، 1969.
- البشعلاني، الخوري اسطفان. **تاريخ بشعلي وصليما**. الدورة: مطبعة فاضل وجميل، 1947.
- _____. **تاريخ بشعلي وصليما**. ط 2. بيروت: دار صادر، 2003.
- البلبكي، ميخائيل موسى ألوف. **تاريخ بعلبك**. ط 3. بيروت: المطبعة الأدبية، 1908.
- بلييل، إدمون. **تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ أسرها**. بكيفا: مطبعة العرائس، 1935.
- التميمي رفيق، ومحمد بهجت. **ولاية بيروت (1916/1332هـ)**. بيروت: دار لحد خاطر، 1979.
- جعجع، الخوري اغناطيوس. "بشري مدينة المقدمين". **المشرق**. العدد 6 (صيف 1932).
- حبيقة، الخوراسقف بطرس. **تاريخ بسكنتا وأسرها**. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1946.
- الحتوني، الخوري منصور. **نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية**. [د. م.]: [د. ن.].، 1884.
- _____. **نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية**. ط 2. [د. م.]: [د. ن.].، 1956.
- خازن، سمعان. **تاريخ إهدن المدني**. ج 1. [د. م.]: [د. ن.].، 1938.
- _____. **تاريخ إهدن الديني**. بيروت: [د. ن.].، 1939.
- _____. **تاريخ الأسر الإهدنية**. طرابلس: [د. ن.].، 1968.
- _____. **تاريخ زغرتا القديم والحديث**. طرابلس: مطبعة أديب، 1968.
- _____. **تاريخ إهدن القديم والحديث**. درعون: [د. ن.].، 1968.

- خليفة، عصام. شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر. ج 2. بيروت: [د. ن.]، 2002.
- رحمة، فرنسيس. تاريخ بشري أو مدينة المقدمين. سان باولو: الرابطة البشراوية، 1956.
- رزق الله، ميلاد. دليل الشوير ونواحيها. بيروت: مطبعة طبارة، 1923.
- رزق، سعيد. تاريخ جزين وأسرها. صيدا: مطبعة العرفان، 1953.
- رستم، أسد. مصطلح التاريخ: وهو بحث في نقد الأصول وتحري الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها وفي ما يقابل ذلك في علم الحديث. صيدا: المكتبة العصرية، 1939.
- الشبابي، الأب ميخائيل غبريل. كشف النقاب عن بقعة بيت شباب. بيت شباب: مطبعة جريدة العلم، 1926.
- شيخو، لويس. بيروت: تاريخها وأثارها. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، 1925.
- العروي، عبد الله. مفهوم التاريخ، ج 2: المفاهيم والأصول. بيروت: دار الحداثة، 1992.
- فروخ، عمر. تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه: إعادة النظر في التاريخ. بيروت: دار الباحث، 1980.
- لحدو، أديب بك. الدوحة العمشيتية: تاريخ أفراد عيال عمشيت الثلاث عبيد وكلاب وكرم منذ الجيل السابع عشر. [د. م.]: [د. ن.]، 1954.
- _____. الدوحة العمشيتية: تاريخ أفراد عيال عمشيت الثلاث عبيد وكلاب وكرم منذ الجيل السابع عشر. ط 2. [د. م.]: [د. ن.]، 2003.
- مساهمة المؤرخين الأرثوذكس في التأريخ. بيروت: جامعة البلمند، معهد التاريخ والآثار ودراسات الشرق الأدنى، 2007.
- محمد، شرف. "أوتيل بالميرا" في بعلبك.. تاريخ مهدّد بالزوال". السفير. العدد 12566. 2013/8/30.
- الهاشم، المونسنيور لويس. تاريخ العاقورا. [د. م.]: مؤسسة خليفة للطباعة، 1930.

الأجنبية

- Langlois, Charles-Victor & Charles Seignobos. *Introduction aux études historiques*. Paris: Librairie Hachette et Cie, 1898.
- Renan, Ernest. *Mission de Phénicie*. Paris: Imprimerie Impériale, 1864–1874.

محمد همام

أبو حيان التوحيدي

محنة مثقف عضوي في الثقافة العربية القديمة، دراسة
في السياق والخطاب



صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب أبو حيان التوحيدي: محنة مثقف عضوي في الثقافة العربية القديمة، دراسة في السياق والخطاب، للمؤلف محمد همام، ويقع في 336 صفحة، شاملاً ملخصاً تنفيذياً ومقدمة وفصلين وخاتمة ومراجع وفهرساً عاماً.

يسعى الكتاب لبناء قراءة تفسيرية معمقة في سيرة المثقف العربي القديم من خلال نموذج أبي حيان التوحيدي، مستعرضاً تفاعله مع محيطه الاجتماعي وتكوينه المعرفي وإنتاجه الثقافي. ولا يقتصر على سرد سيرته، بل يتجاوز ذلك إلى طرح تساؤلات جوهرية عن موقع المثقف ووظيفته في بنية المجتمع العربي القديم مقارنةً بمثقف العصر الحديث. ويناقش علاقة التوحيدي بالسلطة والنخبة العلمية، وحدود تفاعله مع الثقافة السائدة، إضافة إلى مقارنته الثقافة الوافدة، ولا سيما اليونانية. ومن خلال هذا التفاعل المركب، تُقدّم صورة المثقف بوصفه فاعلاً اجتماعياً وسياسياً، لا كائناً منعزلاً.



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات Arab Center for Research & Policy Studies

The Arab Center for Research and Policy Studies is an independent social sciences and humanities institute that conducts applied and theoretical research seeking to foster communication between Arab intellectuals and specialists and global and regional intellectual hubs. The ACRPS achieves this objective through consistent research, developing criticism and tools to advance knowledge, while establishing fruitful links with both Arab and international research centers.

The Center encourages a resurgence of intellectualism in Arab societies, committed to strengthening the Arab nation. It works towards the advancement of the latter based on the understanding that development cannot contradict a people's culture and identity, and that the development of any society remains impossible if pursued without an awareness of its historical and cultural context, reflecting its language(s) and its interactions with other cultures.

The Center works therefore to promote systematic and rational, scientific research-based approaches to understanding issues of society and state, through the analysis of social, economic, and cultural policies. In line with this vision, the Center conducts various academic activities to achieve fundamental goals. In addition to producing research papers, studies and reports, the center conducts specialized programs and convenes conferences, workshops, training sessions, and seminars oriented to specialists as well as to Arab public opinion. It publishes peer-reviewed books and journals and many publications are available in both Arabic and English to reach a wider audience.

The Arab Center, established in Doha in autumn 2010 with a publishing office in Beirut, has since opened three additional branches in Tunis, Washington and Paris, and founded both the Doha Historical Dictionary of Arabic and the Doha Institute for Graduate Studies. The ACRPS employs resident researchers and administrative staff in addition to hosting visiting researchers, and offering sabbaticals to pursue full time academic research. Additionally, it appoints external researchers to conduct research projects.

Through these endeavours the Center contributes to directing the regional research agenda towards the main concerns and challenges facing the Arab nation and citizen today.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية فكرية مستقلة، مختصة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، في جوانبها النظرية والتطبيقية، تسعى، عبر نشاطها العلمي والبحثي، إلى خلق تواصل في ما بين المثقفين والمتخصصين العرب في هذه العلوم، وبينهم وبين قضايا مجتمعاتهم، وكذلك بينهم وبين المراكز الفكرية والبحثية العربية والعالمية، في عملية تواصل مستمرة، من البحث، والنقد، وتطوير الأدوات المعرفية.

يتبنى المركز رؤية نهضوية للمجتمعات العربية، ملتزمة بقضايا الأمة العربية، والعمل على رقيها وتطورها، انطلاقاً من فهم أنّ التطور لا يتناقض مع الثقافة والهوية، بل إنّ تطوّر مجتمع بعينه، بفئاته جميعها، غير ممكن إلا في ظروفه التاريخية، وفي سياق ثقافته، وبلغته، ومن خلال تفاعله مع الثقافات الأخرى.

ومن ثمّ، يعمل المركز على تعزيز البحث العلمي المنهجي والعقلانية في فهم قضايا المجتمع والدولة، بتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الوطن العربي. ويتجاوز ذلك إلى دراسة علاقات الوطن العربي ومجتمعاته بمحيطه المباشر، وبالسياسات العالمية المؤثرة فيه، بجميع أوجهها.

وفي ضوء هذه الرؤية، يعمل المركز على تحقيق أهدافه العلمية الأساسية، عن طريق نشاطاته الأكاديمية المختلفة، فهو ينتج أبحاثاً ودراسات وتقارير، ويصدر كتباً محكمة ودوريات علمية، ويبادر إلى مشاريع بحثية، ويدير عدة برامج مختصة، ويعقد مؤتمرات، وورش عمل وتدريب، وندوات أكاديمية، في مواضيع متعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وموجهة إلى المختصين، والرأي العام العربي أيضاً، ويساهم، عبر كل ذلك، في توجيه الأجندة البحثية نحو القضايا والتحديات الرئيسة التي تواجه الوطن والمواطن العربي. وينشر المركز جميع إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.

تأسس المركز في الدوحة في خريف 2010، وله فرع يعنى بإصداراته في بيروت، وافتتح ثلاثة فروع إضافية، في تونس وواشنطن وباريس. ويشرف على المركز مجلس إدارة بالتعاون مع مديره العام المؤسس.

أسس المركز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، وما زال يشرف عليه بالتعاون مع مجلسه العلمي، كما أسس معهد الدوحة للدراسات العليا، وهو معهد جامعي تشرف عليه إدارة أكاديمية ومجلس أمناء مستقل يرأسه المدير العام للمركز.

يعمل في المركز باحثون مقيمون، وطاقم إداري. ويستضيف باحثين زائرين للإقامة فيه فترات محددة من أجل التفرد العلمي، ويكلف باحثين من خارجه للقيام بمشاريع بحثية، ضمن أهدافه ومجالات اهتمامه.





The Doha Institute for Graduate Studies (DI) is an independent institute for learning and research in the fields of Social Sciences, Humanities, Public Administration and Development Economics in Doha.

Through its academic programs and the research activities of its professors, the DI aims to achieve its mission of contributing to the formation of a new generation of academics and intellectually independent researchers who are proficient in international scholarship standards and modern interdisciplinary research methodologies and tools, and leading professionals who can advance human knowledge and respond to the needs of the Arab region, resulting in social, cultural and intellectual development.

The institute seeks to establish an intellectual hub that will benefit the Arab region in particular. The Institute supports academic research that deals with Arab issues, in an atmosphere of institutional and intellectual freedom.

The Institute works in cooperation with the Arab Center for Research and Policy Studies and the Doha Historical Dictionary of Arabic Language to facilitate its students and faculty members in their research of the most important current issues related to the Arab world and the wider international community. The involvement of students in the most important research projects is at the heart of the Institute's interests.

The Institute adopts Arabic as its official and primary language for education and research. English serves as an accompaniment to Arabic, with both languages used in presenting and research.

معهد الدوحة للدراسات العليا مؤسسة أكاديمية مستقلة للتعليم العالي والأبحاث في العلوم الاجتماعية والإنسانية والإدارة العامة واقتصاديات التنمية.

يهدف المعهد من خلال برامجه الأكاديمية ونشاطات أساتذته البحثية إلى تحقيق رسالته المتمثلة في المساهمة في تكوين جيل جديد من الأكاديميين والباحثين المستقلين فكرياً والمتمكّنين من المعايير العلمية العالمية والأدوات البحثية المنهجية الحديثة القائمة على مبدأ تداخل التخصصات، ومن القادة المهنيين القادرين على الدفع قدماً بالمعرفة الإنسانية والاستجابة إلى حاجات المنطقة العربية في سبيل التطور الفكري والاجتماعي والمهني.

ويسعى المعهد لتأسيس نواة لصرح فكري يفيد العالم العربي على نحو خاص. ويدعم المعهد البحوث العلمية التي تهتم بالقضايا العربية، في جو من الحرية المؤسسية والفكرية.

يعمل المعهد بالتعاون مع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعجم الدوحة التاريخي للغة العربية على فتح المجال لطلابه وأعضاء هيئته التدريسية للبحث في أهم القضايا الراهنة التي تتعلق بالعالم العربي والمجتمع الدولي. ويعتبر إشراك الطلبة في أهم المشاريع البحثية في طلب اهتمامات المعهد.

يعتمد المعهد اللغة العربية أداة للبحث العلمي، ولغة رسمية في الخطاب العام، ولغة أساسية للتعليم والبحث. وتُعَدُّ اللغة الإنكليزية لغة مرافقة في التعلم والبحث العلمي. وتستعمل اللغتان في طرح المواضيع المختلفة ودراساتها.





دورية "أسطور" للدراسات التاريخية

دورية **أسطور** للدراسات التاريخية دورية محكمة تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. تحمل الرقم الدولي المعياري (ISSN: 2305-2473). وقد صدر عددها الأول في كانون الثاني/يناير 2015، وهي دورية نصف سنوية محكمة تصدر مرة واحدة كل ستة أشهر، ولها هيئة تحرير علمية أكاديمية متخصصة وهيئة استشارية دولية فاعلة تُشرف على عملها، وتستند إلى ميثاق أخلاقي لقواعد النشر والعلاقة بينها وبين الباحثين. كما تستند إلى لائحة داخلية تنظم عمل التحكيم، وإلى لائحة معتمدة بالمحكمين في مختلف أنواع الاختصاصات.

يستوحي اسم الدورية المشتق من لغة العرب ومصطلحاتهم إichاءات العلاقة بين الدلالة اللغوية العربية والقرآنية للجذر "س. ط. ر" وكلمتي Istorein و Historia من أصول يونانية اللتين انبثق منهما علم التاريخ بصيغة History و Histoire. وتعتمد الدورية اسم "أسطور" بالمعنى الاصطلاحي الحديث لتأسيس "تاريخ عربي جديد" يتواصل مع الإنجازات العربية الأولى ولا يقطع معها، بل يجددها ويطورها ويؤسس إبداعات جديدة.

تعتمد دورية **أسطور** في انتقاء محتويات أعدادها المواصفات الشكلية والموضوعية للمجلات الدولية المحكمة وفق ما يلي:

✦ **أولاً**، أن يكون البحث أصيلاً مُعداً للدورية حصراً، وألا يكون قد نُشر جزئياً أو كلياً، أو نُشر ما يشبهه في أي وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، أو قُدم في أحد المؤتمرات العلمية من غير المؤتمرات التي يعقدها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أو إلى أي جهة أخرى.

✦ **ثانياً**، أن تُرفق مع البحث السيرة العلمية للباحث باللغتين العربية والإنكليزية.

✦ **ثالثاً**، يجب أن يشتمل البحث على العناصر التالية:

1. عنوان البحث باللغتين العربية والإنكليزية، وتعريف موجز للباحث والمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها وآخر إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.

2. الملخص التنفيذي باللغتين العربية والإنكليزية في نحو 250-300 كلمة، والكلمات المفتاحية (Key Words) بعد الملخص، ويُقدّم الملخص في جمل قصيرة ودقيقة وواضحة إشكالية البحث الرئيسية، والطرائق المستخدمة في بحثها، والنتائج التي توصل إليها البحث.

3. تحديد مشكلة البحث، وأهداف الدراسة، وأهميتها، والمراجعة النقدية لما سبق أن كُتب في الموضوع، بما في ذلك أحدث ما صدر في مجال البحث، وتحديد مواصفات فرضية البحث أو أطروحته، ووضع التصوّر المفاهيمي وتحديد مؤشرات الرئيسية، ووصف منهجية البحث، والتحليل والنتائج، والاستنتاجات. على أن يكون البحث مديلاً بقائمة ببليوغرافية في آخره تتضمن أهمّ المراجع التي استند إليها الباحث، إضافةً إلى المراجع الأساسية التي استفاد منها ولم يُشر إليها في الهوامش. وتُذكر في القائمة بيانات الأبحاث بلغتها الأصلية؛ أي باللغة الأجنبية في حال العودة إلى مصادر بلغة أجنبية.

4. أن يتقيد البحث بمواصفات التوثيق وفق نظام الإحالات المرجعية الذي يعتمد عليه المركز (ينظر: أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع).





5. لا تنشر الدورية مستلات أو فصولاً من رسائل جامعية أُقرّت إلا على نحو استثنائي، وبعد إعدادها من جديد للنشر في الدورية من جهة الباحث، وفي هذه الحالة يجب على الباحث أن يشير إلى ذلك، ويقدم بيانات وافية عن عنوان الأطروحة وتاريخ مناقشتها والمؤسسة التي جرت فيها المناقشة.
6. أن يكون البحث في مجال أهداف الدورية واهتماماتها البحثية.
7. تهتم الدورية بنشر مراجعات نقدية للكتب المهمة التي صدرت حديثاً في مجالات اختصاصها بأي لغة من اللغات، على ألا يكون قد مضى على صدورها أكثر من ثلاث سنوات، وألا يتجاوز عدد كلماتها 2800-3000 كلمة. ويجب أن يكون هذا الكتاب في مجال اختصاص الباحث أو في مجال اهتماماته البحثية الأساسية، وتخضع المراجعات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.
8. تهتم الدورية بنشر وثائق أصيلة من أرشيفات مختلفة أو نصوص مخطوطات. ويشترط في نشر الوثيقة أو النص المخطوط الالتزام بالمعايير المعمول بها في تحقيق ونشر النصوص، ويصحب النص المنشور بصورة الوثيقة أو صورة من الصفحة الأولى من النص، إضافة إلى معلومات تعريفية بالنص ومكان حفظه.
9. تُفرد الدورية باباً خاصاً لمناقشات متعلقة بفكرة أو نظرية أو قضية مثارة في مجال علم التاريخ، من دون أن يتجاوز عدد الكلمات المناقشة فيها 2800-3000 كلمة، وتخضع المناقشات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.
10. يراوح عدد كلمات البحث بما في ذلك المراجع في الإحالات المرجعية والهوامش الإيضاحية، والقائمة السيليوغرافية وكلمات الجداول في حال وجودها، والملحقات في حال وجودها أيضاً، بين 6000-8000 كلمة. وللدورية أن تنشر بحسب تقديراتها وعلى نحو استثنائي بعض البحوث والدراسات التي تتجاوز هذا العدد من الكلمات.
11. في حال وجود مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول، ينبغي إرسالها بالطريقة التي استُغلت بها في الأصل بحسب برنامجي إكسل (Excel) أو وورد (Word)، ولا تقبل الأشكال والرسوم والجداول التي تُرسل في شكل صور.

❖ **رابعاً،** يخضع كل بحث لتحكيم سرّي تامّ، يقوم به محرّمان متخصصان تخصصاً دقيقاً بموضوع البحث، ومن ذوي الخبرة العلمية بما أنجز في مجاله، ومن المعتمدين في قائمة المحكّمين- القراء في المركز. وفي حال تباين تقارير المحكّمين، يُحال البحث على محكّم مرّجّ ثالث. وتلتزم الدورية بموافاة الباحث بقرارها الأخير النشر/ النشر بعد إجراء تعديلات محدّدة/ الاعتذار عن عدم النشر، وذلك في غضون ستة أشهر من استلام البحث.

❖ **خامساً،** تلتزم الدورية بميثاق أخلاقي يشتمل على احترام الخصوصية والسرية وعدم إفصاح المحرّرين والمراجعين وأعضاء هيئة التحرير عن أيّ معلومات بخصوص البحث المُحال عليهم إلى أيّ شخص آخر غير المؤلّف والمحرّمين وفريق التحرير (الملحق 2).

1. يخضع ترتيب نشر الأبحاث لمقتضيات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
2. لا تُدفع مكافآت ماليّة عن الموادّ من البحوث والدراسات والمقالات التي يتمّ نشرها؛ مثلما هو متّبع في الدوريات العلميّة في العالم، كما لا تتقاضى الدورية أيّ رسوم على النشر فيها.





أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع

الكتب

اسم المؤلف، عنوان الكتاب، اسم المترجم أو المحرر، الطبعة (مكان النشر: الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة؛ كما يلي:

نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة 265 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 227.

كيت ناش، السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة، حيدر حاج إسماعيل (مترجم) (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص 116.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق غير الموالي مباشرةً على النحو التالي مثلاً: ناش، ص 116. (ما لم يكن يوجد أكثر من مرجع واحد للمؤلف نفسه، ففي هذه الحالة يتم استخدام العنوان مختصراً: ناش، السوسيولوجيا، ص 116).

أمّا في قائمة المراجع فيرد الكتاب على النحو التالي: ناش، كيت. السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة. حيدر حاج إسماعيل (مترجم). بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013.

وبالنسبة إلى الكتاب الذي اشترك في تأليفه أكثر من ثلاثة مؤلفين، فيُكتب اسم المؤلف الرئيس أو المحرر أو المشرف على تجميع المادة مع عبارة "وآخرون". مثال: السيد ياسين وآخرون، تحليل مضمون الفكر القومي العربي، ط 4 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 109. ويُستشهد به في الهامش اللاحق كما يلي: ياسين وآخرون، ص 109.

أمّا في قائمة المراجع فيكون كالاتي: ياسين، السيد وآخرون. تحليل مضمون الفكر القومي العربي. ط 4. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.

الدوريات

اسم المؤلف، "عنوان الدراسة أو المقالة"، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد (سنة النشر)، رقم الصفحة. مثال: محمد حسن، "الأمن القومي العربي"، إستراتيجيات، المجلد 15، العدد 1 (2009)، ص 129.

أمّا في قائمة المراجع، فنكتب: حسن، محمد. "الأمن القومي العربي". إستراتيجيات. المجلد 15، العدد 1 (2009).





مقالات الجرائد

لا تُذكر إلا في الهوامش (في قائمة المراجع لا تُذكر).

مثال: إيان بلاك، "الأسد يحث الولايات المتحدة لإعادة فتح الطرق الدبلوماسية مع دمشق"، **الغارديان**، 2009/2/17.

المنشورات الإلكترونية

اسم الكاتب (إن وجد)، "عنوان المقال أو التقرير"، اسم الموقع الإلكتروني، تاريخ النشر (إن وجد)، شوهده في: 2016/8/9، في: <http://www>، مثال:

كريستوفر هيل، "السياسة الخارجية الأميركية على طريقة ترامب"، **الجزيرة نت**، 2016/8/7، شوهده في <http://bit.ly/2aOCz9M>، في: 2016/8/9

في حال وجود سلسلة تنشر على الموقع الإلكتروني، تُكتب بخط سميكة (مثال: **تقدير موقف** أو **تقييم حالة** أو **تحليل سياسات** أو **دراسات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ... إلخ).

إذا جرى الاقتباس عن كتاب أو تقرير أكاديمي أو دولي أو عن مجلة دورية تنشر على الإنترنت، تُذكر بيانات النشر حسب نوع الإصدار (كتاب، مجلة، تقرير)، ولكن يُضاف الرابط الإلكتروني بعد البيانات المعتادة لنشر تلك الإصدارات مع ضرورة ذكر رقم الصفحة التي جرى الاقتباس منها.

يتعين ذكر الرابط كاملاً بحيث يوصل القارئ إلى الصفحة الإلكترونية التي جرى الاقتباس منها مباشرة وليس إلى العنوان العام للموقع.

يتعين اختصار الرابط الإلكتروني من خلال "مختصر الروابط الإلكترونية" (e.g. Bitly or Goo.gl Shortener).

ملاحظة: في الهوامش وقائمة المراجع العربية، ينبغي أن يكون عنوان الكتاب أو المجلة بالخط العريض. أما إن كان بلغة أجنبية، فينبغي أن يُكتب بخط مائل.





أخلاقيات النشر في مجلات المركز العربي

- ✧ تعتمد مجلات المركز قواعد السرية والموضوعية في عملية التحكيم، بالنسبة إلى الباحث والمحكمين على حدّ سواء، وتُحيل كل بحث قابل للتحكيم على محكمين معتمدين لديها من ذوي الخبرة والاختصاص الدقيق بموضوع البحث، لتقييمه وفق نقاط محددة. وفي حال تعارض التقييم بين المحكمين، تُحيل المجلة البحث على قارئ مرّجّح آخر.
- ✧ تعتمد مجلات المركز محكمين موثوقين ومجربين ومن ذوي الخبرة بالجديد في اختصاصهم.
- ✧ تعتمد مجلات المركز تنظيمًا داخليًا دقيقًا واضح الواجبات والمسؤوليات في عمل جهاز التحرير ومراتبه الوظيفية.
- ✧ لا يجوز للمحررين والمحكمين، باستثناء المسؤول المباشر عن عملية التحرير (رئيس التحرير أو من ينوب عنه) أن يبحث الورقة مع أيّ شخص آخر، بما في ذلك المؤلف. وينبغي الإبقاء على أيّ معلومة متميّزة أو رأي جرى الحصول عليه من خلال التحكيم قيد السرية، ولا يجوز استعمال أيّ منهما لاستفادة شخصية.
- ✧ تقدّم المجلة في ضوء تقارير المحكمين خدمة دعم فني ومنهجي ومعلوماتي للباحثين بحسب ما يستدعي الأمر ذلك ويخدم تجويد البحث.
- ✧ تلتزم المجلة بإعلام الباحث بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل أو وفق تعديلات معينة، بناءً على ما يرد في تقارير التحكيم، أو الاعتذار عن عدم النشر، مع بيان أسباب الاعتذار.
- ✧ تلتزم مجلات المركز بجودة الخدمات التدقيقية والتحريرية والطباعة والإلكترونية التي تقدمها للبحث.
- ✧ احترام قاعدة عدم التمييز: يقيم المحررون والمراجعون المادّة البحثية بحسب محتواها الفكري، مع مراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العرق أو الجنس الاجتماعي أو المعتقد الديني أو الفلسفة السياسية للكاتب.
- ✧ احترام قاعدة عدم تضارب المصالح بين المحررين والباحث، سواء كان ذلك نتيجة علاقة تنافسية أو تعاونية أو علاقات أخرى أو روابط مع أيّ مؤلف من المؤلفين، أو الشركات، أو المؤسسات ذات الصلة بالبحث.
- ✧ تنقيذ المجلات بعدم جواز استخدام أيّ من أعضاء هيئتها أو المحررين المواد غير المنشورة التي يتضمنها البحث المُحال على المجلة في أبحاثهم الخاصة.





- ✿ النسخة النهائية للبحث والتعديلات: تعرض المجلة النسخة المحررة شبه النهائية من البحث بصيغة PDF على الباحث قبل النشر. وفي هذه المرحلة، لا تُقبل أيّ تعديلات مهمة أو إضافات على البحث، إلا ما كان من تصحيحات أو تصويبات أو تعديلات طفيفة؛ وذلك ضمن أمدٍ زمني وجيز جدًا تُحدّده رسالة المجلة إلى الباحث.
- ✿ **حقوق الملكية الفكرية:** يملك المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات حقوق الملكية الفكرية بالنسبة إلى المقالات المنشورة في مجلاته العلمية المحكمة، ولا يجوز إعادة نشرها جزئيًا أو كليًا، سواءً باللغة العربية أو مترجمة إلى لغات أجنبية، من دون إذن خطي صريح من المركز العربي.
- ✿ تتقيد مجلات المركز في نشرها لمقالات مترجمة تقيّدًا كاملاً بالحصول على إذن الدورية الأجنبية الناشرة، وباحترام حقوق الملكية الفكرية.
- ✿ **المجانية:** تلتزم مجلات المركز العربي بمجانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر.





10. Confidentiality: Unpublished data obtained through peer review must be kept confidential and cannot be used for personal research.
11. Intellectual property and copyright: The ACRPS retains copyright to all articles published in its peer reviewed journals. The articles may not be published elsewhere fully or partially, in Arabic or in another language, without an explicit written authorization from the ACRPS.
12. *Ostour's* editorial board fully respects intellectual property when translating and publishing an article published in a foreign journal, and will not proceed before obtaining the authorization from the journal in question.
13. *Ostour* does not make payments for manuscripts published in the journal, and all authors and researchers are exempt from publication fees.





Ethical Guidelines for ACRPS Periodicals

1. The *Ostour* editorial board maintains confidentiality and adheres to objectivity in the peer reviewing process. It adopts an anonymized peer review process, where the editorial board selects the appropriate reviewer to assess paper's suitability for publication, according to specific criteria. In case of a conflict between the reviewers regarding the publication assessment, a third reviewer will be selected.
2. *Ostour* relies on a pool of experienced peer reviewers who are up to date with the latest developments in their field.
3. *Ostour* adopts a rigorous internal organization with clear duties and obligations to be fulfilled by the editorial board.
4. Disclosure: With the exception of the editor in charge (Editor-in-Chief or those standing in for the editor), neither the editors, nor the peer reviewers, are allowed to discuss the manuscript with third parties, including the author. Information or ideas obtained in the course of the reviewing and editing processes must be kept confidential and cannot be used for personal gain.
5. When needed, based on the reviewer report, the editorial board may offer researchers methodological, technical and other assistance in order to improve the quality of their submissions.
6. *Ostour's* editors commit to informing authors of the acceptance or otherwise of their manuscripts, based on the reviewers' report, or to notify authors in case of rejection, specifying the reasons for rejection.
7. The journal is committed to providing quality professional copy editing, proof reading and online publishing service.
8. Fairness: The editors and the reviewers evaluate manuscripts for their intellectual and scientific merit, without regard to race, ethnicity, gender, religious beliefs or political views of the authors.
9. Conflict of interests: Editors and peer reviewers should not consider manuscripts in which they have conflicts of interests resulting from competitive, collaborative or other relationships or connections with any of the authors, companies, or institutions connected to the papers.





Newspaper articles

Newspaper articles should be cited only in the footnotes (not in the Bibliography). As an example:

Ellen Barry, "Insisting on Assad's Exit Will Cost More Lives, Russian Says," *The New York Times*, 29/12/2012.

Electronic Resources

Author's name (if available), "The electronic resource's title," The website name, Date of publication (if available), accessed on d/m/y, at: shortened URL. As an example:

"Sovereign Wealth Fund Rankings 2015," Sovereign Wealth Fund Institute, accessed on 9/8/2016, at: <http://bit.ly/1sQqBfr>





Footnotes and Bibliography



Books

Author's name, *Title of the book in italics* (Place of Publication: Publisher, Year of Publication), page number. As an example:

Michael Pollan, *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals* (New York: Penguin, 2006), pp. 99-100.

Successive footnotes would be in the form: Pollan, p. 3.

If there is more than one reference by the same author, we use a short title: Pollan, *Omnivore's Dilemma*, p. 3.

The corresponding bibliographical entry: Pollan, Michael. *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals*. New York: Penguin, 2006.

Books written by four or more authors should follow the same rules as above, but only the first author is named, followed by "et al.". As an example: Dana Barnes et al., *Plastics: Essays on American Corporate Ascendance in the 1960s* (Chicago: University of Chicago Press, 1982), p. 142.

In successive footnotes: Barnes et al., p. 142.

The corresponding bibliographical entry: Barnes, Dana et al. *Plastics: Essays on American Corporate Ascendance in the 1960s*, Chicago: University of Chicago Press, 1982.

Periodicals

Author's name, "Title of the article," *Name of Journal in italics*, volume number, issue number, page number. As an example:

Robert Springborg, "State-Society Relations in Egypt: The Debate Over Owner-Tenant Relations," *Middle East Journal*, vol. 45, no. 2 (Spring 1991), p. 247.

Corresponding Bibliographical Entry: Springborg, Robert. "State-Society Relations in Egypt: The Debate Over Owner-Tenant Relations," *Middle East Journal*, vol. 45, no. 2 (Spring 1991), pp. 232-249.





the submitting author must include an image of that manuscript (or of its first page), as well as some explanatory details about the nature of the manuscript and the location in which it is archived.

9. *Ostour* carries a special section devoted to essays that address a point of contemporary, theoretical debate within the historical sciences. Such essays are between 2,800 and 3,000 words in length, and are subject to all of the same guidelines as regular research papers which apply.

10. Research papers submitted to *Ostour* must be between 6,000 and 8,000 words in length, not inclusive of bibliographies, footnotes and appendixes. The editorial board of *Ostour* reserves the right to publish articles of greater length, in exceptional circumstances where it deems this is merited.

11. All charts and tables must be submitted in a format compatible with Microsoft Office (specifically Word or Excel), making it possible for the data to be accessed. Submissions will not be accepted if any accompany graphs or charts are included purely as image files (such as JPEGs, GIFs, etc.).

✿ The peer review process for *Ostour* and for all journals published by the Arab Center for Research and Policy Studies is treated with the strictest confidence. Two preliminary readers are selected from a short list of approved reader-reviewers. In cases where there is a major discrepancy between the first two readers in terms of a submitted paper's value, it is referred to a third reviewer. The editors undertake to notify all authors of a decision either to publish, to publish after modifications, or to decline to publish, within two months of the receipt of the first draft.

✿ *Ostour* adheres to a strict code of ethical conduct, which has the clearest respect for the privacy and the confidentiality of authors. For a complete description of the ethical guidelines which adopted by *Ostour*, please see Appendix II.

1. The order of publication of submitted articles follows a set of purely technical determinants, and has no relation to the academic standing of the submitting author.

2. In keeping with global norms in the academic publishing industry, *Ostour* neither accepts payment in return for publishing an article nor does it offer payment to authors whose papers are published in the journal.





2. An abstract, ranging between 250 and 300 words in length, in both Arabic and English versions as well as a list of keywords. The abstract must explicitly detail the problematic that the research tackles, the methodologies used to cover it and the main conclusions which the author presents.
3. A clear exposition of the research problematic, the main aims of the paper and the importance of the results must be included. In addition, papers published in *Ostour* must include a critical review of the literature previously published on the topic. The hypothesis as well as the conceptual framework of the author and an analysis of the answers must all be presented. In addition, any research papers submitted for consideration must include a complete bibliography inclusive of all references, regardless of whether or not these appear in the footnotes. References must be maintained in the original language in which the source was written.
4. Authors must follow the referencing guidelines adopted by the Arab Center for Research and Policy. See Appendix I for a complete guide to the reference style used across all of our journals.
5. Doctoral theses and other student projects are only published as part of the journal in exceptional circumstances. In such exceptional circumstances, the editorial board will require exhaustive information about the way in which the thesis in question was examined, and institutional correspondence information of those responsible for it.
6. All works must fall within the broad scope of *Ostour*.
7. Book reviews will be considered for submission to the journal provided that the book covers a topic which falls within the scope of the journal and within the reviewer's academic discipline and/or main areas of research. Reviews are accepted for books written in any language. Book reviews are subject to the same standards of rigorous scrutiny which apply to research papers. Book reviews must be between 2,800 and 3,000 words in length. Book reviews/critiques are only accepted for titles published within the three years leading up to the submission.
8. *Ostour* carries a special section devoted to the examination of original documents, primary sources and manuscripts which are relevant to the journal's scope of interest. To the extent possible, publication of manuscripts/original documents follows the same standards and guidelines as research articles submitted to the paper. Before the publication of a text related to a manuscript can be considered,





Ostour: the Arab Journal for Historical Studies



Ostour is a peer-reviewed academic journal focused on the academic study of history (ISSN: 2305-2473). The first edition of this bi-annual journal was published by the Arab Center for Research and Policy Studies in January, 2015. *Ostour* is overseen by a specialist academic editorial board and an active international advisory board. Publication in *Ostour* and relations between authors and the editorial staff are all governed by a strict code of ethics. Review of submitted journal articles is overseen by a carefully selected list of approved reviewers who cover a broad range of academic specialisms and is governed by an internal set of by-laws.

The name of the journal draws on the archaic Arabic root *s-t-r* and also echoes, if only phonetically, the Greek and Latin *historia* and *Istorein* which have their contemporary cognates in today's *history*. In a similar fashion, *Ostour* seeks to establish a "new Arabic history", one which is rooted in an older tradition of Arabic historical writing and also builds to renew it.

In line with academic titles from across the globe, and in keeping with the standards set by the Arab Center for Research and Policy Studies across all of its journals, publication in *Ostour* follows a set of clear guidelines and procedures. Specifically, these include:

- ✿ Only original work which is drafted exclusively for publication within the journal will be accepted. No work which has been previously published fully or in part will be considered for publication in *Ostour*, except as part of an approved translation. Similarly, work which was previously presented at academic conferences will not be accepted for publication in the journal, with the exception of conferences hosted by the ACRPS.

- ✿ Submissions must be accompanied by the author's curriculum vitae (CV), in both Arabic and English versions.

- ✿ All submissions must include the following elements:

1. A title in both Arabic and English, as well as the author's correspondence information and institutional affiliation.



دعوة للكتابة

تدعو دورية **أُسْطُور** الأكاديميين والباحثين وسائر الكُتّاب المهتمين بالبحث التاريخي -المنفتح عن منهجيات العلوم الأخرى ومقارباتها بما فيها مقاربات العلوم الدقيقة- إلى الكتابة في صفحاتها. تقبل الدورية الأبحاث النظرية والتطبيقية المكتوبة باللغة العربية، وتفتح صفحاتها أيضًا لمراجعات الكتب ونشر النصوص والوثائق الدفينة. تخضع كل المواد التي تصل إلى **أُسْطُور** لتحكيم أكاديميين متخصصين. ولذلك تتوخى الدورية التزام المعايير الدولية المتعارف عليها. ويضمن هذا الالتزام تراكمًا علميًا جادًا وجودة المادة التي تصل إلى القراء. تهدف هذه الدورية إلى أن تكون طيّعة الفهم لدى المتخصصين وغير المتخصصين من القراء من دون التضحية برصانة المضمون.

ترسل كل الأوراق الموجهة إلى النشر باسم رئيس التحرير على العنوان الإلكتروني الخاص بالمجلة

ostour@dohainstitute.edu.qa

قسمة الاشتراك

OSTOUR
سُأْطُور

الاسم

العنوان البريدي

البريد الإلكتروني

عدد النسخ المطلوبة

طريقة الدفع ☐ تحويل بنكي ☐ شيك لأمر المركز



Invitation to Submit Papers

The editors of *Ostour* invite scholars from across all the disciplines and specializations of history to submit papers for consideration in future editions of the journal. *Ostour* publishes in Arabic across all fields of history. The journal also carries critical, incisive essays and book reviews as well as primary source materials. All submitted manuscripts will be subject to the same rigorous peer review process. The journal aims to advance historical knowledge and understanding for diverse audiences of professional historians and non-specialists alike while continuing to uphold its high academic standards.

All manuscripts submitted for publication should be addressed to the Editor-in-Chief by email to:
ostour@dohainstitute.org



عنوان الاشتراكات:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES
جادة الجنرال فؤاد شهاب - بناية الصيفي 174 - مار مارون
ص.ب: 11-4965 رياض الصلح 1107 2180 بيروت - لبنان
هاتف: +9611 991837/8/9
فاكس: +9611 991839
بريد إلكتروني: distribution@dohainstitute.org

عنوان التحويل البنكي:

Beneficiary: ARAB CENTER FOR RESEARCH AND POLICY STUDIES
Bank: SOCIETE GENERALE DE BANQUE AU LIBAN SAL
Branch: MAZRAA - AL MAMA STREET - SGBL BLDG.
BEIRUT - LEBANON
Swift: SGLILBXX
IBAN: LB63 0019 0001 1004 3696 6650 4023
Account No.: 011 004 369 666504 023

الاشتراكات السنوية

(عددان في السنة بما في ذلك أجور البريد المسجل)

للأفراد:

- 20 دولارًا في لبنان.
- 30 دولارًا في الدول العربية والأفريقية.
- 50 دولارًا في أوروبا.
- 60 دولارًا في القارة الأميركية.

للمؤسسات:

- 30 دولارًا في لبنان.
- 40 دولارًا في الدول العربية والأفريقية.
- 60 دولارًا في أوروبا.
- 80 دولارًا في القارة الأميركية.





Page of Shikasta Nasta'liq Calligraphy
with Floral Margins

Abd al-Majid Taleqani
Ink, Gold & Watercolor on Paper
1767.

صفحة من خط "شيكاسته نستعلیق"
ذات هوامش مزينة بزخارف نباتية
عبدالمجید طالقانی
حبر وذهب وألوان مائية على ورق
1767

Reference: The Art Institute of Chicago, Louise A. Lutz Estate, 2014.1012. Image Provided under Creative Commons Zero (CC0) Designation.

في هذا العدد

دراسات

يونس غاب
"كان بعشق الحقيقة": اعترافات مؤرخ شاهد على هزيمة فرنسا أمام القوات النازية

كلاسيكيات: أعمال مؤسسة

هاملتون جب
ترجمة: طاهر كنعان
إنجازات صلاح الدين الأيوبي
أحمد محمد شعير
هاملتون جب وأعماله عن الإسلام والحروب الصليبية بين مرآة الاستشراق والتاريخ

وثائق ونصوص

مؤيد مناري
وثائق عثمانية حول دار حسين باشا تونس في مدينة إستانبول

ندوة أسطور

سعاد أبو الروس سليم
أهمية منهجية التاريخ التسلسلي والكمي في كتابة تاريخ لبنان
خالد زيادة
التاريخ للمدن اللبنانية
سمون عبد المسيح
التاريخ المحلي في جبل لبنان في النصف الأول من القرن العشرين

أوديل مورو
من هدنة مودروس إلى مؤتمر لوزان: من السلام المفروض إلى السلام الخاضع لإعادة التفاوض

محمود حداد
معاني لوزان عند العرب والأتراك
إيلز بيث فـ: تومسون
إقصاء العرب في لوزان: منعطف تاريخي حاسم
محمد جمال بارتوت
عالي هامشي: مفاوضات لوزان- اتفاقية صلح عربي حجازي - تركي بعد فوات الأوان

وجيه كوثرياني
وثيقة تفريق السلطنة عن الخلافة "الخلافة وسلطنة الأمة": سياستها التاريخية وتداعياتها في الفكر العربي الإسلامي
عزهي أولجان
نهاية الخلافة العثمانية ومسلمو شبه القارة

ترجمات

فرانسوا دوس
ترجمة: أنس زيري
التاريخ والتحليل النفسي: جينالوجية علامة

مراجعات كتب

سيار الجميل
أثانوراك: سيرة حياته، إكلانوس كرايزر
مقلى المصري
وادي موسى والبترا في القرنين التاسع عشر والعشرين

سعر النسخة

قطر	30 ريالاً	العراق	5000 دينار	الجزائر	250 ديناراً
السعودية	30 ريالاً	تونس	5 دنانير	المغرب	30 درهماً
الإمارات	30 درهماً	سورية	200 ليرة	موريتانيا	700 أوقية
البحرين	3 دنانير	لبنان	300000 ليرة	ليبيا	5 دنانير
الكويت	ديناران	الأردن	ديناران	فلسطين	3 دولارات
عمان	3 ريالات	اليمن	400 ريال	الصومال	3500 شلن
مصر	20 جنيهات	السودان	20 جنيهات		

DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



ISSN 2410-0870



جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعهد الدوحة للدراسات العليا